

ISSN: 2321-7928

الرقم الدولي:

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

المجلد: 7 العدد: 3

يوليو - سبتمبر 2018م

العدد الخاص

عن حياة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى

(الجزء الثالث)

مدير التحرير

د. أورك زيب الأعظمي

المشارك في التحرير

د. هيفاء شاكري

نائب مدير التحرير

محمد عمران علي ملا

تصدر عن

مولانا آزاد أنيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست،

بولفور، بنغال الغربية

رقم البريد: 731235

الهيئة الاستشارية

أ. د. فيضان الله الفاروقي (الهند)	أ. د. بشري زيدان (مصر)
د. صالح البلوشي (عمان)	السيد محمد دأنش الأعظمي (البحرين)

هيئة التحرير

د. أوردنك زيب الأعظمي (مدير التحرير)	د. هيفاء شاكري (المشارك في التحرير)
د. محمد عمران علي ملا (نائب مدير التحرير)	د. محمد معتصم الأعظمي (عضو)

عنوان البريد الإلكتروني:

(1) aurang11zeb@yahoo.co.in

(2) azebazmi@gmail.com

موقع المجلة: www.azazmi.com

الاشتراك السنوي:

1000 روبية (للطلاب) 1500 روبية (للأساتذة)

في هذا العدد

الصفحة

7	د. أورنك زيب الأعظمي	الافتتاحية
		مقالات وبحوث:
17	أ.د. ظفر الإسلام الإصلاحي ترجمة: د. محمد فضل الله شريف	العلامة عبد الحميد الفراهي
34	- محمود عاصم	أساتذة المعلم عبد الحميد الفراهي
59	- العلامة أبو الحسن علي الحسيني الندوي ترجمة: د. محفوظ الرحمن	الكلمة الافتتاحية
68	- د. محمد فريد راوي بن عبد الله	الشيخ عبد الحميد الفراهي حياته وجهوده في مجال الدراسات القرآنية
95	- الشيخ جلال الدين أنصهر العمري ترجمة: أبو آدم فريد بن عبد الحفيظ الهندي	منهج تفسير العلامة عبد الحميد الفراهي
104	- البروفيسور احتشام أحمد الندوي	عبد الحميد الفراهي ونظريته في تفسير القرآن
108	أ.د. معين الدين الأعظمي	الفراهي والترابط الفكري في القرآن
122	أ.د. أحمد حسن فرحات	أثر نظام القرآن في بيان مقاصد الأسماء والصفات

العدد الخاص مجلة الهند

152	-د. حسن يشو	الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في خدمة القرآن وعلومه دراسة نظرية تحليلية تطبيقية
310	-الشيخ خالد مسعود ترجمة: محمد غلمان	مفهوم الحكمة عند الإمام الفراهي
319	-د. منظر عالم	مساهمة الإمام عبد الحميد الفراهي والشيخ محمد عبده في مجال التفسير: دراسة مقارنة
338	-أ.د. أبو سفيان الإصلاحي ترجمة: أبو سعد الإصلاحي	الراء التفسيرية للسير سيد أحمد خان والإمام الفراهي - دراسة مقارنة
371	-أ.د. سعود عالم القاسبي ترجمة: د. أورك زيب الأعظمي	آراء الإمام عبد الحميد الفراهي والشاه ولي الله الدهلوي عن المعجزات، دراسة مقارنة
391	-السيد مظفر حسين الغزالي ترجمة: د. زبيرة نيرة	النظرات التعليمية للعلامة عبد الحميد الفراهي
400	-د. محفوظ الرحمن	الشيخ عبد الحميد الفراهي وأسلوبه في تعليم اللغة العربية
412	-د. أبو ذر متين	الإمام عبد الحميد الفراهي نحوياً
427	-أبو الأعلى السيد بن محمد عناية الله	إسهامات عبد الحميد الفراهي في إعراب القرآن
444	-د. محمد أفضل الإصلاحي ترجمة: د. أورك زيب الأعظمي	دراسة الكتب السماوية والعلامة حميد الدين الفراهي
453	-د. محي الدين غازي	الإمام الفراهي الفقيه البارع كما يتجلى في كتابه "الرائع في أصول الشرائع"

العدد الخاص مجلة الهند

469	-أ.د. عبيد الله فهد الفلاحي ترجمة: عمر رضا	العلامة الفراهي ونظرية الإسلام في الحكم والخلافة
501	-أ.د. أحمد حسن فرحات	جمهرة البلاغة
540	-د. محمد أجمل الإصلاحي	المعلم عبد الحميد الفراهي وتفسيره "سورة الفيل" والتعقيب عليه
566	-الأستاذ نسيم ظهير الإصلاحي الغازي ترجمة: د. محمد معتصم الأعظمي	نظرة على الاعتراضات على سورة الفيل للإمام عبد الحميد الفراهي
588	-د. سيد عبد الباري ترجمة: د. هيفاء شاكري	العلامة الفراهي والشعر الشرقي
603	-فخر عالم بدر الدين الأعظمي ترجمة: مرزا نفيس بيگ	العلامة حميد الدين الفراهي وشعره العربي
612	-الميرزا إحسان أحمد ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	الشعر الفارسي للإمام عبد الحميد الفراهي
628	-عمار جاويد القسوري	أ إنسا نرى أم خلقاً جديداً
653	-د. أورنك زيب الأعظمي	الشيخ عبد السلام الفراهي (أحد تلاميذ الإمام الفراهي)
663	-أ.د. أبو سفيان الإصلاحي ترجمة: أبو سعد الإصلاحي	"ذكر فراهي" دراسة وتعريف
679	-الشيخ ضياء الدين الإصلاحي ترجمة: محمد شفاء الرحمن	تعليقات الشيخ عبد الحميد الفراهي على بعض رسائل العلامة ابن تيمية رحمه الله تعالى
705	-سيد رشيد رضا	نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان
707	-د. شكري فيصل	دلائل النظام

العدد الخاص مجلة الهند

715	- العلامة شبلي النعماني ترجمة: عبد الكريم	"نظم القرآن" و"جمهرة البلاغة" للشيخ حميد الدين الفراهي
727	- د. عبيد الرحمن طيب	"الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ" للإمام الفراهي: دراسة نقدية
742	- أبو أمانة الإصلاحي ترجمة: مشتاق عالم	"الدائرة الحميدية" بـمدرسة الإصلاح مؤسسة علمية للعلوم العربية

الافتتاحية

"الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930 م) المولود في قرية "فريها" (إحدى قرى محافظة أعظم كره) كان آية من آيات الله، رزق الله قلبه وعقله مواهب ممتازة فقد جمع في شخصيته من الصفات والبراعات ما يندر وجودها في رجل واحد. كان نموذجاً أفضل للجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، نموذجاً افتقد نظيره في عصره دع أن يكون في عصرنا، وقد أعاد إلى ذاكرتنا السلف الزكي ببساطته، وقناعاته، وإخلاصه لله، وتقواه، وشغفه بالطاعة، وانعزاله للشهرة. وإذا نظرنا إلى تضلعه في العلوم، وتفوقه في الاكتشافات العلمية فما نجد عالماً تناول مثل هذه المواضيع المتنوعة بهذا القدر من سعة الاطلاع، وعلو الكعب في الفن، ودقة النظر والاجتهاد. وإن كانت مشكلة للفلسفة أو بدعة الخيال عن الآداب العالية، أو قضية نحوية صعبة أو تدقيق النكت لفن البلاغة، سواء ناقش تحريفات التوراة والإنجيل أو تحدث عن دقائق اللغة العبرية فقد كانت كلماته موجزة حلوة، معالجاته ودراساته متينة ومترنة ودالة على علو الفكر والنظر، مقتصدة في المدح والغربال، بعيدة عن الإفراط والتفريط، أساليبه بسيطة مؤثرة يرسخ في القلوب ما يودّ بيانه. كانت مباحثه تحوي معاني جديدة لا تمل القارئ ولا يشبع منها الباحث.

ولو أنّ الإمام الفراهي كان متبحراً في العلوم، وجليلاً شأنه لغاية أدى حق موضوع أراد الحديث عنه، وعرض لآئي ودرراً للعلم والحكمة كأن هذا الموضوع اختصاصه ووقف حياته عليه، ولكن الواقع أنّ مجال اختصاصه كان القرآن الكريم حيث نشهد دقة نظره، وعمق فكره، وروعة بحثه كلّ في أوجها. فقد كان يحبّ كتاب الله الذي كان مركزاً لتفكيره، ومحوراً لكافة أشغاله وأفكاره، وقد وقف حياته كلها

على التدبر والتفكر في هذا الكتاب، وجعله هدف حياته؛ وكلّ علم وفن مهر فيه، وكلّ موضوع تحدث عنه لم يرد به سوى أن يمهد به السبيل إلى فهم القرآن، ويسهل به الوصول إلى معارفه وحكمه، فكان كل هذا لكي يسهل الطريق إلى هذا الهدف الأصلي ولم يرد به المهارة في هذه العلوم والفنون والموضوعات ويكأنها كانت وسيلة للوصول إلى هدف سامٍ وغاية عالية فلم يسع سوى له ولم يتقدم سوى إليه، وفوق ذلك أنّ النشاط وتوضيحية الذات والإخلاص الذي قدّمه لنيل هذا الهدف لا يمكن توفيقها إلا لخادم متفانٍ لكتاب الله العزيز.

وإن نحلل نشأة شخصية الإمام الفراهي يظهر لنا جلياً أنه كان مختلفاً عن لداته منذ صغره، وكان يمتلك موهبة متميزة ثم أنعم الله عليه بأن وهبه فرصاً تتوالى لتنشئة مواهبه الفطرية وصقلها صقلاً مثاليّاً؛ فقد حفظ القرآن الكريم وكان ابن عشر سنوات، ولم يتجاوز إحدى عشرة سنة من عمره إذ أصبح صاحب ذوق للغة الفارسية وآدابها. ولما أكمل من عمره عشرين سنة أصبح فارغاً من نيل العربية وآدابها والعلوم الإسلامية. والأساتذة الكبار الذين تلقى عليهم هذه العلوم أبرزهم ابن عمته شيخ الإسلام شبلي النعماني الذي قد لعب دوراً ريادياً في إبراز مواهبه الخفية، وأطلعه بالعلوم العالية، ثم تأتي أسماء الشيخ محمد فاروق التشرىاكوتي، والشيخ عبد الحي الفرنغي محلي، والشيخ فيض الحسن السهارنفوري الذين كانوا من جلة علماء زمانهم.

ولكنما خصّ له الرب الجليل من الخدمة المتميزة لم يكفها هذا القدر من الاستعداد فقد وجب لخدمة القرآن الكريم وعلومه في عصرنا الحاضر أن يمهر في العلوم الجديدة والفلسفة والاتجاهات المعاصرة بدلاً من العثور عليها. والواقع أن الغرب قد بلغوا أوجهم في مجال العلم والتحقيق خلال القرون الماضية فلم يمكن لعالم أن يفرس الدهر بدون معرفته، ولا أن يعامل مع المعاصرين غير إمامه بأساليبهم ومستواهم العلمي والعقلي. ولقد ازدادت رغبة الغرب في مختلف

موضوعات الإسلام وعلومه في القرون السالفة لاسيما القرن التاسع عشر الميلادي نظراً لفوائدهم ومصالحهم الاستعمارية، وكلما بلغ القرن التاسع عشر نهايته قد سمع دويّ تحقيقاتهم هذه عن العلوم الإسلامية في كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي. ولكن هذه التحقيقات كان معظمها عدائياً ولم تهدف سوى أن تضعّف المسلمين فكراً واتجاهاً، ولقد استظلّوا في ظل المصطلحات الرائعة للعلم والتحقيق، وعمّموا الكذب والمكر، وبعد أن انهزم المسلمون على الجبهة السياسية والعسكرية أصبح جيلهم الجديد الذي قد نشأ على المنهاج الدراسي الغربي أصبح عرضة لهجومهم الفكري. وكانت حمايتهم عنه واجباً دينياً وملياً، ولكن لم يكن بدّ من الإمام بها قبل أن يقوم أحدٌ لكشف القناع عنها ----- ولقد وفق الله جلّ جلاله إمامنا الفراهي لأن يقوم بأداء هذا الواجب الملي العظيم.

فلما برع الإمام الفراهي في العلوم الإسلامية توجّه نحو العلوم الجديدة. ولو أن هذه المرحلة من حياته تحتوي على مدة عشر سنوات من 1985م إلى 1995م ولكن الفترة من 1991م إلى 1995م تعتبر مهمة جداً حينما أقام الفراهي بعلي كره لهذا الهدف. فتحتل هذه الفترة أهمية كبرى في حياته وذلك لأنه لما وصل إلى علي كره قد بلغ من علمه وعقله درجة لم يخف عليه أن يتأثر بآثار علوم الغرب وحضارتها السلبية. وبصفتها مركزاً لحركة متنامية كانت علي كره محلاً لحماس ونشاط الحياة فكان يريدها الشباب المؤهلون والمتحمسون من كل أنحاء البلاد، وكان الكل يطوي بين جنبه أمنية ليصبح شيئاً مذكوراً، أو ليفوز بأمر عظيم، أو لينجز ما يبهت الآخرين. وكان الكل منقطعاً إلى ما تمنى، ومشغولاً بما اهتم به، فكانت علي كره في تلك الفترة تبدو مدينة للأحلام حيث يتحول المستبعد إلى الممكن. فتخيّل تلك الجلسة العلمية التي كان يرأسها السير سيد ذاته، ويجلس عن يمينه العلامة شبلي، ويجلس عن شماله الماهر في فلسفة الغرب الفلسفي المحقق الشاب البروفيسور آرنولد، ويصطف له العلماء والحكماء الهنود فتخيّل

تلك البيئة المشرفة على العلم والحكمة، فلو وفق لهذه البيئة شاب مثقف كمثل الإمام الفراهي الذي قد اعترف بفضله ومهارته في العلوم الشرقية السير سيد ذاته فلم يعفه عن تعلم اللغة العربية والفارسية فحسب بل طلب منه أن ينقل كتابين إلى الفارسية قرّهما في كتب المنهاج الدراسي في إمكانك أن تقدر نجاحه في الغاية التي توخّاها لرحلته إلى علي كره.

وعلى هذا فتحتل علي كره مكاناً عالياً في رحلة الفراهي العلمية والعقلية؛ ولم يعرف بها العلوم الجديدة فحسب بل تعرف في رحابها على الأسلوب الجديد والتحقيق الحديث. مهر بها في اللغة الإنجليزية، وتذوق الفلسفة الجديدة، وتعلّم اللغة العبرية. وقام بهذا كله حينما كانت هذه العلوم والفنون محرمة على علماء الإسلام في الهند. وما لعبته هذه العناصر من الدور في تكوين شخصية الفراهي العلمية لا يخفى على العلماء والباحثين. وكذا لا يخفى عليهم ما قامت به علي كره أصلاً من تلبية ما احتيج إليها من الأسباب لإثارة الحركة العلمية والفكرية والإصلاحية التي سعدت بها شخصية الإمام الفراهي، ولما يقيم أحدٌ باستعراض تأثير علي كره في شخصية الفراهي. وعلى كل حال لا نجد أحداً يضاهي شخصية الإمام الفراهي الجامعة بين القديم والجديد من العلوم. ولقد قام طلاب علي كره بما قاموا به من الإنجازات العلمية العظيمة في مجال العلوم القديمة، وكان لهم نصيب وافر في تنشئة مسلمي شبه القارة العلمية والفكرية. ولكن هذا من الواقع أن طالباً من طلاب علي كره لم يحتل منصباً علمياً عظيماً في مجال العلوم الإسلامية مما ناله الإمام الفراهي.

وبدأ الإمام الفراهي يدرس القرآن ويتدبر آياته منذ أن التحق بكلية علي كره، ثم انقطع إليه، وجعله مقصد حياته. فوقف حياته الباقية الممتدة لأربعين سنة على القرآن الكريم، بحيث جعله مركزاً لكافة أنشطته ومساعيه، وحاول جهده أن يخرج منه لآلئ معارفه وحكمه، ويتدبر آياته، ويفهم معانيه، فقبل الله شغفه

بالقرآن، وميله إليه، وتفكره فيه، وأسبغ عليه نعمه الخاصة، ومهد له السبيل إلى فهم كتابه العزيز، ووفقه لاكتشاف وتدوين الأصول التي تهدي إلى فهم هذا الكتاب المعجز، وقد ترأسها فلسفته لنظام القرآن التي قال بها المتقدمون وألفوا الكتب والرسائل فيها. وقد اعترف الإمام الفراهي بفضل تقدمهم في هذا المجال في مقدمة تفسيره، ولكنه زاد هذه الفلسفة تأييداً وتعريضاً، وجعل هذا المبني صرحاً شامخاً؛ جعل هذه الفكرة فناً مستقلاً، وأثبتها بكتاب من عنده و"ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ".

لم يسبق الإمام الفراهي أحدٌ قدّم القرآن الكريم ككتاب منظم ترتبط كل آياته بما قبلها وما بعدها، وتنتظم كل سورة بسابقتها ولاحقتها. فلم يكن الفراهي يقول بالمناسبة في القرآن كمن سبقه من المفسرين بل كان يوسّع في معنى النظم مما يعني أنّ القرآن كتاب منظم في تراكيبه، ومعانيه، وموضوعاته. وكما أثبت الفراهي هذه الحقيقة بدلائل عقلية ونقلية قوية جداً فكذلك عالجهما في تفسير مختلف السور، فوضع لكل سورة عموداً (موضوعاً مركزيًا)، وأخضع له آياتها المنظمة بحيث لو نزعنا منها وإن آية منها لاختل نظام السورة كلها، وكذا بين ربط مختلف سور القرآن بسابقتها ولاحقتها كما أثبت أنّ النظم جزء من الكلام، وإن أغمضنا عنه فالتنا جزء مهم من معناه. وهكذا إن التركيب شيء زائد على المعنى لا يوجد في أجزائه المتفرقة -- وإن حرم أحد فهم النظام فهذا يعني أنه فاتته حقيقة كبرى للكلام.

فيرى الفراهي أنّ نظم القرآن هو المفتاح الرائد لفهمه، ولا يمكن الوصول إلى معارفه وحكمه إلا به. والإعراض عنه قد تسبّب في وجود الاختلافات الكبيرة في تأويل آياته وسوره، فإن معظم اختلافات التأويل ينتجها الإغماض عن نظم القرآن. فلو ظهر لهم نظم الكلام، واتضح لهم عمود السورة لما وقع اختلاف في التأويل ولاجتمع الكل تحت راية واحدة، ولارتفع صوت واحد من أفواه الكل. وفي جانب آخر وجدت من جرائه أسبابٌ عديدةٌ لاختلاف الأمة وتفرقها وعداوتها،

فعسى أن تكون العداوة التي قد عمّت المسلمين نتيجة أنه لما أغمضنا أعيننا عن نظم القرآن أغمضنا عن جزء مهم من القرآن فالسبيل إلى النجاة من هذه المشاكل هو أن نتمسك بنظم القرآن بشدة.

لقد قرأ الفراهي التاريخ بإمعان، وحلّل بدقة أسباب وعلل تقدّم المسلمين وتخلّفهم، وفوق ذلك أن الله قد وهبه، لرغبته في القرآن وتدبره المتواصل، وهبه الله تعالى بصيرة خاصة ولذا قد وصل الإمام الفراهي إلى أنّ الحل الوحيد لإنقاذ المسلمين من هذا الذل والهوان أن يرجع المسلمون إلى أصلهم الأول المتين، ولا يشوبهم جانب من العصبية والبغضاء. ولهذا الهدف المبارك وضع الإمام الفراهي مشروعاً لحركة عظيمة للفكر والعلم والإصلاح ثم رسم خطة شاملة لهذا المشروع. لم يكن هذا مشروعاً فكرياً وعلمياً فحسب بل كان محاولة عظيمة مثيرة لإصلاح الأمة، وكانت هذه الحركة مركبة من ثلاثة مكونات لها قيمتها وأهميتها الخاصة بها.

وفي هذا الصدد أول عمل وأهمّه كان يريد الفراهي إنجازه هو أن يؤلف تفسيراً لكتاب الله في ضوء الأصول والمبادئ التي وقّعه الله لاكتشافها وتدوينها، فإن أصل معظم مساوئ المسلمين هو ابتعادهم عن القرآن، وضعف علاقتهم به. فوجب عليهم أن يهدوا إلى صحيح فهم القرآن، وأن يحاول لحل مشاكل هذا السبيل، ولقد وضع نظم القرآن أصلاً لهذا التفسير لا يمكن بدونه الوصول إلى صحيح معنى القرآن كما يرى. ولو أنه لم يمهل أن يؤلف تفسيراً كاملاً على منهجه الخاص، ولكنه كتب تفسير بعض سورته فأحقّ به فلسفته هذه، علاوة على ذلك كتاباته الأخرى تكفي لإثبات حقيقة هذا المنهج وأهميته في فهم معنى القرآن الصحيح. والآن وقد نشر تفسير "تدبر قرآن" (بالتردوية) قد ظهر للعالم أنموذج جميل لهذا المنهج العلمي لاسيما نظم القرآن الكريم.

والمكون الثاني لهذه الحركة العلمية والإصلاحية هو تطهير العلوم وتشكيلها من جديد فقد بلغت بصيرته الموهوبة أنّ السبب الكبير لزوال الأمة الخلقية والفكرية

تلك العناصر الحضارية غير الإسلامية التي قد تسَلَّلت إلى تيارات المسلمين الفكرية عبر عهودهم المختلفة فلقد كانت هذه العناصر غير الإسلامية المتسللة في الفكر الإسلامي مسؤولة عن العديد من القضايا والنظريات التي كانت الملة الإسلامية تعانيها. كانت هذه العملية تجري منذ زمان، ولقد اختلطت هذه العناصر بالفكر الإسلامي عبر عهودها المختلفة بحيث أنها يصعب تمييزها، وكانت مضرّة للغاية بالجسد الملي، ولن يمكن لوضع دائم مستقل لإصلاح الأحوال أن يبرز إلى حيز الوجود قبل النجاة من هذه العناصر. فقد كان من الضروري أن يبني الفكر الإسلامي من جديد على أسسه الصحيحة، وأن نرفع هذا الصرح الفكري على أساس من القرآن خالص. كان هذا مشروعاً مهماً في الواقع، والحقيقة أنه كان بحاجة إلى العديد من المجامع بجانب الأسباب المناسبة لها فلو لم يجد الإمام الفراهي أن يكمل هذا المشروع ولكنه قد أتمّ العديد من الأمور الأساسية المتعلقة به التي أُلقت ضوءاً فائضاً على مختلف جوانب هذا المشروع. فالكتب مثل "جمهرة البلاغة" و"مفردات القرآن" و"في ملكوت الله" و"القائد إلى عيون العقائد" التي قد تم طبعها كانت مثل خطوات متقدمة ناجحة في هذا الاتجاه، ويمكن بها أن نقدر شيئاً هذا المشروع وأهميته الكبرى في منظور تشكيل العلوم الإسلامية الجديد، وعلاوة على ذلك أنه خلف كتباً عديدة غير تامة في مختلف موضوعات هذا المشروع يمكن بها تقدير مدى سعة مشروعه في هذا الشأن. وكم كان هذا المشروع مهماً لديه بشأن إصلاح الأمة. وما نشهد اليوم من ضجيج وغوغاء عن تطهير وتشكيل العلوم على الأسس الإسلامية في مختلف جوانب الحياة قد شعر الإمام الفراهي بالحاجة الشديدة إليه قبل اليوم بمئة سنة ولا شك في أنه كان أول عالم مسلم شعر بشدة الحاجة إلى تحرير المجتمع الإسلامي من السلطة الفكرية غير الإسلامية على هذا المستوى وبهذا الاتجاه، وقام بقدر ملموس من الأعمال الجوهرية في هذا الصدد. هذا دليل قوي على بصيرته ونبوغه، والآن نحن في حاجة إلى تقدير إنجازات الفراهي في هذا الأمر، وأن نلفت الأنظار إلى إتمام ما تركه غير تام.

والجزء الثالث النهائي لهذه الحركة الثورية كان هو إصلاح المنهج الدراسي السائد في مدارس الهند، ووضعه على الخطوط الجديدة. فقد حاول الإمام أصلاً وضع المنهاج الدراسي الديني بحيث أن لا تمس الأصول، ولا تقوم الفروع مقامها، وهذا يعني بصراحة أن يوضع القرآن موضع الأصل في هذه الخطة التعليمية المقترحة وأن تتبع جميع العلوم الأخرى لهذا الأصل. وقد كان من حسن حظ مدرسة الإصلاح أن الإمام الفراهي قد اختارها لتجسيد فكرته هذه. تأسست هذه المدرسة في 1908م تحت إشراف حركة إصلاحية تسمى "أنجمن إصلاح المسلمين". أقيمت هذه الحركة لإصلاح مسلمي هذه الديار الديني والاجتماعي، وكان الفراهي منتسباً إلى هذه الحركة منذ يوم تأسيسها ثم جعل مديراً في 1916م، وأدى هذه المسؤولية لسنوات وهو مقيم في حيدرآباد. ولكنه أخيراً استقال عنها في 1919م، وانقطع لهذه المدرسة فبقي مديراً للعام 1930م عام وفاته. فقام الإمام الفراهي بإعداد خططها التعليمية، وعيّن أهدافها ومراميها، ووضع منهاجها التعليمي، ودرّب مختاراً من أساتذتها ليدرّسوا العلوم والفنون حسب رضاه، وعلمهم طريق تدبر القرآن والتفكير فيه. فقد أنفق عقداً من عمره العزيز لتطوير هذه المدرسة، ووضعها في قالب فكرته الخاصة، فالمدرسة اليوم نموذج حي لأفكاره التعليمية. ولندرس منهاجها الدراسي والتربوي لفهم سياسة الإمام التعليمية فهماً شاملاً، لأن هذه المدرسة بدء لحركة إصلاح المنهاج الدراسي هذه ونموذج جميل لها.

ونودّ أن نوجز فيما يلي ما أراد الإمام الفراهي من الأهداف والمرامي لمنهاج هذه المدرسة التعليمي والتربوي، وهذا لكي نقدّر أسلوب ومستوى تطورها. فقد أراد الفراهي أن منهاجها التعليمي يدرس القرآن فيه بالبحث والتحقيق، ثم يركز على الحديث والفقه، ويخرج ما لا يحتاج إليه من كتب المنطق والفلسفة والكلام، ويملاً هذا الفراغ بتدريس الأدب العربي، ويركز على المواهب والجدارات لا الكتب المقررة المعدودة ما عدا القرآن ومتون الحديث، وأن يكون تدريس الحديث بعيداً

عن العصبية، ولا يدرس في الفقه سوى الفقه الإسلامي لتتسع عقول الطلاب ولا تضيق قلوبهم، وأن يعلم النحو العربي عملاً. وأما الفنون فلنضع أمامنا أمهات الفن، وندرس أصوله مع أي فن، ويفضل أسلوب المحاضرات حين التدريس، وتدرس اللغة الإنجليزية قدرما يحتاج إليها، وإذا أتاحت الفرصة مزيداً فليعلم الطلاب الصناعات لكسب المعاش. وتكون فترة التعليم قليلة، ويكون التعليم رخيصاً. ينبغي أن تكون هذه المدرسة مركزاً لمختلف فرق ومذاهب أهل السنة والجماعة، فيتعايش هنا الحنفي والسلفي، ويدرس الندوي والديوبندي معاً، وليكونوا متحدّين على الرغم من اختلافهم في الجزئيات، وليمحووا اختلافات المسلمين اللايعنية المتواجدة بينهم. لتدار هذه المدرسة بتبرعات المسلمين فقط، وأن تبعد عن أي أثر حكومي، لأن الحرية والمحافظة على الروح الدينية هما أصلان لهذه المدرسة. وعلاوة على تلك فقد كانت القناعة والبساطة من ميزات هذه المدرسة. والحمد لله أن هذه المدرسة تواظب على ما وضعه الإمام الفراهي من منهاجها الدراسي متصدية لكافة المشاكل وموطأة جميع العراقيين.... هذه هي الخطة التي وضعها الإمام الفراهي لنهضة المسلمين الدينية والفكرية والعملية، ولقد وفق أن يعمل عليها قدر ما استطاع. وأن هذه الحركة الإصلاحية قد تركت آثارها البعيدة في كافة أنحاء شبه القارة، ولكنها تحتاج إلى أن نعمل عليها بصورة منتظمة لكي تثمر هذه الشجرة التي غرسها الإمام الفراهي، ولقد آتت أكلها ولو قليلاً طوال عمرها الممتد لثلاثين سنة أو أكثر.¹

بدأنا إصدار هذا العدد الخاص لهذا الهدف المبارك، ونرجو من العلماء والباحثين أنهم قد عرفوا شخصية الإمام الفراهي، وتعرفوا على أعماله العلمية المطبوعة

¹ مقتبس مترجم من الخطاب الترحيبي الذي ألقاه الأستاذ اشتياق أحمد الظلي في الندوة الدولية حول سيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي المنعقدة في شهر أكتوبر سنة 1991م في رحاب مدرسة الإصلاح بسرائ مير (أعظم كره، الهند)

العدد الخاص مجلة الهند

وغير المطبوعة، فالآن ندعوهم ليسيروا على تلك الخطّة التي وضعها الإمام
الفراهي لمشروعه الرائع للإصلاح الديني والفكري والعملي لمسلمي الهند خاصة
ولمسلمي العالم عامة.

د. أورك زيب الأعظمي

العلامة عبد الحميد الفراهي

-د. ظفر الإسلام الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. محمد فضل الله شريف²

كانت شخصية العلامة عبد الحميد الفراهي متعددة الجهات، وكان بارعاً في مختلف العلوم والفنون، فقد ترك آثاره القيمة في مختلف المجالات مثل ترجمة معاني القرآن الكريم، وتفسيره، والأدب العربي والفارسي، واللغة الإنجليزية، وعلم الكلام والفلسفة، والتعليم والتربية، لكن الجانب المهم من شخصيته كان شغفه بالقرآن الكريم، وعلومه، واشتغل خاصة بدراسة القرآن والتفكير فيه، وجعل كافة أنشطته العلمية تدور حول كتاب الله العزيز، ويلقي الضوء على هذا الجانب من شخصيته ما يلي من كلمات العلامة سيد سليمان الندوي أحد معاصريه الممتازين والمستفيدين من جلسات شبلي العلمية والأدبية:

"كان ذلك الرجل الكبير شغل نفسه بفهم القرآن والتفكير والتدبر فيه، وانقطع إلى تعليمه وتعلمه، زاهداً عن كل شيء ومعرضاً عن كل أمر لحوالي ثلاثين سنة"³. كانت رغبته الشديدة في القرآن تتجلى في تصوره التعليقي بأن القرآن الكريم هو العلم الأصلي، لذا نجعل معرفة القرآن الكريم الهدف والغاية، ونعتبر العلوم الأخرى الوسائل والأسباب لهذه المعرفة، ونستخدمها لنشر العلوم المستفادة من القرآن الكريم.⁴

¹ بروفييسور متقاعد من قسم الدراسات الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره
² أستاذ مساعد، كلية ايه كيه ايم الشرقية، (التابعة بالجامعة العثمانية) غاتشي غوره حيدر آباد
³ مجلة "معارف" الشهرية الصادرة عن دار المصنفين بأعظم كره (الهند)، 323/5/26
⁴ تفسير نظام القرآن (مقدمة)، ترجمة: الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سراء مير، أعظم جراه، 1990م، ص 43-44.

ولد العلامة الفراهي في 18/ نوفمبر عام 1863م¹ في قرية "بهرها" إحدى قرى محافظة أعظم كره المشهورة، ويعرف عن نسبته "الفراهي" بأنها معربة لاسم قريته "بهرها" وهي تشير إلى مولده وموطنه، ولكن طبقاً لتحقيق جديد أنها نسبة إلى "فراه" قرية في أفغانستان، من حيث ارتحلت أسرته إلى الهند.²

وكان الفراهي ينتهي إلى أسرة مثقفة كريمة، فكان والده المولوي عبد الكريم يتعرف على العلوم الجديدة بجانب معرفته للعلوم الإسلامية، وكان حامل شهادة الليسانس في القانون، وكان له مكتبة خاصة، تدل على أن أسرته تحب العلم والعلماء، وكان العلامة شبلي ابن عمه العلامة الفراهي، وأستاذه الشفوق والحنون، ولا يكون غير ملائم إذا ذكرنا هنا أن العلامة شبلي لعب دوراً مهماً دون الآخرين في تنشئة الفراهي وتعليمه وثقافته. استفاد الفراهي في كلا المجالين للتعليم القديم والجديد، فكما أتم المقررات الدراسية الإسلامية، فكذلك تعلم على المنهج التعليمي الإنجليزي، وبعدما أنهى قراءة القرآن الكريم وحفظه تعلم مبادئ اللغة الفارسية على المولوي محمد مهدي الجتاوري، ثم أتمها على العلامة شبلي كما تعلم عليه اللغة العربية وآدابها، والعلوم الإسلامية. وخلال تلك الفترة تمتع من جلسات أستاذ العلامة شبلي الشيخ محمد فاروق الجرياكوتي العلمية والأدبية التي صقلت مواهبه. وبعد أن نهل من هذه المناهل المحلية تحمّل مشاق السفر على عادة السلف لينال المزيد من العلوم والفنون فحضر دروس العلامة عبد الحي اللكنائي الفرغني محلي لمدة قصيرة، واستفاد منه الفقه وأصوله خاصة،³ ثم سافر إلى لاهور حيث حصل على التعليم النهائي للأدب العربي على العلامة فيض الحسن السهارنفوري. تنتهي هنا رحلته التعليمية وهي سنة 1883م. ثم التفت إلى العلوم الجديدة، فبدأ

¹ ولد العلامة الفراهي صباح يوم الأربعاء السادس من جمادى الآخرة 1280هـ

² مجلة "علوم القرآن" نصف السنوية، 125-124/1/1

³ نزهة الخواطر (الإعلام بمن في الهند من الأعلام)، 365-364/8

يتعلم اللغة الإنجليزية، وفي هذا العصر كان تعلم اللغة الإنجليزية يعتبر كفراً كما يقول العلامة سيد سليمان الندوي.¹ وبعدما شدا منها قطع أشواطه التعليمية، من بداية التعليم إلى الثانوية بمدرسة كرنل غنج بإله باد، ثم توجه في 1819م نحو علي جراه لإتمام مراحل التعليم المتقدمة. فالتحق بالبيكالوريوس، وكان العلامة شبلي آنذاك من أعضاء الهيئة التعليمية في تلك الكلية، فهيات له الفرصة لحصول العلوم والفنون على طريقة رسمية وغير رسمية كذلك، إنه شغل نفسه خاصة من بين المقررات الدراسية بتعلم اللغة الإنجليزية والفلسفة الجديدة، وكان يضم أعضاء هيئة التدريس في الكلية آنذاك العالم الكبير في الفلسفة والمستشرق المشهور البروفيسور آرنلد، فاستفاد منه الفراهي كثيراً، وتنص المصادر على أنه نما فيه ذوق الفلسفة من أجل البروفيسور آرنلد ومحاضراته.²

قد أنهى العلامة الفراهي البكالوريوس في 1895م وفي تلك الفترة كانت الكلية ملحقة بجامعة إله آباد، وكانت كافة واجبات الامتحان تؤدي من هناك، ولذا يقال أنه قد حصل على شهادة البكالوريوس من جامعة إله آباد، وبعد ذلك كان يودّ الفراهي أن يلتحق بالمجستير، كما كان يودّ أن يؤدي اختبار البكالوريوس في القانون، وقد أنفق في ذلك سنتين، ولكنه لم يكتب له أداء أي من الامتحانين. وهكذا انقطعت سلسلة التعليم الجديد في عام 1897م، وقد جعلت تبرز مواهبه العلمية عندما كان طالباً في كلية علي جراه، من ذكريات تلك الفترة ترجمة فارسية لرسالة "تاريخ بدء الإسلام" للعلامة شبلي، وبعض الأجزاء المختارة من كتاب طبقات ابن سعد، فطُبعت هذه الكتب ووضعت في مقررات الكلية الدراسية،³ ومن إنجازاته الأولية

¹ مجلة "معارف" المصدر السابق، 10/1/27

² مختصر حيات حميد، ص 5

³ راجع للاستعراض الجامع لهاتين الرسالتين: مجلة "فكر ونظر" الصادرة عن إسلام آباد،

باكستان، 44-26/12/18

في اللغة العربية قصيدة التهنئة التي أنشدها عام 1894م في حفلة ترحيبية عقدتها لجنة الأدب للكلية عندما منح العلامة شبلي لقب "شمس العلماء"،¹ وعلاوة على ذلك أنه بدأ يفكر في القرآن الكريم منذ تعلمه في علي جراه، كما صرح بذلك في مقدمة تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".²

بعد الفراغ من نيل العلوم بدأ حياته العملية من مدرسة الإسلام بكراتشي حيث عين أستاذًا للغة العربية عام 1897م، فأقام هناك إلى عام 1907م، فعكف بجانب مهامه التدريسية على التأليف والتصنيف، ففي 1903م طبعت أول مجموعة شعره باسم "ديوان حميد"، وفي هذه الفترة انتهى من تأليف تفسير سورة القيامة، وسورة الشمس، وسورة أبي لهب، وكتابه "جمهرة البلاغة"، وقد ألف الإمام الفراهي رسالة موجزة بعنوان "أقسام القرآن" قبل تأليف "إمعان في أقسام القرآن". وقد صرح الدكتور شرف الدين بأن هذه الرسالة ألّفت خلال إقامته بكراتشي.³

وبتدئ عهده الثاني في علي جراه من فبراير عام 1907م كأستاذ مساعد في كلية ايم ايه أو، وقد ابتدئ تعليم العربية في مرحلة الماجستير تحت الدعم الحكومي الخاص، ولذا عين العالم الألماني المشهور جوزف هارويز كبروفيسور ورئيس لهذا القسم،⁴ وأما العلامة الفراهي فتم تعيينه كأستاذ مساعد. وبجانب المهام الأخرى انتهز الفراهي هذه الفرصة فتعلّم اللغة العبرية على البروفيسور هارويز كما تعلّم عليه هارويز اللغة العربية، فأقام الفراهي بها إلى مايو عام 1908م، لا نجد أي خبر لإنهاء كتاب له ولا نشر أي أثر علمي له أثناء هذه الفترة، ولكن العلامة سيد

¹ هذه القصيدة بكاملها موجودة في "حيات شبلي"، دار المصنفين، أعظم جراه، 1970م، ص 249، 251، كما توجد في ديوانه، راجع: ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، 1947م، ص 29-30

² تفسير نظام القرآن (مقدمة)، ص 20

³ مجلة "معارف"، المصدر السابق، ص 95

⁴ راجع لحياته وأعماله: مجلة "فكر ونظر" الصادرة عن علي جراه (عددتها الخاص عن أعمال علي كره، الجزء الثاني)، 1991م، ص 21-42

سليمان الندوي ينسب تأليف رسالة " أقسام القرآن " إلى هذه الفترة.¹ ولكنه لا يصح، كما سبق، حسب صراحة الدكتور شريف الدين الإصلاحي. ويذكر أهل بيت الفراهي أنه ألّف رسالتين في النحو والصرف لأولاده خلال إقامته في علي جراه، فطبعتا بعد باسم "أسباق النحو" و"أسباق الصرف"، ولقيتا قبولاً عاماً² ثم انتقل الفراهي من علي جراه إلى إله آباد عام 1908م، حيث احتل منصب البروفيسور للغة العربية في كلية ميور إلى عام 1914م، فشغل نفسه بالتأليف والكتابة بجانب الأعمال التدريسية، وإتمام تفسير سورة التحريم ونشره وبداية الترجمة الفارسية المنظومة لنصائح سليمان باسم "خردنامه" من ذكريات هذه الفترة، وخلال هذه الفترة طبع استعراض العلامة رشيد رضا لبعض أجزاء تفسيره، وفي هذه المدة عيّن الفراهي عضواً للجنة العربية للعلوم الشرقية، وعضواً للجنة الامتحانات العربية والفارسية والأردية والهندية، وهكذا عيّن الفراهي عميداً لدار العلوم بحيدرآباد في هذه الفترة، فانتقل من هنا إلى حيدرآباد على أمر من حكومة أوترا براديش في يونيو عام 1914م، فمكث هناك إلى عام 1908م، كما تحمل أعباء العمادة للكلية فاشتغل بالتدريس والتأليف، فعني بتدريس العلوم الجديدة في مدرسة دار العلوم خلال عمادة العلامة الفراهي، والأهم من ذلك أنه قدّم في هذه الفترة مقترحاً للحكومة بأن تعلّم العلوم والفنون الجديدة في اللغة الأردية، وكان يرى أن تقرر اللغة الأردية كوسيلة لتدريس العلوم الأخرى بجانب العلوم الدينية. وخلفية هذا القرار هي أن حكومة حيدرآباد أرادت أن تطوّر دار العلوم إلى الجامعة الشرقية تحت رعايتها، وقد كانوا يرسمون لها خطة، فأعدّ الفراهي خطة العمل لذلك وقدمها إلى المسؤولين عن الشؤون التعليمية، وطبقاً لما اشتهر من الأخبار أن الجامعة العثمانية قد برزت إلى حيز

¹ ياد رفتگان، دار المصنفين، 1986م، ص 119

² مجلة "معارف"، المصدر السابق، ص 95-96

الوجود على تلك الخطة.¹ وكذا تم تعيينه خلال إقامته بحيدرآباد عضوًا للجنة التشريعية للمكتبة الأصفية ورئيسًا لمجلس امتحانات الألسنة الشرقية. ومن كتبه ورسائله التي طبعت خلال هذه الفترة "خرد نامه" و"أسباق النحو" و"أسباق الصرف"، وكذا قام بتدوين ديوان أستاذه العلامة فيض الحسن السهارنفوري وطبعه على نفقته، ومن ذكريات هذه الأيام "الرأي الصحيح في من هو الذبيح" كما بدأ بإعادة النظر في ترجمة القرآن الإنجليزية للنواب عماد الملك سيد حسين البلغرامي خلال إقامته بهذه المدينة، ولكن هذا العمل لم يتم.

استقال العلامة الفراهي عن منصبه في حيدرآباد وغادرها لوطنه في أغسطس 1919م، ولزمه حتى وفاته خادماً لمدرسة الإصلاح في سرائ مير بأعظم جراه، ولقد خدمها بحيث اشتهرت المدرسة باسمه، وكان الفراهي منسلماً بهذه المدرسة منذ تأسيسها، ثم جاء تعيينه مديراً للمدرسة عام 1919م، فقد هيأت له الفرصة لتحمل هذه المسؤوليات، وكانت خدمات العلامة الفراهي جلية في تطوير هذه المدرسة حسب أفكاره وأخيلته السامية بأن يجعل القرآن الكريم مركزاً لنشاطاتها التعليمية. من مآثره وخدماته في المدرسة خلال إقامته بها أنه أقام بيئة قرآنية في المدرسة، وأنشأ في الطلاب ذوقاً لفهم القرآن، وأعدّ من تلاميذه جماعة ممن قام بترويج ونشر فكرته الممتازة، فأصبحوا فيما بعد شراحين وممثلين لفكرة الفراهي، ومن أبرز هؤلاء التلاميذ الشيخ اختر أحسن الإصلاحي، والشيخ أمين أحسن الإصلاحي، فالأول قام بترويج منهجه التعليمي، وإعادة النظر في كتبه المخطوطة وتدوينها وترتيبها، وإعادة النظر في أجزاءه التفسيرية،² كما أصبح التلميذ الآخر شارحاً ومترجماً لأفكار الفراهي آنذاك.

¹ حيات شبلي، : 505، مكاتيب گیلانی، ترتیب: مولانا منت اللہ رحمانی، دار الإذاعة رحمانی، مونگیرن ص 293، 294، 369.

² راجع لسيرة وأعمال الشيخ اختر أحسن الإصلاحي: "شيدائ قرآن" الصادرة عن مكتبة ذكرى، رامفور، 1981م

وفي عام 1927ء أدى الفراهي حج بيت الله الحرام، فلقي ممن لقي من العلماء في الحجاز العلامة تقي الدين الهلالي، والشيخ عبيد الله السندي، فلما عاد من الحج اشتغل بخدمة المدرسة وتأليف الكتب، حتى توفي في 11 نوفمبر عام 1920م في "مأثورا" بعيداً عن مسقط رأسه، ودفن بها.¹

ومن ذكريات العلامة الفراهي العلمية، مركز البحث والتحقيق الشهير دار المصنفين، وكان العلامة قد شغف حباً لها، بل الواقع أنه ارتبط بها من أول يومها، وكان له سهم كبير في أعمالها طول حياته، وكم اعتنى به العلامة شبلي بالنسبة لدار المصنفين وأعمالها التأليفية، يقدر ذلك من رسالته التي كتبها إلى الفراهي في أكتوبر عام 1914هـ حينما صرعه المرض القاتل، فنقدم شطراً منها:

"وقع النزاع في أسماء الوقف المكتوبة على الوثائق، فقدّمت الطلب إلى حاكم المديرية، ننتظر قراره ليتم العمل عليها، جعلتك ممن يتولى الأمر، وإن أسست دار المصنفين فمن يتحمل شؤونها".²

فقد كان يريد العلامة شبلي أن ينشئ جامعة للتعليم والتربية في مجال العلوم والفنون الإسلامية بالامتزاج بين مدرسة الإصلاح ودار المصنفين، فكان يتخيل أن يجعل الأول ابتدائياً والثاني نهائياً.³ وكان من أهداف دار المصنفين السامية إعداد البارعين والمتصلعين وتوفير التسهيلات للمطاعة والتحقيق حول موضوع السيرة النبوية العطرة، فاهتم بإعطاء المنح للطلاب في هذه المرحلة.⁴ كما أنشأ في البداية الصندوق المالي الخيري لتغطية الحاجيات إلى حين لم يستقر لها دخل وإيراد،

¹ والخلفية في موته في مأثورا هي أنه كان مصاباً بمرض الكلية، ويسبب ذلك في توقف بوله، فلما ازداد ألمه ذهب لمداوواته إلى أحد أطبائها الأقرباء الدكتور حفيظ الله، فقام الدكتور بإجراء عملية جراحية لم تنجح.

² مكاتيب شبلي، 54/2

³ مكاتيب شبلي، 132/2، 135، حيات شبلي، ص 687، 688

⁴ مكاتيب شبلي، 288/1، حيات شبلي، ص 693، 694

فمن قدّم التبرع والدعم المالي لهذا الصندوق في البداية على طلب من العلامة شبلي يتصدرهم العلامة الفراهي الذي قرر إعطاء ثلاثين روبية شهرياً لهذا الصندوق، فيذكر ذلك العلامة شبلي في رسالته الموجهة إلى مسعود علي الندوي: "في هذا الخصوص قررّ عزيزي حميد أن يعطي ثلاثين روبية كل شهر، أما أنا فأمنح أيضاً ثلاثين روبية في كل شهر".¹

كانت عملية تأسيس دار المصنفين، وتجسيد خطتها المقررة تجري بكل حماس ونشاط، إذ فاجأ العلامة شبلي موته في 18/نوفمبر عام 1914هـ، وإن جهده هذا قد أثمر بعد وفاته، فأسس مجلس باسم الجماعة النعمانية أو مجلس إخوان الصفا على دعوة من العلامة الفراهي والتي كانت مكونة من تلاميذ العلامة شبلي ليتم ما كان العلامة شبلي يراه، فتم تعيين العلامة الفراهي رئيساً له، والسيد سليمان الندوي مديره.² وكان أول عمل عازمت دار المصنفين على إنجازه هو إتمام كتاب "سيرة النبي"، فلم يتخلف العلامة الفراهي عن تقديم أي دعم في هذا الصدد، مالياً كان أو علمياً، كما سبق مثال على ما قلنا، وهنا نودّ مزيد التوضيح لذلك بأن السيد سليمان الندوي والعلامة الفراهي بلغا بوفال على طلب من النواب سلطان جهان بيغم ملكة بهوفال، وضمن حديثهما جاءت قضية إتمام السيرة النبوية، فأكدت الحكومة العالية على تقديم الدعم المالي لهذا العمل الجليل، وأجرت دعمًا ماليًا كبيرًا على اسمهما.³ ثم نقل العلامة الفراهي المنحة الشهرية الحكومية البالغة ثلاث مائة روبية من الحكومة خلال إقامته في مدينة حيدرآباد إلى دار المصنفين، فكان يقول السيد سليمان الندوي إن هذا الدعم المالي الخطير قد تسبب في بقاء وصيانة دار المصنفين وأعمالها.⁴

¹ مكاتيب شبلي، 131/2، 140، حيات شبلي، ص 697

² مختصر حيات حميد، ص 16-17 وحيات شبلي، ص 689

³ محمد أمين الزبيري المار هروي، حيات سلطاني، عزيزي بريس، أغره، 1939م، ص 141

⁴ مختصر حيات حميد، ص 16

وأما نصيب العلامة الفراهي في تأليف السيرة النبوية، فالدليل على ذلك رسائل العلامة شبلي الموجهة إلى العلامة الفراهي التي تصرح عن مشاركته في تحقيق الألفاظ الصعبة، وتوضيح وتحقيق النكات القرآنية المختلفة، والمراجعة المباشرة في المباحث العديدة إلى التوراة والإنجيل.¹ وإن نعثر على رسائل الإمام الفراهي في الرد على هذه الأسئلة يتضح بذلك نوع مشاركة العلامة الفراهي وأهميتها.² وعلاوة على ذلك نرى لمحات براققة ولفحات شيقة لكتب العلامة الفراهي في بعض الأبواب من السيرة النبوية، فلنلاحظ المباحث المتعلقة بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ضمن رسالة العلامة الفراهي "الرأي الصحيح في من هو الذبيح" كما تشير الدلائل الواضحة أن الأجزاء التي تم تدوينها من قبل العلامة سيد سليمان الندوي، كان فيها مساعدة علمية للعلامة الفراهي، يعترف بذلك العلامة سيد سليمان الندوي في بعض المواضع.³

كما يشير إلى علاقته الخاصة بدار المصنفين أن قدرًا كبيرًا من كتبه الخاصة قد وهبت لدار المصنفين. إن هذه الذخيرة العلمية تهتم من أنها تشتمل على الحواشي والملاحظات التي كتبها العلامة الفراهي على الكتب العديدة التي كان يطالعها من حين لآخر. إن هذه الحواشي والملاحظات القيمة ستعين في فهم أفكار العلامة الفراهي، بجانب العلم بأن الفراهي كان يدرس كذا وكذا من الكتب القيمة، فبناء عليها يمكن إعداد العديد من المقالات القيمة حول تحقيقاته العلمية العالية للعلامة الفراهي وقد كتبت مقالات عديدة عنها من قبل.

¹ مكاتيب فراهي، 31/2، 40، 41، 43، 49، 50

² العدد الخاص لمجلة "إشراق" (الصادرة عن لاهور) المشتملة على رسائل الفراهي لعام 1992م (الدكتور شرف الدين الإصلاحي) فيحوي هذا العدد رسالة مفصلة موجهة إلى العلامة شبلي ردّ فيه على أسئلة أستاذه العلامة، فنقدر قيمتها بدراستها بأن الفراهي كيف كان يوفر الإجابات المفصلة والعلمية المشتملة على المباحث القيمة

³ سيرة النبي، 1/3

ولا يخلو من المتعة بالنسبة لعلاقة الفراهي بدار المصنفين أن بعض أجزائه التفسيرية قد طبعت من مطبعتها علاوة على كتبه العديدة الصادرة عن هذه الدار.¹ فمن تلك الكتب والرسائل "الرأي الصحيح في من هو الذبيح" و"جمهرة البلاغة" و"إمعان في أقسام القرآن" و"أسباق النحو"، ولنعرف أن دار المصنفين قد قامت بطبع "إمعان في أقسام القرآن" بكل عناية على نفقاتها من المطبعة السلفية بالقاهرة عام 1930م، وقد قدّم له السيد سليمان الندوي بالتفصيل وأن هذا أول كتاب للفراهي طبع من أي مطبعة عربية.

من ذكريات الفراهي الأصلية ثروته العلمية والتأليفية الضخمة التي تتعلق بالموضوعات المهمة العديدة من التفسير وأصوله، ونظم القرآن، وتاريخ القرآن، والصحف السماوية، والحديث، والفقه، وعلم الكلام، والمنطق، والحكمة، والفلسفة، والبلاغة، والشعر، والعروض، والنحو والصرف، وقد قرّنا أهم المعلومات عن الكتب المطبوعة للفراهي في دليلنا "كتايبات فراهي"،² وأما عن الكتب التي لم تطبع فلا يعني هذا الموضوع ذكرها.³

الخصائص والميزات التي تبرز لنا بعد إمعان النظر في مؤلفات الفراهي أبرزها استخدام المصادر المختلفة المتنوعة، والنقاش التحقيقي والنقدي، والجانب الاستدلالي والعلمي، وكان منهج تأليفه أنه كان يدرس المصادر والمآخذ قبل أن يكتب عن أي موضوع، وأنه لا يقبل شيئاً أو يرده إلا بعد البحث والتحقيق كالجوهري

¹ فليراجع لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع كتابي "كتايبات فراهي"، إداره علوم القرآن، علي جراه، 1919م، ص 32

² صدر هذا الدليل من إداره علوم القرآن بسر سيد نغر في علي جراه

³ راجع للتعريف الشامل بما لم يطبع من كتب ورسائل الفراهي مقالة الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي "تصانيف فراهي كا غير مطبوعه سرمايه" المنشورة في مجموعة مقالات الندوة الدولية حول حياة وأعمال العلامة عبد الحميد الفراهي.

الناقد، ولا يقدم رأياً إلا بعد إبراز جوانبه المختلفة في ضوء التفكير والتدبر والدلائل والشواهد العلمية، مثلاً أنه قد أثبت في كتابه "الرأي الصحيح في من هو الذبيح" أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام لا إسحاق، فإنه استفاد خلال ذلك من المصادر المختلفة، ثم قام باستعراض أفكار وآراء اليهود، وكشف النقاب عن مقولاتهم، ثم قدّم ثلاثة عشر شاهداً من التوراة في تأييد رأيه، وقدّم الدلائل بهذا العدد من القرآن الكريم، وأحكم رأيه بهذه الشواهد. نرى أسلوبه ومنهجه هذا واضحاً في كتبه "إمعان في أقسام القرآن" و"مفردات القرآن" ورسائله التفسيرية أيضاً.

قام المفكر الإسلامي ومفسر القرآن الممتاز الشيخ سيد أبو الأعلى المودودي بالتعليق على منهج العلامة الفراهي التحقيقي بصورة جميلة فهو يقول:

"كان العلامة الفراهي يحتل مكانة عالية للبحث والتحقيق، إن أسلوبه الاجتهادي الذي اختاره في تفسيره يختلف كثيراً عن المفسرين الآخرين، ويمكن أن يختلف أحدٌ عما بينه من المعاني وعيّن من المفاهيم كما نجده لدى غيره من المفسرين والعلماء، ولكن من محاسن أسلوبه أنه يوسّع المجال لكل أحد للتمسك بوجهة نظره، ويهديه إلى المجالات الواسعة في فهم معاني ومطالب القرآن الكريم، والتحقيق والتفحيص في المواد العلمية، ولذا يمكن أن لا يتفق أحدٌ مع نتائجه التحقيقية ولكنه يجد فيها كنزاً علمياً مخفياً لا يستغني عنه أي طالب".¹

من يمعن النظر في مؤلفات العلامة الفراهي يظهر له أن كل ما حصل عليه من العلوم الجديدة والقديمة، وما أوتي من المواهب والكفاءات العلمية استخدمها في نشر العلوم القرآنية والشؤون الدينية والعلمية الأخرى، وبصرف النظر عن العلوم الإسلامية لا بد لنا من الإشارة إلى ما صرفه الفراهي من جداراته ومواهبه في أعماله التأليفية عن العلوم العصرية.

¹ ترجمان القرآن، 1/8، محرم الحرام، 1359هـ، ص 96

إنه قام بتوسيع نطاق مطالعته مستخدمًا إلمامه التام باللغة الإنجليزية، وألّف كتبًا عديدة في مختلف موضوعات العلوم القرآنية، واستفاد فيها من أبرز الكتاب الأوروبيين بالنقد والملاحظة، وخاصة أنه درس كتب بعض المؤلفين المهرة في علوم الجغرافية، واستفاد من الموسوعات وقاموس الإنجيل للإشارة إلى تحقيق بعض المواضع الأثرية المذكورة في القرآن الكريم، كما قام بتأليف رسالة في اللغة الإنجليزية للرد على عقيدة النصارى في الشفاعة والكفارة، ولو أن هذه الرسالة لا توجد الآن، ولكن نجد ذكرها بصراحة في مقدمة أحد كتبه العربية "إمعان في أقسام القرآن" التي كتبها العلامة سيد سليمان الندوي¹ مشيرًا إلى الأمر أن إنجليزيًا قد قبل الإسلام على يديه في عام 1913 م.² ولا نجده مجهوداته الدعوية بهذه اللغة، كما أنفقت مهارته في هذه اللغة في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية، وقد مست الحاجة إلى ترجمة قرآنية إنجليزية موثوق بها لاستخدامها في نشر الإسلام وتبليغ رسالته، ويستفيد المسلمون الذين حصلوا على العلوم العصرية، وأنه شعر بهذه الحاجة خاصة في نطاق أنه قام بترجمة القرآن الكريم آنذاك المترجمون المسيحيون، ونظرًا لهذه الحاجة الملحة عرض العلامة شبلي في حفلة سنوية عقدتها ندوة العلماء في مارس عام 1910 م في دهلي، الاقتراح على المجلس لإعداد ترجمة قرآنية إنجليزية تحت رعاية ندوة العلماء، فأجمعوا عليه وفاز الاقتراح، فمست الحاجة لتجسيد هذه الخطة إلى الأشخاص الذين كان لهم تطلع في اللغة العربية والإنجليزية على السواء بجانب ذوقهم الخاص للقرآن الكريم، فلذلك شكلت لجنة ذات ثلاثة أعضاء وهم العلامة الفراهي، والنواب عماد الملك سيد حسين البلغرامي (الحيدرآبادي) والشيخ محمد صالح (من بهاول فور)، فقرر أن النواب سترجم أولًا، وأما الآخرون فيقومون بالمراجعة وإعادة النظر فيها، فقام النواب بترجمة ستة عشر

¹ إمعان في أقسام القرآن، دار القلم، الكويت، 1980 م، ص 8.

² مكاتيب شبلي، 41/2

جزء، ولما انتقل العلامة الفراهي إلى مدينة حيدرآباد رئيسًا لكليتها، قام النواب بإعادة النظر في أربعة منها بإعانة العلامة الفراهي، ولكن العلامة قد عاد إلى وطنه عام 1919م، وأما النواب عماد الملك فلم يواصل عمله هذا لضعف بصارته، حتى جاءته المنية عام 1926م.¹ لم نظفر بالمسودة المنقحة والمعدلة ولا ندري مصيرها، وعلاوة على ذلك اقترح، طبقًا لرواية، أن تكتب الحواشي على ترجمة القرآن الكريم الإنجليزية، فمرة أخرى قدّم اسم الفراهي بهذا الشأن.²

علاوة على ذلك أنه انضم إلى ترجمة بعض أهم المشاريع للكتب المفيدة المهمة للغة الإنجليزية إلى الأردية، فأُسست لجنة المترجمين في علي جراه عام 1908م، تهدف إلى نقل الكتب الإنجليزية المفيدة إلى الأردية، لكي يطلع المسلمون على الإسهامات العلمية للأوروبيين، ويستفيدوا بها، وفي ديسمبر 1907م كان لهذه اللجنة اثنا عشر عضوًا، وعيّن العلامة الفراهي، والشيخ وحيد الدين سليم مديرين لها، وعلاوة على إصلاح الترجمة كانا مسؤولين عن إعداد قاموس يشرح الألفاظ المصطلحة في اللغة الإنجليزية، ويوفر في ذلك القاموس الكلمات البديلة لتلك الاصطلاحات في الأردية.³ إضافة إلى ذلك لما بدأوا بإعداد المقررات الدراسية للجامعة العثمانية أسّسوا لجنة لتقديم الكلمات البديلة للمصطلحات الإنجليزية في مختلف العلوم والفنون في اللغة الأردية ونقل الكتب الدراسية الإنجليزية إلى اللغة الأردية، وكان الفراهي من أعضاء هذه اللجنة، إنه أخدم معرفته بالإنجليزية لأداء هذه المهمة،⁴ إضافة إلى ذلك أنه قام بترجمة حكايات الحكيم آصف من الإنجليزية إلى العربية باسم "أمثال آصف الحكيم". وضع هذا الكتاب في الكتب المقررة لمناهج مختلف المدارس والجامعات الدراسية.

¹ حيات شبلي، ص 582، مكاتيب شبلي، مطبعة معارف، أعظم جراه، 1927م، 32/2، 33

² مجلة "معارف"، المصدر السابق، ص 97

³ علي گڑھ انسيتيوت گزت، 4 ديسمبر، 1907م

⁴ مختصر حيات حميد، ص 17

سبق أن ذكرنا أن العلامة الفراهي كان ملماً باللغة العبرانية، ولو أن هذه اللغة لا تتعلق شيئاً بالعلوم الجديدة، ولكن نخصها بالذكر هنا لأن هذه اللغة لم توضع في المقررات الدراسية للعلوم الشرقية، ولكن العلامة الفراهي تعلمها على رغبة منه فيها، وأخدمها للدين وعلومه، وكان الفراهي يعتني بتفسير القرآن الكريم بمعونة من الصحف السماوية أيضاً¹ وأنه استفاد بعلمه بهذا اللسان من نصوص التوراة والإنجيل الأصلية، وكما قام بتعيين معاني ومفاهيم الأعلام والمصطلحات في القرآن والكريم، وتحقيق الأماكن الأثرية في ضوء التوراة والإنجيل مباشرة، علاوة على ذلك أنه أقام الحجة على أهل الكتاب، وأثبت ما هو الحق في مؤلفاته المختلفة مستعيناً بكتبهم مباشرة، كما نرى أمثلة كثيرة لاستشهاده في تفسير سورة التين في تحقيق كلمة "التين" وفي "الرأي الصحيح في من هو الذبيح" في تعيين إسماعيل ذبيحاً، ونرى جلياً في تفسير السور المختلفة والمفردات القرآنية أنه يستفيد من نصوص التوراة والإنجيل الأصلية، علاوة على ذلك نرى أمثلة واضحة للتبادل العلمي بين العلامة شبلي والعلامة الفراهي في رسائل شبلي نظراً لتعيين معاني ومفاهيم الأماكن والألفاظ للقرآن الكريم في ضوء التوراة والإنجيل.²

ونجد في مخطوطات كتبه رسالتين وهما "الإكليل في شرح الإنجيل" و"الطريف في التحريف" فالكتاب الأول يشرح الأناجيل، والآخر يوضح زمن التدوين للتوراة والإنجيل، ويبحث عن النسخ المختلفة لهما، ويكشف النقاب عن التحريف والنحت فيهما، كما قام الفراهي بترجمة الأمثال والحكم والنصائح لسليمان عليه السلام من العبرانية إلى الفارسية القحة بصورة منظومة، وطبعت هذه النصائح باسم "خرد نامه" خلال إقامته بحيدرآباد في الفترة ما بين 1914هـ و1916م.

¹ تفسير نظام القرآن (مقدمة)، ص 39، 44، 45، 54

² مكاتيب شبلي، 3/2، 40، 41، 43، 49، 50

وكان له عناية وإلمام بالفلسفة الجديدة، وقد ازدادت رغبته فيها بمرافقته للعلامة شبلي ومصاحبته للبروفيسور آرنلد، وزد عليها دراسته الشخصية للموضوع، والدليل الأكبر على براعته في هذا الفن أن العلامة شبلي ذاته يعترف بفضله في هذا المجال، وأثناء عمادة العلامة شبلي قد مرّت ندوة العلماء بمراحل التطور والازدهار في المقررات الدراسية، فوضع كتاب "الدروس الأولية في العلوم الطبيعية" (المطبوع من بيروت) في المقررات الدراسية.¹ فقد طلب العلامة شبلي من العلامة الفراهي أن يدرّس هذا الكتاب، وأعرب عن أمنيته هذه بالرسائل المختلفة، وأصرّ عليه أن يدرّس هذا الكتاب طلاب ندوة العلماء.² وطبقاً لما كتبه السيد سليمان الندوي أنه ورد في ندوة العلماء لتدريس هذا الكتاب غير مرة، وكذا علّمهم القرآن الكريم.³ وفي أثناء إقامة الفراهي بعلي جراه، أرسل العلامة شبلي طالباً على المنح الدراسية من ندوة العلماء إلى علي جراه لكي يتعلم على الفراهي "الدروس الأولية".⁴

ويشهد على مهارته في الفلسفة الجديدة أنه لما أسّس "مجلس علم الكلام" على دعوة من العلامة شبلي عام 1912م، وكان شبلي يقصد من تأسيسه أن ينتقي بعض الأشخاص من المسلمين المثقفين الذين كان لهم شغف في الفلسفة والعلوم الإسلامية، وينتخب من العلماء بعض الأشخاص الذين كان لهم تضلع بالفلسفة القديمة والشغف بالعلوم الجديدة مع قوتهم للرد على الاعتراضات الموجهة من الفلسفة الجديدة، هذا المجلس المنضم من هذه الشخصيات يدرس الفلسفة الجديدة ويشير إلى المسائل التي تضاد الدين، ويبحث عن الأجوبة على الاعتراضات الموجهة إلى الدين التي تنشأ من هذه المسائل، والأمر المثير للعجب أن العلامة شبلي

¹ حيات شبلي، ص 415، 431

² مكاتيب شبلي، 20/2، 22، 23، 26

³ مختصر حيات حميد، ص 10

⁴ مكاتيب شبلي، 29/2، حيات شبلي، ص 429

عيّن من العلماء الشيخ المفتي عبد الله التونسي، والشيخ شير علي الحيدرابادي، وسيد رشيد رضا المصري، ومن بين المثقفين بالعلوم العصرية الدكتور محمد إقبال، والعلامة عبد الحميد الفراهي، والشيخ عبد القادر البهاغلفوري.¹ وإن لم نجد أي تفصيل عن نشاطات هذا المجلس، ولكن لا ننكر أهميته.

والجانب الأبرز والمهم من خدمات الفراهي العلمية ومؤلفاته القيمة أنه يرى أن يجعل القرآن الكريم مركزاً يدور حوله العلوم الأخرى، لكي تتصل جميع العلوم بهذا المصدر الأولوي، يبيّن فكرته هذه الدكتور عناية الله أسد السبحاني:

"وهو أول كاتب مسلم في العالم تمنى طول حياته أن يجعل القرآن الكريم رئيساً للعلوم كلها، وأن يجعل كتاب الله العزيز مصدراً وأساساً لجميع العلوم عند المسلمين، وأن تدون جميع العلوم في ضوء هذا الكتاب الحكيم، وأن يكون القرآن الكريم كالشمس تدور حولها كافة السيارات".²

وقد أشرنا من قبل أنها لم تكن مجرد فكرة أو خيال، بل قد أعد الفراهي مشروعاً لتجسيد هذا المشروع، وأنه قد بدأ بعمله على هذا المنهج فقام بالاستعراض النقدي للعلوم والفنون الأخرى (خاصة تلك التي كانت لها علاقة بفهم القرآن الكريم) وأشار إلى المعايير وأماكن الضعف فيها، وأوضح بأن هذه العلوم لا يستفاد بها في صورته الموجودة، وأنه أكد أن تدوّن من جديد تلك العلوم في ضوء القرآن الكريم، ولو أن العلامة الفراهي لم يتم مشروعه هذا، ولكن ما أثره من الكتب والرسائل في علم النحو، والبلاغة، وأصول الفقه، والمنطق، وعلم الكلام، والفلسفة وغيرها مطبوعة كانت أو مخطوطة لا تشير إلى أهمية التدوين الجديد لهذه العلوم في ضوء القرآن فقط، بل تلقي الأضواء على الطريقة السوية للوصول إلى الغاية، ولنصرح هنا أننا

¹ حيات شبلي، ص 584، 585

² علامه حميد الدين فراهي، ايك عظيم مفسر، ايك مايه ناز محقق، ايك بلند بايه مجدد، مكتبة الإصلاح، سرائ مير، 1976م، 114

قام به العلامة الفراهي من تدوين هذه العلوم والفنون من جديد لم يكن مجرد إجهاد الذهن وإعياء العقل بل كان يطوي في صدره عاطفة لإصلاح الأمة الإسلامية، وأنه كان يرى أنه لا بد من تطهير كافة علوم المسلمين من الأدناس التي رانتها من الخارج ومن توطيد صلتها بالقرآن الكريم، ومن تمهيد السبل لفهم القرآن الكريم، وهذا لكي يهتدوا في مختلف جوانب حياتهم. يبين فكرته هذه أكبر ناطقي أفكار العلامة الفراهي الشيخ أمين أحسن الإصلاحي:

"لم يكن (الفراهي) بكاتب ومحقق أكاديمي بحث، بل جميع مجهوداته تجري فيها عواطفه الإصلاحية الراسخة، وأنه يركز على إصلاح الفكر قبل إصلاح العمل، وأنه قد وضع أساس فكرته على القرآن الكريم، وأنه يستعرض جميع علوم المسلمين وفنونهم في ضوء القرآن الكريم ويحاول أن يقطع دابر جميع النظريات والاتجاهات الباطلة في مختلف نواحي الفكر الإسلامي، ويسعى أن يمهد لهم السبيل لاستعانة القرآن الكريم للتفكير في القضايا الواردة في كافة جوانب الحياة".¹

وأخيرًا لا يخلو من الأهمية بمكان إظهار أن مسلمي العصر الحديث جعلوا يشعرون بشدة الحاجة إلى تدوين العلوم والفنون في ضوء العلوم الإسلامية ومناهجها وبدأوا يناقشون حول هذا الموضوع ففي هذا السياق تحتل وجهة نظر العلامة الفراهي المذكورة أعلاه أهمية كبرى وتجلب عنايتهم. وكذا يجدر بنا أن نذكر هنا أن العلامة الفراهي قد رفع هذا الهتاف قبل ثمانين أو تسعين عامًا وأنه لم يناد بمجرد تدوين العلوم بل أصرَّ على أن تجعل هذه العلوم والفنون تابعة للقرآن الكريم، فوضع لها الأصول وأشار إلى أهدافها وقدم خطتها البدائية، ولذا إنه يجدر بأن يعتبر متقدمًا في هذا المجال.

¹ مختصر حيات حميد، ص 51

أساتذة المعلم عبد الحميد الفراهي

- محمود عاصم¹

تمثل عدة عناصر من المجتمع دورًا في بناء شخصية يجهلها العالم ومنها عناصر داخلية وهي المواهب الفطرية ومنها عناصر خارجية من دور الأم والأب والأستاذ والمجتمع والأوضاع المالية وما إلى ذلك. ولكن دور الوالدين والأستاذ هو أهم وأخطر في بناء أو تدمير شخص.

يعتبر الأستاذ شخصية يؤثر على تهذيب عقول تلاميذه و تثقيفها وترقيتها ويمثل دورًا حاسمًا في توجيه تلاميذه إلى أرقى معالم وأسمى مستقبل مع قدرات ومواهب يهبها الله. ويساهم مساهمة لا يستهان بها في تقرير مسار تلميذه إلى المستقبل الباسم. يشيد الأستاذ ببناء كل فرد مع تشييد الأمة والوطن بأجمعها. ويسود مثل في مجتمعنا أن الأشجار تعرف بأثمارها وفي نفس المسار يمكن أن نقول أن مكانة التلاميذ وقدرهم تعرف بمكانة أساتذتهم وعلى العكس أيضًا. وصدق أمير الشعراء أحمد شوقي حينما قال:

أَعْلَمْتَ أَشْرَفَ أَوْ أَجَلَّ مِنَ الَّذِي يَبْنِي وَيُنْشِئُ أَنْفُسًا وَعُقُولًا

وقد وهب الله المعلم عبد الحميد الفراهي مواهب فطرية من فطنة العقل وتوقد الذكاء بالإضافة إلى فرص ذهبية لتلقي الدروس الابتدائية من خير الأساتذة وأفضل المعلمين في عصرهم وأمهاتهم في مجالاتهم. وسنحت له - بفضل الله وعونه - هذه الفرص في كل مرحلة من مختلف مراحل حياته التعليمية. وهذا الذي أدى إلى تغيير شخصية التلميذ الفراهي - إلى حد كبير - إلى المعلم الفراهي. وبسبب ذكاء وجدته في حين واحد استفاد المعلم الفراهي من أساتذته حق الاستفادة ولم يكن يطمئن من مواد سطحية ومعرفة بدون إتقان.

¹ باحث، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لعل نهرو، نيودلهي

وكان يسود في ذلك الزمان منهج الدرس حيث يتلقى الطالب دروسه وهو في حلقة المعلم في بعض الأحيان ويستفيد من الأستاذ مباشرة وحيداً بدون أي طالب آخر في حين آخر حيث يركز الأستاذ كل التركيز على ذلك الطالب. وجد المعلم الفراهي في معظم الأحيان فرصة ثانية. وبسبب جده واجتهاده تلقى المعلم الفراهي كل العناية من أساتذتهم.

هناك مرحلتان في حياة المعلم الفراهي التعليمية حيث تشمل المرحلة الأولى على تلقي العلوم الدينية والإسلامية وكان جميع أساتذته في هذه المرحلة مسلمين ومهرة في مجالهم. والمرحلة الثانية تتعلق باكتساب فيضه وتسليحه بالعلوم العصرية السائدة من حصول شهادة بكالوريوس من جامعة إله آباد وتعلمه في كلية علي جراه. ولم يكن جميع أساتذته في هذه المرحلة من المسلمين حيث أخذ المعلم الفراهي الحكمة أينما وجدها. وبالإضافة لم يستفد الفراهي من أساتذة المرحلة الثانية بطريقة تقليدية سائدة في ذلك الزمان بل استفاد منهم بعض الاستفادة حسب الفرص المتوفرة. ومثل أساتذة المرحلة الأولى دوراً بالغاً في بناء فكرة المعلم الفراهي وتنقيفه وتنقيحه حيث لم تؤثر عليه أي تأثير سلبية المرحلة الثانية بسبب النضوج الفكري الذي بلغ به المعلم الفراهي في مرحلته الأولى بفضل أساتذتها العباقرة في زمانهم والأفذاذ في مجالاتهم المعنية.

ولكن الشيء المتميز في جميع أساتذة المعلم الفراهي أنهم لا ييئنون على فهم وذكاء الفراهي فحسب بل على غزارة علمه ودقة مطالعته.

شدّ الفراهي الرحال لطلب العلم في المراحل المختلفة وبدأت هذه الرحلة من قريته "فريها" وسافر إلى مدينة أعظم جراه وبلدة غازيفور¹ وكرنل غنج بمدينة إله آباد²

¹ ولم يذكر أحد عن رحلة الفراهي إلى غازي فور إلا ابنه سجاد في الحوار مع شرف الدين الإصلاحي كما ذكر صاحب "ذكر فراهي"، ص 130، دار التذكير، لاهور، 2002م

² يكتب محقق مفردات القرآن الدكتور محمد أجمل الإصلاحي أن المعلم الفراهي التحق بثانوية كرنل غنج بمدينة إله آباد، ص 18

ولكنناؤ ورام فور¹ ولاهور وعلي جراه. وكل هذه الأسفار والرحلات التعليمية إن تدل على شيء فإنها تدل على أن المعلم الفراهي كان حريصاً على العلم والمعرفة وحيثما سمع وظن إرواء غليله العلمي شد إليه الرحال.

الآن نذكر بعض أهم أساتذة المعلم الفراهي الذين أثروا عليه تأثيراً بالغاً ونسبب الكلام عن حياتهم ودورهم في تثقيف عقله ونفسيته فيما يلي ولا نلاحظ في سرد أسماءهم الترتيب الزمني بل نفضّل ذكر قائمة الأهم فالأهم وأنا أترتب هذه القائمة حسب معرفتي وعلمي عن أساتذته الكرام وهناك مجال مفتوح للخلاف من هذه القائمة المذكورة أدناه:

العلامة شبلي النعماني

ومن المعروف أن أكثر من أثر في المعلم الفراهي هو أخوه من خاله وأستاذه الذي كان أكبر منه بست سنوات تقريباً ولكنه كان أعلم بفن التدريس وأعمق علماً و معرفةً من الأساتذة والمشائخ الكبار في عصره.

وقبل أن أخوض في ذكر صلته بتلميذه ومنهج تعليمه وأثره فيه، أرى من المناسب أن أسرد بعض الأحوال من حياته وأسلط ضوءاً على شخصيته.

هو شبلي النعماني بن حبيب الله بن سراج الدولة، وأحد أبرز علماء الهند في العصر الحديث، وأحد أعلام النهضة الأدبية والعلمية بها، ومن رواد الإصلاح والفكر الإسلامي الذين ساهموا بجهود ملموسة في حركة الأدب والتاريخ والدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية.

وُلد شبلي النعماني في قرية "بندول" من أعمال "أعظم جراه" بالهند سنة 1275هـ، الموافق سنة 1858م، لأبٍ من أصلٍ برهمي، وكان جدّه الثالث عشر (سيوراج

¹ نقل صاحب "ذكر فراهي" عن رحلة المعلم الفراهي إلى رامفور عن بدر الدين الإصلاحي من قرية نياوج في مديرية أعظم جراه، ص 134

سنك) قد اعتنق الإسلام وتسمّى بسراج الدين. له جهودٌ بالغة في اللغة العربية والحفاظ عليها، وقد صنّف العديد من الكتب وأشهرها:

الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي. ردّ فيه على جورج زبدان الذي ألف "تاريخ التمدن الإسلامي" بعدما وجد فيه كثيرًا من الأخطاء العلمية، وسيرة الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -». وقد أمضى في إعداد هذا الكتاب سنواتٍ طويلة، والسيرة النبوية وقد ألفه في جزئين ولم يُتِمّه، فأكمّله سيد سليمان الندوي بعده فتمّ الكتاب في سبعة أجزاء.¹

وفي عام 1892م قام شبلي النعماني برحلة إلى منطقة الشرق الأوسط فزار الشام ومصر وإستانبول وبيروت والقدس، وقد منحه السلطان العثماني النيشان المجيدي تقديرًا لعلمه ومكانته واحترامًا له، وقد استفاد النعماني من هذه الرحلة في أمور كثيرة أهمها أنه استطاع التعرف على نفائس كتب اللغة العربية وآدابها الموجودة في المكتبات وبخاصة في مصر.

وعاد شبلي النعماني مرة أخرى إلى جامعة علي جراه حيث قوبل بحفاوة بالغة، وسجّل مشاهداته وانطباعاته عن رحلته العلمية الطويلة في كتاب أسماه "سفرنامه روم ومصر وشام".

وبالرغم من محاولات شبلي العديدة لترك التدريس بالجامعة، فإن السيد أحمد خان كان يرفض استقالته في كل مرة.

فلما توفي سيد أحمد خان سنة 1898م ترك الجامعة، وعاد إلى مسقط رأسه في "أعظم جراه" حيث استطاع إنجاز كتابه القيم عن سيرة الفاروق عمر بن الخطاب الذي قضى في إعدادهِ سنوات طويلة، ثم اتجه شبلي إلى المشاركة في النهضة الفكرية الإسلامية وعكف على البحث والتأليف.²

¹ موقع اسلام هاؤس، أعلام و شخصيات، تصفحت في 7-7-2018م
/https://islamhouse.com/ar/author/380482 13 / 1 / 1433 , 9/12/2011

² شبلي النعماني، المعرفة، تصفحت في 4-12-2018م

تُوفي شبلي النعماني في 30 ذي الحجة 1332هـ، الموافق 18 نوفمبر 1914م عن عمر بلغ 56 عامًا، بعد أن ساهم بنصيبٍ وافٍ في نشر الدعوة الإسلامية، وإبراز العديد من الجوانب الحضارية المُشرقة في تاريخ الإسلام والمسلمين.

شبلي النعماني من حيث أستاذ الفراهي: ومن بين معلّمي الفراهي يحتل الأستاذ شبلي النعماني مكانًا مرموقًا ويتصدر اسمه في قائمة أساتذته جميعًا وقد كتب -كلما ذكر- المعلّم الفراهي اسم الأستاذ شبلي بغاية من الإكرام والإجلال وهكذا كان الحال بالعكس. كلما يذكر الأستاذ شبلي تلميذه البار فيغمره الحب والاحترام والتقدير. وهذه العلاقة كانت أكثر متانة بسبب وهو كون الأستاذ شبلي ابن عم الفراهي. ولذا اعتنى الأستاذ شبلي به شديد عناية وقام بتدريسه في معظم الأحيان شخصيًا وحينما يكون المعلّم الفراهي وحيدًا لكي لا يتدخل أحد في التدريس. وكان المعلم الفراهي من بين الطلاب الأذكياء البارزين للأستاذ شبلي.

نهل الأستاذ شبلي من مناهل العلماء البارزين في عصرهم واستفاد منهم حق الاستفادة وأكمل تعليمه وقرأ كتب المنهج السائد في ذلك الوقت المعروف باسم "الدرس النظامي". ومن ثم درّسه الأستاذ شبلي جميع الكتب السائدة للدراسات العربية و الإسلامية في الدرس النظامي تقريبًا. و درّسه جميع المناهج التقليدية السائدة بالإضافة إلى الدراسات الأساسية في اللغة العربية.¹ يكتب تلميذ المعلم الفراهي في تتلمذ الفراهي عند الأستاذ شبلي:

"تعلم معظم كتب اللغة العربية من الشيخ شبلي النعماني. كان يكبر الشيخ النعماني منه بست سنوات ولكنه بسبب ذهنه الفطن وتعلمه من العلماء الكبار كان يتقن اللغوم العربية. وكان الشيخ شبلي يحبه حبًا جمًا بسبب قرباه وخصائصه الشخصية وقام بعناية خاصة لتعلم الأستاذ الفراهي مثل الأخ

¹ معظم المعلومات مأخوذة من كتاب "ذكر فراهي" لشرف الدين الإصلاحي

الشفيق. وكذا تعلم عليه الأستاذ الفراهي النحو والصرف والمنطق والفلسفة وتبحر في هذه العلوم في وقت قليل بسبب مواهبه الفريدة.

ويجدر ذكر حدث هنا لتعلم طرق تدريس الشيخ شبلي وفطنة الشيخ الفراهي. ذكر الأستاذ الفراهي أنه كان يدرس كتاب "مقامات الحريري" من الشيخ شبلي وكان شبلي يحدد له جزءاً منه لكي يأتي التلميذ به بعد تحليل تراكيبه وحل معانيه. وإذا يخطئ فينبه بكلمة "هُؤُنْ" وكان الكتاب قيد الدرس خالياً من تشكيل وحاشية. ويبدل التلميذ جهوده لحل الكتاب وقليلًا ما تسنح الفرصة للتنبيه. ومرة حينما تنبه الأستاذ على شيء ولكن التلميذ كرّر نفس الكلام فنبه مرة أخرى حتى بعد هذا التنبيه استمر التلميذ في نفس القراءة فغضب الأستاذ ولطم لطمات ولكنه سرعان ما شعر بخطأه وقدم اعتذاره إلى تلميذه. ومن ذلك الوقت أصبح يعتمد على التلميذ اعتمادًا كاملاً ونادرًا ما كان ينهيه.¹

يجدر بالذكر هنا قصة الأستاذ شبلي والمعلم الفراهي والبروفيسور آرندل حيث اثبت براعة الأستاذ شبلي على التدريس بجانب، وبجانب آخر يدل على قدرة وموهبة المعلم الفراهي في اللغة العربية.

وحينما فرغ الأستاذ الفراهي من دراسة العلوم العربية والإسلامية واتجه إلى تعلم اللغة الإنكليزية في كلية على جراه كان يبلغ من عمره عشرين سنة. وقد تبحر الأستاذ الفراهي في العلوم العربية إلى حد كتب السير سيد أحمد خان، مؤسس الكلية رسالة توصية إلى مدير الكلية الإنكليز وكتب فيها "أنني أرسل إليك طالبًا يقدر على العلوم العربية والفارسية ليس أعلم من طلاب كليتك فحسب بل من أساتذتها أيضًا". وكان الشيخ شبلي النعماني يقوم بتدريس اللغة العربية في ذلك الوقت في

¹ الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي، ترجم كاتب هذا المقال مقالته كاملاً من الأردية إلى العربية، مقدمة نظام القرآن للأستاذ الفراهي، الدائرة الحميدية بسرائر مير، أعظم جراه

تلك الكلية. عندما قرأ المدير هذه الرسالة لم يعجبه فذهب بها إلى الشيخ شبلي وقال ماذا كتب السيد احمد خان عن طالب؟ هل لا يوجد أحد هنا أعلم من هذا الطالب. هل هذه ليست إهانة للأساتذة مثلك هنا. وكان يريد المدير أن يثير الشيخ شبلي إلى الغضب ولكنه أجاب برفق أنه يمكن أن يكون هذا الشيء بمثابة إهانة لك ولكن هذا فخر لي لأنني أنا درّست العلوم العربية والفارسية لهذا الطالب الذي يمدحه السيد أحمد خان بهذه الكلمات المفتخرة المليئة بالمدح والإشادة.¹

المهم في علاقة المعلّم الفراهي مع أستاذه شبلي النعماني أن كل ما تعلمه عليه أصبح بمثابة لبنة أساسية لقصره الشامخ الذي تم بناؤه في المستقبل. وكل ما تعلمه الفراهي عليه والطريقة التي تعلمها تحت إشراف شبلي حدّدت مساراته في المستقبل إلى حد كبير. وإذا قلنا باختصار فنقول إن تدريس وتدريب شبلي وضع الأساس لأفكار الفراهي ونظرياته.

ولم يكن الأستاذ شبلي عالماً دينياً بارزاً فحسب، بل كان شاعراً عظيمًا وشخصية أدبية في اللغة العربية والأردية والفارسية كذلك. كل من المعلم والطالب يتبادلان اختراعهما الشعري رغم أننا لا نعرف التفاصيل عن إذا كان شبلي قام بتدريب المعلم الفراهي في مجال الشعر وقام بتصحيح أعماله الشعرية. يشير بعض التفاصيل في العصور المبكرة إلى أن الفراهي كان يقدم شعره إلى معلّمه للتصحيح. عندما كان المعلم الفراهي في السادسة عشرة من عمره فألف أول قصيدة فارسية وكان يستفيد في ذلك الوقت من شبلي في أعظم جراه. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن الفراهي كان يستشير أستاذه ويسعى إلى توجيهاته في مجال الشعر أيضًا.

هنا نذكر قصة تثبت هذه العلاقة الشعرية بين أستاذ المعلم الفراهي شبلي النعماني وأستاذ شبلي الشيخ فاروق التشريناكوتي. ويذكر هذه القصة تلميذ

¹ المرجع السابق

وفي مكان يذكر أستاذ المعلم الفراهي شبلي النعماني تلميذه بهذه الكلمات:

"من الحقائق المقررة أن الإنسان إذا بلغ ذروة المجد والكمال من العلم والمعرفة، نال الشهرة والسمعة في عصره، ويشهد التاريخ والتجربة على هذه الحقيقة. ولكن قد يستثنى منه بعض الناس، ومنهم حميد الدين الفراهي الذي بلغ القمة في العلم والمعرفة، ولكنه أثر الخمول على السمعة والاعتزال على الشهرة".¹

وبهذه التفاصيل الموجزة تعرفنا على علاقة المعلم الفراهي بأستاذه شبلي النعماني من حيث الأستاذ والتلميذ وتقدير بعضهما البعض في العلم والمعرفة والتبحر العلمي والأدبي.

الأستاذ فيض الحسن السهارنفوري: صانع الرجال أكثر من صانع الأدب

ربما تعرفون السير سيد أحمد خان مؤسس جامعة على جراه الإسلامية، والعلامة شبلي النعماني صاحب "سيرة النبي" صلى الله عليه وسلم و"شعر العجم"، والإمام حميد الدين الفراهي الذي نادى بفلسفة نظام القرآن وانتقد نظرية المحاكاة لثُرسطو، والمولوي إعزاز علي الأديب الديوبندي الكبير. وإن تعرف هؤلاء فلتعرف الأستاذ فيض الحسن السهارنفوري الذي تلقى عليه وتأدب هؤلاء الجهابذة العباقرة الذين غيروا مجرى التاريخ وخلدوا أسماءهم في صفحات تاريخ العالم.²

وكان الشيخ فيض الحسن السهارنفوري من الذين صنعوا الرجال أكثر من خلق الأدب. وهو كان أديباً ماهراً وشاعراً فذاً قلما يجود بمثله الدهر. وهو من مواليد

¹ مقالات شبلي، 2/13-14 نقلاً عن مقال "العلامة حميد الدين الفراهي عند العلماء الهنود والفضلاء العرب"، الأستاذ عرفات ظفر، نداء الهند، 15 يناير 2018م،

http://www.nidaulhind.com/2018/01/pdf_31.html

² الأستاذ فيض الحسن السهارنفوري وخدماته العلمية، محمد أحمد خان القاسمي، مجلة ثقافة الهند، 195/1/56، سنة 2005م

عام 1816 م. فهو فيض الحسن بن علي بخش بن خدا بخش بن الشيخ قلندر بخش القرشي الحنفي الجشتي كان يلقب نفسه بـ"فيض" في إبداعاته المنظومة الفارسية والأردية. كانت أسرته تعتبر إحدى أسر الإقطاعيين، إلا أن أفرادها فضلوا العلم على المال والجاه، فعُرفوا بلقب الخليفة لأجل المحبة للعلوم والمعارف.

تعلم الكتب الفارسية والعربية على والده الجليل، ثم خاض في المنطق إلى حد اشتهر بـ"المنطقي"، وحدث هذا كله وهو لم يكمل يتجاوز من عمره عشرين سنة.

بعدما شدا في الفارسية والعربية على يدي أبيه الكريم، أراد أن ينال المزيد من العلوم والمعارف، فبحث في سهارنفور عمن يبرد غليله، ولكنه لم يجد من يسكن ظمأه، فعزم على مغادرة البيت وقريته متوجهاً نحو عاصمة الهند دلهي؛ حيث استفاد من المفتي صدر الدين أزرد صدر الصدور دلهي لمدة، ثم تعلم شيئاً من الأحاديث على الشيخ أحمد سعيد بن أبي سعيد العمري الدهلوي، وبعد ذلك تتلمذ لأخون الولايي الذي كان محدثاً كبيراً، وحصل على الشهادة في هذا الفن، ومن هنا ارتحل إلى رامفور (Rampur)؛ حيث لقي بحر العلوم وجامع الكمالات الشيخ فضل حق الخيرابادي، وأخذ من هذا العلامة المعقولات والأدب والفلسفة، كما أخذها من علمائها الآخرين، ومن هنا تبدل لقبه "المنطقي" بلقبه الجديد، وهو "الأديب" وعلاوة على هؤلاء فإنه تعلم على علماء لكانوا، كما حذق في الطب على الحكيم إمام الدين خان.

انتهت هنا عملية الدراسة ونيل العلوم الإجبارية، فالآن أصبح هذا الشاب البطل متضللاً في اللغات، وماهراً في العلوم المتداولة، وتأهل لأن يفيض ما حشاه في ذهنه، ويكتسب بما ناله من العلوم، فلقبه السير سيد أحمد خان للاستفادة منه في 1846 م، فعلمه السهارنفوري مقامات من "مقامات الحريري"، و"منار أصول الفقه"، وقصائد من "المعلقات السبع"، فتشرف خان بمكانة أول تلميذ له.

هذا العبقري قد فاجأ تلامذته ومادحيه موته، الذي زاره بسبب لدغ الحية في 6 فبراير سنة 1887م، أوصى الأستاذ بأن تحمل جثته إلى وطنه في سهارنفور، فتم الامتثال لهذه الوصية، ودفن بها هذا البحر الزاخر للعلوم والآداب.

لم يكن العلامة مفطوراً على التملق والخضوع، فلم يحرص على المال، ولم يتهافت على الجاه؛ ولذلك لما وصى أصحاب حل وعقد جامعة بنجاب أمام الحكومة لإكرامها إياه بلقب "شمس العلماء" أنكره، وقال: إن تلامذتي يتشرفون بهذا اللقب، وأما أنا فأجدر بأن ألقب بـ "شمس شمس العلماء".

وبما أنه كان عالماً كبيراً وأديباً بارعاً ومعلماً فائزاً، فقد أثنى عليه العلماء والمؤرخون في زمانه وبعد موته، وإليك بعض الانطباعات:

يقول صاحب "سير المصنفين": "كان الشيخ يعتبر أصمعي زمانه، وأبا تمام عصره". ويقول صاحب "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر": "كان من أعاجيب الزمان ذكاءً وفطنة وعلمًا، لم يكن في عصره أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب، وما يتعلق بها، متوفرًا على العلوم الحكمية... انتهت إليه رئاسة الفنون".

ويقول السيد سليمان الندوي: "كان الأستاذ فيض الحسن السهارنفوري أديباً شهيراً في زمنه، زاره الطلاب سامعين عن علو كعبه في العلوم والفنون". ويقول الشيخ أمين أحسن الإصلاح: "لم يكن له نظير في الأدب العربي في الهند كلها".

وعلاوة على هؤلاء، فقد رثاه تلميذه الإمام حميد الدين الفراهي وكرر ذكره الشاعر الإسلامي محمد إقبال، وغيرهما.¹

تلامذته البارزون: وفي آخر عمره تولى التدريس في الكلية الشرقية بـ لاهور وقرأ عليه العديد من العلماء والأدباء. وأخص بالذكر هنا العلامة شبلي النعماني

¹ لخصت وأوجزت المعلومات من مقالة "ديوان الفيض بتحقيق د- ظهور أحمد أظهر (دراسة ونقد)، د. أورنك زيب الأعظمي، 2015-02-26، تصفحت الموقع 2018-07-04م، موقع الألوكة http://www.alukah.net/literature_language/0/83079

والعلامة حميد الدين الفراهي اللذين استفادا منه بوجه خاص في فهم القرآن وتفسيره وفي دراسة الأدب العربي وخاصة ديوان الحماسة والمعلقات السبع. والجدير بالذكر هنا أن المقامات كانت تدرس في الهند حتى زمن الشيخ السهارنفوري في الأدب العربي فيرجع إليه الفضل بأنه قام بتدريس الحماسة والمعلقات وترويجهما بين الطلبة الهنود.¹

استفاد منه العديد من علماء الهند وأدبائها وشعرائها، ولكني أذكر هنا من لمع نجمه في أي مجال من مجالات الأدب والحياة، وهذا لأن فهرس تلامذته يطول به المقال، وهم كما يلي:

1. السير سيد أحمد خان: لا تخفى شخصية السير سيد على من له أي صلة بجامعة علي جراه الإسلامية؛ فهو اجتهد كثيراً في بث الوعي الفكري فيما بين المسلمين، وكذلك فإنه قام بالرد على دعاوي المستشرقين على حياة محمد وفكرته صلى الله عليه وسلم.
2. والعلامة شبلي النعماني: لا يكمل بدون ذكر تاريخ الرد على المستشرقين الذين أثاروا اعتراضات متنوعة على مختلف جوانب الإسلام الفكرية والعملية، ومع ذلك فإنه قام بتأليف تذكرة مهمة عن الشعر الفارسي وشعرائه، وهو كتاب لا يستغني عنه أي باحث في اللغة الفارسية وآدابها.
3. والشيخ ألطاف حسين حالي: لا يُذكر النقد الجديد في الأدب الأردّي إلا ويُعلّى ذكرَ هذا الناقد الرائد؛ فقد أتى هذا الكاتب الحاد الذهن بشيء لم يسبق إليه، بل بقي أثره حتى يومنا هذا، وأما منظومته المسدسة فهي لا تزال مؤثرة في أذهان مسلمي الهند.

¹ مساهمة الهند في المديح النبوي العربي: الشيخ العلامة فيض الحسن السهارنفوري نموذجاً، د. عرفات ظفر، فبراير 2016م، - http://www.nidaulhind.com/2016/02/blog-post_4.html

4. والشيخ إسماعيل الميراثي: أدب الأطفال والشيخ إسماعيل الميراثي توءمان؛ فأسلوبه المعياري التام لا يزال مؤثرًا حتى الآن، اعترف به القدماء والمتأخرون كذلك.

5. والعلامة حميد الدين الفراهي: هذا هو العلامة الجليل الذي نادى بفلسفة نظام القرآن، التي بدأ بها أستاذه الفيض في الهند، والتي أكملها تلميذه الرشيد الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، وبجانب هذا فقد قام الإمام بنقد منطقي أرضي على نظرية أرسطو في المحاكاة، في كتابه الشهير "جمهرة البلاغة"، كافة مؤلفاته مشحونة بتعليم وتوضيح القرآن، والتأثر بعلومه وأفكاره.¹

ومع إمعان النظر في قائمة تلامذته البارزين الذين مثلوا دورهم المتميز في مجالاتهم المعنية فيمكن لنا القول بأن الشيخ السهارةنفوري كان خالق رجال بجانب خلقه للأدب العالي.

فيض الحسن السهارةنفوري من حيث أستاذ المعلم الفراهي: بعد إرواء غليله من منهل الشيخ شبلي، قصد الأستاذ الفراهي إلى الاستفادة من الأساتذة الكبار في عصره. ويبلغ صيت الشيخ أبو الحسنات عبد الحي اللكناوي الفرنجي محلي إلى أوجه في ذلك الزمن ولذا شارك في درسه لتعلم الفقه ولكنه لم يمكث هنا طويلاً بسبب ميلانه إلى البحث والتحقيق الذي تضاعف في مصاحبة الشيخ شبلي.

وبعد لكناو، شد الرحال إلى لاهور لكسب الفيض من الأديب الشهير فيض الحسن السهارةنفوري وهو كان أستاذًا في الكلية الشرقية ولا يوجد له نظير في هذا المجال في البلد كله في تلك الفترة. وكان الشيخ السهارةنفوري أستاذ الشيخ شبلي في الأدب أيضًا. استفاد الأستاذ الفراهي منه حق الاستفادة وأكمل تدريس العلوم

¹ أوجزت المعلومات من مقالة "ديوان الفيض بتحقيق د. ظهور أحمد أظهر (دراسة ونقد)، د. أورنك زيب الأعظمي، 2015-02-26م، تصفحت الموقع 2018-07-04م، موقع الألوكة [/http://www.alukah.net/literature_language/0/83079](http://www.alukah.net/literature_language/0/83079)

الأدبية في ظل حنان أستاذه ولطفه. ويذكر الأستاذ الفراهي دومًا قدرات أستاذه وحنانه عليه. وعلاقة التلميذ مع الأستاذ كانت وثيقة إلى حد طبع ديوانه بعد وفاته على نفقته وقرض على وفاة أستاذه مرثية عربية ينبي كل شعر منها بألم وحب وتقدير له.

كان الأمر على العكس كذلك. كان يكرم الأستاذ تلميذه إكرامًا بالغًا. وهب تلميذه مسودة "شرح المعلقات السبع" المكتوبة بخطه للذكرى وكتب عليها كلمات الشناء لتلميذه يفتخر بها دومًا. ويقدر الأستاذ الفراهي تلك الهدية الثمينة من أستاذه تقديرًا بالغًا. وأشار إليها مرة بالافتخار وقال إن الأعمال مثلها من صنع اليد اليسرى من أستاذي فتبسم من فهم أن الشيخ السهارنفوري كان يكتب من يده اليسرى في تلك الفترة.¹

ويكتب المعلم الفراهي عن تتلمذه أمام الأستاذ فيض الحسن السهارنفوري: "ثم تلمذت على بعض مشاهير علماء الهند مثل مولانا عبدالحى الفرنجي محلي في لکنؤ والأديب الشهير مولانا فيض الحسن السهارنفوري في بلدة لاهور".²

ويجدر ذكر بعض التفاصيل عن استفادة الفراهي بأستاذه في لاهور لكي نطلع على حرص المعلم الفراهي الشديد على التعلم والاستفادة من علم الأدب في ذلك الزمان. رجع الفراهي من لکنؤ بعد أن حصل على ما حصل من العلم والمعرفة وكان قلبه الطموح يبحث عن رجل يستطيع أن يشبع غلته. وكان قد سمع خلال إقامته في لکنؤ أن في لاهور عالمًا وأديبًا كبيرًا يدرس بكلية العلوم الشرقية وهو العلامة الشهير فيض الحسن السهارنفوري. فدب في قلبه ديب الشوق للالتحاق بهذه الكلية والاستفادة من علمه وفضله. فاستأذن من أبيه وخرج إلى لاهور. ولكنه

¹ الأستاذ أمين أحسن الاصلاحى، ترجم كاتب هذا المقال هذه السطور ومقالته كاملاً من الأردية

إلى العربية، مقدمة نظام القرآن للأستاذ الفراهي، الدائرة الحميدية بسرائ مير، أعظم جراه

² نسخة قلمية نقلاً عن "ذكر فراهي" لشرف الدين الإصلاحي، دار التذكير، لاهور، 2002م، ص 135

فوجئ لدى وصوله إليها أن ميعاد الالتحاق قد فاتته، ومن ثم كان عليه أن ينتظر إلى العام القادم، فلم يقتنع بهذا الجسر وأراد أن يتصل بفيض الحسن نفسه، ويعرض عليه أمره فتم له ما أراد. ولكن فيض الحسن رد عليه: أنه ملتزم بقوانين الكلية، وليس في استطاعته إدخاله فيها ما دام ليس فيها مكان شاغر، كما أنه لا يقدر على إعطائه وقتاً في المنزل.

ولكن الفراهي قال له: إنه تحمل كل هذه المشقة ليستفيد منه، فهل يرجع خائباً خاسراً فأثر كلامه فيه وقال: إن مشاغلي لا تترك له بقية من الوقت إلا ما أقضيه في الطريق من البيت إلى الكلية. وأنا استخدم عربية يجرها خيل، فهل تستطيع أن تدرس علي في الطريق بحيث تجري وراء العربية وأنا راكب فيها – وكان فيض الحسن أراد اختبار إرادته وشوقه العلمي – فقبل الفراهي ذلك.

ولا ننسى هنا أن نذكر أنه كان من أسرة غنية ميسورة الحال، وأنه نشأ في ترف ونعيم ولكن حبه العلمي جعله يتحمل كل الصعوبات في سبيله. فلما رأى فيض الحسن أنه صادق في إرادته تحول إليه ومنحه جزءاً لا بأس به من وقته. وهكذا حقق الفراهي أمنيته وهي تكميل تخصصه في الأدب العربي عنده.¹

وهنا أذكر قصة للفراهي قبل ذهابه إلى لاهور وهي تدل على أن الأستاذ الفراهي كان يتحلى بالصدق والصبر منذ البداية. وعانى المشاكل بصدقه في زمن لم يبلغ مستوى نضوجه فكرياً.

وكان يقول إنني أحاول الكلام الصادق في مناسبات يكذب الناس بسهولة وأنه لم يخسر بصدقه قط. وقص لنا قصة ممتعة فقال إنه حينما يرحل إلى لاهور لتدريس الأدب العربي من الشيخ فيض الحسن السهارنبوري فعندما خرج من

¹ حميد الدين الفراهي ومنهجه في التفسير، سيد سعيد الحسن العابدي، نسخة غير مطبوعة،

[https://www.scribd.com/document/33806578/Critical-Article-on-Hamiduddin-](https://www.scribd.com/document/33806578/Critical-Article-on-Hamiduddin-Farahi-in-Arabic)

Farahi-in-Arabic

غرفته بعد لقاء والدته فسأل والده، كم وجدت من روبيات؟ فعلى هذا السؤال ترددت أنني إذا أخبرته صحيحاً فيمكن أن يقلل في روبياته التي يعطيها لي وأردت أن لا أكذب فأجبت أنني لا أخبرك. ذكر لنا الأستاذ الفراهي أن والده فرح جداً بهذه الإجابة وقال: "إن عبد الحميد لم يكذب" وأعطاني روبيات أكثر مما كنت أرجو.¹

ولا نعرف الفترة التي أقامها الفراهي بـ لاهور ولكن العلاقة التي نشأت بينه وبين أستاذه، كانت علاقة متينة للغاية استمرت بعد عودته من لاهور. ولم ينس أستاذه وفضله عليه طول حياته. وقد قام بطبع ديوانه العربي على نفقته الخاصة كما كان الأستاذ يفتخر بالفراهي.²

ويذكر صاحب كتاب "ذكر فراهي" قول ابنه سجاد الذي يدل على علاقة المعلم الفراهي الوطيدة مع أستاذه فيض الحسن السهارنفوري فيقول إنه يتذكر حين كان أبوه حياً أنه قرض أبيات الرثاء لشخصين فحسب. كتب مرثية أختي في الفارسية ومرثية أستاذه فيض الحسن في اللغة العربية.³

وهاتان الشخصيتان من أساتذة المعلم الفراهي - السهارنفوري وشبلي - أثرتا في شخصية المعلم الفراهي أكثر تأثير خاصة في اتخاذ منهج سليم ومنفرد في فهم القرآن. وفي ذلك الزمان حينما مسلك اتخاذ القرآن مهجوراً كان سائداً عند عامة العلماء ولكن هؤلاء الأساتذة كانوا من العلماء القلائل الذين اعتنوا بالقرآن حق الاعتناء وغرسوا هذا الزرع في تلامذتهم والذي تجلى عند الفراهي في حياته

¹ الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي، ترجم كاتب هذا المقال مقالته كاملاً من الأردية إلى العربية.

مقدمة نظام القرآن للأستاذ الفراهي، الدائرة الحميدية بسرائ مير، أعظم جراه

² حميد الدين الفراهي ومنهجه في التفسير، سيد سعيد الحسن العابدي، نسخة غير مطبوعة،

[https://www.scribd.com/document/33806578/Critical-Article-on-Hamiduddin-](https://www.scribd.com/document/33806578/Critical-Article-on-Hamiduddin-Farahi-in-Arabic)

Farahi-in-Arabic

³ ذكر فراهي لشرف الدين اصلاحي، دار التذكير، لاهور، 2002م، ص 143

المستقبلية. ومنزلة فيض الحسن السهارنفوري أعلى حيث كان أستاذًا لكليهما شبلي والفراهي.¹

وذوق الاستفادة من الشعراء الجاهليين والمعلقات السبع عند شبلي والفراهي حتى في فهم القرآن والذي اتخذ الفراهي أصلًا من أصول فهم القرآن كان نتيجة الاستفادة من الأستاذ فيض الحسن السهارنفوري الذي لم يكن له مثل في الأدب العربي الجاهلي في عصره. ويلهم الأستاذ السهارنفوري الرغبة الشديدة في الشعر العربي الجاهلي في قلوب تلاميذه. وهذا اللون والصبغة كانت واضحة وملموسة عند كليهما - شبلي والفراهي - وهذه كانت نتيجة الاستفادة من الأستاذ فيض الحسن السهارنفوري. ولو أن هناك مجالًا للخلاف في الرأي الذي عبره صاحب "ذكر فراهي" عن أفضلية السهارنفوري على شبلي فإن هذه الحقيقة تبقى صامدة أن لفيض الحسن السهارنفوري سهمًا وافرًا في تكوين شخصية الفراهي وتهذيبه وتنقيحه. وعلاقة التلميذ مع أستاذه لم تكن علاقة عادية وأنه استفاد منه مفردًا في بيته - كما سبق - ولذا نهل من منهل أستاذه وبردت غلته العلمية والأدبية. ولو أن فترة الاستفادة لم تكن طويلة ولكنها أثرت كثيرًا على المسار العلمي والقرآني الذي اتخذه تلميذه في حياته في المستقبل.

الشيخ محمد مهدي التشاروي

الشيخ محمد مهدي كان من الفضلاء البارزين في ديار الشرق الشهير في ذلك الزمان لمهد العلماء ومركز الفضلاء. قرية "تشارة" هي قرية شهيرة في مديرية أعظم جراه وقد برز الأعلام والأفاضل خاصة علماء الفارسية من هذه القرية.

وقد ذكر السيد سليمان الندوي اسم الشيخ محمد مهدي في قائمة أساتذة الفراهي.² ولم يعرف عنه وعن حياته إلا قليلًا. وأكثر ما يعرف عنه هو عن طريق

¹ الفكرة مأخوذة من ذكر فراهي لشرف الدين الإصلاحي، دار التذكير، لاهور

² في كتابه الأردوي "يادرفتكغان"

ألسنة الناس وليس مكتوباً عنه مفصلاً في أي مكان.¹ وحتى لم يذكر المعلم الفراهي اسم الشيخ محمد مهدي في كتاباته.

ولكن هناك كتاب يحتوي على حياة فضل كريم الذي تتلمذ معه الفراهي أمام الشيخ محمد مهدي وهذا الكتاب يعرف باسم "حيات أفضل" وفيه ذكر أن فضل كريم والفراهي درسا الفارسية من الشيخ محمد مهدي الذي كان يقيم في قرية الفراهي المعروفة بفريها. وقد ذكر الشيخ إقامته في قرية "فريها" في قصيدة فارسية طويلة. وكان يفتخر الأستاذ محمد مهدي بالفراهي وكان يقول ولو أنه درّس العديد من التلاميذ ولكنهم ذهبوا سدى سوى فضل كريم وحמיד الدين.

وأما عن فترة تعلم الفارسية بنفسه فيكتب المعلم الفراهي ذاته: وتعلمت اللغة الفارسية في مدة تسعة أشهر ولكن لم أشتغل بها إلا بعد عامين لتتابع الأسقام.² ثم تعلم اللغة الفارسية في منزله أيضاً في مدة تسعة أشهر، أخذها عن الشيخ محمد مهدي الذي كان من المؤدبين المشهورين في تلك الديار. وله ديوان شعر بهذه اللغة.³ وسرعان ما حصلت للفراهي بذكائه وتوقد ذهنه ملكة قوية في اللغة الفارسية، وامتلك ناصية البيان، فبدأ يقرض الشعر، ولم تمض مدة قليلة حتى أخذ يجاري فحول شعراء اللغة الفارسية. فقال - وهو ابن ست عشرة سنة - قصيدة صعبة الرديف عارض فيها قصيدة للشاعر الفارسي المشهور خاقاني الشرواني الملقب بحسان العجم.⁴

¹ حسب معرفتي وبيان صاحب "ذكر فراهي"

² معظم المعلومات مأخوذة وملخصة من كتاب "ذكر فراهي" لشرف الدين الإصلاحي

³ نزهة الخواطر، 248/8 نقلاً عن مفردات القرآن للإمام الفراهي، تحقيق وشرح: د. محمد

أجمل أيوب الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، أعظم جراه، الهند، ص 16

⁴ مفردات القرآن للإمام الفراهي، تحقيق وشرح: د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الدائرة

الحميدية، مدرسة الإصلاح، أعظم جراه، الهند، ص 16

توماس أرنلد

توماس وولكر أرنولد هو مستشرق بريطاني شهير ولد في إنجلترا في 19 أبريل سنة 1864م، وتعلم أولاً في مدرسة بلايموث الثانوية، ومن ثم انتقل في سنة 1880م للدراسة في مدرسة "مدينة لندن"، ثم التحق بكلية المجدلية في جامعة كامبردج في سنة 1882م، حيث اجتذبه الدراسات الشرقية تحت تأثير إدورد بيلس كورل، ووليم روبرتسون اسمث، وبعد أن أنجز بنجاح دراسته في الكلاسيكيات أمضى السنة الرابعة في كامبردج - أيضاً - متوفراً على دراسة تاريخ الإسلام.¹

انتقل للعمل باحثاً في جامعة علي جراه الإسلامية في الهند حيث أمضى عشر سنوات أَلَف خلالها كتابه المشهور "الدعوة الإسلامية"، ويذكر أنه كان معلماً للمفكر الإسلامي الهندي محمد إقبال. كان المستشرق والمؤرخ البريطاني البارز للفن الإسلامي الذي كان يدرس في الكلية المحمدية الأنجلو شرقية (جامعة علي كراه الإسلامية حالياً)، ثم كلية علي جراه، وكلية جامعة لاهور. وكان صديقاً لأحمد خان السير سيد، وكتب كتابه الشهير "الدعوة الإسلامية" على إصرار السير سيد.²

وتوفي في 9 يونيو سنة 1930م، وهو في منزله في كنسنجتون، إثر نوبة قلبية مفاجئة، وهو في السادسة والستين من عمره.

وقد أخذ المعلم الفراهي الفلسفة من المستشرق الإنجليزي الشهير توماس أرنلد الذي كان من أساتذة كلية علي جراه، وعمل فيها مدرساً لعشر سنوات. ومن

¹ منيح المستشرق توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام : عرض ونقد، فهد الهتار، 11-12-2010، تصفحت 7-7-2018،

<https://www.ahlaldeeth.com/vb/showthread.php?t=231184>

² ملخص من ويكيبيديا

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D9%88%D9%85%D8%A7%D8%B3_%D8%A3%D8%B1%D9%86%D9%88%D9%84%D8%AF

مؤلفاته كتاب "الدعوة الإسلامية" الذي نال قبولاً عاماً عند الباحثين المسلمين، ولكن الفراهي كان ينتقده انتقاداً شديداً ويرى أن الغرض من تأليفه تجريد المسلمين من روح الجهاد.¹

عبد الحي الأنصاري اللكناوي

هو عبد الحي بن عبد الحليم اللكناوي، علامة الهند، وإمام المحدثين والفقهاء فيها. ولد ببلدة "باند" واشتغل بالعلم على والده، سافر للحج والزيارة مرتين، واستفاد من علماء الحرمين. كان متبحراً في العلوم النقلية والعقلية، ومتضلعا من علوم الحديث وفنونه. بل لم يكن في الهند في عصره من يباريه في ذلك. توفي بلكناؤ عن تسع وثلاثين. وله مؤلفات كثيرة في الفقه والحديث وغيرهما. وطبع معظمها في البلاد العربية بعناية الشيخ عبد الفتاح أبي غدة رحمهما الله تعالى.²

ويكتب نفس المؤلف: "وقد درس عليه الفراهي العلوم النقلية دراسة واعية حتى تبحر فيها".³

ويذكر محقق "مفردات القرآن" عن تتلمذه أمام العلامة عبد الحي: ثم توجه (الفراهي) معه (ابن عمته العلامة شبلي النعماني) إلى مدينة لكاناؤ وحضر هناك مدة يسيرة في دروس العلامة الفقيه الشهير عبد الحي الأنصاري اللكنوي.⁴

¹ حيات حميد ص 34 نقلاً عن مفردات القرآن للإمام الفراهي، تحقيق وشرح: د. محمد أجمل

أيوب الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، أعظم جراه، الهند، ص 18

² أعلام المحدثين في الهند في القرن الرابع عشر الهجري، سيد عبد الماجد الغوري، ص 46، 71 نقلاً عن الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، د. محمد فريد راوي بن عبدالله، دار الشاكر، سلاتجور، ماليزيا، ص 43 وحصلت على هذا الكتاب في مكتبة إدارة علوم القرآن بعلي جراه.

³ المرجع السابق

⁴ مفردات القرآن للإمام الفراهي، تحقيق وشرح: د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، أعظم جراه، الهند، ص 16

الحافظ أحمد علي السكروني

الحافظ أحمد علي كان ينتمي من قرية "سِكْرُوْرُ" بالقرب من بلدة سرائ مير في مديرية أعظم جراه. وهو يعتبر أول أستاذ للمعلم الفراهي حيث قرأ وحفظ الفراهي القرآن لديه في عام 1873 م. ولم يعرف بالتحديد أن الفراهي أكمل حفظه للقرآن في كم مدة ولكن الفراهي يكتب عن حفظه للقرآن فيقول: وحفظت القرآن المجيد وأنا ابن عشرة سنين أو بقرب منها".¹

ويضيف الدكتور محمد أجمل الإصلاحي قوله عن تعليم الفراهي في البداية فيكتب: بدأ الفراهي تحصيله العلمي في منزله كدأب أبناء البيوتات الشريفة، إذ عين له مؤدب يسمى الشيخ أحمد علي، فقرأ عليه القرآن الكريم، وحفظه وهو ابن عشر سنين أو نحو ذلك.²

فضل الله اللكناوي

هو فضل الله بن نعمة الله الانصاري اللكناوي، ولد ونشأ بلكناؤ، وقرأ على مشاهير علمائها. كان في عصره عديم المثال في العلوم العقلية. وله مؤلفات في المنطق وعلم الكلام.³

أخذ الفراهي العلوم العقلية عن الشيخ فضل الله بن نعمة الله الأنصاري (ت 1312هـ) أحد الفضلاء البارعين في المعقولات.⁴

¹ مجلة الضياء، 260/7/2 نقلاً من ذكر فراهي، ص 111

² مفردات القرآن للإمام الفراهي، تحقيق وشرح: د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، أعظم جراه، الهند، ص 16

³ نزهة الخواطر، عبد الحي الحسني، 1325/8 نقلاً عن الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، د. محمد فريد راوي بن عبد الله، دار الشاكر، سلاتجور، ماليزيا، ص 43

⁴ مفردات القرآن للإمام الفراهي، تحقيق وشرح: د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، أعظم جراه، الهند، ص 17

محمد فاروق التشرية كوتي وإرشاد حسين الرام فوري

يختلف المؤرخون في كون الشيخ فاروق التشرية كوتي والشيخ إرشاد حسين الرام فوري أستاذًا للمعلم الفراهي ولكن قبل أن نخوض في هذا البحث لا بد لنا أن نذكر نبذة عن حياتهما العلمية والتدريسية.

فاروق التشرية كوتي هو الشيخ الفاضل العلامة محمد فاروق بن محمد علي أكبر العباسي التشرية كوتي أحد الأفاضل المشهورين في الهند. ولد ونشأ في قرية تشرية كوت الواقعة في مديرية مئو.¹ قرأ المنطق والحكمة والهيئة من الأساتذة البارزين في فنونهم. وأخذ الفقه و الأصول عن المفتي يوسف بن محمد أصغر اللكناوي في المدرسة الإمامية الحنفية ببلدة جونبور، وسافر إلى الحجاز فحج وزار. ثم درس وأفاد في بلاد كثيرة. وفي آخر عمره ولي التدريس بدار العلوم في مدينة لكاناؤ، فدرس بها بضع سنين. احتظيت بصحبته وصادقته في المودة. له رسائل عديدة في بعض الفنون. وله شعر بالفارسية والعربية. مات لثلاث عشرة خلت من شوال سنة سبع وعشرين وثلاث مائة وألف.² ومن تلامذته البارزين العلامة شبلي النعماني والسيد سليمان الندوي، والعلامة جلال الدين الأفغاني والشاعر الأردني الشهير أكبر الإله آبادي.³ وقد ذكر السيد سليمان الندوي اسم الشيخ فاروق التشرية كوتي في قائمة أساتذة المعلم الفراهي مع الأستاذ محمد مهدي ويكتب أن العلامة شبلي كان يدرس الكتب العربية من الشيخ فاروق في أعظم جراه وهو كان من كبار أساتذة اللغة العربية بالإضافة إلى تبحره في اللغة الفارسية. وكانت زيارة المعلم الفراهي لشبلي تتكرر ومن هنا كان يستفيد من علم وأدب الشيخ فاروق أيضًا.⁴

¹ تقع هذه القرية قبل وجود مديرية مئو في مديرية أعظم جراه

² نزهة الخواطر، 451/8-452

³ تذكره مشاهير غازي فور، عزيز الرحمان صديقي غازي فوري، بهارت أفييسيت، دلهي، ص 283

⁴ يادرفتكان، السيد سليمان الندوي، ص 28 نقلًا عن ذكر فراهي، ص 114

وبالإضافة إلى هذه البيئة هناك عدة شواهد أخرى تدل على أن المعلم الفراهي استفاد من الشيخ فاروق التشرية كوتي ولو أن صاحب "ذكر فراهي" يرفض ذكر اسمه في قائمة أساتذة المعلم الفراهي. وهنا نسوق قصة قصيدته التي قرضها الفراهي في مدح السلطان عبد الحميد وجرى فيها شاعر الفارسية الشهير خاقاني الشرواني.

ونستمر في سرد القصة في كلمات الدكتور محمد أجمل الإصلاحي الذي يكتب: فلما عرضها ابن عمته العلامة شبلي النعاني على شيخه العلامة محمد فاروق العباسي- من جلة علماء الفارسية في عهده- وسأله عن قائلها، قال: لا أدري ولكن الظاهر أنها لبعض الشعراء المتقدمين.¹ هذه القصة تدل بجانب على أن علاقة المعلم الفراهي للاستفادة كانت موجودة- مباشرة أو غير مباشرة- مع الشيخ فاروق جريا كوتي، وبجانب آخر تدل على تبحر المعلم الفراهي باللغة الفارسية.

وأما فيما يتعلق عن الشيخ إرشاد حسين الرام فوري فأولاً نطلع على بعض أحواله وحياته العلمية والأدبية.

فهو الشيخ إرشاد حسين بن مولانا حكيم أحمد حسين بن غلام محي الدين بن فيض أحمد بن شاه كمال الدين بن شيخ زين العابدين ويبلغ نسبه إلى الإمام الرباني الشيخ أحمد السرهندي. ولد في شهر نوفمبر عام 1832م في بيلا تالاب بمدينة رام فور.

قرأ الفارسية والعلوم البدائية من والده وأخيه وأخذ العلوم الأخرى من الشيخ غلام نبي والشيخ جلال الدين. درس العلوم العقلية من الشيخ محمد نواب خان الأفغاني النقشبندي وحفظ القرآن في مدة تسعة أشهر.

¹ حيات حميد، الندوي نقلاً عن مفردات القرآن للإمام الفراهي، تحقيق وشرح: د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، أعظم جراه، الهند، ص 17

ويكتب عنه الشيخ الفاضل الإمام أحمد رضا خان في كتابه "كفل الفقيه الفاهم" فيقول: اقضى عليه ناس من كبار علماء الهند كالفاضل الكامل محمد إرشاد حسين الرامفوري رحمه الله تعالى وغيره.¹

وقد استفاد منه خلق كثير ويشد إليه طلبه العلم الرجال. وقام بتدريس العلوم والفنون المختلفة لفترة ثلاثين سنة وكان يفسر القرآن في كل يوم في المسجد ويؤثر درسه على قلوب الناس تأثيراً بالغاً. وأكمل تفسير القرآن مرتين خلال فترة تدريسه.² توفي وقت الفجر الكاذب في 25 من ديسمبر عام 1893 م في مدينة رام فور ودفن فيها ويزور الناس قبره في عدد كثير.³

وهناك خلاف بين المؤرخين والكتاب الذين كتبوا عن المعلم الفراهي أن الشيخ الرامفوري كان من بين أساتذة الفراهي أم لا فيكتب شرف الدين الإصلاحي بهذا الصدد فيقول: يثبت أن العلامة شبلي النعماني درس من الشيخ إرشاد حسين الرامفوري ولكن هل استفاد المعلم الفراهي منه أيضاً شيء ليس لدينا أي دليل قطعي على إثباته.⁴

ولكن نفس الكاتب يقول ضمن رحلة المعلم الفراهي التعليمية إلى مدينة رام فورناقلًا من الشيخ بدر الدين الإصلاحي أن المعلم الفراهي استفاد من الشيخ

¹ تذكره علماء ابلست ص25/فتاوى رضويه، 161/7 نقلًا عن مقالة عن الشيخ الرامفوري في موقع انجمن ضياء طيبه 2015-11-11 م تصفحت في 2018-7-7 <https://www.ziaetaiba.com/ur/scholar/hazrat-molana-shah-irshad-hussain-rampuri>

² حيات مولانا إرشاد حسين رامپوري، ص 22 نقلًا عن المرجع السابق
³ مقالة عن الشيخ الرامفوري في موقع انجمن ضياء طيبه 2015-11-11 م تصفحت في 2018-7-7 <https://www.ziaetaiba.com/ur/scholar/hazrat-molana-shah-irshad-hussain-rampuri>

hussain-rampuri

⁴ ذكر فراهي، ص 193

الرامفوري للتخصص والتكميل.¹ وبعد دراسة كافة التفاصيل عن هذه القضية نصل إلى القول بأنه يمكن أن الفراهي قصد إلى رام فور متتبعًا خطوات شيخه شبلي النعماني واستفاد منه في الفقه والأصول ولكن لا يوجد لدينا قول فصل بهذا الصدد.²

وهنا ننهي كلامنا عن أساتذة المعلم الفراهي ونقول إن لجميع أساتذة الفراهي دورًا ملموسًا في بناء شخصيته وتنقيح ذوقه الأدبي والعلمي وخلق ميله إلى القرآن كما يكون دور الأساتذة في حياة الجميع.

¹ المرجع السابق، ص 134

² نفس الشيء أفادها صاحب كتاب "ذكر فراهي"

الكلمة الافتتاحية

- العلامة أبو الحسن علي الحسيني الندوي¹

ترجمة من الأردوية: د. محفوظ الرحمن²

رئيس الجلسة المبجل، والحفل الكريم:

أنا أتقدم بشكوى الخادم لهذا التقدير والشرف الذي أتيح لي بمناسبة افتتاح هذه الندوة العظيمة أكثر من أن أتقدم إليكم بكلمة الشكر والامتنان. وفي الحقيقة أن هذا الشرف بلاء عظيم بالنسبة لي، ولكن إذا جاز لي فاعتبر نفسي طالبًا صغيرًا لمدرسة الشيخ عبد الحميد الفراهي الفكرية، وكُتبه، وأنا أقول بكل صدق وأمانة إنني قد قرأت مصنفاته بكل جهد وتأن وإمعان منذ أن أُلقيت على عاتقي مسؤولية تدريس تفسير القرآن الكريم في دار العلوم التابعة لندوة العلماء، واستفدت من كتب الشيخ الفراهي رحمه الله استفادة كثيرة. وحينما ذهبت إلى جامعة دمشق على دعوتها حملت معي كتب الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله وخاصة كتابه "جمهرة البلاغة". وكنت متأثرًا كثيرًا بهذا الكتاب كطالب للأدب العربي وطالب مجتهد ومفكر. والتمست من أستاذ جامعة دمشق الذي كان ناقدًا كبيرًا وأديبًا بارعًا وكان صديقي أيضًا، وهو الأستاذ محمد المبارك، وإنه قد عمل كباحث في جامعة باريس، التمس منه أن يكتب مقدمة لـ "جمهرة البلاغة"، والتسمت منه أن ينشر هذا الكتاب من أي مطبعة كبرى مثل "المجمع العلمي العربي بدمشق" ولكن من الأسف أنه لم ينشر. وكذا قلت للشيخ أمين أحسن

¹ كاتب وداعية هندي كبير له مؤلفات جليلة في الموضوع

² أستاذ مساعد (موقت) بقسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المللية الإسلامية، نيو دلهي

الإصلاحي متأكدًا (بارك الله في عمره) خلال إقامتي بمدينة لاهور إن "جمهرة البلاغة" يستطيع أن يعرّف بالشيخ الفراهي كالعارف برموز الأدب العربي، والناقد الكبير، ولذلك لا بد أن ينشر هذا الكتاب، ولكن من الأسف أن هذا الحلم لم يتحقق إلى الآن.

أيها السادة: اسمحوا لي أن أقدم شكواي أمامكم وهي أن هذه المذاكرات العلمية تفيد في ذلك الوقت حينما تكون القلوب واسعة والشعور بالمسؤولية يتبعها، وهذه حقيقة أن تعريف الشيخ الفراهي رحمه الله لم يصل إلى العالم العربي حسب مكانته العلمية، وليس في التعريف به أي عجز لمصنفاته وإظهار بيانه وفكره. وليست هذه مسؤوليتكم فحسب بل هي مسؤوليتنا أيضًا، وأنا أشارك ندوة العلماء أيضًا في هذه المسؤولية أن اسم الشيخ الفراهي رحمه الله لم يصل إلى العالم العربي وخارج الهند كما يرام وطبقًا لمكانته العلمية والثقافية، وإن تم هذا العمل فلا نرى مجرد وجوه هؤلاء الشخصيات المباركة الذين هم من الهند فحسب، بل نرى فيها وجوه أعلام العرب، وهذا من الممكن أن كانت هناك مشاكل التنظيم والتنسيق أو قلة الوقت في هذه الندوة، ولكن لم تعرف شخصية الشيخ الفراهي في العالم العربي بما فيها مصر والشام والمغرب الأقصى كما وقع في الهند والباكستان. وإن هذه مسؤولية أبناء مدرسة الإصلاح، وأنا أشارك فيها المتخرجين في ندوة العلماء أيضًا، ولأنهما من أسرة واحدة، ولله الحمد كنت أشعر بهذه العلاقة منذ البداية، وهذه مسؤولياتنا، وعلينا أن نملاً هذا الفراغ.

وبعد ذلك، أقول: قد مضى في القرن الثاني عشر من الهجرة عالم كبير وناقد عظيم اسمه العلامة الشوكاني وهو معروف في الأوساط العلمية بكتابه الشهير "نيل الأوطار" وهو كان مفسرًا أيضًا، أُلّف تفسيره بعنوان "فتح القدير" وهو يكتب أمرًا ذا أهمية، أريد أن أقدمه أمامكم. يقول العلامة الشوكاني: إن العلوم الإسلامية تنقسم إلى أربعة أقسام، وهي: علم نضج واحترق، وعلم نضج وما

احترق، وعلم ما نضج وما احترق. وليس فيه عيب بل هذا إظهار تطوره بأنه قد وصل إلى النضج والكمال، ويأتي فيه علم النحو وعلم الحديث كما اعتقد، وليست فيه مجال للإضافة ولا مكان لكلمة (قيل وقال) في علم النحو، وكتب كثير من العلماء في علم النحو وإن يقول أحد "إن في هذا الأصل من علم النحو خطأ" و"يجب أن يكون هذا الأصل هناك"، و"ليس هذا القياس صحيحًا"، و"إن هذا القياس جيد هنا" وما إليها فقد كان هذا عمل العرب وأهل اللغة والعلماء البارزين الذين كانوا في عصورهم، وأذكر اسم سيبويه خاصة. أكمل هؤلاء العلماء هذا العمل. وأما علم الحديث وروايات الحديث وأسماء الرجال فيأتي أيضًا في هذا النوع من العلوم. ثم يقول: إن العلم الذي نضج وما احترق هو علم الفقه وهذا قول صحيح لأنه مادام الجيل الإنساني باقياً على وجه الأرض ويستمر التغير في العالم ويأتي التنوع في الحياة الإنسانية وتطلبات الحياة الإنسانية مطلقة، لا نستطيع أن نقول إن علم الفقه قد اكتمل ودونت المسائل الفقهية كلها، وأجوبة كل شيء موجودة. ولذلك مجال الاستحسان والمصالح المرسلة والعرف موجود، وبه يبقى باب الاجتهاد مفتوحاً، ثم قال: إن العلم الذي ما نضج وما احترق هو علم التفسير، وأقول هذا في تردد وخوف. ولا يفهم من هذا القول أنه لم تتم أي دراسة في علم التفسير، بل سبب هذا العلم أنه يتعلق بعلم الله تبارك وتعالى وكلامه والحياة الإنسانية والكون وإنسان العالم كله والاحتياجات الإنسانية والفطرة الإنسانية ولذلك لا يمكن أن يحدد أن قد أجيب عن كل شيء، ودُونَ. ويبقى في علم التفسير مجال للسعة، ولد الناس وأضافوا إليه، ويعد الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله أيضاً من هؤلاء العلماء، وتدل الآية الكريمة بأننا لا نستطيع أن نحدد تفسير القرآن في أرض خاصة أو عصر خاص أو علم أي شخص، وكما جاء في القرآن الكريم: "وضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس". تبين هذه الآية

الكريمة أنه ليس هناك إمكان لتحديد مساحة مرحلة القرآن الكريم ولا مساحة منطقته، هذه كلمة طيبة كشجرة طيبة فلا يمكن تحديد مساحة منطقته لأن الله تبارك وتعالى يقول: "تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها" وستثمر هذه الشجرة حسب كل عصر واختلاف أحوال الحياة الإنسانية وفوارقها وحسب كل مستوى الفكر الإنساني وحسب كل الاحتياجات الإنسانية وكل تغير الذوق وتطلبات الاحتياجات الإنسانية. ولذلك يجب علينا أن نفهم أن علم التفسير علم شامل لا في العلوم الإسلامية فحسب بل هو علم شامل في العلوم الإنسانية كلها، ولا نستطيع أن نحدده في أي عصر ولا نقول إنه قد اكتمل، ولا ادعى أحد من علمائنا المفسرين ومنهم الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله أيضًا بسبب حبه مع الله وعلمه، أن لا حاجة للتدبر في القرآن الكريم ولا مجال للتفكير فيه. واسمحوا لي أن أنشد شعراً للغزلية كتبه الشاعر المعروف محمد إقبال:

گمان مبر کہ بیا یان رسید کار مغان هزار بادہء ناخوردہ در گِ تَاک است

ترجمة: لا تظن أن عمل الساقى قد انتهى، فتوجد ألف كأس لم يمسّها إنس في داخل عروق العنب.

لا تعتقدوا أن الساقى أنهى عمله وكل شيء موجود في حانة الخمر، فقد بقي قدر كبير من الخمر في عروق العنب. التشبيه جيد ولكن ماذا نفعل فإنها لغة الشعر، وللشعر لغة خاصة في كل زمان ومكان. وله استعارات تخص به، وهو يقول إن في عروق العنب قدرًا كبيرًا من العصير ولكن ما فعل الرجل الذي يصنع الخمر منه أو الرجل الذي يصنع منه ماء الزلال والشراب الطهور فما حصل على عصيره، فلا بد أن نتذكر الشينين، وأقول لكم كخادم مدرسة أو سالك طريق العلم ومنزله، وأقدم إليكم مشورتي المخلصة، يجب علينا أن نعترف بأعمال ذلك العالم في عصره الذي كان عارقًا بالرموز وبالله وبالواقع والذي قام بدراسته حسب

مستطاعه ووفق توفيق الله تبارك وتعالى، وفي الحقيقة توفيق الله تبارك أمر حقيقي، وإن لم يكن توفيق الله والصدق وخوف الله تبارك وتعالى، ولا يكون فيه حب الحقيقة وطلبها فلا يُوضع ذلك العمل بعين الاعتبار. وليست له فائدة، وفائدته مشكوك فيها، ويجب علينا أن نعترف بأن عالمًا فلانًا في عصره وأقول بصراحة إن إمام التفسير الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله قام بدراسته في عصره ولم يقم بها أحد حتى الآن، ويوجد فيها كثير من جوانب الندرة والتفرد.

وأريد أن أقول كطالب علم للتفسير ثم كمعلمه عن ثلاثة أشياء بما فيها علم نظم الآيات القرآنية خاصة، إن يقل أحد إن أحدًا لم يقم بأي دراسة في هذا المجال فهذا ليس بصحيح. يشتمل كتاب "تبصير الرحمن وتيسير المنان" للصوفي الشهير الشيخ مخدوم علي المهائمي رحمه الله على نظم الآية، وهذا من حسن الحظ أن متخرجًا من مدرستكم وهو عبد الرحمن برواز الإصلاحي ألف كتابًا حول سيرته. وحاول الشيخ المهائمي ربط الآيات القرآنية واعترف به مؤلف "الثقافة الإسلامية في الهند" و"نزهة الخواطر" أيضًا. واعترف علماء ذلك العصر وأدباؤه بهذا العمل، واشتهر أن الشيخ المهائمي رحمه الله هو أول مفسر حاول أن يقوم بدراسة عميقة حول موضوع نظم الآيات. ولكن أقول بكل احترام إنه قد دخل فيه بعض أجزاء التصوف، ويتكرر فيه ذكر الاستفادة من خضر عليه الصلاة والسلام. وبالجملة فقد قام العلماء بالدراسة على موضوع نظم الآيات، ولكن هذه حقيقة أيضًا أنه لا يوجد نظير شامل لنظم الآيات القرآنية قبل ذلك بأن أحدًا قدّمه على طريقة شاملة ومستوعبة بعد تأسيس نظم الآية، وليست هناك آيات مربوطة في القرآن فحسب، ولا تقع الفجوة بينها ولا يوجد البعد المعنوي فيها، بل يبين هدف نزول نظم الآيات القرآنية، وأوامر الله تبارك وتعالى للإنسان التي عينها الله عامة. أقول مع الحذر: نستطيع أن نقول إن مثل هذه الدراسة لم يقم بها أحد قبله. وأريد أن نعرفها لكي لا يفهم طالب العلم فارغًا من العمل ولا يستند على التاريخ فقط، ولا تكون ميزته

إعادة التاريخ والاعتزاز به، بل تكون هذه الدراسة حافزة لتقدمه. وهذا بجانب أن نعترف بخصائص دراسة القرآن الكريم في ذلك الوقت التي قام بها أحد من العلماء. وإن الحقيقة الكبيرة التي هي بين أيدينا وجمعتنا هي دراسة الشيخ عبد الحميد الفراهي العظيمة عن فهم القرآن ونظم الآيات وأقسام القرآن. وقد نسيت أن هذه الدراسة تنقسم إلى ثلاثة أقسام. وحينما كنت أدرس تاريخ الأدب العربي وتفسير القرآن الكريم في دار العلوم التابعة لندوة العلماء، قد علمت هذه الأقسام وكان منها الأول نظم الآيات والثاني أقسام القرآن، وقد أَلَف العلامة ابن القيم كتابًا حول أقسام القرآن، وتحدث الشيخ ولي الله رحمه الله كذلك والآخرين غيره حول هذا الموضوع. ولكن الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله ينتخب الآيات المستقلة والسور ثم يبين فيها الأقسام وما تتعلق الأقسام بها، وكيف يعد الأذهان، وإلى أين يتوجه، وما هي أوجه الشبه بين هذه الأقسام والموضوعات التي تأتي بعدها، وتُعد دراسته حول هذا الموضوع دراسة أخيرة إلى يومنا هذا. والشئ الثالث كتابه "جمهرة البلاغة" وقد فضّل الشيخ في هذا الكتاب البلاغة العربية وأصولها وفهم العرب وبلاغتهم وأذواقهم البلاغية. وذكر الشيخ أنه كيف وماذا أثرت أفكار الأجانب في البلاغة العربية على كتابات البلاغيين المتأخرين.

ولا يكفي هذا أن نعقد الندوة حول شخصيته وتنجح الندوة ويحضرها العلماء البارزون، بل يجب عليكم أن تنظروا في دراسات الشيخ عبد الحميد الفراهي نظرة طلبة العلم وأصحاب البصيرة مع دراسة مقارنة بينها وبين الكتابات المتشابهة، ولا بد أن يتم التعريف به في البلدان العربية، ومع هذا يجب علينا أن نفهم أن دراسة علم التفسير لم تنته إلى الآن، إن هذه الآية "تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها" إعلان كبير في القرآن الكريم، وهذا من الممكن أن نالم نتدبر في هذه الآية أن الله تبارك وتعالى كيف يقول مع التحدي فيها، وأقول بصراحة إن ميزات الشجرة الطيبة بأنها تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. فعصر تفسير القرآن الكريم لا ينتهي على مفسر حتى على الإمام

الرازي الذي يعدّ أشهر مفسر وأكبر محام للقرآن الكريم مقابل فلاسفة اليونان. ويعترف كل من الناس بأنه فريد من نوعه في الرد على ما جاء به هذه الفلاسفة ضد الآيات القرآنية. فلا نعتبر الإمام الرازي المفسر الأخير ولا ينبغي لنا أن نعتقد عن أي رجل بأنه مفسر أخير. وفي جانب يجب علينا أن ندعو للعلماء السلف بكل إخلاص ونعتبر أنفسنا مدينين لهم ونعتقد بأننا تلاميذهم الصغار وخدام لهم. وفي جانب آخر يجب علينا أن نؤمن بأن القرآن المجيد لا يزال باقياً إلى يوم القيامة ولا يمكن أن تنفذ معاني كلماته وتنحط مكانته الرفيعة وتنقطع سلسلته الأبدية وأن يجف نبع أفكاره ومعانيه. وكما أعتقد: إن نعجز عن فهم هذه الحقيقة بالنسبة إلى شخصيات العلماء السلف في صدد القرآن الكريم. نعتقد خطأ بأن جميع الأعمال- التي كان من الواجب القيام بها- حول القرآن قد تمت.

ثانياً: علينا أن نستفيد كل الاستفادة من أعمال العلماء السابقين ونواصل جهودنا في هذا الصدد ونبذل أوقاتنا لهذه الدراسة. ومع خوف سوء الظن بي، أقول معتزلاً بأنه ليس بصحيح أن يفهم أحد القرآن الكريم وهو يستند استناداً كاملاً إلى شخص وينظر بنظرته ويستظل في ظله. ولعل العلماء الموجودين في القاعة يفهمون الضرورة التي تدفعني إلى هذا القول. أقول هذا لأن مثل الذي يفهم القرآن الكريم بمساعدة شخص آخر كمثال الذي يقف على ضفة نبع صاف ويقع نبات الورد أو تقع شجرة ذات ثمار طيبة نافعة بينه وبين النبع الصافي. فلا يستطيع ذلك الشخص أن يتمتع بالمنظر البهيج بالنبع وراء ظل الشجرة ويستفيد من عذوبة النبع ونقائه إلى الحد الذي يمكن له في عدم وجود الشجرة على ضفة النبع. وفي عدم وجود أي شيء على ضفة النبع الصافي يستطيع الرجل أن يرى النبع بعينه مباشرة ويفهم بأن ذلك النبع الصافي ليس بنبع صاف فقط بل هو نبع كاف. خلال كلامي حول دراسة القرآن، بعد تفكير قليل، أقول مع المعذرة- وأعد تقديم هذه الكلمات من مسؤولياتي:- ليس من الإنصاف مع القرآن الكريم

أن نضع أي شخصية، ولو كانت شخصية كبرى للغاية، بيننا وبين القرآن الكريم وأن نعتقد بأننا لا نستطيع فهم القرآن بدون تلك الشخصية بطريقة صحيحة ولا يمكن لأي شخص أن يفهم القرآن الكريم إلا بتلك الشخصية لأنه فهم القرآن وحده. وليس هذا بالإنصاف في حق القرآن الكريم. فمن اللازم أن يجري ذلك النبع الصافي طبيعياً. ويحتمل أن يقع عليه ظل شيء لأن الاجتناب منه متعذر ولكن لا ينبغي أن يبقى الظل عليه ويعيق الاستفادة منه. إذا وضعنا هذه الحقيقة أمام أعيننا فلا يزال فن التفسير يترقى ويتوسع نطاقه. والله قادر في كل زمان على أن يخلق من بين طلاب المفسرين القدامى علماء وشارحين للقرآن الكريم يأتون بشيء من المزيد حسب العقلية في عصورهم.

وفي الأخير أقدم إليكم هدية الشكر والامتنان وكذا أقدم اعتذاري على عدم تقديمي شيئاً مكتوباً في هذه الندوة لأنني رجعت حالياً من رحلتين طويلتين -وفي الأخير أجدد طلبي منكم للاستعداد الكامل للتعريف بأعمال الشيخ عبد الحميد الفراهي للعالم العربي. عليكم أن تبعثوا الوفود العلمية لإلقاء الخطب والمحاضرات لتسليط الضوء على أعمال الشيخ الفراهي ومدى فهمه للقرآن الكريم ومنهجه في نظم الآيات. وذلك يكون عن طريق تقديم النماذج لمساعيه وإنجازاته حول أقسام القرآن وفكرته الخاصة. وكما أقول لكم إن كتابه "جمهرة البلاغة" يحتاج إلى العناية به والدراسة فيه. وأعتقد أن صديقي الأستاذ محمد المبارك، الأديب الكبير والناد الجاد، بدأ دراسته ولكن لم يتمها لأن الكتاب كان مطبوعاً بطباعة الليثو أو لأجل الإيجاز الذي يوجد في كتابات الشيخ الفراهي وكتابات كثير من العلماء والمجتهدين القدامى. وهذه الضرورة ما زالت باقية والمجال لها مفتوح إلى الآن. وسيكون هذا من الإنجازات الكبيرة إن يقيم به بعضكم ويتناول "جمهرة البلاغة" لموضوع بحثه ويقوم بالبحث حسب المناهج المألوفة ويكتب مقدمة عليه، ويقوم بدراسته المقارنة، ويبين كيف فهم الشيخ الفراهي

علم البلاغة العربية حسب ذوق العرب وعادة القرآن الكريم وكيف حاول إفيهامه وما هي الميزة التي يتحلى بها هذا الكتاب.

إن صدرت من في كلمات يمكن استغلالها وتحويلها إلى المفاهيم الخاطئة، فأقول بأنني لا أنوي تلك المعاني. وأقدّم لكم اعتذاري إن صدرت مني الكلمات التي يمكن استغلالها ويمكن التلبس فيها. وكما أشكركم على منحكم هذه الفرصة لي. أدعو الله ألا يجعل هذه الندوة ذكرى من ذكريات الماضي أو القصة التاريخية للعصر الجديد فقط، بل يجعلها حافزة لنا ونافذة لعصر جديد لأن أكثر ندواتنا المنعقدة حول الشخصيات الكبرى تصبح تاريخاً لعصر وتعدّ كالوقائع والإنجازات التاريخية ولا تصبح حافزة. فأدعو الله وألتمس منكم أن تصبح هذه الندوة حافزة للناس وأن تكون بداية لا نهاية. ومن اللازم أن تنبّه هذه الندوة عقول علماء الأمة عامة وأن تدفع الفضلاء والباحثين والكتاب والطلاب لمدرسة الشيخ عبد الحميد الفراهي خاصة إلى الجوانب التي تحتاج إلى الدراسات الفنية لكي تستنير دراسات الشيخ الفراهي أكثر وتشعر روحه بمزيد من الفرح والسرور وتغني المكتبات الإسلامية بالجديد من المحاولات ويجد الفكر الإسلامي مادة جديدة ومساراً حديثاً.

الشيخ عبد الحميد الفراهي

حياته وجهوده في مجال الدراسات القرآنية

- د. محمد فريد راوي بن عبد الله¹

ملخص البحث

يتناول هذا البحث ترجمة مختصرة للشيخ عبد الحميد الفراهي، أحد أجلة علماء المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري، ومن أكابر المفسرين للقرآن الكريم، وأعلام المؤلفين في علومه ومعارفه ودقائقه في هذا القرن، كما يقوم البحث بتعريف لكل ما دَبَّجته يراعة هذا العالم الجليل في هذا المضمار المبارك من مؤلفات قيمة، ورسائل نفيسة، والتي لم يسبقه إلى تأليف مثلها أحدٌ من قبل، فكان في كثير من موضوعاتها ابن بجدة وأبا عذرة، فلذلك استحق مني هذا العلم الشامخ بجداره أن أتناول التعريف بسيرته الذاتية، وأعماله الجليلة القيمة في هذا البحث، الذي يشتمل على مبحثين، أولهما يخص بسيرته، والثاني بآثاره العلمية في حقل الدراسات القرآنية.

مقدمة البحث:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد: فإنَّ لعلم التفسير منزلة عظيمة ومكانة عالية بين العلوم الشرعية، ونظرًا إلى ذلك فقد قام العلماء بخدمة هذا العلم من شتى نواحيه في كل مصر

¹ مدير معهد الأبحاث العلمية المتطورة (RMC) والمحاضر في قسم الكتاب والسنة، الأكاديمية الإسلامية في الكلية الجامعية الإسلامية العالمية بلانجور - ماليزيا.

وعصر، ووقفوا لذلك حياتهم، ومنهم: المفسر الأديب، العلامة الجليل، المؤلف المكثّر: الإمام عبد الحميد الفراهي، الذي كان جامعاً بين التبحر في العلوم العربية والدينية، والاطلاع الواسع على العلوم العصرية والطبيعية، ويظهر أثر هذه الثقافة الموسوعية العميقة في معظم مؤلفاته التي كتبها باللغة العربية والأردوية معاً في موضوعات مختلفة، والتي تبلغ واحداً وخمسين كتاباً، ومن أهم تلك الكتب وأعظمها ما ألفه حول القرآن الكريم وتأويله وتفسيره، وفصاحته وبلاغته، ومفرداته، وكل ما يتصل به من العلوم القرآنية.

الأسف أنّ هذا العالم الجليل، والعلم الكبير ما زال مجهولاً في كثير من الأوساط العلمية، على الرغم من كثرة إنتاجه العلمي الذي يتميز بالأصالة والتحقيق. فوددتُ أن تكون جهود هذا الإمام في الدراسات القرآنية تلك، موضوعاً لهذا البحث المتواضع، الذي يهدف إلى التعريف بسيرة الفراهي العلمية من أهم جوانبها، ثم إلى إبراز جميع جهوده في خدمة القرآن الكريم وعلومه.

المبحث الأول: سيرة الإمام الفراهي الذاتية والعلمية:

يحتوي هذا المبحث على ثمانية مطالب، وسأتناول تحت عناوينها التعريف بسيرة الإمام الفراهي من أهم جوانبها الذاتية والعلمية باختصار.

المطلب الأول: اسمه ونسبه ونسبته:

اسمه: هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قُربان قنبر بن تاج عليّ، حميد الدين.¹ نسبه: يُنسب إلى عائلة معروفة في الهند تُسمّى "الأنصاري"² كما أشار إلى ذلك في بعض كتبه.¹

¹ انظر: الندوي، سيد سليمان، في ترجمته للفراهي في مقدمة الكتاب "إمعان في أقسام القرآن" 1415هـ/ 1994م، دمشق: دار القلم، ط. 1، ص 13

² قيل أن نسبة الأنصاري إلى أسرته الأنصارية ذات الانتشار الواسع في بلاد القارة الهندية، وصدر خلاف شديد، منهم من يدعي أنهم من "أنصار المدينة"، ومنهم من يقول أنها أسرة هندية الأصل، وأسلم أجدادها.

نسبته: أما نسبته فهي إلى قريته التي أبصر فيها النور، والتي تُعرف بـ"فريها"، وهي من قرى "أعظم كره" من مديريات الإقليم الشمالي في الهند المسمى بـ"أترابريديش".

المطلب الثاني: مولده:

وُلد الفراهي في قرية "فريها" صباح يوم الأربعاء، سادس جمادى الآخرة، سنة 1280 هـ، في أسرة علمية كريمة معروفة بنسبها وحسبها وعلمها وفضلها ومكانتها الاجتماعية.²

المطلب الثالث: نشأته ودراسته:

بدأ الفراهي طلبه للعلم بحفظ القرآن الكريم، فأكمّله وهو ابن عشر سنين أو نحو ذلك.³

ثم شرع في تعلّم اللغة الفارسية في مدة تسعة أشهر على أحد الأساتذة البارعين، وبرع فيها حتى استطاع أن يقرض بها الشعر.⁴

ثم أقبل على تعلّم اللغة العربية، فتعلّمها على ابن عمّه العلامة شبلي النعماني، الذي كان من كبار علماء اللغة والأدب في شبه القارة الهندية. فأتقن الفراهي هذه اللغة إتقانًا كاملاً، ثم تاقّت نفسه إلى قراءة آداب هذه اللغة، فدرسها على الشيخ فيض الحسن السهارنفوري، الذي كان يعدّ وقتئذٍ من كبار علماء اللغة والأدب في شبه القارة الهندية، وألّم الفراهي بهذه اللغة إلمامًا تامًا.

¹ انظر: عبد الحي بن فخر الدين الحسني 1420 هـ / 1999 م. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، بيروت: دار ابن حزم، ط. 1/ 8/ 126

² أجمل الإصلاحي، ترجم له في مطلع كتاب "مفردات القرآن، نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية"، 2002 م، تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط: 1، ص: 16.

³ الإصلاحي، شرف الدين: 2002 م، ذكر فراهي، أعظم كره، الدائرة الحميدية: ط: 1، ص: 19

⁴ عبد الحي الحسني، نزهة الخواطر: 8/ 1267

وبعد أن أخذ الفراهي حظاً وافراً من اللغتين الفارسية والعربية؛ وأتقنها حتى استطاع فيما بعد أن يؤلف ويحاضر فيها، وله في هذه اللغة رسالة ألفها عن عقيدة الشفاعة والكفارة، ردّها على بعض علماء النصراني¹.

كما أنه تعلّم أيضًا اللغة العبرانية على المستشرق اليهودي الألماني جوزف هوروفيتس، وقد أعانته هذه اللغة كثيرًا فيما بعد في قراءة التوراة للمقارنة بينها وبين القرآن الكريم، وكذلك أعانته هذه اللغة على الردّ على اليهود والنصارى في بعض المسائل الدقيقة².

ثم رحل الفراهي إلى مدينة "لكنؤ" حيث قرأ العلوم النقلية والعقلية، على الإمام المحدث الفقيه الشيخ عبد الحي الحسني اللكنوي، ثم على الشيخ فضل الله الأنصاري اللكنوي، اللذين كانا من أئمة هذه العلوم في الهند في ذلك العصر³.

المطلب الرابع: اشتغاله في مجال التدريس:

عُيّن الفراهي مدرّسًا للغة العربية في "مدرسة الإسلام" بمدينة "كراتشي" في عام 1314 هـ، وظلّ يعمل فيها قرابة تسع سنوات. ثم انتقل إلى "كلية عليكره" في سنة 1324 هـ، وعيّن فيها أستاذًا مساعدًا للعربية، ودّرس فيها سنتين. ثم انتقل من هناك إلى "جامعة إله آباد" حيث قام بتدريس العربية بمرتبة أستاذ نحو ست سنوات، كما اختير في سنة 1332 هـ رئيسًا لـ"دار المصنفين" في مدينة أعظم كره، وترأسها حتى وفاته⁴ وقد تخرّج على الفراهي الكثير من علماء الهند، وكان أشهرهم وأنبغهم وأكثرهم ملازمة له: الشيخ أختر أحسن الإصلاحي (ت 1378 هـ)⁵ والشيخ أمين أحسن الإصلاحي (ت 1418 هـ) صاحب التفسير الشهير "تدبر القرآن" بالأردوية⁶.

¹ انظر: الندوي، سليمان في ترجمة الفراهي للحقة بكتابه "إمعان في أقسام القرآن": 19

² انظر: أجمل الإصلاحي، في ترجمة للفراهي في مطلع كتاب "مفردات القرآن": 24

³ الحسني، عبد الحي، نزهة الخواطر: 1267/8

⁴ المرجع السابق: 1267/8

⁵ انظر: أجمل أيوب الإصلاحي، في ترجمة الفراهي في مطلع "مفردات القرآن": 31

⁶ انظر: المرجع السابق: 31-32

المطلب الخامس: من صفاته الخلقية والخلقية:

كان أسمر اللون المائل إلى البياض، ونحيل الجسم، ومتوسط القامة، وكامل اللحية، قليل الكلام، كثير الفكر، محباً للعزلة، ومهيباً ووقوراً، رشيداً ورزئاً.¹ عُرف طيلة حياته بفرط الذكاء، ونفاذ البصر، وسرعة الإدراك، ودقة الاستنباط، وغزارة العلم، وسعة الاطلاع، فكان عالماً ذا ثقافة واسعة متنوعة، فقد برع في العلوم النقلية والعقلية، ومهر في اللغات الشرقية والغربية، وبرع في الفلسفة الحديثة، وتلك أمور لم يتصف بها أحد من علماء الهند قديماً وحديثاً، ثم لم يزد ذلك كله إلا قوةً في الدين وغيره عليه، واستقامةً عليه علمياً وعملياً. وكان زاهداً في الدنيا، ومتواضعاً في غاية التواضع، مع جود وغنى نفس.²

المطلب السادس: كلمات في الثناء عليه:

لقد اعترف الكثيرون من كبار علماء الهند والعالم الإسلامي بما كانت تتمتع به شخصية الفراهي من غزارة علم، وسعة إطلاع، فأثنوا عليه كعالم للقرآن وعلومه، وملم بالغة العربية وآدابها، ولا يسع المقام هنا لسوق كل ما قالوا فيه ثناءً عليه ومدحاً له، لذلك أكتفي هنا بذكر بعض أقوالهم في ذلك:

يقول تلميذه العلامة السيد سليمان الندوي: "هو شخص واحد اجتمع فيه عالم من العلم والمعرفة، ماهر في العلوم الدينية، ناقد للعلوم العقلية، وحيد عصره في علوم العربية، نسيج وحده في علم القرآن، عارف بحكمته ودقائقه، كُنِيف مُلئ علماً، ولكن لم يُنقل من علمه - مع الأسف - إلى الدفاتر والأوراق إلا قليل..."³

¹ الإصلاح، شرف الدين: 2002م، ذكر فراهي، أعظم كره، الدائرة الحميدية: ط: 1، ص: 67.

² راوي، محمد فريد، 1435هـ/2015م، الإمام عبد الحميد الفراهي، وجهوده في التفسير علوم القرن، سلاجور، دار الشاكر ط: 1، ص: 46.

³ سليمان الندوي، في مقاله الذي كتبه إثر وفاة الفراهي في مجلة "معارف" الأردنية، المجلد: 6، العدد السادس: 322.

وقال العلامة رشيد رضا المصري بعد أن اطلع على بعض أجزاء من تفسير الفراهي، ما نصه: "وقد ألقينا على بعض هذه الرسائل لمحة من النظر، فإذا طريق جديد في أسلوب جديد من التفسير، يشترك مع طريقنا في القصد إلى المعاني من حيث هي هداية إلهية، دون المباحث الفنية العربية... وإنّ للمؤلف لفهًا ثاقبًا في القرآن، وإنّ له فيه مذاهب في البيان...، وإنه لكثير الرجوع باللغة إلى مواردها والصدور عنها ريان من شواهدا.¹

قال الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي بعد زيارته للفراهي في مسقط رأسه في عام 1342هـ حين كان في زيارة للهند، يقول: والرجل فصيح في التكلم لغاية، نادر في علماء العرب فضلًا عن علماء الهند... سمعت من خطبة تفسيره للقرآن، اغرورقت منها عيناى لفصاحتها وحقيتها... وهو مجتهد في العقائد والعمليات، لا ينتهي لمذهب؛ لكنه يتعبد على مذهب أبي حنيفة؛ لأنه نشأ عليه ويعتقد أن الأمر في مثل ذلك سهل، ماهر في الإنجليزية والعربية والفارسية والأردية، وبالجملة فهو أعلى من لقيته قبل هذا الحين".²

وقال العلامة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي: إنه "جمع بين التدبر في القرآن والاشتغال به، والتذوق الصحيح لفنّ البلاغة والمعاني والبيان في اللغة العربية، وبين التشبّع من دراسة بعض اللغات الأجنبية والصحف السماوية القديمة، وسلامة الفكر، ورجاحة العقل والتعمق...، وذلك فضل لله يؤتيه من يشاء".³

¹ الإصلاحى، أجمل، في ترجمة للفراهي في "مفردات القرآن": 21، نقلًا عن رشيد رضا، في مجلته المنار عدد شهر صفر عام 1327هـ

² انظر : المراكشي، تقي الدين، في مقال له عن الفراهي، المنشور في مجلة الضياء (الصادرة عن دار العلوم لندوة العلماء بلكنؤ في الهند) المجلد الثاني، العدد السابع: 260

³ في مقدمته لكتاب: "الإمعان في أقسام القرآن" للشيخ عبد الحميد الفراهي: 13

المطلب السابع: وفاته:

توفي وهو يتلو القرآن الكريم، في مدينة "مثورا" في شمالي الهند، في التاسع عشر من جمادى الثانية سنة 1349هـ الموافق الحادي عشر من نوفمبر سنة 1930م، رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

المطلب الثامن: مؤلفاته:

وقد ألف الإمام الفراهي العديد من الكتب بالعربية والفارسية والأردوية، والتي تتناول موضوعات متنوعة، ولكن أغلبها في القرآن وعلومه، وها هو تعريف موجز لكل منها:

- 1- نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان.
 - 2- مفردات القرآن.
 - 3- الإمعان في أقسام القرآن.
 - 4- أساليب القرآن.
 - 5- الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ.
 - 6- حكمة القرآن.
 - 7- الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح.
 - 8- حجج القرآن: الحكمة البازغة والحجة البالغة.
- وهذه أهم مؤلفات الإمام الفراهي في الدراسات القرآنية، وسأقوم بتعريف موسّع لكل منها في المبحث الثاني.
- 9- التكميل في أصول التأويل: وهو كتاب أفرده الفراهي لذكر أصول لتأويل القرآن إلى صحيح معناه. فموضوعه الكلمة والكلام من حيث دلالاته على المعنى المراد. وغايته فهم الكلام وتأويله إلى المعنى المراد المخصوص، بحيث

تنجلي عنه الاحتمال، وهذا من جهة العموم؛ فإن قواعد التأويل تجري في كل كلام، ونفعها عام يتعلق بفهم معنى الكلام من أي لسان كان، ولكن النفع الأعظم منه في فهم كتاب الله ومعرفة محاسنه للاعتصام به.

10- فاتحة نظام القرآن: وهي عبارة عن مقدمة الفراهي لتفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".

11- دلائل النظام: وقد شرح الفراهي في هذا الكتاب فكرة النظام في القرآن الكريم، ووضح أن للترتيب والنظام حظاً وافراً في كل مركب، ولا سيما في القرآن الحكيم، والذين يزعمون خلاف ذلك فإنهم أخطأوا في زعمهم، ولم ينصفوا كتاب الله، ثم يصرح بعد ذلك بأن القرآن الحكيم كلام منظم، ومرتب من أوله إلى آخره، على غاية حسن النظم والترتيب، وليس فيه شيء من الاقتضاب لا في آياته ولا في سوره، بل آياته مرتبة في كل سورة كالقصص في الخواتم، طبع هذا الكتاب مع كتاب "التكميل في أصول التأويل" وكتاب "أساليب القرآن" في الهند عام 1411هـ.

12- تفسير سور من القرآن: وهو جزء من أجزاء تفسيره "نظام القرآن" الذي سأحدث عنه بشيء من التفصيل في المبحث الثاني.

13- أسباب النزول: وهو في بيان أسباب نزول القرآن الكريم كما هو واضح من عنوانه.

وإضافةً إلى ذلك فإن للإمام الفراهي تعليقات مفيدة في التفسير كتبها على حواشي نسختين من المصحف في أثناء تدبره للقرآن الكريم، كما أن له أيضاً عدة كتب في الدراسات القرآنية، والتي ما زالت مخطوطة، منها:

14- أوصاف القرآن.

15- تزكية الروح في ضوء القرآن الكريم.

16- نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان بقيت أجزاء قصة من هذا التفسير لم تُطبع إلى الآن، منها: تفسير سورة البقرة، وهو يشتمل على تفسير (62) آية في (56) فصلاً، ومنها تفسير سورة آل عمران، انتهى فيه إلى الآية (31).

17- النظام في الديانة الإسلامية: وهو جزء من كتاب "حكمة القرآن".

18- فقه القرآن.

المبحث الثاني: تعريف بمؤلفاته في الدراسات القرآنية:

سأعرض في هذا المبحث لتعريف أشهر وأهم مؤلفات الإمام الفراهي في مجال الدراسات القرآنية، التي تشمل الكثير من آرائه القيمة وأفكاره السديدة ونظراته الجديدة في هذا الباب.

المطلب الأول: "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان":

وهو تفسير كبير للفراهي، يشتمل على تفسير سور القرآن الآتية: الفاتحة، الذاريات، التحريم، القيامة، المرسلات، عبس، الشمس، التين، العصر، الفيل، الكوثر، الكافرون، اللهب، الإخلاص. وطُبع تفسير هذه السورة في أجزاء مستقلة في أوقات متقطعة.

ويتلخص منهج الإمام الفراهي في هذا التفسير في النقاط الآتية:

- 1- تفسير القرآن بالقرآن.
- 2- تفسير القرآن بالسنة.
- 3- تفسير القرآن بأقوال الصحابة، فإنهم أدركوا بذلك ما شهدوه من القرآن والأحوال. يقول الفراهي في ذلك: "أول شيء يفسر القرآن هو القرآن نفسه، ثم بعد ذلك فهم النبي ﷺ، والذين معه، ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ... ثم يستأنف ويقول: "وإني مع اليقين بأن الصحاح لا تخالف القرآن، لا آتي بها إلا كالتبع بعدما فسرت الآيات

بأمثالها، لكي لا يفتح باب المعارضة للمارقين الذين نبذوا القرآن وراء ظهورهم، والملاحدين الذين يلزموننا ما ليس له في القرآن أصل، ولكي يكون هذا الكتاب حجة بين فرق المسلمين، فإني ما أردت أن أجمع كل ما يتعلق بالقرآن، فإنه كنز لا ينفد على كثرة المجتهدين، والكتب في التفسير كثيرة، فمن يسرح فيها بنظر التحقيق يؤتى من العلم ما شاء الله، ولكني أردت ما يكون كالأساس والأم والوسط والحكم، ولهذا اقتصر على ما في القرآن، غير جاحد ما تركته، كما جمع الإمام البخاري -رحمه الله- كل ما ثبت عنده من الحديث متفقاً عليه ما ما ترك كثيراً من الصحاح".¹

والأمثلة على ذلك كثيرة، أذكر بعضاً من الروايات والأحاديث التي تعضد عليها الإمام الفراهي في تفسيره، فسر قوله تعالى: {وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمُسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ} (سورة البقرة: 61) قال: (المسكنة) مفعلة من السكون، تستعمل للعجز وسقوط الهمة، وبؤس العيش، ومنها المسكين، أي الذي سدّ عنه طرق الكسب، ودلّ على هذا المعنى ما جاء في الحديث: "ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان، وإنما المسكين الذي لا يسأل ولا يفتن له فيعطى".² فالمسكنة شدة العجز وبؤس العيش.³

¹ الفراهي، عبد الحميد. 2008م، فاتحة نظام القرآن، سرائير، أعظم كره، الدائرة الحميدية، ط: 1، ص: 7

² أخرجه البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي ، 1428هـ / 2007م، في الجامع الصحيح المسند من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه، وأيامه، بيرو، دار الكتب العلمية ، ط: 5، كتاب الزكاة، باب " لا يسألون الناس إلحافاً" عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان؛ ولكن المسكين البذي لا يجد غني يغنيه، ولا يفتن به (له) فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس: 1/ 671، رقم الحديث: 1479

³ الفراهي، عبد الحميد. 2002م، تفسير نظام القرآن تأويل الفرقان بالفرقان، بيروت، دار الغرب الإسلامي ط 1، 225/1.

وعندما تكلم الفراهي عن سورة البقرة بشكل إجمالي استشهد على ما يقول بكثير من الأحاديث، على سبيل المثال قوله: المقدمة في بيان العهود الإلهية، قال: "اعلم أن أصل عهودنا تحقيق العبودية الكاملة، وهي الإيمان بكونه ربًا لا شريك له، ويلزمه أن نسلم به أنفسنا، فتفرع منها عهدان، عهد التوحيد وعهد الطاعة، ومنها الإذعان لما أرسل إلينا ولذلك قال تعالى: (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ٨٠) (سورة النساء: 80) ونعبر عن العهدين بقولنا: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) وإليها الإشارة في قوله تعالى: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوءُ بِهِءَ مُنْشَدِيهَا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٢٥) (سورة البقرة: 25) وإليه يلمع قوله عليه السلام، كما رواه البخاري في صحيحه". وفي هذا الموضع لم يخرج الفراهي الحديث، ولعله يقصد الحديث: "ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرم الله على النار".¹

طُبِعَ هذا الكتاب في "دار الغرب الإسلامي" ببيروت عام 2002م.

المطلب الثاني: مفردات القرآن:

إن هذا الكتاب من أهم الكتب التي ألفها الفراهي تمهيدًا للسبيل إلى معرفة أسرار القرآن، ولتكون خير مرشد للقارئ إلى بواطن الحكم القرآنية الدقيقة الغامضة التي لا يتكشف عنها إلا اللبيب الحاذق البصير.

ذكر الفراهي سبب تأليف هذا الكتاب في مقدمته له فقال: "أما بعد! فهذا كتاب في مفردات القرآن جعلته مما نحول إليه في كتاب (نظام القرآن) لكيلا نحتاج إلى تكرار

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: من خص بالعلم قوما دون قوم: 37/، رقم الحديث: 182.

بحث المفردات إلا في مواضع يسيرة يكون فيها الصحيح غير المشهور، فنذكر بقدر ما تطمئن به القلوب السليمة، ولا نورد في هذا الكتاب من الألفاظ إلا ما يقتضي بياناً وإيضاحاً، إما لبناء فهم الكلام أو نظم عليه، فإن الخطأ ربما يقع في نفس معنى الكلمة فيبعد عن التأويل الصحيح أو في بعض وجوهه، فيغلق باب معرفة النظم. وأما عامة الكلمات فلم نتعرض لها وكتب اللغة والأدب كافلة به، ومع ذلك تجد هذا الكتاب - إن شاء الله تعالى - محتويًا على جلٍّ ما يقتضي الشرح من ألفاظ القرآن¹. ثم أشار الفراهي إلى هدف الكتاب والفكرة الأساسية المسيطرة عليه عند تأليفه، كما أشار أيضًا إلى أهمية فهم الألفاظ المفردة في تدبر كتاب الله عزَّ وجلَّ فقال: "لا يخفى أن المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام....، فمن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أغلق عليه باب التدبر وأشكل عليه فهم الجملة، وخفي عنه نظم الآيات والسورة....، وربما ترى أن الخطأ في معني كلمة واحدة يصرف عن تأويل السورة بأسرها... وهكذا ترى الخطأ في حد كلمة واحدة أنشأ مذهبًا باطلاً، وأضلَّ به قومًا عظيمًا، وجعل الملة الواحدة بددًا....، فإن معظم القرآن الحكمة، وهي الأصل، ولا سبيل إلى فهمها من القرآن دون الاطلاع على معاني كلماتها المفردة"².

لا ريب أنَّ المعرفة بمعاني الكلمات المفردة تلعب دورًا رئيسيًا في فهم مقصود الآيات القرآنية، وبدون العلم بمعاني الألفاظ لا يقدر الإنسان على التدبر في القرآن والتوصل إلى كنه الحكم اللطيفة المختلفة في طي النظام القرآني، وربما يتغافل عنها الكثير، ولا يعتنون بأهميتها حق الاعتناء³.

¹ الفراهي، عبد الحميد: 2002م، مفردات القرآن، نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، بيروت، دار الغرب الإسلامي : ط: 1، ص: 3.

² الفراهي، المرجع السابق: 4، 5.

³ الفراهي، المرجع السابق: 8.

يحتل هذا الكتاب مكانة مرموقة بين كتب الفراهي في مجال الدراسات القرآنية، ويسدّ فراغًا كبيرًا في المكتبات الإسلامية، وذلك لأنه كان أهم العناصر التكوينية لطريقة الفراهي في فهم القرآن، وأعظم الكتب التي تمثل مدرسته منهجًا وغاية، أسلوبًا وطريقة، لكن المنية عاجلت الشيخ وحالت دون أن يكمله، أو يحقق بغيته.

وقد ظهرت في الكتاب براعة الفراهي اللغوية الأدبية، وعلمه العميق، وقدرته الفائقة على الشرح والتحليل والتطبيق، وشجاعته النقدية في هدوء وأدب واحترام للمتقدمين، ويساعده في معالجة القضايا اللغوية الدقيقة العويصة إلمامه الكامل باللغة والأدب، واطلاعه الواسع على أساليب الأدب والبلاغة من علم البيان والمعاني والبدیع، وتذوقه للكلام العربي والشعر الجاهلي، ووقوفه على تعبيرات الصحف السماوية والأحاديث والآثار وتضلّعه من اللغات الأجنبية من الإنجليزية والفارسية والعبرانية.

أما منهج الفراهي في تأليف هذا الكتاب فهو كذلك يمتاز بالرصانة، والجمع بين الإتقان والضبط والتدبر العميق، وشرح الدلالات الاستدلالية، وبين إظهار مكنونات الضمير بشجاعة نقدية دون خجل واكتراث بوجاهة أحد وجلالة قدره، كذلك يمتاز هذا الكتاب بما ظهر فيه ذكاء المؤلف الحاد، وقوة تحليله، وبسط الشرح، واطلاعه العجيب النادر على المصادر الأدبية القديمة.

ونقدم فيما يلي نموذجًا من تحقيقه العلمي الرصين على سبيل المثال لا الحصر: ليتضح به المنهج وطريقة ومعالجته للقضايا، يقول الفراهي وهو يشرح معنى "الآلاء" الواردة في القرآن، وهي أول كلمة بدأ بها الفراهي كتابه، يقول: (الآلاء:) أجمعوا على أن معناه النعم ولكن القرآن وأشعار العرب يأباه، والظاهر أن معناها: الفعال العجيبة فارسيته كرشمه.

لما كان غالب فعالة تعالى الرحمة؛ ظنوا أن (الآلاء) هي النِّعم، والرواية عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - حملتهم على هذا، ولكن السلف إذ سئلوا أجابوا حسب السؤال والمراد المخصوص من موضع المسؤول عنه".¹

ثم أكد الفراهي على رأيه ذلك بذكر الأدلة اللغوية والشواهد الشعرية كما كانت عاداته في جميع كتبه، وتحدث عن معنى كلمة "الآلاء" في صفحتين تقريباً، وتوسع في ذكر الأدلة العلمية، واستعمال الكلمة في كلام العرب توسعاً مما لا يدع مجالاً للخروج على رأيه، ويدعو القارئ إلى التوقف عند رأيه والاعتراف بتحقيقه.

طُبع هذا الكتاب سنة 1940م باعتناء الأستاذ عبد الأحد الإصلاحي في "مكتبة الإصلاح" بسرائر مير بأعظم جراه. ثم طُبع بتحقيق الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي في "دار الغرب الإسلامي" ببيروت عام 2002م.

المطلب الثالث: "الإمعان في أقسام القرآن":

ألّف الفراهي كتابين في أقسام القرآن، الأول كان عبارة عن رسالة صغيرة سمّاه "أقسام القرآن"، والثاني أوسع من الأول، وسمّاه "الإمعان في أقسام القرآن".

ولما طبع كتابه الأول "أقسام القرآن" تداولته الأيدي بالقبول والاستحسان، وعكف عليه العلماء والباحثون يثنون على المؤلف بأسلوبه العلمي الرصين، وطريقة تدبّره في القرآن، والاشتغال به، وسلامة فكره، ورجاحة عقله، وشجاعته العلمية النقدية، فكان ذلك حافزاً قوياً له أن ينهض لتناول هذا الموضوع من جديد في ضوء الدراسات القرآنية التي لا نهاية لها ولا تحديد، وليصل منه ما كان منقطعاً ويكمل منه ما كان ناقصاً، ويبسط في الكلام ما كان وجيزاً مجملاً، فألّف كتاباً آخر سمّاه "الإمعان في أقسام القرآن"، الذي يختلف عن الأول في اسمه وحجمه ومباحثه اختلافاً كبيراً.

¹ الفراهي، المرجع السابق: 11

مباحث الكتاب:

ذكر الفراهي أولاً الشبهات الثلاث على أقسام القرآن، وهي شبهات رئيسة تدور في خواطر أوساط الناس والسطحيين من القراء، فقال: "اعلم أن الشبهة على أقسام القرآن من وجوه:

أ- القسم نفسه لا يليق بجلالة ربنا، فإن الذي يحلف على قوله يهين نفسه، ويضعها موضع من لا معول على حديثه، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ {سورة القلم: 10} فجعل الحلف من خلال المذمومة، ونهى المسيح الحواريين عن الحلف مطلقاً، "ليكن قولكم نعم نعم أو لا لا، ولا تحلفوا".

ب- القسم في القرآن جاء على أمور مهمة كالمعاد والتوحيد والرسالة، ولا فائدة فيها للقسم إلا لمنكرها، فإنه يطلب الدليل والبرهان، والقسم ليس في شيء منه، ولا للمؤمنين فإنه قد آمن بها.

ت- القسم يكون بالذي عظم ورجل، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت"¹ فنهى عن القسم بغير الله، فكيف يليق بجلالة ربنا أن يقسم بالمخلوق لاسيما بأشياء مثل التين والزيتون². وقد ذكر الفراهي أولاً ما أجاب به الإمام فخر الدين الرازي، وقد انتقده وذكر عدم ارتياحه إلى وجاهته، وعدم إصابته الهدف، وأثنى على طريقة الإمام ابن القيم ثناءً إجمالياً، وقد ناقشه مناقشة علمية هادئة أدبية مما يدل على إنصافه واتزانه، وشجاعته العلمية والنقدية.

¹ أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف؟ برقم: 2679

² الفراهي، عبد الحميد. 1425هـ/1994م، الإمعان في أقسام القرآن، تحقيق: أجمل أيوب الإصلاحي، دمشق، دار القلم، ط: 1، ص: 228.

وقد عقد بابًا مستقلًا بعنوان "طريق هذا الكتاب في الجواب على سبيل الإجمال، وقد ذكر بعد ذلك بالإجمال:" أن أقسام القرآن بالمخلوقات ليست إلا آيات دالة؛ وإنها نوع من القسم مباين للأقسام التعظيمية".

وقد تناول تاريخ القسم وحاجة الناس إليه قديمًا وحديثًا، وطرقه المتنوعة وبين معاني كلمات القسم ومفهومه الأصلي ومفاهيمه المتشعبة الثلاثة من الإكرام والتقديس والاستدلال المجرد، وعقد لذلك بابًا مستقلًا بعنوان "تاريخ القسم وحاجة الناس إليه، وطرقه المختلفة، والدلالة على حقيقة معناه في أول الأمر"، وهو باب يدل على اطلاعه الواسع على أساليب كلام العرب، وأساليب غيرهم من الشعوب والأمم، والآداب واللغات، والثقافات، والديانات، ونوّه ببعض الأخطاء في بعض الترجمات للصحف القديمة، مما يدلّ على دراسته المقارنة العميقة للصحف السماوية والديانات المختلفة، واطلاعه الواسع على كلام العرب الأولين، فهو يرى أهمية تقدير المقسم به في كل موضع، أما إذا ضمّ إليه المقسم به فإنما هو للإشهاد، ولا يراد منه التعظيم إلا إذا كان بالله تعالى وبشعائره.

وذكر الفراهي أنواعَ القسم، منها القسم على وجه الإكرام للمقسم به والمتكلم والمخاطب، والقسم على وجه التقديس للمقسم به، استشهد في هذا الباب بأبيات كثيرة للشعراء الجاهليين مما يدل على اطلاعه الواسع على الشعر الجاهلي، ومنها القسم على وجه الاستدلال بالمقسم به، وهو الأقرب إلى نوع الأقسام القرآنية، وأبعد عن الشبهات والتساؤلات، واستشهد في ذلك بأبيات العرب الأولين، وعرض في ذلك نماذج من كلام الأولين وعرض في ذلك نماذج من كلام الأولين من بلغاء يونان، ثم شرح دلالات القسم الاستدلالي، وذكر الأدلة المأخوذة من نفس القرآن على ما فيه من الأقسام الاستدلالية، وهي الغاية من تأليف هذا الكتاب، والمحور الذي يدور حوله، وتوسّع الفراهي في ذكر الأمثلة من القرآن وتطبيقها على الغايات، ثم ذكر بعض أسباب خفاء الوجه الصحيح في تأويل أقسام القرآن، وذكر بعض ما في القسم من أبواب البلاغة ولطائفها.

سمات الكتاب:

إذ قمنا باستعراض ما تضمّن هذا الكتاب من المزايا والسمات البارزة وجدنا الشيء الكثير الذي زانه، وفضل الفراهي على كثير من العلماء والدارسين، نذكر من أهمها ما يلي:

- 1- الشمول والاستيعاب والإحاطة.
 - 2- الاستشهاد بأقوال السلف.
 - 3- تفسير السورة التي ورد فيها القسم إذا دعت الحاجة إلى ذلك.
 - 4- الإشارة إلى الرباط الذي يربط أي السورة بعضها ببعض.
 - 5- ذكر اللطائف العلمية، وحل الغوامض التفسيرية والتأريخية.
 - 6- الاستشهاد بأشعار العرب الأولين.
 - 7- إثبات الإعجاز القرآني.
 - 8- الاحتواء على النُّكْت المستمدة من فن البلاغة وأساليب البيان العربي.
 - 9- الاستدلال بالكتب السماوية الأخرى، والاستشهاد باللغات الأجنبية من الإنجليزية والعبرانية.
 - 10- المقارنة بالديانات العالمية.
- طُبِعَ هذا الكتاب بعناية الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي في "دار القلم" بدمشق عام 1415هـ / 1994م.

المطلب الرابع: "أساليب القرآن":

سعى الفراهي هذا الكتاب بـ"كتاب الأساليب" بدلاً عن "أساليب القرآن"؛ وذلك أنه ليس من قصده أن يخصصه بالقرآن الكريم فحسب، بل كان يريد أن يكون أساس وضعه على أساليب كلام العرب، كما يقول: "هذا الكتاب ليس ككتاب المفردات

مختصًا بالقرآن، ولكنه متضمن لفن برأسه، يجري حكمه في عموم أساليب كلام العرب، غير ما اختص بالقرآن لكونه منزلًا على رسول¹ ثم طُبِعَ هذا الكتاب باسم "أساليب القرآن".

وإن قصد الفراهي من خلال ما ألفه من الكتب في التفسير أو في فن آخر، لا يكون إلا تعبيد الطريق وتمهيد السبيل إلى فهم القرآن الكريم، وقد تحدّث الفراهي في هذا الكتاب عن أساليب اللغة العربية وأساليب القرآن الكريم، ومراده هنا باللغة الأدب العربي الذي نشأ وترعرع في زمان نزول الوحي، ومن هذه الناحية لم يعتبر لغة المولدين لغةً يستند إليها أو يوثق بها، حيث يقول عن غاية هذا الكتاب: "كما أن المقصود من كتاب المفردات إحاطة العلم حتى الوسع بدلالة الكلم بحرمه ووجوهه، وكذلك المقصود من هذا الكتاب إحاطة العلم حتى الوسع بدلالات الصور والأساليب ومواقع استعمالها، فإن محض العلم بأسلوب خاص من دون تخصيص مواقعه، يفتح بابًا عظيمًا لسوء التأويل، مثلًا قالوا: إن كلمة (لا) بما تأتي زائدة، فإهمال هذا القول أقرب إلى الضرر منه إلى النفع، فإنه يجعل النفي إثباتًا، فلا بد أن نعلم مواقع الأساليب، فنستدل على معانيها ولا نحولها عن مواضعها الخاصة، ومن هذه الجهة اشتدت الحاجة إلى إقامة الحجة على هذه الدلالات، فإن ذلك جزء من معاني الكلام، والجاهل به كالجاهل ببعض المعاني لكلمة مشتركة، فلا يؤولها إلا إلى ما علم من معانيه وربما يكون المراد غيره".²

ومما يدل على أهمية الكتاب وموضوعه محتوياته وما يحتله هذا الفن من مكانة عالية شامخة في التصريحات والتعليمات التي ذكرت في هذا الكتاب، ولكن الفراهي لم يتحدّث عن أهمية هذا الفن ولم يتناول هذه النقاط إلا بإيجاز

¹ الفراهي، عبد الحميد. 2003، أساليب القرآن، جمع: بدر الدين الإصلاحي، سرائير، أعظم

كره: الدائرة الحميدية، ط: 6، ص: 6

² الفراهي: المرجع السابق: 155

واختصار، ولو قمنا باستعراض هذه النقاط لطال الكلام ولضاق المقام، ولم يثر كذلك علماء المعاني موضوع أساليب الكلام، إلا أن الفقهاء الأصوليين اقتبسوا من هذا الموضوع بعض القواعد والمسائل حسب ما ألجأتهم الضرورة إليه، ولم يستطع هذا الفن أن يركز عناية عدد من الباحثين والمحققين رغم أنه يحمل في طيه أهمية بالغة قصوى، والفراهي هو أول من استشعر أهمية هذا الفن في فهم القرآن، ولم ير بداً أن يؤلف فيه تأليفاً مستقلاً، فلم يسبقه أحد في هذا الباب، والفضل في ذلك يرجع إليه، فليته أتم هذا الكتاب وفقاً لما كان تصوره، وما كان في الكتاب فهو ناقص، ورغم ذلك كله لا يمكن الجحود والإنكار بأهميته وإفادته.

وهناك أمر يحتاج إلى الوضوح والبيان وهو أنّ من يريد المطالعة والاستفادة من هذا الكتاب فليعلم أنه ليس تأليفاً مستقلاً بل هي مجموعة من الإشارات والتلميحات، وهي تتوحي منه المعرفة التامة والاطّلاع الواسع على أفكار الفراهي ونظراته وميوله مع التفكير والتعمق والنظر فيها.

وقد تطرّق كلام الفراهي في هذا الكتاب إلى أساليب الكلام ومواقع استعمالها المتنوعة مصحوبة بالأمثلة القرآنية عن طريق العناوين المختلفة التي يصل عددها إلى اثنين وثلاثين بعد وضع الأبواب والفصول التمهيدية، ولا يمكن الوصول إلى المعنى المراد الصحيح إلا بمعرفة هذه الأساليب ومواقع استخدامها.

ومما يجدر بالذكر أن الأمثلة المختلفة كلها في هذا الكتاب مقتبسة من القرآن الكريم، غير أن هناك أمثلة عديدة مأخوذة من أساليب كلام العرب.

وإن نظرة سريعة على عناوين الكتاب ومحتوياته تكفي لمعرفة ذكاء المؤلف، وتوقّد ذهنه، وتبحّر علمه، وسعة مطالعته، وآرائه القيمة، وأفكاره السديدة، فجاء ككتاب مستقل بعينه يسلّط ضوءاً على أساليب القرآن.

طُبِعَ هذا الكتاب بعناية الأستاذ بدر الدين الإصلاحي في "الدائرة الحميدية" بأعظم كره في الهند عام 2003م.

المطلب الخامس: "الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ":

يعدّ هذا الكتاب من أنفس مؤلفات الإمام الفراهي في مجال الدراسات القرآنية، تناول فيه موضوعَ الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، الذي يعدّ من الموضوعات المهمة التي شغلت العلماء قديمًا وحديثًا، ما بين مسرف فيه ومقتصد، كما أنه كان موضعًا للجدل عند العلماء والفرق الإسلامية من حيث جواز وقوعه في القرآن وعدّيه، وقد ألّف العلماء فيه عددًا كبيرًا من الكتب، فلا نكاد نرى مفسرًا للقرآن الكريم، إلا وقد اهتمّ بموضوع النسخ وألّف فيه.

يشتمل هذا الكتاب على مباحث مهمة في موضوع النسخ كما يظهر من خطة الفراهي، ولكن مما يقضي له الأسف أنه قد عاجلته المنية، وانخرمت حياته دون تحقيق بغيته، إلا أن قائمة المباحث التي يشتمل عليها الكتاب تشير إلى أهمية المنهج والدقة في المبحث والسعة في العرض والتحليل العميق، ولو سنحت له الفرصة في إكمال الكتاب لجاء فريدًا في بابه، جامعًا لشتات الفنون، ومحيطًا بصفوة آراء المتقدمين، وحائزًا بنكت شريفة وحكم لطيفة.

أما المباحث التي يحويها هذا الكتاب القيم فهي كما يلي:

- 1- ما هو النسخ، وتنقيح المسألة.
- 2- الحكمة من النسخ.
- 3- محلّ النسخ من الأمور.
- 4- الناسخ لا يكون إلا الشارع، وهو لله تعالى ورسوله بإذنه.
- 5- غير القرآن لا ينسخ.
- 6- (تركه بيضاء لم يكتب شيئًا)
- 7- (تركه بيضاء لم يكتب شيئًا)

- 8- أهم النسخ ما جاء به القرآن لما قبله.
 - 9- ذكر قسمين من ثلاثة أقسام النسخ.
 - 10- الحكمة العامة في النسخ وهي تبقى.
 - 11- القسم الثالث من النسخ الباقي.
 - 12- جواب قول نفاة النسخ.
 - 13- كشف معنى كلمة النسخ وبيان قول النفاة.
- هكذا قام الفراهي بترتيب هذا الكتاب، ولكن بعض الأمور التي خطّطها-رحمه الله-لم يتحقق بسبب نوع من الاستعجال في الكتابة أو أنه لم يجد الفرصة. وهذا شأنه في بعض مؤلفاته وهو يذكر أنه سيذكر فيما بعد ولكنه لم يفعل ذلك.
- طُبِعَ هذا الكتاب بعناية الأستاذ عبيد لله الفراهي في "الدائرة الحميدية" بأعظم كره في الهند، عام 1432هـ/2011م.

المطلب السادس: "حكمة القرآن: الحكمة البازغة والحجة البالغة":

تُطْلَقُ "الحكمة" على معانٍ عِدَّةٍ، منها: الحكمة بمعنى السُّنَّةِ، وبيان الشرائع.¹ (رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾) (سورة البقرة: 129) وقال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾} (سورة البقرة: 151)

"الحكمة" بمعنى النبوة.² قال تعالى: {فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ

¹ الفراهي: عبد الحميد، 2007م، حكمة القرآن ، أعظم كره، الدائرة الحميدية : ط: 1، ص: 14

² انظر المرجع السابق: 14

وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾ (سورة البقرة: 251) وقال تعالى: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ، وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخِطَابَ ﴿٥٢﴾} (سورة ص: 20) وقال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} (سورة الزخرف: 63).

"الحكمة" بمعنى الفقه.¹ قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٣٣﴾} (سورة البقرة: 269)

"الحكمة" بمعنى الفهم، وحجة العقل وفقاً للشرعية² قال تعالى: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٧﴾} (سورة لقمان: 12)

"الحكمة" بمعنى العظة.³ قال تعالى: {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْذُرُّ ﴿٥﴾} (سورة القمر: 5) ولالإمام الفراهي كتاب نفيس في هذا الموضوع، وله ثلاث مسودات. وقد سمي الأولى بـ"الحكمة البالغة: في الحكمة الإسلامية يعلمها القرآن ويتقَّبَلُها أولو الألباب بما أنها تبلغ قلوبهم وتخاطب عقولهم، وسمى الثانية بـ"حكمة القرآن" وأبقى هذا العنوان في المسودة الثالثة.

ويقصد الفراهي بـ"الحكمة" أنها: "إعمال الفكر ثم العمل بمقتضى الفكر، فيزداد علماً وعملاً.⁴ عرَّفَها بمعناها المعروف كما عرَّفَها جماعة من السلف، وكما وردت في القرآن والحديث في مواضع متعددة.

¹ انظر المرجع السابق: 14

² انظر المرجع السابق: 14

³ انظر المرجع السابق: 15

⁴ انظر المرجع السابق: 13

يقول الفراهي في كتابه: "مفردات القرآن" اسم للقوة التي منها نشأ القضاء بالحق، قال تعالى في نعت داود عليه السلام: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخُطَابَ ٥٠} (سورة ص: 20) فذكر الأثر بعد القوة التي هي مصدر ذلك الأثر. وكما أن القول الفصل من آثار الحكمة، فكذلك طهارة الخلق وحسن الأدب من آثارها. ولذلك كانت العربُ تُطلق اسمَ الحكمة على قوة جامعة لوزانة العقل والرأي، وشرافة الخلق الناشئة منها. فَسَمَوْا الرجلَ العاقلَ المَهْدَبَ: "حكيماً".

وكذلك يُطلقون اسم "الحكمة" على فصل الخطاب، وهو: القول الحق الواضح عند العقل والقلب.¹

وذكر الفراهي أنَّ كل هذه الوجوه من معاني "الحكمة" جاءت في كلام العرب. فاستعملها القرآن والنبي صَلَّى الله عليه وسلَّم بما عرفوه.

طُبِعَ هذا الكتاب في "الدائرة الحميدية" بأعظم كره في الهند، عام 2007م.

المطلب السابع: "حُجَجُ الْقُرْآنِ":

إنَّ من أسمى العلوم وأغزر الهبات مما يمن الله به على من يشاء من عباده هو فقه حُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ، ما ينصرون به الحقَّ، ويعلمون رأيته، ويكتبون به أهل الباطل، وينكسون غايته، كما قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٨٣} (سورة الأنعام: 83) فسمّاها "حجته" ونسبها إليه تعالى ذكره، وتلك الإضافة الشريفة تقتضي ما تقتضيه من علو شأنها، وثبات أركانها، وشرفها وفضلها.

وفي هذا الباب ألَّفَ الفراهي كتابه الذي سمَّاه بـ "حجج القرآن: الحكمة البازغة والحجة البالغة"، وذكر في مقدمته له عن أهمية هذا الموضوع بأن له أهمية من جهات كثيرة، منها: من جهة كونه أساساً ومفتاحاً.

¹ انظر في تعريف "الحكمة" وأسمائها كتاب "حكمة القرآن" للفراهي، ص: 25، 29.

- 1- من جهة أنه خطابٌ إلى أعلى ما فطر الإنسان من العلم والرشد.
 - 2- من جهة أنه الفارق بين الدين الحقّ الذي بني على الحكمة والهدى، والذي بني على محض التقليد والعمى.¹
- أما الأسباب التي دعت الفراهي إلى تأليف هذا الكتاب فهي كما يلي:

- 1- الزعم أن طريق العقل مباين للتعليم الإلهي.
- 2- ابتلاء كثير من الناس بعقليات سافلة زائغة عن طريق الفطرة والهدى مفضية إلى محض الحيرة وصريح العمى.
- 3- أباطيل المنطق التي منعت الناس عن معرفة ما في دلائل القرآن من الرسوخ.
- 4- الوهم بأنّ مسائل التوحيد والربوبية إنما يبرهن عليها بطريق الفلسفة، وأما الأنبياء فلم يأتوا إلا بالإقناعات.
- 5- الغفلة عما هو فوق الحياة الدنيا لشدة انهماك الناس في المشاغل المحسوسة الحاضرة.
- 6- الظن بأن القرآن إنما خوطب به الأميون البسطاء فلا يكون موضعاً للتدبر وإمعان النظر.
- 7- الظن بأن القرآن كثير الاقتضاب والانتقال من معنى إلى معنى من غير مناسبة بينهما.²

ومحتوى هذا الكتاب منقسمٌ إلى مقدمة وثلاث مقالات. أما المقدمة فقد ذكر فيها أهمية الموضوع والحاجة إليه. ثم في المقالة الأولى انتقد المنطق والفلسفة والكلام في ثلاثة أبواب. والمقالة الثانية في تأسيس العلم وهي أيضاً منقسمة إلى ثلاثة أبواب:

¹ الفراهي، عبد الحميد، 2009م، حجج القرآن: الحكمة البازغة والحجة البالغة، أعظم كره، الدائرة الحميدية، ط: 1، ص: 18

² الفراهي، عبد الحميد، مجموعة تفاسير فراهي: 43

1- الميزان، وقد سماه "المنطق الأعلى"

2- الحكمة البازغة.

3- طريق احتجاج القرآن.

أما المقالة الثالثة فهي تتعلّق بحجج القرآن، وهي أيضًا تشتمل على ثلاثة أبواب. باب في أدلة الربوبية، وباب في أدلة المعاد، وباب في أدلة الرسالة.

طُبِعَ هذا الكتاب في "الدائرة الحميدية" بأعظم كره في الهند، عام 2009م.

المطلب الثامن: "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح":

تعرّض الفراهي في هذا الكتاب لإبطال ما زعمه اليهود من أنّ الذبيح إسحاق-عليه السلام- والكشف عن تحريفاتهم لإثبات ذلك في التوراة، وقد يظنّ بعض الناس أن هذه المسألة مسألة فرعية جزئية من التاريخ، وسواء إسماعيل كان الذبيح أم إسحاق عليهما السلام، فكلاهما من أنبياء الله ورسله، فليست لذلك أهمية شرعية تستوجب اهتمامًا كبيرًا كهذا، ولكنه ظنٌّ لا نصيب له من الصحة.

نظرًا إلى أهمية قضية الذبيح الشرعية والتاريخية، نهض الفراهي لحسم الخلاف والإتيان بفصل الخطاب وإيضاح الحقّ، وألّف كتابًا قيمًا حافلًا بالحجج والبراهين الساطعة، وسماه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" حاول فيه إثبات كون إسماعيل هو الذبيح لا غير، مستندًا في رأيه أولاً على التوراة واعترافات علماء أهل الكتاب أنفسهم، وثانيًا على الاستدلال بالقرآن المجيد، وثالثًا بالروايات وأقوال علماء الإسلام.

وقد أثنى على هذا الكتاب القيم العلامة السيد سليمان الندوي فقال: "لا مانع من أن أقول: ما رأيتُ في تاريخ الإسلام رسالة أحسن منها".¹

طُبِعَ هذا الكتاب في "دار القلم" بدمشق عام 1999م.

¹ المرجع السابق: 19-28

خاتمة البحث:

ومن خلال إعداد هذا البحث توصلت إلى النتائج والتوصيات التي تتلخص في النقاط التالية:

أ- النتائج:

- 1- أن الإمام عبد الحميد الفراهي أحد العلماء القلائل في الهند، الذين جمعوا بين الثقافتين الإسلامية والغربية، فكان جامعاً بين التبحر في العلوم العربية والدينية، والاطلاع الواسع على العلوم العصرية والطبيعية، ويظهر أثر هذه الثقافة الموسوعية العميقة في معظم مؤلفاته. ولذلك كانت شخصيته مرجعاً كبيراً لكثير من المثقفين المسلمين من عليّة القوم؛ وذلك لما عُرف بفرط الذكاء، ونفاذ البصر، وسرعة الإدراك، ودقة الاستنباط، وغزارة العلم، وسعة الاطلاع، فكان -رحمه الله تعالى- عالماً ذا ثقافة واسعة متنوّعة، مهر في اللغات العربية والفارسية والإنجليزية، وتعلّم اللغة العبرانية. وتلك أمور لم يتصف بها أحد من علماء الهند قديماً وحديثاً، ثم لم يزد ذلك كله إلا قوةً في الدين وغيره عليه، واستقامةً عليه علمياً وعملياً.
- 2- أن الفراهي قام بتأليف العديد من الكتب في مجال الدراسات القرآنية، وتناول فيها موضوعاتٍ جديدة لم يسبق إليها أحد قبله. وأسلوبه في تلك المؤلفات يتسم بالجرأة والثقة بالنفس في مناقشة المسائل التي يراها صواباً ولا سيما في المسائل العلمية التي يتسع فيها مجال الأخذ والرد. وكذلك من أبرز خصائص أسلوب مؤلفاته أنه يمتاز بالرصانة، والجمع بين الإتيان والضبط والتدبر العميق، وشرح الدلالات الاستدلالية، وبين إظهار مكنونات الضمير بشجاعة نقدية.
- 3- أن الفراهي بدراسته العميقة للغة العربية وآدابها وعلومها قد صار عنده حسن لغويّ عجيب وذوق عربيّ رفيع كالعرب الخالص، ولكن مع كل هذه

المزايا التي تجسّدت في شخصيته كانت مزية أخرى قد غلبت تلك المزايا كلها، وهي: حب القرآن الكريم، الذي كان فوق كل شيء، ولن يشعر بعظمة هذا القرآن إلا من كان عربيًا خالصًا، وأكبر دليل وشاهد على ذلك كتابه "مفردات القرآن" الذي يُعتبر من أحسن ما أُلّف في هذا الموضوع، فهو يُطلّعنا على مدى تقدّم الفراهي في اللغة العربية وإلمامه ببلاغتها.

ب- التوصيات:

قد بدت لي بعد دراستي لهذا الموضوع مجموعة من الاقتراحات والتوصيات ما يلي:

1- أن الإمام الفراهي قضى حياته كلها في خدمة القرآن الكريم وعلومه، فألّف ما أُلّف من الكتب في هذا المجال، والتي -لا شك- تُعتبر إضافة قيمة في المكتبة القرآنية، لكنه مع ذلك للأسف الشديد ما زال مجهولًا ومغمورًا في كثير من الأوساط الدينية والعلمية، لذلك الحاجة ماسة إلى تعريف شخصيته على نطاق واسع، ودراسة آثاره على نهج أكاديمي سواء أكانت عن طريق الرسائل الجامعية أو الأبحاث العلمية.

2- أن للفراهي كتبًا عديدة ما زال عداؤها في المخطوطات، فيجب على الدارسين في هذا المجال الاعتناء بها تحقيقًا ودراسةً.

3- عقد المؤتمرات والندوات العلمية لتعريف حياة الإمام الفراهي وآثاره العلمية، حتى يمكن من خلاله إبراز ما قام به هذا العَلَم الشامخ والعالم الجليل من خدمات عظيمة في الدراسات القرآنية، كذلك يتسنى من خلال ذلك نشر علمه الغزير وآرائه القيمة في هذا المجال المبارك.

هذا ما وفّقني الله تبارك وتعالى بإدلاء دلوي في هذا الموضوع تعريفًا بشخصية الفراهي، وإبرازًا بجهوده القيمة في مجال القرآن الكريم المبارك، أسأله تعالى أن يوفّقني فيما يحبه ويرضاه، وأن يرزقني المداومة في سبيل العلم والعمل والدعوة، وصلى الله على رسوله محمد، وعلى آله وسلّم.

منهج تفسير العلامة عبد الحميد الفراهي

- الشيخ جلال الدين أنصر العمري¹

ترجمة من الأردوية: أبو آدم فريد بن عبد الحفيظ الهندي²

القرآن كتاب الله وهو يبقى إلى يوم القيامة، إنه يحوي بين دفتيه كونا من العلوم والمعارف. والإنسان الذي وفقه الله للاستفادة به يستفيد منه فيفيد الناس قدر المستطاع. وأما الإحاطة بحكمه ولطائفه جميعا فلا تمكن لأحد من الناس كما يشير إليه حديث الرسول الكريم "لا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا ينقضي عجائبه".³

ضعف جامع الترمذي هذا الحديث،⁴ ولكننا ذكر فيه قوي يبني على الواقع لأنه ثابت بالتاريخ؛ فقد مضى على القرآن، منذ أن نزل، أكثر من أربعة عشر قرناً ولكن لم تنقض عجائبه ولن تنقضي إن شاء الله، وإن يقرأه طالب في عصرنا بكل إخلاص وانقطاع إليه فلن يطرأه شعور بأن الناس قد سبروا غور هذا البحر العريض وأن مزيد المحاولة لسبر غوره لا يعود بفائدة بل على الرغم من ذلك ينكشف له حقائق بديعة ويعثر على ما خفي في آياته من عالم وسيع للمعاني والمعارف والحكم.

والعلامة عبد الحميد الفراهي أبرز مثال لهذا الواقع فقد بقيت أيام لنهاية العقد الثالث من القرن العشرين (1930 م) إذ غادر الفراهي دنيانا هذه. ومن الواقع أنه

¹ كاتب داعية كبير وأمير الجماعة الإسلامية بالهند

² باحث، قسم اللغة العربية وأدائها بجامعة دلهي

³ جامع الترمذي، فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن

⁴ يقول القرطبي إن الشعبي يكذب أحد رواة هذا الحديث ولكن لا يصح قوله، راجع: الجامع لأحكام القرآن، 5/1

قد ألفت كتب ورسائل لا تحصى عن القرآن وعلومه قبل هذا العالم تجربنا على أن نعتزف بأنه لا يمكن ظهور بحث جديد في هذا المجال ولكن كل ما قدمه هذا العالم الهندي الجليل يجبرنا مرة أخرى على أن نقول "كم ترك الأول للآخر".

ولقد قرر العلامة عبد الحميد الفراهي قراءة القرآن والتفكير فيه هدف حياته فقد كان يتدبره ليل نهار ولا يطوّف إلا في دنياه، وكل ما قدمه من الخدمات العلمية كانت تدور حول هذا الكتاب العزيز فلم يرغب في موضوع غير القرآن ولم ينظر إلى جانب سوى هذا الكتاب العزيز.

ومن الواقع أن ترتيب القرآن توقيفي فقد نزل منجماً بين آونة وأخرى في مدة ثلاث وعشرين سنة ولكن النبي ﷺ جمعه ورتبه عن طريق الوحي طبقاً للترتيب الذي كان ولا يزال موجوداً في اللوح المحفوظ وقد قرأه وفق ذلك الترتيب وعلمه وهو لا يزال يعلم حسبما بلغنا، فاستنتج منه المفسرون كالإمام الرازي وأبي بكر النيشافوري وابن عربي، وأصابوا فيما استنبطوا، أن القرآن آياته مرتبطة ارتباطاً معنوياً متيناً وحاولوا أن يكشفوه، والإمام الفراهي أحد من هؤلاء المفسرين القائمين بالنظم وهو الذي قدم هذه الفكرة كنظرية وفن مستقل فهو فريد في هذا الشأن فالقرآن كله، عند الفراهي، كتاب منظم وأن سوره القصار والطوال، وفقراتها مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً شديداً ويكمل بعضها البعض ويوضحه، وهو يرى لكل سورة عموداً (موضوعاً مركزياً) يرتبط به محتوى السورة مباشرة أو غير مباشرة.

ومنهج تفسير الفراهي هو أنه يحدد في ضوء الإشارات الداخلية للسورة ودراستها الشاملة تلك الجماعة التي خاطبها القرآن في هذه السورة وما هي الاعتراضات التي تم الرد عليها وأي العقول والأفكار التي تم إصلاحها وما هي الجوانب التي توقّر للمؤمنين الهدى؟ ففي ضوء هذه كلها يشرح الفراهي الآيات مما نجد لمحتها لدى القدامى ولكن شرح القرآن كله بهذه الطريقة شيء جديد البتة.

وأول ما يأتي في منهج تفسير القرآن هو تفسير القرآن بالقرآن "لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً" وأما الذرائع الأخرى فهي تأتي فيما بعد. يوضح هذا الأصل شيخ الإسلام ابن تيمية الذي يترجم السلف وله ولع بالقرآن والسنة:

"فإن قال قائل فما أحسن طرق التفسير فالجواب أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له".¹

ويقول نفس الشيء العلامة ابن كثير في تفسيره والعلامة السيوطي في كتابه "الإتقان". وقد أكد الفراهي على تفسير القرآن بالقرآن وهو يحاول جهده أن يحلّ معضلات القرآن بالقرآن ذاته كما قام بحل العديد من مشكلاته لذا عندما يريد أن يبحث عن كلمة في القرآن، يتتبع أولاً جميع الآيات التي ذكرت فيها هذه الكلمة ثم يتأمل في استعمالها في المواضع المختلفة في القرآن ثم يحاول تحديد معناها. واختار نفس المنهج في تفسير الاصطلاحات والآيات القرآنية، وبإمكاننا أن نفهمها بمثال فجاءت كلمة "أهل البيت" في الآية الثالثة والثلاثين من سورة الأحزاب فقال المفسرون إن المراد منها أزواج النبي ﷺ وأما الفري فقد ذكر في هذا الصدد عدة نقط وهي كما يلي:

أولها أن القرآن لم يستعمل كلمة "أهل بيت" سوى للنساء (للأزواج) وثانيها أن هذه الكلمة تُستعمل للمفرد والجمع كليهما والثالث أن الضمير الراجع إليه دائماً يكون جمعاً مذكراً. والسبب في ذلك، كما يذكر، هو تكريم المرأة. ولقد برهن هذا البحث كله بدلائل من القرآن ولكن نجد هذا التفصيل والتحليل لدى غيره من المفسرين.

¹ فتاوى ابن تيمية، 362/12

والفراهي يولي اهتماماً إلى عمود السورة وسياق الآيات ونظائرها ثم يحدّد معناها في ضوء هذه كلها. ولكن تبدو من ذلك أنه لا يشعر بالمراجعة إلى التراث التفسيري الموجود لدينا أو يصرف النظر عنه. ويبدو هذا لأننا لا نجد إحالات المفسرين القدامى في كتاباته.

والواقع أن الفراهي كان لديه معظم التفاسير المهمة المتداولة ثم درسها بإمعان نظر ودقته ولكنه لم يكن يقبل رأياً على أساس أنه أدلى به مفسر كبير بل يعتبرهم "هم رجال ونحن رجال" فإنه يحلل آراءهم جميعاً ثم يبلغ إلى نتيجة ما.

والملاحظ أن الآية الواحدة يوجد تحتها العديد من الأقوال والآراء في كتب التفسير ثم يرجّح المفسرون أياً منها أو يرفضونه على بصيرة منهم وتحقيق أو يقدّمون بعضها كرأي الجمهور أو يعتبرون بعضها منها شاذاً، وأما الإمام الفراهي فلا يقبل جميع هذه الآراء بل يغربلها كما هو ناقد ويختار ما يجده قريباً من كلمات القرآن وسياقه وسباقه.

فنرى أنه كثيراً ما يجد رأياً لمفسر أو قولاً له في تأييده كما نرى أن قولاً مذكوراً في تفسير يعين الفراهي للتفكير والتدبر وكذا يطبقه على النظائر وإذا فاز بشيء ما فيضع منه أصلاً يأوّل في ضوءه ما بقي من الآيات إلا أنه لا يذكر ذلك القول الهادي لأنه لا يبيّن أصلاً من الأصول بل يعين في توجيه آية من الآيات. لنفهم هذا بأمثلة من تفسيره:

يمكن أن نعتبر سورة الفاتحة ديباجة القرآن ويتبعها أكبر سورة من القرآن وهي سورة البقرة التي تتنوع مباحثها وموضوعاتها فقد احتوت معظم أحكام القرآن. يقول الفراهي إن هذه السورة خوطب فيها اليهود وكشف فيها عن فسادهم وانحطاطهم ثم أعلن عن احتلال الأمة المسلمة قيادة العالم. وبهذه المناسبة أعطيت عدة أحكام. بدأت السورة بعد "الم" بـ"ذلك الكتاب" والبديهي أن "ذلك" يحتاج أن يبدّل بـ"هذا" فالسؤال يبرز هنا: لماذا استعمل "ذلك" في مكان "هذا"؟

وعلى هذا فقد ذكر معظم المفسرين "ذلك" بمعنى "هذا" ويقول بعضهم إن "ذلك" يشير إلى "الم".¹ وبما أن "الم" قد مضى آنفاً فيمكن أن يشار إليه بـ "ذلك". ويرى البعض منهم أن كلمة "ذلك" إشارة إلى ذلك الجزء القرآني الذي كان قد نُزِلَ من قبل. لا ريب في أن هذه التوجيهات لا تقنع القلوب وبالرغم من ذلك ما قام به الفراهي من البحث عن هذه السورة محل عن عقد التفسير. ويرى الفراهي أنه بما أن الخطاب في هذه السورة موجه إلى اليهود فالمراد من "ذلك الكتاب" الكتاب الذي موجود في أذهانهم وكان قد جاء ذكره في صحفهم التي لا يشكون فيها البتة. وبهذا تشرح جيداً الآيات التي قيل فيها أنه لا يؤمن بهذا الكتاب إلا من يتقي ويؤمن بالغيب ويؤمن بما أنزل من الله تعالى. يبدو هذا القول للفراهي بديعاً ولكن نجد الإشارة إليه لدى ابن جرير الذي قال: "وقد قال بعضهم يعني به التوراة والإنجيل" ويضيف قائلاً: إن نقرَ بهذا التأويل فلا تحتاج إلى تأويل كلمة "ذلك" يعني أنه أشير بـ "ذلك" إلى الشيء الذي لا يوجد في الذهن.²

وللقراطي رأي آيين من هذا فهو يقول: "قيل أن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على محمد ﷺ كتاباً فالإشارة إلى ذلك الوعد، قال المبرد هذا القرآن ذلك الكتاب الذي تستفتحون به على الذين كفروا".³ فبكلمة "قيل" أشير هنا إلى ضعف هذا الرأي ولكن الإمام الفراهي لم يغمض نظره عن هذا الرأي لضعفه بل التفت إليه وبه استعان في تأويل هذه الآية بل في إقامة نظرية عن السورة كلها.

وكذلك جاء في سورة البقرة (62): "إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّارِئِ وَالصَّبِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾".

¹ تفسير الطبري، 1/226-227

² المصدر نفسه، ص 227-228

³ تفسير القرطبي، 1/158

ففي هذه الآية اشترط لفلاح المسلمين مع اليهود والنصارى والصابئين أن يؤمنوا بالله واليوم الآخر ويعملوا صالحًا. قد برز هذا السؤال وعسى أن يبرز في أذهان الآخرين من القراء: لماذا طلب من المؤمنين أن يؤمنوا ويعملوا صالحًا علمًا بأنهم اعتبروا مؤمنين بعد صدقهم لهذه الشروط؟ وكيف دخل فيهم تلك المساوئ التي تتواجد في الفرق الأخرى الضالة؟ فيقول ابن جرير: "معنى إيمان المؤمنين في هذا الموضوع ثباته على إيمانه وتركه تبديله وأما اليهود والنصارى والصابئين فالتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به".¹ ولكن الفراهي يبيّن في ضوء استعمالات القرآن أن القرآن يفرّق بين "الذين آمنوا" و"المؤمنون" فلما يستخدم "الذين آمنوا" فيعني الجماعة التي تدعي الإيمان وتضمن كلاً من القوي والضعيف من المؤمنين ولا نجد هذه الصراحة لدى المفسرين الآخرين، ولكن يقول ابن جرير: "قال سفيان: المراد المنافقون كأنه قال: الذين آمنوا ظاهر أمرهم فلذلك قرنهم باليهود والنصارى والصابئين، ثم بيّن من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم".²

فبدا من هذا أنه لم يرد من "آمنوا" المؤمنون المخلصون دائماً كما يشير إليه سفيان الثوري ولكن الفراهي قدّمه كأصل من الأصول في ضوء استعمالات القرآن وهذا هو الموضع الذي يثبت أن الفراهي استفاد من التفاسير القديمة وأنه لم يقبل كل ما قرأه كأعشى، بل تأمله وغربله وقبل ما قبل في ضوء الدلائل والبراهين. وكذلك جاء في سورة البقرة (208): "يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً".

يرى العلامة الطبري والسيوطي وبعض المفسرين الآخرين أن "كافة" حال عن "سلم" وعلى هذا فالآية تعني أن "ادخلوا في الإسلام تماماً وامثلوا بجميع أحكامه" لأن الامتثال ببعض الأحكام والإنكار ببعضها خلاف للروح الإسلامية كما يقول

¹ تفسير الطبري، 148/2

² المصدر نفسه، ص 423

العلامة السيوطي: "كافة" حال من السلم أي في جميع شرائعه¹ و"كافة" تعني "جماعة" ومادتها "كف" ويعني الإيقاف وقيل للجماعة كافة لأنها تحيط بالأفراد ولا تدعهم أن يتفرقوا.

وأما الفراهي فيرى أن "كافة" حال عن ضمير الجمع في "ادخلوا" وهذا يعني "ادخلوا جميعاً في الإسلام". ويرى رأي الزمخشري فيقول: "كافة لا يخرج أحد منكم يده من طاعته". ويرجع المعنى الثاني قائلاً:

"ويعجز أن يكون كافة حال من السلم... على أن المؤمنين أمروا بأن يدخلوا في الطاعات كلها وأن لا يدخلوا في طاعة دون طاعة أو في شعب الإسلام وشرائعه كلها وأن لا يخلوا بشيء منها".²

كأن الفراهي اختار القول الذي فضّله الزمخشري دون المعنى الذي اختاره المفسرون الآخرون.

إن الآية "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"³ من سورة البقرة يعنون بها عادة أن لا يُجبر أحد على اعتناق الدين ولكل حرية لاعتناقه أو رفضه. ويرى الفراهي أنما يوجد في هذه الآية من نفي الحرية الفطرية تعني أن الله لم يجبر أحداً على أن يقبل دينه بل خلقه حرّاً في هذا الأمر فهذا تأويل جديد ولكن اختاره بعض المفسرين القدامى فيقول الزمخشري: "لا إكراه في الدين أي لم يجبره الله أمر الإيمان على الإيجاب والقسر ولكن التمكين والاختيار ونحوه قوله تعالى وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ أي لو شاء لقسرهم على الإيمان ولكنه لم يفعل وبني الأمر على الاختيار". وليس هذا فقط بل قد ضعف

¹ تفسير الجلالين

² الكشف عن حقائق التنزيل، 253/1

³ سورة البقرة: 256

الزمخشري القول الذي يروى في تفسير هذه الآية فيقول: "وقيل هو إخبار في معنى النهي أي لا تكرهوا في الدين ثم قال بعضهم وهو منسوخ بقوله جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلُظْ عَلَيْهِمْ"¹.

هذه آيات من سورة البقرة تناولناها والآن نأخذ آيتين من سورة بني إسرائيل. فقال تعالى:

"وَإِذْ أَرْدْنَا أَنْ نَمْلِكَ قَرْيَةً أَمْرًا مَتَرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا". يذكر لهذه الآية ثلاثة معاني أولها أنه إذا آن لقريّة أن تهلك أمرنا أغنياءها أن يفسقوا فيها ويفسدوا وهم يفعلون ذلك كما يقول الزمخشري: "أمرناهم بالفسق ففعلوا".

فالأمر هنا توفير الرخاء واليسر لهم، وهذا يمكن أن يكون لهم وسيلة للفلاح والسعادة ولكن بعض الناس ينسون ربهم في رخائهم ويرتكبون الفسق والفساد فيهلكون فيها. ويصرّ الزمخشري على أن كلمات الآية تؤيد هذا المعنى.

والمعنى الثاني هو أن "أمرنا" هنا يعني "كثّرنا" أي عندما نريد إهلاك قرية نزد في عدد مترفيها.

والمعنى الثالث منها ما يذكره الفراهي فهو يقول إن الله تعالى ذكر قبلها سنته التالية: "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً".

وبعد بيان هذه السنة ذكر أن القوم المتفرفين عندما يتبعون خطوات الشهوات والهوى ويستحقون الهلاك خائضين في الفسق والفساد، يبعث الله فيهم رسولاً قبل هلاكهم، لينبئهم عن أحكامه وهذا ليس سوى لامتحانهم ولكنهم على الرغم من ذلك يتبعون خطوات العصيان والفسق، فآنذاك تعمل سنة الله عملها ثم

¹ الكشاف عن حقائق التنزيل، 387/1

يُهلكون. وهذا يعني أن قومًا لا ينزل عليهم العذاب قبل إنذارهم. وقد ذكرت هذه السنة في غير موضع من القرآن.

اختار هذا القول عامة المفسرين كما جاء في تفسير الجلالين:

"(أمرنا مترفها) منعهمها بمعنى رؤسائها بالطاعة على لسان رسلنا (ففسقوا فيها) فخرجوا عن أمرنا..."¹

ويؤيده بعض روايات التفسير.² وكذا جاء في سورة بني إسرائيل:

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا". وفي هذه الآية أراد معظم المفسرين بـ"الروح" الروح الحيوانية ولكن الفراهي يقول: إن هذا السؤال كان متعلقًا بالوحي الذي تؤيده الفقرة المذكورة أعلاه والثاني أن من السلف من يقول بهذا الرأي فقد جعل العلامة الألوسي هذا السؤال متعلقًا بالروح الحيوانية وناقشها بالتفصيل ولكنه مع ذلك يقول: "قال الحسن وقتادة الروح هو جبرائيل وقد سمي روحًا في قوله تعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ) والسؤال عن كيفية نزوله وإلقائه الوحي إليه عليه الصلاة والسلام وقال بعضهم هو القرآن وقد سمي روحًا في قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا)"³ ثم قال إن هذا القول قريب من سياق العبارة.

هذه بعض الأمثلة وبإمكاننا أن نقدّم أمثلة أخرى غير هذه.

بدا من هذه النماذج أن الفراهي قد درس كتب التفسير كلها دراسة نقدية ولكنه لم يستفد منها فحسب بل أضاف إليها ما هو مهم.

¹ تفسير الجلالين

² روح المعاني، 43/15

³ المصدر نفسه، ص 152

عبد الحميد الفراهي ونظريته في تفسير القرآن

-الأستاذ احتشام أحمد الندوي¹

عاش الشيخ عبد الحميد الفراهي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في الهند وكان من كبار علمائها، قد وهبه الله علماً غزيراً وفكراً عميقاً وقريحة فياضة، وكان له بصر بالأدب والشعر والنقد الأدبي لكنه ركز قواه ومواهبه على علم التفسير بوجه خاص، وهذه حقيقة لامعة أن الشيخ قد درس علوم اللغة العربية لتفسير القرآن لأنه كان يعتقد أن القرآن لا يمكن فهمه حق الفهم إلا بعد أن تدرس البلاغة والشعر الجاهلي والنقد الأدبي دراسة واعية، وهذا هو السبب في أنه قد صنف كتاباً شهيراً باسم "جمهرة البلاغة" وردّ فيه كثيراً على نظريات أرسطو ودرس البلاغة ونقد الشعر العربي وسلك مسلكاً حراً بغير أن يقلد أحداً ممن قبله.

أما تفسيره للقرآن وهو أيضاً يمتاز بمزايا كثيرة، إنه فسّر القرآن بالقرآن، ثم إنه بحث عن ربط الآيات بالآيات والصور بالصور ورأى مبدأ القرآن هو منظم مربوط من حيث المعاني والألفاظ والموضوعات، ومبدأ آخر له في تفسير القرآن هو أنه كان يعتقد أن القرآن قد نزل في بيئة جاهلية خاصة فلا بد لمفسر القرآن أن يطالع أحوال هذا المجتمع الجاهلي ويدرس رواياتهم وأخبارهم ونظرتهم إلى الأشياء والأمور وطراز تفكيرهم في الكون والحياة، فلا يمكن فهم القرآن عنده إلا بعد أن تعرف البيئة الجاهلية وحياتها وآدابها وعقيدتها معرفة كاملة.

¹ كان رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كاليفورنيا

تفسيره "نظام القرآن"

إنه ألف تفسيرًا للقرآن باسم "نظام القرآن" في مجلدات ضخمة لم تطبع إلى الآن، وقد كتب العلامة الشهير السيد سليمان الندوي في كتاب "فاتحة تفسير نظام القرآن": "فهذه فاتحة تفسير نظام القرآن الذي أنعم به الله على عبده المدعو بعبد الحميد الفراهي تغمده الله برحمته قضى من عمره عشرين سنة بل أكثر في جمع فوائده وقيد أوأبده فقضى نحبه ولم يتيسر له إتمام ما بدأ به، فتركه مبعثرًا ومبثوثًا في الدفاتر غير سور أتم صنعها فأخرجها في صور الطبع".

ولا شك أن لتفسير "نظام القرآن" مزايا كثيرة لا نجد في تفاسير أخرى ويبدو جليًا أن المفسر قد اجتهد فيه جهدًا جهيدًا وبذل له سنين فجاء بشيء نادر، شيء يستحق كل إعجاب وتقدير، يقول عبد الحميد الفراهي نفسه: "فقد اجتهدت في هذا الكتاب بحول الله وبتوقيقه أن أكشف عن نظام القرآن وأفسره تفسيرًا ساذجًا غير خالط به من اختلاف نجم فينا بعد عصر نبينا ﷺ، فالتمست معنى الآيات من إخوانها وكذلك استنبطت نظام السورة من أعماقها ومن نفس سياقها ثم بعد ذلك أيدت ما فهمنا من القرآن بالنقل والعقل ففي أمر النظام تدليت في غور الكلام بالبصر النافذ". فإن المؤلف قد اهتم بأن يفسر القرآن بالقرآن ويبين ربط الآيات بعضها ببعض وكذلك خاتمة تفسير نظام القرآن.

تناول نظام سور القرآن ففسّر ربط السور بعضها ببعض، وقد أحسن العلامة السيد سليمان الندوي حينما قال: "والأمر الذي قد فاق الأقران وسبق الذين برزوا لتفسير القرآن اعتناؤه بربط الآيات ونظام السور، ترصيف الكلام فهو السابق في هذا الزمان، سلك طريقًا غير معبد يظنه الجاهل غريبًا وما هو إلا سنة أفاضل الصحابة وطريقة علماء التابعين، فكل ما قالوه ليس من طريق النقل، بل أدّى إليه اجتهادهم وتدبرهم في الآيات تدبر خاشع لله ومتبع للحق كما ترى الإمام الطبري في تصحيح الأقوال".

المزية الأخرى التي قد امتاز بها المؤلف هي أنه لم يقتبس الإسرائيليات إلا من صحف بني إسرائيل نفسها لقول العلامة السيد سليمان الندوي ثم على أشعار العرب التي هي ديوانها فيحلّ معضلات التفسير بلغات العرب ومحاورات كلامهم ويخلص إلى ما خلاص من أحاديث النبي ﷺ "ثم يخرج من ذخائر الإشارات كنوز الرموز وهو كما صرح به ليس بتفسير ولا تأويل بل شيء أداه إليه ذوقه ووجدانه، والمجتهد قد يصيب وقد يخطئ وشأنه فيه شأن صاحب روح المعاني في إشارته في التفسير، لا شأن الباطنية ولا الحكماء المتصوفة الذين لا خلاق لهم".

وهذه المزايا التي أشار إليها العلامة السيد سليمان هي تثبت جداً أن الأستاذ عبد الحميد الفراهي كان من أعلم الناس برموز القرآن وحقائقه بين أقرانه بغير خلاف.

الشيخ عبد الحميد الفراهي أول عالم هندي قام بتفسير القرآن على هذ النحو وكان عالماً باللغة الإنجليزية وكان يجيد العربية كما كان يجيد الإنجليزية، وقد قال الفراهي إنه ليس أول من سلك هذا الطريق بل إن كثيراً من العلماء قد أرادوا أن يسلكوا في نظام الآيات والسور هذا الطريق الذي قد اخترته بل قد أشار إليه السيوطي والشيخ عز الدين بن عبد السلام وفخر الدين الرازي وغيرهم.

ورأى الفراهي أن تفسيره يكون حجة بين فرق المسلمين لأنه لم يقل شيئاً يختلف فيه أو يجحد عنه وقال فيه "ولكن أردت ما يكون كالأساس والأم والوسط والحكم ولهذا اقتصر على ما في القرآن غير جاحد لما تركته".

كتابه "مفردات القرآن"

إن الأستاذ الفراهي قد ألف كتاب المفردات وكتاب الأساليب وكتاب أصول التأويل وكتاب تاريخ القرآن وكتاب دلائل النظام، ومن الأسف لم تطبع هذه الكتب إلا كتاب المفردات فإنه قد طبع في الهند سنة 1358 هـ ففي كتاب المفردات يبحث المؤلف عن الألفاظ المفردة ويكشف عن معانيها الخاصة بحيث أن تتضح لها

الحدود واللوازم وما يتصل بها وما يفرق عنها وما يشابهها وما يضادها، فيحيط العلم بدلالة الألفاظ المفردة".

وقد رأى الأستاذ الفراهي أن الخطوة الأولى في فهم القرآن هي المعرفة بالألفاظ المفردة إنه قد استدلل بدلائل واضحة أن القرآن ليس فيه الغريب من الألفاظ وأنه خالٍ من الكلام الغريب الوحشي، أما العلماء الذين ألفوا كتبهم في غريب الحديث والقرآن فهي ليست للعرب بل "التسمية بالغريب مناسبة إلى العجم ومن قلّ علمه بالعربية".

وقال في الحروف المقطعات إنها أسماء للصور فلا شبهة في معانيها وأما وجه التسمية بها فلا حاجة بنا إليه لفهم الكلام كما لا نحتاج إلى العلم بوجه تسميته بسائر الأسماء كالأرض والسماء والنار.

وإنه قد تناول أكثر الألفاظ المفردة التي قد استعملت في القرآن فشرح الجنة والنار والحق والتكذيب والحكمة وخاتم النبيين وسبحانك والصبر والشكر والصلاة والإيمان والزكاة والإسلام والبر وما إلى ذلك وفسرها أحسن تفسير في ضوء أشعار الجاهليين.

وأخيرًا فإن الشيخ عبد الحميد الفراهي هو أول عالم هندي فسّر القرآن باللغة العربية في العصر الأخير ويمكن لنا أن نعرف من البحوث السالفة منهج تفسيره ونظريته في ذلك، وكانت الغاية القصوى في حياته هي إتمام تفسير القرآن الذي بدأ به ولكن من الأسف أنه لم يتح لهذا وقضى نحبه قبل أن يستكمل تفسيره المسّمي بـ"نظام القرآن"، فلو طبعت الرسائل التي تركها الشيخ مبعثرة لكانت علومًا جمة وعيونًا فياضة ومادة غزيرة لدارسي القرآن ومفكره.¹

¹ مجلة البعث الإسلامي، مارس-أبريل، 1964م، ص 71-75

الفراهي¹ والترابط الفكري في القرآن

- أ.د. معين الدين الأعظمي²

قدّم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها تضحيات بدنية ومالية وتحملوا أنواعاً من المشاق والمتاعب والعذاب في سبيل استخلاص معاني القرآن لا يكاد يوجد لها مثال لدي أية أمة أخرى في العالم.

فكم من معشر خصّص جهوده ومساغيه لفهم القرآن، وكم من عالم عبّري قد وهب بإخلاص وتكريس وتفانٍ حياته وحياة أسرته كلها لنفس الغرض، ورب مسلم وهب ثروته الطائلة وأمواله الغالية لنشر تعاليم القرآن، وإن عددًا هائلًا منهم قد أقام المعاهد والمدارس والمجامع للدراسات القرآنية.

هكذا بذل المسلمون جهودًا فردية وجماعية في شكل دراسة وتدرّس لمعاصريهم مرة وفي شكل كتابة وتصنيف وتأليف للأجيال القادمة مرة أخرى في كل عصر وزمان، ولم تكن مساهمة الأعاجم أقل من العرب في استخلاص معاني القرآن وتعميم الثقافة التفسيرية وترويجها فكل من العلماء العرب والأعاجم بذلوا جهودًا مخلصّة في الوصول إلى المعنى المراد من الآيات والسور القرآنية.³

¹ الفراهي مفسر هندي اسمه الكامل عبد الحميد الفراهي (1862 – 1930 م) كرّس جهوده لإبراز الترابط المعنوي بين آيات وسور القرآن بعضها مع بعض وألف تفسيرًا سمّاه "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" أكمل منه تفسير 14 سورة (طُبعت بين 1903 – 1908 م) أما السور الأخرى فحدد لها التمهيد والموضوع ونقاطه الرئيسية والفرعية والخاتمة ولكن لم يستطع إكمالها، وله كتب ورسائل عديدة تكشف وتعالج الجوانب التي صعب فهمها على المفسرين فانحرفوا، ومعظمها غير كاملة وغير مرتبة أو في شكل ملاحظات ومخطوطات ومنها: دلائل النظام، وإمعان في أقسام القرآن، وحجج القرآن وأساليب القرآن، وجمهرة البلاغة، أو بلاغة القرآن.

² بروفيسور متقاعد من قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة إيقلو، حيدرآباد

³ فجر الإسلام لأحمد أمين.

نشأ علم التفسير وتطور وتقدم وازدهر وكان في حلتها الطويلة هذه بخطواتها سليماً وصحيحاً أحياناً واتجاهاً منحنياً ومعاكساً أحياناً أخرى وأحياناً أصابه ركود وجمود مثل الدراسات الأدبية والنقدية والنحوية والبلاغية التي مرت بمراحل الصنعة والتصنيع¹ فلم يحدث تجديد وابتكار في المواد والشكل والمضمون كما لم يحدث تجديد وابتكار في المناهج والطرق وعرض وتقديم المباحث ومعالجة القضايا المطروحة، لأن الثقافة التفسيرية مالت من السهولة والبساطة نحو الاتساع والتعمق والتحليل، وبعبارة أخرى لأن الثقافة الإسلامية اتسعت وتعمقت بل وتفلسفت فتفلسفت الثقافة التفسيرية والفنون والدراسات القرآنية، وحادت عن المنهج القويم السليم.

ولم ينته الأمر إلى هذا الحد بل تعدى إلى ما هو أخطر من هذا وهو أن الثقافة الإسلامية احتكت بالثقافة العالمية وتصارعت بشدة وقوة تلك الثقافات العالمية المتنوعة وروافدها لأجل بقائها ووجودها ولأجل تفوقها وسيطرتها ولأجل كونها أفضل الثقافات، ولإثبات أن أساسها موضوع على أصح الأفكار والمبادئ.²

استعراض التفاسير: وجه المفسرون عنايتهم واهتمامهم نحو القرآن فدرسوه دراسة مستفيضة. درسوه في ضوء العقيدة والتصوف الإسلامي وفي ضوء الفرق الدينية والعلوم الحديثة والتمدد الإسلامي³ كما درسوه في ضوء علوم اللغة العربية من لغة ونحو وبلاغة، فدرسوه من كل ناحية وجانب، وكان اللون الغالب، تفسير القرآن حسب المنزغ الشخصي والجماعي وحسب متطلبات البيئة والمجتمع، ولم تسلم هذه الدراسة المقدسة من هوى وميول المفسرين الشخصية والحزبية.

وقد تناول بعض هذه التفاسير إبراز النظم المعنوي والترابط الفكري في القرآن، من أهمها تفسير "جامع البيان في تأويل القرآن" للطبري (1123م) وتفسير

¹ الفن ومذاهبه، في النثر العربي للدكتور شوقي ضيف.

² مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار.

³ التفسير الموضوعي للقرآن للدكتور محمد إلهي.

"الكشاف عن حقائق التنزيل" للزمخشري (1144م) وتفسير "مفاتيح الغيب" للإمام الرازي (1210م) وتفسير "نظم الدرر في تناسب الآي والسور" لبرهان الدين البقاعي (1406 – 1480) ولكن جميع هذه التفاسير قد تناولت وعالجت النظم جزئياً، أو نقول إنها اهتمت بإبراز الترابط الفكري والمعنوي بين الآيات والسور في بعض الأماكن ولكنها لم تلتزم به التزاماً كلياً ولم تنجح بإبرازه في جميع القرآن مع أن مؤلفيها قد دافعوا عن وجود النظم المعنوي بين آيات القرآن وسورها فيتراى للدارس أن فكرة وجود الترابط المعنوي ظلت غامضة وغير متبلورة لدى جميع هؤلاء المفسرين وكان بمثابة حلم عذب جميل رائع لم يتحقق.

وبمعنى آخر فإن دراسة القرآن من ناحية وجود النظم المعنوي بين الآيات والسور لم تكن محاولة ناجحة ودراسة مرضية ومقنعة، ولم يقدر لأي مفسر طوال هذه الألف والأربعمئة سنة أن يؤلف تفسيراً يظهر فيه الترابط الفكري بين آيات وسور القرآن بعضها ببعض، بطريقة واضحة وجليّة، فإنهم التزموا بمنهج التفسير المجزء أكثر من التزامهم بالسياق والنظم المعنوي، والشئ الآخر الذي زاد مسألة وجود الاتساق المعنوي بين آيات القرآن وسوره تفاقماً وغموضاً وتعقيداً والتباساً هو أن جماعة من العلماء الأجلاء مثل عز الدين بن السلام والإمام ولي الله الدهلوي قد أنكروا وجوده في القرآن.

فكان هناك فراغ شديد ومؤسف في هذا المجال يتطلب عالماً يدرس المسألة دراسة مستفيضة ويبحث جميع جوانبه ويميز بين الجوانب السقيمة والسليمة ويفند المزاعم والأفكار الباطلة لمنكري النظم المعنوي ويستجلي الطريق للاطلاع والعتور عليه.

الفراهي ومحاولته في مجال التفسير: في الربع الثالث من القرن التاسع عشر، ولد في الهند مفسر جليل كان يملك مهارة فائقة وقدرة نادرة وملكة وموهبة مثالية في فحص ونقد الأقوال والتخصص في مجال علوم القرآن، وهو عالم بارز جداً لا يكاد يوجد له مثيل بين المفسرين في تاريخ إثبات الترابط الفكري والمعنوي بين آيات القرآن

وسوره، ولا عجب في هذا فإنه يغطس كثير من الغواصين في البحار طمعاً في اللآلي ولكن قليلاً منهم يظفر بها، وكذلك يبذل كثير من العلماء الجهود المضنية المتواصلة للاكتشاف والابتكار والإبداع ولكن قليلاً بل أقل منهم من يصادفه النجاح.

وإن كان للأوائل من المفسرين الفضل في ادعاء الترابط المعنوي في القرآن فله الفضل في تحديد معالمة وكيفية البحث عنه في القرآن، إنه طوّر فكرة وجود النظم المعنوي في القرآن وحركها ونشطها وكأنها لم تكن موجودة من قبل، إنه أولى اهتمامه الخاص لإثبات هذه الفكرة وشرع كتابة تفسير بعيداً من جميع المنازع الشخصية والقومية والحزبية سمّاه "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" أنفق في فهم معاني القرآن عمره الكامل وخاصة الثلاثين عاماً الأخيرة ولكنه لم يستطع إكمال تفسيره لأنه لم يكن يريد أن يؤلف تفسيراً على الطراز التقليدي الذي يبدو فيه كل مفسر ناقلاً يقتبس شيئاً كثيراً من مفسر آخر ويسرد لكل مفسر أقوالاً عديدة بل كثيرة لمعنى آية واحدة.

وإن الفراهي الذي توصل إلى هذا الرأي في نهاية القرن التاسع عشر أكدته الدراسة القرآنية للدكتورة بنت الشاطي (المفسرة المصرية التي تفتخر بها الأمة الإسلامية في الستينات¹ أي بعد خمسين عاماً منه على الأقل).

ويبدو من اسم تفسيره أنه أول مفسر بين جماعة المفسرين العرب والعجم (الذي يفوق عددهم من أن يحصى) الذي يسمى تفسيره بمثل هذا الاسم الذي يشير به إلى هدف ومنهج تفسيره، فأسماه معجم التفاسير يشير إلى مدح وتفريط التفسير مثل "جامع البيان في تأويل القرآن" للإمام الطبري و"الكشاف عن حقائق التنزيل" للإمام للزمخشري و"مفاتيح الغيب" للإمام الرازي، أو إلى المؤلفين أنفسهم.

شعر الفراهي بحزن واستياء شديدين لما رأى أن المفسرين يفسرون القرآن حسب منازلهم؛ متطلبات عصرهم ومجتمعهم ويبيّنون معاني عديدة لآية واحدة وليس

¹ التفسير البياني للقرآن للدكتورة بنت الشاطي.

الأمر كذلك، فلا بد أن يكون للآية الواحدة معنى واحد قطعي فحقيق واكتشف أن الطريق الوحيد للوصول إلى معنى واحد قطعي هو مراعاة الترابط الفكري في القرآن. فالفراهي لا يدافع عن وجود الترابط الفكري فحسب لأن هذا يعدّ من سوء الأدب أو عيبًا واتهامًا نحو كلام الله المقدس والمنزه بل لأن مراعاة الترابط المعنوي هو الطريق الوحيد لمعرفة المعنى المقصود والمراد من كلام الله، وهو المنهج الأصوب الذي يؤدي إلى المعنى المراد وإن عدم مراعاته يوقع وقد أوقع فعلاً المفسرين في موقف حرج حيث التبس عليهم المعنى المقصود القطعي الواحد الذي تريد الآية إعطاءه، واختفى واستتر المعنى القطعي بين المعاني الأخرى الكثيرة غير القطعية. وهذا أمر مهم للغاية، فإننا لو أخرجنا المعاني المرجوحة أو غير المقصودة من التفاسير لتنكمش إلى حجم صغير، وندخر وقتًا كثيرًا وثمينًا يضيع في قراءتها.

والفائدة الأخرى أننا إذا وصلنا إلى المعنى الواحد المراد فعندئذ يزول الاختلاف بين الأمة الإسلامية التي تفرقت فرقًا وشيئًا، وكل واحدة تستدل على صحة موقفها من القرآن الكريم، ولذلك يقال إن تفسير الإمام الرازي يوجد فيه كل شيء ما عدا التفسير، ولا ينكر العالم المتخصص في الدراسات القرآنية أنه يوجد في التفاسير حجم كبير وضخم من التفسيرات التي لا صلة لها بالمعنى المراد.¹

تفسير القرآن بالقرآن: لاكتشاف الترابط المعنوي في القرآن يرى الفراهي أنه يجب أن يفسر القرآن بالقرآن ومعناه أن معنى وموضوعًا واحدًا قد ذكر في القرآن في أماكن مختلفة في مكان بالإيجاز وفي مكان آخر بالتفصيل، فيجب استيعاب مثل هذه الآيات حول موضوع واحد في مكان واحد ثم فهم المعنى المراد، ويحرص الفراهي على ترك الأخبار غير الموثوق بها والإسرائيليات التي كثيرًا ما تكون سداً منيعًا في الوصول إلى المعنى القويم السليم المراد.

¹ المصدر السابق.

وهذا المنهج أيضًا كان معترفًا به لدى المفسرين ولكن لم يلتزم به جمهرة المفسرين التزامًا شديدًا.

أما الفراهي فقد تمسك به تمسكًا شديدًا وقد سمى تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالقرقان" أي يجب أن لا يكون الاعتماد على الروايات التاريخية إلا بالقدر الذي يؤيده القرآن.

وقد أثبت هذا المنهج بصورة واضحة جدًا ومستقلة العالم والمفسر المصري الدكتور محمد إلهي في كتابه "التفسير الموضوعي للقرآن" وأوضح كيف انحرف المفسرون وابتعدوا عن المعاني السليمة بسبب تركهم تفسير القرآن بالقرآن واعتمادهم على الروايات التاريخية.

وإن الدكتور محمد إلهي ليس متأثرًا بالفراهي كما أن الدكتورة بنت الشاطي ليست متأثرة به، وإنما حدث هذا التوارد والتطابق والتشابه في الرأي نتيجة لتطور الدراسات القرآنية.

وكل ما أريد أن أثبت أن فكرة الفراهي في النظم وكذلك في تفسير القرآن بالقرآن فكرة سليمة أكدتها الدراسات المتخصصة التي ظهرت أخيرًا ولكن تفسير القرآن بهذين المنهجين ليس أمرًا هينًا بل هو صعب جدًا.

انطباعات الفراهي عن النظم: الفراهي لا يدافع عن وجود النظم المعنوي في القرآن فحسب بل يراه أعمق وأدق وأبلغ وأروع، وكيف يشك فيه (النظم) من وجد فيه مسّ برده وشمّ ريح ورده وتمتع بنسيم عرار نجده، ولكن من لم يذقه فارتاب فلا تثريب عليه¹ إن القرآن ذو وجوه كجوهرة ذات جوانب ترمي بالشعاع من جهات شتى ومع ذلك يهدي إلى سبيل واحد، فكلّماته كشموس، فمن يستطيع أن يجمع أشعته على نقطة² إن الله تعالى لمثل هذه الأسباب التي ذكرناها أنفًا جعل القرآن على نهاية الإيجاز

¹ فاتحة نظام القرآن، ص 5.

² مقدمة نظام القرآن، ص 18.

ومع ذلك ملأها حكمًا جمّة فلكثرة المطالب العالية والأطايب الغالية يتحير الناظر فيه ويصعب عليه أن يصطفي من بين معانيه معنى واحدًا كمن يطلب من بين الجواهر "واسطة العقد" ومن غاية الحسن كلها يروقه فلا يدري أيها أحسن¹.

أدلة عقلية على وجود النظم في القرآن: يرى الفراهي أن القرآن بآياته وسوره مترابط ترابطًا وثيقًا وبالجملّة فمرادنا من النظم أن تكون السورة كلاً واحداً، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة أو بالتي قبلها أو على بعد منها كما قدم في نظم الآيات مع بعض².

فكما أن الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السورة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر³ ويقول "فهذا إشارة إلى أصل راسخ في ترتيب الآيات والسورة فتري كل جملة من السورة تبتدئ بالمكية وتختتم بالمدينة أو ترى جملة من المكيات قد أدخل فيها سورة واحدة أو أكثر من المدينة وهذا مثلما ترى في ترتيب الآيات"⁴.

ويرى كذلك أن ترتيب السور الموجود يوافق النظم المعنوي، أما ما يظهر فيها من قصور ونقص في الترتيب فسببه عدم فهم فلسفة ترتيب السورة كما أن الآية نزلت بعد مدة وضعت بما تناسبها، فكذلك بعض السورة ضمت بعضها لمناسبة المتأخرة بالمتقدمة للتفصيل والتشديد أو الموافقة في المعنى⁵ كما أنه (القرآن) مرتب الآيات فكذلك منظم السور، فإن قدّمت أو أخرت ذهب طرف من الحكمة كما لو بدل

¹ دلائل النظام، ص 87.

² نفس المصدر، ص 87.

³ دلائل النظام للفراهي.

⁴ نفس المصدر، ص 75.

⁵ دلائل النظام للفراهي، ص 83.

ترتيب الآيات¹ يقول "اعلم أن مرادنا من النظم أن تكون لكل سورة صورة مشخصة، فإن معالي الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد، كان الكلام ذا وحدانية، فحينئذ لا يكون إلا وله صورة مشخصة، فإذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضاحة² ويقول "السور القصار ألد وأحلى وأجلى وأسهل فالقارئ ينتظر كالمسافر إلى منزل طيب بهيج أو كما يوضع أحلى الأطعمة في الآخر... فكلما قرب إلى آخر القرآن قرب إلى معالي الأمور وأصول الدين"³ ويقول "إنما نزل القرآن حسب تربيتهم فزل ما يبني عليه الأحكام ثم نزل الأحكام مع الخلط بالترغيب والترهيب، وتفصيل الأحكام جاء بعد الإجمال"⁴ "في أوائل التنزيل نظر إلى عامة الأخلاق الإنسانية وفي أواخره إلى ما بين أيديهم من الأقوام، فالأوائل كلية والأواخر جزئية والأول أقرب إلى العقول والآخر إلى الحواس، الأول حاد عميق والآخر بسيط ظاهر"⁵ "إن الله تعالى حين تحدى العرب بإتيان مثل هذا القرآن اشترط إتيان سورة ولو كانت قصيرة ومعناه الإتيان بكلام منظم يكون ذات توطئة وموضوع وخاتمة"⁶ "إن القصار تضام الطوال رباطاً ونظاماً ومعنى وقدرًا"⁷.

وهناك فرق شاسع بين الترابط الفكري الذي يظهره المفسرون الآخرون والترابط المعنوي الذي يدعو إليه الفراهي فإنه غير مقتنع بالنظم الذي يظهره الإمام الرازي وكذلك الذي يظهره الإمام البقاعي في تفسيره "نظم الدرر في تناسب الآي والسور" إنه يدعو إلى إيجاد ترابط فكري طبيعي أعمق وأدق وأروع وأبدع وأشد اجتذاباً وبهاء وأكثر لمعاناً وبرقاً وبزوغاً.

¹ نفس المصدر، ص 120.

² نفس المصدر، ص 75.

³ فاتحة نظام القرآن، ص 21.

⁴ دلائل النظام، ص 86.

⁵ نفس المصدر، ص 86.

⁶ فاتحة نظام القرآن، ص 21.

⁷ دلائل النظام، ص 21.

أسباب احتجاب النظم: (ألف) يرى الفراهي أن هناك أسبابًا تعوق في إدراك الترابط المعنوي في القرآن، ومن أعمها "أن القدامى نظروا إليه وكأنه كتاب قانون أو علوم، واستنبطوا من كل لفظ مسائل وأحكامًا ولم يفكروا في سياق الآيات كما يفعل الإمام البخاري الذي يذكر الآية الواحدة في أماكن وأبواب مختلفة".¹

(ب) إن الحكماء نجعتهم الأمور الكلية فلا يعجبهم رأي ينخرم بعض جوانبه... ولما لم يتبين لهم وجه الدلالة فيه زعموا أن هذه الكلية لا تصح هنا وليس من دأب أكثرهم أن يقرروا بالعجز ويحولوا العلم إلى الله كما ترى في مسألة نظم القرآن فإنه ظاهر وواضح في أكثر المواضع ولم يشكل كل الأشكال إلا في قليل".²

(ج) "إن أكثر من ذهب إلى وجود النظام كالإمام الرازي قنع في هذا الأمر الصعب بما هو أهون من بيت العنكبوت مع سبقه في العلوم النظرية والذكاء فمن نظر في كلامه تيقن بأن النظم لو كان كما يدعي هذا الإمام المتبحر وأمثاله لما خفي عليه مع خوضه فيه إذ لا يأتي هو ولا غيره إلا بكل ضعيف، فلا مطمع فيه لأحد بعد هؤلاء".³

(د) "إن إكثار الوجوه من أكبر الحجب على عدم فهم النظام، بل عدم التمسك بالنظام هو أكبر سبب للوقوع بكثرة التأويل، فالنظم هو الذي يوجهك إلى الوجه الصحيح".⁴

(هـ) "إن تحزب الأمة في فرق وشيع قد ألجأهم إلى التمسك بما يؤيدهم من الكتاب فراق لهم تأويله الخاص له، سواء كان بظاهر القول أم بأخذ طرق تحمل الكلام على بعض الاحتمالات، ولا يخفى أن غلبة رأي أو وهم يجعل البعيد قريبًا والضعيف قويًا، وكذلك يفعل كل فريق، لكل فريق تأويل حسب مذهبه وحينئذ لا يمكن رعاية النظم فإن الكلام لا بد له من سياق ولا بد لأجزائه من موقع يخصه".⁵

¹ مقالة باللغة الأردنية في النظم للفراهي، مجلة الإصلاح، 1936م.

² إمعان في أقسام القرآن للفراهي، ص 25.

³ دلائل النظام، ص 23.

⁴ نفس المصدر، ص 25.

⁵ نفس المصدر، ص 25.

إدراك النظم صعب: مع ذلك نجد الفراهي يقر ويعترف بأن إدراك النظم في القرآن صعب وعسير ويحتاج إلى التأمل والتدبر العميق والطهارة الخلقية والروحانية. (ألف) "كما ترى في نظم القرآن فإنه ظاهر واضح في أكثر المواضع ولم يشكل كل الأشكال إلا في قليل، فلو اعترفوا بالجهل كما فعل بعضهم لكان حريًا ولكن تراهم لم يعتمدوا على وجود النظم وإنما أرادوا بذلك أنه ليس كليًا فظن العوام أن لا نظم في القرآن وكله اقتضاب".¹

(ب) من أضر ما يظنه المتغافل عن علم النظم أنه مع أشكاله وصعوبته وكونه من مزلات الأقدام ليس من مهمات الدين".²

موضوع السورة: أما كيف تكون آيات السورة مرتبطة بعضها مع بعض وهي أفكار مشتتة ذات عناصر متباينة في الظاهر فيرى أن لكل سورة موضوعًا وله عناصر أجزاء تدور حول ذلك الموضوع أو الفكرة الأساسية "أما العمود فلا يكون للسورة إلا واحدًا".³

والفراهي يرى أن معرفة ذلك الموضوع هو المشعل الوهاج الذي يثير الطريق للسالك ويبعده من التأويلات الركيكة وينور أمامه دقائقه وحكمه الجمّة فإنه بمثابة خيط ينسلك في الأجزاء المختلفة المتفرقة "اعلم أن عمود السورة هو الأقليد لمعرفة نظامها"⁴ "إن القرآن ذو وجوه كجوهرة ذات جوانب ترمي بالشعاع من جهات شتى ومع ذلك يهدي إلى سبيل واحد، فكلّماته كشموس فمن يستطيع أن يجمع أشعته على نقطة".⁵

¹ إمعان في أقسام القرآن، ص 46.

² دلائل النظام، ص 17.

³ مقدمة نظام القرآن، ص 18.

⁴ دلائل النظام، ص 87.

⁵ نفس المصدر، ص 56.

الفراهي قبل فهم السورة وتأويله يعين موضوع السورة ثم يمسكه بشدة ويبسطه على الآيات والسورة كلها ولا يتركه بل لا يغفل عنه ولو للحظة حتى في الأماكن الحرجة الصعبة ثم له ذوق خاص في تعيينه، فالموضوع الذي يستخرجه يبدو أشمل وأجمل منظرًا وأروع شكلاً وكأنه أخرجه من الغور والباطن وبعد تفكير عميق وتدبر طويل.

يقول في سورة التحريم "إن في القرآن عشر سور نزلت في تطهير المؤمنين وهي آخرها التي تؤكد الاحتساب الشديد على أنفسهم وأهلهم وإنما بدأ الكلام بالنبي وبأمر يظنونه شيئاً بل من الحسنات، فكم من الناس حرموا على أنفسهم طيبات أحلت لهم ظناً منهم بأنهم يحسنون ويرضون به ربهم فكشف لنا عن حقيقة هذا الدين القيم الفطري... ولذلك ترى ذكر النور في مثل هذا المقام، وبسط الكلام في تفسير سور النور والحديد ثم ختم بذلك ما كان فيما بين النبي وأهل بيته، ولنعلم أن المداينة لو جازت في الدين لجاز بالرسول وأهل بيته، ثم سلاهم بأن الله يحذركم ليكفر عنكم سيئاتكم.

ثم وسع ذمة النبي باحتساب نبوي مجاهدته الكفار والمنافقين وأمره بالغلظة قبل لقاءهم بملائكة غلاظ شداد، ثم ضرب أربعة أمثال على أصل المسألة وهي استغلال إنسان بذمته".

والمفسرون قبله لم يدركوا سوى المعاني الظاهرة التي جاء ذكرها في شأن النزول، ولكن وراءها أسراراً وحكمًا بالغة خفية في باطنها ولا تنكشف إلا للمتأمل، وهي في الحقيقة الهدف الرئيسي من السورة.

لكن الفراهي وصل إلى أعماق السورة وأدرك حكمتها وفلسفتها وكشف عن معانيها السامية التي تظهر بعدها، وكل جزء وآية منسجمة مع الآخر انسجاماً كلياً وتتجلى السورة بأبهى صورة.

وما دام للموضوع هذه الأهمية والخطورة فهو لم يتركه غير مدروس كما فعل غيره من المفسرين بل يبين الطرق لمعرفته التي اكتسبها من تجاربه وخلال دراسته الطويلة ولم يكن لرأيه هذا كبير أهمية سوى أنه أصاب في الاختيار لأن هذه

الفكرة كانت موجودة من قبل لكن قيمة رأيه تزداد في أنه كشف الطرق العديدة لمعرفة، فقبل كل شيء نجده يحذر طالبه من أن معرفته صعبة ومن أشد المراحل اجتيازًا وعبورًا للمفسرين "ولكنه أصعب المعارف ويحتاج إلى شدة التأمل والتمحيص وتعميق النظر في مطالب السور المماثلة المتجاورة حتى يلوح كفلق الصبح فيضئ به السورة كلها ويتبين نظامها وتأخذ كل سورة محلها الخاص ويتعين من التأويلات أرجحها".¹

ويرى الفراهي أنه من علامة صحة الموضوع أن يشمل ذلك الآيات كلها "العمود هو الشيء الجامع الذي به رباط السورة بأسرها ولكنه أهم الأمور بيانًا".²

أما الشبهات والمطاعن التي توجه حول وجود النظم المعنوي في القرآن والتي قد أظهرها كبار العلماء مثل عز الدين بن السلام (1182-1282هـ) والشيخ ولي الله الدهلوي (1699-1782م) وهي أن القرآن نزل في أوقات مختلفة وحوادث متباينة، وفي مثل هذا الكلام لا يوجد التسلسل المعنوي أو النظم، فيرد الفراهي قائلًا بأن القرآن لم يجمع كيف جاء واتفق بل الأصول المرعية في جمعه هي الحكمة فيقول في قوله تعالى في سورة (كِتَبٌ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) فالأحكام يدل على حكمة القائل ومعرفته بالأصول وحقائق الأمور، والتفصيل يدل على سعة علمه بتفاصيل الأمور".³

ويرى أن كل سورة تشتمل على المعالم والندرة ولكن العمود عامة لا يكون فيها ولا في أعظم المقاصد وإن من علامة صحة الموضوع أن يشمل ذلك الآيات كلها "ليس العمود أعظم المقاصد حقيقة بل هو الشيء الجامع الذي به رباط السورة بأسرها ولكنه أهم الأمور بيانًا في سورة ذكرها، ألا ترى آية النور تتلألأ في وسط

¹ نفس المصدر، ص 77.

² مقدمة نظام القرآن، ص 19.

³ جمهرة البلاغة، ص 58.

السورة كواسطة العقد في الوشاح أو كتعرض الثريا في كبد السماء مع أنها ما جاءت إلا تبعًا، وعمود السورة حسن الأدب في أمور ربات البيوت.¹

ويحدث أن الموضوع مع كونه واحدًا في السورة ربما يصعب امتيازها فإنه يحتوي أشياء كثيرة ومطالب شتى، أما العمود فلا يكون لسورة إلا واحدًا وهذا الواحد ربما يحتوي على أشياء كثيرة كالذي عمدت إليه سورة الحجرات فما هو إلا شيء واحد وإن لم يكن له اسم في اللغة وهبة التوبيخ على سوء الخلق ظنًا وقولًا وعملاً.²

والفراهي يرى أن موضوع السورة ينكشف بعد استيعاب مطالب السورة والتدبر في القرآن بسعة النظر فإن ظهر الموضوع ظهر النظام والوحدانية التي هي مجموع حسن التناسب "العمود كالحمد المنطقي لا يطلع عليه بالصحة إلا بعد رجوع النظر في النظم وعلم روابط الجملات وإحاطة المطالب جملة، ثم إن وجدت العمود المعروض أوفق بالنظم أقرب إلى زيادة التوضيح وحسن التنظيم فقد أصبت وإلا فلا بد من طلب عمود آخر"³ لا يخفى مما قدمنا أن النظام لا بد له من عمود يجري إليه الكلام فإنك ترى في السورة الواحدة مطالب شتى ولا تعلم ما هو العمود الذي سيق إليه المعاني ولن تهتدي إلى معرفة اتصال الكلام بعضها ببعض دون معرفتك بمساق الكلام وجهته التي تسلك إليها أجزاؤه حتى تراها منظومة في سلك واحد".⁴

أما العمود فهو جماع مطالب الخطاب فإليه مجرى الكلام وهو المحصول والمقصود منه، فليس من أجزائه الترتيبية ولكنه يسري فيه كالروح والسر، والكلام شرحة وتفصيله وإنتاجه وتعليقه وإنما يحسن إخفاؤه فلا يطلع عليه إلا بعد استيفاء الكلام والتدبر فيه.⁵

¹ مقدمة نظام القرآن، ص 19.

² نفس المصدر، ص 18.

³ دلائل النظام، ص 73.

⁴ نفس المصدر، ص 72.

⁵ نفس المصدر، ص 73.

تبين مما بسطنا من أقواله وآرائه وتوجيهاته ونصائحه حول مختلف نواحي الاتساق المعنوي أن الفراهي أول مفسر في تاريخ ادعاء وجود الترابط الفكري في القرآن الذي درس هذا الموضوع دراسة مكثفة وشاملة، إنه توصل إلى هذه النتيجة في نهاية القرن التاسع عشر، فإن تفسيره لبعض سور القرآن قد طبع بين 1903 – 1908 م.

وإنه لمن دواعي السرور أن الدراسات القرآنية الحديثة التي ظهرت في مصر مثل "التفسير البياني للقرآن" للدكتورة بنت الشاطي و"التفسير الموضوعي للقرآن" للدكتور محمد إلهي، قد أكدت ودعّمت موقف ونظرية الفراهي مزيداً.

وما دام أن الفراهي مع جهده المضني لم يستطع إكمال تفسيره وترك معالم وخطوطاً توجيهية فيمكن الاستفادة منها لإبراز المقدمة والموضوع والخاتمة في بقية سور القرآن، وهناك مجال لتنقية بعض آرائه ويمكن أن يحول هذا الأمر النبيل إلى لجنة مكونة من العلماء الذين لهم دراسة عميقة في علوم القرآن وذلك لأجل:

أولاً: كتابة أول تفسير كامل يبرز المقدمة والموضوع والخاتمة والاتساق المعنوي بين الآيات والسور القرآنية بصورة واضحة طبيعية.

ثانياً: تجريد التفاسير من الأقوال الكثيرة المرجوحة والمردودة التي تسربت إليها بسبب بعض الظروف الاجتماعية والحضارية، والاختيار منها الذي يطابق النظم وسياق الكلام والتجنب من التفسير المجزء تجنباً كلياً ليتحقق الحلم الرائع القديم للمفسرين.¹

¹ مجلة البعث الإسلامي، أبريل ومايو سنة 1988م، ص 48 و 71-79

أثر نظام القرآن في بيان مقاصد الأسماء والصفات

- أ.د. أحمد حسن فرحات¹

أثر دلالة النظام في تبين المقاصد والغايات: لا بد لنا في مستهل هذا البحث أن نبين المراد بـ"النظام":

تكلم العلماء قديماً على المناسبات بين الآيات، والمناسبات بين السور- يريدون بها الروابط- وقد روي عن الرازي قوله: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الروابط والترتيبات".

أما علم "النظام" فهو مما قال به العلامة عبد الحميد الفراهي الهندي:

"فعلم النظام: لا يظهر التناسب وحده، بل يجعل السورة كلاماً واحداً، ويعطيها وحدانيته، التي بها صارت سورة كاملة، مستقلة بنفسها، ذات عمود تجري إليها أجزاؤها، ويربط الآيات بعضها ببعض، حتى تأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات المحتملة أرجحها. فالنظام أعم من المناسبات.

فمن تدبر القرآن في ضوء النظام، فلا شك أنه لا يخطيء في فهم معانيه، وذلك لأن النظام يبين سمت الكلام، وينفي عنه تشاكس المعاني، ويرد الأمور إلى الوحدة، ويسد أبواب الدخول فيه للأهواء، حتى يجبره أن لا يأخذ إلا بصحيح التأويل، ولا يعتمد إلا عليه. وهو أعظم مطلوب".

يقول الفراهي في سبب قوله بالنظام وحرصه عليه:

"ولكن اضطرني إليه أمور:

¹ أستاذ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر

الأول: إني رأيت جلّ اختلاف الآراء في التأويل، من عدم التزام رباط الآيات. فإنه لو ظهر النظام، واستبان لنا عمود الكلام، لجمعنا تحت راية واحدة. وكلمة سواء: " كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء". وجعلنا معتصمين بحبل كتابه كما قال:

"وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾" (سورة آل عمران: 103)

وكيف الخلاص عن التفرق الأصلي، وقد جعلوا هذا الحبل أشتاتًا في ظنونهم. وهو بحمد الله متين؟!

فيؤوله كل فريق حسب ظنه، ويحرف طريق الكلام عن متنه.

وبالنظام، يتبين سمت الكلام، فينفى عن آيات الله، أهواء المبتدعين، وانتحال المبطلين، وزيف المنحرفين

والثاني: إني رأيت الملحين قد طعنوا في القرآن، من جهة سوء النظم

"كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾" (سورة الكهف: 5)

وقد علمت حق اليقين، أن قولهم باطل، وحجتهم داحضة. فلم يسعني أن أسكت، وأرى الباطل قد عمت بلواه، وبلغ السيل زياه.

الثالث: أنه لا يخفى أن نظم الكلام بعض منه، فإن تركته ذهب بعض معناه. فإن للتركيب معنى زائدًا على أشتات الأجزاء، فلا شك أن من حرم فهم النظام، فقد حرم حظًا وافرًا من الكلام. ويوشك أن يشبه حاله بمن قبله من أهل الكتاب - كما أخبر الله تعالى عنهم -:

"فنسوا حظًا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة".

وأخاف أن تكون هذه العداوة والبغضاء بين المسلمين من هذا النسيان. فلا تهدأ عداواتهم، ولا يرجعون عن اختلافهم.

وسبب ذلك ما ذكرنا في الأمر الأول، لأننا إذا اختلفنا في معاني كلامه، اختلفت أهواؤنا، وصرنا مثل أهل الكتاب. غير أن رجاءهم كان بهذا النبي، وهذا القرآن الذي يرفع اختلافهم.

وأما نحن فليس لنا إلا هذا الكتاب المحفوظ.¹

وبناء على هذا الأصل كنت أثناء تلاوتي للآيات المتصلة بالاعتقاد، أرى معاني مختلفة عما توارثناه، مما شغل علماءنا السابقين، من اهتمام بالمعاني الجزئية، والتي كثيراً ما تكتفي بموضع الشاهد - حسب اهتمام العالم وتخصصه - على حين نرى أن فكرة النظام، المراعية للسباق والسياق، توجه الاهتمام إلى المعاني الكلية الجامعة، والمؤدية إلى المقاصد والغايات. علماً بأن هذا الاتجاه ليس خاصاً بآيات الاعتقاد وحدها. بل هو مما عمت به البلوى قديماً، في معظم كتب التراث.

ولعل ذلك يعود إلى مجموعة من الأسباب، ولعل أهمها:

- أن علم معاني القرآن، نشأ في أحضان علماء العربية، كالفرّاء، والزجاج، والأخفش، وأمثالهم، وهؤلاء كانت تستهويهم البحوث الجزئية، وتلفت انتباههم قضايا الصرف، والإعراب، مغفلين السوابق واللواحق، في كثير من الأحيان، وربما أغراهم بذلك كثرة الوجوه المحتملة، التي تنشأ نتيجة قطع الكلام عن سباقه وسياقه - بناء على أن القرآن حمال أوجه - والذي ربما يدل على تبجرهم في العلم... وجاء المفسرون، والفقهاء، من بعدهم، فأقاموا بنيانهم على تلك الأسس التي مهدها السابقون. ويمكن أن نضرب لذلك بعض الأمثلة:

- يتساءل الفرّاء عند قوله تعالى:

¹ فاتحة نظام القرآن للفراهي، مطبعة الإصلاح، الهند، 1352هـ، ص 43

"وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿٨١﴾" (سورة النحل: 81)

عن عدم ذكر البرد في الآية، ثم يجعله مقدرًا. أي: تقيكم الحر، وتقيكم البرد. علمًا أنه لو مدَّ نظره في ما سبق من الآيات، لوجد قوله تعالى:

"وَلَا تَعْمَ خَلْقَهَا لَكُم فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾" (سورة النحل: 5)

فهي إذن تقيكم البرد. فلا يحتاج إلى مثل هذا التقدير.

- والمثال الثاني: ينطبق على أهل الفقه، الذين وقفوا عند قوله تعالى:

"لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾" (سورة الواقعة: 79)

حيث رأوا أن الآية إنما هي في اشتراط الطهارة، لمس المصحف.

علمًا أن الآية في سياقها، وسياقها تقول:

"فَلَا أُفْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾" (سورة الواقعة: 75-80)

فالحديث إذن عن القرآن الكريم، في اللوح المحفوظ، قبل نزوله إلى الأرض، وأنه لا يصل إليه إلا الملائكة المطهرون. وأن تنزله إلى الأرض، من رب العالمين. وفي هذا تأكيد لقوله تعالى:

"وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٢﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ ﴿٢١٣﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعُزُولُونَ ﴿٢١٤﴾" (سورة الشعراء: 210-212)

ثم لو كانت الآية في مس المصحف من الناس لقال: "المتطهرون". لأن الناس ليسوا مطهرين خلقه، كالملائكة. إنما يكتسبون الطهارة بفعلهم، كما قال:

"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" (سورة البقرة: 222)

فانظر كيف تغير المقصود من الآية، نتيجة عدم مراعاة السباق، والسياق. وموضوع "الأسماء، والصفات" من الموضوعات الهامة، المتصلة بالاعتقاد، والتي شغلت علماء الأمة - قديماً، وحديثاً - نظراً لاتصالها بذات الله - عز وجل - حيث سلك العلماء في معالجة هذا الموضوع مسالك متعددة، وكانت لهم وجهات نظر مختلفة، مما أدى إلى نشوء الفرق المتشاكسة، كالمعتزلة، والجبرية، والمرجئة، والأشعرية، وغيرها.....

يقول العلامة عبد الحميد الفراهي:

"قد رأينا اختلافاً عظيماً في العقائد، حتى نشأت فرق متضادة، واختلفوا كل الاختلاف، فكفر بعضهم بعضاً، ولم يكن ذلك إلا لخوضهم فيما لم يكن لهم إليه سبيل، فتقولوا بما لم يثبت، واستنتجوا من بعض النصوص ما يخالف بعضاً آخر منها، وقد نهوا عن ذلك.

فالطريق القويم: هو الانتهاء حيث انتهى النص، والاعتصام بالعقيدة، والعمل بالمحكم".¹

ومن الأسباب التي أدت إلى هذه النتائج ما ذكره الراغب الأصفهاني في مقدمة تفسيره حيث قال:

"إن المعاني ضربان: جلي وغامض:

- فالجلي: ما يمكن إدراكه بأدنى التأمل، كقوله تعالى:

"قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ إِلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً" إلى قوله: "ذَلِكَ وَمَنْ يُضِلَّهُ يَزِدْ لَهُ لَعْنَةً تَعْلُونَ" (الأنعام: 151).

¹ القائد إلى عيون العقائد للفرا هي، ص 4-5 (نسخة إلكترونية)

- وأما الغامض:

- أن يكون المعنى في نفسه خفيًا، نحو الكلام في صفات الباري - سبحانه - ونفي التشبيه عنه¹.....

ويمكن أن يضاف إلى ذلك مما يوقع الاختلاف، ويُكثر الشَّبهَ ":

- اختلاف النَّظَرَيْنِ - من جهة الناظرين - وذلك كنظر فرقتي أهل الجبر، والقدر:

- حيث اعتبر أهل الجبر: السبب الأول، فقالوا: الأفعال كلها من جهة الباري سبحانه وتعالى، إذ لو لولاه، لم يوجد شيء منها.

- وقال أهل القدر: إن الممكنات من جهتنا، حيث اعتبروا السبب الأخير، وهو المباشر للفعل، دون السبب الأول.

ومنها: اختلاف نظر الناظرين: من اللفظ إلى المعنى، أو من المعنى إلى اللفظ.

- وذلك: كنظر الخطَّابي إلى اللفظ، في إثبات ذوات الأشياء.

- ونظر الحكماء من ذوات الأشياء، إلى الألفاظ.

وذلك: نحو الكلام في صفات الباري - عز وجل -:

فإن الناظر من اللفظ وقع عليه من الشبهة العظيمة، في نحو قوله تعالى:

"بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ" (سورة المائدة: 64) وما يجري مجراه.

وأهل الحقائق لما تبينوا بالبراهين: أن الله تعالى واحد، منزّه عن التكثر - فكيف عن

الجوارح - بنوا الألفاظ على ذلك، وحملوها على مجاز اللغة، ومشاع الألفاظ،

فصينوا عما وقع فيه الفرقة الأولى.²

هذا ما ذهب إليه الراغب في بيان أسباب الاختلاف.

¹ مقدمة جامع التفاسير للراغب، ص 35

² مقدمة جامع التفاسير للراغب، ص 40-41

ويقول الفراهي: العقيدة: ليست إلا ما يعتقده القلب، وذلك لا يكون اللفظ المحض، بل لا بد له من معنى، وأقل ذلك: المعنى المجمل.

فأما الألفاظ المحضة ك"اليَد، والساق، وغيرها" فلا تدخل في العقائد.. والقول بهذه الألفاظ بدعة.. إنما جاء الوحي بالجماليات، فلا نزيد عليها، فنقول:

"يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ" (سورة المائدة: 64)

ولا نقول: إن لله تعالى يَدًا، وقدمًا، وساقًا، وغير ذلك. والفرق بين القولين ظاهر.¹

يريد بذلك: أن القول بهذه الألفاظ، يصرف النظر عن المعنى الذي جاءت الآية من أجله، وهو الرد على ما قالت اليهود من أن "يد الله مغلولة" فأجابهم بقوله:

"عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ" (سورة المائدة: 64)

ويمكن أن نذكر بعض الأمثلة الأخر المتصلة بالعقائد، والصفات:

"وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ" (سورة الصافات: 96)

- حيث يمكن أن تكون "ما": موصولة - على معنى -: خلقكم والذي تعملون.

- ويمكن أن تكون مصدرية - على معنى -: خلقكم وعملكم.

وقد ذكر أهل التفسير القولين بمستوى واحد.

بل إن أهل الجبر: بنوا مذهبه على المعنى الثاني، الذي يفيد خلق الأفعال.

والآية - على كلا القولين - تفيد التقرير. علمًا أننا لو وضعنا الآية في سياقها، نرى أن المعنى ينتقل من التقرير، إلى الإنكار.

ذلك أن الآية التي قبلها - جاءت على لسان إبراهيم عليه السلام - مخاطبًا قومه المشركين الذين يعبدون الأصنام - التي ينحتونها بأيديهم، قائلاً:

¹ القائد إلى عيون العقائد، ص 43

"قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾" (سورة الصافات: 95-96)

حيث يصير المعنى: أفتعبدون الذي تنحتون من الأصنام، والله خلقكم وخلق الأصنام التي تنحتونها. فهو ينكر عليهم هذا الفعل.

وعلى هذا لا بد أن تكون "ما": موصولة.

ولو قلنا بأن "ما": مصدرية، لم يستقم معنى الآية، ذلك أن "عملكم" - المؤول بالمصدر: إما أن يعود إلى: "أتعبدون"، أو يعود إلى: "تنحتون".

- فيكون المعنى على القول الأول: أفتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وعبادتكم؟ وهذا المعنى لا يستقيم لأن أوله إنكار، وآخره تقرير، وكأنه بذلك يعطيهم حجة لفعلهم، على حين هو يريد أن يقيم الحجة عليهم.

- ولو قلنا إن المصدر المؤول يعود إلى "تنحتون": يكون المعنى: أفتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم ونحتكم؟

وهذا المعنى لا يستقيم أيضاً، إلا إذا جعلنا المصدر المؤول "نحتكم"، بمعنى: اسم المفعول: "منحوتكم". وبذلك يعود إلى معنى "ما" الموصولة. غير أن هذا القول يحتاج إلى تقدير. والمعنى الأول: أولى، لأنه لا يحتاج إلى تقدير.

آيات الاستواء:

"إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾" (سورة الأعراف: 54)

فالآية تتحدث عن الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، كما تتحدث عن استوائه على العرش، حالة كونه يغشي الليل النهار، يطلبه حثيثاً. كما تتحدث عن خلقه الشمس والقمر والنجوم، حالة كونها مسخرة بأمره. ثم توجز الكلام بقوله تعالى: "أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ".

فالحديث عن خلق السموات والأرض، وخلق الشمس والقمر والنجوم، من باب الخلق. والاستواء على العرش حالة كونه يغشي الليل النهار، وحالة كون الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره. كل ذلك يدخل في باب الأمر. ومن ثم كان الختام: "أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾" (سورة الأعراف: 54)

ومثل ذلك قوله تعالى:

"إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾" (سورة يونس: 3)

فبعد أن ذكر خلق السموات والأرض في ستة أيام، ذكر استواءه على العرش، حالة كونه يدبر الأمر، وأنه لا شافع عنده إلا من بعد إذنه، وأنه المستحق للعبادة، وأن المرجع إليه، فيجازي كلًا على حسب عمله، واستحقاقه.

ومثل ذلك أيضًا قوله تعالى:

"اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَةٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْتَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾" (سورة الرعد: 2-4)

حيث ذكر رفع السموات بغير عمد، ثم ذكر استواءه على العرش، وتسخيره الشمس والقمر يجريان لأجل مسمى، حالة كونه يدبر الأمر.

ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى:

"الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾" (سورة طه: 5-8)

قال الراغب في المفردات:

قيل: معناه استوى له ما في السموات وما في الأرض، أي: استقام الكل على مراده، بتسوية الله تعالى إياه، كقوله: "ثم استوى إلى السماء فسواهن".

وقيل: معناه: استوى كل شيء في النسبة إليه، فلا شيء أقرب إليه من شيء، إذ كان تعالى ليس كالأجسام الحالة في مكان، دون مكان.¹

وهكذا نجد مقصد آيات الاستواء، مرتبطاً بسياقها، الأمر الذي لم يلتفت إليه كثير من العلماء، الذين شغلوا عنه: بالحديث عن معنى "الاستواء"، وحقيقته، مما كان سبباً في الاختلاف، وتعدد الأقوال.

ويمكن أن يكون من قبيل ذلك قوله تعالى:

"وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْهُ فَزَارَهُ فَأَسْغَلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّارِعَ لِيُغِيطَ بِهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾" (سورة الفتح: 29)

حيث استوى الزرع على سوقه، حال كونه يعجب الزارع.

¹ مفردات ألفاظ القرآن للراغب: مادة "سوا"

وجه الله:

كثيراً ما يجعلون الآيات التي يذكر فيها: "وجه الله" من آيات الصفات، علماً بأن سياق هذه الآيات يدل على معنى آخر، وهو: "ما أريد به وجهه تعالى".
"وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (سورة القصص: 88)

قال ابن تيمية في كتابه "تفسير آيات أشكلت":

قال مجاهد في قوله: "كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ" قال: "إلا ما أريد به وجهه".

وقال سفيان الثوري: "إلا ما ابتغى به وجهه".

كما يقال: ما يبقى إلا الله، والعمل الصالح. وفي الحديث:

"الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم ومتعلم".¹

فأي شيء قصده العبد وتوجه إليه بقلبه، أو رجاه، أو خافه، أو أحبه، أو توكل عليه، أو والاه، فإن ذلك هالك مهلك، ولا ينفعه إلا ما كان لله.¹

"كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۖ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۖ ﴿٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ ﴿٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۚ ﴿٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ ﴿١٠﴾" (سورة الرحمن: 26-30)

يقول ابن تيمية:

وهذا بخلاف قوله: "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۖ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۖ ﴿٧﴾"

فإنه حصر كل من عليها، ولم يستثن - مع أن هذا المعنى تدل عليه - فإن جميع الأعمال تفتي، ولا يبقى منها شيء ينفع صاحبه، إلا ما كان لوجهه ذي الجلال والإكرام، كما قال مالك:

¹ تفسير آيات أشكلت لابن تيمية، ص 411-412

"وما كان لله فهو يبقى، وما كان لغير الله لا يدوم ولا يبقى".¹

"مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾" (سورة النحل: 96)

وهكذا يكون معنى الآية: كل من على الأرض يفنى، ويبقى مما عليها العمل الصالح، الذي يجعل الله ويكرمه. وبناء على هذا يكون الاستثناء ممن عليها كأنه استثناء متصل. أما على القول الآخر- الذي يجعل "الوجه" بمعنى الصفة- فيكون الاستثناء فيه: أشبه بالمنقطع.

ولا شك عندي بأن القول الأول أرجح، لأن السياق في تعداد ما جعل الله على الأرض من النعم التي جعلها للأنام، حيث قال:

"الرَّحْمَنُ ﴿١﴾" (سورة الرحمن: 1)

ويشهد لذلك قوله تعالى:

"إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾" (سورة الكهف: 7-8)

حيث يصبح كل ما عليها صعيدًا جرزًا.

أما قوله تعالى: "قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٤٦﴾" (سورة الكهف: 46)

فهو يشير إلى الباقيات الصالحات، وهي الأعمال الصالحة التي ابتغي بها وجه الله. كما يشهد لذلك قوله تعالى في آخر السورة:

¹ تفسير آيات أشكلت لابن تيمية، ص 413

"تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ" (سورة الرحمن: 78)

فאלله ربنا- الموصوف بذى الجلال والإكرام- لا بد أن يجل ويكرم أهل العمل الصالح الذي ابتغي به وجهه-والذي يجل الله ويكرمه-. وذلك كما قال في جزاء أهل الإحسان: "هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ" (سورة الرحمن: 60)

رؤية الله يوم القيامة:

"وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾" (سورة القيامة: 22-25)

المشهور- في هذه الآية- الخلاف بين أهل السنة، والمعتزلة:

- حيث يستنبط أهل السنة منها: إمكانية رؤية الناس لربهم يوم القيامة.
- على حين ينكر المعتزلة إمكانية الرؤية، جاعلين "إلى": واحدة "الآلاء" وجاعلين "النظر"، من: الانتظار. فيكون المعنى على قولهم: نعمة ربها منتظرة.
ولا شك أن ما ذهبت إليه المعتزلة فيه تكلف واضح، وأن المعنى الذي أرادوه، يمكن أن يفهم من التقابل، الذي يدل عليه قوله تعالى:
"وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾"
فيكون المعنى، المقابل:

"وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾"

فهي تنظر إلى ربها، وتنتظر منه الإنعام، كما تنتظر الوجوه الباسرة: أن يفعل بها فاقرة. وبذلك يمكن الجمع بين المعنيين، مع إثبات الرؤية في الآخرة، للمؤمنين.
وبهذا يتبين أن مراعاة السياق تفيد معنى إضافيًا، لا يمكن استفادته بدونها.

طرق استدلال القرآن: يقول العلامة الفراهي:

"قد دلنا القرآن على صحة العقيدة فيما يتعلق بمعرفة الرب تعالى بطرق مختلفة متفاوتة، في درجات الدلالة، ونذكرها بالترتيب:

- الطريق الأول: وهو المعرفة من أسمائه تعالى:

وهو أبلغها وأوضحها، وأوثق ما يعتمد عليه. فإن الاسم ألزم وأقدم، وأدل على المسمى من غير لحاظ إلى ما سواه. وهذا موافق لعادة عامة - لا سيما عادة العرب - فإنهم أصح الأمم إصابة في التسمية. وإنما جعل الاسم للدلالة على المسمى، فمن عرف الشيء باسمه الصحيح، فقد عرفه.

"وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١٠﴾" (سورة الإسراء: 110)

فعلمنا أن "الله" و "الرحمن" من أسمائه الخاصة، التي ندعوه بها على طريق الاسم.

وهكذا نعلم من كلام العرب، فإنهم لم يستعملوا هذين الاسمين إلا لله تعالى¹.

هذا ما يراه الفراهي، وكثير من العلماء السابقين.

ولكن للإمام أبي حامد الغزالي رأي آخر، أفاض القول فيه في كتابه: "المقصد الأسنى" حيث يقول:

"الفصل الرابع: في بيان أن كمال العبد وسعادته: في التخلق بأخلاق الله تعالى، والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه، بقدر ما يتصور في حقه: اعلم أن من لم يكن له حظ من معاني أسماء الله عز وجل، إلا بأن يسمع لفظه، ويفهم في اللغة معنى تفسيره، ووضعه، ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى، فهو مبخوس الحظ، نازل الدرجة ليس يحسن به أن يتبجح بما ناله:

¹ القائد إلى عيون العقائد، ص 10 (نسخة الكترونية)

- فإن سماع اللفظ: لا يستدعي إلا سلامة حاسة السمع، التي بها تدرك الأصوات، وهذه رتبة تشارك الهيمنة فيها.

- وأما فهم وضعه في اللغة: فلا يستدعي إلا معرفة العربية، وهذه رتبة يشارك فيها الأديب اللغوي، بل الغيبي اللغوي: البدوي.

- وأما اعتقاد ثبوت معناه لله سبحانه وتعالى، من غير كشف، فلا يستدعي إلا فهم معاني الألفاظ والتصديق بها. وهذه رتبة يشارك فيها العامي، بل الصبي. فإنه بعد فهم الكلام، إذا ألقى إليه هذه المعاني تلقاها وتلقنها، واعتقدتها بقلبه، وصمم عليها. وهذه درجات أكثر العلماء، فضلاً عن غيرهم.

- ولا ينكر فضل هؤلاء بالإضافة إلى من لم يشاركهم في هذه الدرجات الثلاث. ولكنه نقص ظاهر، بالإضافة إلى نزوة الكمال. فإن حسنات الأبرار: سيئات المقربين¹. وهكذا نرى أبا حامد يقلل من شأن المعرفة، عن طريق التسمية وحدها، ويضيف إلى ذلك: طريق الكشف.

والغزالي يكاد يكون متفرداً بين العلماء، الذين التفتوا إلى مقاصد الأسماء والصفات، وذلك ظاهر من عنوان كتابه: "المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى" كما هو ظاهر في آثار هذه الأسماء، وحظوظ الإنسان منها، كما يوضح ذلك أبو حامد حين يقول:

- بل حظوظ المقربين من معاني أسماء الله تعالى ثلاثة:

- الحظ الأول: معرفة هذه المعاني على سبيل المكاشفة، والمشاهدة، حتى يتضح لهم حقائقها بالبرهان، الذي لا يجوز فيه الخطأ، وينكشف لهم اتصاف الله عز

¹ المقصد الأسنى، 44/1

وجل بها انكشافاً يجري في الوضوح والبيان، مجرى اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة، التي يدركها بمشاهدة باطنه، لا بإحساس ظاهر. وكم بين هذا وبين الاعتقاد المأخوذ من الآباء والمعلمين تقليدًا، والتصميم عليه، وإن كان مقرونًا بأدلة جدلية كلامية.

- الحظ الثاني: من حظوظهم: استعظامهم ما ينكشف لهم من صفات الجلال، على وجه ينبعث من الاستعظام، يشوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات، ليقربوا بها من الحق قريبًا بالصفة، لا بالمكان، فيأخذوا من الاتصاف بها شيئًا بالملائكة المقربين - عند الله عز وجل -.

ولن يتصور أن يمتلئ القلب باستعظام صفة واستشراقها، إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة، وعشق لذلك الكمال والجلال، وحرص على التحلي بذلك الوصف - إن كان ذلك ممكنًا للمستعظم بكماله - فإن لم يكن بكماله، فينبعث الشوق إلى القدر الممكن منه، لا محالة. ولا يخلو عن هذا الشوق أحد إلا لأحد أمرين:

- إما للضعف المعرفة واليقين، بكون الوصف المعلوم، من أوصاف الجلال والكمال.

- وإما لكون القلب ممتلئًا بشوق آخر، مستغرقًا به، فالتلميذ إذا شاهد كمال أستاذه في العلم، انبعث شوقه إلى التشبه والافتداء به، إلا إذا كان مملوءًا بالجوع مثلاً، فإن استغراق باطنه بشوق القوت، ربما يمنع انبعث شوق العلم.

ولهذا ينبغي أن يكون الناظر في صفات الله تعالى خاليًا بقلبه، عن إرادة ما سوى الله عز وجل. فإن المعرفة: بذر الشوق - ولكن مهما صادف قلبًا خاليًا، عن حسيكة الشهوات - فإن لم يكن خاليًا، لم يكن البذر منجحًا.

- الحظ الثالث: السعي في اكتساب الممكن، من تلك الصفات، والتخلق بها، والتحلي بمحاسنها. وبه يصير العبد ربانيًا، أي قريبًا من الرب تعالى، وبه يصير رفيقًا

للملأ الأعلى من الملائكة، فإنهم على بساط القرب. فمن ضرب إلى شبه من صفاتهم، نال شيئاً من قربهم، بقدر ما نال من أوصافهم المقربة لهم، إلى الحق تعالى.

كما يظهر ذلك أيضاً في التنبيهات، التي أعقبها شرح كل اسم من الأسماء الحسنى، والتي تبين حظ الإنسان من هذه الأسماء، والصفات.¹

وسنرى أمثلة ذلك أثناء استعراضنا لنماذج من الأسماء، والصفات.

ولا بد أن نشير هنا إلى أن ما دعا إليه الغزالي من معرفة مقاصد الأسماء والصفات، عن طريق الكشف، نجد صدهاء عند "بديع الزمان النورسي" في عرضه لتجليات هذه الأسماء، في آيات الأفاق، والأنفس. وسنرى ذلك في بعض النماذج لاحقاً.

ونعود إلى استعراض بقية الطرق التي ذكرها الفراهي:

- الطريق الثاني: هو طريق الوصف بصفة، وهذا دون التسمية، فإن الشيء قد يوصف بصفة، ولا يستوى بها.

صفات الله تعالى

هو تعالى ذو الجلال والإكرام، كما علمنا القرآن، ويدعن به العقل، فإن المدح إنما يكون بما هو الجليل، والجميل. ومثل ذلك قوله تعالى:

"الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ" (سورة الحشر: ٢٣)

فالملك جهة الجلال، والقدوس جهة الجمال، ثم كذلك ثلاث صفات الجمال، ثم ثلاث صفات الجلال. ومثل ذلك قوله تعالى:

"يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (سورة

¹ المقصد الأسنى، المصدر نفسه، ص 45-46

(الجمعة: 1)

فالعزیز الحکیم: مثل الملك القدوس، الأول صفة الجلال، والثاني صفة الجمال.
فإن القدوس جمال الخلق، والحكيم جمال العقل. ومثل ذلك:

"يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"
(سورة التغابن: 1)

وهكذا: "وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾" (سورة
البروج: 14-16) وهكذا: "الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾" (سورة الملك: 2) وهكذا: "هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٦﴾" (سورة لقمان:
26، سورة فاطر: 15، سورة الحديد: 24، سورة الممتحنة: 6)

وهكذا: "وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾" (سورة سبأ: 6، سورة
البروج: 8) وغير ذلك.

نبين القرآن على صفات الله التي غفل عنها أكثر الناس.

فاعلم أن الله تعالى جعل بعض صفاته، ومظاهره، كأنها هو، فممنها:

العدل، والحق، والعدالة، حتى إنه يجعلها بدلاً عن نفسه، كأنها هو، كما قال:

"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾"
(سورة آل عمران: 142)

أي لما يعلم العدالة، التي هي نائبة عنه تعالى - أنهم مجاهدون - فحكم العدالة
حكمه، وعلمها علمه.

وهذا ذكر عدالته في صورة الشريعة، ثم العدالة العامة، وملكوته الواسع مثل
ذلك، تنوب عنه. كما قال:

"خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" (سورة الملك: 2)

أي: ليظهر أعمالهم في عالم الشهادة، والخلق.

ومنها: "الرحمة" و"المظلوم"، فقال:

"وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا" (سورة النساء: 75)

فجعل المستضعفين بدلًا عن نفسه، كناية عن كون نصرتهم نصره الله تعالى.

ومثل ذلك قوله تعالى: "الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوْمِعُ وَيَبْعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ" (سورة الحج: 40)

أي: من ينصر الضعفاء، والعدل، والسلم، فإن الله تعالى هو الناصر، ولا ينصره أحد¹....

- والطريق الثالث: هو نسبة الأفعال، وهذا دون الأولين. فإن بعض الأفعال ينسب إلى شيء، على طريق المجاز. وللمجاز أبواب كثيرة، وهذه المدارج قد ذكرناها ببعض البسط، في كتاب "أصول التأويل". فلا نعيده. والعامل تكفيه الإشارة.²

- والطريق الرابع: ما يدل عليه نظم القرآن. وهذا لطيف جدًا، ولكنه طريق واضح بين عند أهل الفكر والتدبر. فإن الكلمة إذا وضعت في جنب كلمة

¹ القائد إلى عيون العقائد، ص 16-17

² القائد إلى عيون العقائد، ص 16

أخرى، أو ضم كلام مع كلام آخر، دل على أمور جمّة، كما ستعلم في ذكر الأمثلة، وتفصيل ذلك في كتاب "دلائل النظام".
فهذه أربعة طرق وإنما ذكرنا الرابع أخيراً لدقته، لا لضعفه.

كما أن الأول أوثق، مع أن شرح الأسماء، يقتضي تأملاً وإمعاناً، ويهتدي إلى معناه الصحيح، بالطرق الثلاث، ويتوفيق بعضها ببعض، وذلك أصل راسخ.¹

نماذج من استعراض الأسماء، والصفات:

مفهوم اسم الله تعالى وأنه من أعظم بقايا الدين الصحيح.

يقول الفراهي عن لفظ الجلالة "الله" - أثناء تفسيره للبسملة -:

"الألف واللام للتعريف، فلا يسوّى بهذا الاسم إلا الله تعالى الواحد، خالق السماوات والأرض، وجميع الخلق. وهذا المعنى هو المعلوم عند العرب قبل الإسلام، فإنهم مع شركهم لم يجعلوا أحداً من آلهتهم مساوياً لله تعالى، وأقروا بأن الله تعالى هو خالق السماء والأرض، وإنما عبدوا آلهة أخرى، لظنهم بأن هؤلاء مقربون فيشفعون لهم. كما جاء في القرآن:

"وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِسُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" (سورة يونس: 18)

وأيضاً:

"أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ" (سورة الزمر: 3)

¹ القائد إلى عيون العقائد، ص 16

وأيضاً:

"وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَرَجَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾" سورة العنكبوت: (61-63)

ويقول الإمام أبو حامد الغزالي:

فأما قوله: "الله": فهو اسم للموجود الحق، الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المتفرد بالوجود الحقيقي. فإن كل موجود سواه غير مستحق الوجود بذاته، وإنما استفاد الوجود منه. فهو من حيث ذاته هالك، ومن الجهة التي تليه موجود. فكل موجود هالك إلا وجهه.

والأشبه أنه جار في الدلالة على هذا المعنى، مجرى أسماء الأعلام. - وكل ما ذكر في اشتقاقه، وتعريفه، تعسف، وتكلف فائدة -.

ثم يقول:

اعلم أن هذا الاسم أعظم أسماء الله عز وجل... لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها، حتى لا يشذ منها شيء. وسائر الأسماء لا يدل أحادها إلا على آحاد المعاني، من علم، أو قدرة، أو فعل، أو غيره. ولأنه أخص الأسماء، إذ لا يطلقه أحد على غيره، لا حقيقة ولا مجازاً. وسائر الأسماء قد يسرى به غيره، كالقادر، والعليم، والرحيم، وغيره. فلهذين الوجهين يشبه أن يكون هذا الاسم أعظم هذه الأسماء.

ثم يقول أبو حامد عن حظ الإنسان من هذا الاسم:

¹ فاتحة نظام القرآن، ص 45-46

تنبيه:

ينبغي أن يكون حظ العبد من هذا الاسم التأله، وأعني به: أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله عز وجل، لا يرى غيره، ولا يلتفت إلى سواه، ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه. وكيف لا يكون كذلك، وقد فهم من هذا الاسم أنه الموجود الحقيقي الحق، وكل ما سواه فان، وهالك، وباطل، إلا به. فيرى أولاً نفسه أول هالك، وباطل، كما رآه رسول الله حيث قال: أصدق بيت قالته العرب قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل¹.

الرحمن:

يرى بعض أهل العلم أن سورة الرحمن نزلت جواباً لتجاهل الكافرين اسم "الرحمن" - جل وعلا - وكما أخبر عنهم في قوله تعالى في سورة الفرقان:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا²"

ويرى ابن عطية أن هذا القول ضعيف، وإنما وقفت العرب، على تعيين الإله الذي أمروا بالسجود له، لا على نفس اللفظ.³

ومما يؤكد قول ابن عطية: ما جاء في قوله تعالى من سورة الرعد:

"وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنَّاها عَنْ نَفْسِهَا قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَنَّها فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ⁴"

فبين - هنا - أن كفرهم بالمسعى، لا بالاسم، بدلالة قوله: "قُلْ هُوَ رَبِّي".

¹المقصد الأسنى، 62/1

²سورة الفرقان: 60.

³المحرر الوجيز، 92/1

⁴سورة الرعد: 30

وأصرح من ذلك: ما حكاه الله من قول العرب المشركين، في سورة الأنبياء:

"وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾"

وفي سورة الزخرف:

"وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾"

حيث بينت هاتان الآيتان معرفتهم باسم الرحمن، وجهلهم بالمسعى، إذ أشركوا معه غيره عقيدة، وعبادة.

أما العلامة عبد الحميد الفراهي الهندي: فقد أورد عددًا من الأبيات من الشعر الجاهلي، تؤكد معرفة العرب لهذا الاسم، ومنها:

قال حاتم الطائي:

يقولون لي: أهلك مالك، فاقصد وما كنتُ، لولا ما تقولون، سيّدا

كلوا الآن من رزق الإله، وأيسروا فإنّ، على الرحمن، رزقكم غدا³

ويقول الفراهي: والقرآن أنزل بلسان قوم نبينا، وحينئذ كيف يستعمل اسمًا لمعنى جديد؟!

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾"

(سورة الفرقان: 60)⁴

كما يتبين أن السورة جاءت لتعرفهم، بالرحمن الذي لا شريك له، ومن ثم فقد

1 سورة الأنبياء: 26

2 سورة الزخرف: 20

3 ديوان حاتم الطائي، ص 17

4 سورة الفرقان: 60 .

عدد عليهم فعاله العجيبة،¹ وشؤونه الغريبة، التي لا يشاركه فيها أحد.

وقال تعالى:

"هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾" (سورة الحشر: 22-24)

فهذه أيضًا أسماء نصفه بها، وأما أن ندعوه بها، فمستنبط غير مصرح به، وطريق الاستنباط ظاهر، فإن قوله تعالى:

"وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿٨﴾" (سورة الإسراء: 110)

دل على أن ندعوه بأسمائه الحسنی، ثم قوله تعالى بعد سرد أسماء آخر:

"اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾" (سورة طه: 8)

دل على أنها منها، ثم نظم قوله تعالى:

"اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ" (سورة البقرة: 255)

يشبه نظم تلك الآيات الجامعة لأسمائه.

ثم جاء من صفاته تعالى على طريق الخبر كقوله تعالى:

"وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿٢﴾ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿٣﴾" (سورة البروج: 14-16)

فاحتمال كونها أسماء، كاحتمال كونها صفات، فوجب إعمال الفكر.

وطريقته المثلى: أن نجعل أسماء الحسنی المصرح بها أصلاً، ونرد الصفات

1 كما رجح ذلك الفراهي في كتابه مفردات القرآن.

والأفعال إليها.

وأبين أسمائه وأصرحها: "الله"، و"الرحمن"، فنجعلهما أصل المعرفة بالرب تعالى..

الرحمن الرحيم:

يقول الراغب الأصفهاني: "الرحمن الرحيم":

الرحمة - في اللغة - رقة مقتضية للتعطف، والتفضل.

فمبدؤها: الرقة - التي هي انفعال -، ومنتهاها: العطف، والتفضل - الذي هو فعل -

فالإنسان إذا وصف بالرحمة:

- فتارة يراد به: حصول المبدأ، الذي هو الرقة.

- وتارة يراد به: المنتهى، الذي هو التفضل، والعطف.

- وتارة يرادان معًا.

وإذا وصف بها الباري، فليس يراد به إلا المنتهى، الذي هو الفعل. دون المبدأ، الذي هو الانفعال، إذ هو منزّه عن الانفعالات، وعن كل نقص - تعالى الله عن ذلك - وعلى ذلك: "الرؤوف"، فإن الرأفة انحصار القلب، عن مشاهدة شدة مقتضية للإعانة. فمتى وصف بها الانسان: صح أن يراد به المبدأ، الذي هو انحصار القلب. وإذا وصف به الباري: فليس يراد به إلا الغاية، التي هي الإعانة.

وعلى ذلك: الجود، فإنه اختصاص بخلق، مقتض لأن لا يدخر عن المحتاج، ما ينتفع به، على ما يجب.

ومتى وصف به الباري تعالى فالمراد به: النهاية التي هي ترك الادخار، دون الاختصاص بالخلق.

وهذا التفسير - أعني في الرحمة - هو على ما روي عن التابعين، حيث قالوا الرحمة من الله: إنعام وإفضال. ومن الآدميين: رقة، وتعطف.

وهذه الطريقة: أظهر، وأبين، وأشبه بنظر السلف، من نظر من تخطب في تفسير ذلك، زاعمًا أن الوصف لا يختلف معانيه، باختلاف الموصوفين. وذلك أن قائل ذلك لم يتصور أنه قد يكون بين مبدأ المعنى، ومنتهاه: بون بعيد.¹

ويقول الغزالي في الفرق بين "الرحمن"، و"الرحيم":

"الرحمن": أخص من الرحيم. ولذلك لا يسعَى به غير الله عز وجل. و"الرحيم": قد يطلق على غيره، فهو من هذا الوجه، قريب من اسم الله تعالى الجاري مجرى العلم، وإن كان هذا مشتقًا من الرحمة قطعًا، ولذلك جمع الله عز وجل بينهما فقال:

قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى (17 سورة الإسراء: 110) فيلزم من هذا الوجه، ومن حيث منعنا الترادف في الأسماء المحصورة: أن يفرق بين معنى الاسمين، فبالحري أن يكون المفهوم من الرحمن نوعًا من الرحمة، هي أبعد من مقدورات العباد، وهي ما يتعلق بالسعادة الأخروية.

- فالرحمن: هو العطوف على العباد، بالإيجاد أولًا.

- وبالهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة ثانيًا.

- وبالإسعاد في الآخرة ثالثًا.

- والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم رابعًا²

تنبيه:

حظ العبد من اسم الرحمن: أن يرحم عباد الله الغافلين:

- فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله، عز وجل، بالوعظ والنصح بطريق اللطف، دون العنف.

¹ مقدمة جامع التفاسير، ص 114-115

² المقصد الأسنى، 63/1

- وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة، لا بعين الإزراء.

- وأن يكون كل معصية تجري في العالم كمصيبة له في نفسه، فلا يألو جهدًا في إزالتها بقدر وسعه، رحمة لذلك العاصي، أن يتعرض لسخط الله، ويستحق البعد من جواره.

وحظه من اسم "الرحيم":

- أن لا يدع فاقة لمحتاج إلا يسدها بقدر طاقته.

- ولا يترك فقيرًا في جواره وبلده، إلا ويقوم بتعده، ودفع فقره، إما بماله، أو جاهه، أو السعي في حقه بالشفاعة إلى غيره.

- فإن عجز عن جميع ذلك، فيعيّنه بالدعاء، وإظهار الحزن بسبب حاجته، رقة عليه، وعطفًا حتى كأنه مساهم له، في ضره، وحاجته.¹

نموذج لبديع الزمان النورسي رحمه الله:

- ونعتذر ابتداء عن طول هذا النموذج، لأننا سنكتفي به عن غيره- علمًا أننا سنحاول الاختصار ما أمكن -.

من تجليات اسم الله: القدوس:

الطهر، والنقاء، والصفاء، والبهاء، المشاهد في قصر العالم البديع هذا: ما هو إلا نابع من تنظيف حكيم مستمر. يقول الله تعالى: "وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ" (سورة الذاريات: 48)

لقد تجلت لي نكتة من نكات- لفطة، أو فكرة- هذه الآية الكريمة، وتجلّ من تجليات اسم الله "القدوس" وهو الاسم الأعظم أو أحد أنواره الستة، وأنا أنزل

¹ المقصد الأسنى، 64/1

سجن "أسكي شهر" أواخر شهر شعبان المبارك. فبيّن لي: "الوجود الإلهي" بوضوح تام، وكشف لي: "الوحدانية الربانية" بجلاء، كما يأتي:

إن فعل التطهير هذا الذي هو فعلٌ واحد، ويعبر عن حقيقة واحدة، هو تجلٍ أعظم من تجليات اسم "القدوس" الأعظم، يرى ذلك التجلي الأعظم، حتى في أعظم دوائر الكون، وأوسعها، بحيث يبين الوجود الرباني، ويظهر الوحدانية الإلهية، مع أسمائها الحسنى، ظهورًا جليًا كالشمس المنيرة، فتبصره العيون النافذة النظر.

وقد ثبت ببراهين دامغة في أغلب أجزاء "رسائل النور":

- أن فعل التنظيم والنظام الذي هو تجلٍ من تجليات اسم الحكّم والحكيم.
- وأن فعل الوزن والميزان الذي هو تجلٍ من تجليات اسم العدل والعدل.
- وأن فعل التزيين والإحسان الذي هو تجلٍ من تجليات اسم الجميل، والكريم.
- وأن فعل التربية، والإنعام الذي هو تجلٍ من تجليات اسم "الرب الرحيم".
- كل فعل من هذه الأفعال، هو فعلٌ واحد، وحقيقة واحدة، تشاهد بوضوح في آفاق الكون كله.

فكل منها يشير إلى وجوب وجودٍ واحدٍ أحدٍ، ويبين وحدانيته بجلاء. كذلك فعل التنظيف، والتطهير- الذي هو تجلٍ من تجليات اسم "القدوس" - يدل على وجود ذلك الواجب، كالشمس، ويبين وحدانيته كالهـار. وكما أن الأفعال المذكورة من تنظيم وتقدير، وتزيين وتنظيف، وأمثالها من الأفعال الحكيمة، تبين خالقًا واحدًا أحدًا، بوحدتها النوعية، وبظهورها في أوسع الآفاق الكونية، كذلك أكثر الأسماء الحسنى

نعم، إن الحكمة العامة، التي تُخضع كل شيء إلى قانونها ونظامها، والعناية الشاملة، التي تجمل كل شيء وتزيّنه، والرحمة الواسعة التي تُدخل السرور

والبهجة، على كل شيء وتجعله في حمدٍ دائم، والرزق العام الذي يعتاش عليه كلُّ ذي حياة، ويتمتع بلذائذه، والحياة والأحياء التي تربط كل شيء بالأشياء الأخرى، وتجعل الشيء ينتفع من كل شيء، كأنه مالك للأشياء. هذه الحقائق وأمثالها، المشهوددة بالبداهة، والمتسمة بالوحدة، والجاعلة وجه الكون يشرق بهاءً، ويستهل بشرًا وسرورًا، تدل بداهةً على: الحكيم، الكريم، الرحيم، الرزاق، الحي المحيي، كما يدل الضوء على الشمس ... وهكذا؛ فالحكمة: ضياءٌ. والرحمة الواسعة: ضياء. والتزيين، والموازنة، والتنظيم، والتنظيف: كلُّ منها ضياء شامل، محيط. وشعاع من أشعة ذلك النور الأثلي سبحانه. فانظر الآن بنور هذا الإيمان: لترى كيف يسقط أهل الكفر والضلالة، في مستنقع آسن، لا يمكنهم الخروج منه. وشاهد مدى حماقة أهل الضلالة، وجهالتهم! واحمد الله قائلًا:

"الحمد لله على دين الإسلام وكمال الإيمان". نعم، إن هذا التنظيف السامي الشامل المشاهد، الذي يجعل قصر العالم طاهرًا نقيًا نظيفًا، لهو تجلٍ من تجليات اسم "القدوس"، ومقتضى من مقتضياته..

وكما تتوجه تسبيحات المخلوقات جميعها إلى اسم "القدوس"، وترنو إليه، كذلك يستدعي اسم "القدوس": نظافة تلك المخلوقات وطهارتها[1]، حتى عدَّ الحديث الشريف "النظافة من الإيمان": الطهور نورًا من أنواره[2] لازتباطه القدسي هذا، وأظهرت الآية الكريمة: أن الطُّهر مدعاة إلى المحبة الإلهية، ومدار لها، في قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"¹

¹كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي، المجلد الثالث (اللمعات)

مراجع البحث

1. تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز،
2. تفسير آيات أشكلت لابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبد العزيز بن محمد الخليفة، مكتبة الرشد.
3. دلائل النظام للفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها.
4. ديوان حاتم الطائي
5. فاتحة نظام القرآن للفراهي، مطبعة الإصلاح، الهند، 1352هـ
6. القائد إلى عيون العقائد لعبد الحميد الفراهي، نسخة اليكترونية.
7. كليات رسائل النور، المجلد الثالث، اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي.
8. مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم بدمشق
9. مفردات القرآن لعبد الحميد الفراهي، بتحقيق وشرح: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي.
10. مقدمة جامع التفاسير للراغب الأصفهاني، بتحقيق الدكتور أحمد حسن فرحات، دار الدعوة، الكويت
11. المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، الناشر: الجفان والجابي، قبرص، الطبعة الأولى 1407 - 1987م

الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في خدمة القرآن وعلومه دراسة نظرية تحليلية تطبيقية

﴿2﴾

-د. حسن يشو¹

الفصل السادس: مصادر التفسير كما يراها الإمام الفراهي

تمهيد:

إنّ مصادر التفسير هي المراجع الأولية التي يرجع إليها المفسر عند تفسيره للقرآن الكريم.²

وعليه؛ فهي إما القرآن الكريم نفسه، أو السنة المطهرة، أو الصحابة الكرام، والتابعون ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، علاوة على اللغة العربية وعلومها وأسرارها. وعند هذه المصادر قد حط الإمام الفراهي رحاله وناقشها وأبدى فيها وجهة نظره متوافقاً مرة مع عامة المفسرين ومصححاً تارة أخرى لبعض الأخطاء، ومدققاً. هذا ما نحاول أن نستجليه من تراثه في هذا الباب وعبر المباحث الآتية:

المبحث الأول: تأويل القرآن بالقرآن:

يقول ابن تيمية: "إنّ أصح طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان، فقد بسط في موضع آخر".³ ومجمل القول: "إنّ أهل الحق مطبقون على عدم طلب تفسير القرآن من

¹ أستاذ مساعد، قسم الدراسات الإسلامية، كلية الشريعة، جامعة قطر

² انظر التحرير في أصول التفسير: 39.

³ مجموع الفتاوى: 13 / 363.

غيره ما أتاحت لهم سبيل إلى ذلك ومنهم ابن تيمية¹. قلت: وكذا العلامة الفراهي؛ وهذا السر في العنوان الذي اختاره فضيلته لتفسيره: "تفسير نظام القرآن في تأويل الفرقان بالفرقان"².

هذا، وقد وعد الله نبيه محمداً ﷺ ببيان القرآن؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ﴾ [سورة القيامة: 16-19]. ويعلق الإمام الفراهي قائلاً: "وقد علمنا هذه الأمور الثلاث: فإن النبي ﷺ كان يقرأ عليهم سور القرآن كاملة، وكان يأمرهم بوضع الآيات بمحلها اللائق بها، ثم إذا نزلت عليه آيات مبينة ضمها للقرآن، فترى هذه المبينات ربما وضعت بجانب ما تبين، وحيثما في آخر السورة إن كانت متعلقة بعمودها، وترى في أكثر هذه الآيات تصريحاً بأنها بيان من الله تعالى كقوله عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: 187]³.

¹ مقدمة أصول التفسير لابن تيمية، تحليل وتعقيب أحمد سعد إبراهيم عبد الرحمن: 422، دار البصائر، القاهرة.

² وقد اعتق بتفسير القرآن بالقرآن الجلة من علماء السلف والخلف: ومنهم على سبيل المثال لا الحصر:

- مقاتل بن سليمان البلخي (ت 150هـ).
- عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت 182هـ)؛ وتفسيره مضمن في تفسير الطبري.
- ابن كثير الدمشقي (774هـ) في كتابه: "تفسير القرآن العظيم".
- الأمير الصنعاني (1182هـ) في تفسيره: "مفاتيح الرضوان في تفسير الذكر بالآثار والقرآن". وقد حققت أجزاء منه في الجامعة الإسلامية عام 1408هـ.
- ثناء الله الهندي الأمر تسري (ت 1368هـ) في كتابه: "تفسير القرآن بكلام الرحمن"، دار السلام، الرياض، 1423هـ.
- محمد الأمين الشنقيطي (ت 1393هـ) في كتابه: "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" .. إلخ.
- ³ انظر تفسير القيامة من نظام القرآن: 232-233. ومن الأمثلة التي ذكرها على ذلك:
- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَخَفْ أَلَّا يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَهُكُمْ وَأَنْ يَكُونَ إِلَهُكُمْ إِلَهُكُمْ﴾ [سورة الأنفال: 66]؛ فهذه الآية موضوعة بجانب الحكم الأول.
- وقوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثِ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [سورة البقرة: 187]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [سورة البقرة: 234]؛ فإنها نزلت كاللتممة، ووضعها الله تعالى بعد التتمة الأولى لشدة العناية بها وبسط القول تحت هذه الآية. انظر فاتحة تفسير نظام القرآن: 19-20.

يقول الإمام الفراهي: "فإنَّ القرآن يذكر الأمور بعبارات مختلفة مرة إجمالاً وأخرى تفصيلاً. فما ترك في موضع ذكره في موضع آخر. وقد صرح القرآن بهذه الصفة التي فيه في غير موضع، فهذا أصل راسخ. ولكن قل استعمال هذا الأصل وذلك بأن طرق الدلالة على المعاني غير محصورة، فربما تدل آية على المعاني يكون دليلاً على معنى في آية أخرى وربما يدل اقتران آيتين أو جملتين على معنى خفي بعض الخفاء، فإن بينا طرق هذا الدلالات تيسر استعمال هذه الأصل".¹

ويضرب أمثلة على ذلك في بيان نظم القرآن الكريم، وروعة بيانه، وتهدى إلى القراءة الصحيحة والتأويل الرصين في فهم النص القرآني؛ "والأصل المرعي في ذلك هو الدلالة على أمور مختلفة، فالمعنى الواحد يخرج في عبارات شتى".² ومن تلك الأمثلة:

- الصلاة استعانة بالله؛ كما أمر موسى ﷺ قومه: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [سورة الأعراف: 128] وفي موضع آخر: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ٢٥﴾ [سورة البقرة: 45].
- ومنها وهو غامض قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٢٠﴾ [سورة الملك: 2] في الموت زاجر وواعظ، وفي الحياة جالب إلى الذات، والابتلاء لا يكون إلا بهما. فلولا الشهوات لم يغفلوا ولم يزلوا، ولولا الموت لم ينتهوا ولم يستعدوا لما بعد الموت. يقول رحمه الله: "وقد هديت إلى هذا المعنى ثم لمح لي نظيره وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ٣١﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ٣٢﴾ [سورة الكهف: 7-8] ففي الأول ذكر الجانب الذهني وفي الثاني ذكر الجانب الخارجي فتأمل".³

¹ التكميل: 242.

² المصدر نفسه: 242.

³ المصدر نفسه: 243.

المبحث الثاني: تفسير القرآن بالقرآن ليس من التفسير بالمأثور!

بل قد نعهده في بعض الأحيان من قبيل التفسير بالرأي حين يوظف المفسر آية في موضع آية أخرى؛ ثم "إن تسمية تفسير القرآن بالقرآن مأثورًا عن الله تعالى غير دقيق؛ لأن هذا وصف للقرآن نفسه، والتفسير عبارة عن وصف يضاف إلى القرآن، ولكنه ليس جزء منه".¹ وهذا ما يبين الخلل المنهجي الذي وقع فيه الشيخ محمد حسين الذهبي حين قال: "أما تفسير القرآن بالقرآن ... فذلك مما لا خلاف في قبوله؛ لأنه لا يتطرق إليه الضعف، ولا يجد الشك إليه سبيلًا".²

المبحث الثالث: رعاية نظم الكلام:

من المعلوم أن في الكلام يكون الاشتراك في الألفاظ، والحذف، والمقدر، والتعريض، لاشتراك في الأساليب المختلفة من جهة تعدد دلالاتها مثلًا في الأمر والاستفهام والعطف ودلالات مختلفة. وبعد العلم بجميع دلالات الكلمات وأساليب البيان يمعن النظر لفهم ما هو المراد؟

ويجيب فضيلته في الأصول الحاكمة لها؛ فيقول: "ولتعيين المعنى المقصود من المعاني المحتملة في الاشتراك أصول خاصة. وكذلك لتعيين المحذوف والمقدر والمعرض به أصول، وأرسخ هذه الأصول وأجمعها النظم".³ وله أمثلة يجمل بنا نقل بعضها:

- نظم الكلام يدل على ما هو المقدر المفهوم، فإن الكلام ربما ينتظم بما هو المفهوم إشارة أو اقتضاء. وللمقدر أسباب يعرف بها، فمنها تعيين الخطاب،

¹ انظر علوم القرآن وإعجازه: 338.

² التفسير والمفسرون: 1/ 158. وفي مقام آخر يقول رحمه الله: "وليس هذا عملاً آلياً يقوم على شيء من النظر، وإنما هو يقوم على كثير من التدبر والتعقل"، المصدر نفسه: 44/1. بل "وكل من فسّر آية بآية فإن التفسير ينسب إليه". انظر فصول في أصول التفسير، د. مساعد الطيار: 53. أما تفسير القرآن بالقرآن بما صح عن النبي ﷺ مثاله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [سورة الأنعام: 82]، فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال لهم: ليس ذلك المراد، إنما المراد بالظلم: الشرك، أما سمعتم إلى قوله تعالى: ﴿وَرَأَوْا قَالَ لَقَمْنُ لَأَبْنَاهُ وَهُوَ يُعْطِيهِ يَنبِئُ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان: 13].

³ التكميل: 243.

وسبب الخطاب مثلاً: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ٢ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ٤ وَاللَّعَنَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ٧﴾ [سورة النحل: 1-7]. فإن نظرت من جهة النظم تبين لك المقدرات وهي كما نذكر: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: 1]، أي ما أنذركم به رسله ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [سورة النحل: 1]، يا أيها المنكرون به والمشركون لغفلتكم عن الآخرة ورعاية الحق والحكمة المبينة على صفة الرب من الرحمة والعدل ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الروم: 40]، به هؤلاء المنكرون بالرسالة التي تنبئهم على لزوم الجزاء من جهة ربوبيته.

- آخر الآي كثيراً ما ينبه على ما سبق؛ مثلاً قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: 134]، فدلّ على بعض تفصيل للإحسان. وفي آخر الدلالات دلالات أخر.¹

المبحث الرابع: دلالة ترتيب الكلمات عند العطف:

إن ترتيب الكلمات عند العطف لا يخلو عن دلالة وقد استدلل العلماء به، وإنما يقدم ما يقدم لوجوه؛ هي:

1. لظهوره، فإنه أقرب إلى الفهم.
2. ولكونه مجملاً، فإنه أسهل إحاطة.
3. ولكونه مفصلاً، فإن المجمل ربما يؤخر للذكر.

¹ انظر المصدر نفسه: 243 - 244.

4. ولشرفه وبهائه وتقدمه اعتناء به. وهذا في الأحكام كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٣٣﴾ [سورة النساء: 23]، وهذا في الترتيب الصاعد.

5. ولكونه أدون لقربه ودنوه، وهذا في الترتيب الهابط كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ﴾ [سورة الغاشية: 18]، وفي الآية ترتيب دوري من الهابط إلى الصاعد ثم إلى الهابط.

6. وللتقدم الزماني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٣﴾ [سورة آل عمران: 33].

7. ولكونه خاصًا؛ لأنه أبين على الأكثر.

8. ولكونه عامًا؛ لأنه أبين أحيانًا.

9. ولتعود الناس بذكره أولاً لبعض الوجوه.

10. ولكونه تبعًا لما قدم لبعض الوجوه.

11. وسهولة تلفظه كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [سورة الملك: 2].

ربما يترك بعض الوجوه ببعض، ويشتبه بعضها عند من لا يتدبر مثلاً قالوا: إنَّ السَّمْعَ أَفْضَلُ مِنَ الْعَقْلِ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ٥٠﴾ [سورة الملك: 10] فظنوه من الباب الرابع ولكنه من الباب السادس فإن الإنسان يعلم بالسمع أولاً، ثم إذا بلغ الرشد يرجع النظر فيما

سمع، فيحكم بما عقل. كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [سورة الملك: 23]، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [سورة الإسراء: 36]؛ فإن الفتنة كثيرًا ما تأخذ بالسمع، ثم يطمع إليها البصر، ثم تتسلط على الفؤاد.¹

المبحث الخامس: مراعاة ما تبدل فيه القرائن في النظائر أو في الآية نفسها:

- فإن ذلك يدل على حدود الكلمات ونسبة بعضها إلى بعض؛ مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [سورة البلد: 17] ونظيره قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر: 3]، فما النسبة بين الحق والمرحمة؟ وبحسب جواب هذا السؤال يكون تأويل الحق في الآية.
- ومنه يستدل على حدود معاني الكلم؛ مثلاً جاء في موضع من قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [سورة التين: 6]، وفي موضع من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [سورة هود: 11]، وفي موضع من قوله تعالى: ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْنْتُمْ﴾ [سورة النساء: 147]، فما النسبة بين الإيمان والصبر والإيمان والشكر؟
- وكذا ما جاء في موضع من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ [سورة الذاريات: 56-58]، وفي موضع آخر من قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ﴾

¹ انظر المصدر نفسه: 259-260.

لِلتَّقْوَى ﴿ [سورة طه: 132]، فدلّت القرينة على أنّ المراد بالعبادة هو

الخشوع للرب تعالى؟ وجماعة الصلاة. وقد دل على ذلك أي آخر.¹

- كما تدل القرائن في النظائر فكذلك تدل القرائن في نفس الآية إذا اختير كلمة في المقابلة عوض المقابل الظاهر؛ وذلك مثل اختيار المرض عوض الكفر في مقابلة الإيمان؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة التوبة: 124-125]، فعلم أنّ المرض والرجس عبارتان عن الشك وأيضاً أن الإيمان هو الشفاء والطهارة.

- أو الاستغناء في مقابلة التقوى. فهذا التعويض يدل على حدود اللفظ والنسبة بين المعنيين وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿١٢٤﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿١٢٥﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿١٢٦﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿١٢٧﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿١٢٨﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٢٩﴾﴾ [سورة الليل: 5-10].

المبحث السادس: مفهوم السنة عند الإمام الفراهي:

السنة لغة: هي الطريقة والعادة محمودة كانت أم مذمومة؛ ومنه قوله ﷺ: "من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها..²"
والسنة في اصطلاح المحدثين: هي ما نقل عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية سواء أكان قبل البعثة أو بعدها.³

¹ انظر المصدر نفسه: 260-261، (بتصرف يسير).

² أخرجه مسلم برقم (1017) والنسائي برقم (2554) والترمذي برقم (2675) وابن ماجه (203).

³ انظر سبيل الجنة بالتمسك بالقرآن والسنة للشيخ أحمد بن حجر البنعلي آل بوطامي: 14، دار الإمام البخاري الدوحة، ط1، 1430هـ، وانظر السنة ومكانتها في التشريع للشيخ مصطفى

وفي اصطلاح الأصوليين: هي ما أضيف للنبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير؛ لأنهم نظروا إلى السنة على أنها مصدر من مصادر التشريع.

وأما عند الفقهاء فالسنة هي: ما يقابل الواجب والفرض، وما يقابل البدعة.

والعجيب أن السنة عند النحاة: هي ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول، فقط؛ لأن القول هو الذي يخضع للحركات الإعرابية على خلاف الفعل والصفات فتأمل.

غير أن الإمام الفراهي يرى أن السنة هي "فهم الرسول ﷺ للقرآن".¹

وأما عن قول النبي ﷺ: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه" فإنه يتأوله إلى الفهم والبصيرة والنور الذي أشرق به قلب النبي ﷺ مع نزول الوحي تمامًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى: 52].

المبحث السابع: السنة خادمة للقرآن تدور في فلكه:

وهذه وجهة نظر الإمام الفراهي التي كافح في كتاباته للذود عنها، وينبغي أن تفهم في ضوء القرآن الكريم، ولا عكس.

السباعي: 60، مكتبة دار العربية، القاهرة، ط1، 1380 هـ، 1961 م. وأصول الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب: 19، دار الفكر الحديث، لبنان ط1، 1386 هـ 1967 م.

¹ وقد تحدث الإمام الفراهي عن السنة في مفرداته فقال: هي طريق قوم. فإذا نسبت إلى شخص واحد كان المراد أنه الإمام. كذلك إذا نسبت إلى الرب تعالى كان المعنى أنها طريق عامة يجري بها أمره في عبادته كما قال تعالى: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة غافر: 85]. انظر مفردات الفراهي: 196.

² أخرجه أبو داود برقم (4604). وتماهه كما رواه المروزي بسنده عن المُفَدَّامِ بْنِ مَعْلُودٍ كَرِبَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانٌ عَلَى أَرْكَبَتَيْهِ، يَقُولُ: عَلَيْكُمُ الْقُرْآنُ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ خِلَالٍ فَأَجْلُوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَجِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبْعِ" أخرجه المروزي في السنة برقم (213) وأخرجه علي بن سلطان محمد القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، في كتاب الإيمان، باب الاعتصام بالكتاب والسنة، برقم (113).

وتأمل ما وقع للرسول ﷺ في آخر عمره من كثرة التسبيح والاستغفار، وقد كان ذلك بعد نزول قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر: 1-3]. أخرج البخاري بسنده عن أمنا عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن".¹

وأخرج مسلم بسنده عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا، وهو يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [شورة البقرة: 19]. ثم قال: أبدأ بما بدأ الله به".²

قال سعيد بن جبير رحمه الله: "ما بلغني عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله".³

وهو تمامًا ما فهمه الإمام الشافعي في قوله: "كلما حكم به رسول الله ﷺ، فهو مما فهمه من القرآن"; قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة النحل: 89]، وقال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنعام: 38].

وقال الشافعي أيضًا: "جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع شرح السنة شرح للقرآن".⁴

جماع ذلك كله في قوله ﷺ: "إني لا أحلّ إلا ما أحلّ الله في كتابه، ولا أحرّم إلا ما حرم الله في كتابه".⁵

¹ أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب التسبيح والدعاء في السجود، برقم (4968).

² أخرجه مسلم في باب حجة النبي ﷺ، برقم (1218).

³ أورده ابن أبي حاتم في تفسيره: 4/ 411، والطبري في جامع البيان: 12/ 19.

⁴ الإتيان للسيوطي: 2/ 330، مرقاة المفاتيح: 1/ 37، قواعد التحديث للقسامي: 1/ 59.

⁵ أخرجه الترمذي برقم (7726)، وابن ماجه برقم (3367)، والحاكم في المستدرک: 4/ 129، برقم (7115).

مما يؤكد هذا كله أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة".¹

وقد اعترف ابن مسعود رضي الله عنه بذلك فقال: "إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله".²

وقال أيضاً: "أنزل في القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن".³

المبحث الثامن: تفسير السنة للقرآن منه ما هو من التفسير بالرأي:

وقد أفرد تفسير القرآن بالسنة الجلة من علمائنا قديماً وحديثاً.⁴

لاسيما ما كان منها توجيهاً للنص القرآني بحشد النصوص الحديثية عند الآية، وهو ما يسميه صديقنا العزيز مساعد الطيار "التفسير بالسنة غير المباشر" فيعلق قائلاً: "والأصل في هذا النوع أنه باجتهاد المفسر ورأيه، فإنه يرى أن لهذا الحديث علاقة بهذه الآية، وأياً كانت هذه العلاقة، فإنها راجعة إلى رأي المفسر. ولا يخفى أن الوصول إلى الحديث من السنة طريقة النقل، لكن حمله على هذه الآية إنما يكون باجتهاد، فلا يلتبس عليك الأمر".⁵

¹ أخرجه الديلمي في مسند الفردوس: 274/5.

² انظر مرقاة المفاتيح للقاري: 37/1، والإتقان: 330/2.

³ انظر أضواء البيان: 428/2، وروح المعاني: 190/6.

⁴ من أظهر التفاسير بالسنة المصنفات الآتية:

- 1 - الحسن البصري (ت 110هـ).
- 2 - عبد الرزاق الصنعاني (ت 211هـ): وهو ينقل عن قتادة.
- 3 - محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ).
- 4 - ابن أبي حاتم (ت 327هـ).
- 5 - البيهقي (ت 327هـ) في معالم التنزيل.
- 6 - ابن كثير (ت 774هـ) في تفسير القرآن العظيم.
- 7 - السيوطي (ت 911هـ) في الدر المنثور في التفسير بالمأثور.
- 8 - محمد بن عبد الرحمن المغراوي المغربي أصدر حديثاً التدبر والبيان في تفسير القرآن بالسنة. انظر التحرير في علم التفسير: 68.

المبحث التاسع: رأي الإمام الفراهي في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.
ذهب كثير من المحدثين إلى أن السنة كلها وحي تمامًا كالقرآن الكريم مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [سورة النجم: 3-4].
على الرغم من أن السياق في هذه السورة يأباه؛ لأنه بصدد الحديث عن القرآن الكريم، وليس النبي ﷺ وسنته، ويمكن أن يستدل على أن النبي محمدًا ﷺ معصوم من غير هذه الآية طبعًا.

وهذا ما لفت إليه العلامة الفراهي في تفسيره للآية الكريمة من سورة النجم: فقال: "إن هو - أي المنطوق - إلا وحي يوحى، فأما سائر كلامه فلا ذكر له في هذه الآية، وأما في نفس الأمر فما ينطق الرسول عن هوى النفس أبدًا، ولكنه ربما يخطئ فالله يصلحه فإن الله يقول: ﴿إِلَّا مَنْ أَرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [سورة الجن: 27]، فلا بد أن ينبه إن سها أو نسي أو أفرط لفرط الشغف بالأمة والرافة بهم".¹

المبحث العاشر: رأي الفراهي في معنى الحكمة من قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

ذهب عامة المفسرين إلى أن المراد بالحكمة السنة المطهرة؛² وهو رأي الإمام الشافعي في كتاب الأم؛³ إذ يرى أن الكتاب هو ما يتلى عن الله تعالى، والحكمة هي ما جاء به الرسالة عن الله مما بينت سنة لرسول الله ﷺ، وقد قال الله ﷻ لأرواحه ﷻ: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلُوا فِي يَوْمِئِذٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: 34].
ويرد الإمام الفراهي ذلك كله فيقول: "وهذا ليس كذلك إلا على تأويل خاص. فإنه رحمه الله بين ما أراد، ولم يخصص الحكمة بالسنة إلا من وجه واحد. وفصلنا

¹ مذكرات الفراهي: 502، انظر أصول التفسير عند الفراهي، مجلة الشارقة: 20، عدد 2، ص: 144.

² انظر تفسير الطبري: 87/3، وتفسير العز بن عبد السلام: 163/1.

³ الأم: 127/5.

مذهبه في كتاب الحكمة.¹ مع أن القرآن والسنة كليهما ملآن من الحكمة. وسيطمئن قلبك بما قلنا إن شاء الله تعالى حين ترجع إلى تفسير كلمة الحكمة".² ويرى رحمه الله أن "الحكمة" هي اسم للقوة التي منها ينشأ القضاء بالحق؛³ قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُرَ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابِ ۖ﴾ [سورة ص: 20]، فذكر الأثر بعد القوة التي هي مصدر ذلك الأثر. وكما أن القول الفصل من آثار الحكمة، فكذلك طهارة الخلق، وحسن الأدب من آثارها. ولذلك كانت العرب تطلق اسم الحكمة على قوة جامعة لرزانة العقل والرأي وشرافة الخلق الناشئة منهما، فسموا الرجل العاقل المهذب حكيماً. وكذلك يطلقون اسم الحكمة على فصل الخطاب؛ وهو القول الحق الواضح عند العقل والقلب. وكل هذه الوجوه من معاني الحكمة في كلام العرب. فاستعملها القرآن والنبي ﷺ بما عرفوه؛ قال النبي ﷺ: "إن من الشعر لحكمة".⁴ أي ليس كل شعر غواية، بل منه ما يتضمن الحق والحث على الخير.

¹ يشير إلى كتابه: "حكمة القرآن".

² انظر إحكام الأصول بأحكام الرسول ﷺ: 110، المجموعة الثانية من رسائل الإمام الفراهي. وقد وجد الإمام الفراهي تخريجاً لكلام الشافعي فقال: "وقد أراني الله تعالى وله الحمد طريقاً لطيفاً لفهم الكتاب والسنة؛ وبذلك فتح على عبده باباً عظيمًا للتوفيق بينهما حتى لم يبق من الأحكام ما يفرض فيه الزيادة الشبيهة بالنسخ أو النسخ الصريح. فانقشعت الغمة التي تخاصموا تحتها، وبدت عين صافية نضاجة من كتاب الله يجري ماؤها في جداول السنة إلى زرع مباركة من النور والحكمة. وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً واضحاً لهذه البركات الروحانية وكأنه ﷺ فسره بقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۖ﴾ [سورة البقرة: 269]، وفي ذكره ها هنا أيضاً تمثيل لما هو المقصود من هذه الأبواب؛ وهو تطبيق السنة بالكتاب والله الهادي إلى سبيل الصواب"، إحكام الأصول: 115-116.

³ ويقول: الحكمة يطلق على القول المشتمل على القضاء الحق الذي قضى بالعلم. وهذا استعمال الكلمة العامة في أحسن أفرادها. مفردات الفراهي: 178-179.

⁴ أخرجه الترمذي في كتاب الأدب، باب ما جاء إن من الشعر حكمة، وابن ماجه برقم (3755)، والبيهقي في السنن الصغرى: 9/206، برقم (4346). وقوله: "إن من الشعر حكمة" أي قولاً صادقاً مطابقاً للحق، وقيل أصل الحكمة المنع، فالمعنى أن من الشعر كلاماً نافعاً يمنع من

هذا، ثم استعملها الله في أكمل أفرادها فسعى الوحي حكمة كما سمّاه نورًا وبرهانًا وذكرًا ورحمة، ومن هذه الجهة سعى القرآن حكيماً، أي ذا حكمة، كما سعى نفسه حكيماً وعلياً.

فإذا سعى القرآن كتاباً وحكمة معاً فذلك من جهتين: سعى كتاب من كونه مشتملاً على الأحكام المكتوبة، وحكمة من جهة اشتماله على حكمة الشرائع من العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة.

واستدللنا على هذا الفرق من تتبع استعمال الكلمتين معاً. وتسامح بعض أهل العلم في هذا المقام، وتبعهم الإمام الشافعي رحمه الله، وتبعه أكثر المحدثين فظنوا أنّ الحكمة أريد بها الحديث، فإن الكتاب كتاب الله، فلا بد أن يراد بالحكمة غيره، ومثار الخطأ أنهم أخطأوا معنى الكتاب، حيث جاء مع الحكمة والدليل على ما قلنا آيات منها: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة النساء: 113]. ﴿وَأَذْكُرْنَا مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: 34]. وكلمة "يتلى" و"أنزل" لم يستعملهما القرآن للحديث. نعم إن الحديث ربما يتضمن الحكمة ولا شك أن الحديث ربما يبين ما في القرآن من الحكمة. ولعل مراد الذين تبعهم الإمام رحمه الله كان هذا. ولكن الحديث يشتمل على الأحكام كما أنه يشتمل على الحكمة فلا وجه لتخصيصه باسم الحكمة.

السفه. وأخرج أبو داود من رواية صخر بن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن جده سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن من البيان سحراً، وإن من العلم جهلاً، وإن من الشعر حكماً، وإن من القول عيلاً، فقال صعصعة بن صوحان: صدق رسول الله ﷺ. أما قوله: إن من البيان سحراً، فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق. وإن قوله: "إن من العلم جهلاً"، فيكلف العالم إلى علمه ما لا يعلم فيجهل ذلك. وأما قوله: "إن من الشعر حكماً"، فهي هذه المواضع والأمثال التي يتعظ بها الناس. وأما قوله: "إن من القول عيلاً"، فعرضك كلامك على من لا يريد، وقال ابن التين: مفهومه أن بعض الشعر ليس كذلك لأن "من" تبعية. انظر تحفة الأحوزي في شرح الحديث.

وجاء أوضح من ذلك حيث قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْقُرْآنَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٧٠﴾ [سورة المائدة: 110].

فقد سميت التوراة "كتاباً"؛ لأن معظمها الأحكام، والإنجيل "حكمة"؛ لما أكثر فيه الدلائل والمواعظ تماماً كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ٦١﴾ [سورة المائدة: 46]، فكان الإنجيل مشتملاً على هدى ونور، وهدى وموعظة، وعلى قليل من الأحكام وتصديق التوراة. ولغلبة الأمر سمي "حكمة". ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ ٦٢﴾ [سورة الزخرف: 63]، فانتضح أن تأويل "الحكمة" إلى الأحاديث غير صحيح، وأن اسم "الكتاب" إذا يتبع بالحكمة فالمراد منه الأحكام. فلا تنسب هذا الفرق.¹

وتتبع مضامين سورة البقرة يطابق قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩﴾ [سورة البقرة: 129]. فأتى أولاً بالآيات والدلائل، ثم ألقى عليهم الكتب - أي الأحكام - ثم علمهم طريق الحكمة، وزكاهم بالحث على الزكاة. فنزولها يطابق ما دعا به إبراهيم، ويرى الفراهي أن في هذه الآية تحقق دعاء إبراهيم ببعثة نبي يزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.² وأن أكثر كلمة الحكمة مع مكارم الأخلاق.³

¹ انظر مفردات الفراهي: 178.

² مذكرات الفراهي، مخطوط، ص: 10، انظر أصول التفسير عند الفراهي: 144 - 145.

³ المصدر نفسه: 12.

يقول تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: 151]. وهذا من إتمام النعمة أن الله جعل أمة محمد أمة وسطاً وارثة لإبراهيم عليه السلام؛ وهي هدى وصراطه المستقيم، وفطرته التي فطر الناس عليها، وأورثها قبلة إبراهيم، واستجاب فيهم دعاءه، فأرسل فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، يتلو ﴿الْكِتَابَ﴾: ظاهر الحكم، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: الأخلاق. فتلاوة الآيات تمهيد وخطوة أولى للتزكية، والعمل بالأحكام خطوة ثانية لها، والحكمة هي الخطوة الثالثة؛ وهي روح الأحكام.¹

المبحث الحادي عشر: ما موقف الإمام الفراهي من الإسرائيليات؟

لقد كان بعض الصحابة يرجعون إلى بعض من أسلم من أهل الكتاب، يأخذون عنهم بعض ما عندهم من جزئيات الحوادث التي عرضت لها كتبهم بتفصيل، وعرض لها القرآن بإيجاز وإجمال مع امتلاكهم للمعيار الشرعي الدقيق المستخلص من أحاديث المصطفى ﷺ، وكل ما احتمل واحتمل توقفوا فيه امتثالاً لقول النبي ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا.."² كذلك لم يسأل الصحابة -رضوان الله عليهم- أهل الكتاب عن شيء مما يتعلق بالعقيدة، أو يتصل بالأحكام التي شرع الله لهم، اكتفاء بما عندهم في ذلك، اللهم إلا ما كان من سؤالهم لغرض الاستشهاد والتأكيد لما جاء به القرآن الكريم، وإلزام المعاندين الحجة بشهادة ما في أيديهم من الكتاب.³

¹ أصول التفسير عند الفراهي، د. محمد إقبال: 145-146.

² أخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم" الآية. أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء" برقم (6927).

³ انظر الإسرائيليات في التفسير والحديث، د. محمد حسين الذهبي: 72-73. دار الإيمان، دمشق.

لا يختلف رأي الإمام الفراهي عن غيره من علماء التفسير فيما يخص الإسرائيليات¹ إلا أنه بحكم دراسته للديانات ومعرفته باللغة العبرانية فإنه يقوم بنقدها من خلال كشف العوار الذي تحويه هذه الآيات.²

وقد تكفل ثلة من العلماء والباحثين³ في العصر الحديث بتعميق البحث في موضوع الإسرائيليات في كتب التفسير جزاهم الله خيراً.

وقد كانت نظرة الإمام الفراهي عميقة عندما كشف عن السر من نزول القرآن بعد الكتب على أنه كان لأمرين هما:⁴

- 1- لتكميل ما بقي من إكمال الدين.
- 2- وتبيين ما اختلفوا فيه وضلوا، ونسوا بعض ما حملوا، أو زادوا فيها، أو بدلوا كما أخبرنا الوحي المحفوظ: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ

¹ من المعلوم أن ما يروى عن بني إسرائيل من الأخبار المعروفة بالإسرائيليات له ثلاث حالات؛ في حالة منها يجب تصديقه، وهي إذا دل الكتاب أو السنة الثابتة على صدقه، وفي واحدة يجب تكذيبه، وهي ما إذا دل القرآن أو السنة أيضاً على كذبه، وفي الثالثة لا يجوز التكذيب ولا التضيق. انظر فتاوى ابن تيمية: 678/10، ومناهل العرفان: 22/2.

² أصول التفسير عند العلامة الفراهي، مجلة الشارقة المجلد 3، عدد 2، ص: 140.

³ منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الإسرائيليات في التفسير والحديث، د. محمد حسين الذهبي.
- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د. محمد بن محمد أبو شهبه.
- الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، د. رمزي نعناع.
- الإسرائيليات في تفسير الطبري: دراسة في اللغة والمصادر العبرية، الدكتور أمال محمد عبد الرحمن ربيع.
- الدخيل في التفسير، إبراهيم عبد الرحمن خليفة، طبعة خاصة بكلية أصول الدين.
- الدخيل في التفسير، عبد الوهاب فايد، مطبعة حسان... إلخ.

⁴ تفسير نظام القرآن: 48.

يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتُ أَيَدِيهِمْ
وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ [سورة البقرة: 79].

ثم إن الله تبارك وتعالى لم يذكر تفاصيل القصص وسفاسف التاريخ وإنما لمح
لبعضها، مما حمل الإمام الفراهي على الانتهاء إلى الخلاصات الآتية:¹

- 1- نلتمس تصحيح الكتب السابقة وتأويلها بعرضها على القرآن ليتضح الحق
على أهل الكتاب.
 - 2- نهتدي لتأويل ما جاء في القرآن من القصص راجعين إلى القرآن عند
الاختلاف لكونه محفوظاً.
 - 3- يتضح فضيلة هذه الملة الكاملة لمن تتبع درجات الارتقاء من أول الشريعة إلى
شريعتنا المتممة.
 - 4- يتضح ما جاء من الإسرائيليات المتضادة المختلطة وتصحيح آراء من تبعها منا.
 - 5- يتضح على أهل الكتاب أنّ القرآن لا يأخذ من كتبهم، بل يقوم عوجهم،
ويخرجهم من الظلمات إلى النور.
 - 6- تأويل أكثر آيات القرآن التي تشير إلى التوراة، وزعم المفسرون أنها تتعلق
بالقرآن، مثلاً قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [سورة البقرة: 106].
وآية: ﴿فَيَنْسَخْ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [سورة الحج: 52].
- المبحث الثاني عشر: بصائر الصحابة في نظراتهم التأويلية:

إن كثيراً من الناس يتوهمون أن الاشتغال باللغة العربية والعلوم المتصلة بها؛ وهي
محدثّة من حيث تأخر نشأتها، على أنها من الأمور المبتدعة، وأن التأويل القائم على
البيان والنظر والاستدلال هو عين القول بالرأي الذي زهد عنه السلف الصالح! كل
ذلك أورث فيهم الاكتفاء بما ورد في التفسير بالمأثور فقط وإجلاء ما له علاقة بالرأي!

¹ المصدر نفسه: 49-50.

وقد جهل هؤلاء وكل من قفا أثرهم؛ لأنهم يجهلون أصلاً "أن فقهاء الصحابة بل عامتهم كانوا أبصر وأعلم بالقرآن لوجوه كثيرة. ولم يكن لهم احتياج إلى أصول علم البيان وفروعه، ولا علم النظر والاستدلال. فإن ذوقهم وسلامة عقولهم قد أغناهم عن ذلك فإن كثيراً من العلوم المدونة ليست إلا كالدواء للمرضى".¹

وما ذكره الإمام الفراهي صحيح جداً؛ قال الإمام الشاطبي بحقهم: "فإنهم عرب فصحاء لم تتغير ألسنتهم، ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم، فهم أعرف في فهم الكتاب والسنة من غيرهم".² علاوة على مشاهداتهم لما نزل فيه الوحي من الوقائع الكثيرة، وقد كانوا مباشرين لوضع النبي ﷺ الخطاب القرآني في مواضعه، وكذا خبرتهم بعادات العرب وأحوالهم التي تقاطر الوحي لعلاجها وتغييرها وإصلاحها. قال الفراهي: "كان للقرآن عند الصحابة تأويل واحد لتقواهم وعلمهم باللسان وبشأن النزول؛ ولذلك قل منهم السؤال والتفسير".³

وقد نقل عامة المفسرين بالمأثور أقوال الصحابة؛⁴ يقول الشاطبي في حجية بيان الصحابة للقرآن الكريم: "وأما الثاني: مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة، فهم أقعد في فهم القرائن الحالية، وأعرف بأسباب النزول، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب. فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات، أو تخصيص بعض العمومات، فالعمل عليه على الصواب، وهذا إن لم ينقل عن أحدهم خلاف في المسألة، فإن خالف بعضهم فالمسألة اجتهادية".⁵

¹ التكميل: 220.

² الموافقات: 338/3.

³ التكميل: 229.

⁴ وقد أفردتها بالتأليف الدكتور عبد الله أبو السعود بدر، في كتاب "تفسير الصحابة"، دار ابن حزم، بيروت.

⁵ الموافقات: 128/4، بتحقيق أبي عبيدة مشهور حسن آل سلمان.

وللصحابة مميزات لا توجد عند غيرهم من الطبقات¹؛ وعليه فلا يستغنى عن تأملاتهم وتأويلاتهم؛ لذلك فإن "كثيراً من الصحابة إذا فسّروا القرآن كانوا كالبحر الزاخر والسحاب الهائل، يلقون على أصحابهم ما كان يملأ صدورهم علماً وحكمة"². وقد وردت إلينا نبذة منها؛ وما ورد إنما هي قطرة من عباب.

والصحابة طبقة عامرة بالخير والعلم المستفيض بلا نزاع، وتتفاوت قدراتهم في التفسير؛ بحيث "قد يظهر لبعضهم ما لم يظهر لبعض آخر منهم في تفسير القرآن الكريم"³.

قال مسروق بن الأجدع رحمه الله: "جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذا- يعني الغدير- فالإخاذا يروي الرجل، والإخاذا يروي الرجلين، والإخاذا يروي المائة، والإخاذا لو نزل به أهل الأرض لأصدهم"⁴.

ورى مسروق عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: "والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله؛ إلا أنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته".

روى أبو الطفيل فقال: "شهدت علياً يخطب، وهو يقول: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم.

وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت؟ أم بنهار؟ أم في سهل؟ أم في جبل؟"⁵.

¹ قال ابن مسعود ﷺ: "من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ؛ فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً. قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم". انظر جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر: 2/ 198.

² التكميل: 221.

³ التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي: 1/ 39.

⁴ انظر الطبقات الكبرى: 2/ 343.

⁵ أخرجه عبد الرزاق في تفسير سورة الذاريات، تحقيق قلعي: 2/ 195، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل: 6/ 191.

ولا بد من التنبيه على أن الذين جاءوا بعد الصحابة من التابعين قد "خفي عنهم بعض شؤون النزول، فأولوا القرآن إلى آياته وآثار الصحابة فكأنهم اعتصموا بأصلين:

1- أن القرآن لا يخالف بعضه بعضاً.

2- أن أفعال النبي ﷺ وأقواله، وعمل الصحابة أقرب شيء موافقة بالقرآن".¹

والمشكلة هنا في الروايات الضعيفة عن اليهود والدجالين الواضعين، لاسيما بعد ظهور الفلسفة والتأويلات لنصرة المذهب مع صرف المعنى إلى ما يتوافق مع الأيديولوجية.

المبحث الثالث عشر: تذوق اللغة العربية وعلومها:

إن اللغة العربية من مصادر التفسير قولاً واحداً؛ وقد كان الإمام الفراهي ذا ثقافة واسعة، ومتنوعة، وقد بذَّ أقرانه في العربية وعلوم القرآن، وقرض الشعر وله ديوان لطيف بالعربية طبع عام 1387هـ، وكان إماماً في العربية وأسرارها، وكان أستاذاً في العربية في أكثر من جامعة وكلية؛ وكانت له استدراقات على أئمة في اللغة، وتحقيقات عظيمة، والمدخل للتدبر تذوق أساليب العرب، وامتلاك ناصية البيان؛ بدليل كتابه: "جمهرة البلاغة" الذي نقض فيه الأساس الذي يقوم عليه فن البلاغة عند أرسطاطاليس وهو نظرية المحاكاة التي تأثر بها فن البلاغة، وانتقد عبد القاهر الجرجاني مع اعترافه بجلالته، واقترح تأسيس فن البلاغة على قواعد جديدة في ضوء القرآن الكريم، وكلام العرب الأقحاح.

قال الإمام الفراهي: "بمثل الأخذ بأحسن الوجوه، يكون الأخذ بأثبتها في اللغة. فإن المعنى الذي كثر في كلام العرب لا ينبغي تركه إلا لصارف قوي. فإذا تساوى الوجوه الآخر؛ وهو النظم، والموافقة بباقي القرآن، وصريح العقائد، لا بد أن نأخذ المعنى الشائع ومثاله معنى الشوى، فإنه لحم الساق عمومًا في كلام العرب".²

¹ التكميل: 229.

² انظر المصدر نفسه.

ولما ظن عامة علماء القرآن أن من مقاصد القسم في القرآن تعظيم المقسم به رفض الفراهي هذا التعميم واستدل بمقاصد الكلام عند العرب فقال: "قد تبين مما ذكرنا أنهم كانوا يقسمون بالشهادة من أنفسهم أو بالشهادة بالله تعالى. وإذا كانت الشهادة بالله أكبر الشهادات، كثر القسم بها، ولذلك ظن من قل التفاته إلى أساليب الكلام وفنون بلاغته أن الإشهاد لا يكون إلا بالمعبود وعلى جهة التعظيم. ولكنك إذا سרכת النظر في كلام العرب وغيرهم وجدت أنهم ربما أشهدوا بأشياء لم يعبدوها ولا عظموها. وإنما أرادوا الاستدلال بجعل المقسم به شاهداً على أقوالهم".¹ عوض أن يكون تعظيماً لهم.

قال ابن النقيب- رحمه الله :-

"إنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب، فعرف علم اللغة، وعلم العربية، وعلم البيان... فإذا علم ذلك، ونظر في هذا الكتاب العزيز، ورأى ما أودعه الله- سبحانه- فيه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان، فقد أوتي فيه العجب العجائب، والقول الفصل اللباب، والبلاغة الناصعة التي تحير الألباب، وتغلق دونه الأبواب... ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة، والنفوس خشية، وتستلذه الأسماع، وتميل إليه بالحنين الطباع، سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة، عالمة بما يحتويه أو غير عالمة، كافرة بما جاء به أو مؤمنة".² وللزمخشري كلام لطيف عن تدبر كتاب الله؛ يقول: "إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهز الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجابة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب: (نظم القرآن)؛ فالفقيه وإن برز على

¹ انظر إمعان في أقسام القرآن للفراهي: 36، ولنا مع مبحث خاص في الفصل الخامس من هذا البحث.

² الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم: 7، 5، ط 1979 م، دار النفائس، بيروت.

الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القريّة¹ أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علما المعاني والبيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقيير عنهما أزمّة، وبعثته على تتبع مظاهرها همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زماناً، ورُجع إليه، ورُد عليه، فارساً في علم الإعراب، مقدماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس دراغاً للمحبة، وإن لطف شأنها، منتبهاً على الزمرة، وإن خفي مكانها، لا كزاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا درية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريّض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام، ويؤلف، وكيف يُنظّم، ويُرصّف، طالما دُفع إلى مضايقه، ووقع في مضاحضه ومزالقه".²

المبحث الرابع عشر: النحو والإعراب في خدمة القرآن:

ندعو إلى العناية بالنحو العربي على أن تكون منصبة في خدمة القرآن الكريم.³

¹ هو أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالي، أحد البلغاء، يضرب به المثل؛ فيقال: "أبلغ من ابن القريّة"، قتله الحجاج بن يوسف عام 84هـ. انظر وفيات الأعيان: 1/ 250 - 255، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

² الكشف للزمخشري: 1/ 15 - 16، دار المعرفة، بيروت.

³ انظر أهم الكتب التي سارت في هذا الاتجاه:

1- نحو القرآن للدكتور أحمد عبد الستار الجوّاري.

قال ابن حزم: "لو سقط علم النحو لسقط فهم القرآن وفهم حديث النبي ﷺ، ولو سقط لسقط الإسلام".¹

قال ابن النحاس: "القرآن كله بمنزلة سورة واحدة، وعلى هذا نظمه ورصفه، وتأليفه".²

بالنسبة للنحو والإعراب؛ فإن العلامة الفراهي قد برع فيهما؛ لكنه لم يختزله في ضبط أواخر الكلمات "فالإعراب يعني العلاقة، ولحمة النسب بين الكلمات في الجملة الواحدة، وإذا صحت العلاقة الإعرابية واستقامت في ذوق النحو، فهي تلك المناسبة الصحيحة التي يرضاها ذوق البلاغة.. والذين يزعمون أن النحو لا يعنيه من هذا إلا أن تضبط حركات الأواخر، لا يفهمون النحو؛ لأن النحو الذي يعرفه علماء هذه الأمة، هو النحو الذي يبحث منطق اللسان، ويحلل ضروب العلاقات بين كلماته، ويشرح سليقة الأمة المنعكسة في هذا البناء الإعرابي المعجب".³

إن هذه الأصول الأربعة "فقه الحركة الإعرابية، والأصل والعدول عنه في بناء معاهد المعاني، والاحتياط من ضياع المعاني، والاحتياط من تفكيك النظم" وطائفة المفاهيم التي تمخض عنها عمل النحاة في تحليل "الخطاب القرآني" و"العلاقات بين

- 2- النحو القرآني: قواعد وشواهد، للدكتور جميل أحمد ظفر.
- 3- النحو القرآني في ضوء لسانيات النص، للدكتورة هناء محمود إسماعيل.
- 4- نظرية النحو القرآني: نشأتها وتطورها ومقوماتها الأساسية، للدكتور أحمد مكي الأنصاري.
- 5- علم إعراب القرآن: تأصيل وبيان، للدكتور يوسف بن خلف العيسوي.
- 6- القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، للدكتور عبد العال سالم مكرم.
- 7- الشواهد القرآنية في كتاب سيبويه: عرض وتوجيه وتوثيق، للأستاذ محمد إبراهيم عبادة.. إلخ.

¹ رسائل ابن حزم: 162/2، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1987م.

² إعراب القرآن لابن النحاس: 51/5، و165/5، وانظر الدر المصون للسمين الحلبي: 638/10، ومغني اللبيب لابن هشام: 328.

³ دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، د. محمد أبو موسى: 268-269، مكتبة وهبة، القاهرة، 1979م.

أجزائه" قد حفظت "النص القرآني" من أن يكون مجالاً للتزويد والإقحام، أو العبث واللهو، كما تمكّن من الفهم الصحيح لمقاصده، مما يفوت الفرصة على أي قراءة للخطاب القرآني بعيداً عن "قوانين تأويله" أو مجاله "التداولي"¹.

وقد تولد عن هذه الأصول مجموعة من المقولات يمكن أن نعتبرها ضوابط تتحكم في التحليل النحوي للخطاب، وبخاصة الخطاب القرآني؛ من نحو قولهم:²

- ينبغي في التحليل النحوي للكلام العناية بمسألة القصد الذي يؤمُّ ومراد المتكلم وغايته من الكلام.
- من لم يفقه مساق الكلام وسياقه الذي تشكل فيه عجز عن إِبصار حركة معانيه.
- لكل حركة إعرابية مقابلاتها المعنوية، وسياقاتها التي تقتضيها، وكل تحول في الحركة الإعرابية تجد فيه مدخلاً جديداً لمعنى جديد.
- القطع والاستئناس غالباً ما يشيران إلى أن الكلام الذي بني عليهما له خطر وشأن.
- كل تغيير في أصل بناء الكلام يحدث تغييراً مناسباً في المعنى فليس ثمة في العربية توسع أو تجوز مجاني.
- اللفظ الذي يغادر موقعه إلى الأصلي في التركيب إلى موقع آخر يبدو أجنبياً فيه، هو الذي يفضي إلى توليد جديد المعاني وطارئ الدلالات.
- النقض للمراتب يقع كثيراً فيما يعرف بالفضلة لفتناً لأهميتها؛ لأنها تجلو الجملة، وتجعلها تابعة المعنى لها، إذ إن أكثر الفوائد إنما تجنى من الألفاق والفضلات، نعم وما أكثر ما تصلح الجمل وتنتمها، ولولا مكانها لو هت فلم تستمسك.
- كل حذف وخاصة في القرآن الكريم وراءه معنى لا يمكن أن تراه مع الذكر.

¹ انظر بحث أصول التحليل النحوي لأيات القرآن الكريم: الاحتياط من "تفكيك نظم القرآن" نموذجاً، د. محمد عبد الفتاح الخطيب، ضمن المؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه: 738/2.

² المصدر نفسه: 738/2-739.

- الزائد إن دلّ على معنى لا يتحقق بدونه فلا يسمّى زائداً، فغير جائز إبطال حرف كان دليلاً على معنى في الكلام.
- مواقع حروف المعاني في الكلام الشريف لها دلالات حية، وتغمض أحياناً، ولا يجوز إهمالها؛ لأنها معاهد المعاني، وروابطه، ومقاطعها، وهذه المواقع من أغمض ومن أنبل ما في الكلام.
- إن الأصوات تابعة للمعاني، وأن القيم الصوتية للفظ لها أثرها في تكوين المعنى وتشكله في الخطاب.
- حمل الشيء على معناه لنوع من الحكمة.
- لكل حرف من حروف المعاني وجه هو أولى به من غير، فلا يجعل لغيره إلا بثبت.
- لا يتسلط العامل على المعمول صناعة إلا إذا اقتضاه المعنى المراد.
- قد يكون اللفظ متصلاً بالآخر والمعنى على خلافه، فقد تعي الكلمة إلى جنب أخرى كأنها في الظاهر معها، وهي في الحقيقة غير متعلقة بها.
- يمنع إدخال قول في قول ليس منه، كما أنه يمنع إخراج قول من قول هو منه.
- أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.
- لا يجوز في تحليل الخطاب قطع كلام هو مرتبط به، ومن جملة ذبوله، فيتفكك بذلك النظم وينقطع ترصيف الكلام؛ مما يجعل بعضه مفلتاً من بعض، وهذا التفكيك مما لا ينبغي أن يخرج عليه النظم الكريم.

الفصل السابع: أسباب النزول

تمهيد:

إن المدار على دلالة النص القرآني وكل ما يخدمه ويمد العون للوصول إليه من أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ وأساليب القرآن؛ قال الفراهي: "فنعتمد أن القرآن اختار من الأساليب أبينها، وأقربها، وأحسنها، ولم يبدل أسلوباً إلا وفيه

دلالة خاصة".¹ هذا ما على علماء أصول التأويل اكتشافه وبيانه؛ ونعرض في هذا الفصل المباحث الآتية:

المبحث الأول: مدلول سبب النزول:

يقصد بأسباب النزول الوقائع والأحداث التي وقعت في حياة النبي ﷺ ونزل القرآن الكريم للتحديث عنها، أو لبيان أحكامها، سواء كان هذا البيان أثناء وقوع الحادثة، أو بعده، أو قبله، وكذا ما نزل جواباً على سؤال، أو على حدث، أو ابتداءً. يقول الإمام الفراهي: "ليس المراد من سبب النزول ما لأجله نزل الوحي. إنما هو شأن الناس وأمرهم والحالات والواقعات التي بينها وبين ما نزل نسبة؛ وهذا هو معنى السبب في الصحيح من كلام العرب. ولذلك كانت القدماء يذكرون كل ما يتعلق بمضمون الآية، ولكن المتأخرين لم يفهموا منه إلا معناه المولد فضاق عندهم فحواه".

المبحث الثاني: فوائد أسباب النزول:

إن الإمام الفراهي يدرك تمامًا أهمية أسباب النزول، وهو ما حمله على التأليف فيه، بل والإضافة في مباحثه، إذ يعد من جملة خدمته للقرآن وعلومه. ولا تخفى فوائده على ذي عقل؛ يقول العلامة الزركشي: "وأخطأ من زعم أنه لا طائل تحته؛ لجريانه مجرى التاريخ، وليس كذلك، بل له فوائد".² ويمكن رصد بعض تلكم الفوائد فيما يأتي:

- 1- أسباب النزول من الشروط المفروضة، والعلوم المحفوظة، لمن رام تفسير القرآن، كما بيّنه غير واحد من الأعلام، كالإمام السيوطي في الإتقان، والإمام الزركشي في البرهان وعامة المفسرين رحمة الله عليهم.
- 2- فهم كلام الله تعالى على الوجه الصحيح، وإزالة ما قد يقع من الإشكال أو الالتباس في فهم بعض الآيات؛ ولعل هذه الفائدة من أهم فوائد العلم

¹ تفسير نظام القرآن: 40.

² البرهان: 1/ 22.

بأسباب النزول، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "ومعرفة سبب النزول تعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب". ونقل الإمام الزركشي في برهانه عن أبي الفتح القشيري قوله: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز"¹؛ ويقول الإمام أبو الحسن الواحدي كما نقل عنه الإمام السيوطي في الإتقان: "لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها"². قال ابن دقيق العيد: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن"³. قال الطاهر بن عاشور: "إن من أسباب النزول ما ليس المفسر بغنى عن علمه؛ لأن فيها بيان مجمل أو إيضاح خفي وموجز، ومنها ما يكون وحده تفسيراً، ومنها ما يدل المفسر على طلب الأدلة التي بها تأويل الآية أو نحو ذلك"⁴.

3- تيسير حفظ القرآن الكريم واستيعاب أحكامه والإلمام بأسراره ومعانيه؛ إذ إن معرفة أسباب النزول والحوادث والملابسات والقرائن التي احتفت بنزول الآيات، كل ذلك مما يساعد على فهم كلام الله تعالى، وتيسير الحفظ، وترسيخ الآيات في ذاكرة الإنسان، يقول العلامة الزرقاني رحمه الله تعالى: "وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأثرمة والأمكنة، كل أولئك من دواعي تقرُّ الأشياء، وانتقاشها في الذهن، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر، وذلك هو قانون تداعي المعاني المقرر في علم النفس"⁵.

4- معرفة اسم من نزلت فيه الآية، وتعيين المبهم فيها؛ حتى لا يشتبه، ومن أمثلة ذلك أن مروان قال: إن عبد الرحمن بن أبي بكر هو الذي أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ

¹ المصدر نفسه: 40 / 1.

² الإتقان في علوم القرآن.

³ المصدر نفسه: 88 / 1.

⁴ التحرير والتنوير: 47 / 1.

⁵ مناهل العرفان: 113 / 1.

لِوَالِدَيْهِ أَفٍ لَّكُمْ أَتَعِدَانِي ﴿ [سُورَةُ الْأَحْقَافِ: 17]، فَرَدَّتْ عَلَيْهِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَقَالَتْ: "وَاللَّهِ مَا هُوَ بِهِ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَسْمِيَهُ لَسَمَيْتُهُ".¹

5- دفع توهم الحصر؛ فالآية قد تفيد بظاهرها الحصر، لكن سبب النزول يدفع هذا التوهم.²

¹ ففي الصحيحين عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب يذكر يزيد بن معاوية؛ لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبدالرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدرُوا، فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفٍ لَّكُمْ أَتَعِدَانِي﴾ [سورة الأحقاف: 17]، فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عُذْرِي.

وفي رواية النسائي: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سُنَّةُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سُنَّةُ هِرْقُلٍ وَقِيصَرٍ، فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفٍ لَّكُمْ أَتَعِدَانِي﴾ [سورة الأحقاف: 17]، فبلغ ذلك عائشة، فقالت: كذب، والله ما هو به ولو شئت أن أسعي الذي أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن مروان، ومروان في صلبه، فمروان فضض من لعنة الله؛ سنن النسائي: (11427) بترقيم الشيخ شعيب الأرناؤوط.

² ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أَهُلَّ بِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة الأنعام: 145]. يقول العلامة عبد العظيم الزرقاني رحمه الله تعالى: "ذهب الشافعي إلى أن الحصر في هذه الآية غير مقصود، واستعان على دفع توهمه بأنها نزلت بسبب أولئك الكفار الذين أبوا إلا أن يُحَرِّمُوا ما أحل الله ويُحِلُّوا ما حرم الله؛ عناداً منهم، ومحادةً لله ورسوله، فنزلت الآية بهذا الحصر الصوري مشادة لهم، ومحادة من الله ورسوله، لا قصداً إلى حقيقة الحصر.

نقل السبكي عن الشافعي أنه قال ما معناه: إن الكفار لما حرَّمُوا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحاددة، جاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتهم، ولا حرام إلا ما أحللتهم، نازلاً منزلة من يقول لك: لا تأكل اليوم حلاوة، فتقول: لا أكل اليوم إلا حلاوة، والغرض: المضادة، لا النفي والإثبات على الحقيقة، فكأنه تعالى قال: لا حرام إلا ما أحللتهم من الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ما وراه؛ إذ القصد إثبات التحريم، لا إثبات الحل" اهـ.

المبحث الثالث: أسباب النزول الباطلة وظلالها القاتمة على فهم النص:

قال الواحدي النيسابوري: "لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها". وقد أفرد الفراهي بالتأليف تحت عنوان: "أسباب النزول" كما ألمعنا إليه آنفاً في مؤلفات الفراهي في علوم القرآن: نظرًا لما له من فوائد كثيرة في فهم النص القرآني، لكن مع الحذر من وجوه الضلالات التي ينبغي ألا نتسامح في الأخذ بها؛ وهنا بين الإمام الفراهي بعض هذه الوجوه: ومنها:

- 1- السبب الباطل ربما يغير المعنى ويبطله وقد حفظ الله كتابه وآيس المبطلين من تحريفه، فلم يجدوا سبيلًا إلى الإضلال إلا باختلاق القصص وضمها بمواقع نزول الآيات؛ ولذلك أمثلة كثيرة. والقرآن نفسه يبطلها؛ فإنه آخر الوحي.
- 2- السبب الباطل حجاب على نظم القرآن، فإن القصص الباطلة كثيرًا ما تخالف نظم القرآن، كأن القرآن نفسه يكذب الكاذبين. ولعل الله تعالى صرفهم عن قول يلتئم بالقرآن، وبذلك نبّه الراسخين في العلم على ما يلقيه الشياطين من زخرف مزخرف القول. فالذي يتشبه بمحكم القرآن وبنظمه لا يزعزعه القصص الباطلة التي سمّوها أسباب النزول تسمية باطلة.
- 3- الأسباب الباطلة سد دون فهم القرآن، فإن ضعفاء العقول زعموا أن الروايات الضعيفة من مجرد الرأي، فيتركون ما يفهم من ظاهر القرآن ويقبلون ما هو أضعف رواية ودراية. فاتخذوا القرآن مهجورًا وأصغوا إلى ما يلقيه الشياطين غرورًا، وزعموا أنه لا حاجة إلى التشدد فيما لا يخالف صريح العقائد أو يعاضده. ولم يعلموا أن معظم الحق في قدر الأمور وموازينها، والله تعالى أنزل كتابه ميزانًا وجعل دينه قيمًا غير ذي عوج. وأكثر الضلالات مبدؤها من الخبط في مقادير الحسن والقبح، وأكبر بركات هذا القرآن بيان حدود الأمور وتفصيل كل شيء.¹

¹ أسباب النزول: 128، من المجموعة الثانية ضمن رسائل الفراهي.

المبحث الرابع: المشكلة في مفهوم أسباب النزول:

إن أسباب النزول¹ هي ما لأجله نزل الوحي، وليس كل ما كان محلاً ومطمحاً للوحي، فتوسعوا فجعلوه ينطبق على كل ما يتعلق بمضمون الآية؛ قال السيوطي: "والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكره الواحد في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل من باب الإخبار عن الوقائع الماضية كذكر قصة قوم نوح وعاد وحمود وبناء البيت".²

والعجيب أن المتأخرين انصرفوا عن تأويل القرآن والتعامل مع أصوله الواضحة واعتكفوا على تأمل أسباب النزول وروايات الصحيح منها والضعيف، وزعموا أنها فهم القرآن يتوقف عليها وأن أسباب النزول تعين المراد، وتفصل المجمل، وتخصصه، بل "ومن نظر في كتب التفسير علم أن كثيراً مما يذكرون في الأسباب يبدل المعنى الظاهر، فكان أسباب النزول ملكت أزمة التأويل فتصرفه حيث يشاء".³

ويلحق الإمام الفراهي فيقول: "والعاقل المتقي الذي يرى القرآن أوثق عراه ويفر إليه عما سواه يرجف فؤاده أن يعدل عن ظاهر الكتاب وواضح معناه، فيترك ما أقام الله به حجته وأبان محجته إلى أمر مشتببه وروايات ضعيفة، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة يونس: 36]. فإن الحق أبلج والباطل لجلج، فلزم الاعتناء بالبلغ بالبحث والتنقيب في هذا العلم العزيز، ووجب أن تؤسس أصوله وتشيد قواعده، فيجمع من الأسباب ما كان

¹ ويمكن صياغة أسباب النزول على أنه "كل قول أو فعل أو سؤال ممن عاصروا التنزيل نزل بشأنه قرآن". انظر المحرر في أسباب النزول، لخالد المزني: 1/105، والمحرر في علوم القرآن، د. مساعد الطيار: 124.

² لباب النقول: 14/1.

³ أسباب النزول: 131.

حقًا وبطل ما كان باطلًا، فنقول أولاً ما هو المراد من أسباب النزول، ونعود إلى تفسير معناها وتحديدها؛ لتتضح شدة الحاجة إليها".¹

المبحث الخامس: أغلب أحاديث أسباب النزول لا تصح:

قال ابن تيمية: "وأما أحاديث سبب النزول فغالبيتها مرسل ليس بمسند؛ ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة علوم لا إسناد لها".² ونقل ابن تيمية عن الإمام أحمد: "ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمُنقول في المغازي والملاحم؛ ولهذا قال الإمام أحمد: "ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير، والملاحم، والمغازي" ويروي ليس لها أصل أي إسناد؛ لأن الغالب عليها المراسيل".³

وإليه جنح الحافظ ابن حجر في اللسان،⁴ وقد نسب الإمام الزركشي هذا التوجيه للمحققين من أصحاب الإمام أحمد بعد عرضه لمقولة الإمام فقال: "قال المحققون من أصحابه: مراده أن الغالب ليس لها أسانيد صحاح متصلة وإلا فقد صح من ذلك كثير".⁵

والأصل عدم الاعتماد إلا على ما صح من الروايات في أسباب النزول كما نصّ عليه الإمام الفراهي نفسه.⁶ بل وتؤول روايات أسباب النزول في ضوء نظم القرآن الكريم كما يأتي.

¹ المصدر نفسه: 131.

² منهاج السنة النبوية: 435/7، مكتبة القاهرة، تحقيق، د. محمد رشاد سالم.

³ مجموع الفتاوى: 13/346.

⁴ لسان الميزان لابن حجر العسقلاني: 13/1.

⁵ نقله السيوطي في الإتقان: 2/178، طبعة الحلبي. وقد أحسن توجيه كلام الإمام الخطيب البغدادي في قوله: "وهذا محمول على وجه؛ وهو أن المراد به كتب مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة غير معتمد عليها، ولا موثوق بصحتها لسوء أحوال مصنفها، وعدم عدالة ناقلها، وزيادات القصص فيها..." ثم قال: "وأما كتب التفسير فمن أشهرها كتابا الكلبي ومقاتل بن سليمان، وقد قال أحمد في تفسير الكلبي: من أوله إلى آخره كذب.. وقال أيضًا: "ولا أعلم في التفسير كتابًا مصنفًا سلم من علة فيه، أو عرى من مطعن عليه". انظر الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: 2/162-163.

⁶ انظر أسباب النزول: 137.

المبحث السادس: وزن أسباب النزول في ضوء نظم القرآن:

إن التقليل من دائرة الاختلاف في أسباب النزول مدخل كريم لصفاء التأويل الصحيح؛ قال الإمام الفراهي: "ألا ترى الناس لم يختلفوا في شيء كاختلافهم في تأويل القرآن، أفليس هذا داءً عظيمًا؟ فإن كان داءً فماذا دواؤه؟ ولا أرى ذلك إلا شدة الاحتياط في ذلك، فليكن الاعتماد على أصليين:

1- لا يعتمد إلا على رواية صحيحة.

2- يستخرج شأن النزول من سياق الكلام ونظمه".¹

وكان رحمه الله حريصًا على أن يرد مختلف الروايات في أسباب النزول إلى نظم القرآن فيحاكمها بناء على مقاصد القرآن ويؤولها بناء على نظمه، لا أن يؤول النص القرآني بناء على الروايات الكثيرة والمختلفة لدرجة التفاوت والتضارب أحيانًا! فيضيع النص القرآني وتذهب قدسيته بين ظهري الروايات لاسيما أن فيها الصحيح والضعيف والموضوع. قال الإمام: "إنهم حاولوا رفع الاختلاف بين روايات تبين أسباب النزول وإنما نريد أن نرفع الاختلاف بينما يظهر من نظم القرآن ونرد الرواية إليه لا أن نؤول القرآن إليها".²

وقد أصرَّ الإمام الفراهي على أن لا يشتغل المتدبر للقرآن الكريم بالإيغال في روايات أسباب النزول المختلف فيها والتي ربما تضطرننا لمغادرة المقصد الأسنى من التدبر ألا وهو الكشف عن نظام القرآن فيقول: "فإن أردت الحق الصريح واليقين المريح فلا يبعدك طلب شأن النزول عن أصل نظم القرآن العظيم، فيهم عليك الأمر، ويغادرك في متفرق السبل، لا تدري أيها تسلك، بل تجسس شأن النزول من القرآن، ثم خذ من الأحاديث ما يؤيد القرآن لا ما يبدد نظامه ثم العبرة

¹ المصدر نفسه: 137.

² المصدر نفسه: 136.

بشأن النزول الذي تبين من النظم أول أمر تراعيه، فإن الحكم العام الذي نزل في أمر وحالة خاصة جعل لهذه الحالة شأنًا يهدي إلى حكمة الحكم وجهته".¹

الفصل الثامن: الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ

تمهيد:

إن الناسخ والمنسوخ² موضوع شغل علماء القرآن والمفسرين في بعض محاوره، وبات العلم به من شروط الاجتهاد والتفسير؛ حيث اعتنى به الإمام الفراهي عنايته بكل المسائل المتصلة بالقرآن الكريم وعلومه؛ وهذه بعض الإشراقات له نتناولها في المباحث الآتية:

المبحث الأول: مدلول النسخ:

يرد النسخ في اللغة لمعنيين:

أحدهما: التحويل والنقل؛ ومنه نسخ الكتاب وهو أن يحول من كتاب إلى كتاب.

والثاني: الرفع، يقال "نسخت الشمس الظل" أي ذهبت به وأبطلته.

والنسخ في الاصطلاح: هو إزالة ما استقر من الحكم الشرعي بكتاب وارد متراخيًا لولاه لكان السابق ثابتًا. أو رفع حكم شرعي بدليل شرعي متراخ عنه.

والنسخ في القرآن على وجوه، أحدهما: أن يثبت الخط وينسخ الحكم مثل آية الوصية للأقارب وآية عدة الوفاة بالحوال وآية التخفيف في القتال ومنها أن ترفع

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: 27.

² إن ثمة ثلة من العلماء قبل الإمام الفراهي تناولوا موضوع "الناسخ والمنسوخ" للتأليف ومنهم: قتادة بن دعامة الدوسي، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو داود السجستاني، وأبو جعفر النحاس، وهبة الله بن سلام الضرير، وابن العربي، ومكي بن أبي طالب... وغيرهم كثير. وكان آخرهم إمامنا عبد الحميد الفراهي بعنوان: "الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ".

تلاوتها أصلاً عن المصحف وعن القلوب، كما روي عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: أَنَّ قَوْمًا مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَامُوا لَيْلَةً لِيَقْرُوا سُورَةَ فَلَمْ يَذْكُرُوا مِنْهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَغَدُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ ﷺ: "تلك سورة رفعت تلاوتها وأحكامها". والنسخ لا يدخل إلا الأحكام، فلا يدخل النسخ على الأخبار وهو مذهب جمهور أهل العلم، ولم ينكر النسخ إلا طوائف متأخرة ممن ينتسب إلى الإسلام وهؤلاء محجوجون بقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: 106] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: 101]. فهاتان الآيتان صريحتان في وجود النسخ في القرآن، وقد أجمع السلف على وجود النسخ، وهذا الإجماع لا يضره ما ورد بعده من خلاف ممن لا يعتد بمخالفاتهم.

المبحث الثاني: فوائد النسخ:

وللنسخ فوائد جمّة منها:

- 1- إظهار امتثال العباد أوامر الرب جلّ وعلا.
- 2- ومنها التخفيف على العباد وهذا الغالب.
- 3- الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم.
- 4- معرفة تاريخ التشريع، وتدرج الحكم.
- 5- إفادة الداعية في دعواه إلى الله، ومراعاة أحوال الناس؛ لأن النسخ راعى فيه الشارع مراحل الدعوة الإسلامية.
- 6- ضبط الفتوى؛ عن ابن عباس أنه قال في قوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة: 269]، قال: (ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحرامه وحلاله).

- 7- بيان حكمة الشرع في مراعاة مصالح العباد.
- 8- في النسخ إظهار نعمة الله عز وجل برفعه تكليفاً أضيق إلى ما هو أخف، كنقل عدة المتوفى عنها زوجها من عام في أول الأمر إلى أربعة أشهر وعشر.
- 9- ومنها كذلك التدرج في الأحكام كنسخ الأحكام التي أباحت بعض الأمور التي كان عليها المسلمون إلى الحرمة. وقد ينسخ الأثقل إلى الأخف والأخف إلى الأثقل كنسخ صيام يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان، وينسخ المثل بمثله نقلاً وخفة كالقبلة، وينسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى، وينسخ القرآن بالقرآن وهلم جرًا.

المبحث الثالث: ماهية "الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ":

وهذا كتاب آخر من كتب الإمام الفراهي المتخصصة، ومن أهم مؤلفاته في الدراسات القرآنية، ينطوي على مباحث عدة مفيدة في بابها؛ غير أن قضاء الله فيه قد مضى قبل إكمال محاوره، كما نبه على ذلك في خطته، بحيث لو كانت له الفرصة سانة وأنسأ الله في أثره لطلع الكتاب في عقد متكامل وفاخر ينتظم جميع المحاور والمباحث بأسلوبه الرائع، وتدقيقه المشهود، ومع ذلك فإن الكتاب قد اشتمل على المباحث الآتية:

- 1- ما هو النسخ؟ وتنقيح المسألة.
- 2- الحكمة من النسخ.
- 3- محل النسخ من الأمور.
- 4- الناسخ لا يكون إلا الشارع، وهو الله تعالى ورسوله بإذنه.
- 5- غير القرآن لا ينسخ.
- 6- أهم النسخ ما جاء به القرآن لما قبله.
- 7- ذكر قسمين من ثلاثة أقسام النسخ.
- 8- الحكمة العامة في النسخ وهي تبقى.

9- القسم الثالث من النسخ الباقي.

10- كشف معنى كلمة النسخ وبيان قول النفاة.. إلخ.

علاوة على أن بعض المسائل لم يحررها تحريراً جيداً، وكان سيعود إليه وربما أحال عليها ولكن المنية اخترمته قبل إكمالها.

المبحث الرابع: أصول حاكمة في النسخ:

وقد ذكر الإمام الفراهي أصولاً تتعلق بالنسخ منها:¹

الأصل الأول: لا يصار إلى إبطال حكم إذا أمكن التوفيق بين عام وخاص، أو مفصل ومجمل، أو زائد ومزيد عليه. مثلاً نهى الله تعالى عن نكاح المشركات مرة، ونهى عن نكاحها ونكاح الزانيات مرة أخرى. فالأخذ بالنهي الثاني أخذ بما زاد واشتمل على الأول.

الأصل الثاني: يصار من الحسن إلى الأحسن عند التفاوت الثابت عقلاً؛ ولقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [سورة البقرة: 106]. مثلاً أمر الله تعالى بصوم عاشوراء أولاً مجملاً؛ لقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: 183]. ومعلوم أنه صوم عاشوراء؛ فإنه وحده كان فرضاً على اليهود. وقد بينت السنة أن النبي ﷺ وافق اليهود في صوم عاشوراء؛ وذلك في شهر ربيع الأول الذي يطابق الشهر التاسع في حساب اليهود. وقد دلت الآية على أنه في أيام معدودات؛ لما قال فيها: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: 184]. قد أجاز في هذا للمطيقين بالفدية. ثم بين في الآية نفسها أن الصوم خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فلما فرق الله بين اليهود

¹ انظر الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ: 147-148. ضمن المجموعة الثانية من رسائل الفراهي.

والمؤمنين، وأمر بالبراءة منهم، وحول القبلة حول زمان الصوم إلى رمضان. وفي كل ذلك تحول من حسن إلى أحسن منه.

الأصل الثالث: الشريعة تتزايد تمامًا بالتدرج، والتدرج من السهل إلى الصعب أرفق وأسهل. فإن كان خلاف ذلك فلمصلحة وحكمة خاصة، ولا بد من بيان ذلك في الكتاب كما جاء التخفيف في عدد المقاتلين وصلاة الليل.

الأصل الرابع: دلالة في نفس الكلام على تعيين الناسخ والمنسوخ؛ كقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [سورة البقرة: 185].

- 1- أي أمركم بالعدة من أيام آخر؛ لأنه يريد بكم اليسر.
- 2- وأبطل الفدية؛ لأنه يريد أن تكملوا العدة.
- 3- وخص بالصوم المكتوب هذا الشهر؛ لتعظموه على أنه هداكم بالقرآن فلا تذهلوا عن منزلته العظيمة فيكون علامة وتذكيرًا لكم كما قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [سورة البقرة: 185]. أي فرق الحق من الباطل وفرقكم من أمة باءت بسخط الله بما حول قبلتكم وبذل شهر صومكم فصار من العلامات الفارقة الظاهرة.
- 4- وكتب عليكم الصيام لتشكروا به؛ وبذلك هدى إلى حكمة فرض الصوم. فإن الصوم واجب على النعم لا سيما على أكبرها، وهي الهداية والقرآن؛ ولأن في الشكر مزيد النعم، فجمع جہي الإيجاب والتحريض، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [سورة إبراهيم: 7].

المبحث الخامس: القرآن فوق أن تنسخه الروايات الحديثية:

يميل الإمام الفراهي إلى رأي الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل وأغلب المحدثين الذين يمنعون نسخ القرآن بالحديث وإن كان متواترًا، ويراه حقًا واضحًا؛ فقال

رحمه الله: "والذي يهيك هو أن تعلم أن الخبر وإن تواتر لا ينسخ القرآن، وحقه التأويل أو التوقف. ألا ترى أن الإمام الشافعي رحمه الله، وأحمد بن حنبل رحمه الله، وعامة أهل الحديث يمنعون نسخ القرآن بالحديث وإن كان متواتراً وصاحب البيت أدري بما فيه، فمن خالفهم من الفقهاء والمتكلمين لا نقيم لرأيهم وزناً ونعوذ بالله أن ينسخ الرسول كلام الله، ولا بد أن يكون وهم أو خطأ من الرواة. والنظر في دليل الفريقين لا يزيدك إلا اطمئناناً بما هو الحق الواضح".¹

ويبقى الإمام الفراهي على رأي مانعي نسخ القرآن بالسنة؛ ولهم أدلتهم منها أن كل من منعه قال بأن السنة تُبين القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: 44]، ولا يحسن أن يكون المبين ناسخاً للمبين؛ لأنه يوجب عدم البيان.²

علاوة على أن القرآن معجز والسنة غير معجزة، ولا ينسخ غير معجز معجزاً، كما استدلووا على منع نسخ السنة للقرآن بقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّثْلَهَا أَوْ مِثْلَهُ﴾ [سورة البقرة: 106]، والسنة محدثة وليس المحدث كمثل الذي هو غير محدث. فهذا يدل على أنه لا يجوز نسخ شيء من القرآن إلا بقرآن مثله.³

المبحث السادس: موازنة بين مكي بن أبي طالب والفراهي في كتابيهما عن الناسخ والمنسوخ:

لمكي بن أبي طالب كتاب في الناسخ والمنسوخ كما ألمعنا إليه في مطلع هذا الفصل؛ وهو "الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه" ومعرفة أصوله واختلاف الناس فيه، إذ جمع فيه ما تفرق في كتب المتقدمين، صدر في ثلاثة أجزاء، قال فيه القاضي عياض: "وهو كتاب حسن".⁴

¹ تفسير القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: 30.

² في علوم القرآن: عرض ونقد وتحقيق: 192.

³ المصدر نفسه: 192 - 193.

⁴ انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض.

وقال الشيخ أحمد حسن فرحات: "يبدو أنه أفضل ما وصل إلينا مما كتب في الموضوع".¹
كما أن للفراهي كتاب "الراسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ"، وعند الموازنة بينهما
نهتدي إلى الفروق الآتية:²

- 1- إن كتاب مكي جاء جامعاً لمباحث النسخ في القرآن الكريم، وهو يجمع أيضاً ما تفرق في كتب المتقدمين بأحسن ترتيب وأجوده. أما كتاب الفراهي فليس من الجمع والتكميل والشمول في شيء، فهو في الحقيقة رسالة أراد فيها المصنف الإبداع ودقة المبحث إلا أنه سبقته المنية وحالت دون إكمالها.
- 2- قد حفل كتاب مكي بن أبي طالب بالاهتمام بنقل أقوال العلماء المتقدمين وآرائهم ووجهات أنظارهم المتباينة، والمحاكمة بين هذه الآراء في ضوء الأصول العلمية. أما كتاب الفراهي فليس فيه ذكر الآراء وتمحيص الأدلة إلا القليل النادر.
- 3- يشتمل كتاب مكي بن أبي طالب على كثير من المباحث العلمية المتعلقة بموضوع النسخ مما لا نجد ذكره في كتاب الفراهي مثل: شروط الناسخ والمنسوخ، ونسخ السنة بالسنة، ونسخ القرآن بالسنة المتواترة، ونسخ القرآن بالإجماع، ونسخ الإجماع بإجماع بعده.
- 4- مما يفوق به كتاب مكي بن أبي طالب أنه يحيط بجميع الآيات القرآنية التي اشتبه على المفسرين وقوع النسخ فيها، فجاد قلمه ببحث علمي مقنع، مع وضوح الموقف ودقة المسلك والبراعة في الاستدلال. أما كتاب الفراهي فليس من هذه المباحث في شيء.

الفصل التاسع: أصول التأويل كما يراها الفراهي

تمهيد:

المشكلة في أصول التأويل أنّ ثمة من لا يراها حق رعايتها فيقع في انحرافات فاحشة؛ يقول ابن تيمية: "قوم اعتقدوا معاني، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن

¹ مقدمة التحقيق لأحمد حسن فرحات: 11 - 15.

² انظر الإمام الفراهي وجهوده في التفسير: 195 - 196.

عليها".¹ وهو ما ذكره تمامًا ابن قتيبة حين قال: "وَفَسَّرُوا الْقُرْآنَ بِأَعْجَب تَفْسِيرٍ يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم، ويحملوا التأويل على نحلهم".² وهو ما قصده الإمام الشاطبي من تحذيره في الموافقات: "وأهل الوجه الثاني يحكمون أهواءهم على الأدلة حتى تكون الأدلة في أخذهم لها تبعًا".³ وقد قرر أبو المعالي الجويني رفض هذا النوع من التعسف في التأويل الباطل فقال: "إذا حمل حامل آية من كتاب الله أو لفظًا من ألفاظ رسول الله ﷺ على أمثال هذه المحامل - يعني الباطلة - وأزال الظاهر الممكن إجراؤه لمذهب اعتقده، فهذا لا يقبل".⁴

يرى الإمام الفراهي أن أصول التأويل ثلاثة:

- 1- أصول أولية.
 - 2- وأصول مرجحة.
 - 3- وأصول كاذبة اعتمدوا عليها وليست بشيء إنما نذكرها للاجتناب عنها.
- تري فما هي نظرية الإمام الفراهي لأصول التأويل هذه؟ هذا ما يجيب عنه الفصل وفق المباحث الآتية:

المبحث الأول: الأصول الأولية:

فالأصول الأولية هي ما يتمسك به حيث لا احتمال لمعان شتى؛ وهي جملة من الأصول أدرج الإمام الفراهي منها أربعة أصول وهي:

¹ مجموع الفتاوى: 13 / 355.

² تأويل مختلف الحديث: 80.

³ الموافقات: 3 / 291. يقول سيد قطب: "إن هناك قاعدة مأمونة في مواجهة النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة، لا مقررات عامة، ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص، بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لتتلقى منها مقرراتنا، فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية، ومنها نكون قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعًا، فإذا قررت لنا أمرًا فهو المقرر كما قررتة". في ظلال القرآن: 6 / 3979.

⁴ البرهان في أصول الفقه للجويني: 1 / 356، تحقيق عبد العظيم الديب، ط3، 1412هـ، دار الوفاء.

الأصل الأول: التمسك بنظم الكلام وسياقه:

وهذا ليس من المرجحات فإن الكلام لا يحتمل معنى يخالف نظمه ورباط معانيه، فإن خلل النظم منفي عن كلام العقلاء، فما أبعدته عن العقلاء، فما أبعدته عن كلام الله المعجز؟ وهذا أصل ظاهر. ولكن أهل الزيغ سعوا في هدمه ووضعوا الأحاديث ففتنوا بها ضعفاء العقول من صالحى المؤمنين عفا الله عنهم ف"إنما الأعمال بالنيات"¹ ومن أمثلة ذلك تأويل آية التطهير² فإنها لم تنزل، ولا تتعلق إلا بأهيات المؤمنين، ولا دخل فيها لغيرهن، والكلام لا يحتمل تعميمها.³

الأصل الثاني: المعنى الشاذ لا يلتفت إليه:

يقول الفراهي: "وإنما لم نجعله من المرجحات، فإن اللفظ الحسن المصون، ربما يستعمل عوض الظاهر العامي، ولكن اللفظ إذا استعمل، لا بد أن يدل على

¹ وتماحه: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه". أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ برقم (1)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية" وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال برقم (1907) (155).

² ولتوضيح ما ذكره الإمام الفراهي أقول: جاءت آية التطهير هذه في سورة الأحزاب وسط مجموعة من الآيات تتعلق جميعها بنساء رسول الله ﷺ؛ وهن أزواجه أمهات المؤمنين؛ حيث بدأت هذه الآيات من الآية 28 بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَنَّاهُ النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّتْنَاهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَمٌ مِّنْكُمْ وَأَسْرَحْنَ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: 28]، واستمر الكلام حتى قوله تعالى: ﴿يَنبَسَاءُ النَّبِيُّ مَن يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَعِّفْ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: 30].. ثم وصل إلى الآية 31 وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ إِلَهَ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: 31]. إلى أن يصل إلى الآية موضع الاستشهاد ضمن قوله تعالى: ﴿يَنبَسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [سورة الأحزاب: 31] وَلَا تَبْرَحْنَ تَبْرِجَ الْجَنَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: 32-34].

³ انظر التكميل: 262.

مفهومه المعلوم الثابت، فإن أريد به مفهوم ينكره الناس ويدعيه مدّع، ولا سبيل إلى إثباته، فهذا تسمية. والقرآن أنزله الله عربياً مبيناً، فلا شيء يترك الإفصاح؟¹

الأصل الثالث: فهم الكلام بعضه من بعض بالمقابلة وحمل النظر على النظر:

وهذا هو جوهر التأويل ها هنا، وهو باب واسع يهدي إلى كثير من المعاني، وبات أن الكلام إذا لتأويلات مختلفة، فالمصير إلى ما له نظير في القرآن أحوط. فإن ما هو ليس في القرآن ربما يكون رأياً محضاً وضلالة.² وعلى كل حال فهذا يحتاج إلى بيان أمثله وفق الآتي:

- في أواخر سورة الأنفال جاء: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: 74]، وبُعِدَ ذلك جاء: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: 74]، فلم يذكر (في سبيل الله) ولا (بأموالهم وأنفسهم)، ولكن ذلك مفهوم، وقد دل عليه (معكم).
- جاء في أوائل سورة البقرة: ﴿إِنَّا لَنَذَرَنَّهُمْ أَتْلُوهُمْ لَمْ تُذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [سورة البقرة: 6-7]، ففهمنا من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

¹ المصدر نفسه: 262-263. وقد نبه الإمام الفراهي على أمر مهم في المطالب العالية فقال: "وأما المطالب العالية، فليست من هذا الباب فإن الكلام فيها واضح في مفهومه، المطالب العالية إنما هي منطق تحت المفهوم غير مضاد ولا مناقض للمفهوم. ومن أمثلة ذلك تأويل قوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمُ﴾ [سورة التحريم: 4]، فسعى المبطلون في تحويل معنى الصغو إلى الزيف وضعوا لتأويلهم الباطل قراءة باطلة لم تثبت فضلاً أن تكون متواترة"، المصدر نفسه: 263.

² ويقول رحمه الله في بعض إفاداته: "وأما ما كان له نظير في الحديث فلا بد من صحته رواية ودراية. ثم المصير إلى النظر الذي في القرآن أوثق. ومثال ذلك الشذوذ في الحديث فالتأويل إلى معنى شاذ مع إمكان غيره ومع دلالة أصول آخر، بعيد عن الصواب" التكميل: 264.

من كفر بالله وصفاته من العدل، ولذلك كفر بالجزاء. وفهمنا من ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أنهم لا يصيرون مؤمنين ومهتدين بهذا الكتاب. وذلك مما سبق من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَلْكَتَبُ لَا رَبِّبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿[سورة البقرة: 2-3]، أي يؤمنون قبل يوم الشهود، فالذين كفروا هم ضد هؤلاء. قد ذكر عيون صفات المؤمنين فيما سبق، حتى قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة البقرة: 5]، ثم ذكر الذين هم مخالفون لهؤلاء. يقول الفراهي معلقاً: "وإنما دعانا إلى هذا التأويل أن المبتدأ والخبر لا بد من الفرق بينهما. ثم وجدنا في السياق ما يكشف عن المفهوم. ثم التمسنا نظائر هذه الآية فوجدناها موافقة لما فهمنا، وذلك أوائل سورة يس".¹

الأصل الرابع: مراعاة المخاطب:

"لا بد من النظر في المخاطب؛ ومن ههنا يتبين وجه الكلام ولهجته من التسلية، والرافة، والزجر، والغضب، والوعد، والوعيد، والاستدلال، والوسعة، والغور".²

المبحث الثاني: الأصول المراجعة:

والأصول المراجعة هي ما يتمسك بها إذا احتمل الكلام معاني مختلفة. فإذا أعملنا الأصول المراجعة أخذنا ما هو الراجح وتركنا المرجوح. ورصد الفراهي جملة من هذه الأصول الحاكمة والتي ينبغي أن تكون مرعية في مسألة التأويل؛ وهي:

الأصل الأول: عند اختلاف الوجوه والاعتبار يؤخذ ما كان أوفق بالمقام وعمود الكلام:

ما من كلمة إلا لها أطراف وجهات فهي كالمعاني لها. وكذلك كل أمر وقصة لها اعتبارات شتى. وكما أن اللفظ المشترك يؤول حسب محله، فكذلك لا بد أن

¹ المصدر نفسه: 264.

² المصدر نفسه: 267.

نوول الألفاظ والأمور حسب محلها. مثلاً صفة الأحدية الكاملة مختصة بالله تعالى، ومع ذلك نرى ذكره تعالى بأسماء مختلفة وعلى ترتيب متغاير. مثل: ﴿قُلْ أَغُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝﴾ [سورة الناس: 1- 3]، ومثل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝﴾ [الفاتحة: 1- 3]، ومثل: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ، الْعَزِيزِ، الْحَكِيمِ﴾ ومثل: ﴿الْعَزِيزِ، الْغَفُورِ﴾ ومثل: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾ [سورة الحشر: 23]، فمن لا يتدبر القرآن لا يلتفت إلى محل الكلمات، ولا يجتهد لفهم جهة الكلمة. ولكن البصير المستبصر لا يمكنه ترك التدبر لما يظهر له بعض الجهات الظاهرة فتجلبه إلى ما وراءها".¹

والحاصل أن الإشارات والاعتبارات للشيء تلتبس من المحل مثل ما يفعلون بالمشارك، فكان الأصل الأول أن النظم يقضى عند الاحتمالات؛ لذلك لا يلزم حمل اللفظ على معنى واحد إذا كان غير مشترك، لأن في اللفظ حقيقة ومجازاً، وعموماً وخصوصاً، وجهات لمعناه مختلفة، وينبغي أن يستعمل في كل ذلك حسب مقتضى الكلام.

الأصل الثاني: إذا كان الكلام ذا احتمالات، تؤخذ منها ما كان لها نظير في باقي القرآن فما لم يوافق قرآن غير ما فيه النزاع يترك:

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۚ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝﴾ [سورة الأنفال: 24]، فيه تأويلان:

¹ المصدر نفسه: 267- 268. فإن صح لديك هذا الأصل يسهل لك التدبر في ترتيب أسماء الرسل والأنبياء، فمع أن درجاتهم مختلفة، ترى ذكر أسمائهم على أنواع من الترتيب. فإن تدبرت في محلها وقفت على إشارات غامضة ولم يلبس عليك موقعها. وكذلك ترى الإشارات الخاصة في ترتيب القصص والأحكام. المصدر نفسه: 268.

الأول: إنه تعالى أعلم بضمائركم منكم.

والثاني: إنه يعوق المرء عن أرادته.

فالأول له نظير في القرآن ثم يعضده النظم. فإن النظم أيضًا يأول إلى ما كان أشبه بالقرآن. فقلوه: ﴿تُحْشَرُونَ﴾ يأتي مع التقوى، والتقوى يأتي مع علم الله، وهذا كثير. فكأنه قيل: اتقوا الله فإنه أعلم بسرائركم وأنكم تحشرون إليه. فهذا من جهة تشابه المعنى والنظم.

وأما التأويل الثاني فبناؤه على تشابه لفظي فإنه جاء في القرآن: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سورة سبأ: 54]، أي منعوا عن مشتهاهم.

فإن اللفظ المشترك يأتي لمعانٍ مختلفة ولا يقضى فيه إلا بالسياق وصحة المعنى. مثلًا كلمة "أمة" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل: 120] لا تؤول إلى معنى أريد به في مواضع آخر، فإنه لا يلتئم بالسياق ولا صحة المعنى. والمعنى المراد ههنا لا نظير له من جهة اللفظ. فإن الأمة في باقي القرآن؟ إما لمدة من الزمان، أو لطائفة من الناس، أو للطريق. ولكن إذا تمسكنا بالأصل الأول والثاني اتضح معناه؟

أما الأصل الأول، فإن كلمة "قانتًا" بعدها تفسيرها. فإن الأمة هو الطائع بتمامه وهو أوفق بالقانت.

وأما الأصل الثاني، فلوجود نظائره لما جاء في صفاته من الطاعة الكاملة. ولكن بقي علينا بيان أن الأمة هو الطائع. فإن الجمهور من أهل اللغة قد خفي عليهم هذا المعنى ولكنهم قد قاربوه.¹

¹ التكميل: 269.

الأصل الثالث: إذا كان المعنى مقتضياً لعبارة غير ما في الكلام، فذلك المعنى مرجوح؛ واستدلت عائشة - رضي الله عنها - بهذا الأصل، والإمام الشافعي رحمه الله في بيان معنى التغني بالقرآن.

الأصل الرابع: الأخذ بأحسن الوجوه:

ويشرح الفراهي هذا الأصل فيقول: "المراد بأحسن الوجوه ما كان أولى بمعالي الأمور، ومكارم الأخلاق، وأوضح إلى القلوب، وأوفق بمحكمات القرآن، وأحسن ظناً بالله ورسوله، وأظهر بياناً من جهة العربية".¹

الأصل الخامس: الأخذ بأثبت الوجوه لغة:

وبعبارة أخرى: الشاذ المنكر لفظاً يترك.

وذلك حسب الإمام الفراهي بمثل الأخذ بأحسن الوجوه، يكون الأخذ بأثبتها في اللغة. فإن المعنى الذي كثر في كلام العرب لا ينبغي تركه إلا لصارف قوي. فإذا تساوى الوجوه الآخر؛ وهو النظم، والموافقة بباقي القرآن، وصريح العقائد، لا بد أن نأخذ المعنى الشائع ومثاله معنى "الشوى"، فإنه لحم الساق عموماً في كلام العرب.² وقد فنّد أقوالاً جاءت على خلاف هذا الأصل منها:

- وقد أخطأ العلامة عبد القادر الدهلوي في ترجمة قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ [سورة المعارج: 16]، فظن أنه الكبد. والموقع ذكر دنو العذاب، لا دخول المنكرين في النار. فإن سياق الكلام هكذا: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ

¹ المصدر نفسه: 270.

² المصدر نفسه: 272.

بَعِيدًا ﴿١﴾ وَنَزَلَهُ قَرِيبًا ﴿٢﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٣﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٤﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿٥﴾ يُبْصَرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿٦﴾ وَصَلْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿٧﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُسْوِيهِ ﴿٨﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿٩﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى ﴿١٠﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴿١١﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٢﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٣﴾ [سورة المعارج: 1-18]. فهذا بيان الموقف يوم أزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين فليس لهم حميم. فحينئذ تدعو الجحيم الكفار وتخرج لظاها فتذهب بلحم سوقهم. وأما أنها تخرج أكبادهم فليس هذا مما جاء في شيء من القرآن حتى إنهم حين يدخلونها لا تخرج أكبادهم ولا قلوبهم. وكذلك أخطاء من أخذها بمعنى جلد الرأس.¹

- ومن أمثله ﴿وَأَنْحَرْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [سورة الكوثر: 2]، فقالوا: أمر بوضع اليد على النحر، وأيضًا قالوا: أمر برفع اليدين. وكل ذلك هوس. ومناسبة ذلك بالصلاة لا يغرن أحدا، فإن الأمر بالأضحية أحسن مناسبة وأوسع.²
- إن اختيار أحسن الوجوه لا بد أن يكون موافقًا للغة وباقي القرآن. ولا يكون من التكلف. مثلاً قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران: 164]، قيل فيه إن ﴿أَنفُسِهِمْ﴾ بفتح

¹ المصدر نفسه: 272-273. فإن معي "الشوى" للحم الساق عام شائع. ولجلد الرأس جاءت الشوأة في قليل من الكلام مع احتمال معنى آخر. ثم لم يذكر في القرآن ولا في الحديث معي النار في الموقف من فوق حتى إذا دنا وأطل عليهم، نزع جلدة رؤوسهم. فلو تساوى المعنيان للشوى، لكان الأخذ بما هو أوفق بالنظم وباقي القرآن أخرى، فكيف والمعنى غير معروف وغير معتمد عليه؟ المصدر نفسه: 273.

² المصدر نفسه: 273.

- الفاء، وهذا تأويل باطل؛ لكونه معنى شاذًا؛ لأن كتب الله ناطقة بكون الرسول ﷺ من قومه، وهو أمر ظاهر، ولا عيب في كون النبي ﷺ من قومه وهو منهم.¹
- قال ثعلب في قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: 92] أي بدرعك؛ وذلك أنهم شكوا في غرقه، فأمر الله ﷻ البحر أن يذفه على دكة في البحر ببدره أي بدرعه فاستيقنوا حينئذ أنه غرق.
 - وقال الأخفش: وقول من قال بدرعك فليس بشيء. وهذا ظاهر؛ لأن البدن لا يتبادر الذهن إلى فهم الدرع منه، إلا بقرينة، ولا قرينة هناك. ثم الرجل يعرف بجسمه وشكله لا بدرعه. ثم قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [سورة يونس: 92].
- المبحث الثالث: أصول كاذبة اعتمدها الناس وليست بشيء:

السنة تستنيط من الكتاب ولا عكس!

وإنما ذكر المصنف هذه الأصول وسمّاها كاذبة؛ من أجل التحذير منها والاحتياط عنها، وهو يأول القرآن إلى الحديث وهذا أمر غريب! والأصل أن الحديث لم يزد شيئًا على القرآن إلا إذا كان في آية أمر غامض يكاد يخفى على من لا يتدبر.²

¹ المصدر نفسه: 274، وقد رد ذلك بقوة فزاد الأمر بيانًا وحجة فقال: "ثم ليس ذلك من كلام العرب، هم يقولون: "هو من خيارهم وعليائهم وغير ذلك"، ولا يقولون من (أنفسهم) بفتح الفاء. ثم المنة تكون أكبر إذا بعثه منهم. ثم في دعاء إبراهيم ﷺ هو أن يبعثه الله منهم. الذين قالوا بذلك التأويل الباطل إنما أرادوا به سندًا لتأويلهم في آية المباهلة حين أنكروا بها حقًا وأثبتوا باطلًا. انظر المصدر نفسه: 274.

² مثلًا في آية الميراث ترى وصيتين: وصية من الله وسمّاها فريضة من الله، وقال فيها: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنثَىٰ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ أُمَّتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُّ مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء: 11]، ووصية أخرى من الميت وجعل التقدم لوصية الميت.

وقد علمنا أن الله أعلم وأحكم ووصيته أقدم، فلا بد أن تكون هذه وصية الميت لغير وارثيه من الخيرات. ثم ترى النبي ﷺ صرح بذلك فقال: "ألا لا وصية لوارث". ويفهم من ههنا أن

وتعجب في كتاب "إحكام الأصول بأحكام الرسول ﷺ" مما ذهب إليه الإمام الشافعي ومن قفا أثره من المفسرين من أن المراد بالكتاب هو القرآن وبالحكمة السنة،¹ فقال: "وهذا ليس كذلك إلا على تأويل خاص. فإنه رحمه الله بين ما أراد، ولم يخصص الحكمة بالسنة إلا من وجه واحد. وفصلنا مذهبه في كتاب الحكمة.² مع أن القرآن والسنة كليهما ملآن من الحكمة. وسيطمئن قلبك بما قلنا إن شاء الله تعالى حين ترجع إلى تفسير كلمة الحكمة".³

يرى الإمام الفراهي أن هذا يؤيد ما فهمت من القرآن ولكن ههنا مزلة وخطر، وذلك أنك قبل أن تفهم القرآن، تنهافت على الحديث وفيه صحيح وسقيم فيعلق بقلبك من الآراء ما ليس له في القرآن أصل وربما يخالف هدى القرآن. فتأخذ في تأويل القرآن إلى الحديث ويلبس عليك الحق بالباطل.

فالسبيل السوي أن تتعلم الهدى من القرآن، وتبني عليه دينك، ثم بعد ذلك تنظر في الأحاديث، فإن وجدت ما كان شاردًا عن القرآن حسب بادي النظر، أولته إلى

الحكم إذا ناقضه حكم آخر. خص بعضها بعضًا حتى يرفع المناقضة. وإن حكم الله لا يرفع بما أذن للناس. انظر التكميل: 275.

¹ انظر كتاب الأم للشافعي: 274/7.

² يشير إلى كتابه: "حكمة القرآن".

³ انظر إحكام الأصول بأحكام الرسول ﷺ: 110، المجموعة الثانية من رسائل الإمام الفراهي. وقد وجد الإمام الفراهي تخريجًا لكلام الشافعي فقال: "وقد أراني الله تعالى وله الحمد طريقًا لطيفًا لفهم الكتاب والسنة؛ وبذلك فتح على عبده بابًا عظيمًا للتوفيق بينهما حتى لم يبق من الأحكام ما يفرض فيه الزيادة الشبيهة بالنسخ أو النسخ الصريح. فانقضت الغمة التي تخاصموا تحتها، وبدت عين صافية نضاجة من كتاب الله يجري ماؤها في جداول السنة إلى زرع مباركة من النور والحكمة. وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلًا واضحًا لهذه البركات الروحانية وكأنه ﷺ فسّر به قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة البقرة: 269]، وفي ذكره ها هنا أيضًا تمثيل لما هو المقصود من هذه الأبواب؛ وهو تطبيق السنة بالكتاب والله الهادي إلى سبيل الصواب"، إحكام الأصول: 115 - 116.

كلام الله، فإن تطابقا فقرت عيناك. وإن أعياك، فتوقف في أمر الحديث واعمل بالقرآن. وقد أمرنا أولاً بطاعة الله ثم بطاعة رسوله، ولا شك أن الأمرين واحد. فإن لم يرد الله أن نقدم كلامه على ما روي عن الرسول فماذا أراد بهذا الحكم؟¹ ذكر الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ [سورة البقرة: 114] ثلاثة أقوال:

الأول: أن الظالم قوم نصارى والمسجد بيت المقدس، وروي هذا عن ابن عباس رضي الله عنه.

والثاني: أن الظالم بخت نصر ومن أعانه من النصارى، وقال أولئك أعداء الله النصارى حملهم بعض اليهود على أن أعانوا بخت نصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس، وروي هذا القول عن قتادة والسدي.

والثالث: قول ابن زيد: قال هؤلاء المشركون حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة.

ثم بعد نقل هذه الأقوال بين ما هو أولى فقال:

"وأولى التأويلات التي ذكرتها بتأويل الآية، قول من قال عنى الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [سورة البقرة: 114] النصارى؛ وذلك لأنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس، وأعانوا "بخت نصر" على ذلك، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف "بخت نصر" عنهم إلى بلاده، والدليل على صحة ما قلنا في ذلك قيام الحجة بأن لا قول في معنى هذه الآية إلا أحد الأقوال الثلاثة التي ذكرناها، وأن لا مسجد عنى الله ﷻ بقوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ [سورة البقرة: 114] إلا أحد المسجدين: إما مسجد بيت

¹ انظر التكميل: 275 - 276.

المقدس وإما المسجد الحرام، وإذ كان ذلك كذلك، وكان معلومًا أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإنما كان قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله ﷺ وأصحابه من الصلاة فيه، صح وثبت أن الذين وصفهم الله ﷻ بالسعي في خراب مساجده غير الذين وصفهم الله بعمارتهما إذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية، وبعمارته كان افتخارهم، وإن كان بعض أفعالهم فيه كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم.

وأخرى أن الآية التي قبل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [سورة البقرة: 114]، مضت بالخبر عن اليهود ودم أفعالهم، والتي بعدها نهت بدم النصارى، والخبر عن افتراءهم على ربهم، ولم يجر لقريش ولا لمشركي العرب ذكر، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجه الخبر بقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ [سورة البقرة: 114]، إليهم وإلى المسجد الحرام، وإذ كان ذلك كذلك فالذي هو أولى بالآية أن يوجه تأويلها إليه هو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها إذ كان خبرها لخبرهما نظيرًا وشكلاً.¹

الفصل العاشر: نظام القرآن

تمهيد:

لقد تميز الإمام الفراهي بتفسيره الذي سماه "نظام القرآن" متصورًا أن القرآن الكريم يسير على نظام رائع يتجلى فيه بيانه وإعجازه! على المتدبرين أن يكتشفوا إعجازه في نظمه ونظامه؛ فما المراد بالنظام؟ وما هي إشكالاته المطروحة؟ وهل قال به أحد قبله؟ هذا ما نتناوله خلال هذا الفصل وعبر المباحث الآتية:

¹ انظر المصدر نفسه: 276 - 278.

المبحث الأول: تعريف النظام:

النظم: التأليف وضم شيء إلى شيء آخر، ونظم اللؤلؤ ينظمه نظامًا ونظامًا، ونظمه: ألفه وجمعه في سلك، فانتظم وتنظم، والنظام: كل خيط يُنظم به لؤلؤ ونحوه جمع نظم.¹ ومنه قول لبيد:

وتضيء في وجه الظلام منيرة كجمانة البحري سلّ نظامها²
وقالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

أما لعينيك لا تهجع تُبْغَى³ لو أن البكا ينفع
كأن جمانا⁴ هوى مرسلا دموعهما أو هما أسرع
تحدر⁵ وانبت⁶ منه النظام فانسلّ من سلكه أجمع⁷

والنظام في علوم القرآن هو ارتباط أي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون الكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني.⁸

يقول الإمام الفراهي: "مرادنا بالنظام أن تكون السورة وحدة متكاملة، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة أو بالتي قبلها أو بعدها على بُعدٍ ما كما قدّمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أن الآيات ربما تكون كالجمل

¹ انظر مادة (نظم) في القاموس المحيط، للفيروز آبادي، ولسان العرب، لابن منظور.

² انظر ديوان لبيد بن ربيعة العامري: 1/ 112.

³ من بَكَى الميت: إذا بكاه ورثاه.

⁴ الجمان: اللؤلؤ.

⁵ تحدر: نزل.

⁶ انبت: انقطع.

⁷ ديوان الخنساء: 92.

⁸ انظر البرهان في علوم القرآن: 1/ 36.

المعتضة، فكذا السور قد تكون كالجمال المعتضة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر. وإذا ظهر النظام في القرآن، فلا بد أن تظهر لكل سورة صورة مشخصة، فإن معاني الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد، وكان الكلام ذا وحدانية فحينئذ لا يكون إلا وله صورة مشخصة. فإذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضوح".¹

المبحث الثاني: مزايا النظام بإجمال:

يقول محمد عناية الله سبحانه: "الذي يؤمن بنظام الآيات، ويؤمن برباط المعاني في كتاب الله، ويعنى به عناية بالغة جادة خلال دراسته للقرآن يملأ يديه بنزاي كثيرة متنوعة لا يجد عرفها ولا يشم ريحها من يرغب عن هذه الفكرة ولا يرفع بها رأساً"² ومن تلك المزايا التي ذكرها ما يأتي:³

- 1- أن النظام يرشد إلى فحوى الكلام ومقاصد الآيات، ويحل الإشكالات والمعاملات.
- 2- أنه مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه، كما أنه سر من أسرار إعجازه، ويفتح العيون على وجوه بلاغته.
- 3- وأنه يوضح المعاني التي يفيدها تكرار بعض الآيات، ويتحير في فهمها، ويضعها في غير موضعها.
- 4- وأنه المحك الناجح لنقد الروايات التفسيرية فيها تتميز الضعاف من الصحاح ويتميز السقيم من السليم.

¹ دلائل النظام: 75 (مع تصرف يسير).

² إمعان النظر في نظام الآي والسور: 105.

³ انظر إمعان النظر لسبحاني: 105 - 106 مع شيء من التصرف.

5- وأنه طريق الدارس إلى ذروة الشوق والمحبة واللذة التي لا يصل إليها من لا يهتم بنظامها، فإن هذه المشاعر والأحاسيس تزداد بزيادة المعرفة بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان.

المبحث الثالث: كيف بدأت رحلة الفراهي مع النظام؟

لقد عُني الإمام الفراهي بالنظام وذكر كيف هداه الله إليه فقال رحمه الله: "وقد يسّر لي بمحض نعمته فهم نظم القرآن في سورة البقرة، وسورة القصص من نفس القرآن، وإني كنت مولعًا بتلاوته وهو أحب الكتب وألذها عندي - ولله الحمد - وقد كنت أسمع أن القرآن الكريم أشدّ الكتب نظمًا، لنزوله نجمًا، ولكن بعدما ظهر لي النظام في سورتين، حثني على التدبر في باقهما، وكنت في حدث السن وعز الفرصة، فمضت بضعة عشرة سنة حتى وفقني الله تعالى أن ابتدأت من أول القرآن، ويسّر لي الإتمام في سنة كاملة، وهممت أن أبرزه للناس فردعني عظم الذمة وروعني كبر المغبة، فمكثت أراجع فيه النظر مرة بعد مرة أمداً طويلاً مستعيداً بالله من ظلمات النفس وغوايات الجهل، ومع ذلك وددت لو طويته على غره وسكت عن حلوه ومره، ونجوت من إثمه وبره، ولكن اضطرني إليه أمور".¹

المبحث الرابع: أسباب اهتمام الفراهي بالنظام:

لقد بيّن الإمام الفراهي خمسة أسباب مهمة لاهتمامه بالنظام واعتماده في تأويل كتاب الله تعالى نوجزها فيما يأتي:

1- أن النظام سبب لاجتماع الكلمة، وطريق للاعتصام بحبل الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران: 103]. وذلك بطريق التأويلات التي شتت الناس فرقاً وأحزاً، فبالنظام يتبين سمت الكلام، فينفي عن آيات الله أهواء المبتدعين، وانتحال المبطلين، وزيف المحرفين الذين

¹ فاتحة نظام القرآن: 17.

﴿يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [سورة النساء: 46]، والذين يقلعون كلام الله عما

بين يديه ومن خلفه ويضمون إليه ما يعجب هوى نفوسهم.

2- أن في توضيح هذا العلم ردًا على الملحدّين الذين طعنوا في القرآن من جهة

سوء النظم، ومنافحة عن كتاب العزيز ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ

يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝﴾ [سورة الكهف: 5]، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۝﴾ [سورة النساء: 141].

3- أنه لا يخفى أن نظم الكلام بعض منه، فإن تركته ذهب بعض معناه، فإن

للتركيب معنى زائدًا على أجزاء الأشتات، فلا شك أن من حرم فهم النظام

فقد حرم حظًا وافرًا من معاني الكلام التي لا تظهر إلا بتأمله وتدبره.

4- أن الأحكام تتضح بالنظام ويعلم ناسخها من منسوخها، فقد تنزل الآية

بحكم ثم بعد فترة ينزل الله ما يخفف ذلك الحكم، وتكون الآية التي تحمل

حكم التخفيف موضوعة بجانب الآية التي تحمل الحكم الأول، وذلك

واضح في مواضع معلومة في كتاب الله تعالى.

5- أن من تجلت له - بفضل الله وحده - سواطع البرهان في نظام القرآن، علم

فضل الله عليه، فازداد على علمه إيقانًا، وعلى فهمه اطمئنانًا، وحدث

بنعمة الله عليه، وهكذا قد فعل من رزق من ذلك شيئًا من سلفنا الصالح،

إذ كيف يشك فيه من وجد مس برده، وشم ريح ورده، وتمتع بنسيم عرار¹

نجده، ولكن من لم يذق فإن ارتاب فيه فلا تثريب عليه.²

المبحث الخامس: النظام هو السبيل الوحيد لفهم القرآن:

يرى الإمام الفراهي أن فهم القرآن الكريم على جدارة واستحقاق يتوقف على

معرفة النظام؛ فأضحي العلم به من قبيل العلوم الضرورية، وما لا يتم الواجب

¹ العرار: بهار البرّ؛ وهو نبت طيب الريح.

² انظر فاتحة النظام: 17 - 21.

إلا به فهو واجب؛ يقول رحمه الله: "إن معرفة النظام من الضروريات لعلماء الأمة، حتى يعلموا الناس حسب ما فهموا، فإنهم إن لم يفهموه واختلفوا فيه كيف يرشدون الناس؟ بل يشتد ضرر قيادتهم لأنفسهم ولجميع المسلمين. وقد رأينا ذلك في أهل الكتاب فإنهم زاغوا عنه مع دعواهم بأنهم حافظوا عليه فكانوا كما قال الله تعالى فيهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [سورة الصف: 5]، وكما قال المسيح عليه السلام في علماء اليهود: "العميان قادة العميان"، وقد نرى أنهم أقروا بذلك واشتغلوا بالعلوم التي هي وسائل إلى فهمه وأكثروا في تفسير الكتاب، ولم يتركوا من هذه العلوم ما ظنوه نافعا لهذا المطلب الأسنى. ومع ذلك تراهم مختلفين غاية الاختلاف، تكثر بهم الآراء... فإن فهم الكلام لا يمكن بدون معرفة النظام. وإنه لهو السبيل الوحيد إلى فهمه".¹

المبحث السادس: النظام هو الإقليد لصحيح التأويل:

إن النظام هو الإقليد لصحيح التأويل، والحكم الفاصل بين التأويلات المتباينة، فلا ينبغي أن ترتضي فيه الهوينا. فإن كلام الرب تعالى لا يكون واهن النظم كما أنه لا يكون خلوا عنه، بل كما قال الإمام الرازي رحمه الله: "إن أكثر لطائف القرآن في حسن نظمه".²

وأعطي أنموذجا في منهجية التفسير لديه انطلاقاً من تفسيره سورة الفيل فذكر فيها خمسة عشر مطلباً وهي على الترتيب الآتي:

- 1- في تفسير كلمات السورة.
- 2- في تعيين المخاطب بهذه السورة.
- 3- عمود السورة وربطها بالتي قبلها والتي بعدها.
- 4- بيان فضل الله بهذا البيت وأهله على سائر المعابد وذويه.

¹ دلائل النظام: 10.

² انظر المصدر نفسه: 92.

- 5- أمور مهمة مما يتعلق بتقديس المسجد وحفظه.
 - 6- إجمال القصة حسبما نص عليه القرآن.
 - 7- النظرة الأولى وهي فيما زعموا من سبب مجيء أبرهة وفرار أهل مكة وما جرى بينه وبين عبد المطلب.
 - 8- النظرة الثانية وهي في رمي أصحاب الفيل بالحجارة وكونها من الآيات العظام.
 - 9- النظرة الثالثة وهي فيما كان من الطير التي أرسلت على أصحاب الفيل.
 - 10- الاستدلال بكلام العرب على أن الرمي كان من السماء والريح.
 - 11- في أكل الطير أصحاب الفيل تصديق لبشارة عظيمة في نبينا محمد ﷺ.
 - 12- أسباب صارفة عن التأويل الراجح.
 - 13- بيان معنى الرمي بالحجارة وتمهيد للنظر في أصل رمي الجمار بمنى.
 - 14- أصل سنة رمي الجمار.
 - 15- أثر هذا التأويل في القلوب عند عمل رمي الجمار.
- المبحث السابع: الغفلة عما يهدي إليه النظام حرمان من لطائف القرآن:
- تحدث الإمام الفراهي على أن النظام له دلالة خاصة: تمامًا كما استدل أبو بكر الصديق ؓ على قتال من أبوا إيتاء الزكاة بأنه قال ﷺ علمنا أن الذين لا يصلون ليسوا منا ونقاتلهم والله تعالى قرن الزكاة بالصلاة كثيرًا فعلمنا محلها في الدين من محلها في كتاب الله ذكرًا.
- ثم أكد رحمه الله على أن الغفلة عن كل ما يهدي إليه النظام يحرمان من أحكامه وحكمه بل ولطائفه العجيبة فقال: "فإن غفلنا عما يهدي إليه النظام غفلنا عن حظ وافر من كتاب الله. وجعل حقيقة الربا خلاف حقيقة الزكاة وأذان بحرب أكل الربا فكذلك مانع الزكاة".¹ وذلك لأن "أكثر لطائف القرآن في حسن نظمه".² كما ألمعنا إليه آنفًا.

¹ تفسير نظام القرآن: 59.

² انظر دلائل النظام: 92.

المبحث الثامن: حل مشكلات النظام:

وأقدم سورة الفاتحة أنموذجاً على سبيل المثال لا الحصر:

فقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعطيك حالة الشكر، و﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ يعطيك حسن الظن بالله علماً وحالاً، و﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يعطيك حال التوكل والطمأنينة إلى ربك.

ثم انظر في حسن النظم: أول المعرفة هو العلم بالنعم، وأول الفرائض الشكر، ومن هنا ينشأ العلم بكون الخالق رحماً ورحيماً، وتكرار الرحمة نبّه على رحمة تكون على الشاكرين، فنّبّه الجزاء وحث على الدعاء، وغاية التضرع، التفويض والتوكل، ولكن ما أحسن التوكل بعد حسن الظن ولحسن رباط هذه الآيات وجوه آخر¹.

المبحث التاسع: المناسبة جزء من النظام:

بادئ ذي بدء فما المناسبة لغة واصطلاحاً؛ قال الإمام الزركشي:

المناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يناسب فلاناً، أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسب، الذي هو القريب المتصل، كالأخوين وابن العم ونحوه. وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما، وهو القرابة. ومنه المناسبة في العلة في باب القياس: الوصف المقارب للحكم؛ لأنه إذا حصلت مقاربتة له ظنّ عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم؛ ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول. وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها، ومرجعها - والله أعلم - إلى معنى ما رابط بينهما: عام أو خاص، عقلي أو حسي، أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات. أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين، ونحوه أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخير.

¹ المصدر نفسه: 118.

وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله البناء المحكم، المتلائم الأجزاء".¹

لقد كان الإمام الفراهي آية في العلم؛ بحيث كان ديدنه عدم تكرار الموجود، وإنما تشغله الإضافة والابتكار، في عامة كتبه ومؤلفاته حتى اهتدى إلى نظام القرآن، وأخذ يؤلف فيه وقد وافته المنية دون استكمال بقية مشاريعه، حيث مات وتركها مفتوحة وهي كثيرة وعريضة، وقد اعتمد أسلوب النظام في تفسيره وهو الوحدة الموضوعية، وكل سورة لها عمود كما ألمعنا إليه آنفًا يسميه عمود السورة تدور عليه بأجزائها المترابطة فيما بينها ترابطاً معنوياً محكماً، ويرى فضيلته أن المناسبة غير النظام؛ ذلك لأن التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئاً واحداً مستقلاً بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما، فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام، فيصير شيئاً واحداً، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها، فإن الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها، فإن عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيراً، ومنها ما ترى فيه اقتضاباً بيئاً، وذلك إذا كانت الآية أو جملة من الآيات متصلة بالتي على بعد منها وهذا ما صرح به الإمام الفراهي بقوله: "وبالجملة فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كلاماً واحداً، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعد منها، فكما أن الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السورة تكون معترضة وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر".²

ولا بأس عنده من تعدد النظام كتعدد وجوه الحكمة في الأمر الواحد، ولا بد لحسن النظام أن يكون الكلام حسن الترتيب، حسن التناسب، قوي الوحدانية،

¹ البرهان في علوم القرآن: 1/ 35-36.

² انظر دلائل النظام للفراهي: 87. من رسائل الفراهي، المجموعة الأولى.

والنظام على كل حال لدى الفراهي ليس أمرًا مقصودًا لذاته بل هو المنهاج الصحيح لتدبر القرآن، وهو الحكم عند تضارب الأقوال والمرجح عند تعدد الاحتمالات، وهو الإقليد الذي تفتح به كنوز حكمة القرآن. والحق أن الإمام الفراهي يفسر القرآن بالقرآن ويعتبره الأصل الأصيل دون استعانة بمناهج الكلام والفلسفة والمنطق، وقد كان عاشقًا للقرآن ولغة القرآن العربية فبرز فيها على غيرهم حتى من العرب.

المبحث العاشر: هل التأويل يراعي الزمن في النزول؟

إن ترتيب السور والآيات لم يكن على ترتيب نزولها، بل كانت تجري على وفق الأسباب المعلومة، ويأمر النبي ﷺ بوضعها في مواضعها المناسبة، كل ذلك رعاية لنظم القرآن وحسن السياق؛ قال الإمام الزركشي: "الزمان إنما يشترط في سبب النزول، ولا يشترط في المناسبة؛ لأن المقصود منها وضع آية في موضع يناسبها".¹ من هنا نجد الإمام الفراهي يتأمل النظم القرآني في تناسب أجزائه كما هي مرتبة في القرآن الكريم فقال رحمه الله: "فلم يراع زمان النزول، بل نظام القول ثم ربما نبّه أن هذا بيان بعض الآيات، فإنك ترى بعد أكثر آيات ألحقت بأخواتها للبيان".² ويقول في ديباجة نظام القرآن: "ثم مع ما علمنا من القرآن بالتدبر في آياته نرى فيما روي عن الأصحاب أن النبي ﷺ كان يأمر بوضع الآيات في مواقعها، وكان جبريل عليه السلام يقرأ عليه السورة بعد تمامها، فهذا هو الجمع والقرآن والأمر باتباع. ثم نرى أن الأمة بنعمة الله لم تختلف في ترتيب الآيات، وليس في أيدي جميع فرق المسلمين إلا القرآن بهذا الترتيب والله يفعل ما يشاء وهو فعال لما يريد".³

¹ البرهان في علوم القرآن للزركشي: 26/1.

² نظام القرآن: 27.

³ تفسير نظام القرآن: 20.

المبحث الحادي عشر: الفرق بين النظام والتفسير الموضوعي:

إن التفسير الموضوعي علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر؛ إذ يلتقي مع علم المناسبات فيما يتعلق بدراسة السورة موضوعياً؛ "وذلك لأننا نلاحظ أن الآية أو مجموعة الآيات تنزل في أسباب مختلفة وحوادث متفرقة ثم توضع في سورة واحدة، وقد تكون بين الآيات التي وضعت في موضع ما من السورة والآيات التي وضعت عقبها فترة زمنية لا تتعدى الأيام، وقد تكون فترة طويلة تتجاوز عدة سنوات.. ولكننا عندما نقرأها نجد أن وحدة الموضوع يجمعها، ومرمى الهدف والغاية من سياقها جميعها شيء واحد".¹

المبحث الثاني عشر: كيف تلتمس طرق النظام؟

يقول الشيخ أحمد حسن فرحات: "ويبدو أن الطريقة التي كانوا يلجأون إليها - في غالب الأحيان - هي طريقة التحليل، حيث كانوا لا يتجاوزون الآيتين المتجاورتين، وبالتالي ينحصر البحث في معنى الآيتين ولا يجاوزهما إلى معان أخرى تفهم من مجموع الآيات في السورة الواحدة، ولو أنهم بعد أن سلكوا هذا الطريق التحليلي، عادوا فنظروا إليه نظرة محلية تركيبية؛ لأمكنهم أن يربطوا بين الآيات كلها ربطاً محكماً، لا شبهة فيه، ولا تكلف.

ومن هنا فالطريق الصحيحة لإدراك المناسبة لا بد فيها أن يستخدم أولاً منطق التحليل، حيث يضع الفرضيات الأولى للمناسبة بين الآيات، ثم يأتي بعد ذلك منطق التركيب الذي يحاول استكشاف الوحدة الكلية الموضوعية التي يقوم عليها بناء السورة فإذا ما أدرك ذلك أمكن تصحيح التكلف والتعسف الذي ينشأ من منطق التحليل، بذلك تبدو المناسبة قوية محكمة لا تحتاج إلى تكلف ولا تعسف".²

¹ مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم: 57.

² انظر آراء العلماء في المناسبات، أ. د. أحمد حسن فرحات، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد الرابع، 1972 م.

وعليه فيمكن حصر الطرق الآتية في التماس نظام الآيات:¹

- 1- البحث أولاً عن التأويل الصحيح أو الجملة من الآيات باتباع معايير دقيقة لا تخطئ في بيانه والحكم عليه بإذن الله؛ منها:
 - إذا كانت الآية -مثلاً- تحتل وجوها عديدة من المعاني، فلا يؤخذ منها إلا ما كان أقرب لحسن التأويل، وأليق بعظمة هذا الكلام.
 - ولا يؤخذ من التأويل إلا ما كان موافقاً لمحكم الكتاب والسنة.
 - وتقديم التأويل الذي له شاهد في العبارة مما ليس له شاهد.
 - تقديم التأويل المتفق مع أسلوب العرب في الكلام بعيداً عن التكلف والتعسف، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فكل ما يجرد القرآن عن هذا الوصف فهو رد على صاحبه.
 - وتقديم التأويل المنسجم مع المعنى المتبادر في لغة العرب على غيره، إلا إذا صرفته قرينة معتبرة.
- 2- التماس المناسبات بين الآيات بعضها بعضاً -بعد أن اتضح تأويلها- ولنقل إنه التماس مبدئي للوصول إلى تحديد عمود السورة ومحورها الأساسي الذي عليه تدور.
- 3- تحديد عمود السورة ومقصدها الأساسي بعد الاطلاع على التناسب الأولي بين أجزائها، وإمعان النظر في تلك الأجزاء على حدها ومجمعة، ومراعاة مضامين السور المجاورة ومقاصدها، والنظر في السمات المشتركة التي تجمع أو تفرق بينها، ولا بد من التأكيد على أن للسورة محوراً رئيسياً واحداً فقط، وبه كانت سورة مستقلة عن غيرها.
- 4- وإذا تحدد واتضح عمود السورة، أصبح كالنور الذي يضيء كل شيء يتعلق بها، وكالمفتاح الذي يفتح بابها، فتتضح الأمور التي لم تكن واضحة من قبل،

¹ انظر ما كتبه عناية الله سبحانه في البرهان في نظام القرآن: 55-57، والإمام الفراهي وجهوده في التفسير: 270-271.

بل إن تأويل بعض الآيات السابق قد يطرأ عليه تصحيح بعد أن انكشف نظام السورة وعمودها، وهكذا لا يلبث هذا الترتيب الثلاثي أن يتداخل بعضه في بعض، ويتعاون بعضه مع بعض تحقيقاً للغاية المنشودة.

المبحث الثالث عشر: ما السبيل إلى النظام؟

إننا باستقراء كتيبه نتيين جملة من الأمور التي تحتاج إلى الوقوف على النظام، وينبغي مراعاتها، والتركيز فيها على سبيلين هما:

- 1- إدمان النظر في كتاب الله تعالى، ومصاحبته وتدبره، وجعله المصدر الأساسي لتأويل القرآن، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، فإن انكشف شيء من معانيه فاحمد الله على تلك النعمة، وإن تعثرت أحياناً-وذلك وارد لا محالة-فاعزه إلى قلة العلم، وقصور الفهم، وأعد الكرة بعد الكرة، فعسى الله أن يفتح لك.
- 2- ممارسة كلام العرب وفهم أساليبهم فإنعام النظر في ذلك الكلام وشواهد تطبيقاته، وما يرتبط به من علوم كالبلاغة ونحوها، والتضلع من تلك العلوم ما استطاع السالك لذلك سبيلاً.

3- ويمكن تقوية هذا السبيل بمراجعة كتب الفراهي المهمة منها:

- فاتحة نظام القرآن.

- دلائل النظام.

- التكميل في أصول التأويل.

وقد أفرغنا ما فيها من معلومات قيمة وأفكار جليلة، ووقفنا مع كل كتاب منها ضمن فصول سابقة والحمد لله ذي الفضل والإحسان.

الفصل الحادي عشر: عمود السورة

تمهيد:

لقد كان الإمام عبد الحميد الفراهي مبدعاً ومجدداً في طرحه لمعنى النظام، وكمله بمسألة عمود السورة التي يكتمل النظام بها؛ إذ يتصور رحمه الله أن السورة

تسير وفق عمود متين تشد إليه أجزاء السورة وإن اختلفت وتنوعت، والمتدبر عليه أن يكتشف العمود في أفق اكتشاف النظام والدوران بفلكه؛ وهذا ما نتناوله خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف عمود السورة:

العمود لغة: هو قضيب من الخرسانة أو الخشب أو الفولاذ؛ لتحمل قوة ضغط المباني والأرصفت البحرية والمنشآت الأخرى، ويطلق على السيد الذي يعتمد عليه في الأمور، وعمود الأمر: قوامه الذي لا يستقيم إلا به.¹

يرى الإمام الفراهي أن السورة لا يكون فيها إلا عمود واحد فتأمل! وليس العمود هو أعظم المقاصد حقيقة! "بل هو الشيء الجامع الذي به رباط السورة بأسرها، ولكنه أهم الأمور بيانا في سورة ذكر فيها".² ثم إن هذا العمود الواحد يمكن أن يكون من محتوياته أشياء كثيرة لكنها تشد إلى رباط العمود؛ كما سيأتي في الأمثلة قريبا.

قال فخر الدين الرازي: "كل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسّرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلامًا واحدًا منتظمًا مسوقًا نحو غرض واحد فيكون هذا التفسير أولى مما ذكره"³؛ لأنه -أي الرازي- هو القائل: "إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط".⁴

¹ ومنه العمود الكهربائي: ما تسند إليه الأسلاك الكهربائية الهوائية، والعمود من الإعصار: ما يسطع في السماء، وعمود الأذن: ما ارتفع فوق الشحمة فتثبت عليه الأذن.. إلخ. انظر مادة (عمد) من المعاجم العربية.

² تفسير نظام القرآن: 42-43.

³ مفاتيح الغيب: 27 / 133.

⁴ البرهان في علوم القرآن: 1 / 36.

المبحث الثاني: عمود السورة أول ما يطلب لأجل التأويل الصحيح:

إن القرآن يأتي بجملة من المعاني على نظام مختلف، وإن اختلاف الأسلوب لا يكون إلا بزيادة الفائدة، وكلام الله مصون عن التكرار، وإن اختلفت في الأمر الواحد ترتيباته فالمتدبر عليه يسر أغوارها ويغوص في أعماقها؛ لأن الأمر الواحد ربما يؤتى به كالعمود وربما يذكر كالتبع،¹ وحيثما يورد مجملًا² وحيثما مفصلاً، ومرة يقدم وأخرى يؤخر، وتارة يفرد وتارة يقتن؛ فتلك إذن أربعة تقسيمات، تحت كل واحدة منها قسمان؛ فالجملة ثمانية أبواب.

يقول الإمام الفراهي معقبًا: "وقبل أن نبحت عنها مفصلاً نشير إلى أن أول أمر يطلب هو العمود، ومنه يتبين لك قسمه، ثم ما هو المجمل؟ فإن المعنى الذي يحتوي المعاني المفصلة يذكر مجملًا! ثم إذا تأملت في ترتيب أجزاء الكلام علمت وجه وضعها مقدمًا أو مؤخرًا. ثم إذا قايست جملة من المعاني المتحدة في سور شتى فرأيت أن أمرًا واحدًا ذكر في مقام مفردًا وفي الآخر مقرونًا بقرين له، ثم ربما رأيت أن أمرًا واحدًا يقرن بأمور تارة بهذا وتارة بذاك، فإذا نظرت في الترتيب من هذه المناظر رأيت لأمر واحد وجوهًا حسب وضعه، وهديت إلى تأويله الصحيح".³

المبحث الثالث: أمثلة على العمود والأجزاء المرتبطة به:

إن هذا العمود الواحد يمكن أن يكون من محتوياته أشياء كثيرة؛ ومن أمثلته الرائعة سورة الحجرات؛ عمودها هو "التوبيخ على سوء الخلق ظنًا وقولًا وعملاً"؛ وأما أجزاؤه فذكر منها:

¹ أما التبعية فتشيد بحجة، أو مثل، أو تمهيد لما يتلو، أو توسيع ما سبق، أو تحديده، أو جواب سؤال مستكن، أو تمهيد لما يأتي بكلمة، أو ذكر ما يلائم الموضوع من حكمة وحكم، أو تفصيل ما سبق، أو تحريض من الوعد والوعيد والمدح والذم، أو بيان بمزيد العلم، أو إظهار الحمد وصفات الرب حسب الموقع، وذلك روح القرآن. انظر نظام القرآن: 43.

² وأما المجمل فليبيان الأصول والكميات، وبه ينبه على سر الشرائع والمفصل فهذا باب واسع لتوجيه النظر وتعليم التدبر والحكمة. نظام القرآن: 43.

³ تفسير نظام القرآن: 42.

- النهي عن التقدم بين يدي الرسول ﷺ.
 - والنهي عن رفع الصوت فوق صوته ﷺ.
 - والنهي عن الجهر له كجهر بعضهم لبعض.
 - والنهي عن ندائه حين الصبر خير لهم.
 - النهي عن الوثوب على قوم بقول كل فاسق.
 - أمر بالإصلاح بين طائفتي المؤمنين.
 - وأمر بالعون على الباغي.
 - وأمر بالعدل بينهما.
 - والنهي عن السخر من الناس ولمزهم.
 - والنهي عن التنازع بالألقاب.
 - والنهي عن سوء الظن والتجسس والغيبة والفخر بالنسب.
 - النهي عن تزكية النفس، وأقبحها أن يمنَّ أحد على النبي ﷺ إسلامه.
- ثم علّق رحمه الله فقال: "وما أردت هنا إلا تمثيلاً لكثرة في وحدة، وحسن نظامها مبين في موضعها".¹

وبمناسبة كلامه عن عمود السورة وربطها بالتي قبلها والتي بعدها قال: "ذكر القرآن في السورة السابقة كل همزة لمزة مفتخر بماله، ذاهل عن مآله فدعا عليه بالويل، وأنبأه بأنه ينبذ في الحطمة والنار الموقدة، ففي هذه السورة إشهد على ما فعل بأمثاله حين اعتمدوا على قوة شوكتهم واجترأوا على الله؛ لأنهم قد علموا في كتهم حرمة هذا البيت العتيق.. إلخ، ثم يقول: فاتضح مما قدمنا أن عمود هذه السورة: تمهيد وجوب الشكر لله تعالى بذكر ما جعل لأهل مكة خصوصاً والعرب عمومًا من العز والكرامة بما حماهم وبلدهم ببركة هذا البيت المحرم، فجعل

¹ المصدر نفسه: 42.

لذكر هذه النعمة سورة كاملة فلم يذكر ما يتعلق به من الأحكام أي ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [سورة قريش: 3]، فجعله في سورة تالية لكي يعرفوا منزلة هذه النعمة التي فضلهم بها على سائر الأمم حتى بني إسرائيل، فإنهم أسروا وقتلوا ومزقوا كل ممزق وكذلك أخذ عنهم بلدهم وهيكلمهم ودمر وحرق، ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة البقرة: 105]، فيعطي حسب علمه وحكمته فليشكروا له ولا يغتروا بنعمته، وإنا نذكر أسباب هذا التفضيل أن ذلك كان على غاية الحكمة".

والعجيب أن تكون سورة البقرة من آخر ما تدبره وأعمل فيها منهاجه في التفسير وقد تجلى في النقاط الآتية:

- 1- المقدمة: وهي أمور كلية من عمود السورة ومطالبيها، ومواقع نزولها، ووجه خطابها، وترتيب أجزائها.
- 2- الكلم: فهو في معنى الكلمة ومادتها وصورتها، والاستدلال فيه بالقرآن وكلام العرب.
- 3- النحو: ففي تأليف الكلمة، والاستدلال فيه بالنظائر وحسن التأويل.
- 4- البلاغة: ففي دلالة الأساليب على معان تناسب التأويل.
- 5- التأويل: ففي حمل الكلام على مراده حسب المحل، وفي ذلك معظم الاستدلال بالقرآن وكلام العرب.
- 6- التدبر: ففي ذكر المبادئ والنتائج، أي اقتضاء النص وإشارته، والاستدلال فيه بصريح العقل وكتاب الله.
- 7- النظم: ففي بيان موقع جملة من الكلام، ورباط بعضها ببعض.

المبحث الرابع: كيف يستخرج العمود؟

إن استخراج العمود الذي تشد إليه أطراف السورة ومعاطفها، وتربط به أجزاؤها ومطالبها، ليس بالأمر الهين والبسيط، ولكنه مطلب لا سبيل إليه إلا بالتدبر العميق والتأمل الطويل حتى يهتدي إلى المراد أو بعضه. يقول الفراهي: "اعلم أنّ تعيين عمود السورة هو إقليد لمعرفة نظامها، ولكنه أصعب المعارف. ويحتاج إلى شدة التأمل والتمحيص وترداد النظر في مطالب السورة المتماثلة والمتجاورة، حتى يلوح العمود كفلق الصبح فيضيء به السورة كلها. ويتبين نظامها، وتأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات المحتملة أرجحها".¹

"وعند النظر في النظام لا يهمنك أولاً إلا هذه المعاطف. فإذا اطمأنتت بوصلها، اطمأنتت بنظم السورة".²

"ومعالم السورة مع كونها مهمة وجالبة للنظر، لا تغرنك في اختيار العمود، فإنما العمود ما يعطيك الوحدةانية في السورة والمناسبة بما سبق وبما لحق إما متصلاً أو بواسطة..".³

المبحث الخامس: وجوه اشتداد الصعوبة في استخراج العمود:

وتشتد الصعوبة في إدراك العمود واستخراجه بناء على الوجوه الآتية:⁴

- 1- لأن القرآن الكريم إنما نزل متشابهاً مثاني، فنلاحظ سوراً متشابهة المطالب مع اختلاف عمدها، ومتحدة العمد مع اختلاف المطالب، فمن لم يقيم بإجالة النظر في مطالبها مرة بعد مرة، وجمعها تحت عمد مختلفة؛ فإن الشيء الواحد يدخل تحت كليات مختلفة، حتى يتبين له من بينها ما هو الأرجح، كان كسالك سبيل بلغ مجتمع الطرق، فضل، فكلما ذهب بعد عن مستقيمها.

¹ دلائل النظام: 89.

² المصدر نفسه: 92.

³ المصدر نفسه: 94.

⁴ انظر المصدر نفسه: 89 وما بعدها (يتصرف).

- 2- إن الله تعالى كما أنزل هذا الكتاب، لواجبات العقائد والشرائع، فكذلك أنزله لتعليم الحكمة، وجعل ذلك من أخص صفات نبينا ﷺ، وبذلك جعله خير المعلمين، وأعطاه من الآيات ما تكون أكثر اتباعاً وأكمل تعليمًا.¹
- 3- إن الله تعالى لمثل المصلحة التي ذكرنا آنفاً جعل القرآن على نهاية الإيجاز، ومع ذلك ملأه حكماً جمّة. فلكثرة المطالب العالية والأطايب الغالية يتحير الناظر فيه ويصعب عليه أن يصطفي من بين معانيه معنى واحداً كالعمود، كمن يطلب من بين الجواهر واسطة العقد، ومن غاية الحسن كلها يروقه، فلا يدري أيها أولى؟!

المبحث السادس: عمده بعض السور كما يراها الفراهي:

- الفاتحة: جامعة كالديباجة، ففيها مفاتيح لجميع ما في القرآن.
- سورة البقرة: سورة الإيمان المطلوب؛ وهو الإيمان ببعثة محمد ﷺ، فجمعت دلالتها.
- سورة آل عمران: سورة الإسلام؛ وهو طاعة النبي ﷺ، فهي أشبه بالسابقة لما أن الإسلام هو الجانب الظاهر من الإيمان.
- سورة النساء: كالردء لسورة الإسلام، بما أنها تبين أن الشريعة رحمة على الناس كافة وكذلك صاحبها.
- سورة العقود (المائدة): مثل السابقة يذكر بناء الإسلام على العهد الإلهي ويذكر أواسط هذا العهد ونهايته.

¹ قال الفراهي: "ولا يخفى أن تعليم الحكمة لا يتأتى بإلقاء المعارف، وإنما يتأتى باستعمال الفكر والعقل، وحثه وتنبيهه على النظر حتى يبرز قواه الكامنة كما هو الأصل في كل تربية. فعلى هذا كما جعل القرآن جانباً منه ظاهراً بيئاً، فكذلك جعله جانباً من باطناً مكنوناً، ولكي يمتدوا إلى بطونه، جعل الباطن على مدارج؛ لكي يترقى المجتهد في درجاته من الأقرب إلى الأبعد، فإن التربية لا تتم بدون ذلك" دلائل النظام: 90.

- سورة الأنعام: موقع الأحكام من عهد التوحيد، لسد أبواب الشرك.
- سورة الأعراف: تنذر أهل القرى وتوعدهم بالهزم وغلبة الحق.
- سورة الأنفال: في فرائض الجهاد ووعد سطوع الحق والتطهير.
- سورة التوبة: غلبة الحق والجهد في التطهير.
- سورة الذاريات: جهة الدينونة والجزاء.
- سورة التحريم: استقلال الإنسان بأمانته والتوبة النصوح، والذمة الدينية، وحسم أدواء الضلالة ليتطهر من كان له أهلاً.
- سورة القيامة: إبطال ظن المنكرين بالقيامة والجزاء، وكان منشأ إنكارهم حب هذه العاجلة الفانية.
- سورة المرسلات: أصول الدعوة الأولى؛ وهي ثلاثة أمور: الإنذار بيوم القيامة، والخشوع لله تعالى، والإحسان إلى الخلق.
- سورة عبس: إنها من النذر، وكان الإنذار أهم مطالب أول الدعوة، ومع ذلك تتنوع وجوه البيان ففي هذه السورة بني الكلام على كف النبي ﷺ عن إضاعة الوقت بالذين أصروا على كفرهم وعصيانهم.
- سورة الشمس: إنذار قريش ورئيسها الأشقى بما كذبوا الرسول في أمور التوحيد والمؤاساة والجزاء.
- سورة التين: هو إثبات الدين، أي الدينونة والقضاء على الإنسان حسب أعمالهم.
- سورة العصر: فيها بيان الخسران ثم بيان طرق الفلاح واقتناء الفوز العظيم والحظ الكامل من هذا العمر المستودع...
- سورة الفيل: تمهيد وجوب الشكر لله تعالى بذكر ما جعل لأهل مكة خصوصاً والعرب عمومًا من العز والكرامة بما حماهم وبلدهم ببركة هذا البيت المحرم.

- سورة الكوثر: بشارة للنبي ﷺ بكثرة أحيائه وبقطع أعدائه عن بركات الكعبة.
- سورة الكافرون: إعلان عن قطع حبال المودة من الكفار وتركهم مقطوعين عن الأمة المباركة.

- سورة المسد: تؤكد وتوضح معنى النصر المذكور قبلها وتبشر به.. إلخ.

المبحث السابع: تلخيص مطالب السورة ونظامها:

وأقدم سورة البقرة أنموذجا على سبيل المثال لا الحصر؛ وهذه مطالبيها حسب ما يراه الإمام:

القرآن، والتوحيد، والبعثة، والإسلام، وقبلته، والصلاة، والجهاد والحج، إحياء الطيبات، وتحريم القربان الباطلة، والميتة والدم ولحم الخنزير، والقصاص، الوصية، الصوم، رعاية أيام الحج، اليتامى، وتحريم النكاح المشركات، والطهارة، والتوبة، الإيلاء، والطلاق، والرضاع، الصلاة، الجهاد، الإنفاق، الربا، الدين، الرهن، الشهادة، دعاء التسهيل والعفو والنصرة.¹

المبحث الثامن: ظهور النظام واستبانة عمود الكلام:

يقول الإمام الفراهي: "إني رأيت جلّ اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات، فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمود الكلام لجمعنا تحت راية واحدة وكلمة سواء ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [سورة إبراهيم: 24]، وجعلنا معتصمين بحبل كتابه كما قال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران: 103]، وكيف الخلاص من التفرق الأصلي وقد جعلوا هذا الحبل أشتاتا في ظنونهم وهو بحمد الله متين ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: 42]، فيؤوله كل فريق حسب ظنه ويحرف طريق الكلام عن سمته، وبالنظام يتبين سمت الكلام، فينفي

¹ دلائل النظام: 111.

عن آيات الله أهواء المبتدعين وانتحال المبطلين وزيف المحرفين الذين ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [سورة النساء: 46]، والذين يقلعون كلام الله عما بين يديه وما خلفه ويضمون إليه ما يعجب هوة نفوسهم".

وقال رحمه الله: "إنه لا يخفى أن نظم الكلام جزء منه، فإن تركته ذهب بعض معناه، فإن للتركيب معنى زائداً على معنى الأجزاء. فلا شك أن من حرم فهم النظام فقد حرم حظاً وافراً من معنى الكلام. ويوشك أن يشبه حاله حال من قبله من أهل الكتاب كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [سورة المائدة: 14]، وأخاف أن تكون هذه العداوة والبغضاء، التي تراها في المسلمين، من النسيان، فلا تهدأ عداوتهم ولا يرجعون عن اختلافهم؛ وسبب ذلك ما ذكرنا في الأمر الأول؛ لأننا إذا اختلفنا في معاني كلامه اختلفت أهواؤنا وصرنا مثل أهل الكتاب، غير أن رجاءهم كان معقوداً بهذا النبي، وهذا القرآن الذي يرفع اختلافهم. وأما نحن فليس لنا إلا هذا الكتاب المحفوظ".¹

الفصل الثاني عشر: هل كان الفراهي بدعاً من القول بالنظام؟

تمهيد:

إن موضوع النظام والتناسب في القرآن الكريم وعمد السور وما إليها من موضوعات النظرات العميقة والدقيقة لم يكن الإمام القرافي بدعاً منها، بل كان الجلة من العلماء والمفسرين يقولون بذلك من قبل ومن بعد، من الأقدمين ومن المحدثين؛ وهذا ما نحاول إضاءته خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: المنكرون للنظام والتناسب:

ينسب هذا الإنكار إلى بعض الأعلام المرموقين كالإمامين العز بن عبد السلام، ومحمد بن علي الشوكاني رحمهما الله ومن درج على قولهما من المتأخرين.

¹ انظر فاتحة نظام القرآن: 3-4.

يقول الإمام العز بن عبد السلام (ت 577هـ): "المناسبة علم حسن، ولكن لا يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متّحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة، لم يرتبط فيه ارتباطاً أحدهما بالآخر" ويزيد الأمر بياناً فيقول: "ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا ركيك يُصان عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة. وما كان كذلك لا يتأتى ربطاً بعضه ببعض إذ لا يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض، مع اختلاف العلل والأسباب كتصرف الملوك والحكام والمفتين، وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة. وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض، مع اختلافهما في نفسها واختلاف أوقاتها".¹

وهذا الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت 1250هـ) يقول: "اعلم أنّ كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة. بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف. فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف. ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه. حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبته".²

المبحث الثاني: الشبهات المثارة ودحضها:

إن أبرز شبهة أثارها الفريق المنكر للنظام هي أن التماس المناسبة ضرب من التكلف والتكلم في القرآن بمحض الرأي المنهي عنه؛ وينبغي في دحض هذه الشبهة

¹ البرهان في علوم القرآن: 1/ 37.

² انظر فتح القدير: 1/ 72.

أن نبين أن الرأي المنهني عنه هو كل قول في كتاب الله بغير دليل ناهض؛¹ ويكفي أن يكون اكتشاف المناسبة في آيات الله تعالى بما تشهد له البراهين الساطعة، ويتفق مع سياقات الآيات، ولا يتعارض مع صحيح الروايات، ثم يتمشى مع أصالة اللغة العربية وأساليبها، يكفي أن يكون ذلك ضرباً من التدبر الذي دعانا إليه الله تعالى في أكثر من آية:

- ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص: 29].
- ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة محمد: 24].
- ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82].
- ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَانْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنعام: 25].

قال الزركشي: "قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً، والمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سروره كلها وآياته بالتوقيف. وحافظ القرآن العظيم لو استفتي في أحكام

¹ وذلك مثل من فسر قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [سورة النازعات: 17]. فأبعد النجعة إذ رأى أن فرعون هو النفس البشرية التي ينبغي مجاهدتها! لذلك قال ابن تيمية: "فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام؛ ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به كما روي... فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به. فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه" انظر مقدمة في أصول التفسير: 46-50.

متعددة أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل. وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى ولا كما نزل مفرقًا بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة".¹

وكلمة الفصل يوضحها الإمام الفراهي في تقريراته حيث قال: "لما رأى أهل السنة أن أهل البدعة والباطل جعلوا يؤولون القرآن بالهوى، ويحملون النصوص على غير مرادها، تخرجوا من الاشتغال بالأقاويل في التفسير إلا ما روي عن الصحابة والتابعين. ولا شك أنهم لم يريدوا بذلك إلا سدًا لأبواب الفتنة. وكان ذلك هو الطريق. فإن التأويل إذا لم يؤسس على قواعده التي تكون فارقة بين الحق والباطل، لم يمنع عن القول بالرأي المحض.

أما الصحابة والتابعون فأولوا القرآن بالعلم والنظر الصحيح، فإن تصفحنا الأصول التي جروا عليها، كانت لنا أسوة حسنة في تدبر كتاب الله. وقد جمع أهل التأويل نبدًا من أقوالهم، ولكنهم لم يجمعوا أصول تدبرهم والحاجة إلى ذلك شديدة. فإن الله تعالى أوجب التفكير في كتابه بصريح القول في غير ما آية. وقد حث النبي ﷺ على ذلك، وعلمهم النظر والاستنباط، وكان ذلك مما فرض الله عليه.

وإذ غلب على أكثر الناس أن القول بما لم يُروَ عن السلف هو القول بالرأي، فصار ذلك مانعًا عن التفكير والتدبر، احتجنا إلى بيان الفرق بين القول بالرأي المنهي عنه وبين طريق السلف الذين تفكروا وتدبروا في القرآن. وإلى بيان الحاجة الشديدة إلى استعمال الفكر والتدبر في كتاب الله.

من العجائب بل من المصائب أن يشتبه الحق بالباطل عند أهل الحق فيتعصبون للباطل ويعثرون في وضوح النهار بعد ما جاءتهم البينات. فمن ذلك حرموا الفكر والنظر في آيات الله المشهودة المتلوة، وجعلوا السنة بدعة والبدعة سنة. وذلك

¹ البرهان في علوم القرآن: 1/ 37.

بعد أن علموا أن القرآن حث على الفكر والتدبر في كليهما، وأن الصحابة-رضي الله عنهم- كانوا يتدبرون القرآن، ويقولون بما فهموا منه ينقلون ذلك عنهم".¹ وعليه فثمة حقائق في ضوء تلك النصوص نقررهما فيما يأتي:²

- 1- معايشة كتاب الله، والتفكير في آياته، والبحث عن أسرار وحكمه، والفحص عن كنوزه وفرائده بأسلوب علمي نزيه، مع إخلاص النية والتجرد لله، فضيلة ومحمدة حث عليها ربنا، وسنة سنية كان عليها سلفنا الصالح.
 - 2- محاولة التوصل إلى أسرار كلام الله في ظل أصول محكمة وقواعد ثابتة لا تسعى تفسيراً بالرأي.
 - 3- التصدي لتفسير كتاب الله تحت سيطرة الهوى، أو بدون كفاءة علمية كافية هو التفسير بالرأي المنهي عنه في دين الله.
 - 4- من كره العدول عن تفسير مأثور إلى تفسير آخر إنما كرهه خوفاً من البدعة وسداً لأبواب الفتنة وإلا فإعمال الفكر والروية في كتاب الله ومحاولة الكشف عن أسرار وعلومه واجب من واجبات علماء الأمة.
 - 5- الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يجتهدون رأيهم وما كانوا يمتنعون أبداً عن تفسير القرآن إذا لم يكن عندهم شيء ثابت عن رسول الله ﷺ، ومعظم التفاسير المروية عنهم ليست إلا نتائج تدبرهم وتفكرهم في كتاب الله.
- المبحث الثالث: القائلون بالتناسب جمهور الأمة:

إننا حين نتقفر كتب التفسير وعلوم القرآن والمفردة في التناسب ننتهي إلى أن القول بالتناسب كان عليه الجلة من علماء السلف، وقد صدرت عنهم درر لطيفة تستجيد النظام، وتعتبره ضرباً من إعجاز النظم القرآني؛ وهذه عيّنات قديمة ومحدثة من أقوالهم البديعة:

¹ التكميل في أصول التأويل: 8-9.

² انظر إمعان النظر في نظام الآي والسور، د. محمد عناية الله أسد سبحاني: 65.

- قال مسلم بن يسار رحمه الله: "إذا حدثت عن الله حديثاً فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده".¹
- قال الشيخ أبو الحسن الشهرستاني: "أول من أظهر ببغداد علم المناسبة، ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري، وكان عزيز العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة".²
- يقول جارا لله الزمخشري: "الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، ونزله بحسب المصالح منجماً، وجعله بالتحميد مفتحاً، والاستعاذة مختتماً".³
- يقول العلامة ابن العربي: "ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علمٌ عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله ﷻ لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه".⁴
- يقول الإمام فخر الدين الرازي: "إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط".⁵
- قال الشيخ كمال الدين الزمكاني: "وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السور، فما ظنك بالآيات وتعلق بعضها ببعض! بل عند التأمل يظهر أن القرآن كله كالكلمة الواحدة".⁶

¹ عمدة التفسير لابن كثير: 48 / 1.

² البرهان في علوم القرآن: 36 / 1.

³ الكشف عن حقائق التنزيل: 3-5 / 1.

⁴ البرهان في علوم القرآن: 36 / 1.

⁵ المصدر نفسه: 36 / 1.

⁶ المصدر نفسه: 39 / 1.

- قال الشيخ ولي الله المملوي: "والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جمٌ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقّت له".¹
- يقول ابن القيم: "وأما السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت أو الرسالة أو الخطبة بعضها ببعض من أوله إلى آخره. ولهذا قيل: خير الكلام الميسوك المحبوك، الذي يأخذ بعضه برقاب بعض. والقرآن العظيم آياته كلها كذلك فاعرفه".²
- قال أبو إسحاق الشاطبي: "فاعتبار جهة النظم مثلاً في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالإقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أن الإقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها".³ وعليه فقد قرر بعد تحليل وتدقيق قائلاً: "فلا محالة أن ما هو كذلك فكلام واحد، فالقرآن كله كلام واحد بهذا الاعتبار".⁴
- يقول الإمام الزركشي: "ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز؛ ولهذا ترى صاحب "الكشاف" يجعل الذي سيق له الكلام معتمداً، حتى كأن غيره مطروح".⁵
- يقول الإمام البقاعي: "فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال... فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم

¹ المصدر نفسه: 1/ 37.

² الفوائد: 224.

³ الموافقات: 279/3 (المسألة الثالثة عشرة).

⁴ المصدر نفسه: 3/ 284.

⁵ البرهان في علوم القرآن: 1/ 317.

التفسير نسبة علم البيان من النحو" واسترسل رحمه الله في البيان قائلاً: "... وبه يتبين لك أسرار القصص المكررات، وأن كل سورة أعيدت فيها قصة فالمعنى أدعى في تلك السورة، استدلل عليه بتلك القصة، غير المعنى الذي سيقته له في السورة السابقة.

ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض وتغيرت النظم بالتأخير والتقديم والإيجاز والتطويل، مع أنها لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى الذي تكونت به القصة. وعلى قدر غموض تلك المناسبات بان وضوحها بعد انكشافها".¹

● يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: "أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجّمة، يحسبها الجاهل أضغاطاً من المعاني حُشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً، فإذا هي لو تدبرت بُنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعبة وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة: لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام. كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً والمختلف مؤتلفاً.

ولماذا نقول إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم الأعضاء في جسم الإنسان: فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظماني عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرابين والعروق والأعصاب. ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة

¹ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 1/6-12 (بتصرف يسير).

اتجاه معين. وتؤدي بمجموعها غرضًا خاصًا، كما يأخذ الجسم قوامًا واحدًا ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية".¹

- يقول الأستاذ الكبير سيد قطب رحمه الله: "وهذه الرواية أقرب الروايات إلى تقديم تفسير مقبول لوضع السورتين هكذا، وعدم الفصل بينهما بسطر: "بسم الله الرحمن الرحيم" كما أنها تفيدنا في تقرير أن وضع الآيات في السور، وترتيبها في مواضعها كان يتم بأمر رسول الله ﷺ في حياته. وأن سورًا متعددة كانت تظل مفتوحة في الوقت الواحد، فإذا نزلت آية أو آيات في مناسبة واقعة تواجه واقعًا قائمًا، أو تكمل حكمًا أو تعدله، وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين، أمر رسول الله ﷺ أن توضع في مواضعها من سورتها... وبذلك كانت هناك حكمة معينة في أن تتضمن كل سورة ما تضمنته من الآيات، وحكمة معينة كذلك في ترتيبها في مواضعها من السورة.

ولقد لاحظنا كما أثبتنا ذلك مرارًا في التعريف بالسور أن هناك شخصية خاصة لكل سورة، وسمات معينة تحدد ملامح هذه الشخصية. كما أن هناك جواً معيناً وظلالاً معينة. ثم تعبيرات بتعابير بعينها في السورة الواحدة، تؤكد هذه الملامح وتبرز تلك الشخصية! ولعل في الفقرة السابقة، وفي حديث ابن عباس قبلها، ما يفسر هذه الظاهرة الواضحة التي أثبتناها مرارًا في التعريف بالسور في هذه الظلال".²

- يقول الإمام الفراهي رحمه الله كما مر معنا: "إني رأيت جلّ اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات، فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمود الكلام لجمعنا تحت راية واحدة وكلمة سواء ﴿لَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [شورة إبراهيم: 24]... وقال رحمه الله: "إنه لا يخفى أن

¹ النبا العظيم: 155.

² في ظلال القرآن: 4 / 111-112.

نظم الكلام جزء منه، فإن تركته ذهب بعض معناه، فإن للتركيب معنى زائداً على معنى الأجزاء. فلا شك أن من حرم فهم النظام فقد حرم حظاً وافراً من معنى الكلام".¹ فالنظام حسب الفراهي "المقصود به ما يسميه الكتاب المعاصرون بالوحدة الموضوعية، ويختلف النظام - برأيه - عن التناسب، فالتناسب جزء من النظام"² كما مر معنا.

المبحث الرابع: التناسب والنظام ضرب من البلاغة:

إن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين؛ يتجلى فيه الإعجاز البياني من غير خلاف؛ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ في رحابه حطت رحال البلاغة وأسرار الفصاحة؛ فهو مصدرها؛ ما يجعل قضية التناسب في آياته ضرباً من البلاغة والفصاحة وحسن البيان ورونق الأسلوب؛ ولما كان العرب يأنفون فضول الكلام؛ ويستجيدون منه ما كان على غاية من الإحكام، فصار الاقتضاب ظاهرة صحية ينفع في الوثب إلى معاني سامية، ونكتشف الخيط الرابط بعمق تدبرنا، ودقة متابعتنا للخطاب القرآني وأسلوبه؛ وهو ما أقره بلغاء العرب والعربية السامقين في عباراتهم الدقيقة الآتية:

- البلاغة: أن يكون أول كلامك يدل على آخره، وآخره يرتبط بأوله.³
- البلاغة: القوة على البيان مع حسن النظام.⁴
- أبلغ الكلام: ما حسن إيجازه، وقلّ مجازؤه، وكثر إعجازه، وتناسبت صدورّه وأعجازه.⁵
- البلاغة: إجاعة اللفظ وإشباع المعنى.⁶

¹ انظر فاتحة نظام القرآن: 3-4.

² من مقدمة الناشر لتفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للفراهي: 4-5.

³ العمدة لابن رشيق: 1/ 244.

⁴ المصدر نفسه: 1/ 244.

⁵ المصدر نفسه: 1/ 246.

⁶ المصدر نفسه: 1/ 242.

- البلاغة: معان كثيرة في ألفاظ قليلة.¹
- البلاغة: إصابة المعنى وحسن الإيجاز.²
- البلاغة: لمحة دالة.³
- البلاغة: كلمة تكشف عن البقية.⁴
- البلاغة: بلوغ المعنى ولما يطل سفر الكلام.⁵
- البليغ: من اقتصر على الإيجاز، وتنكب الفضول.⁶
- البليغ: من يحوك الكلام على حسب الأمانى ويخيط الألفاظ على قدود المعاني.⁷
- لتكون بليغاً: فلتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد.⁸
- يقول ابن القيم: "قال علماء البيان: التخلص هو أن يأخذ المؤلف في معنى من المعاني، فبينما هو فيه، إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه أخذاً برقاب بعض من غير أن يقطع المؤلف كلامه ويستأنف كلاماً آخر؛ بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً... وقد ورد في القرآن العظيم من هذا النوع آيات كثيرة".⁹ وهذا ما يعزز وجود النظام ومسألة التناسب في آيات الله الواسعة.

¹ المصدر نفسه: 242 / 1.

² المصدر نفسه: 242 / 1.

³ قالها خلف الأحمر. انظر المصدر نفسه: 242 / 1.

⁴ قال الخليل بن أحمد الفراهيدي. انظر المصدر نفسه: 242 / 1.

⁵ قالها ابن المعتز. انظر المصدر نفسه: 242 / 1.

⁶ قالها عمرو بن العاص رضي الله عنه حين سألته معاوية بن أبي سفيان: من أبلغ الناس؟ انظر المصدر نفسه: 242 / 1.

⁷ العمدة: 128 / 1، وزهر الآداب: 153 / 1.

⁸ زهر الآداب للقيرواني: 152 / 1.

⁹ الفوائد لابن القيم: 140 - 141.

- وهذي مسألة الحذف: بحيث وردت في كلام العرب: نثرهم وشعرهم، نظرًا لولوعهم بالإيجاز، وجنوحهم إلى إجاعة اللفظ وإشباع المعنى، مع وجود الإنسان العربي الأحوزي ذي القريحة الذي يفهم مقاصد الكلام، كان يستثقل الحشو، والإسهاب من غير مسوغ بلاغي، فكان الحذف في كلامهم يشبه بالوثبات؛ قال الإمام عبد الحميد الفراهي: "الحذف في كلامهم يشبه كلامهم بالوثبات، والقرآن كمطر السحاب من وجوه مختلفة، وهذه الوثبة من بعض وجوه المطر. قال امرؤ القيس في صفة السحاب ومطره:

له وثباتٌ كوثب الأطباء فواد خطاء وواد مطر

فالكلام الذي لا حذف فيه لا محل فيه للعقل والنظر، وهو كديب لنمل، والعرب لا تستجيده ولا تتأثر به لذكايم وسرعة فهمهم وتنقّره عن الفضول، وإن كان ضروريًا عند غيرهم، وهذا مبسوط في بحث الحذف¹.

- ومن تعود على الكلام البليغ صارت البلاغة صنعته ويمكن ارتجالها من غير تصنع؛ ما يدلنا على أن كلام الله الذي نكتشف أسرارهِ يومًا بعد يوم؛ ونربط أوله بآخره، في تناسب كامل؛ يقول الإمام عبد الحميد الفراهي في سطور هي روعة من البيان، تنبئ عن امتلاكه ناصية العربية، يقول رحمه الله: "الذي لا يجد في نفسه قدرة على الارتجال يظنه أمرًا بعيدًا، ولا يؤمن به، لاسيما إذا رأى كلامًا ملئ حكمة ودقة وتنوعًا وإصابة، فإذا رأى سرعة تصنيف في أحد ظنّ أنه كان في خطبة أو شعر أو كان في تأليف أو تصنيف حكيم أمر ممكن وليس من المستبعد الذي يُعدّ محالًا، فإنه أمر قد وقع ويقع. نعم إنه قليل، وأكثر هذا القليل غير مستجاد. كما هو الشأن عند الرازي في سرعة تصنيفه فإنه ما جاء إلا في وهن كنسج العناكب.

¹ دلائل النظام: 67 - 68.

ولكي أقرب لك هذا الأمر أضرب لك مثل الريح المعصرة فحين لا ترى السماء إلا كحلبة فإذا بريح باردة ثم بقطعة غمامة. وبينما ننظر إذ هي غطت السماء ثم ما هي إلا سحٌّ وتسكاب حتى فاض السهل وأفعم البطاح. فكما أن الجو ممتلئ بالبخار، ومسُّ الريح جعله غمامة ثم وابلًا ثم سيلاً كأن محتلبًا يمس ضرع لقحة، فكذلك عقلك ممتلئ خيالًا وعلماً لا تحس به، ولا تريد أن تقول أو تكتب شيئاً حتى إن وافته باعثة ودعته داعية أنشأت العجائب لا تدري أين كانت ومن أين جاءت. فتسميها إلهاما وإلقاء ولست مخطئاً في هذه التسمية.

وليس الارتجال في الأقوال بأعجب من الارتجال في الفعال. ألا ترى أن العرب كيف بلغوا الغاية في التمدن في قليل من الزمان.

فقوم تراههم يمشون وكأنهم واقفون، وقوم يمرون كأنهم برق خاطف، فإذا سمعت أن العرب كانوا يلقون من غير روية خطباً بليغة طوالاً، أو ينشدون القصائد الغرار ارتجالاً، أفلا تظنهم أجدر بهذا من أقوام يدبّون ديب النمل. وقد علمت مما نطقوا في مواسمهم وحروبهم من الخطب والقصائد والرجز حتى كأنهم لم يملكو أن يردوا شقشقة لسانهم وجيش صدورهم فتراهم أولى باسم الحي الناطق ممن سواهم".¹

المبحث الخامس: مزايا تتبع النظام الذي دعا إليه الفراهي:

إن الذي يؤمن بنظام الآيات ويؤمن برباط المعاني في كتاب الله، ويعنى به عناية بالغة من يرغب عن هذه الفكرة ولا يرفع بها رأساً.

ومن العسير جداً أن نعدد تلك المزايا كلها ونحصيها إحصاء، فلا أقل من أن نشير إلى ما يتسم بالأهمية منها وهي كما يأتي:

1- التأمل في النظام يرشد إلى فحوى الكلام وملابساته، والذي يغفل عنه يتعذر عليه العثور على ما ترمي إليه تلك الآيات.

¹ جمهرة البلاغة للفراهي: 83-84.

- 2- النظام هو الدليل إلى صحيح التأويل إذا اشتبهت الوجوه وكثرت الاحتمالات.
 - 3- النظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه، كما أنه سرّ من أسرار إعجازه، فإنه هو الذي جعل القرآن بحرًا لا يسبر غوره ولا ينفد كنزه.
 - 4- النظام يجلي الأمور في أكمل صورها، ويكشف عن قدرها وأهميتها، وإذا لم ننتبه لنظام الآيات فكثير من الأمور لا ندركها، ونظل غافلين عن قدرها وأهميتها.
 - 5- النظام يشخص معاني الآيات المكررة، ويحدد مراميها، لكن الذي يغفل عنه يتعثر ولا يكاد يفرق بين موطن وآخر.
 - 6- النظام يفتح العيون على وجوه البلاغة في القرآن، لكن الذي لا يهتم به يتعذر عليه أن يتذوق بلاغة القرآن، أو يدرك ميزته التي أعجزت فرسان الكلام.
 - 7- رعاية النظام تفتح على الدارس ما تقر به عينه، ويستنير به قلبه، وتورثه برد اليقين، الذي لا يتزلزل ولا يتزعزع.
 - 8- رعاية النظام تمكّن من فهم أسباب النزول، والذي يغفل عنه يتحير في فهمها، ويضعها في غير موضعها، ثم يتحير في تأويل الآيات وتفسيرها.
 - 9- رعاية النظام والبحث عن رباط الآيات هي المحك الناجح لنقد الروايات التفسيرية؛ فيها تتميز الضعاف من الصحاح، ويتميز السقيم من السليم.
 - 10- رعاية النظام في دراسة القرآن تساعد على الوصول إلى أصول الصحاح في القرآن، فإن الأحاديث الصحاح مأخوذة منه كما نص عليه فريق من جلة العلماء.
 - 11- الوقوف على نظام الآيات يسمو بالدارس إلى ذروة الشوق والمحبة واللذة التي لا يصل إليها أبدًا من لا يهتم بنظامها، فإن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس تزداد بزيادة المعرفة بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان.¹
- تلك إحدى عشرة مزية يتميز بها من يتدبر القرآن ويتمسك في تدبره بسياق الكلام ولطائف النظام، ولا يغفل عن الوشائج التي تربط المعاني بعضها ببعض؛ لذلك قال ابن تيمية رحمه الله: "فمن تدبر القرآن، وتدبر ما قبل

¹ انظر إمعان النظر في نظام الآي والسور، لمحمد عناية الله أسد سبحاني: 105 - 106.

الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن، تبين له المراد، وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه أكثر غلطاً من المفسرين المشهورين، فإنهم لا يقصدون معرفة معناه كما يقصد ذلك المفسرون".¹

قال الشاطبي: "كلام العرب على الإطلاق لا بد فيه من اعتبار معنى السياق في دلالة الصيغ وإلا صار مضحكة وهزءة، ألا ترى إلى قولهم: فلان أسد، أو حمار، أو عظيم الرماد، أو جبان الكلب، وفلانة بعيدة مهوى القرط، وما لا ينحصر من الأمثلة، لو اعتبر اللفظ بمجرد لم يكن له معنى معقول، فما ظنك بكلام الله وكلام رسوله ﷺ".²

الفصل الثالث عشر: الربط بين السورتين السابقة واللاحقة

تمهيد:

إن مسألة الربط بين السورتين السابقة والتالية اللاحقة طغت على تفسير الإمام الفراهي في حدود ما وصلنا من تفسيره الموسوم بنظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، على أن ذلكم الربط جزء من النظام، يضفي على عمود السورة رونقاً وجمالاً معنوياً رائعاً؛ وهذه أنموذجات نحاول سوقها مع شيء من التصرف بما يقتضيه المقام من تفسير الإمام الهمام الفراهي رحمه الله تعالى وفق الآتي:

المبحث الأول: ربط سورة "الذاريات" بما قبلها "ق":

اعلم أن في السابقة (سورة ق) إثبات البعث وإبطال شبهتهم فيه، وفي هذه السورة إثبات الجزاء.

¹ مجموع الفتاوى: 94 / 15.

² الموافقات: 420 - 419 / 3.

فبدأ السابقة بقوله: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۚ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۚ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۚ﴾ [سورة ق: 1-3].

وأما هذه السورة (الذاريات) فلما جعل عمودها جهة الدينونة والجزاء بدأها بالشهادات عليها وصرح بها حيث قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفَعُوا ۚ﴾ [سورة الذاريات: 5-6].

المبحث الثاني: ربط سورة "التحريم" بما قبلها وما بعدها:

هذه السورة آخر السور العشر التي نزلت في تطهير المؤمنين وتزكيتهم كما وعد الله، وهي خاتمة سورة الأحكام الشرعية. وتفصيل هذا البحث في أول سورة الحديد. وهي صنو لسورة الطلاق التي قبلها. وختم هذه العشر الكاملة بهذه السورة التي تؤكد الاحتساب الشديد على أنفسهم وأهلهم، وختم هذه السورة بما صرح بأن في دين الله العزيز "لا تزر وازرة وزر أخرى".

المبحث الثالث: ربط سورة "القيامة" ما قبلها وما بعدها:

ولما كانت السورة السابقة (سورة المدثر) قد صرحت بحالهم من الاستكبار والإنكار، وذكرتهم بتهويل شديد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۚ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۚ وَبَنِينَ شُهُودًا ۚ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۚ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۚ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۚ سَأُرْهِقُهُ صُعُودًا ۚ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۚ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ثُمَّ نَظَرَ ۚ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۚ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۚ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۚ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۚ سَأُضْلِيهِ سَقَرَ ۚ﴾ [سورة المدثر: 11-26] قلل في هذه السورة (سورة القيامة) من ذلك التصريح وخاطبهم بالدلائل، ومع ذلك تجد في أسلوب السورة بقايا الغضب من ذكر عتو الإنسان واجترائه.¹

¹ نظام القرآن: 214، بتصرف.

وأما علاقتها بما بعدها فالكلام يجري من غاية الشدة والتصريح إلى حد وسط... فالسورتان تخاطبان المنكرين، ثم في سورة الإنسان ترى الالتفات إلى المؤمنين كأن الخطيب قد فرغ من الكافرين فأعرض عنهم. مع أن عمود هذه السور الثلاث واحد، فوجه الكلام فيهن من الشدة إلى اللين، ومن الزجر والنهر إلى الإعراض والإهمال: لكي يتفكروا ويرجعوا إلى أنفسهم.¹

المبحث الرابع: ربط سورة "المرسلات" ما قبلها وما بعدها:

في السورة السابقة ورد الاستدلال على المعاد فبسط في هذه السورة (المرسلات)، وهناك في تصوير المعاد بسط جانب الترغيب، فهنا بسط جانب التهيب؛ وذلك رعاية لإلحاق الإنذار بالتبشير.²

المبحث الخامس: ربط سورة "عبس" ما قبلها وما بعدها:

وقد ختم السورة السابقة بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا ٤٥﴾ [سورة النازعات: 45]. فبين في هذه السورة أنك غير مأمور بالإلحاح على الذين لا يخشعون. ولما علم الله أن النبي ﷺ لغاية رأفته لا يكاد يملك نفسه عن الإلحاح أكثر في القرآن من النهي عنه على طرق شتى.. ولما أن القرآن ينتظر الوقائع المناسبة لتعليم الأمور، فأخذ واقعة الأعمى سبباً لصرف النبي ﷺ عن الإصرار الذي لا يليق بشأنه، فأخرج الكلام مخرج التنبيه والعتاب بحسب الظاهر.³

المبحث السادس: ربط سورة "الشمس" بالتي قبلها والتي بعدها:

ربط في السورة السابقة أصحاب الميمنة والمשמأة الذين بدلوا نعمة الله وأبطلوا مقصد أمانته وفرائض بيته من المواساة، فشققوا به أكبر شقوة لطغيانهم. فضرب لهم مثلاً في هذه السورة من قصة أشقى الناس الذي جلب عليهم الهلاك، لما اجتراً

¹ المصدر نفسه: 242.

² المصدر نفسه: 248.

³ المصدر نفسه: 273.

في جنب الله. فقريش أولاً هدموا مقصد بيته الحرام، وثانياً سيمون برسوله المكرم مثل ثمود فيشقون به كما شقوا بكعبته.

ثم بعد هذا الإنذار العظيم رجع إلى أمر المواساة، وبين حال المعطي الأتقى والبخيل الأشقى. ومآل أمرهما في السورة التالية، كما ستعرف في تفسيرها.¹

المبحث السابع: ربط سورة "التين" بما قبلها وما بعدها:

تضمنت السورتان السابقتان ما حمل النبي الكريم ﷺ من أعباء هذه البعثة العظمى التي أسس بنيانها بيد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وجعل لأجلهما هذا البلد مأموناً من كيد الأعداء. ولذلك أسكن فيه إبراهيم ذريته. ومع أن الله تعالى آخر أمرها وغشى موضعها ظلمة إلى مدة، ما ودعهم وما قلاهم حتى أشرقه بنور أتم. فبعث فيه هذا النبي ليكمل مقصد بناء هذا البلد، وهو التوحيد الكامل والمواساة بالضعفاء. والرب تعالى حكيم عليم وجعل لكل أمر أجلاً مستقياً.

فذكر في سورة التين كيف يدين الإنسان بالحكمة، ويقيم من بينهم أمة ويعطيهم الأمانة، ويرفع قومًا ويضع قومًا ليدينهم حسبما أوفوا بعهده وأمانته، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: 165]. فذكر في هذه السورة شواهد على ظهور بركات هذا البلد، وإن كان هذا مبنياً على سنة الله بالإنسان من أول أمره.

فيحسب هذا الربط أتبع هذه سورة البلد سورة اقرأ، وجعل نعمه غاية خلق الإنسان والبرهان على كونه أحسن تقويم وبين ذلك في السورة التالية فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ

¹ المصدر نفسه: 312.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿﴾ [سورة العلق: 10 5]... وبالجمله فكون الإنسان في أحسن تقويم يتبعه أن يعطى القرآن، فإن ذلك هو الرجوع إلى أحسن تقويم، وبروز ما أودع في فطرته من الكمال.¹

المبحث الثامن: ربط سورة "العصر" بالتي قبلها والتي بعدها:

اعلم أنه قد مر في السورة السابقة أَنَّ أهل العلم انهمكوا في طلب المال، فأفنوا فيه أعمارهم، وهذا هو الخسران العظيم.² فهذا ذكر أهل النعيم المستهزئين بالرسول، وآيات الله، ولقائه. وفي أول سورة ﴿العصر﴾ بين خسران هؤلاء واضحًا، ثم بين طريق الفلاح واقتناء الفوز العظيم والحظ الكامل من هذا العمر المستودع لكي يتنافسوا فيما هو أحق به، وينتهوا عن نوم اللهو والغفلة قبل الفوات والحسرة.³ والسورة التالية في تصوير عقاب هذه الطائفة، وذلتها، وهوانها على رغم حبها للترف، والعزة، والفخر. فوضع هذه السورة بينهما بحيث ينبههم على خيبة عملهم وضلال رأيهم.⁴

المبحث التاسع: ربط سورة "الفيل" بالتي قبلها والتي بعدها:

ذكر القرآن في السورة السابقة كل همزة لمزة مفتخر بماله، ذاهل عن ماله، فدعا عليه بالويل وأنباه بأنه ينبذ في الحطمة والنار الموقدة. ففي هذه السورة إسهاد على ما فعل بأمثاله حين اعتمدوا على قوة شوكتهم واجترأوا على الله: لأنهم قد علموا في كتهم حرمة هذا البيت العتيق. وقد فعلوا مثل ذلك بالمسجد في أورشليم عنادًا لليهود كما

¹ المصدر نفسه: 373-375، بتصرف.

² كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُجْسِنُونَ صُنْعًا ﴿﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَلَّوْا عَابَتِي وَرُسُلِي هُزُوا ﴿﴾ [سورة الكهف: 103-106].

³ نظام القرآن: 382.

⁴ المصدر نفسه: 410.

فعل اليهود بهم. وفي السورة التالية (قريش) قال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [سورة قريش: 3] لكي يعرفوا منزلة هذه النعمة¹ التي فضلهم لما على سائر الأمم.²
المبحث العاشر: ربط سورة "الكوثر" بما قبلها وما بعدها:

إن السورة السابقة نزلت في ذكر الذين كبرت خيانتهم في ولاية الكعبة، لما أنهم أفسدوا الحج ومناسكها وأبطلوا حقيقة الصلاة والنحر بإبطال التوحيد والمواساة بالمساكين، فباءوا بالويل واللعنة، وحق لهم أن يسلمهم الله هذا الخير ويعطيه من استحقه حسب سنته كما قال: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [سورة محمد: 38]. وكان الله تعالى ينزع ولاية الكعبة من الخائنين. فهذه السورة بشر الله تعالى نبيه بأنه اصطفاها وأمته لولاية بيته المحرم، ومسكن خليله وذريته التي يبارك بها الأمم... ولا شك أن هذا العطاء هو الفوز الأكبر والخير الكوثر؛ وهو الضمان للحوض الكوثر الذي يعطيه الله تعالى في الآخرة. فموضع هذه السورة بالتي قبلها كموقع ذكر النعمة بعد النعمة، والعطاء بعد السلب، والمستخلفين بعد المهلكين.³

ولما كانت السورة التالية (الكافرون) في إعلان الهجرة من جوار بيته حسن في نظم الكلام تقديم سورة التبشير والتسليّة؛ ليدل القرآن بنظمه على أن الله تعالى قضى باليسر قبل العسرة وإن كان وقوعه بعدها. فترى أن إعلان الهجرة الذي تضمنته سورة (الكافرون) وضع بين سورتي التبشير (الكوثر) وسورة (النصر). ثم لما كانت هذه السورة بشارة للنبي بكثرة أحبائه، وبقطع أعدائه عن بركات الكعبة جاءت الكافرون بياناً لأصل هذه المقاطعة: وهو التوحيد الذي بنى عليه هذا بيت الله الواحد.

¹ لأن عمود هذه السورة هو تمهيد وجوب الشكر لله تعالى بذكر ما جعل لأهل مكة خصوصاً والعرب عمومًا من العز والكرامة بما حماهم وبلدهم ببركة هذا البيت المحرم.

² نظام القرآن: 425 - 427 بتصرف.

³ المصدر نفسه: 483. بتصرف.

المبحث الحادي عشر: ربط سورة "الكافرون" بما قبلها وما بعدها:

قد علمت أنّ في سورة الكوثر بشارة لظهور هذه الأمة وسموّ أمرها وجمع شملها، وحكمًا على قطع عدوها من الشجرة المباركة للإسلام. فأتبعها بهذه السورة التي تعلن بقطع حبال المودة من الكفار، وتركهم مقطوعين عن الأمة المباركة.¹ ولما كانت هذه السورة سورة الحرب أتبعها الله بسورة النصر للدلالة على أن النصر متصل بالحرب، كما ترى في القرآن كثيرًا اتصال هذين الأمرين.²

المبحث الثاني عشر: ربط سورة "اللب" بما قبلها وما بعدها:

فوضع سورة اللب بين هؤلاء لابد له من سبب: لكي لا يكون قاطعًا لربط بعضها ببعض. فاعلم أن سورة اللب تؤكد وتوضح معنى النصر المذكور قبلها وتبشر به كأنه قيل: "قد نصر الله نبيه وأهلك عدوه".. وقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝﴾ [سورة المسد: 1]، وتبت يداه: أي إنه صار عاجزًا عن الانتصار؛ لأن كسر اليد كناية واضحة عن كسر القوة والعجز.³

وقد اتضح خصوصية أبي لهب بالذكر دون سائر الكفار على وجه يدل على مناسبة السورة بما قبلها، وعلى أنها ليست بدعاء ولا شتمًا لمخالفته للنبي ﷺ... فهي تمهيد للإخلاص الذي أعلنه في السورة التالية. وبيان ذلك أن الله تعالى إذا خص بصراحة الذكر هذا عم النبي دون سائر الكفار مع شدة إيذائهم إياه علمناه أنه ضرب مثلًا مثل آزر؛ لنعلم أن من قطعت أعماله عن ربه لن تنفعه قرابة الصلحاء حتى النبي الحبيب.

فكما تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه بعد إتمام الحجة وإفراغ الجهد في النصيحة له، فكذلك هذا النبي صدع بالحق خلاف عمه بعد إتمام الدعوة ولزوم الهجرة، وهذا

¹ المصدر نفسه: 551.

² المصدر نفسه: 569.

³ المصدر نفسه: 575- 576، بتصرف.

أشد عليه. فإنه ﷺ كان على غاية الرحمة عموماً وبذوي القربى خصوصاً كما علمنا من أحواله، وكان يستغفر لهم حتى نهاه الله عنه.¹

الفصل الرابع عشر: منهج الفراهي في التفسير

تمهيد:

كما أسلفنا فقد فتح الإمام الفراهي مشاريع كثيرة ولم يكملها، إذ فاجأته المنية، وبقيت خداجاً غير تمام، وكان رحمه الله يمتلك رؤية جديدة لتفسير القرآن الكريم، قد بينّا أجزاء منها في أصول التأويل لديه، وما يتعلق بالنظام وعمود السورة؛ ويكتمل الآن حديثنا بحصر نقاط أساسية متوجة بأنموذجات من تفسيره؛ وذلك وفق الآتي:

المبحث الأول: مراعاة نظم القرآن:

النظم في اللغة: جمع اللؤلؤ في السلك.

وفي الاصطلاح: هو تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل. وقيل: الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل.²

ألّف الإمام عبد الحميد الفراهي كتابه النفيس: "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"؛ وقد تم التركيز فيه على مراعاة النظم؛ وهي الوحدة الموضوعية

¹ المصدر نفسه: 583-584، بتصرف؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أُولَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝﴾ [سورة الممتحنة: 3-4].
وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ۝﴾ [سورة التوبة: 114].

² التعريفات، ص 270.

للسورة كما أسلفنا، إذ كل سورة لها موضوع معيّن يسمّيه عمود السورة، تدور عليه بأجزائها المترابطة فيما بينها ترابطاً معنوياً محكماً، والنظام منهاج صحيح لتدبر القرآن الكريم، وفهم أسرارهِ، وتفسير ألفاظهِ ومعانيهِ؛ وكانت هذه العناية الكريمة بالنظم للأسباب الآتية:

1- ما رآه من أنّ جلّ الاختلاف بين العلماء في التأويل إنما يكمن في عدم التزامهم برباط الآيات.

2- إني رأيت الملحدّين قد طعنوا في القرآن من جهة سوء النظم.¹

3- إنه لا يخفى أن نظم الكلام بعض منه فإن تركته ذهب بعض معناه.²

المبحث الثاني: تفسير القرآن بالقرآن:

وقد ألمعنا إلى هذا من قبل حين حديثنا عن أصول التأويل عند الفراهي، ولم ينفك رحمه الله عما درج عليه السلف الصالح من اعتماد القرآن في فهم القرآن، فقد عمد إلى حمل الآيات بعضها على بعض؛ إذ أن ما أجمل في مكان فُصِّل في مكان آخر، وهذا هو الأصل الذي تدور عليه معظم كتبه في خدمة القرآن وعلومه ككتابي: "نظام القرآن في تأويل الفرقان بالفرقان" و"التكميل في أصول التأويل" وغيرهما.

وقد صرح رحمه الله أنه لا يلجأ البتة إلى مناهج أهل الفلسفة والمنطق والمتصوفة للكشف عن نظام القرآن وأسراره، وإنما سنده الأول هو القرآن نفسه؛ فقال: "أجمع أهل التأويل من السلف إلى الخلف على أن القرآن يفسّر بعضه بعضاً وأنه أوثق تعويلاً وأحسن تأويلاً، فنقول: كما أنّ القرآن يفسّر مطالب آياته بعضها ببعض، فكذلك يدلّك على نظام مطالبها ومناسبتها، بما يأتيك بنظائره فتكثر الشواهد على رباط أمر مع أمر، وبذلك يحثّك على التأمل في جامع وصلة بينها ثم

¹ وربما قصده من سوء الفهم!

² انظر فاتحة نظام القرآن، ص 2-4.

يأتي عليه بأمثلة كثيرة الشواهد بعضها أوضح من بعض حتى يتدرج بك على ما كان أدق وأغمض¹.

وهو تمامًا ما جعله في الرتبة الأولى وضمن الأصولية الأولية للتأويل حين قال: "الأصل الثالث: فهم الكلام بعضه من بعض بالمقابلة وحمل النظر على النظر؛ وذلك هو التأويل بالقرآن"².

حتى قال ناشر تفسيره: "فالحق أن تفسير القرآن بالقرآن هو الأصل الأصيل عند الفراهي"³.

وقد عقد العزم رحمه الله على بيان منهجه في فاتحة نظام القرآن فقال: "أما بعد فقد اجتهدت في هذا الكتاب بحول الله وبتوقيقه أن أكشف عن نظام آيات القرآن، وأن أفسره تفسيرًا ساذجًا غير خالط به من اختلاف نجم فينا بعد عصر نبينا، فالتمسست معنى الآيات من أخواتها، وكذلك استنبطت نظام السورة من أعماقها، ومن نفس سياقها، ثم بعد ذلك أيدت ما فهمنا من القرآن بالنقل والعقل، ففي أمر النظام تدليت في غور الكلام بالبصر النافذ، وفي أمر التفسير عضضت على كتاب الله بالنواجذ، وكنت في هذا على بصيرة من ربي، غير متتبع لأحد، ومع ذلك لم أكن ببديع في تتبع النظام؛ لأن جماعة من العلماء قصدوا إليه وصنفوا فيه"⁴.

إن الإمام الفراهي يحمل إذن الآيات بعضها على بعض، فما أجمل في مكان بُين في مكان آخر، وهذا هو الأصل الذي تدور عليه كتبه في التفسير وعلومه⁵. وبهذا يتبين أن إمامنا قد سلك مسلك الجمهور في هذا المنهاج الصحيح والسليم ولم يجد عنه قيد أنملة.

¹ دلائل النظام، ص 83.

² التكميل في أصول التأويل، ص 263.

³ نظام القرآن، ص 6.

⁴ فاتحة النظام، ص 1.

⁵ انظر التكميل، ص 242.

أعطيك أنموذجات على سبيل المثال لا الحصر:

- في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: 74]، فلم يذكر (بأموالهم وأنفسهم): وهو مفهوم، ثم جاء بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَهِدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: 74]، فلم يذكر (في سبيل الله) ولا (بأموالهم وأنفسهم)، ولكن ذلك مفهوم، وقد دلّ عليه «معكم».
- وقد فسّر قوله تعالى: ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جَارََّةً مِنْ طِينٍ﴾ [سورة الذاريات: 33-34]، بقوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِمْ بِجِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [سورة الفيل: 4].
- وقال: الصلاة استعانة بالله، كما أمر موسى ﷺ قومه: ﴿تَرْمِيهِمْ بِجِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [سورة الأعراف: 128] وفي موضع آخر: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [سورة البقرة: 45].¹

المبحث الثالث: تفسير القرآن بالسنة:

لقد كان رحمه الله يركز في تفسيره على القرآن الكريم، وحبّ إليه ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم؛ لأنهم أصالة أدرى بفهم القرآن وتدبره، وبما شهدوه من القرائن والأحوال؛ حتى قال رحمه الله: "ولعمري أحبّ التفسير عندي ما جاء من النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم".²

ويرى رحمه الله أن السنة النبوية هم الرسول ﷺ للقرآن، مستدلاً بقول الشافعي رحمه الله تعالى: "كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن".³

¹ انظر المصدر نفسه، ص 242-243.

² فاتحة نظام القرآن، ص 23.

³ الإتيان في علوم القرآن، 4/ 467.

يقول رحمه الله: "أول شيء يفسر القرآن هو القرآن نفسه، ثم بعد ذلك فهم النبي ﷺ والذين معه، ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه.."، ثم يقول: "وإني مع اليقين بأن الصحاح لا تخالف القرآن، لا آتي بها إلا كالتبع بعدما فسرت الآيات بأمثالها؛ لكيلا يفتح باب المعارضة للمارقين الذين نبذوا القرآن وراء ظهورهم، والملحدين الذين يلزموننا ما ليس له في القرآن أصل، ولكي يكون هذا الكتاب حجة بين فرق المسلمين وقبلة سواء بيننا، فإني ما أردت أن أجمع كل ما يتعلق بالقرآن، فإنه كنز لا ينفد على كثرة المجتهدين، والكتب في التفسير كثيرة، فمن يسرح فيها نظر التحقيق يؤث من العلم ما شاء الله، ولكني أردت ما يكون كالأساس والأمر والوسط والحكم، ولهذا اقتصر على ما في القرآن، غير جاحد لما تركته، كما جمع البخاري رحمه الله في كتابه كل ما ثبت عنده من الحديث متفقاً عليه مع ما ترك كثيراً من الصحاح".¹

ومن أمثلة التفسير بالحديث كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [سورة البقرة: 61] قال: ﴿المسكنة﴾ مفعلة من السكون، وتستعمل للعجز وسقوط الهمة وبؤس العيش، ومنها المسكين، أي سد عنه طرق الكسب، ودل على هذا المعنى ما جاء في الحديث: "ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان، وإنما المسكين الذي لا يسأل ولا يفتن له فيعطى"² فالمسكنة شدة العجز وبؤس العيش".³

ولقد كان للشيخ موقف واضح من الإسرائيليات ذكرناه في موضعه من هذا الكتاب. على أنه لا يأخذ بالرواية المتعارضة مع أصل الكتاب، ويستغرب أن تؤول الآية لا الرواية؛ فقال: "فإني رأيت بعض الروايات تطلع الآيات وتقطع نظمها إلا أن تؤول، ولكن التعجب ممن يؤول الآية ولا يؤول الرواية، وربما لا يؤول الآية بل يرضى بقطع نظامها، والفرع أولى بالقطع".⁴

¹ فاتحة النظام، ص 7.

² أخرجه البخاري برقم (1479)، ومسلم برقم (1039).

³ نظام القرآن، ص 255.

⁴ مقدمة تفسير نظام القرآن، ص 28.

ولهذا جاء عنه في المآخذ الخيرية قوله: "من المآخذ ما هو أصل وإمام، ومنها ما هو كالفرع والتبع، أما الإمام والأساس فليس إلا القرآن نفسه، وأما ما هو كالتبع والفرع فذلك ثلاثة: (1) ما تلقته علماء الأمة من الأحاديث النبوية، (2) ما ثبت واجتمعت الأمة عليه من أحوال الأمم، (3) وما استحفظ من الكتب المنزلة على الأنبياء. ولو لا تطرق الظن والشبهة إلى الأحاديث والتاريخ، والكتب المنزلة من قبل لما جعلناها كالفرع، بل كان كل ذلك أصلاً ثابتاً يعضد بعضه بعضاً من غير مخالفة".¹

المبحث الرابع: عنايته بالجانب اللغوي والبلاغي:

كما أكدنا غير مرة أن العلامة الفراهي من أقطاب اللغة العربية ولاسيما في مفرداته،² وجمهرة البلاغة³ ودواوينه الشعرية، وغيرها؛ وقد شهد بعلو كعبه في علوم العربية فطاحل العلماء كالعلامة رشيد رضا وتقي الدين الهلالي وغيرهما. وهو إذ يتعاطى للتفسير انطلاقاً من القرآن الكريم وتأملاته البديعة، يراعي علوم اللغة على حدودها وقصورها تماماً كما قال: "وأما باقي علوم اللسان، كالنحو والمنطق والأصول والبيان والبلاغة والقافية فالكاتب المدونة فيها مع كثرة فوائدها أشد تقصيراً من كتب اللغة لفهم القرآن".⁴ لأنه رحمه الله يرى أن كتب اللغة مقصورة، وإنها كثيراً ما لا تأتي بحد تام ولا تميز بين العربي الفصح، ولا تهديك إلى جرثومة المعنى،⁵ فلا يدري ما الأصل وما الفرع، ما الحقيقة وما المجاز؟ فن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب الله تعالى، ومن كلام العرب القديم الذي وصل إلينا، ما هو منحول وما هو شاذ. ولكن لا يصعب

¹ المصدر نفسه، ص 28.

² وقد وقفنا مع المفردات للفراهي في فصل خاص وكشفنا منهجه فيه وقدمنا أنموذجاً في ذلك.

³ ولأهميته وقفنا مع كتاب "جمهرة البلاغة" ومحاولة الفراهي التجديد فيها عبر فصل خاص مع تفصيل قيمته العلمية ومظاهر التجديد في علوم البلاغة.

⁴ فاتحة نظام القرآن، ص 13.

⁵ لعله يقصد أصل المعنى؛ لأن الجرثومة ترد بذلك انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، 1/ 184.

التمييز بين المنحول والصحيح على الماهر الناقد؛ فينبغي لنا أن لا نأخذ معنى القرآن إلا مما ثبت، وكذلك يجب أن نترك المعنى الشاذ من اللغة".¹

وأنت تقرأ كتبه لا تحس بعجمة على الرغم من أنه هندي قُح؛ فقد صقله القرآن. لطول ما تفيأ ظلاله الوارفة؛ وقد شهد له بذلك العلامة تقي الدين الهلالي في تزكيته حين قال: "سمعت منه خطبة تفسيره للقرآن، اغرورقت منها عيناي لفصاحتها وحقيقتها".² وقد صحح أقوال المفسرين الذين فسروا الحَبْك تفسيرات تأبأها العربية في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [سورة الذاريات: 7] فقال: "وما قيل من أن المراد به السماء التي فيها النجم إما لإحكامها، أو لكونها مجردة بالكواكب فلا يصح؛ فإن الحَبْك ههنا ليس بمصر، إنما هو جمع بمعنى الخطوط والتكسر والغضون، فلا يكون وصفًا لهذا الكوكب، لا من جهة إحكامه، ولا من جهة نجومه".³

المبحث الخامس: الجانب الإشاري في تفسيره:

إن بعض علماء التفسير سلك المنهج الإشاري في التفسير على غرار العلامة الألوسي في "روح المعاني" وكان في غاية الاعتدال، غير أن بعضهم قد وقع له غلو في ذلك حتى عزفوا عن ظاهر القرآن؛ بيد أن الإمام الفراهي وضع سياجًا آمنًا لهذا الذوق البديع، فهو الذي مات وهو يتلو كتاب الله، وكان يغرق في بحر معانيه سابرًا أغواره، متدبرًا ومتأملًا حتى يفقد السيطرة، وينسلخ عمن حوله. ولقد كان رحمه الله يميل للتفسير الإشاري الذي يشهد له الكتاب والسنة الصحيحة؛ فقال في تفسير سورة الفاتحة: "إن هذه السورة لكونها أصل الصلاة، إذا قدمت على سائر القرآن، استنبطنا من موضعها أن الصلاة أول الأحكام، وتارك الصلاة نابذ للدين، ولما كان هذا الاستنباط بطريق الإشارة نظرنا في أحكام القرآن والسنة

¹ فاتحة نظام القرآن، ص 12

² مقدمة الناشر لنظام القرآن، ص 9.

³ تفسير الذاريات من نظام القرآن، ص 125.

فوجدناه موافقاً لهما، فصحت هذه الإشارة عندنا، وعظمت لدينا منزلة الصلاة بأن الله تعالى جعلها فاتحة عهده بها. وأن عهد الرب بهذه الأمة إقامة الصلاة، فمقي تمسكنا بها تمسكنا بحبل الله ﷻ وعروته الوثقى، فينصرنا على أعدائنا ويحفظنا عن أعداء عدونا الذي بين جنبينا كما وعد بنا كثيراً في كتابه".¹

ثم لم يغفل رحمه الله في التفاسير الباطنية التي أغرقت في بعض الترهات بمعزل عن ظواهر القرآن الكريم ما جعل الإمام الفراهي يصرح قائلاً: "ولما رأيت فتنة الناس بهذا المدعي، مع خلطة الحق بالباطل، أردنا أن نرفع بعض الحجب ليستمعوا القول، فيتبعوا أحسنه، ويعلموا أن الوحي والرسالة فوق ما زعموا، ولا نتمسك إلا بالقرآن أو كتب الأنبياء، ومع أني سلكت في هذا البحث مسلك أصحاب الرموز والإشارات فإني تجنبت سخافة الاستدلال، وصرف الألفاظ عن ظواهرها".²

وقد جنح في إشاراته إلى أن ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تشير إلى درجة محمد ﷺ. و﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إلى درجة عيسى ﷺ.

و﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تشير إلى درجة موسى ﷺ.

و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تشير إلى عهد داود ﷺ.

وحين تناول سورة الفاتحة ووقف مع قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: 6] قال: ظاهرة الإشارة إلى درجة إبراهيم ﷺ. فإن الصراط المستقيم هو التوحيد، والتوجه إلى الله. وما من نبي إلا على هذا الصراط".³ وقد علل هذه الإشارة لإبراهيم ﷺ بما يأتي:

¹ تفسير فاتحة الكتاب، ص 45.

² تفسير نظام القرآن، ص 94.

³ المصدر نفسه، ص 102.

- 1- إن إبراهيم عليه السلام هو رأس الموحدين، وكم في القرآن من الآيات تسمي هدى إبراهيم عليه السلام صراطاً مستقيماً.
- 2- وهو أول من كسر الأصنام.
- 3- وهو الذي رفع قواعد بيت التوحيد كما بنى داود عليه السلام بيت النذور والقدس.
- 4- وهو أول من فر إلى الله تعالى بدينه، فصار رأس المهاجرين؛ ولذلك أمر الله نبينا باتباعه، فإن شؤونه كشؤونه.
- 5- وهو الذي سقانا مسلمين من قبل، فالمسلمون أحق بإبراهيم عليه السلام. اقل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢١٧) إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٨﴾ [سورة آل عمران: 67-68]. انظر كيف ختم الله الآية بأنه ولي المؤمنين، فاستقام سبيل الولاية، واتصل برينا على صراط مستقيم، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢١٣) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ [سورة الأنعام: 161-162]، فتبين لك أن الصراط المستقيم له دلالة خاصة على درجة إبراهيم عليه السلام لإقدامه وتشميره واستقامته، ونزيد البحث عن سعة معنى هذه الكلمة الجامعة فيما بعد إن شاء الله تعالى.¹

المبحث السادس: توجيهه القراءات:

لم يكن موضوع توجيهه القراءات يشغل بال الفراهي كثيراً إلا في مواضع محدودة جداً؛ وكان لا يرى بأساً بالقراءة الشاذة؛ وهي القراءة التفسيرية أحياناً المنسوبة إلى ابن مسعود رضي الله عنه؛ ومنها:

- عند تفسيره قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَرْجُونَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة: 1-2): حيث قال: "فقد روي أنه قرأ -أي عبد الله مسعود-

¹ المصدر نفسه، ص 102-103.

بعدها قوله تعالى: ﴿الْم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة السجدة: 1-2]، وكان من عادته في التفسير أن يقرأ من القرآن بالنظير، وقد أخطأ الرواة كثيراً فيما زعموا ذلك منه قراءة؛ وهذا يتضح من تتبع ما ذكروا من قراءاته وقراءات الصحابة¹. وقد نافح الفراهي عن ابن مسعود رضي الله عنه فيما زعموا أنها قراءة شاذة فلم يؤيد الجمهور.

- قرأ ابن مسعود رضي الله عنه ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: 188] فقال الفراهي: "والآخر منها² النصب على الظرف فيكون معناه حينئذ: "لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وأنتم تدلون بها إلى الحكام"، ثم عقب عليه فقال: "الجزم أحسن، وأن أبي بن كعب قرأ (ولا تدلوا)، أي قرأ ليفسره"³. وهذه القراءة تؤيد جزم "ادلوا" في قراءة الجماعة، وقيل: تدلوا في موضع نصب على الظرف، وهذا مذهب كوفي أن معنى الظرف هو الناصب، والذي ينصب في مثل هذا عند سيبويه "أن" مضمرة"⁴.
المبحث السابع: تفسير آيات الأحكام:

لقد أخذ الإمام الفراهي على عاتقه أن يدور بفلك نظام القرآن، وبالتالي رباط الآيات بعضها ببعض ليتبين وجه النظام ولينتظم في سمط منضود، ما فوت عليه الوقوف مع المسائل الفقهية في تفسيره، وقد صرح أن هذا ليس من مقصده في تأليف النظام، فاعتذر بصريح العبارة إذ قال: "ولكني ما أردت أن أجمع كل ما يتعلق بالقرآن، فإنه لا ينفد على كثرة المجتهدين، وكتب التفسير كثيرة، فمن يسرح فيها بنظر التحقيق يؤت من العلم ما شاء الله، ولكني أردت ما يكون

¹ تفسير نظام القرآن، ص 79.

² أي الوجه الآخر في الإعراب.

³ المحرر الوجيز، 6/ 13.

⁴ انظر المحرر الوجيز، 1/ 260.

كالأساس والأُم والوسط والحكم، ولهذا اقتضت على ما في القرآن غير جاحد لما تركته، كما جمع الإمام البخاري رحمه الله في كتابه ما ثبت عنده من الحديث متفقاً عليه مع ما ترك كثيراً من الصحاح¹. وزاد في احتجاجه أن المقصد هو التزكية من وضع الشرائع فقال: "الشرائع جلها للتزكية كما مرّ، ولكن يحتاج إلى أحكام غير مقصودة بالذات لفرق بين المطيع والعاصي، أو بين القوي في الإيمان والضعيف. فمن هذا النوع ابتلاؤهم بالنهر والحطة. وهذا الابتلاء يكون لحكمة، وفي أمور لا يضر العصيان فيها الأمور العامة. فإذا أضر الناس فهي من نوع الشرائع المقصود بها النفع لذاتها"².

المبحث الثامن: عنوانات التفسير السبعة:

لقد قسم الإمام الفراهي رحمه الله تفسيره الجليل إلى سبعة عنوانات؛ وهي:

1- المقدمة.

2- الكلم.

3- النحو.

4- البلاغة.

5- التأويل.

6- التدبر.

7- النظم.

أما المقدمة: ففي أمور كلية من عمود السورة ومطالبها، ومواقع نزولها، ووجه خطابها، وترتيب أجزائها.

وأما الكلم: ففي معنى الكلمة ومادتها وصورتها، والاستدلال فيه بالقرآن وكلام العرب.

وأما النحو: ففي تأليف الكلمة، والاستدلال فيه بالنظائر وحسن التأويل.

¹ فاتحة نظام القرآن، ص 7.

² الرائع في أصول الشرائع، ص 18.

وأما البلاغة: ففي دلالة الأساليب على معاني تناسب المحل.

وأما التأويل: ففي حمل الكلام على مراده حسب المحل، وفي ذلك معظم الاستدلال بالقرآن وكلام العرب.

وأما التدبر: ففي ذكر المبادئ والنتائج أي اقتضاء النص وإشارته، والاستدلال فيه بصريح العقل وكتاب الله.

وأما النظم: ففي بيان موقع جملة من الكلام، ورباط بعضها ببعض.

ثم تناول السورة بالشرح والبيان وافيًا بما التزمه.¹

المبحث التاسع: ديباجة فاتحة القرآن:

لقد أصدر الفراهي فاتحة نظام القرآن في حوالي (57) صفحة؛ وقد طبعت منفصلة عن تفسير النظام؛ وهي تختزل منهجه في التفسير كما سيأتي. نكتطف منها ما يأتي:

"فالتمست معنى الآيات من أخواتها، وكذلك استنبطت نظام السورة من أعماقها، ومن نفس سياقها، ثم بعد ذلك أيدت ما فهمنا من القرآن بالنقل والعقل، ففي أمر النظام تدليت في غور الكلام بالبصر النافذ، وفي أمر التفسير عضضت على كتاب الله بالنواجز".

ثم قال: إن معظم أسباب الاختلاف في تأويل أي القرآن تعود لعدم فهم نظامه الذي لو فهم لاختفت معظم تلك الأسباب وتلاشت. وأن كتابته في ذلك رد على الملحددين الذين طعنوا في القرآن بأنه كتاب سيء النظم - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا - وأن نظم الكلام بعض من الكلام فإن تركته ذهب بعض معناه؛ ولذلك فمن حرم

¹ انظر تفسير نظام القرآن، ص 27، وبحث الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في التفسير، د. محمد يوسف الشُّريحي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد (20) العدد الثاني، 2004م، ص 480.

فهم النظام حرم حظاً وافراً من الكلام، ولا يكون حاله إلا كحال أهل الكتاب الذين أخبر الله عنهم: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة المائدة: 14].

هذا وقد فنّد بعض الشبهات فقال: "إن مواقع الآيات ومواردها كانت أبين شيء عند الصحابة رضي الله عنهم؛ فإنها كانت على حسب حالاتهم وما بين أيديهم من الأمور، فلو كنا في ذلك العصر لما خفي علينا نظامها، ومثل ذلك سبب لقلة التفسير عنهم، فإن اللسان لسانهم، والأسلوب أسلوبهم، والأمور أمورهم، فلا نشاركهم في ذلك".

وختم ديباجته قائلاً: "فإني ما أردت أن أجمع كل ما يتعلق بالقرآن؛ فإنه كنز لا ينفد على كثرة المجتهدين، والكتب في التفسير كثيرة، فمن يسرح فيها نظر التحقيق يؤت من العلم ما شاء الله، ولكني أردت ما يكون كالأساس، والأم، والوسط، والحكم". ثم شرع يبين المقدمات السبع عشرة الآتية.

المبحث العاشر: اختزال منهجه في سبع عشرة مقدمة:

وحين أخذ الإمام الفراهي يوضح أفكاره في فاتحة نظام القرآن جعلها تنحصر في سبع عشرة مقدمة اعتبرها أساس منهج تفسير الرجل الشهم؛ وهي على النحو الآتي:

- 1- المقدمة الأولى في شأن النزول.
- 2- المقدمة الثانية في المآخذ الخيرية.
- 3- المقدمة الثالثة في المآخذ اللسانية.
- 4- المقدمة الرابعة في كشف الكتب المنزلة بعضها ببعض.
- 5- المقدمة الخامسة في أن القرآن قطعي الدلالة.
- 6- المقدمة السادسة في المناسبة والترتيب.
- 7- المقدمة السابعة في إثبات أن السورة الواحدة لها نظام واحد ونفي الاقتضاب.

العدد الخاص ————— مجلة الهند

- 8- المقدمة الثامنة في نسبة القرآن إلى الكتب السابقة في أمر الأحكام والحقائق.
 - 9- المقدمة التاسعة في مقدار السور.
 - 10- المقدمة العاشرة في عيون تعليم القرآن.
 - 11- المقدمة الحادية عشرة في أن المعروف ما عرفته العرب صالحًا، والمنكر ما أنكرته.
 - 12- المقدمة الثانية عشرة في أن النظام له دلالة خاصة.
 - 13- المقدمة الثالثة عشر في أجزاء النظام.
 - 14- المقدمة الرابعة عشر في أسماء السور من عمود السورة.
 - 15- المقدمة الخامسة عشرة في تعيين الخطاب المحتمل وجوهًا.
 - 16- المقدمة السادسة عشر في كيفية النزول.
 - 17- المقدمة السابعة عشر في تأويل القرآن بالحديث.
- المبحث الحادي عشر: سورة البقرة:

شرع الإمام الفراهي في تفسير سورة البقرة غير أنه لم يكملها، وقد وافته المنية رحمة الله عليه؛ وقد جمعت أطراف تفسيره في كتاب "نظام القرآن"؛ وقد جعل رحمه الله القول فيها ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: وذكر في المقدمة عشرة فصول فيه؛ وهي:

- 1- حقيقة السورة ونسبتها بالفاتحة وسورة آل عمران.
- 2- موضوع السورة وغايتها.
- 3- مطابقة الوقائع بهذه الغاية.
- 4- جماع هذه الغاية استخلاص الكعبة.
- 5- مطابقة ذلك بما وقع لبني إسرائيل.
- 6- نقطة هذه الغاية هي الوحدة القائمة في الله.
- 7- المطابقة بين أحوال النبي ﷺ وهذه الغاية.

- 8- مطابقة السورة بزمان نزولها.
 - 9- مطابقة السورة بأحوال المخاطبين.
 - 10- النظر الإجمالي في أجزاء السورة ونظام هذه الأجزاء.
- القسم الثاني: وقد جعله كما أوردناه آنفًا على ستة عناوين أو مباحث، تتكرر مع كل مقطع السورة التي يتناولها التفسير؛ وهذه العناوين الستة هي:
- 1- **الكلم:** ويكون في معنى الكلمة ومادتها وصورتها، والاستدلال فيه بالقرآن وكلام العرب.
 - 2- **والنحو:** ففي تأليف الكلمة، والاستدلال فيه بالنظائر وحسن التأويل.
 - 3- **والبلاغة:** ففي دلالة الأساليب على معاني تناسب المحل.
 - 4- **والتأويل:** ففي حمل الكلام على مراده حسب المحل، ومعظم الاستدلال في ذلك بالقرآن وكلام العرب.
 - 5- **والتدبر:** ففي ذكر المبادئ والنتائج، أي اقتضاء النص وإشارته، والاستدلال فيه بصريح العقل وكتاب الله تعالى.
 - 6- **والنظم:** ففي بيان موقع جملة من الكلام، ورباط بعضها ببعض.
- ويقول رحمه الله: "اعلم أن هذه السورة جملة واحدة متصلة منظمه بعضها ببعض على غاية حسن النظام كما سيتضح لك من تفسيرها، ولكنها مع ذلك مرتبة على ستة أجزاء: مقدمة وأربعة أبواب".
- أما المقدمة: فهي جملة الكلام في إثبات القرآن والنبوة وما يتعلق بها، وذلك حقيقة الإيمان، فالإيمان عبارة عن الإيمان بهذا الكتاب الذي يتضمن الإيمان بسائر الكتب، والنبوات، وبما أمر الله به ونهى عنه، وبأصول العقائد وصحاحها.
- وأما الأبواب فجاءت بالترتيب حسبما جاء نعت النبي ﷺ في دعوة إبراهيم عند بناء الكعبة، كما قال الله تعالى حكاية عن ذلك الدعاء: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾
[سورة البقرة: 129].

وقال في إنجاز دعائه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: 151).

وقال في موضع آخر: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة آل عمران: 164].
وفي موضع آخر: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة الجمعة: 2].

ففي دعاء إبراهيم عليه السلام آخر التزكية؛ لكونها غاية، وفي إنجاز ذلك قدمها؛ لنعلم أن هذا النبي ﷺ جعلها أول أمره وأتمها، وإنما تتم بعد العلم والعمل، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا النبي ﷺ هو آخر الأنبياء، فإنه يفعل ما هو كمال سعادة النفس، ثم تقديم التزكية في الإنجاز تشير إلى أن هذا النبي ﷺ هو النبي الذي دعا له إبراهيم عليه السلام، فإنه جعل غاية ما في دعائه أول أمره وأصل قصده، فبدأ به، ثم جعل يعلمهم الكتاب والحكمة؛ ليتم التزكية...

وكما أن التزكية لها بداية ونهاية واتصال بتلاوة الآيات، فكذلك الحكمة لها بداية ونهاية تبتدئ ببداية التزكية وتتم بتمامها:

- 1- فتلاوة الآيات تمهيد لما يتبع من التزكية والتعليم.
- 2- وتعليم أصول الدين خطوة أولى للتزكية.
- 3- وتعليم الأحكام هو الخطوة الثانية لها.
- 4- وتعليم الحكمة هو الخطوة الثالثة لها، وبه تمام التزكية التي تحصل بالعلم والعمل في هذه الحياة.

فبحسب مناسبة هذه الأمور الأربعة جعل ترتيب الأبواب الأربعة:

فالباب الأول: في تلاوة الآيات البينة والدلائل الواضحة على إثبات هذه الرسالة الموعود بها في الكتب السابقة حسب وصفه الأول، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة الجمعة: 2].

الباب الثاني: في بداية التزكية، وهي الذكر والشكر، والصبر والتوكل، والتوحيد والتفكير، والإيمان والأمانة، والبر والتقوى، وذلك حسب وصفه الثاني؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

الباب الثالث: فيما كتب الله عليهم من السياسة العادلة، والشرائع المطهرة، والآداب النقية، التي تعين على الحكمة من جهتيه النظرية والعلمية، وذلك حسب وصفه الثالث، وهو قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ أي الشرائع.

الباب الرابع: في تحصيل الحكمة التي تحصل بكمال الطاعة، وهي الخروج الكلي عن سلطان الشهوات ببذل النفس والمال، ورعاية المساواة، والرفق والمعاملات، وحينئذ تنجلي عن النفس كل غشاوة، وتتركى عن كل رجس، فتدخل حظيرة القدس وتطمئن في حرم الأنس عن أسر الهوى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [سورة الأنفال: 24]...

هذا هو الوصف الرابع، أعني تعليم الحكمة وتحقيق التزكية الثانية التالية للحكمة التي هي النعمة الكبرى والكنز الذي لا يفنى كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة البقرة: 269]...

فهذه السورة كأنها مرآة صفات النبي ﷺ، ومرآة لتمام القرآن، ما جمعت أمور الرسالة كلها، وأولى السور بالفاتحة... فهذا بيان الأبواب الأربعة...

وأما الخاتمة: فهي جامعة لما سبق من الاعتقاد، وعيون الشرائع، والثبات عليها، وبذل النفوس للدفاع عنها، وفيها الدعاء بالنصر والمغفرة كالنتيجة لهذا كله. ثم يقول: "فالآن تبين أن نظم هذه المطالب على غاية السداد وصحة الترتيب، فإنك ترى السابق منها وسيلة إلى اللاحق، فإن الأدلة وسيلة إلى الإيمان، والإيمان وسيلة يؤدي إلى الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة تتم بالحكمة، وبهما تتم التزكية التي هي كمال النفس وفلاحها بإكمال طرفيها: العلمي والعملية. فهذا نظام السورة من حيث المجموع، وأما النظم التفصيلي لأجزائها، فسيأتيك عند النظر في جزء من السورة".¹

المبحث الثاني عشرة: سورة الفيل:

وهذا أنموذج آخر من تفسيره وخطوطه العريضة لكن من سورة من السور المفصلة، لا الطوال كالبقرة: حيث ذكر لها خمسة عشر مطلبًا: وهي:

- 1- في تفسير كلمات السورة.²
- 2- في تعيين المخاطب بهذه السورة.
- 3- عمود السورة وربطها بالتالي قبلها والتي بعدها.
- 4- بيان فضل الله بهذا البيت وأهله على سائر المعابد وذويه.
- 5- أمور مهمة مما يتعلق بتقديس مسجد وحفظه.
- 6- إجمال القصة حسبما نص عليه القرآن.
- 7- النظرة الأولى وهي فيما زعموا من سبب مجيء أبرهة وفرار أهل مكة وما جرى بينه وبين عبد المطلب.
- 8- النظرة الثانية وهي في رمي أصحاب الفيل بالحجارة وكونها من الآيات العظام.

¹ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 46-50 (يتصرف يسير).

² فهنا على سبيل المثال لا الحصر قال: "ليس في السورة كلمة غريبة، وإنما نفسرها لتتضح وجوهها وما يتعلق بها من الأحوال، فأما أصحاب الفيل فجيء أبرهة الأشرم".

- 9- النظرة الثالثة وهي فيما كان من أمر الطير التي أرسلت على أصحاب الفيل.
- 10- الاستدلال بكلام العرب على أن الرمي كان من السماء والريح.
- 11- في أكل الطير أصحاب الفيل تصديق لبشارة عظيمة في نبينا ﷺ.
- 12- أسباب صارفة عن التأويل الراجح.
- 13- بيان معنى الرمي بالحجارة وتمهيد للنظر في أصل رمي الجمار بمنى.
- 14- أصل سنة رمي الجمار.
- 15- أثر هذا التأويل في القلوب عند عمل رمي الجمار.

الفصل الخامس عشر: منهج الفراهي في تعليقاته على نسخة القرآن الخاصة به

تمهيد:

توجد نسخة من تعليقات الإمام الفراهي لها أهميتها، انطوت على بعض المعلومات التفسيرية، أيُّنا إلا أن نفرد لها في هذا الفصل؛ على الرغم من أن الإمام الفراهي أرادها لنفسه لا للنشر؛ وذلك لما أَلْفِينَا اتصالها بجهوده في خدمة القرآن وعلومه؛ وهو ما نتناوله في المباحث الآتية:

المبحث الأول: مدلول التعليقات:

وردت لفظة "تعليقة"¹ في المعجم الوسيط بما يأتي: التَغْلِيْقَةُ: ما يُذَكَّرُ في حاشية الكتاب من شرح لبعض نَصِّه وما يجري هذا المجرى. والجمع: تعالِيقٌ.² وتعليقات. إن مدلول التعليقات التي درج عليها العلماء في كتبهم العلمية هي ما يعن لهم من أفكار، وخواطر، ولطائف فيقيدونها بجوار النص، أو في حاشية الكتاب؛ ومنها

¹ ومنها على سبيل المثال لا الحصر "التعليقة على كتاب سيبويه"، للحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الأصل، أبو علي (المتوفى: 377هـ)

² انظر المادة في المعجم الوسيط.

تعليقات الفراهي ذات الفوائد المنيفة. ولا يلزم أن يستقصي فيها، وإنما هي قيود وتعاليق ونفائس، نتيجة تدبره للنص وتأملاته بين يديه.

"وكثيراً ما نصادف في التراجم عبارة "له تعليقة" إشارة إلى أن الفقيه عندما كان طالباً كتب تعليقاً بسند من أستاذه في الفقه، مبنياً على أساس دروسه أو كتبه، وكانت كتابة التعليق جزءاً أساساً من تعليم الفقه، وقد تكون التعليقة مصنفاً له خصائص وصفات مميزة. والتعليقة إما أن تكون من إنتاج الأستاذ، أو طالب الفقه المتقدم (العالي)، ففي حالة الأستاذ الفقيه تكون عبارة عن مجموعة مذكرات الدروس التي يعدها لاستعماله الشخصي في تدريس مقرره الدراسي، أو قد تكون مصنفاً كاملاً يمكن أن يستعمله غيره من مدرسي الفقه. أما التعليقة بالنسبة لطالب الفقه المتقدم أي في المرحلة العالية من دراسته فقد تكون مجموعة من الملاحظات التي دونها من دروس أستاذه، أو كتبه، يدرسها ويستظهرها ثم يعرضها على الأستاذ لكي يمتحنه فيها بغرض ترفيقته إلى مرتبة الإفتاء، وقد تنتهي إلى مشروع تأليف يستهدف الطالب إخراجه مصنفاً كاملاً يكون بمثابة أول إصدار له".¹

المبحث الثاني: ماهية "التعليقات" للفراهي:

توجد هذه النسخة في الشبكة العنكبوتية:² ويمكن تقسيم هذه التعليقات إلى ثلاثة أقسام:³

- 1- تفسير بعض السور التي أكملها في حياته، وطبع معظمها أمام عينه وبعضها بعد وفاته، كل سورة في جزء على حدة بالخط الفارسي. وقد أعادت الدائرة الحميدية طباعتها جميعاً في مجلد واحد.

¹ نشأة الكليات معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب، لجورج المقدسي، ص 131-132، ترجمة: محمود سيد محمد، مراجعة وتعليق: محمد بن علي الحبشي، وعبد الوهاب أبي سليمان، ط1، 1414هـ، 1994م، مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز، جدة.

² توجد نسخة من هذا المصحف مع تعليقات الفراهي على موقع الإمام الفراهي:

<http://www.hamid-uddin-farahi.org>

³ انظر الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير، ص 103.

- 2- هناك سور قد بدأ الإمام الفراهي بتفسيرها لكن لم يتيسر له إتمام ذلك بسبب وفاته، وأهمها تفسير سورة البقرة، وقد وصل في تفسيرها إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّئِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: 62]، ومنها سورة آل عمران، وقد فسّر قدرًا كبيرًا منها مرتين، وسور أخرى كتب في تفسيرها فصولًا عديدة، ولم تطبع بعد.
- 3- تعليقات مختصرة، وهي عبارة عن خواطر وأفكار ظهرت له في أثناء تلاوة القرآن الكريم وتدبره، وكان يكتب هذه التعليقات تذكراً لنفسه لا للنشر، وقد نشرت هذه التعليقات. وقد تناولت هذه التعليقات سور القرآن كلها، وكان يضع بين كل ورقتين من مصحفه ورقة بيضاء أو أكثر، ويكتب فيها تأملاته بقلم الرصاص، وكان عنده ثلاثة مصاحف.

المبحث الثالث: تعليقاته على سورة البقرة:

إنه يعلق في سورة البقرة على الآيات؛ وفق الآتي:

من الآية (1) إلى الآية (151) تمهيد الشرائع.

ومن الآية (152) إلى الآية (186) ثم عد هذه الشرائع ووضع في كل أمر منها الأرقام:

- 1- الذكر.
- 2- الصلاة.
- 3- والصبر.
- 4- والحج.
- 5- والعمرة.
- 6- وإحلال الطيبات.
- 7- وتحريم الميتة.
- 8- ولحم الخنزير.

- 9- وما أهل به لغير الله.
- 10- وإيتاء المال.
- 11- وإيفاء العهد.
- 12- والقصاص.
- 13- ووصية المحتضر.
- 14- والصوم.
- 15- والنهي عن الرشوة.
- 16- والقتال.
- 17- والحذر من التهلكة.
- 18- ونسك الحج.
- 19- والتجارة في موسم الحج.
- 20- والدخول في السلم كافة.
- 21- وتحريم الخمر.
- 22- وتعيين ما ينفقون.
- 23- ومعاملة اليتامى.
- 24- والنكاح بالمشركات.
- 25- وأحكام الحيض.
- 26- والطلاق.
- 27- وحقوق الموضع.
- 28- والعدة.
- 29- وخطبة النساء.
- 30- ومهر من لم تمسس.
- 31- ومتاع المطلقة.
- 32- وأن لا إكراه في الدين.

33- وكف المن والأذى من الصدقة.

34- وإبداء الصدقة وإخفاؤها.

35- وتحريم الربا.

36- والكتابة في التداين.

37- والاستشهاد.

38- والرهن.

39- وأن لا تكتنوا الشهادة.

40- وأداء الأمانة.

فقال رحمه الله: هذه أربعون حكماً إجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩﴾ [سورة البقرة: 129]، وتصديقاً لما وصفه في التوراة حيث قال في سورة الأعراف: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِنَّا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٥٧﴾ [سورة الأعراف: 156-157].

إنه كان إذا تلا آية من القرآن فيعلق عليها بخواطره ويذكر نظائرها من القرآن الكريم. يقول رحمه الله في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣﴾ [سورة البقرة: 3]: الصلاة هي أول نتيجة الإيمان، والثانية هي الزكاة. فإن الصلاة ذكر كما بيّنه القرآن. ومن أحب أو خاف أكثر الذكر. ويلزم

التقوى رقة القلب، وخلع ما يثقله من حي الدنيا وشهوات النفس، فالمتقي يتزكى ويطهر، فيرجع إلى أصل الفطرة، وهي اتحاد النفوس كما بين في أول سورة النساء، فالتقوى جامعة للصلاة والزكاة معاً، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [سورة البقرة: 152]، فعاهدنا بالذكر والشكر والصلاة والزكاة أولاً. قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَكِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [سورة البقرة: 152]، فليدعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى امْتَثِلْ فُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنعام: 70-71]، وعلى هذا شواهد كثيرة ومنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: 177]، وهكذا في الإنجيل.¹

المبحث الرابع: تعليقاته على سورة عبس:

يقول رحمه الله: "هذه السورة بضمها بالتي قبلها تدل على أن كفار قريش كفرعون في طغيانهم وعدم خشيتهم. وفيها مقابلة من استغنى ومن يخشى وبين من يزكي ومن لا يزكي. في أول السورة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أن جاءه الأعمى وما يذكرك

¹ انظر تعليقات في تفسير القرآن، 17-18.

لَعَلَّهُ يَرْكَبُ ٢ أَوْ يَذْكُرُ فَيَنْفَعَهُ الذِّكْرُ ٣ أَمَّا مَنْ أَسْتَعَى ٤ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ٥
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ ٦ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ٧ وَهُوَ يَخْشَى ٨ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ٩
[سورة عبس: 1-10]. فهذه الآيات خطاب للنبي ﷺ ثم التفات إلى جميع الناس، ثم
ختم التكوير بالخطاب إليهم، وجرى الخطاب في الانفطار. وفي التطفيف وجه
الكلام إليهم، ولكن أتى بالغائب لغلظة القول. فرجع في الانشقاق فخطبهم، ثم في
آخرها وأخر البروج والطارق خاطب النبي ﷺ وودع الكفار وداع المقت قليلاً¹.
المبحث الخامس: تعليقاته على سورة الفيل:

أما تعليقه الأول:

فقال فيه: "من سورة الفيل إلى سورة الهمذاني ذكر نعمه ونقمه واحدة بعد أخرى
متواليات:

فالأولى والثانية في عظم الكعبة.

والثالثة في مقصدها وهو الصلاة والإطعام. وفرق بين المؤمن والمنافق.

والرابعة مثل السادسة أمرًا للنبي فأتته متعلقًا بالكعبة، وعد النصر وكثرة
الداخلين في الدين وخسران أبي لهب الطاعن.

والخامسة سورة الحرب.

والسادسة سورة النصر.

والسابعة تباب العدو.

والثامنة سورة التمام والكمال. فإن الكعبة أصل التوحيد وإبراهيم عليه السلام إمامه،
والقرآن كتابه.

والتاسعة والعاشر خاتمة الكتاب.

¹ انظر المصدر نفسه، 2/ 418.

وأما التعليق الثاني:

قال فيه: "سورة الفيل هنا ذكر نعمة عظيمة أنعم بها على بني إسماعيل، ولم يجعلها لبني إسرائيل لقتلهم الأنبياء. فكم من دائرة دارت على يروشلیم تارة من الفرس وتارة من الروم، وجعل لها سورة كاملة لتعلم عظم شأنها".¹
وَأتم الفائدة في الإيلاف. ولما كانت الكعبة أول بيت مبارك للأمن والعبادة حفظها الله تعالى. فالكعبة أصل لظهور التوحيد، فلا بد أن يحمى عنه.²

المبحث السادس: تعليقاته على سورة المسد:

قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَآمَرَأْتُهُ حَمَّالَةَ أَحْطَبٍ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾ [سورة المسد: 1-5]، قال الفراهي: "أتى بصيغة الماضي للتحويل وتصوير المستقبل. كانت قريش ذوي أنفة وإباء وعزة، حتى قال قائلهم: "النار لا العار". والتكبر بجاه الدنيا قد سيطر من دمهم قلما يؤثر فيهم إنذار عذاب الآخرة، وكانوا يباهون بكثرة المال. فخوف الكبراء وذوي الأموال بعذاب الهون. وقد علمت أن الثواب والعذاب لهما مناسبة بأعمالهم.

وهذه السورة مثل ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝﴾ في المستهزئين بالفقراء والمتكبرين بالمال، فذكر الله تعالى عذاب الهون والذلة. وتجد في القرآن شواهد جملة في ذكر من طغى بماله، فمنها: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطِفٍ ۝﴾ [سورة العلق: 6]، و﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝﴾ [سورة الليل: 1]، و﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ۝﴾ [سورة الفجر: 26]، و﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۝ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۝﴾ [سورة الهمزة: 8-9]، و﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّوَصَّدَةٌ ۝﴾ [سورة البلد: 20]، و﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝﴾ [سورة الحاقة: 30-32].

¹ المصدر نفسه، 2/ 489.

² المصدر نفسه، 489.

(تبت يدا) جاء في المزمور السابع والثلاثين الذي يطابق السور العشر (105-114): "لأن سواعد الأشرار تنكسر".¹

الفصل السادس عشر: عناية الإمام الفراهي بمفردات القرآن ومنهجه فيه

تمهيد:

إن الإمام الفراهي ظهرت براعته وإبداعاته في مختلف مؤلفاته وأبحاثه العلمية ولا سيما في مفرداته؛ إذ لم يكن نسخة مكررة لما سبقه، بل هضمها وأحسن هضمها، وأبدع فيها إبداعاً رائعاً، ونلاحظ لأول وهلة مدى إضافته العلمية؛ ما حمله على تأليف كتاب "مفردات القرآن" للفراهي؛ وهو بحق أحد الكتب الخمسة الرئيسة التي ألّفها تمهيداً إلى استكشاف أسرار القرآن التي لا يدركها إلا اللبيب الحاذق ذو القريحة ممن فتح الله عليهم فتوح العارفين. تُرى، فما هو منهجه في مفرداته؟ وهو تمامًا ما نحلّله في المباحث الآتية:

المبحث الأول: عناية العلماء بمفردات القرآن:

لقد ظهرت كتب في مفردات القرآن ومعانيه وغريبه في وقت مبكر جداً من تاريخ الإسلام العظيم، ولابن عباس رضي الله عنه قصب السبق إلى ذلك،² لاسيما في إجاباته عن المسائل التي سألها عنها نافع بن الأزرق مستشهداً عن تلكم المعاني بأبيات من

¹ المصدر نفسه، 505/2 - 506.

² قال محققه التصاريف: "والسابق بهذا التصنيف عبد الله بن عباس ثم مقاتل ثم الكلي" انظر محققه التصاريف: 28. كما أشار ابن الجوزي إلى أنه قد نسب كتاب في الوجوه والنظائر إلى عكرمة عن ابن عباس، وكتاب آخر إلى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس "انظر نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ص 82. بل ونسب فؤاد سركين كتاب غريب القرآن لابن عباس في تاريخ التراث العربي، 1/ 67.

الشعر الجاهلي؛ وهو ديوان العرب؛ وذلك بعد أن يقول له نافع: وهل تعرف العرب ذلك؟

وقد تهاطلت بعده الكتابات في الموضوع؛ منها:¹

- 1- معاني القرآن، لواصل بن عطاء البصري (ت 131هـ).
- 2- معاني القرآن، لأبان بن تغلب الكوفي (ت 141هـ).
- 3- غريب القرآن، لمحمد بن السائب بن بشر الكوفي (ت 146هـ).
- 4- الأشباه والنظائر، لمقاتل بن سليمان البلخي (ت 150هـ).
- 5- معاني القرآن، للرؤاسي أبي جعفر محمد بن الحسن بن أبي سارة المقرئ النحوي (ت 170هـ).
- 6- معاني القرآن، ليونس بن حبيب الضبي البصري النحوي (ت 182هـ).
- 7- معاني القرآن، للكسائي علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي أحد القراء السبعة (ت 189هـ).
- 8- معاني القرآن، لأبي فيد مؤرج بن عمرو بن منيع السدوسي إمام النحو والعربية (ت 195هـ).
- 9- غريب القرآن، ليحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي اليزيدي البصري (ت 202هـ).
- 10- غريب القرآن، للنضر بن شميل بن خرشة بن يزيد بن كلثوم البصري النحوي الفقيه (ت 203هـ، وقيل: 204هـ).
- 11- غريب القرآن، لمحمد بن المستنير بن أحمد البصري النحوي اللغوي المعروف بقطرب (ت 206هـ).

¹ انظر كتابنا حاجة العلوم الإسلامية إلى اللغة العربية، عن غريب القرآن، في فصل حاجة علوم القرآن إلى اللغة العربية، ص 145 وما بعدها، ومعاجم مفردات القرآن لشيخنا أحمد حسن فرحات، ص 4 وما بعدها، ومفردات الفراهي، المحقق، ص 43 وما بعدها.

العدد الخاص مجلة الهند

- 12- معاني القرآن، للفراء، يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور أبي زكريا النحوي اللغوي (ت 207هـ).
- 13- معاني القرآن، لأبي عبيد معمر بن المثنى البصري النحوي اللغوي (ت 210هـ).
- 14- معاني القرآن، للأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة النحوي (ت 215هـ).
- 15- غريب القرآن، للأصمعي عبد الملك بن قريب الباهلي أبي سعيد (ت 216هـ).
- 16- معاني القرآن، لأبي القاسم بن سلام النحوي الأديب الفقيه (ت 223هـ، وقيل: 224هـ).
- 17- غريب القرآن، لمحمد بن سلام بن عبيد الله الجمعي البصري (ت 231هـ).
- 18- غريب القرآن، لعبد الله بن يحيى بن المبارك العدوي البغدادي المعروف باليزيدي (ت 237هـ).
- 19- غريب القرآن، لمحمد بن عبد الله بن قادم أبي جعفر (ت 251هـ).
- 20- غريب القرآن، لمحمد بن دينار الأحول الكوفي أبي العباس (ت 259هـ).
- 21- تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة عبد الله بن مسلم الدينوري اللغوي النحوي (ت 276هـ).
- 22- معاني القرآن وإعرابه، لإسماعيل بن إسحاق الجهمي الأردني الفقيه المالكي (ت 282هـ).
- 23- معاني القرآن، للمبرد بن يزيد بن عبد الأكبر الأردني العالم بالعربية (ت 286هـ).
- 24- غريب القرآن، لأبي جعفر أحمد بن رستم الطبري المقرئ (المتوفى في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري).
- 25- ضياء القلوب، للمفضل بن سلمة بن عاصم الضبي الكوفي (ت 290هـ).
- 26- معاني القرآن، لثعلب لابن كيسان محمد بن أحمد بن إبراهيم أبي الحسن (ت 299هـ).

- 27- غريب القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد الطبري أبي جعفر شيخ المفسرين (ت310هـ).
- 28- معاني القرآن، لسلمة بن عاصم أبي محمد النحوي اللغوي (ت310هـ).
- 29- معاني القرآن وإعرابه، للزجاج إبراهيم بن السري بن سهل أبي إسحاق (ت311هـ).
- 30- معاني القرآن، لأبي بكر بن محمد بن عثمان الجعد الشيباني النحوي (المتوفى حوالي 311هـ).
- 31- معاني القرآن، للأخفش الصغير أبي الحسن علي بن سليمان (ت315هـ).
- 32- معاني القرآن، لابن الخياط أبي بكر محمد بن أحمد بن منصور (ت320هـ).
- 33- غريب القرآن، لأحمد بن سهل البلخي أبي زيد (ت322هـ).
- 34- غريب القرآن، لإبراهيم بن محمد بن عرفة أبي عبد الله الملقب بـ "نقطويه" (ت323هـ).
- 35- معاني القرآن، للخزار أبي الحسن عبد الله بن محمد بن سفيان النحوي (ت325هـ).
- 36- معاني القرآن، لابن الأنباري أبي بكر محمد بن القاسم (ت328هـ).
- 37- نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن، لمحمد بن عزيز العزيزي السجستاني أبي بكر (ت330هـ).
- 38- معاني القرآن وتفسيره ومشكله، لأبي الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح الوزير (ت334هـ).
- 39- معاني القرآن، للنحاس أبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي (ت338هـ).
- 40- ياقوتة الصراط، لأبي عمرو محمد بن عبد الواحد المعروف بالزاهد غلام ثعلب (ت345هـ).
- 41- الرد على الفراء في المعاني، لابن درستويه أبي محمد عبد الله بن جعفر بن المرزبان النحوي (ت347هـ).

- 42- غريب القرآن، لأحمد بن كامل بن خلف أبي بكر (ت 350هـ).
- 43- الإشارة في غريب القرآن، لمحمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون أبي بكر النقاش (ت 351هـ).
- 44- الموضح في معاني القرآن، لمحمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون أبي بكر النقاش (ت 351هـ).
- 45- رياضة الألسنة في إعراب القرآن ومعانيه لأبي بكر محمد بن عبد الله بن أشته الأصفهاني (ت 360هـ).
- 46- الإغفال فيما أغفله الزجاج من المعاني، لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي (ت 377هـ).
- 47- كتاب الغريبين، للهروري أبي عبيد أحمد بن محمد (ت 401هـ).
- 48- غريب القرآن، لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت 421هـ).
- 49- تفسير المشكل من غريب القرآن، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت 437هـ).
- 50- كتاب القرطين، لمحمد بن أحمد بن مطرف الكناني أبي عبد الله (ت 454هـ).
- 51- غريب القرآن، لأبي عمر عبد الواحد بن أحمد المليحي (ت 463هـ).
- المبحث الثاني: مفردات الراغب الأصفهاني:
- إن مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (ت 412هـ) كان إضافة إلى المكتبة الإسلامية عامة وعلوم القرآن والتفسير خاصة؛ وهو "أشبه ما يكون بمعجم كامل للألفاظ القرآنية"،¹ وصرح الفيروزآبادي أنه "لا نظير له في معناه"،² كما عدّه الإمام الزركشي من أحسن كتب الغريب،³ وأكّد حاجي خليفة أنه أحسن الكتب المؤلفة في هذا

¹ انظر المعجم العربي، 1/ 44.

² انظر البلغة، ص 91.

³ انظر البرهان في علوم القرآن، 1/ 291.

الشأن.¹ بل يكاد يجمع علماء الأمة وأعلامها على أن كتاب "مفردات ألفاظ القرآن" للراغب الأصفهاني يأتي في المرتبة الأولى من الكتب الكثيرة المؤلفة في هذا الموضوع، فليس هناك مؤلف في علوم القرآن، أو دارس أو مفسر أو كاتب - بعد الراغب الأصفهاني - إلا ويشعر بالإجلال والإعجاب لهذا العمل العظيم الذي يعتبر بحق نقلة كبيرة في ميدانه، ومنعطفًا هامًا في تاريخ معاجم المفردات القرآنية.²

المبحث الثالث: مفردات الإمام الفراهي:

لقد جاء العلامة الفراهي بعد الراغب الأصفهاني وكل من كتب في مفردات القرآن، فكتب مفرداته، وجعله جزءًا من مشروعه القرآني العظيم؛ وقد ألفه تمهيدًا إلى فهم القرآن على الوجه الصحيح علاوة على "التكميل في أصول التأويل" و"أساليب القرآن" لأن معرفة الألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى إلى فهم القرآن، وأن سوء فهم الكلمة يصرف عن تأويل السورة بأسرها، ومع الأسف الشديد فإن المؤلف لم يستطع إكمال المفردات.

فقد قال الفراهي في مقدمته: "فهذا كتاب في مفردات القرآن جعلته مما نحول إليه في كتاب "نظام القرآن": لكيلا نحتاج إلى تكرار بحث المفردات إلا في مواضع يسيرة يكون الصحيح غير المشهور، فنذكر بقدر ما تطمئن به القلوب السليمة، ولا نورد في هذا الكتاب من الألفاظ إلا ما يقتضي بيانًا وإيضاحًا، إما لبناء فهم الكلام أو نظمه عليه. فإن الخطأ ربما يقع في نفس معنى الكلمة فيبعد عن التأويل الصحيح، أو في بعض وجوهها فيغلق باب معرفة النظم. وأما عامة الكلمات فلم نتعرض لها، وكتب اللغة والأدب كافلة به. ومع ذلك تجد هذا الكتاب إن شاء الله محتويًا على جل ما يقتضي الشرح من ألفاظ القرآن".³

¹ انظر كشف الظنون، ص 1208.

² معاجم مفردات القرآن لأحمد حسن فرحات، ص 9. وقد اعتنى شبلة وزميله د. محمد إقبال فرحات بالراغب في تحقيق تفسيره، ودراسة فصول من أصول التفسير لدى الراغب الأصفهاني.
³ مفردات الفراهي، ص 93.

ثم تعرض فضيلته لمقصد الكتاب وحاجتنا إليه، ابتدأها بذكر الخطوة الأولى في فهم كلام الله؛ وهي المعرفة بالألفاظ العربية، وبعض الجهل بالجزء يفضي إلى زيادة جهل بالمجموع، وإنما يسلم المرء من الخطأ إذا سدّ جميع أبوابه. ومن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أغلق عليه باب التدبر، وأشكل عليه فهم الجملة، وخفي عنه نظم الآيات والسورة... وربما ترى أن الخطأ في معنى كلمة واحدة يصرف عن تأويل السورة بأسرها مثل لفظ القسم وأدواته.. وكتب اللغة والغريب لا تعطيك حدود الكلمات حدًا تامًا.

وفي المقدمة الثانية التي جعلها للأصول اللسانية تحدث فيها عن تقسيم مواضع الوهم من الكلمة والكلام.

وفي المقدمة الثالثة تحدث عن خلو القرآن عن الغريب؛ لأن التسمية بالغريب إنما تصح بالنسبة إلى المعجم ومن قلّ علمه بالعربية، ثم تحدث عن ألفاظ القرآن، العام والخاص، والحروف المقطعات.

المبحث الرابع: أسباب اختياره التأليف في المفردات:

يمكن اختزال أسباب اختيار موضوع مفردات القرآن التي حملته على التأليف في ما يأتي¹

1- أهمية المعرفة الدقيقة لمعاني المفردات، وقصور كتب اللغة والغريب:

وقد تحدث الفراهي في المقدمة الأولى لكتاب المفردات عن أهمية الموضوع وشدة الحاجة إليه، فقال: "لا يخفى أن المعرفة بالألفاظ هي الخطوة الأولى في فهم الكلام، وبعض الجهل بالجزء يفضي إلى زيادة جهل بالمجموع. وإنما يسلم المرء عن الخطأ إذا سدّ جميع أبوابه، فمن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن، أغلق عليه باب التدبر، وأشكل عليه فهم الجملة، وخفي عنه نظم الآيات والسورة.. ثم

¹ انظر بحث: مفردات القرآن للفراهي وأهميته في علم غريب القرآن، د. أجمل أيوب الإصلاحي، ضمن مجموعة أبحاث ودراسات، ص 137-139، بتصرف يسير.

سوء فهم الكلمة ليس بأمر هين، فإنه يتجاوز إلى إساءة فهم الكلام وكل ما يدل عليه من العلوم والحكم، فإن أجزاء الكلام يبين بعضها بعضاً للزوم التوافق".

2- الرد على الطاعنين من المستشرقين:

كتب المستشرقون كثيراً في ألفاظ القرآن، وزعموا أن عدداً كبيراً منها أخذ النبي ﷺ من اليهود والنصارى، وأن بعضها لم يفهمه النبي ﷺ، فأخطأ في استعماله في القرآن: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥﴾ [سورة الكهف: 5]. وكان العلامة الفراهي رحمه الله مطلعاً على كتابات هؤلاء، فرد عليهم في هذا الكتاب، وقد بين في تفسير بعض الكلمات خطأ علماء اليهود أنفسهم في فهم صحفهم فيقول في كلمة ﴿هادوا﴾: "زعم الطاعنون في القرآن أن هذه الكلمة خطأ، فإن اسم اليهود ليس مأخوذاً من مادة (هود)، بل هو للنسبة إلى يهودا فتبين اشتقاق هذا الاسم لتعلم أن طعنهم من سوء فهمهم القرآن وصحفهم".¹ وكذلك يقول في كلمة "النصارى": "زعم الطاعنون أن القرآن لم يعرف هذه التسمية وجعلها من النصرة لما جاء في: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [سورة الصف: 14]. وهذا الطعن منشأه الجهل بمعنى الآية؛ فإنها إنما ذكرت أمراً حقاً، ولم تذكر وجه التسمية. نعم فيها إشارة إلى أن المسمين بالنصارى يجب عليهم نصر الحق، لما في اسمهم تذكاري لذلك، وأمثال هذه الإشارات توجد في كلام الأنبياء. ثم ذكر مثلاً لذلك من إنجيل متى.²

3- الإحالة في التفسير على كتاب المفردات تجنباً للتكرار:

طريقته في تفسير "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" أنه يتناول مجموعة آيات من السورة، ويفسر أولاً مفرداتها، فالألفاظ التي كان يراها بحاجة إلى تفصيل القول فيها وتكثير الشواهد عليها، أراد أن يجمعها في كتاب المفردات

¹ مفردات القرآن، ص 70.

² المصدر نفسه، ص 69.

ليحمل الكلام عليها في التفسير ويحيل الراغب في التفصيل على كتاب المفردات، وقد أشار إلى ذلك في خطبة كتاب المفردات قائلاً: "أما بعد، فهذا كتاب في مفردات القرآن، جعلته مما نحول إليه في كتاب "نظام القرآن"؛ لكيلا نحتاج إلى تكرار بحث المفردات، إلا في مواضع يسيرة يكون فيها الصحيح غير المشهور، فنذكر بقدر ما تطمئن به القلوب السليمة".¹

المبحث الخامس: منهج الفراهي في مفرداته:

بناء على ما ذكره في مقدمة مفرداته من مقدمات؛ يمكن استقراء منهجه وفق الملاحظات الآتية:

- 1- على الرغم من قيمة الكتاب العلمية وجداره أبحاثه، وأصالة أحكامه، فإنه لم يكتب له أن يكمل على النحو الذي تغياه مؤلفه رحمه الله.
- 2- لم يكتب الفراهي المفردات دفعة واحدة أو على نفس واحد، بل حرر مادة هذا الكتاب في أوقات مختلفة ومتفاوتة؛ بدليل إحالاته على المفردات من كتبه الكثيرة، بيد أنها بالرجوع إلى محال الإحالة غير موجودة أو مضمنة في الكتاب الذي وصلنا ومسوداته المحققة.
- 3- لم يقصد من تأليف مفرداته أن يكون معجمًا شاملاً لألفاظ القرآن كاملة، وإنما اقتصر على الألفاظ التي وقع فيها نوع من الإشكال فرأها بحاجة إلى بيان.
- 4- كان المصدر الأول في تفسير المفردات هو القرآن الكريم في تحقيق أصل المعنى ووجوهه المختلفة والفروق الدقيقة وذلك بتدبر سياقاتها ومواقعها.
- 5- رجع فضيلته إلى مصادر اللغة ومنابعها الأولى، فتتبع استعمالاتها في القرآن الكريم وكلام العرب القديم،² فينظر في أصلها واشتقاقها.

¹ المصدر نفسه، ص 3.

² قال رحمه الله: "فمن لم يمارس كلام العرب، واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب الله" فاتحة نظام القرآن، ص 12.

- 6- بل لم يقتصر رحمه الله في تحقيق الألفاظ القرآنية على ما انطوت عليه كتب التفسير واللغة فحسب، بل كان يرجع بالكلمة إلى المصادر الأولى تمامًا كما صرح في مقدمة تفسيره فقال: "فأما سائر الألفاظ فالمأخذ فيه كلام العرب القديم".¹
- 7- سبر رحمه الله أغوار الشعر الجاهلي، وتمرس عليه، فنفعه في استجلاء المعنى الصحيح للمفردات، وقد نوه في غير ما مرة بأهميته، مميّزًا بين المنحول فيه والصحيح الثابت؛ وهو من المهرة النقادين ذوي التمييز "بين المنحول والصحيح على الماهر الناقد، فينبغي لنا ألا نأخذ معنى القرآن إلا مما ثبت".²
- 8- ولم يكن يقتصر على النقول بواسطة عن الكتب العبرانية،³ بل يباشر البحث عن المفردة في استعمالها في العبرانية أو السريانية وبيان معانيها ومواردها في تلكم الكتب كما سيأتي في بعض الأمثلة على غرار المواد الآتية: (درس) و(الأب) و(السفرة) و(الصلاة).. إلخ.
- 9- أما المعاني الشرعية فإنه يكتفي بالقرآن مصدرًا لها وأصلًا حاكمًا لمعانيها كالصلاة والزكاة والحج وقد صرح بذلك في مقدمة تفسيره كما مرّ معنا قريبًا؛ فقال: "أما سائر الألفاظ فالمأخذ فيه كلام العرب القديم والقرآن نفسه".⁴
- 10- تحاشيه رحمه الله المعنى الشاذ لألفاظ القرآن فقال: "يجب أن نترك المعنى الشاذ الذي لم يثبت في اللغة كما قيل في معنى "التمني" إنه التلاوة. وما فزعوا إلى هذا المعنى الشاذ الذي لم يثبت إلا فراغًا من بعض الإشكال. وهذا أفتح لأبواب الفتنة واختلاف الأمة".⁵ ومن أمثلته أيضًا في قوله تعالى:

¹ فاتحة نظام القرآن، ص 12.

² المصدر نفسه.

³ لقد رجع الإمام الفراهي رحمه الله إلى مصادر من غير العربية كالعبرانية في تحقيق بعض الألفاظ المشتركة بين اللغتين رد شبهات المستشرقين الذين زعموا أن القرآن أخذ من بعض الألفاظ من اليهود والنصارى.

⁴ انظر المصدر نفسه، ص 12.

⁵ فاتحة نظام القرآن، ص 13.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [سورة الأنبياء: 37]. إذ فسرت "بالطين والحمأة،

فإنه لم يثبت هذا المعنى في اللغة".¹

11- أخذه رحمه الله بأثبت الوجوه ضمن الأصول المرجحة للتأويل؛ فقال: "المعنى الذي كثر في كلام العرب لا ينبغي تركه إلا لصارف قوي، فإذا تساوى الوجوه الأخر وهي النظم والموافقة بباقي القرآن وصريح العقائد فلا بد أن نأخذ المعنى الشائع".² وذلك مثل تفسير ﴿وانحر﴾ حيث قالوا هو أمر بوضع اليد على النحر.. ومناسبة ذلك بالصلاة لا يغرن أحدًا، فإن الأمر بالأضحية أحسن مناسبة وأوسع.³

12- يعنى رحمه الله بالفروق اللغوية؛ ونظرًا لأهمية الموضوع أفردت له فاصلاً خاصاً. المبحث السادس: استقصاء ألفاظ تغيرت معانيها بعد الإسلام كـ"الطوفان": وكان المقصد من تأليف المفردات هو التفريق بين معاني الألفاظ عند نزول القرآن وبين ما صدرت بعد ذلك مثل "الوحي" لم يكن مختصاً بما أنزل على الأنبياء.

قال الإمام الفراهي: "نستقصي ألفاظاً تغيرت معانيها بعد الإسلام، ونبين معانيها التي نزل بها القرآن مثل الصلاة، والتسبيح، والركوع، والآلاء، والقرآن، والكتاب، والفرقان، إما بالذهول عن المعاني القديمة أو بالغلبة أو التبادر، كالطوفان؛ فإنه الريح الدوارة الشديدة- كما نرى في آيات موسى عليه السلام - والمتبادر الآن منه فوران الماء، وليس معناه في القديم من اللغة العربية".⁴

¹ المفردات، ص 548.

² التكميل في أصول التأويل، ص 272.

³ انظر تفسير سورة الكوثر من نظام القرآن.

⁴ وقد عثر على هذه التذكرة ضمن مسودات الإمام الفراهي الدكتور عبيد الله الفراهي وزودها د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي؛ وهو محقق المفردات للفراهي. انظر كتاب المفردات نفسه، ص 218-219.

المبحث السابع: حمل كلمة "الصبر" على الخوف فقط خطأ!

قال الإمام الغزالي: "وأما الصبر على قضاء الله فيصدر عن الخوف والرغبة"¹ وعلق عليه الإمام الفراهي: "أخطأ معنى الصبر، إذ جعل منشأ الخوف، والحق أن الصبر هو الاستقامة مع الضر؛ وذلك يكون من الحب، كما يكون من الخوف"². ويقول في مفرداته: "الصبر عند العرب ليس من التذلل في شيء، كما يصبر المضطهد العاجز، بل هو أصل القوة والعزم"³.

المبحث الثامن: كلمة (كيد) في سورة الفيل:⁴

والأصل أنه قال: "ليس في السورة كلمة غريبة، وإنما نفسرها لتتضح وجوها وما يتعلق بها من الأحوال" ثم بحث في كلمة (كيد) فقال: "وأما الكيد فهو التدبير الخفي لضرر العدو؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾^{١٥} وَأَكِيدُ كَيْدًا^{١٦} [سورة الطارق: 16]، أيضًا في قصة فرعون: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾^{١٧} [سورة طه: 60]، وأيضًا فيها: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾^{١٨} [سورة طه: 64]، وأيضًا في كفار العرب: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^{١٩} [سورة آل عمران: 120]. قال النابغة:

¹ انظر جواهر القرآن للغزالي، ص 48.

² انظر مفردات الفراهي، ص 205.

³ ويقول: وكثر استعماله بهذا المعنى. قال حاتم الطائي:

وغمرة موتٍ ليس فيها هواده
يكون صدور المشرك في جسرورها

صبرنا له في نهكها ومصاها
بأسيا فنا حتى يبوخ سعيورها

انظر ديوان حاتم الطائي، ص 248؛ ومعنى نهكها: جهدها، ومصاب الشيء: حيث يصوب أي يقصد، المشركي: السيف. انظر مفردات الفراهي، ص 289.

⁴ انظر تفسير سورة الفيل من نظام القرآن، ص 415 وما بعدها، ومفردات الفراهي، ص 374 وما بعدها.

يقودهم النعمان منه بمحصف وكيد يغم الخارجي مناجد
وقال زهير بن أبي سلمى يصف الملك سنأنا:

له لقب لباعي الخير سهل وكيد حين تبلوه متين
أي تدبير محكم، وقال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [سورة الأعراف: 183]،
[سورة القلم: 45]، وكذلك ينسب إليه الوهن والضعف قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ
مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: 18]، وأيضاً: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا
﴿٧٦﴾﴾ [سورة النساء: 76]، وكذلك ينسب إليه الضلال والتباب وعدم الهداية".

المبحث التاسع: المعنى الصحيح لـ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ يزيل الشبهة!

وقد بين الإمام الفراهي أنهما كلمتان، لم يفهمهما أكثر الناس، فظنوا أن القرآن
يشهد بالكتب المحرفة المبدلة: أما "مصدقاً" فقد كان مظنة للشبهة، لاشتراك
كلمة "التصديق". وأما "بين يديه" فلجهل الناس بالعربية، لا سيما في هذا الزمان.¹
وبين احتمال الوجوه ثم اختار الوجه الذي يدرأ الشبهة بما تسمح به العربية؛
فقال: "فاعلم أن "صدقه" له معنيان:

- 1- شهد بصدق رجل أو كلام.
- 2- والمعنى الثاني أن جعله صادقاً فيما توقع. قال الحماسي:
فدت نفسي وما ملكت يميني فوارس صدقت فيهم ظنوني
وفي القرآن: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة سبأ: 20].

ويرد فيها الفراهي قائلاً: "ثم إذا تأملت في مواقع هذا القول، علمت أن المراد هو
المعنى الثاني. فإن كذبوا القرآن والنبي ﷺ يكن ذلك تكذيباً لكتبتهم".²

¹ مفردات الفراهي، ص 311.

² المصدر نفسه، ص 312.

المبحث العاشر: هل كلمة (الآلاء) يراد بها النعم فقط؟

قد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم (34) مرة: مرتين في سورة الأعراف: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٦٦) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصِبْتُ أَنْتَجِدِلُونَنِي فِي أَشْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ فَانْتَضِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صٰلِحًا قَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَأَذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾ [سورة الأعراف: 69-74]، ومرة واحدة في سورة النجم: ﴿فَبِآيٍ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [سورة النجم: 55]، والمواضيع الباقية في سورة الرحمن.

أجمع أهل اللغة وعامة المفسرين على أن معناها: النعم، ولكن الإمام الفراهي رحمه الله يقول: إن القرآن وكلام العرب كلاهما يأبى هذا المعنى!

وبتدبره واستشهاداته اهتدى إلى أنها "الفعال العجيبة، ولما كانت غالب فعال الله تعالى الرحمة ظنوا أن الآلاء هي النعم، والرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما حملتهم على هذا، ولكن السلف إذا سئلوا أجابوا حسب السؤال والمراد المخصوص في موضع مسؤول عنه"، وقال في موضع آخر: "ولما كانت الرحمة من

أغلب شؤون الرب ﷻ غلب استعمال هذا اللفظ في معنى النعم، ولكن العربي القح هو الأول، وبه نزل القرآن".

وقد كان استدلال الإمام الفراهي في محله حين استشهاد بالنصوص القرآنية التي لا يتماشى معنى النعمة والرحمة مع السياق؛ ومنها:

1- قوله تعالى من سورة النجم: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۚ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ التُّذْرِ الْأُولَىٰ ۚ﴾ [سورة النجم: 55-56]، وقد وردت الآلاء بعد ذكر إهلاك الأقوام.

2- قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۚ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَيَبْنَئُ جَمِيمٌ ۚ﴾ [سورة الرحمن: 43-45]، جاءت كلمة (الآلاء) بعد وصف يوم القيامة وعذاب جهنم.

وقد استشهد ببيت عربي وهو قول فضالة بن زيد العدواني:

وفي الفقر ذل للرقاب وقلمما رأيتُ فقيراً غير نكسٍ مذمم
يلام وإن كان الصواب بكفه ويحمد آلاء البخیل المدرهم
يقول: أي يحمدون صفات البخیل وفعاله؛ وهذا البيت أوضح على معنى "الآلاء".
فهذا التحقيق والتفسير الدقيق لكلمة الآلاء يعدّ فتحاً علمياً في دراسة لغة القرآن، وتاريخ المعجم العربي أيضاً. وبرهان ذلك أن المعجم الكبير الذي أصدر مجمع العربية بالقاهرة الجزء الأول منه عام 1970م "بعد جهد ربع قرن" لم يزد في تفسيرها على معنى النعمة. فلو لم يحو كتاب مفردات القرآن للفراهي إلا تفسير كلمة الآلاء لكفاه شرفاً وتميزاً¹.

أما التحقيق والتأصيل والتدقيق فهو ما لجأ إليه الفراهي ولا بد أن الذي دفع الفراهي إلى هذه الدراسة شعوره بأن المعنى المعروف ليس دقيقاً، وبخاصة حينما

¹ انظر المصدر نفسه (المحقق)، ص 71.

ينظر إليه في تفسير الآية القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمن: 35-36] فأين النعمة في إرسال الشواظ من النار؟ وهذا ما اضطر كثيرًا من المفسرين إلى التعسف في التأويل، ومن ثم كان التحقيق بالرجوع إلى الشعر الجاهلي لاستنقاذ أصل المعنى بعد أن كاد ينسى.¹

قال محقق مفردات الفراهي: "هذا التحقيق والتفسير الدقيق لكلمة الآلاء يعدّ فتحًا علميًا في دراسة لغة القرآن، وتاريخ المعجم العربي أيضًا. وبرهان ذلك أن المعجم الكبير الذي أصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء الأول منه 1970م، بعد جهود ربع قرن، لم يزد في تفسيرها على معنى النعمة. فلو لم يحو كتاب مفردات القرآن للفراهي إلا تفسير كلمة الآلاء لكفاه شرقًا وتميزًا".²

المبحث الحادي عشر: مادة (درس):

تناول الراغب الأصفهاني مادة (درس) على أنها ما بقي أثرها، وكذا الفيروز أبادي في بصائر ذوي التمييز غير أن الإمام الفراهي يؤكد أن مادة (درس) لفظ يوجد كثيرًا في كلام العرب في معنى (البلى) وأما في القراءة كما يفهمون من استعمال القرآن حيث جاء: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ [سورة القلم: 37]، فلا يوجد له مثال! وقد زعم بعض من غير المسلمين أن هذا لفظ أخذه المصطفى ﷺ من اليهود، وهذا بعيد جدًا! لأن النبي ﷺ يكلم قومه باللسان العربي، بلغتهم.

وانتهى رحمه الله إلى أن الدرس في معنى "البلى" وأصله "الحكُّ والمَشَقُّ" ومنه للخط قال أبو داؤد:

¹ انظر معاجم مفردات القرآن لفرحات، ص 38.

² مفردات الفراهي (المحقق)، ص 71.

ونوء أضربه السافياء كدرس من النون حين امحى¹
ومنه: كثرة الاشتغال بالقراءة وهذا يتضح من استعمال هذه الكلمة في كلتا
اللغتين: العربية والعبرية.

ومن أصل المعنى: الدرس: للجرّب والجكّة، والمدرّوس: الفراش الموطأ والدرس:
للأكل الشديد ومنه: درس الطعام: درس. قال ابن ميادة:

هلا اشتريت حنطة بالرسّاق سمراء مما درس ابن مخراق
ودرس الصعب حتى راده ودرست الكتاب بكثرة القراءة حتى خفّ حفظه،
فالدرس: كثرة القراءة ومعنى الكلمة في العبرية: اختصّ بالقراءة وأما العربية
فبقيت الكلمة على السعة وأقرب إلى الأصل إذ جاءت لكثرة القراءة لا للقراءة، كما
قال تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلْيُبَيِّنْهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام: 105] أي:
بالغت في قراءتك عليهم وأما أنها لا توجد في هذا المعنى في أشعار العرب، فذلك لأن
للشعر مجاري محدودة ومعاني خاصة فقلما يذكرّون القراءة فضلاً عن إكثارها.
وبعد النظر فيما ذكره المعجميون ابتداء من الراغب الأصفهاني وقد تكلف في
تصريف الكلمة وتبعه الفيروز آبادي وحتى معجم مجمع اللغة العربية لم يأت
بجديد فإن الإمام الفراهي "قد رجع إلى الشعر الجاهلي يستنطقه، كما رجع إلى
العبرية أخت العربية ليتبين له الأصل الذي ترجع إليه الكلمة، ومن ثمة وصل إلى
حقيقة المعنى، على حين وقف السابقون عند المجاز ولم يجاوزوه".²

¹ أي: كخط النون وشكل النون في الخط العربي القديم هكذا (ن) فشبه أمواج الرمل بهذا
الشكل قد شبه عنقرة الحاجب بالنون في قوله:

له حاجب كالنون فوق جفونه وثغر كزهرة الأقحوان مفلّج

انظر شرح ديوان العنقرة للخطيب التبريزي، ص 41.

² معاجم مفردات القرآن، ص 42.

المبحث الثاني عشر: كلمة (العصر):

أطبقت كتب اللغة والغريب على أن العصر هو الدهر، لا فرق بينهما البتة. ويأتي الإمام الفراهي في مفرداته مبدعاً على جدارة واستحقاق، بتذوقه اللغة العربية وأسرارها، وتقفره لمواقع استعمالها في كلام العرب والنظر في مشتقاتها حيث إنه خلص إلى أن للعصر معنيين:

1- الزمان الماضي.

2- وآخر النهار.

وأورد كل الشواهد المتاحة والتي تنم عن عمق البحث والحفر فيقول: "اعلم أن كلمة العصر اسم للزمان من جهة ذهابه ومروره، كما أن الدهر اسمه من حيث مجموعه. ولذلك يستعمل العصر كثيراً للأيام الخالية" وبعد استشهاده بالأبيات الشعرية قال: "ومن هنا (الإعصار) للريح السريعة من جهة المرور والذهاب، (وعصر المانع): إمراره، و(العصر) لآخر النهار من جهة ذهاب النهار، و(العصارة)، ومنه عنصر الشيء. فكلمة العصر تذكرهم الأيام الخالية وتوجههم من صفات الزمان إلى زواله وسرعة أعمالهم، والثانية تحرضهم على التشمير لكسب ما ينفعه من زمان أجلى صفته سرعة الزوال".

ومن استشاداته قول ربيع بن ضبع:

أصبح مني الشباب قد حسرا إن ينأ عني فقد ثوى عُصرا
وقول أبي حنيفة:

وكنا حسبناهم فوارس كهمسٍ حُيوا بعدما ماتوا من الدهر أعصرا
وقول مسعود بن مصاد الكلي:

قد كنت في عُصْر لا شيء يعدله فبان مني وهذا بعده عُصْر

أي هذا الزمان بعد ذلك أيضًا ماضٍ ومازٍ، فتأمل.

وقول عبد الله بن سلمة الغامدي:

فإن تشب القرون فذاك عصر وعاقبة الأصاغر أن يشيخوا

فذاك عصر: أي فذاك الدهر شأنه أن يمر!

وقول لبيد بن التمس الغساني:

نحن كنا الملوكة في عصر الدهر — وكنتم فيم الأناء عبيدا

المبحث الثالث عشر: كلمة "صغو":

ذهب المعجميون كالراغب الأصفهاني والسمين والفيروز آبادي وغيرهم إلى أن "الصغو" هو الميل. غير أن الإمام الفراهي دقق في المصطلح على علم ودراية وقال: "الصغو في جميع الألسنة ولا سيما في لغة العرب ألفاظ خاصة لأفراد خاصة تحت معنى كلي، والذهول عن هذه الخصوصيات مبعد عن فهم اللسان.

مثلاً: الميل: معنى كلي، ثم تحته: الزيع، والجور، والارعواء، والحيادة، والتنجي، والانحراف، كلها للميل عن الشيء والفيء والتوبة، والالتفات.

والصغو: كلها للميل إلى الشيء؛ فمن خبط بينهما ضل وأضل.

فلا يخفى على العالم بلسان العرب أن قوله تعالى: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [سورة التحريم: 4] معناه: أنابت قلوبكما، ومالت إلى الله ورسوله؛ فإن الصغو هو الميل إلى الشيء لا عن الشيء".¹

وذكر رحمه الله منها أمثلة ومنها:

¹ مفردات الفراهي، ص 293.

صاغية الرجل: لأتباعه، وصغو معك: أي ميله. وأصغيت إلى فلان: أي ملت بسمعك نحوه. ومنه الحديث: "ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليّناً"¹. أي مال صفحة عنقه إليه.²

الصبي أعلم بمُصغى خده: أي هو أعلم إلى من يلجأ أو حيث ينفعه.

صغت الشمس والنجوم: أي مالت إلى الأرض.

وفي حديث الهرة: "كان يصغي لها الإناء"³. أي: يميله ليسهل عليها الشرب.

وقد استشهد بأبيات العرب في التدليل على ما جنح إليه كقول ذي الرمة:

تُصغي إذا شدّها بالكور جانحةً حتى إذا ما استوى في غرزها تثبُّ⁴

المبحث الرابع عشر: كلمة "صلى":

ذهب الراغب وغيره إلى أن "الصلى" الإيقاد بالنار، وحتى مجمع اللغة العربية. وأما الإمام الفراهي⁵ فيقول: الصلاة في الأصل الإقبال على الشيء، ومنه الركوع، ومن التعظيم والتضرع والدعاء، وهي كلمة قديمة بمعنى الصلاة والعبادة؛ جاءت في الكلدانية بمعنى الدعاء والتضرع، وفي العبرانية بمعنى الصلاة والتضرع، ومن هذا الأصل: صلي النار: أقبل عليها ثم بمعنى: دخل النار، كما قال تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [سورة المسد: 3] وأيضاً: ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ [سورة الانشقاق: 3].

¹ أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب في خروج الدجال برقم (2940).

² انظر النهاية في غريب الحديث، 3/ 33.

³ أخرجه مالك في الموطأ (92)، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه كلهم في كتاب الطهارة، والمصغى هو أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه، وقد تكرر في الحديث لفظ الصغو والإصغاء والصاغية.

⁴ انظر ديوان ذي الرمة، ص 48، وجمهرة الأشعار، ص 956. ومعنى البيت أنها تميل رأسها إلى الرجل كأنها تستمع شيئاً حين يشدّ عليها الرجل. جانحة: مائلة. الغرز: ركاب الناقة.

⁵ انظر مفردات الفراهي، ص 209-210.

[12]، ومنه التصلية كما قال تعالى: ﴿وَتَصَلِّيْهُ جَجِيْمٌ ٩٤﴾ [سورة الواقعة: 94]. ولذلك فإن أصل "الصلاة" الإقبال على الشيء؛ ويدخل تحته كل المعاني التي ذكرت للصلاة عند المعجميين ودون تكلف؛ ويمكن اعتماده إبداعاً من الفراهي، واعتماده جذراً حقيقياً لبقية المعاني الأخرى.

المبحث الخامس عشر: الأصل كون القرآن خالياً عن الغريب:

لما كان كتاب الله أنزل بلسان عربي مبين، وكان موجهاً إلى قوم عرب يفهمون مقاصد الكلام، والمقصد الأسنى هو التبليغ وإبانة الحق رسالة إلى العالمين؛ فهذا كله يقتضي أن يكون كلام الله واضحاً خالياً من التعقيد والغريب. قال الإمام الفراهي: "قد أفصح القرآن بكونه عربياً مبيناً، وقد وجدناه كذلك. فإن من مارس لغة العرب، ونظر في أشعارهم وخطهم ومحاوراتهم وجد القرآن أسهلها كلاماً، وأقومها نظماً، وأبينها مقالة، وأوضحها دلالة، وأجمعها سلاسة وجزالة، قد أخلص عن الوحشي الغريب، كما أخلص عن التعقيد في التركيب، ثم يشهد بذلك صريح المعقول. فإن الغرض منه التبليغ والصدع بالحق والترغيب والترهيب وهذا يقتضي كلاماً واضحاً".¹

لكن لماذا درج بعض العلماء في اللغة وعلوم القرآن على التصنيف في غريب القرآن والحديث، وذكروا اختلافاً كثيراً في تأويل بعض الألفاظ؟

بل قد أولوا بعضها بلغة الحبش والأنباط وغيرهما؟

وذكروا أخباراً وروايات عن بعض الصحابة والجلة منهم كأبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه لم يكن يعرف معنى "الأب"؟

أما بخصوص التسمية بـ "غريب" فقد صرفها الإمام الفراهي "إلى العجم ومن قلّ علمه بالعربية وأما الاختلاف في التأويل فلقلة العلم بمواقع النزول وأحوال من نزل فيهم، وقلة التدبر في نظم القرآن، ووجوه آخر".²

¹ انظر المصدر نفسه، ص 108.

² المصدر نفسه، ص 109.

وقد تأول وجود المعرب في القرآن من الألفاظ من غير لغة قريش، "فإن صحت الرواية فنحملها على بيان أصل الكلمة؛ فإنه لا شك أن غير واحد من الألفاظ العربية مجلوبة من لسان آخر، مثل كلمة "سجيل"، و"قسطاس" و"قنطار" وهذا لا يجعل الكلمة غريبة ولا مجهولة".¹

ولم يعترف فضيلته بأن الجلة من الصحابة كانوا يجهلون معاني بعض الألفاظ كالأب والتخوف، وشكك في الروايات التي تفيد أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يجهل معنى لفظ "الأب" وأن عمر الفاروق رضي الله عنه كان يجهل معنى لفظ "تخوف" لا سيما أن السورتين كانتا تقرأ كثيرًا في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وهم في صحبة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يسألوه، ولا سمعوا أحدًا يسأله! وهم من هم وفيهم من صناديد قريش من العرب العرباء وأصحاب الفصحى فلم يستسغ الفراهي مطلقًا خفاءها عليهم رضي الله تعالى عنهم جميعًا.

المبحث السادس عشر: مقارنة بين مفردات الفراهي وعمدة الحفاظ للسمين الحلبي:

إن العلامة أحمد بن يوسف الشهير بالسمين الحلبي (ت 756هـ) كان كما وصفه الأسنوي "فقيهًا بارعًا في النحو والتفسير وعلم القراءات، ويتكلم في الأصول خيرًا دينًا". وقال ابن تغري: "كان إمامًا عالمًا أفتى ودرس أقرأ عدة سنين".² وقد ألف كتابه النفيس "عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ" تناول فيه معاني كلمات القرآن الكريم، وكان غير مقتصر على ذكر معاني الألفاظ وشرح الآية، بل يتحدث عن آراء من سبقوه أو عاصروه، فيفند أخطاءهم ويثني على صوابهم، مبينًا وجه الحق في كل رأي. وقد أضاف اللثام عن منهجه في التأليف في المقدمة إذ صرح قائلاً: "أذكر المادة - كما ستعرف ترتيبه - مفسرًا معناها، وإن عثرت على شاهد من نظم أو نثر أتيت به تكميلًا للفائدة، وإن كان في تصريحها بعض غموض أوضحتها بعبارة

¹ المصدر نفسه، ص 109.

² انظر عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي، ص 5-16.

سهلة- إن شاء الله- وإن ذكر أهل التفسير اللفظة، وفسروها بغير موضوعها اللغوي كما قدمته تعرضت إليه؛ لأنه والحالة هذه، محط الفائدة، ورتبت هذا الموضوع على حروف المعجم إلى أن ينتهي ذلك الحرف مع ما بعده، وهلم جرًا إلى أن تنتهي- إن شاء الله- حروف المعجم جميعها، وما اعتمدت إلا على أصول الكلمة دون زوائدها، فلو صدرت بحرف زائد لم أعتبره، بل أعتبر ما بعده من الأصول".¹

وقد كان إضافة إلى من كتب في الغريب والمفردات ممن سبقه وعلى رأسهم الراغب الأصفهاني فجاء السمين الحلبي بتحقيقات وزيادات لم يتعرض لها من سبقه ولا حتى الراغب الأصفهاني على جلاله قدره؛ فيقول السمين مبينًا ذلك: "قد وضع أهل العلم- رحمهم الله تعالى- في ذلك تصانيف حسنة، وتآليف محررة متقنة كغريب الإمام الحبر الرباني أبي عبد الله بن محمد الهروي، وكغريب محمد بن أبي بكر بن عزيز السجستاني، وكمفردات الألفاظ لأبي القاسم الراغب الأصفهاني، غير أنهم لم يتمموا المقصود من ذلك لاختصار عباراتهم وإيجاز إشارتهم، على أن الراغب- رحمه الله- قد وسع مجاله وبسط مقاله بالنسبة إلى من تقدمه، وحذا بها الحذو رسمه، غير أنه- رحمه الله- أغفل في كتابه ألفاظًا كثيرة لم يتكلم عليها، ولا أشار في تصنيفه إليها مع شدة الحاجة إلى معرفتها، وشرح معناها ولغتها مع ذكره لبعض مواد لم ترد في القرآن الكريم، أو وردت في قراءة شاذة جدًا".²

وقد بدت للكتاب مميزات تفوق بها على كثير من الكتب المؤلفة في مفردات القرآن؛ منها:³

- 1- الترتيب البديع.
- 2- الإحاطة بالألفاظ القرآنية، وشرح معناها اللغوي، الحقيقي منها والمجازي.
- 3- الاستشهاد بالشعر والنثر إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

¹ عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، ص 39/1.

² المصدر نفسه، ص 38/1.

³ الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير، ص 175.

- 4- الإشارة إلى معنى اللفظة القرآنية الحقيقية وذكر خلاف المفسرين.
 - 5- الانتقاد على آراء العلماء وتمحيصها في ضوء الأدلة الشافية.
 - 6- التعرض لآراء المتكلمين والفقهاء والمحكمة بين راجحها ومرجوحها.
 - 7- ذكر الروايات الإسرائيلية وتفنيدها.
 - 8- تفصيل مذهب أهل السنة والجماعة على المذاهب الأخرى.
 - 9- ذكر أسباب نزول الآيات القرآنية.
 - 10- التعرض لذكر الفرق وعقائدها.
 - 11- الاستناد إلى الآراء اللغوية.
 - 12- الاستمداد من القواعد الصرفية والنحوية في تحليل الألفاظ المفردة وشرحها.
- وعند إمعان النظر في المؤلفين نرى أن الفراهي تفوق كثيرًا؛ قال الشيخ أحمد حسن فرحات بعد المقارنة بين المعاجم المشهورة: "ومن كل ما سبق نستطيع أن نقرر بأن ما جاء في مقدمة الراغب وما جاء عند الفراهي في مقدماته هو الأغنى من كل تلك الكتب التي تحدثنا عنها".¹
- ذلك لأن الفراهي استفاد ممن قبله، وتعاطى مع التفسير بموضوعية كاملة، متصلاً بأصول اللغة العربية، ومتدبراً مستكشفاً لأسرار القرآن الكريم، وقد التقى مع الراغب في كثير من المواضع، وكذلك مع السمين الحلبي، غير أنه سبر أغوار اللغة العربية، وزاد على غيره بتضلعه من اللغات الأجنبية من الإنجليزية والعبرانية، ما خول كتابه مسحة لا توجد عند السمين الحلبي ولا غيره! وقد صحح نقوق أهل الكتاب وتحريفاتهم لاطلاعه على مصادرها؛ وذلك في مواضع منها ما أورده في كلمة "ابن الله، والرب، والأب".²

¹ معاجم مفردات القرآن، ص 35.

² مفردات الفراهي، ص 249.

الفصل السابع عشر: الفروق اللغوية عند الإمام الفراهي

تمهيد:

لقد اصطلح العلماء قديمًا على البحث اللغوي الذي يُعنى بتحديد دلالة الألفاظ المتشابهة المعاني، بالفروق اللغوية، وأهم كتاب وصلنا في هذا الفن هو "أدب الكاتب" لابن قتيبة (276هـ) حيث أفرد في الألفاظ بابًا خاصًا سماه "باب معرفة ما يضعه الناس غير موضعه"¹ ثم حذا حذوه أبو هلال العسكري (ت 395هـ) أفرد فيه كتاب "الفروق اللغوية". ويُعد هذا الكتاب من أوسع كتب الفروق اللغوية مادة، حيث انطوى بين جلديه شروحات قد نمت على غزارة علمه ودقة تفكيره، وقد جاءت دراسة هذه الفروق في ضوء القرآن الكريم وألفاظ الفقهاء والمتكلمين، والمقصد من تأليف هذا هو صيانة اللغة العربية من التأويل والتحريف والخطأ. وقد اعتنى مفسرو القرآن الكريم بتبيان الفروق بين الألفاظ المتشابهة في القرآن الكريم، مما يدحض فكرة الترادف والغلو فيها؛ تلك التي تمسك بها بعض اللغويين القدامى. وقد أسهم الإمام عبد الحميد الفراهي في تنمية هذا العلم، والإبداع فيه، غير أنه لم يخصص كتابًا في الفروق اللغوية، لكنني استخرجتها من كتبه ولا سيما مفردات القرآن؛ وهذه بعض الفروق كما يراها الفراهي وفق المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف الفروق اللغوية في القرآن:

لا يخرج الفرق في اللغة عن معنى الفصل بين شيئين أو التمييز بينهما.² ومنه سمي القرآن فرقًا؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل.³ وكذلك الملائكة⁴ في قوله تعالى: ﴿فَالْفُرْقَتِ فَرْقًا﴾ (سورة المرسلات: 4).

¹ انظر أدب الكاتب، ص 17.

² قال ابن فارس: الفاء والراء والقاف أُصِّل صحيح يدل على تمييز وتزويل بين شيئين. انظر مقاييس اللغة، 2/ 350، ط. دار الكتب العلمية، ط 1، 1999م.

³ انظر الجامع لأحكام القرآن، 1/ 387.

⁴ أي يفرقون كذلك بين الحق والباطل.

ونقصد بالفروق اللغوية ها هنا الكشف عن المعاني الدقيقة التي يتغيّاها اللغويون والمفسرون بين الألفاظ المتقاربة ولا سيما القرآنية منها، فيظنون ترادفها لخفاء تلكم المعاني.

المبحث الثاني: أهمية معرفة الفروق اللغوية:

ولما كانت الغاية من الفروق هو البحث في المعاني الدقيقة دخل هذا العلم في إطار علم اللغة؛ إذ هو مظهر من مظاهر علم الدلالة، وهذا العلم من المسائل الجوهرية في علم اللغة.¹

وصار من باب التذوق البلاغي في بيان القرآن يقول الخطابي: "اعلم أن عمود هذه البلاغة.. هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكان غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة".²

وقد أشار الجاحظ من الأقدمين إلى هذه الأهمية فقال: "وقد يستخف الناس ألفاظاً وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة... ولا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر، وأولى بالاستعمال".³

وكما ألمعنا آنفاً، فإن أول من فتح هذا العلم ابن قتيبة في كتاب "أدب الكاتب" وأفرد فيه باباً خاصاً سمّاه: "باب معرفة ما يضعه الناس غير موضعه".⁴ وقد انبرى لذكر

¹ انظر علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السعدان، ص 261، ط. دار النهضة العربية، بيروت.

² بيان إعجاز القرآن، ص 26.

³ البيان والتبيين للجاحظ، 1/26، تحقيق المحامي فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط1، 1968م.

⁴ أدب الكاتب، ص 17.

تلكم الفروق اللغوية؛ فذكر منها "الفروق بين طائفة من الألفاظ المتقاربة في المعنى، وذلك تبعاً لدلالاتها الأصلية في اللغة، حين لاحظ أن الناس يستعملونها بمعنى واحد، كالظل والفيء، والآل والسراب، والعترة والذرية، والخلف والكذب، والحمد والشكر".¹ ولما ظهر أبو هلال العسكري أفرد في الموضوع كتاباً نفيساً في بابه فقال: "إني ما رأيت نوعاً من العلوم، وفناً من الآداب، إلا وقد صُنف فيه كتب تجمع أطرافه، وتنظم أصنافه، إلا الكلام في الفرق بين معان تقاربت حتى أشكل الفرق بينها، نحو العلم والمعرفة، والفتنة والذكاء، والإرادة والمشئمة".²

المبحث الثالث: معرفة الفروق تزيل الانحراف في فهم القرآن:

روى الخطابي عن أبي العالية أنه سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [سورة الماعون: 5] فقال: هو الذي ينصرف عن صلاته ولا يدري عن شفع أو وتر. قال الحسن: مه يا أبا العالية! ليس هكذا بل الذين سهوا عن ميقاتها حتى تفوتهم. ألا ترى قوله: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فلما لم يتدبر أبو العالية الفرق بين حرفي (في) و(عن) تنبه له الحسن، وقال ابن قتيبة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [سورة الزخرف: 36] أنه من عشوت أعشو عشواً إذا نظرت في ذلك وإنما معناه: يعرض. وإنما غلط؛ لأنه لم يفرق بين عشوت إلى الشيء، وعشوت عنه.³ وهو ما حمل أحد الإخوة الفضلاء على تفعيد المسألة في قاعدة: "معرفة الفروق اللغوية الدقيقة تقي من المزالق العميقة".⁴

¹ انظر المصدر نفسه، ص 17-31، والترادف في اللغة، ص 223.

² الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ص 7، ضبطه وحققه: حسام الدين المقدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

³ انظر البرهان في علوم القرآن، 1/ 294.

⁴ انظر أصول التفسير لصديقنا العزيز أ. د. عبد السلام المجيدي، ص 62.

المبحث الرابع: الفرق بين التوفي والإماتة:

كثيراً ما يعتقد الناس أن التوفي والإماتة مترادفان؛ فيفسرون: "توفاه الله" بـ "أماته الله"؛ وقد درج عليه الإمام السيوطي في الإتيان.¹ قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿متوفيك﴾ [سورة آل عمران: 55] أي: مميتك.

قال الفراهي: "فتظنهما متطابقين، وهو وهم، فإن "التوفي" أعم من "الإماتة".²

المبحث الخامس: الفرق بين الجامع والمشارك:

المشارك يراد به أحد معانيه، وأما الجامع فربما يراد به المعنى الجامع، وربما يراد به أحد الوجوه نصّاً لجهة النظم والباقي إشارة أو تساوياً أو يراد أحد الوجوه.

المبحث السادس: الفرق بين الجهل والشك:

الجامع بينهما هو سوء فهم المفردات:

فأما الجهل فاثنتان:

- 1- الجهل بنفس معنى الكلمة، فنفهم خلاف المراد.
- 2- والجهل بكيفه وكمه، فيخفى علينا نظم الكلام ودلالة نسقه.

¹ الإتيان، 8/2.

² مفردات الفراهي، ص 104-105. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الزمر: 42].

الوفاة: يقولون وفي ماله من الرجل أي استوفاه كاملاً غير منقوص أي قبضه وأخذه. فلما يقال: توفي فلان كأنه قبضت روحه كاملة غير منقوصة.

والموت: هو مفارقة الحياة وليس فيها معنى القبض؛ ولذلك يستعمل لفظ الموت أحياناً استعمالاً مجازياً يقال: ماتت الريح أي سكنت وهمدت، والذي ينام مستغرقاً يقال له: "مات فلان" إذا نام نوماً عميقاً مستغرقاً. هذا السكون للموت فكأن هذا الشيء الذي يفارق جسد الإنسان بالمفارقة موت والذي توفي تقبضه ملائكة الموت.

وأما الشك فهو أيضا اثنان:

- 1- في تعيين وجه من وجوه متباينة، فنقف حيارى، أو نقع في الخطأ.
- 2- هو التذبذب في تعيين وجه من وجوه بينها عموم وخصوص.

والخلاص من ذلك بأمرين:

- 1- معرفة الكلمة ووجوهه وأحواله.
- 2- الاعتصام بنظم الكلام.¹

المبحث السابع: الفرق بين الآية والدليل:

هي ما يستدل به على أمر، وليست هي تمام الدليل، بل ينهك على الدليل والفرق بينهما من وجوه:²

- 1- إن الآية ما عليه بناء الدليل المنطقي، مثلاً "العالم متغير، وكل متغير حادث" فتغير العالم هو الآية على حدوثه.
- 2- إن الآية هي التي تبعث الفكر وتلقي السؤال في القلب، وتذكره ما نسي، وتهيج فيه خلقاً أودعه من الرحم والتقوى والصبر والشكر وغير ذلك.
- 3- إن الآية موجودة في فطرة الفكرة، والدليل المنطقي أمر مفروض، فإن الفكرة تجري من تصور إلى تصور، مثلاً من تغير العالم إلى حدوثه. وإظهارها في صورة القضايا مفروض. وإنما فرضوها لأجل النظر فيها كما يقطعون البيت في الأفاعيل.

المبحث الثامن: الفرق بين الحكم والحكمة:

الحكم: فعل للقضاء المطلق حقاً أو باطلاً؛ قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [سورة الصافات: 154] وقال أيضاً: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَبْغُونَ﴾ [سورة المائدة: 50]، ويطلق على القوة التي هي منشأ القضاء، وحينئذ يراد به الفهم.

¹ مفردات الفراهي، ص 112.

² المصدر نفسه، ص 134-135.

وأما الحكمة فهي اسم للقوة التي منها ينشأ القضاء بالحق؛ قال تعالى في نعت داود عليه السلام: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخُطَابَ ۝﴾ [سورة ص: 20] فذكر الأثر بعد القوة التي هي مصدر ذلك الأثر.¹

المبحث التاسع: الفرق بين الصبر والشكر:

الصبر كالأساس للشكر، فهو بالقوة موجود قبله. والشكر قبل كل عمل صالح. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝﴾ [سورة إبراهيم: 5] وقد كان الصبر بناء على الشكر في الوجوه الآتية:²

- 1- فالصبر متقدم على الشكر تقدم الجزء على الكل، والشكر متقدم على الصبر تقدم الأفضل الجامع.
- 2- والشكر متقدم تقدم الإيمان على العمل، فإن الشكر كيفية تنشأ من معرفة النعم. فأول العبودية هو الشكر وجوباً وزماناً.
- 3- والشكر دائم متصل لدوام النعمة، والصبر عند الشدائد.
- 4- والشكر إثبات، وأما الصبر فهو كف النفس عن الضجر.
- 5- والشكر هو العون على الصبر. فإن من رسخ في قلبه معرفة النعم، وآمن بربه، صبر على المكاره لرضاه.

المبحث العاشر: الفرق بين اللعنة والنصر:

اللعنة هي خلاف النصر؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهَ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۝﴾ [سورة النساء: 52]؛ وهي في اللغة: الطرد.³

¹ المفردات للفراهي، ص 173. وكما أن القول الفصل من آثار الحكمة فكذلك طهارة الخلق وحسن الأدب من آثارها.. وكانت العرب تطلق اسم الحكمة على قوة جامعة لرزانة العقل والرأي، وشرافة الخلق الناشئة منها فسموا الرجل العاقل المهذب حكيماً. ويطلقونها على الحق الواضح عند العقل والقلب.

² انظر المفردات للفراهي، ص 206.

³ المصدر نفسه، ص 239.

المبحث الحادي عشر: الفرق بين الفكر والذكر:

الفكر هو النظر فيما وراء الشيء، وربما يسمى "اعتباراً". فهو سُلَّم إلى فوق. فإذا انتهى إلى ما هو المنتهى رجع القهقري، أو وقف. ولكن التوقف ليس من شأن الفكر، فلا بد من رجعة بعد المنتهى. ولذلك منع عن الفكر في ذات الله إلى الفكر في آلائه. وأما الذكر فهو: القيام على الشيء، وحفظه، والتجرد له. فهو سكون، كما أن الفكر حركة. والذكر بعد النسيان أو الغفلة مثل رد السكون إلى الشيء بعد الذهاب أو الالتفات عنه.¹

المبحث الثاني عشر: الفرق بين "قاتل" و"اقتتل":

الأول بين المخالفين، والثاني بين رجال قوم واحد. فإن الافتعال فعل يتعلق بفاعله؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا﴾ [سورة البقرة: 253] وكذلك في سورة الحجرات: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [سورة الحجرات: 9]. فانظر كيف أتى أولاً بكلمة "اقتتلوا" فإذا لم يقبل الإصلاح وتمادى في بغيه جاء بكلمة "قاتلوا".²

المبحث الثالث عشر: الفرق بين "أغنى" و"أقنى":

الغنى: عدم الحاجة.

والقنوة: ظهور الثروة، من قنوا النخلة. قال امرؤ القيس:

وفرع يُغشي المتن أسود فاحم أثيث كقنوا النخلة المتعكل³

¹ المصدر نفسه، ص 302.

² المصدر نفسه، ص 303 - 304.

³ ديوان امرئ القيس، ص 16، وشرح ابن الأنباري، ص 62. الأثيث: الكثير الملتف. القنوة: العذق. والمتعكل: المتداخل لكثرتة.

وقال أيضًا في معنى الثورة:

ألا إن بعد العُدم للمرء قنوة وبعد المشيب طول عمر وملبسا¹

المبحث الرابع عشر: الفرق بين "خلق" و"برأ" و"صور":

البرء يشبه الخلق من برأ يبرؤه، ومنه البرية، وترك همزها. واعلم أن البرء ليس مرادف الخلق إلا على التجوز، فإن الخلق أصله التقدير، والبرء إصلاحه، والتصوير إتمامه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي وَلَّى الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [سورة الحشر: 24]. كما قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۖ﴾ [سورة الأعلى: 2].²

المبحث الخامس عشر: الفرق بين الجيد والعنق:

إن كلمة الجيد تستعمل في مواقع الحسن والتهيه؛ كقول امرئ القيس:

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل³
أو كقوله:

فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم في العشيرة مخول⁴
وقد أوردها الله تعالى في حق امرأة أبي لهب فقال: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [سورة المسد: 5] وقد كانت امرأة مختالة لا تقنع بمحض الزينة بل بحجمها فناسب حالها أن يكون حبلًا غليظًا، وناسب اختيار "جيدها" بدل عنقها تدل على ذلك. فلو لم يرد ما ذكرنا لاختار العنق؛ فإنه أشبه بحبل من مسد وأوفق بحالة الشدة والغلظة كما ترى مثلًا في قوله تعالى: ﴿إِنْ دَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّكُ

¹ ديوان امرئ القيس، ص 108. والملبس: المنتفع والمستمتع.

² المفردات، ص 343.

³ انظر ديوان امرئ القيس، ص 16.

⁴ انظر المصدر نفسه، ص 22.

أَعْنَقُهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ ﴿٥﴾ (سورة الشعراء: 4] وقوله أيضًا: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ [سورة يس: 8] ولولا ما ذكرنا من التوضيح والتصوير والتنبيه لما كان ههنا موقع لذكر الجبل من المسد في عنقها.¹

المبحث السادس عشر: الفرق بين "الجلال" و"الجمال" في صفات الله:

هو الله تعالى ذو الجلال والإكرام، كما علّمنا القرآن ويدعن به العقل، فإن المدح إنما يكون بما هو الجليل والجميل. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾ [سورة الحشر: 23]. فالملك: جهة الجلال، والقدوس: جهة الجمال.

ثم كذلك ثلاث صفات الجلال. مثل قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١﴾ [سورة الصف: 1].

فالعزیز الحكيم مثل الملك القدوس؛ الأول صفة الجلال والثاني صفة الجمال.

فإن القدوس: جمال الخلق، والحكيم جمال العقل.²

إن تنبیت ما ذكرنا من الفراق، نوجهك إلى الفرق بين آثارها في القلوب، فلا يخفى أن صفات الجلال تجلب التعظيم والخوف والمدح، ولكن صفات الجمال تجلب المحبة والرجاء والحمد.

ثم ترى صفات الجلال أظهر وأقدم إلى الحواس، وصفات الجمال أمسى بالعقول والقلوب، ومع أنه لا يكون دين صحيح إلا إذا بني كلا الوصفين، ربما يغلب بعضها على بعض لاختلاف عقول الناس وطبائع الأمم، وعلى هذا ترى فرقًا واضحًا بين الملل الأخرى.³

¹ تفسير سورة المسد، من نظام القرآن، ص 606.

² انظر القائد إلى عيون العقائد، ص 54.

³ المصدر نفسه، ص 57. وقال أيضًا: لا بد أن تكون صفات الجمال أغلب في النظر إلى الرب تعالى وصفات الجلال تكون ملحوظة على سبيل الموالاة بالأولى.. إلخ. المصدر نفسه، ص 58.

المبحث السابع عشر: الفرق بين "الفسق" و"الرهبانية":

قال رحمه الله: "بعدما علمت أن الاعتدال هو كمال الدين، وأن الفسوق كالرهبانية، لك أن تعلم الفرق بينهما. فاعلم أن الفسوق أكبر شناعة ويخالف العبودية أصلاً، وهو التمرد والتشيطان وممقوت من بدء أمره. وأما الرهبانية فهي قد تكون وسيلة للتربية، كما أن الطبيب يداوي السقيم بالاحتماء. ولذلك يرخّص بها في حالات خاصة".¹

المبحث الثامن عشر: الفرق بين "السحر" و"المعجزة":

قال الفراهي: "الفرق بين السحر والمعجزة، أن السحر يؤثر العواطف السفلى وينشأ من غير التقوى".²

المبحث التاسع عشر: الفرق بين "الشعبذة" و"الآية":

قال الفراهي: "إن الأولى هؤلاء المحض، والثانية لنعمة ونقمة، فبالآية يعلو أمر النبي ويغلب على أعدائه، مشعبذ قاد الأمة ورفعها، بل هم أذل الناس وأفقرهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [سورة طه: 69]."³

المبحث العشرون: الفرق بين "علم البلاغة" و"علم المعاني":

قال الفراهي: في علم البلاغة والخطابة⁴ يبين مواقع العواطف، وفي علم المعاني يبين الأساليب الدالة على تلك العواطف.⁵

¹ نظام القرآن، ص 186.

² انظر القائد إلى عيون العقائد، ص 193.

³ المصدر نفسه، ص 193.

⁴ ويزيد الأمر بياناً فيقول: في الخطابة لا بد من إظهار عواطف النفس من الرحمة والغضب والأسف والشدة واللين، ولا يدل على هذه الأمور إلا تراكيب الكلام بأسلوبها، فلا بد من علم الدلالات.. المصدر نفسه، ص 158.

⁵ الأساليب، ص 148.

المبحث الواحد والعشرون: الفرق بين "الأسلوب" و"علم المعاني":

يقول الفراهي عن كتابه: "أساليب القرآن" إنه ليس ككتاب "المفردات" مختصاً بالقرآن، ولكنه متضمن لفن برأسه، يجري حكمه في عموم أساليب كلام العرب، غير ما اختص بالقرآن لكونه منزلاً على رسول؛ وهذا الفن صنو اللغة، والفرق أن اللغة علم مادي خاص، وهذا علم صوري عام. وموقعه بعد النحو؛ فإنه إتمام له، وهو بالحقيقة ما سمّوه بفن المعاني. ولكن القوم فاتهم هذا التصميم واختلط عليهم الأمر فجعلوه جزءاً من فن البلاغة، فكان دخيلاً غير موفٍ له الحق، فلو وجدت فن المعاني على سداد أمره واستقصاء مسائله، كفيت هذا التجشم.¹

المبحث الثاني والعشرون: الفرق بين "المفردات" و"أساليب العرب":

قال الإمام الفراهي: إن المقصود من كتاب "المفردات" إحاطة العلم حتى الوسع بدلالة الكلم وحرمة ووجوهه، فكذلك المقصود من هذا الكتاب (أي: أساليب القرآن) إحاطة العلم حتى الوسع بدلالات الصور والأساليب، ومواقع استعمالها.²

المبحث الثالث والعشرون: الفرق بين "القران" و"العطف":

قال الفراهي: "اعلم أن القرآن أعم من العطف، فالقران مجيء كلمتين أو قولين متصلين، سواء كان بالعطف أو بغير العطف".³

المبحث الرابع والعشرون: الفرق بين "الشعر" و"البيان":

إن العرب كانوا يتلهون بالشعر ولا يعدونه من المعالي، وإنما كانوا يعظمون الحكماء ويحبون الخطبات الحكيمة ولذلك كان الأشراف يأنفون عن قول الشعر وأن يعرفوا به، وإنما يستعملونه نزرًا على وجه الحكمة وضرب المثل.. لذا قال

¹ انظر أساليب القرآن، ص 153-154.

² المصدر نفسه، ص 155.

³ المصدر نفسه، ص 159.

النبي ﷺ: "إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحراً" أي هذا يكون على الندرة؛ ولذلك نزه الله تعالى نبيه عن الشعر فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾^(٦٦) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ [سورة يس: 69-70] فإن تبين لك هذا الفرق بين الشعر والبيان وأن العرب لم يكن أكثر كلامهم الجزل شعراً، فهل بعد ذلك تجعل القرآن على أسلوب الشعر وأنه مقتضب البيان كمثله؟¹

المبحث الخامس والعشرون: الفرق بين الحجة والآية والدليل:

أورد الإمام الفراهي هذا الفرق في حجج القرآن فقال: اعلم أن الحجة ما يثبت به دعوى على خصم. والدليل ما تستدل به على أمر لنفسك أو على خصمك. والآية ما تبعت النظر والفكر فتستدل به على أمر، فهي كالمادة والسبب للاستدلال. فالحجة أخص من الدليل، والآية مادة لكليهما. ولكني اصطلحت الحجة بحيث تشمل كل ذلك، فإن كلما يستدل به تثبت به الحجة لله على الناس.

والقرآن كثيراً ما يذكر الآيات ويستدل بها، فكونها دلائل وحججاً بمعنى أنها كافية لمن يتفكر ويستدل بها، وقد صرح كثيراً بهذا الأمر، مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الرعد: 3]، [سورة الروم: 21]، [سورة الزمر: 42]، [سورة الجاثية: 13]. أيضاً: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد: 4]، [سورة النحل: 12]. أيضاً: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الروم: 22]. أيضاً: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [سورة طه: 128]. أيضاً: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [سورة يونس: 67]، [سورة الروم: 23]. أيضاً: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [سورة الحجر: 75]. وهذا كثير جداً بعبارات شتى.

¹ انظر المصدر نفسه، ص 32-34 (يتصرف يسير).

وبالجملة فأكثر دلائل القرآن إنما هي لواضع تجلب النظر، وقوارع تنبه الفكر. وكان المخاطبون أذكاء فصحاء أهرع الناس إلى لطائف المعاني وأشدّهم تهذيباً لفضول الكلام. فلو فصل لهم الدلائل المرتبة على طريق المنطق لأبعدهم عن نهج الفطرة في الفكر.

المبحث السادس والعشرون: الفرق بين الإرادة والأثر:

وقد أثبت هذا الفرق في حجج القرآن فقال: الإرادة إما أن تكون لمصلحة المريد أو لمصلحة غيره. الأول يستلزم علمه بنفسه والرضا والكراهية لشيء دون شيء والتبدل عن مجرى واحد. والثاني يستلزم علمه بحال المنتفعين به، والرضا والكراهية لما يتعلق بهم، والتبدل حسب نفعهم وضررهم تابعين لرضاه وسخطه ولذلك عبدوا الكواكب.

وأما الأثر المحض فلا علم هناك ولا تبدل ولا رضا أو السخط بل اللزوم المحض. وإنما نوقن بالآثار الخاصة لما نرى اللزوم بين المؤثر والأثر بالتجربة ولما نرى المؤثرات بغير إرادة فيزيد علمنا باللزوم.

ثم لا نرى نسبة بين المؤثر والأثر، ولذلك أيقنا بأن لا إرادة هناك ولا فعل بل انفعال محض وعلاقة مجعولة. وإذ لا نسبة بين جسم وطبيعة خاصة فكل طبيعة على بعد سواء منه. وإذ كانت الفطرة من أول وجود الجسم فلا يكون في نفس الجسم علة هذا التخصيص، إنما يكون خارجاً منه ومقدماً عليه. ثم لا بد أن يكون هذا المخصص ذا إرادة واختيار فاختر وخص، فإن اختصاص شيء لشيء من بين المتساويات هو الإرادة والفعل.

المبحث السابع والعشرون: الفرق بين الرخصة والإحسان:

يقول رحمه الله: "الرخصة في قبيح، والإحسان أخذ بالأولى".¹ مثلاً قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

¹ الرائع في أصول الشرائع، ص 12.

حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ [سورة البقرة: 225]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرْتُمْ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٢٦﴾ [سورة المائدة: 89]، رخصة. كذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ [سورة النحل: 106]، فالرخصة غير مأمور بها.¹

أما الإحسان فهو داخل تحت الأمر، ولكن تركه أهون من ترك الواجب. وتقسيم الأحكام إلى الفرض، والواجب، والمحتسب، والمباح، والمكروه، والحرام، والموبق تقسيم آخر صحيح. أما أن الإحسان داخل تحت الأمر،² فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ (سورة النحل: 90). وبين أن الشرائع على ثلاثة أصول: العدل، والإحسان، وتقدير الأقدم من الحسنات، فإنه من أبواب العدل. والدليل عليه تلك الآية، والعدل له معنى سيع غير ذلك.³

المبحث الثامن والعشرون: الفرق بين "المناسبة" و"النظام":

إن التناسب عند الفراهي ما هو إلا جزء من النظام؛ لأنه يرى رحمه الله من أجل أن يكون النظام صحيحاً يجب أن يكون الكلام حسن الترتيب، جيد التناسب، وقوي الوحدانية علماً أن الإمام الفراهي لا يرى أن النظام أمر مقصود لذاته، وإنما هو المنهج الصحيح لتدبر القرآن، وهو الحكم عند تضارب الأقوال، وهو المرجح عند تعدد الاحتمالات، بل هو الإقليد الذي تفتح به كنوز حكمة القرآن.

¹ المصدر نفسه، ص 13.

² المصدر نفسه، ص 14.

³ المصدر نفسه، ص 13.

يقول الفراهي: "والفرق بينهما أن التناسب إنما هو جزء من النظام. فإن التناسب بين الآيات بعضهما مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئاً واحداً مستقلاً بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما، فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام، فيصير شيئاً واحداً، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها، فإن الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها، فإن عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيراً، ومنها ما ترى فيه اقتضاباً بيناً، وذلك إذا كانت الآية أو جملة من الآيات متصلة بالتي على بعد منها".¹

قال الفراهي: "وبالجملة فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كلاماً واحداً، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعد منها، فكما أن الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السورة تكون معترضة وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر".²

¹ دلائل النظام، ص 86.

² انظر المصدر نفسه، ص 87. من رسائل الفراهي، المجموعة الأولى.

مفهوم الحكمة عند الإمام الفراهي

-الشيخ خالد مسعود¹

ترجمة من الأردوية: محمد غلمان²

"الحكمة" كلمة معروفة كثيرة الاستخدام لمعاني العقل والكياسة، ولكن العلماء واللغويين يعبرون عنها في المجالات المختلفة بطرق عديدة يتحير بها العقل كيف تحوي كلمة واحدة عددًا كبيرًا من المعاني. فيطلق الفلاسفة والصوفية كلمة "الحكمة" على مساعيهم، واللغويون يعبرون عن مفهومها مختلفًا تمامًا عن هؤلاء. وهكذا نرى اختلافًا كثيرًا عند أهل التأويل (المفسرين) في تعيين معاني الحكمة في القرآن الكريم، مع أن القرآن الكريم وردت فيه كلمة الحكمة في الأماكن العديدة لكن تكرارها واضح حين بيان مهمات الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حد أنه لا يستطيع أحد أن يصرف نظره عن أهميتها، ويتحتم على طالب القرآن إدراك مفهوم الحكمة خير إدراك.

كان القرآن الكريم محور فكر الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله، فكان يمتلك بصيرة فذة في كل جانب من جوانب القرآن الكريم، ولا يقتنع بأن يترك كلمة أو مبحثًا بدون أن يتقصى عنه. فجعل كلمة "الحكمة" موضوع بحثه لأهميتها الواضحة، وأحاط ببحثه اللغوي في كتابه "مفردات القرآن" كما أنه قام ببحث مشبع في استخدام هذه الكلمة في القرآن الكريم في كتابه الآخر المسّى بـ "حكمة القرآن". وإن هذه الأبحاث للإمام الفراهي رحمه الله تحظى بقيمة بالغة وتثير التفكير وتحلّي بأهمية كبرى في فهم مباحث القرآن الكريم.

¹ كاتب باكستاني متخصص بالدراسات الفراهية

² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيو دلهي

"الحكمة" كلمة مشتقة من ح، ك، م، وتشتق من نفس المادة كلمة أخرى وهي "الحُكم"، ومعناها في لسان العرب "العلم والفقه والقضاء بالعدل"،¹ وفي تاج العروس معناها "القضاء في الشيء"،² كما قيد البعض هذه الكلمة بحكم عادل فقط. وعند الإمام الفراهي القرآن الكريم أحسن مرجع لتعيين المعاني اللغوية للكلمات المستخدمة فيه، ونظرًا إلى ذلك - حسبما وردت الحكمة في القرآن الكريم - أطلق الإمام الفراهي رحمه الله كلمة الحُكم على اتخاذ القرار فقط، سواء كان هذا القرار حقًا أو باطلًا. والآيات التالية بيّنت له معناها هي (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)،³ و(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ).⁴

الآية الأولى تعبر عن التعجب بالرأى الخاطئ للمشركين عن الآخرة، وأما الآية الأخرى فقد أطلق فيها كلمة "الحكم" على قرار مبني على الجاهلية، وهذا القرار بلا شك لم يكن وفقًا للحق. يرى الإمام الفراهي أن الكلمة كانت تعني هذا بادئ ذي بدء ثم جعل الناس يطلقونها على القوة التي يتخذ بها المرء القرارات.

أما كلمة "الحكمة" فهي أيضًا من ح، ك، م، ومعناها في لسان العرب هو "معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم"،⁵ والمعنى الثاني لهذه الكلمة هو العدل، وذكر معناها في تاج العروس "العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها".⁶ وكذا عدّ من الحكمة الإقرار بالحق رعاية للعلم والعمل كليهما، والحكم بالقسط. يرى الجرجاني أن كل قول يوافق الحق هو الحكمة. ويتم إطلاق تلك الكلمة على ذلك العلم الذي يصاحبه العمل به. والحكمة عند الراغب الأصفهاني هي الحق إذا وافق

¹ لسان العرب لابن منظور، باب الميم، فصل الحاء، 141/12

² تاج العروس للسيد مرتضى الزبيدي، 510/31

³ سورة القلم: 36

⁴ سورة المائدة: 50

⁵ لسان العرب لابن منظور، باب الميم، فصل الحاء، 140/12

⁶ تاج العروس للسيد مرتضى الزبيدي، 512/31

العقل والعلم. وعبر عنها الإمام الرازي بإصلاح القول والعمل وإنزال كل شيء منزله بالعدل، وقام الإمام الفراهي رحمه الله أولاً بتعيين معاني الكلمة في ضوء استخدامات العرب، فطبقاً لبحثه كان العرب يطلقون الحكمة على قوة تجمع بحصافة الرأي النبيل في السلوك، ولذا كانوا يسمون المرء العاقل المثقف حكيماً. فقد عبر الإمام الفراهي رحمه الله عن الحكمة بقوة يحكم المرء بها قاسطاً، وتظهر آثار هذه القوة عندما يكون المرء يتحلى بالكلام الحق وكرامة الأخلاق والأدب. وكذا أن الإمام الفراهي رحمه الله لا يصرف النظر عن آيات القرآن الكريم التي تعينت فيها معاني الحكمة، فقد جاء في القرآن الكريم عن داود عليه السلام: (وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ).¹ وبين الإمام الفراهي رحمه الله أثر الحكمة في "فصل الخطاب" أنه حيث توجد الحكمة يتغلب هناك قول الحق كما جاء في بني إسرائيل بعد توجيه بعض النصائح الخلقية: (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ)² وعرفنا به أن الخلق الكريم والعمل النبيل جزء من الحكمة، وهذا ما يؤيد الإمام الفراهي رحمه الله في تعريفه للحكمة.

وقد جعل الشيخ معاني الحكمة قريبة للفهم بذكر العديد من مزاياها، كما يقول إن قول الحكمة يكون بديهياً وواضحاً للغاية في القلب والعقل، ويؤثر في القلب تأثيراً كأنه لا حاجة لدليل يثبتته. والحكمة نور، وكما أن النور يضيئ كل ما حوله كذلك يستنير علم المرء من نور الحكمة، وكما يظهر أثر النار بشكل الحرارة التي يشعر بها كل إنسان، فكذلك الحكمة تعرف بآثارها، وعندما تنشأ الحكمة في المرء، تنشأ في نفسه موهبة يتعرف بها على الحق، ولا يتفوه إلا الحق، ولا يتخذ أي قرار إلا أن يكون صحيحاً، ولذلك يشعر قلب حكيماً بالعلو في نفسه، وكلامه يؤثر في القلب، وعمله ليس إلا البر، ويكون أسوة حسنة للخلق العظيم.

¹ سورة ص: 20

² سورة الإسراء: 39

ويظن الناس عامة أن الفلاسفة يتحلون بالحكمة وعلى هذا يقال لهم "الحكماء"، ولكن الإمام الفراهي رحمه الله لا يقبل هذا الرأي، إذ جعل الفلاسفة العلم والعالم مبحث الفكر ولكن لم تحظ فكرتهم بأساس محكم بشكل عام، فأصبحوا فريسة للأوهام ولم يصلوا إلى منابع العلم الأصيلة. فيرى أرسطو أن الحكمة هي الإحاطة بكافة العلوم مع أنه ليس في وسع أي إنسان أن يحيط بالعلوم كلها، وللخروج من هذا المأزق قد حاول أن يحدد العلم في علم الكليات، وسقى الحكمة العليا بعلم ما بعد الطبيعات، ومع ذلك إنه لم يستطع الخروج من الوهم البدائي. وأما الإمام الفراهي فلا يرى العلوم العامة كموضوع للحكمة، ولذلك لا يصح عنده ما كان لدى الفلاسفة المسلمين وإخوان الصفا كابن سينا والفارابي والخوارزمي وابن خلدون من تقسيم العلوم إلى أقسام حيث يصفون العلوم الثابتة بالحكمة.

فالحكيم عند الإمام الفراهي رحمه الله من يمتلك موهبة فذة في البحث عن الحق وامتحانه، فينتقي الحق من الباطل، ويحس الحكيم فوراً بطبيعته نور الحق، كما أن أكبر حق في هذا الكون الإيمان بوحداية تعالى، لذا أول ميزة من ميزات الحكيم عند الإمام الفراهي رحمه الله هي أن يؤمن بالله تعالى، ويدرك هذا الحق فيطمئن قلبه إليه، ويتجنب كل باطل ويعمل عملاً صالحاً فيطلق عليه لفظ "الحكيم"، وإذا لم يؤمن بالله سبحانه فلن يعدّ حكيمًا ولو وصل إلى أعماق العلوم والفنون الأخرى.

قد وقع الخلاف في تعيين معنى "الحكمة" في القرآن الكريم في عصر السلف الصالحين ونجد تفصيل هذا الاختلاف في كتب التفسير، وقد كان الإمام الفراهي رحمه الله يطلع على هذا الاختلاف فقام بمحاولة محمودة لإزالته. فقد ورد في الروايات أن الإمام مالك وأبا رزين يريان أن الحكمة هي التفقه في الدين، وذلك نور من الله، وذاك التفقه مخصص عند مجاهد بالقرآن الكريم، ويرى يحيى بن معاذ أن الحكمة جند من جنود الله يرسله إلى قلوب العارفين لتزيل منهم آثار

العالم الضارة، ويعتقد ابن زيد أن الحكمة هي كل ما ينبه المرء ويدعوه إلى المعروف وينهى عن المنكر، وعند أبي جعفر محمد بن يعقوب "الحكمة كل كلام يدل على العمل الصحيح"، وفي رأي مقاتل، الحكمة هي العلم ثم العمل به. ويعتبر الإمام الفراهي رحمه الله هذه الأقوال تعبيرًا لحقيقة واحدة بأساليب مختلفة، وعنده تظهر الحكمة أولًا في قلب الإنسان في شكل البصيرة والتوفيق، وعندما ينور القلب فيتأثر به الكلام، فتظهر الحكمة من كلام الإنسان ويقول قولًا حقا يدعوه إلى المعروف وينهى عن المنكر، ثم تظهر الحكمة من عمل الإنسان فيتحلى بالأخلاق السامية، وهكذا يوافق علمه عمله موافقة تامة. وفي ضوء ما قال الإمام الفراهي رحمه الله يبين مالك وأبو رزين ومجاهد ويحيى بن معاذ الحكمة بموضعها الأول وهو القلب، بينما هي تتجلى في الكلام عند ابن زيد ومحمد بن يعقوب، وأما مقاتل فقد أشار إلى آثارها في العلم والعمل كليهما.

الحكمة وسنة الرسول ﷺ:

وقد ورد ذكر تعليم الكتاب والحكمة واضحًا في القرآن الكريم من بين ما ذكر من مسؤوليات النبي صلى الله عليه وسلم، وقد اتحد المفسرون عامة في تفسير تعليم الكتاب على القرآن الكريم، ولكنهم لا يتفقون على رأي واحد في تعليم الحكمة، ويرى الكثير، ومنهم الإمام الشافعي رحمه الله، أن المراد بالحكمة هنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودليله أنه عندما ورد ذكر الحكمة والكتاب معًا، يجب أن يعني بهما شيئان مختلفان، وكما تجب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع أحكامه فلذا يجب أن تكون سنة الرسول صلى الله عليه وسلم هي ما يذكر مع كتاب الله، فالمراد بالحكمة هو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واختلف الإمام الفراهي رحمه الله مع الإمام الشافعي في هذا الرأي فجعله موضوع بحثه، وقدّم آيتين من القرآن الكريم وردت فيهما كلمة الكتاب والحكمة معًا ولكن لن يمكن أن يراد بها سنة الرسول صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى:

(وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ)¹، (وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ)².

في هاتين الآيتين جيء بفعلين "أنزل" و"يتلى" للحكمة وهذان الفعلان لم يستخدموا في القرآن إلا للوحي السماوي، وقد نزل الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم فكان يتلى عليه في بيوت زوجات النبي صلى الله عليه وسلم المطهرات، ولم يستخدم هذان الفعلان لأفعال وأقوال النبي صلى الله عليه وسلم.

ويستدل الإمام الفراهي رحمه الله بأن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لا يختص بالحكمة والموعظة، بل يحمل في طياته أحكام الشريعة أيضاً، ولو كان الحديث يدل على القانون فإطلاق الحكمة عليه سيكون غير ملائم، وعلاوة على ذلك لقد وصف القرآن المجيد الحكمة بأصول الدين في تعليمه في الآية 39 من سورة الإسراء، فلذا لا يجب أن تعد الحكمة شيئاً خارجاً عن القرآن الكريم، ويرى الفراهي أن كلمة الكتاب تعبير عن نظام الشريعة بينما كلمة الحكمة جاءت من حيث أننا علمنا في القرآن الكريم حكمة الشريعة والعقائد الصحيحة والأخلاق الحسنة، ودليل هذا القول ما قال الله في سورة آل عمران: (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْقُرْآنَ وَالْإِنْجِيلَ)³.

لقد فسر الكتاب والحكمة في هذه الآية بالتوراة والإنجيل، وكانت التوراة نظاماً للشريعة وتعليمها كان لائقاً بقوم لم يزل في عالم الطفولة آنذاك، ولم تكن تصلح قلوبهم ولا أذهانهم أن تتحمل أكثر من ذلك، ولما جاء عيسى عليه السلام أنزل الله عليه الإنجيل وأوضح عليه السلام بنفسه عن ذلك أنه كتاب الحكمة: (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ)⁴.

¹ سورة النساء: 113

² سورة الأحزاب: 34

³ سورة آل عمران: 48

⁴ سورة الزخرف: 63

واعتمد عيسى عليه السلام على أسلوب الأمثال لتعليم الحكمة، ولكن كان تعليمه ناقصاً لأن قوة بني إسرائيل الذهنية لم تكن لتتحمل الحكمة الكاملة آنذاك، فأعطى عيسى عليه السلام رسالة واضحة لقومه أنني أريد أن أتوجه إليكم بكثير من الأقوال لكنكم لا تستطيعون بتحملها، لذا أنا راجع ومن يأتي بعدي سيعلمكم ما لم أستطع تعليمها، والذي جاء بعده كان هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه كتاب فيه هدى، وهو نظام للشريعة، وفيه حكمة، كما وردت فيها الحدود؛ فالحرام بين والحلال بين، وكذلك إنه كتاب فيه حكمة وفلسفة عميقة. ويرى الإمام الفراهي رحمه الله أن المقصود بكلمات الحكمة والكتاب هو الكشف عن مكانة القرآن الكريم هذه.

ونظراً لما سبق من البحث المشبع يرى الإمام الفراهي رحمه الله أن رأي الإمام الشافعي رحمه الله خاطئ، ولو أن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يحتوي الحكمة في ذاته كما أنه يفسر حكمة القرآن. وإذا انتقد الإمام الفراهي رحمه الله أحداً من السلف أحسن الظن به فلا يؤثر فيه نقده. يقول الشيخ معلقاً على رأي الإمام الشافعي رحمه الله: إن الناس في ذلك العصر بدأوا يأولون القرآن في ضوء الآراء الخاطئة مما بدّل معاني الآيات ظهراً لبطن فحاول الإمام الشافعي أن يبين للناس أن فهم القرآن الكريم لا يتيسر إلا باتباع السنة لأن السنة هي التي تفسر القرآن، وإلا فقد حصر الإمام الشافعي العلم في علم القرآن في مقدمة كتابه "الرسالة" التي تحدث فيها عن هذا الموضوع، وبين أن القلب إنما يستنير من نور الحكمة ولا تتأتى هذه الحكمة إلا بعلم كتاب الله والعمل عليه.

وعند الإمام الفراهي رحمه الله يتمتع الإنسان بقوتين أساسيتين وهما قوة الفكر والإرادة؛ فبقوة الفكر يستطيع الإنسان الاستدلال بتلك الآيات التي تكثر في الآفاق والأنفس، وأما قوة الإرادة فيعمل بها أعمال الخير والبر، وقد أوتي الحكمة من عمل بما علم واتفقت قوته الإرادة بقوة الفكر لديه. ألا إن الحكمة لا تنصدر

من خارج الإنسان بل تكون هي في ذاته وطبيعته، فمن طلب الحكمة وجب عليه أن ينيب إلى نفسه ولا يتم تحمل الحكمة بغتة بل يكون تدريجيًا، كما يتم بناء المبنى حسب التصميم تدريجيًا.

ويعتبر الإمام الفراهي رحمه الله خشوع القلب هو الباب الذي تدخل من خلاله الحكمة في القلب فيحيى، ويعلم المرء الخاشع علم اليقين أن العالم خلق لهدف، ومن خلقه هو الرب سبحانه، وأن الإنسان هو الخاطئ الضال المتمرّد، وإذا تفقه الإنسان بهذا الأمر خشي ربه واتبع ما أمره سرًا وعلنًا وتجنب أهواء النفس، ثم يكون قلبه سليمًا ليستنير من نور الحكمة.

وأهم ما يؤتى به الإنسان الحكمة هو ذكر الله وتلاوة القرآن والعطف بعباد الله. والقرآن أكبر خزانة للحكمة ولكن الحكمة لا تحصل إلا بالتدبر في آياته، ولا يفوز بها أحد إلا بتوفيق من الله عز وجل ولو توسل بأي وسيلة لنيلها كما هو رأي الإمام الفراهي رحمه الله في هذا الأمر، فإن الحكمة نعمة من نعم الله التي لا وسيلة لها سوى التوفيق الرباني ليتمتع بها أحد.

كتاب "حكمة القرآن":

لم يطبع بعد كتاب "حكمة القرآن" للشيخ الفراهي ومخطوطه غير مرتب ومحفوظ لدينا، ويبدو من دراسته أن الشيخ أراد بتأليفه في أربعة أجزاء لكنه لم يسعه أن يكتب سوى ثلاثة أجزاء منها، فالجزء الأول منها يتناول مفهوم الحكمة ومزاياها والعلاقة بينها وبين الإيمان وتعليم الحكمة وطريقة حصولها، بينما أوضح الشيخ في الجزء الثاني أن القرآن أكبر خزانة والمنبع الأصيل للحكمة، ولكن الحكمة تخفى في نظمه، والحكمة هي الوسيلة للوصول للحكمة، فإن المرء ينكر نظم القرآن بدون الحكمة أو يشعر بالملل والتنفر عنه، وكذا أوضح الشيخ في هذا الجزء صفات الحكيم، وأما الجزء الثالث فقد أراد فيه أن يبين النظام

العدد الخاص مجلة الهند

الإسلامي، فاقترح له اسمًا آخر وهو "النظام في الديانة الإسلامية"، وسلط الضوء فيه على النظام الباطني في الدين، والتوافق بين الأجزاء المختلفة وعلاقته بالنظام الخارجي، وكتب بعض الفصول حسب منهجه في هذه الأجزاء الثلاثة بينما ترك بعضها فلم يكتب له إكمالها.

مساهمة الإمام عبد الحميد الفراهي والشيخ محمد عبده في مجال التفسير: دراسة مقارنة

- د. منظر عالم¹

طلعت على أفق الهند ومصر في القرن التاسع عشر شخصيات وأعلام بارزون قاموا بجهود مكثفة في مجال العلوم الإسلامية، ومن بينها شخصية الإمام عبد الحميد الفراهي في الهند وشخصية الشيخ محمد عبده في مصر، قد قامت هاتان الشخصيتان بخدمات قيمة في مجال العلوم الدينية خاصة في القرآن الكريم وتفسيره، وفي السطور التالية أحاول أن أبرز مساهمتهما في مجال تفسير القرآن الكريم.

لمحة عن حياة العلامة حميد الدين الفراهي:

ولد هذا النابغة العبقرى في قرية "قريها" بمديرية أعظم كراه (ولاية أتراباديش) عام 1280 هـ في أسرة علمية تعرف بنسبها وحسبها وعلمها وفضلها ومكانتها الاجتماعية في المنطقة، وتعد هذه الأسرة من أعيان القرية ووجهائها فنشأ وترعرع فيها.

تلقى الإمام الفراهي التعليم الابتدائي في قريته وحفظ القرآن الكريم فيها، ثم تعلم اللغة الفارسية وبرع فيها حتى بدأ يقرض الأبيات والقصائد منها، وخير دليل على براعته ونبوغه في اللغة الفارسية أنّ أخاه العلامة شبلي النعماني قدّم قصيدته إلى أستاذه الشيخ فاروق الجرياكوتي بدون الإشارة إلى صاحب القصيدة وسأل: لمن هذه القصيدة؟، فأمعن الأستاذ النظر فيها وقال: لا يمكن لي بالضبط تسمية قائل هذه القصيدة، ولكن اللهجة والأسلوب يشيران إلى أنّ هذه القصيدة للأستاذة القدماء.

¹ أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وأدائها، جامعة بابا غلام شاه بادشاه، راجوري، جامو وكاشمير

في البداية تعلّم الفراهي اللغة العربية من الأستاذ البار والناقد الكبير والمؤرخ الشهير العلامة شبلي النعماني الذي كان يعدّ من كبار أساتذة اللغة العربية آنذاك، ثم رحل الفراهي إلى مدينة لکناؤ حيث تلقى العلوم العقلية والنقلية على الفقيه والمحدث عبد الحي الفرنغي محلي ثم على الشيخ فضل الله الأنصاري واللذين كانا يعدّان من كبار أئمة الفقه والحديث حينذاك، وتضلع في العلوم العقلية والنقلية حتى أنه ألّف كتبًا قيمة فيها.

وبعد ذلك ارتحل إلى مدينة لاهور حيث تعلّم الأدب العربي من الأديب الأريب والشاعر الكبير العلامة فيض الحسن السهارنفوري الذي كان أستاذًا في كلية أورينتال بلاهور، وكانت له براعة تامة ومهارة فائقة في اللغة العربية وآدابها، فقرأ على يده أمهات الكتب العربية واستفاد منه كثيرًا وتأثر بعلمه وفضله حتى أنه طبع ديوانه على نفقته وقرض قصيدة جميلة على وفاته.

وبعد أن تضلّع الإمام الفراهي من اللغتين: الفارسية والعربية أصبح من الضروري له أن يبرع في اللغة الإنجليزية لكي يعرف مكائد ومؤامرات المستعمرين الذين يحاولون أن يشوّهوا سمعة الإسلام والمسلمين، لهذا الغرض النبيل ارتحل إلى مدينة علي كره وبدأ يتعلم اللغة الإنجليزية من كلية علي كره، التي تعرف الآن بـ "جامعة علي كره الإسلامية"، فأتقن هذه اللغة حتى تمكن من أن يكتب فيها فألّف بعض الرسائل باللغة الإنجليزية في عقيدة الشفاعة للرد على بعض النصاري، كما أنه تعلم الفلسفة الجديدة من البروفيسور آرنولد صاحب كتاب "Preaching of Islam". نال هذا الكتاب قبولًا واسعًا في الأوساط العلمية والأدبية، وأما بالنسبة للفراهي فإنه لم يعجب بهذا الكتاب لأن المؤلف قد نزع روح الجهاد فيه.

وكذلك تعلم الإمام الفراهي اللغة العبرانية أيضًا في هذه الكلية على المستشرق اليهودي الألماني جوزف هوروفيتس، وهذه اللغة قد ساعدت الفراهي في فهم القرآن الكريم والمقارنة بين القرآن الكريم والتوراة، وبفضل إلمامه باللغة العبرانية

ألّف الفراهي كتابًا قيمًا باسم "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" وأثبت بالدلائل الساطعة في ضوء التوراة أنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

تولّى الفراهي مناصب عديدة منها أنه عيّن أستاذًا للغة العربية في "مدرسة الإسلام" بكراتشي لمدة تسع سنوات كما عيّن أستاذًا مساعدًا باللغة العربية في كلية علي كراه لحوالي سنتين، ثم عيّن أستاذًا في جامعة إله آباد ودرّس فيها لست سنوات، ثم عيّن ناظرًا في "دار العلوم" بحيدرآباد، وهذه المدرسة تعدّ من أكبر المدارس في حيدرآباد وقضى هناك ردحًا من الزمن حتى استقال من الوظيفة وعاد إلى وطنه واعتنى بـ "مدرسة الإصلاح" التي تقع في بلدة "سرائي مير" بمديرية أعظم كراه، ومنذ البداية كان العلامة منتسبًا بهذه المدرسة واجتهد في تحقيق أمنيته وهدفها حتى جاء الأجل وتوفي في الحادي عشر من شهر نوفمبر عام 1930 م.¹

إطلالة على حياة الشيخ محمد عبده:

والشخصية الثانية هي شخصية الشيخ محمد عبده الذي يعتبر واحدًا من أبرز المجددين في العصر الحديث، والذي قام بإسهامات قيمة في إيقاظ الأمة العربية والأمة الإسلامية من قيد التقليد إلى فهم الدين الصحيح على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، وهي الكتاب والسنة.

ولد الشيخ محمد عبده حسن خير الله بمحلة "نصر" بمحافظة بحيرة عام (1226هـ/1849م). وتعلم مبادئ القراءة والكتابة على يد شيخ القرية، وحفظ القرآن الكريم فيها، ثم أرسله أبوه وهو في السابعة من عمره إلى "الجامع الأحمدى" بطنطا ليجوّد القرآن بعد حفظه ويدرس شيئًا من علوم الفقه واللغة العربية هناك، وكان يتردد حوالي عام ونصف لأجل المقررات الدراسية أو المناهج العقيمة التي كانت تعتمد على المتون والشروح والحواشي والتي تخلو من فهم المعاني، فقرّر

¹ الإمام حميد الدين الفراهي، تفسير نظام القرآن، الدائرة الحميدية، سرائي مير، أعظم كراه، ص 147

أن يترك المدرسة، وعاد إلى القرية وعزم على العمل بالزراعة، ولكن والده ألح على مواصلة الدراسة وعدم التحول عما رسمه، ففر واختفى عند بعض أقاربه حتى التقى بالشيخ الدرويش خصر خال والده، وكان له أكبر الأثر في تغيير مجرى حياته وإعادة الثقة فيه، وبعد ذلك أمكن له أن يفهم الدروس بيسر وسهولة.

ثم انتقل إلى "الجامع الأزهر" عام 1866م حيث درس اللغة والأدب والنحو والبلاغة والعلوم الإسلامية وحصل على شهادة العالمية منها عام 1877م.

بعد تخرجه وحصوله على شهادة العالمية توجه إلى مهنة التدريس، وبدأ يدرس موضوعات كثيرة في المنطق وعلم الكلام، ثم عين مدرساً بمدرسة "دار العلوم" التي أنشأها علي باشا مبارك، فألقى محاضرات في مقدمة ابن خلدون، ولم يكن هذا النوع من التدريس بدء عهد جديد في مصر فحسب، بل كانت طريقة التدريس أيضاً مبتكرة ومبتدعة لا عهد بها للبلاد من قبل، كما عين محمد عبده مدرساً للعلوم العربية في "مدرسة الألسن" الخديوية، حيث ركز عنايته على تدريس العلوم العربية وتنقيح منهج التعليم وتهذيبه من الشوائب.

تأثر الشيخ محمد عبده بعدد من الأعلام البارزين الذين لعبوا دوراً بارزاً في تكوين شخصيته وتبليغه إلى الذروة والكمال وهم الشيخ درويش وحسن الطويل وسيد جمال الدين الأفغاني حتى برز على ساحة العالم كمفسر كبير ومصلح عظيم وقضى حياته يجاهد ويناضل حتى جاءه الأجل عام 1805م.¹

مساهمة العلامة الفراهي في تفسير القرآن الكريم:

إذا ألقينا النظر على إسهامات العلامة الفراهي في مجال القرآن الكريم وجدنا أن فكرته الرئيسية التي تدور حول نظرية النظام "الوحدة الموضوعية"، هي إحدى النظريات التي اشتهر بها العلامة لا في الهند فحسب بل العالم العربي والإسلامي

¹ الدكتور محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، الجزء الأول، دار الشروق، ص 22

كليهما، ويرى العلامة أن القرآن كلام محكم منظم وأنه لو تأخر ما تقدم أو تقدم ما تأخر لبطل النظام وفسدت بلاغة الكلام، وأن نظامه في معانيه كما هو في ترتيب آيه وسوره أيضًا، كما يقول العلامة بصراحة: "إني لم أسلك مسلك أحد في البحث عن النظام، بل منحني الله تعالى بصيرة تامة في هذا المجال، وليس من الصحيح إن قلت أنا أول شخص بحث عن النظام في القرآن الكريم، بل قد اعتنى العلماء قبلي بهذا الجانب وألّفوا كتبًا قيمة فيها مثل "البرهان في مناسبة سور القرآن" للعلامة أبو جعفر بن زبير و"نظم الدرر في تناسب الآي والسور" للشيخ برهان الدين البقاعي، وكذلك أشار العلامة السيوطي إلى هذا الجانب قائلاً: إن النظم من أرفع العلوم" وكذلك ذكر الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره أن أكبر حكمة القرآن كانت مخفية في النظم والترتيب".¹

وكذلك صرح الأستاذ عناية الله السبحاني "أن النظام ليس أمرًا مقصودًا عند العلامة الفراهي لذاته وإنما هو المنهاج الصحيح لتدبر القرآن، وأفاد أن النظام هو المفتاح الذي تفتح كنوز حكمة القرآن، وأن السعي في البحث عن النظام الذي لم يوصل إلى هدفه المنشود وهو سعي بلا جدوى، وصرح أن كل نظام لا يمكن أن يقبله بل يقبل النظام الوحيد الذي يوجد فيه حسن التأويل، وفي بعض الأحيان يمكن أن يقوم النظام في العبارة بتأويل ضعيف، ولكن لم يقبل لأنه قد فتح بابًا للكلام الذي لا أساس له وسد السبيل للنظام الأعلى الذي كان عظمة كلام الله تعالى".²

ملخص القول أن النظام يتجلى به محاسن السورة والحكمة التي هي تمام العلم والتقوى. وفهم الكلام لا يمكن إلا بمعرفة نظامه بل هو يهدي إلى الانتفاع بالكتاب وتعلمه وتعليمه والعمل به وحث الناس عليه.

¹ الإمام حميد الدين الفراهي، تفسير نظام القرآن، الدائرة الحميدية، سرائر مير، أعظم كراه، ص 31

² عناية الله السبحاني، علامة حميد الدين فراهي، حيات وأفكار، مقالات فراهي سمينار، دائره حميدية، سرائر مير، أعظم كراه، ص 112-113

منهجه في التفسير:

قد اختار الإمام الفراهي منهجًا شاملاً لتفسير القرآن الكريم وهذا المنهج يشتمل على النقاط التالية:

الأول: تفسير القرآن بالقرآن: قد ركز العلامة الفراهي جلّ عنايته في تفسيره على تطبيق وتنفيذ أصوله التفسيرية التي بينها في كتبه "فاتحة نظام القرآن" و"أساليب القرآن" و"دلائل النظام" و"التكميل في أصول التأويل" وغيرها مؤكداً على أن القرآن يفسّر بعضه ببعض ومبيناً أن القرآن بآياته وسوره مترابط ترابطاً وثيقاً بما قبلها وبعدها، ومنظماً مربوطاً من حيث المعاني والكلمات والموضوعات، وفي ضوء هذه التفاصيل حاول أن يعين المعنى المقصود في ضوء العمود وسياق الآيات ونظائرها ودلائلها. على سبيل المثال: "إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله"¹ وبعد ذلك جاء "والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله" ولم يذكر "أموالهم وأنفسهم" ولكنه مفهوم، ثم جاء بعد ذلك "والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم": فلم يذكر "في سبيل الله ولا بأموالهم وأنفسهم"، ولكن ذلك مفهوم وقد دل عليه "معكم".

أفاد الإمام الفراهي أن القرآن يجمع في مكان ما قد بينه في مكان آخر، وهذا هو معنى تفسير القرآن بالقرآن.²

الثاني: تفسير القرآن بالسنة النبوية: وفي هذا الصدد يقول الإمام الفراهي "لعمري أحبّ التفسير عندي ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم".

1. إن السنة النبوية تعتبر مصدراً ثانياً لتفسير القرآن الكريم، وقد استخدم الفراهي هذا المصدر ولكنه عيّن بعض المبادئ لتفسير القرآن الكريم، مشيراً

¹ سورة الأنفال: 72-74-75

² الدكتور فريد راوي عبد الله، الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، دار الشاكر، سلانجور، ماليزيا، ص 71-72

إلى أن الحديث الصحيح لا يخالف القرآن الكريم، وفي بعض الأحيان قد يخالف الحديث الشريف في تفسير القرآن الكريم فإنه يأول الحديث ولا يأول القرآن على سبيل المثال: "ضربت عليهم الذلة والمسكنة"¹، قال إن كلمة مسكنة تستخدم للعجز وسقوط الهمة وبؤس العيش، ومنها المسكين أي الذي سد عنه طرق الكسب ودل على هذا المعنى ما جاء في الحديث "ليس المسكين الذي تردده اللقمة واللقمتان، وإنما المسكين الذي لا يسأله ولا يفتن له فيعطى" فالمسكنة شدة العجز وبؤس العيش. وتفسير سورة البقرة خير نموذج لتفسير القرآن بالسنة النبوية حيث أفاد الفراهي من خلال تفسيره من الأحاديث النبوية، وبعد ذلك اهتم الفراهي بأقوال الصحابة التي توافق بالقرآن الكريم.²

وفي تفسير القرآن الكريم توجد الروايات الإسرائيلية أكثر بكثير ومعظم المفسرين لم يحاولوا أن يحققوها بل نقلوها كما وجدوها في تفسير الكتب، ولكن الإمام الفراهي قد تعلم اللغة العبرانية لهذا الهدف النبيل وحاول أن يحقق الروايات الإسرائيلية بدفة وإمعان واختار موقفًا صارمًا في هذا الصدد كما يذكر:

وأما موقفه تجاه الروايات الإسرائيلية فإنه استفاد من الأخبار الواردة عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهو لم يقدم الروايات الواردة في كتب التفسير بل يرجع إلى ما كتب عن القرآن بأيديهم ليقيم الحجة عليهم كما يفيد في فاتحة التفسير "وبعد التمسك الشديد بالقرآن آتي بشهادات الكتب التي نزلت على من قبلنا كما آتي بما روي من الأحاديث تبعًا والغرض كشف ما وافقت فيه الآيات وإقامة الحجة على الأمتين من كتبهم". وموقفه من الإسرائيليات هو موقف المفسرين عمومًا، فما وافق شريعتنا قبل، وما خالف ورفض. وما سكت عنه،

¹ سورة البقرة: 61

² المصدر نفسه، ص 73

فنحن بالخيار، وهذا ما صرح به في المقدمة الثانية في المآخذ الخيرية فقال: "من المآخذ ما هو أصل وإمام. ومنها ما هو كالفرع والتبع، أما الإمام والأساس فليس إلا القرآن نفسه. وأما ما هو كالتابع والفرع فذلك ثلاثة: الأول: ما تلقته علماء الأمة من الأحاديث النبوية، الثاني: وما ثبت واجتمعت الأمة عليه من أحوال الأمم، الثالث: وما استحفظ من الكتب المنزلة على الأنبياء". فأصبح من الضروري لنا أن لا نأخذ منها إلا ما يكون مؤيداً للقرآن وتصديقاً لما فيه كما يقول: "ومن أمعن في الكتب السابقة فاستبان له فضل تعليم القرآن عليه وإعادة بعض ما نسوه من كتبهم وكشف ما بدلوه، والذي يهتك هو أن تجعل بين ما نطق به القرآن وبين ما تجد في الفروع سداً وحاجزاً فلا تخلطهما"¹.

اهتمامه باللغة وعلم البلاغة:

وكذلك اهتم الإمام الفراهي بالنواحي اللغوية اهتماماً كبيراً خاصة في التفسير وعلوم القرآن الكريم لأن لغته كانت قوية متينة جزلة، وفي بعض الأحيان يشك الإنسان أنه أعجبي كما أشار العلامة السيد رشيد رضا: "ألقينا على بعض رسائله لمحة من النظر، فإذا طريق جديد في أسلوب جديد من التفسير، يشترك مع طريقنا في القصد مع المعاني من حيث هي هداية إلهية دون المباحث الفنية العربية، وإن للمؤلف لفهماً ثاقباً في القرآن، وإن له فيه مذاهب في البيان، وإنه لكثير الرجوع باللغة إلى مواردها والصدور عنها ريان شواهدا". وكذلك أشاد به العالم الكبير والأديب الأملعي الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي حينما قام بزيارة الهند عام 1342هـ، فقال في مذكراته: "سمعت منه خطبة تفسيره للقرآن اغرورقت منها عينايا لفصاحتها وحقيقتها وقلت عنها سابقاً كأنها قبسات من التنزيل".

¹ الدكتور محمد يوسف الشريجي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية المجلد:

20، العدد: 2، 2004م، ص 74

وفي بعض الأحيان يستشهد بكلام العرب لتعيين معاني القرآن الكريم وتفسيره لأن له براعة تامة في كلام العرب وخير دليل عليها أنه ذكر كثيرًا من الأبيات لتعيين معنى الكيد الذي هو التدبير الخفي لضرر العدو كما قال تعالى: "أنهم يكيدون كيدًا وأكيد كيدًا". (سورة الطارق: 16) "فجمع كيده ثم أتى" (سورة طه: 60) "فأجمعوا كيدكم ثم اتتوا صفًا" (سورة طه: 63) "فلا يضرركم كيدهم شيئًا" (سورة آل عمران: 120) أي تدبير محكم وقال تعالى: "وأملئ لهم إن كيدي متين" (سورة الأعراف: 183) "إن كيد الشيطان كان ضعيفًا" (سورة النساء: 76)

وقال النابغة الذبياني:

يقودهم النعمان منه بمصحف وكيد يغم الخارجي مناجد
وقال زهير بن أبي سلمى يصف الملك سنًا:

له لقب لباعي الخير سهل وكيد حين تبلوه متين
في ضوء هذه الشواهد كيف عيّن الفراهي المعنى الصحيح لكلمة "الكيد" مستشهدًا بالشعر القديم.¹

وفي ضوء هذا المنهج الذي ذكرناه آنفًا بدأ الفراهي يفسر القرآن الكريم فقام بتفسير سورة الفاتحة، وتفسير سورة الذاريات وتفسير سورة التحريم، وتفسير سورة القيامة، وتفسير سورة المرسلات، وتفسير سورة عبس، وتفسير سورة الشمس، وتفسير سورة العصر، وتفسير سورة الفيل، وتفسير سورة الكوثر، وتفسير سورة الكافرون، وتفسير سورة لهب، وتفسير سورة الإخلاص.

مساهمة الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن الكريم:

قام الشيخ محمد عبده بتفسير القرآن الكريم باسم "تفسير المنار" ويعتبر هذا التفسير من أهم تفاسير القرآن الكريم والذي كتب على أساس الاجتهاد، متجنبًا

¹ المصدر نفسه، ص 76

عن المسائل الخلافية ومؤكداً على القيم الخلقية والروحانية، وكان له أثر عميق في نفوس العقلاء وأدى دوراً مهماً في تحرير تفسير القرآن من الخرافات وفتح باب الاجتهاد كما يقول: "التكلم في تفسير القرآن الكريم ليس بالأمر السهل، وربما كان من أصعب الأمور وأهمها، وما كل صعب يترك، ولذلك، لا ينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه، ووجوه الصعوبة كثيرة، أهمها أنّ القرآن كلام سماوي، تنزل من حضرة الربوبية التي لا يكتنه كنهها، على قلب أكمل الأنبياء، وهو يشتمل على معارف عالية ومطالب سامية، لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزكية والعقول الصافية، وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال، الفائضين من حضرة الكمال، ما يأخذ بتلابيبه، ويكاد يحول دون مطلوبه. ولكن الله تعالى خفف علينا الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه، لأنه إنما أنزل الكتاب نوراً وهدى، مبيئاً للناس شرائعه وأحكامه، ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه".

غاية التفسير: إن غاية التفسير في رأي الشيخ محمد عبده هي فهم الكتاب فهماً صحيحاً من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو الهدف الأساسي منه ما وراء من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله، وأكد على أن فهم القرآن واجب على المسلمين جميعاً بدون النظر إلى ثقافتهم وأجناسهم وأوطانهم.¹

ثم استعرض كتب التفسير استعراضاً دقيقاً وحاول أن يبرز أهم نقاطه التي تشتمل عليها معظم كتب التفسير:

1. النظر في أساليب الكتاب ومعانيه، وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علو الكلام وأهميته على الكلام الآخر، كما اختار الزمخشري هذا المنهج ونحا نحوه المفسرون الآخرون.

¹ الدكتور محمد عمارة، الأعمال الكاملة، الجزء الرابع، دار الشروق، مصر، 2006م، ص 6-7

2. الإعراب: وقد اهتم بها أقوام توسعوا في بيان وجوهه وما تحتمله الألفاظ منها.
 3. تتبع القصص: قد اختار هذا المنهج أقوام أضافوا في قصص القرآن ما شاؤوا من كتب التاريخ والإسرائيليات، ولم يعتمدوا على التوراة والإنجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم، بل أخذوا كل ما سمعوا عنهم بغير تفريق بين غث وسمين، وبدون تنقيح وتهذيب لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل.
 4. الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات، والاستنباط منها.
 5. الأحكام في أصول العقائد ومقارعة الزائغين ومحاجة المخالفين، ولالإمام الرازي العناية الكبرى بهذا النوع.
 6. المواعظ والرقائق وقد مزجها الذين ولعوا بها بحكايات المتصوفة والعباد، وخرجوا بعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التي وضعها القرآن.
 7. ما يسمونه بالإشارة، وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية، ومن ذلك، التفسير الذي ينسبونه للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي وإنما هو للقاشاني، الباطني الشهير، وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز.
- يقول بعض أهل هذا العصر: لا حاجة إلى التفسير والنظر في القرآن، لأن المفسرين السابقين والأئمة قد نظروا في الكتاب والسنة واستنبطوا منهما الأحكام الشرعية والمسائل الفقهية، ولا حاجة إلى مزيد من النظر فيهما.¹
- منهجه في التفسير:

اختار الشيخ في التفسير منهج سابقه، مؤكداً على فهم روح القرآن الكريم والوقوف على معانيه العامة مع الانتقاد الشديد على المفسرين السابقين الذين قضوا حياتهم في مباحث الألفاظ والإعراب ونكت البلاغية وفي الروايات التي لا

¹ المصدر نفسه، ص 7

تدل عليها الآيات ولا تتوقف على فهمها، وكذلك وجه اعتراضاً شديداً إلى طريقة بعض المفسرين الذين جمعوا أقوال العلماء والغرائب والإسرائيليات والتأويلات المخترعة التي لا علاقة لها بالآية: "إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال العلماء وما فهموه، وإنما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا وهدايتنا وعن سنة نبينا الذي بين ما نزل إلينا، هل بلغت الرسالة؟ هل تدبرتم ما بلغت؟ هل عقلتم ما عنه" ثم عين بعض المبادئ لتفسير القرآن الكريم:

1. فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ولا يكتفي بقول فلان وفلان، بل على المفسر أن يحقق الكلمات ومعانيها والأقوال الواردة في هذا الصدد، لأن معظم الألفاظ التي كانت تستخدم في زمن التنزيل لمعان، ثم تستخدم لمعان أخرى بزمن قريب أو بعيد، وفي هذا السياق كلمة "التأويل" اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً، أو على وجه مخصوص ولكن استخدم في القرآن الكريم لمعان أخرى كقوله تعالى: "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ" (سورة الأعراف: 53).

يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يعرف الاصطلاحات التي حدثت في الملة ليفرق بينها وبين ما جاء في الكتاب، فعلى المفسر أن يفسر القرآن الكريم بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله، والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة، كلفظ الهداية وغيره، وبحقق كيف يتفق معناه مع معنى الآية فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه، بالجملة تفسير القرآن بالقرآن أحسن تفسير في رأيه.

2. الأساليب: فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة، ويحتاج في هذا إلى علم الإعراب وعلم المعاني والبيان.

3. علم أحوال البشر: قد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبينه في كثير من أحوال الخلق وطبائعه، والسنن الإلهية في البشر، فللمفسر واجب على أن يعلم أحوال البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنة فيها، فلا بد للناظر في هذا الكتاب أن ينظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم واختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل، وعلم وفضل، وإيمان وكفر من العلم بأحوال العالم الكبير من الأعلى وإلى الأسفل، ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ.
- على سبيل المثال، كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ" (سورة البقرة: 213) وهو لا يعرف ولا يعلم أحوال البشر وكيف اتحدوا، وكيف تفرقوا، وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها، وهل كانت نافعة أم ضارة، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم.
4. العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن، فيجب على المفسر الذي يقوم بهذا الفرض أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم، لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث لهدايتهم وإسعادهم. فلا بد للمفسر أن يكون عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه، هل يكتفي علماء القرآن ودعاة الدين والمناضلين عنه، بالتقليد؟ بأن يقولوا تقليدًا لغيرهم، بأن الناس كانوا على باطل، وإن القرآن دحض أباطيلهم.
1. العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكانوا عليه من علم وفضل وعمل وتصرف في شؤون الدنيا والآخرة. وبعد ذلك أنه قسم التفسير إلى قسمين:
- الأول: التفسير الجاف المبعد عن الله وكتابه، ويقصد به حل الألفاظ وإعراب الجمل والنكت الفنية فحسب، وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيرًا بل إنما هو ضرب من الممارسة في الفنون كالنحو والمعاني وغيرهما.

الثاني: هو التفسير الذي جمع فيه جميع الشروط التي ذكرناها آنفاً، وهو يشتمل على فهم مراد القائل من القول وحكمة التشريع في العقائد والأخلاق والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل والهداية ليتحقق فيه معنى قوله "هُدًى وَرَحْمَةً" (سورة الأنعام: 154).¹ ملخص القول أن غاية التفسير هي الاهتداء بالقرآن وهذا هو الغرض الأساسي للتفسير القرآن الكريم.

نموذج من تفسير سورة الفاتحة (الفراهي)

فقد فسر الفراهي تفسير سورة الفاتحة تفسيراً رائعاً ويقول:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: مقام الشكر

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ: مقام التوكل والتسليم

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ: مقام الإخلاص والتوحيد

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ: جامع للإيمان

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ: جامع للإسلام

كيف تشتمل هذه السورة مجملاً على ثلاثة أشياء رئيسية وهي التوحيد، والشرائع، والمعاد.

وإذا بينت هذه الأمور فهي تشتمل على جميع القرآن وسيظهر ذلك على من يتلو القرآن بالتأمل والتدبر.

وقد اتفق العلماء من السلف إلى الخلف على أن السبع المثاني هذه سورة الفاتحة فانظر كيف سماها الله على حدتها قرآناً عظيماً "وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ" (سورة الحجر: 87).²

¹ المصدر نفسه

² الإمام حميد الدين الفراهي، تفسير نظام القرآن، تفسير سورة الفاتحة، ص 94

وبين أن الفاتحة من جهة كونها ديباجة، هي جامعة لمعاني القرآن كما أنها شاملة لعلومه الثلاثة، فكذلك هي جامعة وشاملة من جهة نظامها أيضاً، فإذا تليت الفاتحة تجلت جملة القرآن حسب نظمها ومثلها كمثال مرآة صغيرة ترى فيها شيئاً عظيماً في هيئته وصورته، فهذه جهة أخرى لكونها موفية وجامعة.

نموذج من تفسير سورة الفاتحة (للشيخ محمد عبده)

إن الفاتحة مشتملة على مجمل ما ورد في القرآن وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها وليس مرادنا ما يعبرون بالإشارة ودلالة الحروف أن أسرار القرآن في الفاتحة وأسرار الفاتحة في البسملة وأسرار البسملة في نقطة الباء. بل أن الفاتحة تشتمل على الأمور التالية:

الأول: التوحيد

الثاني: وعد من أخذ به تبشيره بحسن المثوبة

الثالث: العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبتها في النفوس

الرابع: بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه، الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة

الرابع: قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه ظهرياً لأجل الاعتبار واختيار طرق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر.

هذه الأمور التي احتوى عليها القرآن، ومنها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية والفاتحة مشتملة عليها إجمالاً بغير شك ولا ريب على جميع القرآن الكريم وهو يقول:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: التوحيد

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ: الوعد والوعيد

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ: العبادة

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ: الأخبار والقصص

فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التي يشرحها القرآن بالتفصيل، فكان إنزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى بأن تسمى أم الكتاب، كما قال بعضهم إن المعنى في ذلك أن الأم تكون أولاً ويأتي بعدها الأولاد.¹

نموذج من تفسير سورة الكوثر (للفراهي)

أولاً أنه حاول أن يذكر عمودة السورة وربطها بما قبلها وبما بعدها ثم بين تفسير كلمة "الكوثر" وتأويلها كما يقول:

"لا يخفى أن الكوثر مبالغة من الكثير فهو ذو كثرة عظيمة وبركة وثروة، فإن الكثير هو الثروة، وقد سَمَوْا به الرجال كما سَمَوْهم بكثير وكثير وترى استعماله على طريق الصفة في قول لبيد:

وصاحب ملحوب فجعلنا بموته وعند الرداع بيت آخر كوثر

فالكوثر من ناحية اللغة لثلاثة وجوه من التأويل:

1. إنه منقول إلى الاسمية فصار مختصاً بشيء سماه الله تبارك وتعالى بالكوثر.
2. إنه صفة قدر موصوفها فصار له بعض التخصيص كقولهم "مرد على جرد" أي رجال مرد على خيل جرد وكقوله تعالى: "ذات ألواح ودرسر" (سورة القمر: 13) أي فلك ذات ألواح ودرسر، وهذا كثير في القرآن وكلام العرب ولكن لا يوجد إذا كانت الصفة خاصة بالموصوف، فيصفهم من ذكر مجرد الصفة أي دلت على الموصوف قرينة أخرى.

¹ الدكتور محمد عمارة، الأعمال الكاملة، ص 20-22

3. والثالث أنه وصف باق على عموم معناه كأسماء الصفة التي تقع على القليل والكثير ولا تختص، وحينئذ يكون من جوامع الكلم ويحتمل ما كان فيه خير كثير، ويحمل حسب القرائن على بعض الأدلة، نهائياً أنه وصل إلى أن المراد من الكوثر هو الكعبة وما حولها وبعد ذلك ذكر الله تعالى الصلاة والنحر وقد أثبتته في ضوء الدلائل القاطعة.¹

نموذج من تفسير سورة الكوثر (للشيخ محمد عبده)

الكوثر: صفة مبالغة من الكثرة ومعناه الشيء البالغ من الكثرة حد الإفراط، قيل لأعرابية، رجع ابنها من السفر، بم رجع ابنك، قالت بكوثر، وقال الكميت: وأنت كثير بأين عروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرأ أقوال السلف في تعيين معنى الكوثر هو النبوة، والدين الحق والهدى وما فيه سعادة الدارين الدينا والآخرة.²

دراسة مقارنة

إذا ألقينا نظرة على تفسير الإمام الفراهي والشيخ محمد عبده وجدنا بعض التماثل والتباين بينهما.

التماثل:

كل واحد منهما ولد في القرن التاسع عشر ودرس أوضاع العالم العربي والإسلامي بدقة وإمعان، ووصل إلى النتيجة أن الأمة المسلمة قد بعدت عن الدين الإسلامي وبخاصة القرآن الكريم الذي أنزل الله تعالى كدستور خالد وشامل لهذه الأمة.

¹ تفسير نظام القرآن، ص 521

² الدكتور محمد عمارة، تفسير سورة الكوثر، ص 542

كل واحد منهما أكد على الفهم الصحيح للقرآن الكريم وعيّن له بعض المنهج.
كل واحد منهما ركز عنايته على أن تفسير القرآن بالقرآن هو أحسن تفسير.
كل واحد منهما حاول أن يأخذ الروايات الإسرائيلية بعد التحقيق والتدقيق وانتقد
المفسرين الذين جمعوا الروايات الإسرائيلية بدون تحقيق وتفحص.
كل واحد منهما اهتم بكلام العرب وأساليبها وبلاغتها اهتمامًا بالغًا كما نرى في
تعيين معنى الكوثر.
كل واحد منهما أراد أن يفسر القرآن الكريم ولكن لم يوفق إتمامه.

التباين:

إن الإمام الفراهي قد أكد على النظام وأن فهم القرآن الكريم لا يمكن إلا به، وأما
الشيخ محمد عبده فإنه لم يتحدث عن النظام.
إن الفراهي قد ألّف كتبًا عديدة لفهم القرآن الكريم، وأما الشيخ محمد عبده
فإنه لم يكتب أي كتاب لفهم القرآن الكريم.
إن فهم الفراهي للقرآن الكريم كان أشمل وأعمق مقابل الشيخ محمد عبده كما
نرى في تعيين معنى الكوثر.

المراجع والمصادر

1. الإمام حميد الدين الفراهي، تفسير نظام القرآن، الدائرة الحميدية، سرائر مير، أعظم كراه، ولاية أترابرايش، الهند
2. الدكتور فريد راوي عبد الله، الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، دار الشاكر، سلانجور، ماليزيا، 2015م
3. الدكتور محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، الجزء الأول، دار الشروق، مصر، عام 2006م
4. الدكتور محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، الجزء الرابع، دار الشروق، مصر، 2006م
5. الدكتور محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، الجزء الخامس، دار الشروق، مصر، 2006م
6. الدكتور محمد يوسف الشريحي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية المجلد: 20، العدد: 2، 2004م
7. عناية الله السبحاني، علامة حميد الدين فراهي، حيات وأفكار ، مقالات فراهي سمينار، الدائرة الحميدية، سرائر مير، أعظم كراه، ولاية أترابرايش، الهند، 1992م

الآراء التفسيرية للسير سيد أحمد خان والإمام الفراهي - دراسة مقارنة

-أ.د. أبو سفيان الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: أبو سعد الأعظمي²

لا ينسى التاريخ السير سيد أحمد خان (1817-1898م) بما كان له من آراء متنوعة وخدمات علمية، ولا تزال آراؤه التفسيرية موضوع النقاش بين أصحاب العلم وأرباب الفكر. وهذا الذي أدّى إلى مخالفة السير سيد والطعن في شخصيته ونقد آراءه. وأما الإمام الفراهي (1863-1930م) فقد كان شخصية عملاقة بما كان له من تحقيقات قرآنية واكتشافات جديدة في مجال علوم القرآن، فأشاد العلماء والكتّاب بخدماته القرآنية في داخل الهند وخارجها. والسير سيد أحمد خان نفسه اعترف بمكانته العلمية عندما كان يعيش في رحاب كليته كطالب. ولما طُلبَ من الإمام الفراهي أن يقوم بترجمة تفسيره إلى اللغة العربية بعد أن تقرر في هذه الجامعة كأستاذ للغة العربية في سنة 1907م، ردّ عليه بكل صراحة "لا أريد أن أساهم في إشاعة هذه المعصية"³. فلم يتجرأ أحد بعد جوابه هذا أن يكرر أمنية السير سيد أمامه. قضى الإمام الفراهي حوالي سبعة أعوام بعلي جره، فلذلك يمكن لنا القول بكل اطمئنان ويقين أنه تأثر وعيّا أو بدون وعي بما كان للسير سيد من جهود

¹ بروفييسور، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي جره الإسلامية، علي كره

² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي جره الإسلامية، علي كره

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الإمام عبد الحميد الفراهي، ترجمة: أمين

أحسن الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جره، 1411هـ-

1990م، ص 13

في إذكاء شعلة علمية وفكرية وما كان يسوده في محمدين اينكلو أورينتال كالج (كلية محمد الإنجلو الشرقية) من أجواء علمية. وبالإضافة إلى ذلك إنه اختلف في تفسيره وكتبه الأخرى عن السير سيد أحمد خان وآرائه التفسيرية إشارة أو بياناً كما نجد في ضمن قضية المعجزات.

يقول الإمام الفراهي: "وإن السير سيد أحمد خان عندما رأى أن ظاهر القرآن ينفي المعجزات للنبي ﷺ ويتفوق بها موسى وعيسى عليهما السلام على النبي ﷺ، أنكر المعجزات". ولو نقوم بدراسة إيجابية لتفسير السير سيد بصرف النظر عما كان له من آراء عن المعجزات، فلا بد لنا أن نشيد بما يتميز به تفسيره من ميزات عديدة. ولكننا نقول مع الأسف البالغ أننا لم نحاول إبراز هذه المزايا لتفسيره وركزنا جميع جهودنا على ذلك الجانب الوحيد. وإن الإمام الفراهي أيضاً قد تعرض للمطاعن والانتقادات من قبل طائفة مخصوصة بما كان له من تفردات تفسيرية، فأفتي بتكفيره كما صدرت الفتوى بتكفير السير سيد. ونرى أنهما اهتما في تفسيرهما اهتماماً شديداً بما يقتضي القرآن الكريم من تفكير وتدبر، وتعقل وتفقه. وفي هذا المقال المتواضع نحاول دراسة مقارنة لبعض آرائهما التفسيرية.

نزل القرآن - حفظه وترتيبه:

تتفق آراء السير سيد والإمام الفراهي تماماً بصدد نزول القرآن وحفظه وترتيبه. وما قاله الإمام الفراهي في حفظ القرآن هو منطقي جداً. وأما أقوال السير سيد في هذه المسألة فهي أيضاً جديرة بالإشادة والتقدير. كلاهما استدلا بالآيات القرآنية العديدة على أن القرآن أنزله الله تبارك وتعالى لفظاً ومعنى. يقول الله تبارك وتعالى: "وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾" (سورة الشعراء: 191-195).

وقد انتقد السير سيد رأي الشاه ولي الله الدهلوي بأن القرآن الكريم أنزله الله تبارك وتعالى معني فقط، عندما ألقى الضوء على نزوله، فإنه يقول مستدلًا بالآيات القرآنية، "ويبدو منه أن القرآن الكريم أنزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين وليس هذا أن المعنى إنما أنزله الله تبارك وتعالى وأما ألفاظه فهي من النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا لا يمكن لأنك إذا أمنت النظر في نفسك وجدت أن المضمون لا يورد ولا يلقي في قلبك مجردًا عن الألفاظ، لأن تصور أي مضمون يستلزم تصور تلك الألفاظ التي تدل على ذلك المضمون، وكون المضمون مجردًا عن الألفاظ شيء مستحيل في العقل، فلذلك ينبغي لنا أن نقول إن الله تعالى أنزل القرآن لفظًا على قلب محمد صلى الله عليه وسلم وتلا النبي صلى الله عليه وسلم أمام الناس كما أنزل لفظًا وترتيبًا".¹

إن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يصرح عن التحريفات كلها. ويقول السير سيد: "إن القرآن الكريم موجود كما أنزل حيث لا زيادة فيه ولا نقصان لا على مستوى اللفظ ولا على مستوى المعنى".² يقول الله تبارك وتعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (سورة الحجر: 9)

وقدّم الإمام الفراهي ثلاثة أمور بسياق آية سورة القيامة: "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ" ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ (17-19).

أولاً: إن القرآن الكريم تلي على النبي ﷺ بعد جمعه على ترتيب خاص في عهد ﷺ، أو بعبارة أخرى إن ترتيب القرآن توقيفي.

ثانياً: إن القرآن الكريم تلي على النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن تم جمعه وأمر أن يتلى على الناس كما تلي عليه وأدى النبي صلى الله عليه وسلم تلك المسؤولية.

¹ تفسير القرآن، السير سيد أحمد خان، خدابخش أورينتال بلك لائبريري، بتنه، ص 34

² نفس المصدر، ص 11

ثالثاً: إن الله تبارك وتعالى بين كل ما يتعلق بالتعميم والتخصيص والتخفيف أو التكميل بعد الجمع والترتيب.¹

ويقول السير سيد في ترتيب آيات السور: "إن ترتيب آيات كل سورة أمر منصوص عندي".²

ويقول الإمام الفراهي مستدلاً بآيات سورة الحجر وحم السجدة، "وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ" (41-42) "تتضح من هذه الآيات أنه لا يمكن أي إضافة أو نقص أو تبديل في القرآن الكريم، لأن ذلك ينافي حفظ القرآن. ولا شك في حفظ القرآن لأنه أمر مجمع عليه من حيث أنه لم يضاف إليه نقطة ولم ينقص منه عبارة".³

نظم القرآن:

كما نرى أن آراء كل منهما في حفظ القرآن وترتيبه تتفق مع بعضهما البعض. وأما مبحث ربط الآيات ونظم القرآن فهو أيضاً يتعلق بترتيب القرآن. ونجد آثاره وبذوره عند المتقدمين ولكن في صورة ناقصة وغير ناضجة. ويتميز الإمام الفراهي عن المتقدمين والمتأخرين بحيث إنه أحاط بجميع جوانبه وبحث عن جميع أبعاده. ويرى الإمام الفراهي أن جميع سور القرآن الكريم وآياته مترابط وتتناسب بعضها مع بعض بحيث لو حذفت آية واحدة يختل نظمه. يقول في كتابه دلائل النظام: "فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كاملاً واحداً، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة أو بالتي قبلها أو بعدها على بعد ما، كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أن الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السور

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 212-213

² نفس المصدر، ص 12

³ نفس المصدر، ص 12

معتضة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلامًا واحدًا ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر".¹

ولا يتصور ربط الآيات ونظم القرآن الكريم بهذا الوضوح عند السير سيد إلا أنه يوجد في صورة مهمة، فإنه أكد في مواضع عديدة في تفسيره على ضرورة استنباط مفهوم الآيات ومعانيها نظرًا لسياقه ونظمه. ويسلط الضوء على هذه الآية: "أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ" (سورة آل عمران: 49) قائلاً: "جدير بنا أن نبين ما يتعلق بربط آيات سورة آل عمران قبل أن نخوض في تفسيره. تجيء هذه الآية وما بعدها في سورة آل عمران عقب الآيات التي فيها بشارة بكون عيسى عليه السلام رسولاً ويستمر هذا الأمر إلى الآية، "وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ" ولكن لا نجد أي ربط للآية وما بعدها من الآيات بالآيات التي تتعلق بالتبشير".²

كما أنه أثار مسألة الربط والتناسب عندما ألقى الضوء على آية سورة مريم: "وَمَا تَنْزِيلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا" (سورة مريم: 64) فيقول: "لا يربط المفسرون هذه الآية بالآيات التي قبلها بل يقولون إن قريشاً عندما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن حقيقة الروح وقصة ذي القرنين وأصحاب الكهف ووعد النبي صلى الله عليه وسلم بتبيينه من حيث إنه لم يقل إن شاء الله فلم يعي جبريل عليه السلام بالوحي عدة أيام وعندما جاء جبريل سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن غيابه فأجابه جبريل إنه لم يحضر بأمر الله ولا ينسى الله أي شيء بل ما أمرنا. وأظن أن جميع هذه الأقوال والروايات لا يلتفت إليها وهي ساقطة عن الاعتبار. وهذه الآية ترتبط بالآيات التي قبلها".³

¹ رسائل الإمام الفراهي، عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جره، الطبعة الثانية، 1411هـ-1991م، ص87

² تفسير القرآن، السير سيد أحمد خان، رفاه عام استيم بريس، لاهور، بدون تاريخ، 157/2

³ تفسير القرآن، السير سيد أحمد خان، مفيد عام آغره، 1322هـ-1904م، 124/7-125

وبإمكاننا أن نقول في ضوء هذين النصين إن تصور نظم القرآن الكريم عند السير سيد يوجد في نطاق ضيق. وقدّم الإمام الفراهي رؤية واضحة للنظم وأثبت أن تفسير القرآن الكريم بدون رعايته لا يمكن. يقول: "المقصود في هذه الفصول أن معرفة النظام من الضروريات لعلماء الأمة، حتى يعلموا الناس حسب ما فهموا. فإنهم إن لم يفهموه واختلفوا فيه كيف يرشدون الناس؟ بل يشتد ضرر قيادتهم لأنفسهم ولجميع المسلمين".¹

تفسير القرآن بالقرآن:

إن أول مصدر أساسي للتفسير هو القرآن الكريم نفسه، لأن فيه إجمالاً وتفصيلاً، إيجازاً وتوضيحاً، حيث أن ما أجمل في موضع فصل في موضع آخر وما أوجز بمناسبة أطنب فيه بمناسبة أخرى. وأطلق القرآن الكريم على هذه الظاهرة بتصريف الآيات. ونرى أن السير سيد قد راعى هذه الظاهرة في تفسيره واهتم بها، فوجد نماذج كثيرة له في تفسيره. يقول الله تبارك وتعالى في سورة مريم: "لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا" (سورة مريم: 87). ركز في هذه الآية على نقد ما يعتقده المشركون من أن أصنامهم سيشفعون لهم عند الله. فعندما فسّره السير سيد جمع عديداً من الآيات المتعلقة بهذا الموضوع من أمثال سورة الأعراف: 51، وسورة الشعراء: 100-101، وسورة المدثر: 49، وحمل السجدة: 3 وغيرها، وذلك لكي يتضح بكل صراحة ما هو مذكور في هذه الآية.² كما أن السير سيد جمع كل هذه الآيات التي ذكرت فيها قصة آدم في ثماني مناسبات ثم قدّم خلاصة البحث.³ وكتب الشيخ أبو الليث الإصلاحي الندوي (1916-1994م) حول نفس الموضوع

¹ راجع للتفصيل: رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن (المجموعة الأولى)، الإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جره، الطبعة الثانية، 1411هـ-1991م، ص22

² راجع للتفصيل: تفسير القرآن، السير سيد أحمد خان، ص133-135

³ نفس المصدر، 1/52-59

مقالة رائعة واستعرض فيها الأسباب والعلل لتكرار نفس الواقعة في سور مختلفة حيث إنه أجمل في سورة وفصل في أخرى وبين أسرار ورموزه في كل سورة. وأظن أن هذه المقالة تتميز عن المقالات الأخرى بأمور عديدة تفرّد بها الإصلاحي.¹

وقد اختار السير سيد منهجًا علميًا في هذا البحث لتناول الآيات الواردة في خلق آدم. فقد ذكر الله تبارك وتعالى ألفاظًا متنوعة من أمثال الطين والتراب والماء وصلصال وحمأ مسنون في آيات مختلفة بصدد خلق الإنسان. ويقول السير سيد بعد إمعان النظر في جميع هذه الآيات: "ومن المركب الكيميائي أن يتلاقى شيئان من حيث أن لا يفارق واحد عن الآخر من نفسه بل يصوغ في شيء آخر بعد تلاقيهما. فلذلك نرى أن ما يتكون بعد تلاقي المركب الكيميائي من أمثال الطين والتراب والصلصال والحمأ المسنون، يتسبب في وجود الإنسان. وأظن أن هذا هو ما يجمع على مستوى الماء وليس هو ترابًا ولا رملاً ولا حمأ مسنونًا ولا صلصالًا بل يتكون شيئًا جديدًا من المركب الكيميائي لهذه كلها. ويبدو أن جميع الأحياء من الإنسان والحيوانات يخلقون من هذا. وهذا هو ما يثبت بالقرآن الكريم".²

وإنما أوردنا كل هذه المقتسبات من تفسير السير سيد للدلالة على أنه أثر تفسير القرآن بالقرآن في تفسيره. وهذا هو ما اعتنى به الإمام الفراهي في تفسيره. يقول الفراهي في هذا الصدد: "قالت العلماء قديمًا إن القرآن يفسر بعضه بعضًا وذلك بأن ذلك ظاهر جدًا. فإن القرآن يذكر الأمور بعبارات مختلفة مرة إجمالًا وأخرى تفصيلًا. فما ترك في موضع ذكره في موضع آخر. وقد صرح القرآن بهذه الصفة التي فيه في غير موضع. فهذا أصل راسخ".³

¹ راجع للتفصيل: قصه آدم وشيطان، أبو الليث الإصلاحي الندوي، قرآني مقالات، ادارة علوم القرآن، سرسید نجر، على جره، ص154-185

² راجع للتفصيل: تفسير القرآن، السير سيد أحمد خان، 1/52-53

³ راجع للتفصيل: التكميل في أصول التاويل، المعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جره، الطبعة الأولى، 1388هـ، ص32

وقد بين الإمام الفراهي رأيه مستدلًا بالعديد من الآيات، فمثلاً عندما ذكر هلاك قوم لوط، جاء في موضع "حِجَارَةٌ مِّنْ طِينٍ" (سورة الذاريات: 33) وفي موضع آخر "حجارة من سجيل منضود" (سورة هود: 82) فيبين الأول الثاني. كذلك إن القرآن يعبر بالصلاة عن الاستعانة بالله كما يقول موسى عليه السلام عندما أمر قومه بقوله: "حِجَارَةٌ مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ" (سورة الأعراف: 128) وفي موضع آخر أمر بني إسرائيل بقوله "وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ" (سورة البقرة: 45) ونرى نماذج عديدة من هذا النوع في كتابه "التكميل في أصول التأويل"¹ وفي تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".

تفسير القرآن بالحديث:

قد اتفق العلماء على أن الأحاديث النبوية هي من المصادر الأساسية للتفسير، لأن النبي صلى الله عليه وسلم مبين وشارح للقرآن الكريم كما جاء: "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ" (سورة النحل: 44) ولكن الاستشهاد والتفسير بالأحاديث النبوية أمر صعب ومسألة معقدة، لأن معظم الأحاديث تروى معنى وتلحق فيها روايات كثيرة بسبب عداوة الإسلام والطائفية. فلذلك تعتبر الأحاديث النبوية ظنية الثبوت، وأما القرآن الكريم فهو قطعي الدلالة على معناه. وقد اهتم السير سيد والإمام الفراهي في تفسيرهما بالتنجي عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة كما أنهما رجحا النص القرآني عند وقوع التعارض والاختلاف بين القرآن الكريم والروايات المنسوبة إلى النبي ﷺ، إلا أن رؤية السير سيد في الأحاديث النبوية غير معتبرة، لأنه ينكر الأحاديث النبوية تماماً مثلاً في شأن المعجزات وربما ينحرف عن معنى القرآن الكريم الصحيح. أما الإمام الفراهي فهو

¹ رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، ص 242-261

حذر للغاية في قبول الأحاديث النبوية.¹ وقد أوضح الشيخ أمين أحسن الإصلاحي
(1901-1997م) نظرية الإمام الفراهي في قبول الأحاديث النبوية، فقال:

"وما فهمت عن نظريته في الأحاديث النبوية بعد مصاحبتي له حوالي ستة أعوام
هو أنه يعتبر السنة مصدرًا ثانيًا بعد القرآن الكريم كجميع المسلمين، إلا أنه مثل
جميع المحققين يحتاط في قبول الأحاديث النبوية أيضًا بشدة، وبالأخص ما يتعلق
بالروايات التفسيرية، فلا يقبل الروايات التي تعارض القرآن صراحة، فمنهجه في
التفسير أنه يهتم بألفاظ القرآن الكريم نفسها ثم بسياقه ونظمه ويجعله أصل
الأصول ثم يجيء بالأحاديث النبوية والروايات تبعًا".²

فلا يناسب في ضوء هذا المقتبس أن يوضع الإمام الفراهي في قائمة منكري
الأحاديث النبوية. إن الإمام الفراهي إنما كان يخالف الناس الذين يرون أن قول
الرسول لن يخالف القرآن، كما إن قول أصحاب الرسول دائمًا يوافق قول
الرسول، وبعبارة أخرى جعلوا الأحاديث النبوية أساسًا وصرفوا النظر عن نقد
متونه ورواتها، وأدى هذا إلى أن جعلوا الأحاديث أصلًا وأساسًا وبدأوا يؤولون
القرآن الكريم لكي يجعلوه تابعًا للأحاديث النبوية.³

وقد أكد الإمام الفراهي في كلامه عن الحديث النبوي على إمعان النظر في متون
الأحاديث النبوية إلى جانب الرواة، بما أن أكثر الأحاديث النبوية لا تنقل إلا
معنى.⁴ كما أنه وجه نقدًا إلى الذين يظنون أن الاستفادة بالقرآن الكريم لا يمكن
لكونه محتملًا لمعانٍ، وأما السنة فهي واضحة، فلذلك اعتنى المسلمون بالسنة

¹ راجع للتفصيل ما كان للأستاذ الفراهي من نظرية عن الأحاديث النبوية: مولانا فراهي اور علم
حديث، الدكتور الطاف أحمد الأعظمي، الشامل في (علامة حميد الدين الفراهي: حيات
وأفكار)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جره، 1992م، ص 239-272

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 1

³ راجع للتفصيل: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 35

⁴ راجع للتفصيل: حديث وسنت كا فراهي منهاج، خالد مسعود، الشامل في (في) (علامة حميد
الدين الفراهي: حيات وأفكار)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جره،
1992م، ص: 223-238

عناية بالغة. وقد سمى الإمام الفراهي أصحاب هذه الرؤية محبين للباطل، لأنهم صرفوا المسلمين عن مركزهم وأساسهم.¹ يقول الفراهي: "من المأخذ ما هو أصل وإمام، ومنها ما هو كالفرع والتبع. أما الإمام والأساس فليس إلا القرآن نفسه وأما ما هو كالتبع والفرع فذلك ثلاثة. 1- ما تلقته علماء الأمة من الأحاديث النبوية ولولا تطرق الظن والشبهة إلى الأحاديث والتاريخ والكتب المنزلة من قبل لما جعلناها كالفرع، بل كان ذلك أصلاً ثابتاً يعضد بعضه بعضاً من غير مخالفة والعجب كل العجب ممن يقبل ما هو مكذب لنص القرآن مثل كذب إبراهيم عليه السلام، ونطق النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن من غير وحي. فينبغي لنا أن لا نأخذ منها إلا ما يكون مؤيداً للقرآن وتصديقاً لما فيه والذي يهملك هو أن تعلم أن الخبر، وإن تواتر، لا ينسخ القرآن وحقه التأويل أو التوقف".²

هذه هي نظرية الإمام الفراهي عن الأحاديث النبوية، أما السير سيد فقد انتقد الأحاديث الضعيفة والموضوعة وردّها بمناسبات عديدة في تفسيره ولكن لم نر عند السير سيد ما تحتاج إليه الأحاديث النبوية من التوقف والإمعان والدقة، فهو يسمي الأحاديث النبوية بالروايات الضعيفة تماماً عندما يحتاج إلى إثبات رؤيته دون التبصر والإمعان في متونها ورواتها. إلا أن الأحاديث النبوية تخلو عنده من المغالاة بحيث أن يجعل القرآن الكريم مصدراً ثانوياً. فقد انتقد السير سيد مثل هؤلاء المفسرين في تفسيره في مواضع عديدة.

يقول السير سيد: "من عادة المفسرين أنهم يظنون الروايات الضعيفة والموضوعة التي لا أصل لها أساساً لتفسيرهم، وما بلغ عندهم من الروايات مهما كانت ضعيفة أو موضوعة، يريدون أن يطبقوها على القرآن الكريم مبدلين آياته دون

¹ راجع للتفصيل: مولانا فراهي اور علم حديث، أُلطف أحمد الأعظمي، ص 239- 272

² تفسير نظام القرآن، علامه حميد الدين الفراهي، (مقدمة نظام القرآن)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جره، 1411هـ-1991م، ص 39

الإيمان والتعمق في المعنى الأصلي للقرآن الكريم. وكعادتهم السائدة هناك أيضًا بدلوا هاتين الآيتين¹. فإن السير سيد وإن كان ينتقد المفسرين إلا أنه نفسه لا يستند إلى الأشياء التي ينفيها المعتزلة وينكرها، كما نرى أنه أشاد برؤية المعتزلة فقط بشأن أصحاب الكهف، فإنه يقول: "هذا من عادة المفسرين إلا المعتزلة ينقلون الروايات الضعيفة والموضوعة في تفاسيرهم دون التحقيق والإيمان ولا يلتفتون إليها"². وربما يتناول السير سيد بالبحث موضوع صحة الحديث وروايته وسنده عند كلامه في الحديث. فنرى أنه بحث عن العدل في الآية "فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة" ونقل الحديث وجعله مرسلاً ويقول: "هذا لا يعتنى به"³.

وما كان للسير سيد من رؤية خاصة في قانون الطبيعية أو في سنة الله، إن تعارضت بأي حديث أو تصادمت فيجعله ضعيفًا أو موضوعًا بدون أي توقف. فنرى أن الروايات الواردة في حضور الملائكة كضيوف عند إبراهيم عليه السلام يظنها السير سيد أحاديث ضعيفة وباطلة⁴. كما أنه قام بالبحث الطويل في الأحاديث الواردة في الإسراء والمعراج، ويرى أن هذا المعراج إنما كان روحياً، لأن المعراج جسدياً أمر مستبعد عنده لأنه يخالف قانون الطبيعة ويعكسها وكذلك يقصر العقل والفهم عن إدراكها. وما ورد في الحديث النبوي من ركب جبريل وغير ذلك فهي مما لا تدركه الرؤية الطبيعية للسير سيد فلذلك ينكر جميع المرويات المتعلقة بذلك⁵.

وتوجد في تفسير السير سيد مناسبات عديدة أثار فيها قضية الاستشهاد بالأحاديث النبوية. فقد ألقى الضوء الفاضل على الأحاديث الواردة عن سرب السمك في البحر في قصة موسى عليه السلام ولقاءه بخضر عليه السلام، وقدم

¹ تفسير القرآن، السير سيد أحمد خان، رفاه عام استيم بريس لاهور، بدون تاريخ، 60/2

² نفس المصدر، 21/7

³ نفس المصدر، 81-75/2

⁴ نفس المصدر، 23/5

⁵ راجع للتفصيل: نفس المصدر، 122-86/6

رأيًا معتدلاً بعد ذكر الاختلافات الواردة في الأحاديث المتعددة. يقول: "فنحن بأمس الحاجة إلى أن نركز على ما ذكر في القرآن الكريم من هذه القصص وأما ما ورد في الأحاديث النبوية فنمعن النظر بكل دقة في روايته، فما نجده موافقاً للقرآن نقبله، ونترك ما كان معارضاً له من حيث الدراية.¹

ونرى في ضوء هذه التفاصيل أن السير سيد والإمام الفراهي كلاهما يتوافقان بمناسبات عديدة بشأن الأحاديث النبوية، فكلاهما لا يسمحان لتفسير الآيات القرآنية بالأحاديث الضعيفة والموضوعة. كما أنهما يريان أنه لا ينبغي الأخذ إلا بالأحاديث التي تفسر وتوضح الآيات القرآنية وأما ما يتعارض مع الآيات القرآنية فلا يقبل. ويؤكدان أيضاً على ضرورة تمحيص الروايات بالدراية قبل أن تفسر بها الآيات القرآنية. فنرى في بادئ النظر هذه الآراء المذكورة للسير سيد مناسبة إلا أنه يترك الأحاديث النبوية تماماً وإن كانت صحيحة بالرواية والدراية، عندما تأتي مسألة الطبيعة. ولكن الإمام الفراهي يبعد عن هذا الرأي كل البعد. أما رؤيته عن الأحاديث النبوية فيرى أن الأحاديث كلها مأخوذة من القرآن، فلا تكون حكماً على القرآن، وإن تعارض القرآن الكريم والأحاديث النبوية، فنرجح القرآن الكريم. ولا نحاول تأويله لكي نجعله وفقاً للأحاديث. وبين الشيخ أمين أحسن الإصلاحي نظرية الإمام الفراهي عن الأحاديث النبوية كما يلي:

"وأما الذين تحتل عندهم الأحاديث النبوية وأثار الصحابة أهمية بالغة حيث إنهم يجعلونها حكماً على القرآن، ففي الواقع هم لا يعرفون حق القرآن والأحاديث النبوية. وبالعكس من ذلك من لا يعتبر الأحاديث النبوية وأثار الصحابة حجة، هم في الحقيقة يحرمون أنفسهم ذلك النور الذي هو أكبر مصدر بعد القرآن الكريم. وأما أنا فأظن أن الأحاديث النبوية كلها مأخوذة من القرآن، فلذلك لا أقصر الاستفادة من الأحاديث النبوية التي تشرح آية قرآنية بل أستفيد من جميع

¹ نفس المصدر، 71/7

الأحاديث النبوية حسب المستطاع. وبالأخص استفدت كثيرًا في المسائل المتعلقة بحكمة القرآن من الأحاديث مما لا أجده في مكان آخر. وإن وجدت أي حديث يظهر في بادئ النظر معارضًا للقرآن الكريم، توقفت عليها وتركتها عندما يتبين لي أن هذا الحديث يعارض القرآن وإن سلمناها فلا بد من مخالفة القرآن أو المعارضة لأصول واضحة للدين".¹

الإسرائيليات:

وأكد السير سيد والإمام الفراهي على ضرورة الحيطة في الإسرائيليات، ووجهها النقد إلى المفسرين الذين يعتمدون على الإسرائيليات في تفسير الآيات القرآنية. ولا ينكر أحد أن هذه الإسرائيليات تسببت في دخول قصص لا أصل لها في التفاسير وإن كان فيها بعض من الفوائد، إلا أننا لا نستطيع الاستفادة منها دون تمحص وإمعان نظر. ويظن السير سيد أن القصص الواردة في اليهود لا حقيقة لها.²

واستدل السير سيد بعد نقل آية آل عمران: "الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ" (سورة آل عمران: 183) أن اليهود كانوا يحرقون ضحاياهم في النار بعد أن يذبحوها. وقد نقل المفسرون لهو الأحاديث بهذا الصدد في اليهود. يرى اليهود أن نارًا بيضاء بدون دخان تأتي من السماء لحرق هذا القربان وتكون فيها همهمة فتحرق هذه الأنعام المذبوحة.³ ويرى المفسرون هذه الرواية الإسرائيلية معجزة لأنبياء بني إسرائيل.

وربما تكون في الإسرائيليات أقوال مهمة، ولكن السير سيد ينكر الإسرائيليات كليًا عندما تعارض الطبيعة. فمثلاً يتفق المفسرون في الآية: "ولقد جاءت رسلنا إبراهيم

¹ تدبر قرآن، أمين أحسن الإصلاحي، ورلد إسلامك ببليكيشنز، الطبعة الأولى، 1979م، ص1

² تفسير القرآن، 2/1

³ راجع للتفصيل: تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان، خدابخش أورينتال ببلك لابري، بتنه، 1995م، 68-67/2

بالبشرى، قالوا سلامًا فما لبث أن جاء بعجل حنيد" أن الرسل هناك يعنون "الملائكة" وتؤيده الروايات الإسرائيلية أيضًا، ولكن السير سيد اتهم المفسرين بأنهم يكثرّون استعمال الإسرائيليات¹ وذلك بما إنه لا يسلم وجود الملائكة. وتشير الآية الواردة في سورة الذاريات: "فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم" أن زوجة إبراهيم عليه السلام أصبحت عجوزًا عقيمًا، ولكن رغم ذلك رزقها الله ولدًا، وهذه معجزة ولكن السير سيد بما أنه لا يسلم المعجزات ولا أمور ما وراء الطبيعة، يرى هنا نقصًا في الرواية ولذلك اتهم المفسرين بهذا الشأن.²

ويرى الإمام الفراهي مثل السير سيد أن الروايات الإسرائيلية تخلو من الحقيقة، فيرى أن من الأنسب أن نرجع إلى الكتب المهمة والمستندة لهم ونقدمها تأييدًا دون أن نعتد على الروايات الإسرائيلية. وإن رأينا الاختلاف بين القرآن الكريم وكتبهم فنعتد على القرآن الكريم ونترك كتبهم.³ وذلك بما أنهم كتموا الحق في كتبهم وحرفوا فيها. ويرى الإمام الفراهي عن الإسرائيليات أننا لو قمنا بالموازنة بين القرآن الكريم والكتب السابقة، تنكشف لها حقيقة الإسرائيليات. والذين يسيئون فهم الإسرائيليات، تتوفر لهم فرصة رائعة لإصلاح ظنهم. فنرى أن السير سيد ينكر الإسرائيليات كليًا بما أنها تعارض نظريته الخاصة وهي الطبيعة. وأما الإمام الفراهي فإنه يظنها غير حقيقية إلا أنه لا ينكرها تمامًا، بل يقول: لو وجدنا فيها صدقًا بعد أن نقوم بالموازنة بين القرآن الكريم والكتب السابقة فلا بد لنا من القبول.

الصحف السماوية:

واهتم السير سيد والإمام الفراهي في تفسيرهما بالاستفادة من التوراة والإنجيل. ويبدو من دراسة "تبين الكلام" للسير سيد أنه كان ذا اطلاع واسع على التوراة

¹ نفس المصدر، 20/5-21

² نفس المصدر، 5/28

³ راجع للتفصيل: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 52-53

والإنجيل. وكان قد درس التوراة في لغتها الأصلية العبرانية. وإنما كتب السير سيد هذا الكتاب لكي يثبت ما يوجد بين القرآن الكريم والتوراة والإنجيل من الموافقة. ويظن السير سيد أن التوراة والصحف السماوية والنسخ المكتوبة للإنجيل مع أنها تزخر بالاختلافات والتعارضات، إلا أنها تخلو من التحريفات اللفظية.¹ ولكن قدّم المحققون الجدد شواهد كثيرة على أن اليهود والنصارى قاموا فيها بتحريفات لفظية، كما يرى الإمام الفراهي:

"وكذلك لم يعتن المسلمون بالكتب السماوية السابقة واستغنوا عنها تمامًا بعد نزول القرآن الكريم، وذلك بما أن الصدق يختلط فيها الكذب ويضمه حيث أنه لا يمكن تنقية الصدق من الكذب.² وقد أشار القرآن الكريم إلى ما قاموا به من الإضافة أو التبديل هكذا: "قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا" (سورة البقرة: 79). وقد أكد الإمام الفراهي في مقدمة تفسيره على أهمية دراسة التوراة والإنجيل وذلك بما أن القرآن الكريم مصدق لهما، وما ورد فيهما من أقوال تعيننا في فهم القرآن الكريم، كما يمكن لنا فهم هذه الكتب في ضوء القرآن الكريم. ومن الممكن أن يثار السؤال عن رأي الفراهي هذا بأن هذه الكتب عندما كانت غير محفوظة، فإذا اعتمد عليها أحد لتأويل القرآن يوشك أن يقع في الخطأ. وهذا واضح لا ينكر. ولكن يردّ عليه بأنه يجب علينا أولاً أن نفهم القرآن الكريم بالقرآن واللغة العربية ثم إن وجدنا أي شيء في الكتب السابقة يشابه القرآن معنى وأسلوباً أو يبدو ترابطاً واضحاً بينهما، فنقبله وتتضح بلاغة القرآن بتقابلهما وأسلوبهما، كما يعين هذا في تعيين المعنى الأرجح. وأكد الإمام الفراهي بهذا الشأن على أن لا تسخر من آيات الإنجيل وذلك لأنه يؤدي إلى توسيع الاختلافات فيما بينهما. بل من المناسب أن نمنع النظر في

¹ تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان، 4/1

² نفس المصدر، ص 52-53

هذين الكتابين بالصدق والأمانة، وذلك لأنه شيء وحيد يؤدي إلى وصول الحقيقة لأصحاب العقول السليمة.¹ وقد قام السير سيد نفسه بالإمعان في "تبين الكلام" لحدوث الموافقة بينهما، إلا أنه يختلف عن الإمام الفراهي في أنه لا يرى في التوراة والإنجيل تحريفًا لفظيًا. وكان الفراهي يظن أن فيهما تحريفًا لفظيًا ومعنويًا.

وقد ركز السير سيد جهوده الجبارة في "تبين الكلام" على أن الكتب المقدسة تخلو من التحريف اللفظي. وهو يبالغ في ذلك إلى حد يقول: لو أننا نكتب شيئًا من أنفسنا ثم ننسبه إلى الله تبارك وتعالى فهذا لا يشمل التحريف. وبالجملية المنهج الذي يفسر به السير سيد الآيات الكريمة المتعلقة بالتحريف إنما هو في الحقيقة نموذج للتفسير بالرأي. يقول السير سيد في تفسير الآية: "يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ" (سورة آل عمران: 71) أن إلباس الحق بالباطل ليس تحريفًا لفظيًا بل يعني منه إدخال الكذب في الصدق. وقد كتب السير سيد هذا الكتاب ليقضي على ما توجد بين قومين من المنافرة والعداوة ولكنه انحرف عن سواء السبيل وأول القرآن الكريم بطريق هو مؤسف جدًا للأمة الإسلامية.²

اللغة العبرانية:

أكد السير سيد والإمام الفراهي في تفسيرهما على أهمية معرفة اللغة العبرانية لتفسير القرآن الكريم، وبما أن التوراة والإنجيل لهما دور بارز في فهم القرآن الكريم وهما في اللغة العبرانية، فلذلك لا بد لمفسر القرآن الكريم من معرفة هذه اللغة. لأن الموازنة بينهما بدون معرفتها أمر عسير. ونظرًا لأهمية هذه اللغة بدأ السير سيد دراسة اللغة العبرانية من عالم يهودي اسمه سالم وتعمق فيها بمعاونة الشيخ عنايت رسول الجريا كوتي. وتعلم الإمام الفراهي العبرانية من

¹ راجع للتفصيل: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 45-46

² راجع للتفصيل: برطانوي هندستان مين اسلام اور عيسائيت كا تعامل، محمد صلاح الدين عمري، ماهنامه زندجي نو، فروري-مارس 1992 م، 2/15، ص 37-46، 3/15، ص 31-39

مستشرق ألماني اسمه يوسف هارويتز،¹ وبرع فيها حتى أنه بدأ يستفيد من المصادر العبرانية مباشرة واستفاد منها كثيرًا في تحقیقاته القرآنية.² وإن كان السير سيد يفوق على أعلام الهند بما له من إلمام تام باللغة العبرانية. وتدل ثلاثة أجزاء³ 42 لـ "تبیین الکلام" على أن له اليد الطولى في هذه اللغة كما في "تفسير أحمدي" أيضًا توجد نماذج رائعة لها. فقد استفاد في تفسيره في مواضع عديدة من اللغة العبرانية مشيرًا إلى التوراة والإنجيل. وقدم التوراة العبرانية كمصدر أساسي عندما تحدث عن طوفان نوح.⁴ كما أنه استعرض بالتفصيل ما ورد عن الصوم في كتب اليهود والنصارى،⁵ وبالجمله نرى في "تفسير أحمدي" نماذج كثيرة للاستفادة من التوراة والإنجيل. وكذلك نجد في تفسير نظام القرآن أيضًا إشارات عديدة إلى التوراة والإنجيل. وأكثر الإمام الفراهي الاستفادة من الزبور والإنجيل في تفسير سورة التين.⁶ وتشابه بداية سورة التين شطرًا من التوراة فقد نقله الفراهي في تفسيره⁷ كما أنه بين ما كان لبيت الله وبني إسماعيل من فضائل وخصائص بالتوراة في تفسير سورة الفيل.⁸

إن السير سيد والإمام الفراهي كلاهما كانا يعرفان اللغة العبرانية إلا أن الأولیة ترجع إلى السير سيد. ويبدو بعد دراسة هذين التفسيرين أن السير سيد يفوق على

¹ راجع للتفصيل عن حياة يوسف هارويتز وخدماته: جوزف هارويتز، الدكتور ظفر الإسلام الإصلاحي، ناموران على جره، تيسرا كاروان، المجلد: 2، فكر ونظر (علي جره)، مارس 1991م، ص 31-42

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 13

³ يشتمل هذا الكتاب على ثلاثة مجلدات، نشرها السير سيد أحمد خان على نفقته من علي جره في سنة 1281هـ-1865م

⁴ تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان، 8/5

⁵ راجع للتفصيل: تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان، 183-181/1

⁶ راجع للتفصيل: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 315-331

⁷ راجع للتفصيل: نفس المصدر، ص 324-325

⁸ نفس المصدر، ص 331-373

الفراهي بما له من إلمام تام باللغة العبرانية ومعرفة جيدة بأسرارها ورموزها. وتسببت البيئة العلمية وما كان للسير سيد من بحوث قرآنية وتحقيقات علمية إلى حدوث ذوق قرآني في الإمام الفراهي بالإضافة إلى تعلمه للغة العبرانية وذلك لكي يستفيد منها في تحقيقاته القرآنية.

الاستشهاد بكلام العرب:

فطن كل من السير سيد والإمام الفراهي إلى ما كان لكلام العرب من أهمية بالغة في تفسير القرآن الكريم. اعترف السير سيد في مقدمة تفسيره بأهمية كلام العرب واستشهد بها أيضاً في تحقيق معاني الألفاظ وتفسير الآيات القرآنية. واعترف الإمام الفراهي أيضاً بأهميتها واستفاد منها في تفسيره وكتبه الأخرى المتعلقة بعلوم القرآن بحيث أن لا نجد له مثلاً عند مفسر هندي آخر. وما كان للفراهي من الإمعان والدقة وسعة النظر في كلام العرب لا يبلغ شأوه السير سيد بما أن مجاله كان ضيقاً جداً. يقول السير سيد عن كلام العرب:

"ولا مرأ في أننا نحتاج في ذلك الأمر ولا بد لنا من أن نراجع كتب اللغة الموجودة وكتب الأدب لنحدد مفهوم القرآن الكريم. ولكن إن ثبت لنا استعمال كلمة في القرآن بطريق أو بمعنى، تخلص منها كتب اللغة والأدب فجدير بنا أن نعتبرها. ولا يكون عملنا هذا في القرآن إلا كما فعلنا في الأدب الجاهلي، لأن جميع كتبنا للغة والأدب تقوم على أساس أننا أخذنا هذا المعنى أو الكلام من الكلام الجاهلي".¹

وقد أثار السير سيد قضية أن أكثر كلام العرب قد ضاع ولكنه استخدم أشعار الشعراء الجاهليين في تفسيره، فنرى بها متانة علمية في تفسيره إلا أنه أخطأ في استدلاله ببعض المناسبات، وما هذا الخطأ إلا بما كان له من رؤية خاصة في قانون الطبيعة. وإليك هذا النموذج للاستشهاد بكلام العرب. يقول الله تعالى:

¹ تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان، 1/15-16

"وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَّعَا بُرْهَانَ رَبِّهٖ كَذَلِكَ لِئَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ" (سورة يوسف: 24) فنرى في هذه الآية أن جواب "لولا" تخلص من اللام. قدم المفسرون بحوثاً قيمة على هذا، ويقول السير سيد إن هذا الأسلوب أمر شائع في كلام العرب واستشهد بشعر امرئ القيس:

تغالبن فبه الجزء لولا هواجر جناد بها صرعن لهن قصيص¹
وفي شعر زهير:

المجد في غيرهم لولا مآثره وصبر لنفسه والحرب تستعر²
وقد تقدم أن الإمام الفراهي استفاد من كلام العرب كثيراً في تفسيره وكتبه الأخرى، فنجد لها نماذج كثيرة في كتبه من أمثال "دلائل النظام" و"إمعان في أقسام القرآن" و"جمهرة البلاغة" و"أساليب القرآن" و"مفردات القرآن"³ و"التكميل في أصول التأويل" وغيرها. وقد قال الإمام أبو الأعلى المودودي عن الإمام الفراهي مشيراً إلى ما كان له من سعة الاطلاع وبالغ النظر في كلام العرب بأنه لا يخفى عليه أي شعر جاهلي إلا نادراً. وأنا أكتفي بذكر نموذج واحد ورد في تفسير "سورة الكوثر". يقول الإمام الفراهي إن الكوثر معناه الخير الكثير بعد الاستشهاد بثلاثة أبيات من كلام العرب. يقول: ويستعمل كوثر للتسمية ككثير وكثير كما يسود استعماله كصفة. يقول لبید:

وصاحب ملحوب فجعنا بموته وعند الرداع بيت آخر كوثر⁴

¹ ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، 1958م، ص 183

² ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق وشرح: كرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت، 1953م، ص 49

³ راجع للتعريف عن هذا الكتاب: قرآنيات كاهم مباحث، أبو سفيان الإصلاحي، آروا برنتر، الطبعة الأولى، مارس 2002م

⁴ شرح ديوان لبید بن ربیعہ العامري، تحقيق وتقديم: الدكتور إحسان عباس، الكويت، ص 52

ويقول أمية بن عائذ الهذلي في نفس المعنى:

يحامي الحقيق إذا ما احتدمن ومحمم في كوثر كالجلال¹

ويقول حسان بن نشبة:

أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم وقد ثار نقع الموت حتى تكوثر²

فنرى أنهما أكدا على الاستشهاد بكلام العرب ولكن ما كان للأستاذ الفراهي من عبقرية وسعة العلم في الشعر الجاهلي، يقصر عنها السير سيد. وكان الإمام الفراهي يعرف أسرار كلام العرب ورموزه جيداً وربما انتقد الشعراء إلى جانب استشهادهم بكلام العرب ولا نرى كل هذا عند السير سيد.

مفردات القرآن:

قد بذل السير سيد والإمام الفراهي قصارى جهودهما في تحقيق مفردات القرآن في التفسير. ولا يمكن التبصر والتفكر المطلوب من قارئ القرآن ومتبعيه دون الإمعان في مفرداته ببالغ الدقة والنظر. وقد صنف الإمام الفراهي كتاباً رائعاً في هذا الموضوع اسمه "مفردات القرآن" نظراً إلى ما كان لهذا الموضوع من أهمية بالغة. وقام بتحقيقه الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي³. 55. وقد قدّم فيه منهجاً للتدبر والإمعان في مفردات القرآن الكريم أمام المتخصصين في القرآن بعد أن اختار 73 لفظاً و4 أحرف. ولا نبالغ فيه إن قلنا إن المستوى الأعلى والمعيار العلمي الذي جاء به الإمام الفراهي ضمن تحقیقاته وبحوثه عن مفردات القرآن، لا يوجد عند المتقدمين أيضاً. والجدير بالذكر هنا ما قدّمه السير سيد من البحوث حول

¹ ديوان الهذليين، الدار القومية، القاهرة. 1385هـ-1965م، 181/2

² شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، الطبعة الأولى، لجنة

التأليف والترجمة والنشر، 1371-1951م، 338/1

³ قام الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي بتحقيق هذا الكتاب، ونشره دار الغرب الإسلامي في سنة 2002م

المفردات في تفسيره ولكن لا يبلغ مستواه إلى مستوى "نظام القرآن". وبما أن السير سيد يعتمد على التفسير بالرأي ليرهن على رؤيته فترى أن تحقيقه في بعض المناسبات مؤسف جداً لأنه يقوم بتحقيق المفردات وفقاً لرؤيته الخاصة. ويستشهد الإمام الفراهي بكلام العرب في تحقيق المفردات وهذا ما لا نجده عند السير سيد. فمثلاً نرى أنه قام ببحث طويل في معنى "الآية" ويقول إن معناها علامة، وتدل هذه العلامة على شيء وقد نقل السير سيد آيتين لتوضيح مفهوم الآية، "وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ" (سورة البقرة: 99) و"وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ" (سورة طه: 133) يقول السير سيد عن لفظ الآية الواردة في هاتين الآيتين إن معناها الأوامر والعظات. فتدل الآيات البينات على أحكام واضحة وتدل الآية على أحكام خفية. وأما الذين يفهمون أن "آيات بينات" تدل على المعجزة فهم في خطأ، لأن الآية أو الآيات لا تدل على المعجزة ولا يقوم بها الدليل على إثبات النبوة ولا تكون هذه من عند الله. وأما المعجزة فتصدر من الرسول كما من غير الرسول أيضاً.¹

وللأستاذ الفراهي بحث قيم عن لفظ "الآية" في تفسيره وفي كتبه "مفردات القرآن" و"القائد إلى عيون العقائد". فيقول إن لفظ الآية تكون كواسطة بين المستدل والمدلول إليه، ولا تكون الآية دليلاً كاملاً تهدي إلى برهان ولها جانب ظاهري تسبب إلى إمعان الإنسان في باطنه² كما قال الله تعالى عن الذين يعرضون عن آيات الله: "وَكَايَن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" (سورة يوسف: 105) وتدل الآية لغة على الآثار والعلامة وهي تكون واضحة لتدخل في أذهان الناس. يقول الله تعالى: "بَلْ هُوَ ءَايَتٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ" (سورة العنكبوت: 49) وأشار إليه حارث بن حلزة فيما قال:

من لنا عنده من الخبر آيات ثلث في كلهن القضاء

¹ راجع للتفصيل: تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان، 1/105-107

² راجع للتفصيل: القائد إلى عيون العقائد، ص 161-176

يقول الإمام الفراهي بعد إلقاء الضوء على لفظ الآية إنها تستعمل للمعجزة في القرآن الكريم كاستعمالها لمظاهر العالم إلا أن البيانات أيضًا تستخدم معها ببعض المناسبات نظرًا لعامة الناس.¹ ويرى الإمام الفراهي عن المعجزة أنها تخفى عن قوة الإنسان وتديبره وتبدو من المعجزة أنها تكون من عند الله وليس من أفعال النبي. وفي الواقع هذه تظهر كدليل على النبوة. وتفصل الكرامات عن المعجزة من حيث إنها تتعلق بعدم التأثير ولكن بعد إتيان المعجزة لا بد من صورتين إما قبول الإسلام أو معاناة العذاب.² يقول الله تعالى: "وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ" (سورة الأنعام: 8). ولم يقدم السير سيد أي نموذج من كلام العرب أثناء كلامه عن لفظ الآية بل عرفها وفقًا لما كان له من رؤية في قانون الطبيعة فبذلك نرى بونًا شاسعًا بين تحقيقهما.

ويقول السير سيد عن "من وسلوى" أنه من شيء يجمد على أجمة خاصة وأما سلوى فهو نوع من الحيوانات يوجد في تلك الغابة التي ارتحل إليها بنو إسرائيل.³ وأخذ الإمام الفراهي هذه الأقوال من التوراة وأضاف إليها، فيقول، "سي من" لأن هذا كان منًا من الله تعالى على بني إسرائيل وكلمة "من" تدل على الإحسان ويشيع استعمالها في العرب،⁴ يقول أعشى بن ميمون:

لو أطمعوا المن والسلوى مكانهم ما أبصر الناس طعما فيهم نجعا⁵
ولا يبلغ مبحث المفردات عند السير سيد إلى المستوى الذي نجده عند الإمام الفراهي. ويضعف هذا المبحث عنده بسبب اعتماده على التفسير بالرأي وأما

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 387

² القائد إلى عيون العقائد، ص 172

³ مفردات القرآن، ص 319

⁴ نفس المصدر، ص 57

⁵ كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير، مطبعة أدلف، ملزهوسن بيانه، 1927م، ص 87

الإمام الفراهي فربما استشهد بأبيات عديدة في تحقيق بعض المفردات ونرى بحوثاً قيمة جادة في كتابه "مفردات القرآن" عن الألفاظ من أمثال "الآلاء" و"الآية" و"السماء ذات الحبك" و"الصبر" و"الحكمة" وغيرها.

ويرى المفسرون عامة أن كلمة "الآلاء" تدل على النعم ولكن الإمام الفراهي يقول إن القرآن الكريم وكلام العرب لا يؤيدان هذا المعنى. فإذا أمعنا النظر فبهما وجدنا أن معناها "كرشمه" (باللغة الفارسية) أي العجائب. فكل ما أعطاه الله تعالى يشمل في النعم والراحة فكأن "الآلاء" تعبير عن أفعاله العجيبة¹ واستدل الإمام الفراهي على هذا المعنى بأبيات عديدة منها:

كامل يحمل آلاء الفتى نبه، سيد سادات خضم²
الحزم والعزم كان من طبائعه ما كل آلائه يا قوم أحصيه³
فبكّي أخاك لآلائه إذا المجد ضيعه السائسون⁴

كما نجد عند الإمام الفراهي بحثاً قيماً عن كلمة الآية، فالآية تأتي للاستشهاد وبتعبير آخر الآية تهدي إلى دليل واضح وهي تنزه عن الشكوك وتكون واضحة مبرهنة،⁵ لكي لا يكون فيها أي شك. يقول الله تعالى، "بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ

¹ مفردات القرآن، ص 11-12

² ديوان طرفة بن العبد، تحقيق زرتيب: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، 1961م، ص 90

³ المهمل، دروس ومنتخبات بقلم فواد أفرم البستاني، الطبعة الثانية، مطبع الكاثوليكية، بيروت، 1939م، ص 4

⁴ أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء، اعتنى بضبطه وتصحيحه وجمع رواياته وتعليق حواشيه وفهارسه الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، 1896م، ص 243

⁵ مفردات القرآن، ص 14

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ (سورة العنكبوت: 49)
واستخدم هذا المعنى حارث بن حلزة في شعره التالي:

من لنا عنده من الخير آيات ثلث في كلهن القضاء¹

الأحرف المقطعة:

محاولة حل وشرح الأحرف المقطعة لا تزال تجري منذ القديم وقد فشل فيها الجميع فلم يقدّموا أي حلّ ناجح، ولكن هذا الفشل لا يؤدي إلى الاعتراض على فصاحة القرآن الكريم لأن الكفار والمشرّكين لم يعترضوا فيما بين اعتراضاتهم على القرآن الكريم من هذه الجهة. وذلك بما أن هذا التقليد كان سائداً عند العرب ونجد استعمال مثل هذه المقطعات في صورة أسماء مفردة أو مركبة عندهم للأشخاص والأشياء والفرس والرايات والبيض إلى أن قصائدهم وخطبهم أيضاً سميت بمثل هذه الأحرف المقطعة.² وأشار إليه السير سيد قائلاً: "أظن أن العرب بما كانوا يتكلمون بالأحرف المقطعة ويعنون بها إشارة إلى معنى خاص كما في هذا البيت:

فقلت لها قفي فقلت له ق لا تحسبي إنا نسينا الإيجاف

فهنا حرف (ق) يدل على كلمة وقفت.³

وقد أضاف الإمام الفراهي في هذا البحث إضافة قيمة فهو يقول إن حروف اللغة العربية مأخوذة من اللغة العبرانية، وهذه الحروف لا تدل على الأصوات فقط كما تكون في اللغة الإنجليزية والهندية بل هي أيضاً تدل على الأشياء والمعاني كدلالة ألفاظ اللغة الصينية وتكتب على هيئة هذه الأشياء وصورتها. ويرى الإمام الفراهي أن هذه الحروف التي أخذها المصريون القدماء وعرضوها كخط تمثالي

¹ المعلقات السبع، شرح للزوزني، دار صادر، بيروت، 1958م، ص 163

² تدبر قرآن، أمين أحسن الإصلاحي، 39/1

³ تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان، 11/1

بعد الإصلاح وفقًا لعقائدهم وتوجد آثارها في ألواح أهرام مصر. وإن انمحي علم هذه المعاني إلا أن آثارها توجد فمثلاً تدل الألف على البقرة وكانت تكتب على شكل رأس البقرة ويسمى (ب) في اللغة العبرانية بالبيت وتدل كلمة (ط) على الحية وتكتب على شكله وتدل (م) على أمواج الماء وتكتب على صورة مشابهة بموجه.¹

واستشهد الإمام الفراهي بسورة النون على رأيه، وينطق حرف النون اليوم أيضاً في معناه القديم وفي اللغة العبرانية تدل كلمة النون على السمك. وقد ذكرت في السورة قصة يونس عليه السلام والذي ابتلعه الحوت ولذلك سمّاه "صاحب الحوت". كما إن طسم وطس وغيرها تبدأ بحرف راء، وفي معظم هذه السور جاء ذكر تحوّل عصا موسى إلى حية. كما إن الألف تدل على البقرة فلذلك ورد ذكر البقرة في سورة البقرة، وكلمة الألف تدل على الله تبارك وتعالى أيضاً فلذلك نرى في معظم السور التي تبدأ بالألف أن المباحث المتعلقة بالتوحيد تكثر فيها. وما قال الإمام الفراهي في الأحرف المقطعة ليس هو قطعياً إلا أنه مهّد سبيل التفكير والإمعان.² ونرى أن رؤية السير سيد والإمام الفراهي تتوافق في الأحرف المقطعة إلا أن الإمام الفراهي قد أضاف إليها شيئاً مفيداً.

المعجزة:

ومن أهم ما ورد في تفسير السير سيد من أمر معترض عليه هو أنه يقول، "ليس في القرآن الكريم شيء يخالف قانون الطبيعة".³ وبتعبير آخر يرى السير سيد أن كل ما نعتبره بالمعجزات ليس هو ما وراء الطبيعة. والمعجزات التي تظهر من عند الله وتقتصر حواس الإنسان عن إدراكها فإن السير سيد لا يسلمها ويظن أن الله تبارك وتعالى جعل هذا العالم وفقاً لقانون الطبيعة. فإذا لم يقدّر قانون

¹ تدبر قرآن، أمين أحسن الإصلاحي، 40/1

² نفس المصدر، 40/1-41

³ تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان، 9/1

الطبيعة فمخالفته أمر مستحيل، وإن يخالف فيكون هذا نقصاً في صفات الله تعالى الكاملة. فقد نقل السير سيد آيات عديدة تتعلق بقانون الطبيعة¹ ومنها، " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٥١﴾ " (سورة القمر: 49) وفي سورة الروم، " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ " (30) وفي موضع آخر، "لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ" (سورة يونس: 64). يقول السير سيد عن كلمات الله: "إن كلمات الله وخلق الله مترادفان عندنا ومعناهما أن الفطرة لا تبدل أبداً". وفي موضع آخر، "وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" (سورة الأحزاب: 62) وقد نقل السير سيد آيات أخرى غير هذه، يقصد بها الدلالة بالقرآن على أن الأشياء لا تكون مخالفة لقانون الطبيعة. يقول السير سيد: "يمكن أن يعترض أحد على ما جعلنا قانون الطبيعة في ضوء آيات القرآن الكريم أن هذا ليس عامّاً بل توجد فيه شبهات وشكوك ولكن يجب عليهم إثبات هذه الشكوك بآيات القرآن الكريم. وندعي أن ليس هناك أي استثناء في قانون هذه الطبيعة سنلقي الضوء عليه في المستقبل²."

وقد أثار السير سيد قضايا عديدة في تفسيره راجعاً إلى قانون هذه الطبيعة. فنرى مثلاً أنه لا يسلم بوجود الجن والملائكة والشياطين كخلق آخر مختلف عن الإنسان، كما إنه لا يسلم خلق عيسى بدون الأب. ويقول بهذا الشأن: "أما كلمة كن فيكون الواردة في سورة آل عمران فلا تدل على كون أي أمر بدون الأسباب الطبيعية، لأن الله تبارك وتعالى يجعل كل شيء وفقاً للأسباب الطبيعية (الآية). فلذلك يكون كل شيء دائماً وفقاً للأسباب الطبيعية. فلا تدل هذه الكلمة على أن عيسى عليه السلام ولد بدون الأب خلافاً للأسباب الطبيعية³."

¹ راجع للتفصيل، تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان، 9-5/1

² نفس المصدر، 9/1

³ نفس المصدر، 28-27/2

ويستنبط من هذه التفاصيل بسهولة أن السير سيد ينكر المعجزات كلياً، ونذكر هنا ما قدّم الإمام الفراهي مستدلاً بالآيات القرآنية في نفس القضية ردّاً على أفكار السير سيد كي تتضح حقيقة قانون الطبيعة للسير سيد أحمد خان.

قد أفاد الإمام الفراهي قبل أن يلقي الضوء على المعجزات بأن القرآن الكريم استعمل لها كلمة الآية، لأن المعجزة هي في الحقيقة آية من الله تبارك وتعالى يكون فيها تنبيه وتذكير كي يحصل عليهما معرفة الله تبارك وتعالى، ولذلك يدعو القرآن الكريم إلى الإيمان والعمل الصالح بالحكمة والموعظة الحسنة وتقوم الدعوة القرآنية على فطرة الإنسان، فلذلك يسمّى دين الإسلام دين الفطرة. فجميع الأوامر والمناهي الواردة في الإسلام تطابق فطرة الإنسان، يقول الله تعالى: "فَظَرَّتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ" (سورة الروم: 30) يريد الله تبارك وتعالى من عباده أن لا يتجاوزوا فطرتهم ولذلك يقال لدينه، الدين القيم. ويرى الإمام الفراهي أن كثيراً من المفسرين أخطأوا في فهم معنى دين الفطرة، فهم يرون أن تبديل قانون الطبيعة أمر مستحيل ويستدلون بهذه الآية "لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ" فردّ الإمام الفراهي عليهم مستدلاً بالآيات القرآنية نفسها كما جاء في القرآن (وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلَيعَيَّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ) وجاء في الحديث النبوي نفس المعنى، (لعن الله الواشمة والموتشمتة... المغيرات خلق الله) ولو تدبرنا القرآن الكريم والحديث النبوي في ضوء السياق نرى أن الله تبارك وتعالى نهى العباد عن تبديل الخلق وتدل هذه الآية أيضاً على هذا المعنى (فَلَا رَفْعَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) ويستدل أتباع نظرية قانون الطبيعة بهذه الآية أيضاً (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) ويرى الإمام الفراهي أن هذا زعم باطل، لأن فطرة الله تعني فطرة الإنسان، وهناك يؤمر الإنسان أن لا يتجاوز حدود فطرته. وفي الواقع هذه الفطرة هي عبارة عن الدين القيم. وتعني بسنة الله تلك الطريقة الخاصة الموجودة في أفعال الله تعالى

وهي طريقة العدل والرحمة. ويقصد هنا الإفادة بأن الله تبارك وتعالى ينصر الأنبياء ويهلك أعدائهم.

ولا يجوز الفهم بسنة الله طبائع جميع الحيوانات وتسليمها غير مبدلة كما ورد في القرآن الكريم، "يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ" (سورة الرعد: 39). ويعني هذا أن الله تعالى كما يخلق الأشياء يبدلها أيضاً، كما يقول الله تعالى عن الشيطان (وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ) وقال الإمام الفراهي في كلامه عن المعجزة بأنها تظهر من عند الله تبارك وتعالى ولا تكون في وسع نبي، يدل عليها القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة، ولو تكون هذه جزءاً من الرسالة فتصل الرسالة إلى درجة الألوهية، كما في القرآن الكريم: "قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثُونَا بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ ﴿٣١﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٣﴾" (سورة إبراهيم: 10-12).

تتضح من الآيات المذكورة أعلاه أن المعجزة تكون من عند الله والذين أنكروها وقعوا في خطأ فاحش. الله واجب الوجود ويقتضي وجوده أن تدوم سنته، والله دائم الخير ودائم الرحمة. فلذلك لا يصح رأي دوام الطبائع، بما أن الأشياء تكون مفيدة أو ضارة إلى وقت محدد كما تقتضيه حكمة الله تعالى. فلذلك لا يصح أن نسجي الطبائع بسنة الله. وهذا هو الشيء الذي أذاهم إلى إنكار الخوارق وبعبارة أخرى أنهم أنكروا جانباً واضحاً للقرآن الكريم والكتب السماوية السابقة، ولذلك وقعوا في خطأ فاحش وحرّفوا النصوص الواضحة.¹

¹ راجع للتفصيل: القائد إلى عيون العقائد، المعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جره، الطبعة الأولى، 1395هـ-1995م، ص 161-176

ولو قمنا بمقارنة آرائهما نرى أن فطرة الله وسنة الله التي أثبت بهما السير سيد رؤية قانون الطبيعة، لا يقبله الإمام الفراهي لأسباب سبق ذكرها. وأفاد الإمام الفراهي في ضوء نظم القرآن بأن فطرة الله معناها فطرة الإنسان، ولذلك سمي دين الإسلام بدين الفطرة، وسنة الله تشير إلى طريقة تجري في أفعال الله. ولو عني بها أحد الطبائع ويقول إن الطبائع غير متبدلة فلا تجوز هذه الرؤية في ضوء القرآن الكريم. فمن يقدر على خلق الأشياء يبدل طبائعها أيضًا. وأنكر السير سيد المعجزات بما له من رؤية قانون الطبيعة ويعتبر الإمام الفراهي إنكار المعجزات نوعًا من تحريف النصوص الواضحة. ولا يصح القول بعد هذه التفاصيل بأن الإمام الفراهي كان قد تأثر بالسير سيد بشأن المعجزات.¹

ويبدو مما أبداه الإمام الفراهي من الآراء في حديثه عن المعجزات في سورة الفيل أنه كان يخالف رؤية السير سيد في المعجزات كليًا. ويبدو بعد الإمعان في السطور التالية أنها تظهر في ضوء ما كان للسير سيد من رؤية قانون الطبيعة.

"ويجب علينا أن نعتقد أن الله تبارك وتعالى دائمًا يصرف في جميع العالم، ويقوم الملائكة بإجراء أحكامه ويجري هذا العالم برعاية نظام خاص وفقًا لأمر الله تبارك وتعالى. ويستطيع الإنسان بعد الإيقان على هذا أن يتدبر آيات الله التي تزيد في خشيته وحكمته.²

¹ قد ذكر الدكتور ظفر أحمد الصديقي أن الإمام الفراهي قد تأثر بما كان للسير سيد من رؤية في المعجزات، وقدّم نماذج عديدة من أمثال حادثة عام الفيل، ومرور موسى عليه السلام بنهر النيل وغرق فرعون للدلالة على أنهما يتفقان هناك. ولكن هذا ليس بصحيح، وإن كان بحث الإمام الفراهي في هذا الأمر يوافق رؤية السير سيد ولكن هذا اتفاق محض. والفرق الواضح بينهما أن السير سيد أنكر هذه الوقائع لما كان له رؤية خاصة في قانون الطبيعة، والإمام الفراهي يرد هذه النظرية كليًا.

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 387

وسمى الإمام الفراهي في تفسير "سورة الشمس" كلمة ناقة الله بآية الله أي المعجزة. وحدث هذا الواقع وفقاً لسنة الله تعالى ويقول الإمام الفراهي عن ناقة الله: وهذا الشيء أيضاً يشمل سنة الله التي ورد عنها في القرآن "لن تجد لسنة الله تبديلاً" ويعني بها القانون الذي يؤخذ به على الطاغين والمفسدين وهذا قانون حتي لا يبدل أبداً.¹

يتضح من هذه التفاصيل أنهما قد اختلفا بشأن المعجزة، فينكرها السير سيد وهذا لا يصح في ضوء القرآن والسنة. ويثبتها الإمام الفراهي ويردّ على ما كان للسير سيد من رؤية قانون الطبيعة بالقرآن والسنة.

المصادر:

قد برز من دراسة تفسير السير سيد أن له بصيرة ثاقبة في تفاسير المفسرين المتقدمين والمتأخرين، وربما طعن فيهم مستعرضاً لأرائهم واستعمل ألفاظاً تنال من شأنهم خلافاً لكتابات الأخرى. وعندما نلقي نظرة عابرة على الإجابات التي قام بها السير سيد في رسائله وكتابه "مكاتبة الخلان" بالتواضع والعجز، فنرى هنا شخصاً آخر يعكس تماماً مما كانت شيمته من التواضع والعجز. وقد أكثر الاستفادة من التفسير الكبير وتفسير ابن كثير والبيضاوي وكتابات الشاه ولي الله، كما نرى في تفسيره إحالات كثيرة إلى كتب الأحاديث وشروحها إلى جانب معالم التنزيل والملل والنحل وتاريخ الكامل ومعجم البلدان وتاريخ الطبري وتاريخ اليعقوبي والإصابة لابن حجر وسيرة ابن هشام وتاريخ ابن كثير وكتاب العقل والنقل وتدريب الرأي وفتح المغيث وزاد المعاد ودرة الغواص وإشارات الشيخ الرئيس وغيرها. وعامة يردّ على آراء المفسرين والمؤلفين بما له من رؤية خاصة في قانون الطبيعة ويجعل الأحاديث النبوية ضعيفة أو موضوعة، إلا أنه لا بد من

¹ نفس المصدر، ص 298

الاعتراف بأنه تمسك فيه بالتحليل العلمي الجيد، ونرى فيه نموذجاً رائعاً للبحث والتحقيق. وقد تأثر إلى حد كبير بكتابات الشاه الدهلوي وربما اختلف عنه أيضاً. ومن ميزات هذا التفسير أنه راجع اللغات المختلفة وقواميس القرآن في تحقيق المفردات كما استفاد من كلام العرب. ونرى فيه إحالات إلى لسان العرب والصحاح للجوهري وتاج العروس ولغات القرآن للرازي وغيرها مراراً وتكراراً. ويمكن الاختلاف عن آراء السير سيد التفسيرية ولكن لا بد من الاعتراف بما يتميز به من البحث والتحقيق والنقد.

ويخلو تفسير الإمام الفراهي من المصادر إلا نادراً، لأنه يظن أن التفكير والتدبر يكفي للتفسير. إنه قد استفاد من الأحاديث النبوية ونظم القرآن في التفسير. وإن نعمن النظر في تفسيره فنرى في بعض المواضع إحالات إلى تفسير ابن جرير والدر المنثور والتفسير الكبير والكشاف وغيرها. وتكلم عن الأشاعرة والمعتزلة في سورة الهمز بواسطة الغزالي والإسفرائي وأبي الحسن الأشعري. وربما نجد ذكر كتاب سيبويه المعروف بالكتاب في القضايا النحوية. وأكثر الاستفادة في المباحث اللغوية من لسان العرب والصحاح للجوهري. وتخلو كتبه الأخرى أيضاً كتفسيره من المصادر لأن فكرته تقوم على أساس القرآن الكريم.

فإن احتاج إلى ذكر أحد بواسطة هذا الكتاب المجيد يذكره وإلا عامة يردّ على آراء المفسرين والمحققين دون تسميتهم. ويختلف تفسير السير سيد من الفراهي من حيث إنه كتب تفسيره تأييداً لرؤيته في قانون الطبيعة وحاول بكل ما في وسعه أن يزيل جميع العراقيل التي وقعت في إحكام نظريته، فلذلك نرى فيه مراجع كثيرة. وألف الإمام الفراهي تفسيره لكي يفتح باب فهم القرآن الكريم ولذلك اعتمد على تفسير القرآن بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، واعتمد في تفسيره وتحقيقه على نظريته لنظم القرآن، فلذلك لا نجد فيه قائمة المراجع إلا قليلاً.

المصادر والمراجع

1. أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء، اعتنى بضبطه وتصحيحه وجمع رواياته وتعليق حواشيه وفهارسه الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، 1896م
2. تدبر قرآن، لأمين أحسن الإصلاحي، ورلد إسلامك ببليكيشنز، الطبعة الأولى، 1979م
3. تفسير القرآن، للسير سيد أحمد خان، خدابخش أورينتال بلك لاثيري، بتنه، د.ت.
4. تفسير القرآن، للسير سيد أحمد خان، رفاه عام استيم بريس، لاهور، بدون تاريخ
5. تفسير القرآن، للسير سيد أحمد خان، مفيد عام، آغره، 1322هـ-1904م
6. تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، للإمام عبد الحميد الفراهي، ترجمة: أمين أحسن الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جره، 1411هـ-1990م
7. التكميل في أصول التاويل، للمعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جره، الطبعة الأولى، 1388هـ
8. ديوان الهزليين، الدار القومية القاهرة، 1385هـ-1965م
9. ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، 1958م
10. ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق وشرح: كرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت، 1953م
11. ديوان طرفة بن العبد، حققه ورتبه، كرم البستاني، دار صادر، بيروت، 1961م

العدد الخاص مجلة الهند

12. رسائل الإمام الفراهي، لعبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جره، الطبعة الثانية، 1411هـ-1991م
13. شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، الطبعة الأولى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1371-1951م
14. شرح ديوان ليبيد بن ربيعة العامري، حققه وقدم له الدكتور إحسان عباس، الكويت
15. علامة حميد الدين الفراهي: حيات وأفكار، إعداد: البروفيسور عبيد الله الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جره، 1992م
16. القائد إلى عيون العقائد، للمعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جره، الطبعة الأولى، 1395هـ-1995م
17. قرآني مقالات، اداره علوم القرآن، سرسيد نجر، على جره
18. قرآنيات ك اهم مباحث، لأبي سفيان الإصلاحي، آروا برنتر، الطبعة الأولى، مارس 2002م
19. كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير، مطبعة أدلف، ملزهوسن بيانة، 1927م
20. المعلقات السبع، شرح للنوزني، دار صادر، بيروت، 1958م
21. المهلهل، دروس ومنتخبات بقلم فواد افرم البستاني، الطبعة الثانية، مطبع الكاثوليكية، بيروت 1939م

آراء الإمام عبد الحميد الفراهي والشاه ولي الله الدهلوي عن المعجزات، دراسة مقارنة

- أ.د. سعود عالم القاسمي¹

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي²

شرح المعجزة وتفهمها ليس واجباً لفهم آيات الله في القرآن وفهم حكمة ومفهوم قصص وأحداث الأنبياء التي تحوي ملامح وإشارات لهدى العباد وسعادتهم بل يجب فهمها لإدراك منزلة الرسالة والنبوة الأصلية في الإيمان. فكلما لا يتضح لنا حقيقة وماهية المعجزة لا يمكننا إدراك فضل قوة الله الخفية وحكمها المكنونة خلال النزاع بين المادة والروح، وعلى هذا فقد تساوى المفسرون والمتكلمون وكتاب السيرة النبوية في توجيه العناية بمبحث معجزات النبي ﷺ، ولقد تحدّث المفسرون في كل عصر ومصر عن هذا الموضوع من خلال بيان المعجزات تارة بالتفصيل وأخرى بالإجمال وكذا اعتنى المتكلمون بهذا المبحث في بعض عهود تطور علم الكلام لاسيما العصر العباسي كما خلف كتاب السيرة النبوية تراثاً ملموساً باسم "دلائل النبوة" و"معجزات النبي".

أما فيما يتعلق بشرح وبيان المعجزة التحليلي فنجد فيه قدراً كبيراً من المباحث عقلاً كان أو نقلاً. ولقد تناول هذا الموضوع بالبحث الرائع من بين المفسرين الهنود الشاه ولي الله الدهلوي (1782هـ) في كتبه الدالة على الكلام لاسيما "تأويل الأحاديث في رموز قصص الأنبياء" والإمام عبد الحميد الفراهي (1349هـ) في تفاسيره لمختلف سور القرآن لاسيما في كتابه "القائد إلى عيون العقائد". ولقد

¹ أستاذ، قسم العلوم الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وأدائها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

انتقد رأي الإمام الفراهي عن المعجزة بعض العلماء والباحثين حتى تعجل بعض العلماء القصيري النظر بتكفيره وتضليله¹ بل نجد في عصرنا هذا من يجتهد أن يصنّفه في زمرة السير سيد أحمد خان.² ولكن يلمح من دراسة كافة كتابات الإمام الفراهي بالمقارنة بينها وبين كتابات العلماء المتقدمين أن طريقة فهم وتفهم الإمام الفراهي للمعجزة ليست ببدعة بل سبقه فيها عدد كبير من السلف ولاسيما الشاه ولي الله الدهلوي الذي نجد بينه وبين الفراهي مشابهة بل نجد الأخير متأثراً بأفكار الشاه ولي الله الدهلوي. وبالرغم من إمكانية الاختلاف عن توضيحات الإمام الفراهي لا يمكننا أن نقول إنما اختاره الإمام الفراهي من طريقة البحث عن المعجزة ليس لها أصل ولا مفهوم علمي.

ولقد تحدّث الإمام الفراهي عن المعجزة إما عن المبادئ أو عن عقليتها فنبدأ بما كتبه الإمام عن مبادئها:

مصطلح "المعجزة" ليس صحيحاً: المعجزة ليست مصطلحاً نحتة القرآن أو السنة لأنهما استخدمتا كلمة "آية" لنفس المعنى كما قال تعالى: "لم يأتنا بآية من ربه". واستعملت الآية في القرآن لمعانٍ مختلفة مثل العبرة والمبنى الشامخ وجزء من القرآن وجزء من السورة والعلامة³ ولكن يشارك معنى العلامة كل هذه المعاني من جهة أو أخرى وهكذا فكل كلمة "الآية" تدل على ثلاثة أمور بارزة:

1. آيات الكون أي حقائق وملامح الآفاق والأنفس الطبيعية.

¹ راجع: "فتنهء تكفير اور كافرگري" (فتنة التكفير) لكل من السيد أبي الأعلى المودودي والتشودهري غلام أحمد برويز، مطبعة إصلاح، سرائ مير، أعظم كره، 1929م

² قال الخطيب الباكستاني الشهير الدكتور أسرار أحمد في حوار معه أجراه البروفيسور أبو سفيان الإصلاحي: "شرح السير سيد أحمد خان للمعجزات شرح المعتزلة الجديدة ونجد لمحة عنه لدى الإمام الفراهي"، مجلة "حيات نو" الشهرية، أغسطس 1985م.

³ راجع: تفهيم القرآن، 48/4، مركزي مكتبة إسلامي، دلهي، 1969م.

2. آيات الأنبياء أي الأحداث والعلامات التي قدّمها الأنبياء لأقوامهم بإذن الله عبر العصور.

3. آيات القرآن التي تسمّى مجموعتها بالسورة.

فمصطلح "المعجزة" ليس بجامع ولا شامل مقابل "الآية" ومع ذلك أنه يمكن اختلاط الحق بالباطل من الأفكار ولو أن هذه الكلمة تطبق على مدلولها قطعاً فيرى الإمام الفراهي أن الآيات التي أعطاها الله تعالى للأنبياء لتأييد نبوتهم ليستستخدم لها مصطلح "الآية" وليترك مصطلح "المعجزة" فقد اعتبر استخدام "المعجزة" "البدعة في الدين"¹ فيقول:

"فلا بد لطالب الحق في أمر المعجزة أن يترك هذه الكلمة المولدة وينظر في معنى الآية ومواقع ذكرها وما يتعلق بها ثم يرجع إلى مبحث الخوارق والمعجزات يتبين له أن ترك هذه الكلمة أولى فإنها تدل على خيال اختلط فيه الحق والباطل".²

ويمكن أن نخالف قول الفراهي هذا لأنه لو اعتبرنا استخدام "المعجزة" بـ"البدعة في الدين" لاعتبرت مصطلحات التفسير والحديث والفقه والكلام وكثير من مصطلحاتها بدعة،³ والثاني أن نفضّل استخدام كلمة الآية على كلمة المعجزة ولكن لا يجدر بنا أن نسمّيها بالبدعة فمثلاً أن القرآن يستخدم كلمة "أسماء الله" فهل يمكننا أن نعتبر استخدام "الصفات" بالبدعة⁴ فالذي بدأ باستخدام

¹ القائد إلى عيون العقائد، ص 161، الدائرة الحميدية، سرائير، أعظم كره، 1288هـ.

² المصدر نفسه، ص 161

³ قال الإمام بترك مصطلح المعجزة لأن نسبتها إلى الأنبياء ربما يشكك في الذهن أنها من لدنهم أو من ميّزاتهم بينما "الآية" أو "الآيات" لا تفعل كذلك لأنها ترجع إلى الله فحسب ولن تمكن نسبتها سوى إلى الله تعالى. (تعليق جامع مجموعة المقالات عن حياة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي)

⁴ لا يصح هذا المثال لأن "الأسماء" أو "الصفات" كليهما تتعلق بالله ولا ينتقل بها الذهن إلا إليها (تعليق جامع مجموعة المقالات)

المعجزة وضع أمامه أن الآيات التي عجز عن تقديم مثلها الإنسان هي التي نسميها بالمعجزة ويؤيدها النص القرآني: "لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً" أو "فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا". ويقول العلامة عبد القاهر بن طاهر البغدادي (429هـ): "إنما قيل لإعلان الرسل عليهم السلام معجزات لظهور عجز المرسل إليهم عن معارضتهم بأمثالها".¹

هل المعجزة ليست بدليل على النبوة؟ تحدث العلامة ابن رشد بالتفصيل عن قضية المعجزة وأثبت أن المعجزة لن تكون دليلاً على النبوة² فلا يوافق الإمام الفراهي في هذا الرأي فهو يؤكد على أن المعجزة تظهر لتصديق وتأييد النبوة وهي دليل على النبوة فهو يقول:

"المعجزة أي الآية دليل وبرهان على أمر كما قلنا ومما يدل عليه المعجزة رسالة النبي وصرح بذلك القرآن والصحف والعقل. قال تعالى بعد ذكر عصا موسى ويده البيضاء "فذا لك برهانان من ربك إلى فرعون وملأه إنيهم كانوا قوماً فاسقين".³ وبجانب اعتبار المعجزة دليلاً وبرهاناً يعتبرها الإمام الفراهي دليلاً نهائياً تتم به الحجة ولا يقدم بعدها دليل آخر فهو يقول:

"لا يعطى المعجزة بخرق الآية ظاهراً إلا بعد ظهور عدم الأثر من غيرها فإن بعد المعجزة الظاهرة إما الإيمان وإما العذاب كما قال تعالى "ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون".⁴

ولقد اعترف الشاه ولي الله الدهلوي بأن المعجزة من خواص النبوة كما قال متحدثاً عن خواص النبوة في كتابه "البدور البازغة": "منها أن يظهر على يديه المعجزة".⁵

¹ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، أصول الدين، 17، مكتبة عثمانية، لاهور

² سيد سليمان الندوي، سيرة النبي، 97/3، مطبعة معارف، أعظم كره، 1402هـ.

³ القائد إلى عيون العقائد، ص 171

⁴ المصدر نفسه، ص 172

⁵ البدور البازغة، ص 176، داهيل، 1354هـ.

فيبدأ من هذا أن المعجزة، لدى الشاه الدهلوي، دليل على النبوة ولكنه لا يعتبرها جزءاً من النبوة ويعدها من الأمور الخارجية، وكذلك يقول إن المعجزة يجب ظهورها للنبوة في كثير من الأحيان فهو يقول:

"فليست المعجزات ولا استجابة الدعوات ونحو ذلك إلا أمور خارجية عن أصل النبوة لازمة لها في الأكثر".¹

الحاجة إلى المعجزة: من يختاره الله من عباده لتبليغ رسالته يتميز عن بني نوعه في المجتمع خلقاً وطهارة وبساطة وحباً للإنسانية وخدمة للناس وكذا يعرفون لغيرتهم في اجتناب الأشياء القبيحة فكراً كانت أو عملاً بها فحياتهم الزكية تثبت دليلاً وبرهاناً على دعوتهم وعلى هذا فيحيل النبي إلى حياته الحاضرة لصدق رسالته فقد قال تعالى: "فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون".² يرتكب الإنسان الكذب والخيانة والخلف والخداع والزور إما رغبة في فائدة أو حذراً من خسران، وإذا تيقن عن رجل أنه لا يكذب أملاً في فائدة أو حذراً عن خسران فليتقين أنه لا يكذب في الأمور التي تفوق الفوائد أو الخسائر المادية فلا تعدّ دعوة الأنبياء إلى التوحيد والرسالة والمعاد كذباً ولكنه بالرغم من هذا الواقع إذا طلب قوم من نبيه معجزة فلا يجب أن يلبي طلبه فإذا لبي طلبه فهذا ما نسميه بإتمام الحجة. يقول الإمام الفراهي:

"لم يكن نبينا ولا أحد من الأنبياء متهماً بالكذب فيحتاج إلى إثبات صدقه، ولكنه لما أخبرهم عن الجزاء والتوحيد لم يصدقوه، فوجب إثبات الجزاء والتوحيد لا إثبات صدقه، ولذلك نههم على الآيات العظيمة الدالة واجتناب عن إظهار معجزة لا دلالة لها إلا بالواسطة. وقلما تعطى المعجزات المطلوبة ليؤمن طالبوها. إنما ينزل الله هذه الآيات لإتمام الحجة فلا يبقى بعدها إلا إهلاكهم".³

¹ حجة الله البالغة، ص 17

² سورة يونس: 16

³ القائد إلى عيون العقائد، ص 169

أسباب في إنكار تقديم المعجزة: عندما يطلب قوم من نبيه معجزة كدليل على نبوته فهذا الطلب يلبي تارة كما يؤخر تلبية تارة أخرى وكذلك لا يلبي طلبهم. فالطلب الذي لا يلبي قسمان:

أولاً: ما لا يقدر عليه البشر مثل رؤية الله جهرة أو تنزيل كتاب محكم عليهم مباشرة. وثانياً: ما يبني على أن المعجزة مما يقدر على إتيانها النبي كما يشاء قومه مثل أن يكون لديهم خزينة أو يأتي بالملائكة صفًا.

وأما المعجزات التي يتم تأخيرها فهي تحدث لأمرين:

أولاً: أن يؤمن العاقلون والمتقون بالبصيرة.

وثانياً: وأن لا يستعجل في إنزال العذاب بشأن المنكرين حتى تتم الحجة عليهم.¹

ولقد قدم الإمام الفراهي توجيهاً رائعاً لتأخير تقديم المعجزات بعدما عيّن الأسباب الأربعة المذكورة أعلاه لعدم تلبية الطلب بتقديم المعجزة فيقول: لكل شيء أجل فلظهور المعجزة أجل معلوم، وهذا لكي تنمو الهدى بالفهم والبصيرة بينما الإيمان بعد المعجزة يكون تقليدًا أعمى، وعندما أدرك بالمعجزة أن هذا نبي فلا يتخلف حتى مقلد أعمى عن الإيمان به، ولكن هذا التقليد يحرم القلوب البصيرة التي ينتجها التفكير والعقل.² فكان السبب الأكبر في تأخير تقديم المعجزة هو أن يؤمن الناس على التفكير والبصيرة لا على التقليد الأعمى.

التعريف بالمعجزة: المعجزة عند الأشاعرة هي ما تصدّق النبوة بعد ظهورها وقرروا لها سبعة شروط تالية:

¹ المصدر نفسه، ص 171

² المصدر نفسه، ص 173

(1) أن تكون هي من صنع الله، (2) أن تكون خرق العادة، (3) أن تكون بعيدة معارضتها، (4) أن تصدر ممن يدعي النبوة، (5) أن توافق الدعوى، (6) أن لا تكذب النبي و(7) أن لا تتقدم على الدعوى.¹

وعرف العلامة عبد القاهر بن طاهر البغدادي بتعريف المعجزة كما يلي:

"حقيقة المعجزة على طريق المتكلمين ظهور أمر خلاف العادة في دار التكليف لإظهار صدق ذي نبوة من الأنبياء أو ذي كرامة من الأولياء مع نكول من يتحدى به عن معارضة".²

ويقول العلامة البغدادي عن كونها مخالفة للعادة:

"إنما اشتربنا في الحد خلاف العادة لأن المعتاد من الأفعال يشترك في دعواها الصادق والكاذب وإنما اشتربنا فيه إظهاره لصدق نبي أو ولي لجواز ظهور ما يخالف العادة على مدعي الإلهية فلا يكون دلالة على صدقه كالذي يظهر على الدجال في آخر الزمان".³

وما جاء من شرط خرق العادة في تعريف الأشاعرة هذا متنازع فيه فقال العلامة شبلي متحدثاً عن هذا: إذا أريد بخرق العادة أن تكون على خلاف سلسلة العلل والأسباب وقانون الفطرة فهذا يعني هل تظهر المعجزة أم لا؟ العلوم التي يعرفها الإنسان قسمان: البديهيات والنظريات فالنظريات ولو لا تكون بديهية ولكنها لا بد أن تنتهي على البديهي، ويأتي في البديهيات العلل والأسباب وكما يقول الإمام الرازي إن البديهي أصل والنظري فرع، ولا يخالف الفرع أصله.⁴ ولكن هذا الحديث يبدو

¹ الكلام، ص 65، مطبعة معارف، أعظم كره

² أصول الدين، المصدر نفسه، ص 170

³ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

⁴ الكلام، المصدر نفسه، ص 65

متأثراً بالفلسفة اليونانية فالسؤال يثور هنا: أن الأشياء التي نعتبرها بديهية هل هي بديهية أصلاً؟ وهل بإمكاننا أن نثبتها بديهية فمثلاً الأجسام التي لا ننكر بديهيتهـا ولكن الواقع أنها تتركب من السطح والسطح يتركب من الخط والخط يتركب من النقطة فالأجسام انتهى تركيبها على النقطة فهل يمكننا أن نثبت وجود النقطة؟¹ وأما خرق العادة فنجد أربع نظريات عنها:

1. سلسلة العلل والأسباب لن تنسخ كما يقول الفلاسفة والحكماء ولن يمكن خرق العادة.
 2. والأشاعرة تقول بإمكان كل نوع من خرق العادة حتى أن الجن والشياطين يقدرّون على خرق العادة.
 3. وتقول المعتزلة أن خرق العادة لا يمكن سوى في بعض الحالات الخاصة.
 4. وأما الآخرون فيرون أن خرق العادة يتبع العلة الخفية.
- أما بالنسبة للفلاسفة والحكماء فقد ردّ الإمام الفراهي نظريتهم واعتبرها باطلة فيقول:

"وأخطأ من ظنّ أن الطبائع من سنة الله، نعم إيقاعها إلى أجلها من سنة الله وهذا الخطأ منهم انجر إلى عثرة كبيرة وهي أن خرق عادات الأشياء محال فأنكروا بصريح القرآن والكتب السماوية وحرفوا النصوص الواضحة إلى الأباطيل الفاضحة".² وردّ الإمام الفراهي على هذا السؤال أن كون الله واجب الوجود وكونه قديماً وأبدياً يتطلب أن تكون سنته أبدية وأفاقية وغير مبدلة، وكذا فطرة الأشياء أي سلسلة العلل والأسباب جزء من هذه السنة الإلهية فلا بد أن تكون غير مبدلة فيقول:

¹ إنكار البديهيّات في الواقع إنكار بوجوده كما ظهر من طريقة استدلال كاتب هذه المقالة، ويثبت شيء سلبياً وإيجابياً كليهما كما يثبت بالنسب. (تعليق جامع مجموعة المقالات)
² القائد إلى عيون العقائد، ص 168

"كونه تعالى واجب الوجود يلزم دوام الخير ودوام الرحمة وأما دوام الطبائع فلا يصح إلا بحسب دوام رحمته فلا يتغير على طريق يضر ويجلب المصائب إلا عند أجل مكتوب حسب الحكمة".¹

المعجزة وخرق العادة: لا يعتبر الإمام الفراهي طبائع خلق الله سنة له تعالى فهو ينتقد من يقول بهذا بأن منكري المعجزة يستشهدون بهذا ويقولون إن النار خاصيتها الإحراق وهي لا تتبدل فإذا اعترفنا بهذا فلا معنى للمعجزة. يرى الإمام الفراهي أن اعتبار طبيعة الخلق سنة الله خلط الحق بالباطل ويقول إن أصحاب رسائل إخوان الصفا قد استخدموا أولاً بأول سنة الله بهذا المعنى فاتبعهم الشاه ولي الله الدهلوي² فقد اعتبر الشاه ولي الله شريعة الله وقانون جزاء الله وعالم المثال وأحوال الوجود وطبائع خلق الله وعلله وأسبابه اعتبرها سنة لله.³ إن إخوان الصفا يذهبون إلى ما ذهب إليه الفلاسفة بينما يختلف الشاه ولي الله عنهم لأنه يعتبرها تدبيراً.

ولقد أبطل الرازي منكري خرق العادة وأوضح هذه القضية بالاستدلال بالتولد الذاتي، وأما الأشاعرة فهم يرون العلم الذي تم تحصيله من سلسلة الأسباب والعلل علماً تجريبياً مثل العلم بأن النار تحرق ومن يضع يده فيها تحرقها بينما المعجزة خلاف للتجربة، يقول السيد سليمان الندوي: "المعجزة ليست مخالفة للتجربة بل هي تجربة أخرى".⁴ يعترف الإمام الفراهي بهذه النظرية للأشاعرة بأن المعجزة خلاف للتجربة ولكنه يقول: إن العلم الذي تم تحصيله بالتجربة لا يكون دائماً. فإن التجربة لا تثبت لزوماً بل هي تثبت العموم "التجربة لا تثبت للزوم،

¹ المصدر نفسه، ص 168

² المصدر نفسه، ص 165

³ حجة الله البالغة، 17/1، كتب خانة رشيديه، دلهي، 1374هـ

⁴ سيرة النبي، 97/3

إنما تثبت العموم".¹ فوقوق المعجزة ليس بما فوق العقل فكأن الإمام الفراهي يقول بإمكان المعجزة وخرق العادة ولكن هذا لا يعني أنه قبل نظرية الأشاعرة كما هي والواقع أن العلماء الكبار أمثال الإمام الغزالي والإمام الرازي وابن رشد والراغب الأصفهاني والشاه ولي الله قد أبطلوا نظرية الأشاعرة هذه.²

كتب الإمام ابن تيمية في كتابه "الرد على المنطقيين": من المنطقيين من ينكر الأسباب والعلل مثل جهم بن صفوان ومنهم من يوافق في هذه المسألة مثل أبي الحسن الأشعري وأتباعه، كلهم يؤمنون بأنهم لا يعلمون سوى علاقة شيء مع شيء آخر وهذه العلاقة بمشيئة القادر ولا غير، وأما الحكماء الآخرون من المسلمين والكافرين، أهل السنة والمنطقيين، الفقهاء والمحدثين، الصوفيين والمعتزلة أو ممن ينتهي إلى فرقة أخرى غير هذه فكلهم يؤمنون بالأسباب".³ ويفند الإمام الفراهي حكماء الإسلام الذين يقولون إن نظام الفطرة وسلسلة الأسباب والعلل لا تتغير ولا يوجد شيء في هذه الدنيا بدون العلة العادية والسبب الطبيعي ومنهم الفارابي وابن سينا وابن مسكويه وغيرهم ولكنه ليس بترجمان عن الأشاعرة بل يبدو منضمًا إلى جماعة تقول: "المعجزات ليست بعيدة عن هذا النظام وسلسلة الأسباب والعلل وهي لا تخالف قانون الفطرة بل هي نتائج العلة والأسباب الطبيعية سوى أننا عاجزون عن إدراك هذه العلة والأسباب وهي تخفى علينا حتى الآن. وعسى أن يتسع نطاق الاكتشافات البشرية إلى أن ندرك أسبابها وعللها".⁴

يصرح الشاه ولي الله الدهلوي بالقول:

"إنما المعجزات والكرامات أمور أساسية غلب عليها النبوغ فباينت سائر الأسباب".⁵

¹ القائد إلى عيون العقائد، ص 168

² الكلام، المصدر نفسه، ص 62

³ كتاب الرد على المنطقيين، ص 94، المطبعة الفقهية، مومباي، 1368هـ

⁴ سيرة النبي، 40/3

⁵ الكلام محيلاً إلى التفهيمات الإلهية

وفصل هذه النكتة في كتابه "تأويل الأحاديث" بمثال فيقول:

"واعلم أن الله تعالى إذا أظهر خارق عادة للتدبير فإنه إنما يظهر في ضمن عادة ولو ضعيفة كالرجل إذا مرض مرضاً فهذا فحينما رآه الحكيم الطبيعي لم يكثر به ولم يظن أنه يموت ولكن يظهر قضاء الله ضمن ذلك المرض فيموت فالخوارق أسباب ضعيفة كلما وجدت مشايعة لنفاذ قضاء الله تعالى وعنايته بالأسباب الأرضية كيلا تفوق العادة من كل وجه وفي القرآن والسنة إشارات تدل عليها وفي قصص الأنبياء مما يعرفها العارف بل كل رجل منصف. قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا قضى الله تعالى لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة" فبدأ الحاجة له رعاية لنظم الأفعال الإرادية لكيلا يختل".¹

ويقول في حجة الله البالغة موضعاً معنى وحكمة هذا النظام:

"ثم الترجيح يكون تارة بحال الأسباب أيها أقوى وتارة بحال الآثار المترتبة أيها أنفع وبتقديم باب الخلق على باب التدبير ونحو ذلك من الوجوه فنحن وإن قصر علمنا عن إحاطة الأسباب ومعرفة الأحق عند تعارضها نعلم قطعاً أنه لا يوجد شيء إلا وهو أحق بأن يوجد".²

هذه هي النظرية عن المعجزة التي اختارها العلامة شبلي النعماني والسيد سليمان الندوي وغيرهم، وتتضح هذه النظرية مما كتبه السيد سليمان الندوي كما يلي:

"لا حرج أن تظهر المعجزة بدون الأسباب فترتيب مختلف الأسباب وجمعها في وقت مناسب لحدوث شيء هو المعجزة التي لا تتيسر لكل عمل دنيوي وإلا فلن تنجح أي حركة في هذه الدنيا والحال أن هناك العديد من الحركات التي لم تتطور من جراء فقد الأسباب".³

¹ تأويل الأحاديث في رموز الأنبياء والرسول، ص 7-8

² حجة الله البالغة، 1/17

³ سيرت عائشه، ص 270

ولو أن هذا التوضيح فيه نقص وذلك لأن كل شيء نال الفوز سيكون معجزة والحال أن كل حركة نجحت لا تكون معجزة على أنما تلعب الأسباب من الدور في ظهور المعجزة يوضحه هذه العبارة. وما اختاره الإمام الفراهي من طريقة التفهيم لدمار الأقوام تفصل هذه الوجهة النظرية فيرى الإمام الفراهي عن أصحاب الفيل أن الأبايل لم تسقط الأحجار على جنود أبرهة بل رماها أهل مكة الذين وافقهم ربح ترمي بالحجارة وأرسلها الله تعالى وأما الأبايل فقد أرسلت لتأكل جثثهم.¹ ولكنه بعد ذلك يقول إن رمي الحجارة على أصحاب الفيل من أعظم آيات عظمة الكعبة والبعثة المحمدية، ولكن عظمة هذه الآية لا تكمن في كونها غريبة وخارقة العادة بل تطابقها سنة نزول آيات الله. يشرح الفراهي هذا الأمر كما يلي:

"فإن من ينظر في مجاري الخوارق يجد أن الله تعالى لا يترك جانب التحجب في الإتيان بها كما هي سنته في سائر ما يخلق لأن حكمته جعلت لنا برزخاً بين عالمي الغيب والشهادة وسنّ لنا التشبث بالأسباب مع التوجه إلى ربها ليبقى مجال للامتحان والتربية لأخلاقنا فالمؤمن يضمحل عنه غمام الأسباب والكافر يبقى في ظلماتها غير خارج منها فإجراء الخوارق على سنة سائر الخلق يجعلها واسطة لفهم أمره الذي هو قوام كل خلق كما قال "صنع الله الذي أتقن كل شيء" ولذلك لا ترى للخوارق اسماً على حدة فإن الله تعالى يسميها الآيات كما يسمي سائر مظاهر قدرته آيات".²

يبدو جلياً من هذا المقتبس أن الأسباب المادية تؤثر قليلاً أو كثيراً في ظهور المعجزة فلا تنقطع علاقة الأسباب والعلل البتة. فالمعجزة عند الإمام الفراهي ما يلي:

"المعجزة ما جاوز حد قوة الإنسان وحيله فالآيات معجزة ومع ذلك دالة على أمر من الله تعالى فإن هذا معنى كلمة الآية كما أخبر الله تعالى عن الحوارين في إنزال المائدة "قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا".³

¹ تفسير سورة الفيل، ص 19-28، مطبعة معارف، أعظم كره، 1395م

² المصدر نفسه، ص 20

³ القائد إلى عيون العقائد، ص 166

وما قدّمه القاضي عياض من تعريف المعجزة يفقد شريطة خرق العادة فيشابه تعريفه تعريف الإمام الفراهي. يقول القاضي عياض:

"اعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزة هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها وهي على ضربين: ضرب هو من نوع قدرة البشر فعجزوا عنه --- وضرب هو خارج عن قدرتهم فلم يقدرُوا على الإتيان بمثله".¹

وما ذكره الشاه ولي الله الدهلوي من أربعة أقسام المعجزة لا تنتهي حتمًا على خرق العادة أو انقطاع سلسلة العلل والأسباب.²

تعال نلق نظرة خاطفة على شرح وتفسير الآيات التي توضّح وتعضّد وجهة نظر الإمام الفراهي. وبما أن الإمام الفراهي لم يؤجل ليفسّر القرآن كله فلم يكد يفسّر سوى بعض القصار والوساط من السور فلم يشرح إلا بعض المعجزات ولكنه يمثّل نظريته عن المعجزات تمامًا.

يوضّح الإمام الفراهي الطريقة التي اختارها الله تعالى في تدمير قوم لوط:

"اعلم أن الله تعالى أرسل على قوم لوط ريحًا ذارية فاشتدت وانقلبت حاصبًا، فأمطرت عليهم حجارة من طين، وبلغت من شدتها إلى أن أفكت مساكنهم، كما قال تعالى: "فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا" (العنكبوت: 40) وكما قال تعالى: "وجعلنا عالمها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود" (هود: 82) أي هبّت الزعازع، فهدمت بيّتهم وعروشهم وعظمتهم بالحصي والرمال، كما قال تعال: "والمؤتفكة أهوى فغشّاها ما غشى" (النجم: 53-54)."³

فكأن دمار قوط لوط وقع بفضل الرياح التي كانت تحمل معها الأحجار من السجيل، وإليه ذهب الشاه ولي الله الدهلوي بشأن دمار قوم لوط إلا أنه يضمّ

¹ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 162/1، فاروقي كتب خانه، ملتان

² راجع: البدور البازغة، ص 176، مجلس علي، داهيل، 1254هـ

³ ترجمة تفسير نظام القرآن، ص 129

الزلازل إلى الرياح كما يبدو من قوله تعالى: "وجعلنا عاليها سافلها". يقول الشاه ولي الله الدهلوي:

"ذلك برجفة شديدة من الأرض وانعقاد مادة المطر والرياح والبرد وحجارة من سجل".¹
ويقول الإمام الفراهي في دمار قوم عاد:

"مما جاء في القرآن من ذكر عاد لا يخفى على المتوسم أن الصرصر التي أهلكوا بها كانت مصحوبة بالسما الشاتية التي تأتي بالصاعقة، فإنه كما صرح بأنهم أهلكوا بالريح، فكذلك تجد التصريح بأن جاءهم سحاب خالٍ وصاعقة، ففي سورة الأحقاف: "فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم قالوا هذا ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم، تدمر كل شيء بأمر ربها".²

وما يبدو من هذا المقتبس أن هذا العذاب كان أنسب لقوم عاد نظرًا لجغرافيا العرب وطقسهم وأوجب لتنبيههم. ولقد أولى الشاه ولي الله أهمية إلى جغرافيا العرب في دمار قوم عاد واعتبره مؤثرًا في نزول عذاب الله فهو يقول:

"ولما كان مسكن عاد الأحقاف والرمال وكان هواء ديارهم مائلة إلى اليبس والسخونة كان أقرب وجوه عذاب في حقهم طوفان الهواء فاحتبس عنهم المطر دهرًا وهلك مواشيهم ليتضرعوا إلى الحق".³

يتحد الإمام الفراهي والشاه ولي الله على أن كليهما يعتبر الطوفان مؤثرًا في دمار قوم عاد إلا أنهما يختلفان على أن الرياح عند الشاه الدهلوي مائلة إلى السخونة الأمر الذي يقتضيه الجغرافيا بينما هي تميل إلى البرودة الأمر الذي تقتضيه الطقس فيبدو من أفكارهما أنهما يربطان العذاب بالسبب الأرضي.

¹ تأويل الأحاديث، ص 25

² ترجمه تفسیر نظام القرآن، ص 133. وهذه السنة الإلهية لدمار الأقوام من آيات الله التي تتعلق بطريقة الأنبياء ولذا عدت من المعجزات.

³ تأويل الأحاديث، ص 17

ويقول الشاه الدهلوي في دمار وغرق فرعون وجنوده:

"أمر موسى عليه السلام أن يخرج إلى اليم فأتبعهم فرعون بجنوده فلما وصلوا إلى اليم سلط الله عليه ريحاً قوية شقت بعضه كتصرفها في أجزاء الأرض حين تصير إصصاً فأنجى بني إسرائيل وأهلك فرعون وجنوده".¹

وكذا يرجع الفراهي غرق فرعون وجنوده إلى انفلاق البحر بسبب الهواء فينقل أولاً بيان التوراة حيث تقول: "ومدّ موسى يده على البحر وأذهب الله البحر بريح شديدة من المشرق طول الليلة وجعل البحر يبساً وانفلق الماء" (كتاب الخروج، 21/14)² ويستشهد بهذا البيان قائلاً: "ثم أهدأ الريح في الصبح. فحين اشتدت الريح حملت الماء الغمر إلى المغرب في خليج سوين وترك أرض الخليج الشرقي خليج عقبة يبساً، وحين جرت يسراً رجعت بالماء في محله فغشي الذين اتبعوا طريق موسى في البحر. وجاء تصديق ذلك في القرآن، ففي سورة الدخان: "فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون. واترك البحر رهواً" أي ساكناً، فإن الرهو هو السكون، وسكون البحر يكون بسكون الريح".³

يتحد كل من التوراة والشاه ولي الله والإمام الفراهي على أن الهواء مؤثر في انفلاق البحر فإن اعترفنا بهذا فيصعب لنا الاعتراف بأن الهواء جرى الليل كله وجرّ ماء البحر إلى خليج عقبة فعبر بنو إسرائيل ولما دخله جنود فرعون في الصباح غرقوا. وذلك لأنه لم تكن فترة طويلة بين عبور جماعة وغرق جماعة أخرى فلم يجر ماء البحر نحو خليج عقبة فلا يبدو هذا البيان موافقاً بما يقول القرآن بصراحة.⁴

¹ المصدر نفسه، ص 37

² العهد العتيق، كتاب الخروج، 21/14

³ ترجمه تفسير نظام القرآن، ص 131-132

⁴ لم يصرح القرآن عن عبور الجماعتين البحر ولا ذكرت أحوال البحر عسى أن لا يوافق بيان التوراة "صراحاته". (تعليق جامع مجموعة المقالات)

وآيات سورة الدخان التي أحال إليها الإمام الفراهي تشير مجملًا إلى عبور البحر بينما جاء تفصيله في سورة الشعراء فيقول تعالى:

"وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٦٥﴾ ... فَأَتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٨﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٩﴾ وَأَرْزَلْنَا تَمَّ الْأَخْرِينَ ﴿٧٠﴾ وَأَنحَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٧١﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٧٢﴾".¹

جاءت أمور عديدة في هذه السورة بصراحة أولها أن بني إسرائيل وجنود فرعون قد واجه أحدهما الآخر، وثانيها: أن بني إسرائيل قد تيقن أنهم سيدركون، وثالثها أن موسى ضرب البحر بعصاه كما أوحى فانفلق، ورابعها أن الماء أصبح فرقتين كالطود العظيم وحدث طريق بينهما، وخامسها أن فرعون قد بلغ الغاية بجنوده، وسادسها أنه لما نزل فرعون البحر بعد موسى تَوَّأ فعبّر موسى البحر وأخذ فرعون وجنوده فهلكوا.

ويهمّ السؤال هنا أنه لما يرجع القرآن انفلاق البحر إلى ضرب العصا ويعتبره نتيجة له فلم يصرف النظر الشاه ولي الله والإمام الفراهي مع التوراة عن تأثيرها فيه²

¹ سورة الشعراء: 60-66

² وما اتبع من سنة الله في نزول العذاب على مختلف الأقوام والتي أشار إليها كاتب هذه المقالة قد حاول الشاه ولي الله والإمام الفراهي أن يثبتاها في شأن غرق فرعون وجنوده واعترفاً ببيان التوراة لأنه لم يشك في تحريفه ولعلهما لم يحتاجا إلى ذكر عصا موسى لأنها ذكرت بصراحة في القرآن ولكنها جاء ذكرها بنسبة نجاة موسى وقومه لا بنسبة نزول العذاب على فرعون وجنوده. وأما انفلاق البحر فذكرت التوراة أولاً أن موسى بسط يديه على البحر ثم جرى الهواء الشديد الذي قسم مياه البحر قسمتين.

لم يذكر في سورة الشعراء سوى ضرب العصا وأما التفاصيل الضمنية فقد تركت ولكن هذا لا يردّ على بيان التوراة المذكور أعلاه. (تعليق جامع مجموعة المقالات)

فالقول بأن انفلاق البحر قد حدث بفضل جريان الهواء الشديد الذي قسم البحر قسمتين يثير أسئلة عديدة مثلًا أنه لم اعتبر القرآن انفلاق البحر نتيجة ضرب العصا؟ وهل يمكن تقرير ضرب العصا سببًا عاديًا لانفلاق البحر قليلًا أو كثيرًا؟ هل ضرب العصا يتعلق بجريان الهواء أي الهواء الساخن بينما الهواء يكون عادة باردًا في ضواحي البحر؟ وإن لم ترد الأجوبة على هذه الأسئلة الثلاثة فماذا يفيد ذلك التوجيه البعيد التي اختير بمجيء الهواء الشديد.¹

ذكر القرآن عبور بني إسرائيل البحر في ستة مواضع يذكر في ثلاثة منها كيف عبروه فيبدو من سورة طه وسورة الشعراء وسورة الدخان أن موسى أمره الله أن يسري ببني إسرائيل في الليل.

1. وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا.
2. فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ زَهَوًّا إِنَّهُمْ مُنْقَرِفُونَ.
3. وَجَوْرْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ.
4. وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ.

¹ هذه الأسئلة كلها لا تمت إلى أصل الموضوع بصله لأن القضية الأساسية هي أنه هل للهواء أي أثر في انفلاق البحر وغرقه فرعون وجنوده؟ أنكر ذلك كاتب هذه المقالة لأنه يرى أن الانفلاق نتيجة ضرب العصا والحال أن الآية المذكورة أعلاه لا تذكر سوى تقدم ضرب العصا على انفلاق البحر ولكن لا يمكن أن نستبعد جريان الهواء بعد ذلك، وما للهواء من علاقة وطيدة بالبحر لا تخفى على أحد. ولو اعترفنا بانفلاق البحر من أجل ضرب العصا وحدوث الطريق فيه فلا بد أن يكون هذا المراءى باهتًا لفرعون وجنوده بل مدهشًا لهم وما استطاعوا أن يدخلوا فيه. الواقع أن يد الله دائمًا تكون من وراء الحجاب وتعمل بواسطة ما نتعود على حركته ولا يكون غير عادي لنا وإن لم يحدث كذلك فعسى أن يموت الإنسان بالدهشة أو أن يفقد قواه كلها. (تعليق جامع مجموعة المقالات)

وبجانب هذا أوحى إليه أن الطريق اليبس سيخترق البحر "فاضرب لهم طريقاً في البحر ييبساً" (سورة طه: 77) "واترك البحر رهواً" (سورة الدخان: 44).

وكذلك أخبر أنه سيتبع ولكن ليتيقن أن المتبعين لن يدركوه ولا يضروه بشيء فلا يخف "لا تخاف دركاً ولا تخشى" فيبدو أن موسى لم يخبرهم بهذا بل أنبأهم عن الإتيان كما أخبرهم بأنهم لا يدركون، ولعل هذا هو السبب أنه لما رأى بنو إسرائيل المتبعين بعيونهم ورأوا البحر أمامهم قالوا: "إنا لمدركون" أي أنك كنت تقول إننا لن ندرك ولكن الآن سندرك. تشير هذه الجملة أن البحر لم ينفلق حتى وقوع هذا الحدث فقلق بنو إسرائيل فقال لهم موسى: "كلا إن معي ربي سيهدين" فكلمة "سيهدين" توضح هنا أن الدلالة التي وعد موسى بها لم تبد حتى ذلك القول ولم يحدث الطريق في البحر فأمر موسى بضرب البحر بعصاه فانفلق البحر فرقتين بفضل ضرب العصا وأصبح كالطود العظيم وانجلى الطريق اليبس.

وكذا يبدو من التساؤل المذكور أعلاه والنظر إلى الحالة التامة أن موسى ولو قد شهد إعجاز عصاه مرتين (مرة في الطور حينما تحوّلت إلى الجن، سورة الأعراف: 117، النمل: 27، القصص: 31 وطه: 18 ومرة أخرى في ديار فرعون حيث تحوّلت إلى ثعبان فجعلت تأكل حبال الساحرين، سورة الأعراف: 107، 117، الشعراء: 32-45، طه: 79) ولكنه لم يكن يعرف عن إعجاز العصا هذا بأنه يسبب في انفلاق البحر حين الحاجة إلى عبوره فهده الوحي إلى هذا ولكنه قد بقي لموسى أن يشهد إعجازه الثالث أي تدفق العيون بضرها على الحجر (سورة البقرة: 60، الأعراف: 160).

فملخص القول أنه لن يمكن أن نريد بقول الفراهي المذكور أعلاه أو ببيان التوراة أن الهواء قد جرى طول الليل قبل أن يصل إليه موسى ولما بلغت قافلة موسى البحر ورأوا فرعون وجنوده وراءهم فقالوا: "إنا لمدركون" فانفلق البحر وظهر طريق يابس لأن القرآن يصرح بأن البحر كان كما يكون حين قالوا "إنا لمدركون" فلما ضربه موسى بعصاه ظهر طريق يابس فيه أي حدث هذا بفضل العصا لا من

جاء شيء آخر.¹ وإن اخترنا هذا التوجيه أنه فورما ضربه بالعصا بدأ يجري الهواء ففلق البحر فورده فهذا أيضًا يرد موقف الفراهي لأنه يقول "إن الهواء جرى طول الليل وهذا في الصباح ----".² وكذا ترد كلمات "واترك البحر رهوًا" ما بقي من أجزاء تأويل الفراهي أي لما هداً الهواء جرى الماء كيف كان وغرق متبعوا موسى".
والحال أن القرآن يصرح بأن البحر كان رهوًا حين كانت قافلة موسى تعبر البحر، وطبقًا لما يقول الفراهي "إن هدوء البحر من هدوء الهواء" أن الهواء كان رهوًا حتى دخل جنود فرعون البحر³ وال حال ينبغي لما قال الفراهي أن يجري الهواء بشدة لأنه لو سكن الهواء لجرى الماء كما كان. وبعبارة أخرى أن بيان الفراهي يستلزم أن يجري الهواء شديدًا ليبقى الطريق اليابس في البحر ويبقى البحر هادئًا ولكنه إذا كان الهواء شديدًا فكيف يمكن أن يبقى البحر هادئًا فهذه الحالة تضاد القول "واترك البحر رهوًا".⁴ وبهذه المناسبة يثور سؤال آخر نهائي أنه إذا أثر الهواء

¹ ذكر كاتب هذه المقالة عن فعل العصا المعجز مرارًا وتكرارًا وال حال أن العصا تفقد مثل هذا الفعل المعجز أو الميزة الخارقة العادة. وأما القول بأن البحر كان ساكنًا حين نداهم "إننا لمدركون" فهل يصرح بذلك القرآن أو على الأقل يشير إلى هذا؟ سوى أن البحر لم ينفلق حتى ذلك الحين فإن الهواء لم يشتد منذ ذاك ما يجعل البحر ينفلق. (تعليق جامع مجموعة المقالات)

² القول بأن الهواء بدأ يجري فورما ضربت العصا مما قام به كاتب هذه المقالة، والجملة التي ادعى كاتب هذه المقالة أنها للفراهي إنما هي للتوراة والتي اعترف بها الفراهي رحمه الله فجريان الهواء الشمال طول الليل وضرب موسى العصا بعد وصوله إلى الشاطئ واشتداد الهواء فورًا من حيث ينفلق البحر ويحدث الطريق فيه أي شيء منها مستبعد يوّد كاتبها أن يرده فهل يعرف أحد متى يشتد الهواء ومتى يسكن؟ (تعليق جامع مجموعة المقالات)

³ متى كتب الإمام الفراهي أن البحر كان ساكنًا حين دخول فرعون وجنوده البحر بل الواقع أن البحر سكن حينما وصل وسطه مما استوت المياه فغرقوا كما نقل كاتب هذه المقالة مقال الفراهي "---" وحين جرت يسرًا رجعت بالماء في محله فغشي الذين اتبعوا طريق موسى في البحر". (تعليق جامع مجموعة المقالات)

⁴ قال كاتب هذه المقالة مقالين يضاد بعضهما البعض في جملة واحدة. ولقد بينّا قول الفراهي من قبل. (تعليق جامع مجموعة المقالات)

الشديد في هذه القضية كما ترى التوراة والشاه ولي الله والإمام الفراهي فلم ذكر القرآن ما لا يتعلق بهذه أي ضرب العصا بينما لم يذكر الهواء ولو مرة واحدة وال حال أن القرآن يكرر ذكر تأثيره في دمار قوم عاد.¹ والله أعلم بالصواب.

¹ يحتفل اليهود بيوم نجاتهم من فرعون كعيدهم وهذا الحدث شهير جدًا لديهم وذكر مفصلاً في التوراة وأما طريق القرآن في بيان مثل هذه الأحداث المشهورة جدًا فهو مجمل ولذا نرى أن هذا الحدث ذكر في عشر سور ولكنه موجز للغاية في كل مكان ولم تذكر العصا سوى في سورة الشعراء وإن كان بيان التوراة خاطئاً لردّه القرآن في مكان أو آخر. (تعليق جامع مجموعة المقالات)

النظرات التعليمية للعلامة عبد الحميد الفراهي

- السيد مظفر حسين الغزالي¹

ترجمة من الأردوية: د. زبيبة نيرة²

كان العلامة حميد الدين الفراهي من رجال القرن الرابع عشر الهجري الذين لم يتأثر بهم المسلمون والعالم الإسلامي فقط بل قاموا بالمدارس على أسس نظراتهم وأفكارهم، ولا يُذكر اسمه إلا وينتقل الذهن إلى الأفكار القرآنية ولكن كانت له نظرات خاصة لا تنتقل إليها الأذهان الحادة المتفكرة أيضًا إلا بعد الصعوبة والتفكير العميق. ونظراته التعليمية أيضًا جزء من أفكاره العالية. ويبدو بعد تحليل حياته المحتوية على 71 سنة التي قضاها معلمًا في مدرسة الإسلام بكراتشي، والجامعة الإسلامية بعلي جراه وجامعة الله آباد وعميدًا في دار العلوم العثمانية بحيدرآباد أن نظراته التعليمية كانت قيمة كنظراته القرآنية.

بدءت رحلته العلمية في زمان بلغ فيه صيت وشهرة حركة السير سيد التعليمية إلى أوجها وكانت تقام الدوائر التعليمية العديدة لرفع مستوى المسلمين التعليمي ولتغيير الأوضاع الراهنة أو قد أقيمت ومن أهمها دار العلوم بندوق العلماء في كوناو والجامعة الملكية الإسلامية بنيو دلهي والجامعة العثمانية بحيدرآباد.

وبعد فشل ثورة تحرير الوطن في 1857 م قد فسد النظام التعليمي للمسلمين وصارت الملة الإسلامية عرضًا للفقر وسوء الحال، وتعرض وجود المسلمين في

¹ كاتب هندي له اليد الطولى في الشؤون التعليمية

² كاتبة ومترجمة حرة نالت الدكتوراه من قسم اللغة العربية الفارسية والأردوية والدراسات

الإسلامية بجامعة فيسفا باراتي، شانتينيكيتان، بنغال الغربية

الهند لخطر عظيم، بجانب قضيتهم التعليمية. ولم يُنه الإنكليز النظام التعليم الإسلامي فحسب بل كانوا يويدّون محو كل ما يكون سبباً ليقظة المسلمين وتقدمهم ففي هذه الحالة السيئة حاول العلامة الفراهي أن يقدم نظاماً تعليمياً جديداً.

وإني سعت بكوني طالباً للتعليم أن أجمع أفكار الفراهي التعليمية لألفت أنظار أصحاب العلم والبصيرة وأهل التحقيق، ولا بد لنا من استعراض النظام التعليمي لمدرسة الإصلاح لتحليل أفكاره التعليمية لأنّ هذه المدرسة مرآة لنظراته التعليمية فقد بذل فيها معظم أوقاته الغالية بعد أن رجع من حيدرآباد وقد كان العلامة يقيم في هذه المدرسة كل ثلاثة أيام في الأسبوع مدرّساً للأساتذة والطلاب ومديرًا لشؤون المدرسة ومطلعًا للأساتذة على أفكاره التعليمية والإصلاحية وفي آخر أيام حياته اختار رجالاً من أساتذتها فربّاهم على طريقته لكي يتحلوا بأفكاره ويواصلوا سيرها كما علّمهم بعد وفاته.¹

ولقد كان العلامة الفراهي يودّ أن يعمّم أفكاره التعليمية بدل أن يضيّق نطاقها، وسعى لذلك سعيه طول حياته ويمكن لنا تقديرها من الخيال الذي كان يضعه أمام عينيه حين إقامته بحيدرآباد:

"كان يفكر في إصلاح نظام التعليم وكان هدفه تأسيس جامعة يدرس فيها جميع العلوم باللغة الأردوية، وإن كانت الإمكانات لجعل اللغة الأردوية طريقة التدريس ضئيلة جداً، كما توجد لها اليوم ولكن العلامة قد أيقن المسؤولين بدلائله القوية وأعدّها خطة لم يجترأ أحد بعد رؤيتها أن يخالفه. وهذه هي الفكرة التي أسفرت فيما بعد عن الجامعة العثمانية".²

¹ مقدمة لتفسير نظام القرآن (بالأردوية)، ص 14

² المصدر نفسه ص 12

ولا نجد تفاصيل البرامج والبنود التي قدّمها العلامة لإقامة الجامعة العثمانية أما مسؤولي الحكومة ولا نجد أي دليل على أن الجامعة العثمانية قد تجسّدت فكرته التعليمية ولكن يبدو من هذا أنه كان يمتلك نظرية تعليمية خاصة به، وكان يودّ أن يقيم نظامًا تعليميًا من لدنه، والذي يهدف للإصلاح الفكري قبل الإصلاح العلمي لأن العمل نتيجة الفكر، وبعد إصلاح الفكر تسهل عملية إصلاح العمل كما يقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي:

"وضع العلامة الفراهي أساس إصلاح الفكر هذا على تعاليم القرآن فهو كان يريد أن يستعرض كفاة علوم وأفكار المسلمين وهكذا كان يود طرد الأفكار الباطلة في مختلف جوانب الفكر وفي جانب آخر كان يحبّ أن يفتح باب الاستفادة من القرآن في كافة نواحي الحياة البشرية".¹

هدف التعليم عند الغلامه الفراهي:

استدل العلامة الفراهي لتعيين هدف التعليم من القرآن الكريم (سورة التوبة: 122) وبين الهدف كما يلي:

"استعمل كلمة "التفقه في الدين" لتحصيل التعليم ومعناه "الفهم والبصيرة في الدين" كما استعملت للتعليم كلمة "الإنذار" ومعناه التخويف والتنبيه وعلى الخصوص الاستيقاظ لتحسين الحياة الآخرة فاستعملت هاتان الكلمتان في القرآن لأصل هدف التعليم، فيعلم من ذلك أن هدف التعليم والتعليم في الإسلام هو البصيرة في الدين وتربية النفوس للفلاح في الآخرة، وما سوى ذلك تابع لذلك الهدف العظيم".²

في هذه الكلمات الوجيزة أشار إلى نقائص النظام التعليمي الرائج وإلى الاستراتيجية التعليمية للدولة الإسلامية، ويتضح كلا الأمرين من هذا وهذا هو مفتاح نظام

¹ المصدر نفسه ص 20

² تدبر قرآن (بالأردوية)، 251/3

التعليم الإسلامي وهذا هو هدفه فيقول العلامة الفراهي مسلطاً الضوء على أصليين مهمين للتعليم في مقدمة تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان": "وإذا كان الأمر هكذا لم يقصد في القرآن إلا معالي الأمور وغوامضها فترك تفاصيل القصص وظواهر الأحكام وسفسف التاريخ فإن إيراد هذه الأمور بعدما علمها الذين يخاطبهم القرآن يملهم ويكون عبثاً فما ذكر من القصص إلا تلميحاً ومثلاً على وجه البلاغة أو أصلاً لما بدلوا فيها من أمر عظيم وكذلك لم يذكر من الأحكام المعلومة إلا طرفاً اقتضى تهذيباً أو تكميلاً".¹

فكل ما بينه العلامة في الفقرة المذكورة أعلاه من أصول التعليم، هو أنه ينشئ في الطالب أولاً مبادئ التعليم أي ينمو فيه بالتدريج صلاحية النطق، والثاني هي العناية الخاصة التي تصنع به مادة لتوسيع العلوم ويراعى في هذه المادة أن تكون فيها كلمات وجمل تلتفت إليها أذهان الطلاب بمختلف أعمارهم ويتدرج الطالب في الوصول إلى أعماق العلوم ويسهل له أن يصل إلى الأمور الصعبة من العلوم.

يبدو مما سبق أن العلامة الفراهي كان يعرف جيداً أصول التعليم والنفسيات التعليمية كليهما وتشهد بذلك كتبه الدراسية التي قام بإعدادها.

يقول العلامة في تفسير آيات سورة الرحمن "الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان (1-3)": "بدأ الله تعالى هذه الآيات بذاته لأنه هو المبدء للرحمة والعلم وأخبركم أنه برحمته الواسعة، علمكم القرآن وخلقكم وعلمكم النطق والبيان لكي تعدوا أنفسكم لتعلم القرآن".²

ويشرح الآية المائة والثانية والعشرين من سورة التوبة كما يلي:

¹ فاتحة نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 22

² مجلة "تحقيقات إسلامي" الفصلية، علي كره، أكتوبر-ديسمبر، 1990م، ص 43

"إن لم يستطيعوا أن يحضروا جميعهم في المجلس النبوي فلماذا لم يكن أن تحضر منهم جماعة لتحصيل العلم ويفيدوا بما حصلوا من لم يستطع حضوره منهم، يعني تنوب من كل القرى جماعة إلى المدينة لكي يتعلموا ويتفقهوا ثم يرجعوا إلى قومهم يفعلهم ويفقههم، وهكذا يستطيع أهل القرى أن يراعوا أموالهم وجمالهم ومهائمهم ويستفيدوا بمجالس النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم".

فإن درسنا تاريخ رقي الأقليات في ضوء هذا الشرح للعلامة فنجد أنهم كانوا يعانون قضيتين مهمين: الأولى قضية التعليم والثانية قضية المعاش ويجب أن تقسم المجتمع في جماعتين لحل هاتين القضيتين، أولاهما هي التي تقويهم اقتصاديًا والثانية هي التي تحصل على التعليم وتعممه فيكفل الجماعة الأولى الجماعة الثانية كما يجب على الجماعة الثانية أن تثقف الجماعة الأولى وهكذا فيستيقظ القوم كله كما يتقوى اقتصاديًا.

معول الصلاح والفلاح:

أشار العلامة الفراهي في منهاج مدرسة الإصلاح الدراسي أن صلاح المسلمين وفلاحهم يكمن في تعليمهم الديني، ثم يسأل بنفسه: ولكن ما هو التعليم الديني؟ هل التعليم الذي نُصِّع وراءه أوقاتنا وأموالنا منذ القرون؟ إنه ليس كذلك البتة، لو كان كذلك لظهر فينا نفس الأثر الذي شهدناه في القرن الأول ولما سقط المسلمون في هوة المذلة تدريجيًا حتى أصبحوا عبرة للآخرين. ثم يعرب عن حزنه وهمه فيقول:

"والواقع أن أعزّ متاع أضاعه المسلمون بعد صدر الإسلام هو التعليم الديني الصحيح فإن بقينا على هذا التعليم لما خلت جيوبنا من البركات والثمرات التي تمتع منها أوائلنا".

ثم يقدم حله في ضوء التاريخ قائلاً:

"لما جئت الأرض ظلّمت بعضها فوق بعض نورها الله بالقرآن واليوم حينما وقع المسلمون في الظلمة الأولى وضلّت فلا يفتح لهم الطري السوي سوى القرآن الكريم.

فأساس التعليم الديني أن نضع القرآن في مكانه وهو أن نجعل القرآن مصدر علومنا وأعمالنا فيجب علينا أن تعلم أحكامه فنعمل حسب أحكامه فنطرق ببابه في جميع علومنا وأعمالنا فهو يهديننا فإن خفي علينا بعض إشاراتنا نرجع إلى الذي كانت أقواله وأعماله شرحاً وتفسيراً للقرآن الكريم وإن خفي هنا أيضاً بعض نكات القرآن فنرجع إلى أقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم وإلى أقوال أئمة الإسلام رحمهم الله لأن أقوالهم وأعمالهم كانت مقتبسة من نور كتاب الله ورسوله".¹

انتقاد المنهاج الدراسي للمدارس الإسلامية:

لقد وجّه العلامة الفراهي نقداً لاذعاً إلى منهاج تعليم المدارس الحالية ونظامها ويجب عليها تعليم القرآن التحقيقي ولقد استعرض العلامة المدراس بإمعان وقدم تحليلاً بحثياً فيقول:

"ألق نظرك على المدارس الدينية الحالية واضعاً أمامك هذا الأصل العظيم (القرآن) تجد أن القرآن متروك ومهجور في كل مكان فكتب المنطق والفلسفة وعلم الكلام قد حوت المنهاج سوى القرآن الكريم فإن تجد شيئاً فستجد أجزاء من الجلالين والبيضاوي لتغيير الطعم التعليمي ولذا فقد فسد حال المسلمين العقلية فتركوا ذيل اكتاب الله ووقعوا في الشعبذات اليونانية والإسرائيلية كالهمود. ولقد كان كتاب الله مهيمناً وحكماً وكان بإمكاننا أن نميز الخبيث عن الطيب بفضله ولكنه لما غفلنا عنه فقدنا التمييز والمعرفة وهكذا فكل كتاب وجدوه اعتبروه كتاباً ربانياً وتفرقوا شيعاً".²

¹ دستور مدرسة الإصلاح (بالأردنية)، مطبعة الكوثر، سرائير، أعظم كره، 1985م، ص 17

² المصدر نفسه ص 12

ولم يقتنع العلامة الفراهي بالجهود التافهة لإصلاح المدارس وتحسين منهاجها ونظامها، فيقول عن مثل تلك الجهود:

"وبسبب سوء حال الأمة الإسلامية نشأت فيما بين العلماء المتنورين حركة لإصلاح المدارس الدينية وإدخال منهاج تعليمي يكون حسب مقتضيات الزمان فيتخرج منها علماء متجربون متنورون متنبهون، فأسسوا أهل هذه الحركة مدارس جديدة لتنفيذ هذا المنهاج التعليمي الذي يقدره الذوق الحالي، وكانت جهودهم صالحة مباركة ولكن لم تتغير حال المسلمين لأنهم لم يخرجوا أن يمشوا مع مقتضيات الزمان بل يخرجوا ليجعلوا الزمان مطابقاً لأحكام الله ورسوله".¹

خطة شاملة للتعليم:

أعدّ العلامة الفراهي خطة تعليمية شاملة لإصلاح منهاج تعليم المدارس ونظامها، فراعى فيها جميع الجوانب التي تحتاج للإصلاح والتي تقطع دابر الحال السيئة للملة الإسلامية، هذه الخطة تجمع بين السعة والجدة فقد قلل فيها العلوم غير الضرورية وسعى للحصول على المستوى الأعلى للتعليم فقدم فيها خطة واضحة للتعليم المفيد الذي يكون رخيصاً ومهماً للمقتضيات الراهنة، وهو مقدّم إليك:

"ينبغي أن يكون تعليم القرآن هدفاً أساسياً للمدرسة ثم يتم التوكيد على تعليم الحديث والفقه، ويطرد عن المنهاج الدراسي ما لا يحتاج إليه من كتب المنطق والفلسفة وعلم الكلام وتدرس في مكانها كتب الأدب العربي، ويدرس الحديث بعيداً عن العصبية المذهبية ولا يدرس سوى الفقه الإسلامي لينشأ في قلوب الطلاب التوسع والمصانعة، ولا يثور فيهم داعية التكتفير والتفسيق والمناقشة المذهبية الواهية وتدرس علوم النحو والصرف عملياً لا نظرياً، وأما الفنون فلا تدرس إلا أمهات الكتب وتدرس هذه العلوم والفنون عن طريق المحاضرة وتدرس

¹ المصدر نفسه ص 13

اللغة الإنجليزية حسب الحاجة وتعلّم الصنائع وينبغي أن تقلّ مدة التعليم كما يجب أن يكون التعليم رخيصاً".¹

ويبدو أن العلامة الفراهي صنّف لهذا الغرض كتباً ابتدائية لتدريس اللغة العربية كمثال: "أسباق النحو"، و"أسباق الصرف"، و"تحفة الإعراب" وغيرها من الكتب الأخرى، زالت بها كثير من صعوبات طلاب اللغة العربية التي تتعرض لهم خلال التعليم الابتدائي كما قطع دابر العوامل التي كانت تعرقل تعليم مبادئ العربية فقد سهّل الفراهي تعليم العربية بكتبه وخلق الرغبة والحماس في الطلاب ولا سيما كتاب "أسباق النحو" (في جزئين) وكتاب تحفة الإعراب مفيدان للغاية لهذا الهدف. إن مدرسة الإصلاح ثمرة جيدة لجهود العلامة التعليمية فيجمل بي أن أذكر شيئاً من منهاجها التعليمي فبصرف النظر عن التفصيل أقدم إليكم ما كتبه الفراهي نفسه عن منهاج المدرسة التعليمي:

"تدرّس مدرسة الإصلاح العلوم الدينية جميعها والعلوم الدنيوية حسب الضرورة ولكن بحيث لا تغشي الفروع الأصول. القرآن في منهاجها التعليمي كمثال الشمس يستنير بها جميع النجوم. ويعلم فيها كل من الحديث والفقه وأصول الفقه والمنطق والفلسفة وعلم الكلام والتاريخ والسير وأسرار الشريعة والأدب والبلاغة والنحو والصرف، لأن بعضاً منها آلة ووسيلة لفهم القرآن والتدبر فيه بينما البعض منها شرحه وتفسيره. ولكن جميع العلوم تكون تابعة للقرآن، وتعلم في ضوءه وتفتح أبواب جميع هذه العلوم من داخل القرآن".

فبدا من هذا التحليل أن التعليم، عند العلامة الفراهي، إذا لم ينشئ نور البصيرة والمعرفة مردود تماماً، وكذا التعليم الذي لا ينبع من القرآن ولا يقتبس من نوره لا يقام له وزناً، والتعليم الذي يجر أصحابه إلى سبيل الشيطان ومقصده لا ينتج إلا

¹ المصدر نفسه ص 8

الهلاك والدمار ولا يرجى منه الخير والإصلاح، وكذا التعليم الذي انحرف عن محوره (القرآن) لا يكون تعليمًا دينيًا إلى الأبد، ولا يصل الإنسان إلى نور البصيرة والمعرفة بدون التعليم الديني الحقيقي، بل يحير في ظلمات الضلال إلى أن يجد نور القرآن وحكمته.

والفراهي يحاول أن يحل كافة قضايا الحياة بهدى القرآن ونوره سواء كانت قضية ذل المسلمين أو رقيهم أو كانت قضية الحكومة أو المجتمع، أو التعليم، وخلاصة القول: إن القرآن، عنده، وسيلة واحدة للهداية في جميع شؤون الحياة وأن أساس أفكاره مبني على القرآن، فلا يمكن فهم أفكاره وترتيبها وجمعها إلا بتدبر القرآن وفهمه لأن أفكاره مأخوذة منه، وكذا لا يمكن فهم أفكاره التعليمية إلا بمعرفة تصور القرآن للعلم، فلا بد أن تبذل الجهود لمعرفة أفكار القرآن التعليمية وأفكار الإمام الفراهي معًا.

الشيخ عبد الحميد الفراهي وأسلوبه في تعليم اللغة العربية

- د. محفوظ الرحمن¹

ما زال ولا يزال علماء الهند يلعبون دورًا بارزًا في ترويج اللغة العربية ونشرها في شبه القارة الهندية منذ أن دخل الإسلام أرض شبه القارة الهندية، وقاموا بإسهامات كبيرة في ترويج اللغة العربية وعلومها عبر العصور كما أنشأوا المدارس والمعاهد لتعليم اللغة العربية والعلوم الإسلامية في أرجاء البلاد كلها، وألفوا كتبًا مدرسية في علم النحو والصرف والنثر والكتب للترجمة لتدريس اللغة العربية في أدوار مختلفة حسب اختلاف البيئة في مناطق الهند المختلفة، وكذا ألفوا في النحو والصرف كتبًا مفيدة، وكتبوا الشروح والحواشي والتعليقات على كثير من أمهات الكتب في هذا المجال. وقد أدت هذه الكتب المدرسية ولا تزال تؤدي دورًا مهمًا في العملية التعليمية والتحصيل التربوي والاستزادة في فاعلية التعليم والتعلم وتثقيف الدارسين وتربيتهم تربية صالحة شاملة وهادفة إلى النجاح في الدنيا والآخرة. ومن العلماء الذين اهتموا بإعداد الكتب المدرسية هم الشيخ سيد سليمان الندوي رحمه الله، والشيخ عبد الرحمن الأمرتري رحمه الله، والشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله والشيخ عبد الماجد الندوي رحمه الله، والشيخ ف. عبد الرحيم والشيخ وحيد الزمان الكيرانوي رحمه الله وكثير من المؤلفين الذين ألفوا كتبهم في النحو والصرف والنثر العربي لتعليم اللغة العربية. ونجد بين هؤلاء المؤلفين عالمًا كبيرًا ومفسرًا جليلاً وهو يُعرف في الأوساط العلمية والثقافية بأعماله الجليلة في علوم القرآن، والذي أيضًا اهتم بتأليف الكتاين في النحو والصرف، وكما نقل كتاب القصص الإنجليزية إلى اللغة العربية لتدريس اللغة العربية وهو الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله، وأدخلت هذه الكتب في المنهج الدراسي في بعض المدارس في الهند.

¹ أستاذ مساعد (موقت)، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

نبذة عن حياة الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله وأعماله:

ولد الشيخ حميد الدين أبو أحمد عبد الحميد الأنصاري الفراهي رحمه الله في عام 1264 هـ الموافق 1864 م في قرية "فريها" بمديرية "أعظم كره" في ولاية أترابرايش (الهند).¹ ونشأ في بيئة مسلمة وترعرع في رخاء ونعيم، وبدأ تعليمه الابتدائي بقراءة القرآن الكريم مثل أبناء جيله، ثم حفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة الفارسية من الشيخ محمد مهدي رحمه الله فأتقنها وقرض فيها الشعر وهو كان ابن ستة عشر عامًا، ثم أقبل الفراهي رحمه الله على تعلّم اللغة العربية، فتعلمها على ابن خاله العلامة شبلي النعماني رحمه الله، وبعد ذلك التفت إلى الحصول على آدابها فتلقاها على يد الشيخ فيض الحسن السهارنفوري رحمه الله الذي كان يعدّ من كبار علماء اللغة العربية وآدابها وقتئذ. وبعد إكمال العلوم الإسلامية التفت العلامة الفراهي إلى تعلم اللغة الإنجليزية والعلوم الجديدة، فحصل على شهادة الثانوية من كلية الله آباد، وفي عام 1891 م ارتحل إلى علي كره والتحق بكليتها الشرقية في البكالوريوس وحصل على شهادة البكالوريوس في عام 1895 م.²

حياته التدريسية والوظيفية: بدأ الفراهي رحمه الله حياته المهنية من مدرسة الإسلام بكراتشي، حيث تم تعيينه كمدرس اللغة العربية في عام 1897 م، فدرّس في تلك المدرسة عشر سنوات، ثم رجع إلى علي كره وتولى منصب الأستاذ المساعد للغة العربية في عام 1907 م، فمكث في مدينة علي كره قرابة سنة واحدة ثم رحل إلى الله آباد في عام 1908 م، وبعد ذلك ارتحل إلى مدينة حيدرآباد حيث تولى منصب عميد دارها للعلوم وأقام بها حتى 1919 م، ثم رجع إلى موطنه وكان يخدم مدرسة الإصلاح حتى وافاه الأجل في 11 نوفمبر عام 1930 م.³

¹ د. محمد فريد راوي بن عبد الله، الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، دار الشاكر للطباعة والنشر والتوزيع، سلاتجو، ماليزيا، ص 38-39.

² شوكت أحمد صوفي، الإمام عبد الحميد الفراهي حياته ومآثره، مكتبة إحسان، مدينة لكاناؤ، ط 1، 2015 م، ص 19-27.

³ د. أوزنك زيب أعظمي، الإمام عبد الحميد الفراهي وكتابه "جمهرة البلاغة"، www.alukah.net.

أعماله العلمية والأدبية: ألّف الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله كتبًا كثيرة من أبرزها "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" و"الرأي الصحيح في من هو الذبيح" و"إمعان في أقسام القرآن" و"أسباق النحو" و"مفردات القرآن" و"التكميل في أصول التأويل" و"في ملكوت الله" و"أساليب القرآن" و"القائد إلى عيون العقائد" و"ديوان حميد" و"زمزمه دري" و"جمهرة البلاغة" و"أمثال آصف الحكيم" وغيرها. ونريد في هذا المقال أن نقوم بدراسة استعراضية للآيتين من كتب الشيخ الفراهي رحمه الله، وهما "أسباق النحو" و"أمثال آصف الحكيم"

أمثال آصف الحكيم:

أما كتابه "أمثال آصف الحكيم" الذي قامت بنشره مكتبة الدائرة الحميدية، سرائر مير، أعظم كره في عام 1985م فنقله الشيخ عبد الحميد الفراهي من كتاب إنكليزي اسمه "Aesop Fables" إلى اللغة العربية للمنهج الدراسي للطلاب الناشئين. وأدخل الكتاب في المنهج الدراسي لمدرسة الإصلاح بأعظم كره بعد وفاة الشيخ الفراهي رحمه الله لأنه لم ينشر في حياته حتى وافاه الأجل. وبعد وفاته نشره بعض تلاميذه بعد التهذيب والتنقيح.¹

نقل الشيخ الفراهي رحمه الله هذا الكتاب من اللغة الإنكليزية إلى اللغة العربية في بداية عهده كما يكتب ناشر الكتاب في واجهة الكتاب: "فهذا كتاب "أمثال آصف الحكيم" قد نقله أستاذنا الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى من الإنكليزية إلى العربية في أوائل عمره حينما كان يتعلم اللغة العربية. وما عثرنا عليه إلا بعدما توفي الأستاذ الإمام، ميثوثًا في مخطوطاته".²

¹ كلمة الناشر، أمثال آصف الحكيم، مكتبة الدائرة الحميدية، سرائر مير، أعظم كره، عام

1985م، ص3.

² نفس المصدر، ص3.

إن هذا الكتاب يحتوي على خصائص وميزات تفيد الطلاب خلال دراستهم، ويذكر الشيخ الفراهي رحمه الله هذه الخصائص في بداية الكتاب وهي كما يلي:

- 1- التمثيل لا يكون إلا عن العجماوات والجمادات.
- 2- لا يخلو عن حكمة ما خفي من أخلاق الناس.
- 3- يكون واضح الدلالة.
- 4- ربما يظهر عقلاً يشترك فيه الإنسان والعجم فأفعال العجم تدل على عقولهم.
- 5- حين تكلم به آصف كان فيه كل ما يحسنه كأسلوب البيان والأداء، والموقع. ولكن الرواة فاتهم أكثر ذلك، فرددت منها ما يمكنني.
- 6- لم يذكر الحكمة المخفية لكي يستنبطها الناس ويفهموها، وإنما زادها الرواة فتركها وما اتبعتم فيها¹.

ويتضح لنا بعد دراسة هذا الكتاب والخصائص التي كتبها الشيخ في بداية الكتاب أن معظم القصص والأمثال قد رويت عن لسان الحيوانات والطيور مثل كتاب "كيلة ودمنة" واختار الشيخ الفراهي رحمه الله هذه القصص في سبيل تعليم اللغة العربية للطلاب الناشئين بمبدأ "تعلّم وأنت تلعب" يعني (Learn while play) وإن هذه الطريقة وسيلة لخلق الرغبة في تعليم العربية في نفس الدارسين وتقديمهم إلى الأمام.

حينما ندرس هذه القصص والحكايات نجد أن أكثر قصصه وحكاياته رويت عن لسان الطيور والحيوانات والإنسان مثلاً: "أسد وفارة"، "حمار وجندب"، "الذئب والغرنوق"، "النمل والجندب"، "ديك وجوهرة"، "أرنب وغيلم"، "أب وأبناؤه"، "فلاح وحية"، "غزال وأمه"، "حمار وتعلب وأسد"، "السلحفاة والعقاب"، "الصبي والجوز"، وغيرها من القصص والحكايات التي هي موجودة في الكتاب.

¹ المعلم عبد الحميد الفراهي، أمثال آصف الحكيم، مكتبة الدائرة الحميدية، سرائير مير، أعظم كره، 1985م، ص4.

وأما الأسلوب الذي اختاره المترجم في هذه القصص والحكايات فهي جيدة، واستخدم فيها الكلمات التي هي متواجدة في الأوساط الهندية ومن نماذجها ما يلي: "إن أبا كان له عدة أبناء لم يزالوا متخاصمين بينهم، ولم ينجح وعظ الأب في حسم خصامهم. فعزم على أن يبين لهم سوءات الشقاق بمثال واضح، ولذلك قال لهم يوماً: أن يأتوا إليه بحبل غليظ. فلما فعلوا ذلك، وضعه في أيديهم واحداً بعد واحد وأمرهم أن يصرموه، فاجتهد كل واحد منهم بتمام قوتهم ولكن لم يستطيعوا. ثم حل طاقاته وأخذها متفرقة ووضعها في أيدهم فرادى، فكسروها بسهولة. فخاطبهم الأب بهذه الألفاظ:

أبنائي إن تكونوا متحدي الرأي مجتمعين ينصر بعضكم بعضاً، وتكونوا مثل ذلك الحبل الغليظ لن يضرركم جميع سعي أعدائكم، وإن تمزقتم تكسرتم مثل طاقاته".¹ إن كثيراً من الكلمات التي يستخدمها المترجم هي رائج ومفهومة في اللغة الأردية مثلاً: "أبناء" و"متخاصمين" و"وعظ" و"واضح" و"الشقاق" و"يوم" و"قوة" و"طاقات" و"متفرقة" و"سهولة" و"أعداء" وغيرها. وهكذا يسهل للدارس فهم الكلمات الأجنبية بدون أي مشكلة.

وأما الكلمات والجمل التي استخدمها الشيخ الفراهي رحمه الله فهي تدل بكل صراحة على أنه راعي مستوى القارئ والدارس، فأتى بما هو سهل الفهم وقريب الإدراك، ونريد أن نقدّم بعض العبارات من كتاب "أمثال أصف الحكيم" لكي نرى الكلمات والجمل التي استخدمها المترجم:

حمار وثعلب وأسد

تحالف الحمار والثعلب على أن يحمي كل منهما حليفه، وذهبا في الحرش للصيد. فلم يمضيا بعيداً حتى لقيا أسداً. فلما رأى الثعلب الشر مطلاً عليه أقبل إلى

¹ نفس المصدر، ص 6.

الأسد وواعده أنه سيحتال له على صيد الحمار إن آمنه الأسد. ولما عاهده الأسد على عدم الإضرار به، ذهب إلى الحمار وساقه إلى شفا حفرة عميقة وزور الكلام حتى أنزله بها، فلما رأى الأسد أن الحمار غير مفلت قبض على الثعلب لوقته، وكر على الحمار عند الفرصة".¹

ونموذج آخر:

القرن المكسور

بذل راع للغنم جهده ليسترد معزًا شريدًا، وطالما صفر ونفخ في القرن، ولكن المعز لم يلتفت إليه. فرمى إليه حجرًا أصاب قرنه وكسره، فقال له الراعي: لا تخبر السيد بذلك، فأجابه المعز: يا لك من غرير، ألم تر أن القرن المكسور يصرخ وإن سكت".²

يبدو بعد قراءة هذه العبارات أن الشيخ الفراهي رحمه الله قد راعى مستوى الدارسين في ترجمة الكتاب الإنكليزي إلى اللغة العربية، واختار فيها أسلوبًا سهلًا وبديعًا، ومع هذا يريد أن يُعلم الطلبة القيم الخلقية النبيلة من دروس هذا الكتاب أيضًا.

أسباق النحو:

أسباق النحو كتاب في علم النحو والصرف ألّفه الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى وقامت بنشر طبعته الأخيرة مكتبة الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائر مير، أعظم كره في عام 2001م. ويحتل هذا الكتاب مكانة سامية بين الكتب الأخرى التي ألّفت في اللغة الأردية في الهند. وإن هذا الكتاب مفيد وسهل للطلاب الناشئين، ولذلك أدخلته بعض المدارس الإسلامية في مقرراتها الدراسية.

¹ نفس المصدر، ص13.

² نفس المصدر، ص20.

وما شك في أن الشيخ الفراهي رحمه الله قضى معظم حياته في تدريس اللغة العربية وأدائها وإن هذا من الممكن أنه واجه مشاكل خلال تدريس علم النحو والصرف فأراد أن يؤلف كتابًا في أسلوب سهل وأنيق، ويستطيع الطلاب من هذا الكتاب فهم القوائد المشكلة لعلم النحو والصرف

وأراد الشيخ الفراهي رحمه الله أن يؤلف كتابًا في اللغة العربية، وبدأ تأليفه وسمّاه بـ"الدر النضيد في النحو والجديد" ولكن لم يكمله وهو موجود مخطوطًا بين كتبه الأخرى. ولكن حينما وجد الشيخ الفراهي رحمه الله فرصة تأليف الكتاب في علم النحو والصرف ألّف كتاب "أسباق النحو" في اللغة الأردية في أسلوب جديد وتدرجي وملائم لذوق الطلاب الناشئين، وراعى المؤلف أن يكون الكتاب نقيًا من التعقيد الذي يواجهه الطلاب خلال دراسته في علم النحو والصرف عامة في شبه القارة الهندية. يكتب الشيخ الفراهي رحمه الله أنه قسم الكتاب في ثلاثة أجزاء ويقول إن الجزء الأول يشتمل على مباحث النحو وهو يحتوي على ثمانية عشر درسًا، ويشتمل الجزء الثاني على مباحث الصرف، ولكن لم يذكر عدد دروسه، ويذكر في الجزء الثالث مباحث الحروف. ولكن بعد دراسة الكتاب نصل إلى نتيجة أن الشيخ رحمه الله لم يكتب الجزء الثالث منفردًا بل هو موجود بين مباحث النحو والصرف حسب الاحتياج.

ونجد بعد قراءة الكتاب أن المؤلف يركز على أساس الإعراب على اختلاف الأحوال، ويقدم الأمثلة بدلًا من التعريفات، وإن هذه الطريقة التي نسميها الطريقة التطبيقية وهذه الطريقة رائجة في البلدان العربية، ولذلك نجد أن الطالب العربي لا يُخطئ في الإعراب لأنه يتعلم اللغة العربية من هذه الطريقة التي يقدم فيها المدرس الأمثلة خلال تدريس النحو. ولكن مع هذا هذه حقيقة أيضًا أنه لا يقدر على بيان تعريفات القوائد النحوية والصرفية مثل الطلاب الهنود، ولكن هذه الطريقة مفيدة جدًا للطلاب.

نريد أن نقدم بعض نماذج دروس الشيخ الفراهي رحمه الله كيف يقدم دروس النحو أمام الطلبة.

هذا درس المجورين. الأول عن طريق حروف الجر، والثاني المضاف إليه، يكتب الشيخ حروف الجر وهي: في، على، من، إلى، عن، حتى، منذ، مذ، ب، ت، و، ل، ك. ولا يكتب المؤلف بعد كتابة هذه الحروف شيئاً بل يكتب الأمثلة فقط، ويترك على المدرس أن يفهم الطلبة من هذه الأمثلة. وهذه الأمثلة كما يلي:

"سعيد ورشد ذاهبان لتجارة من قرية إلى مدينة. سعيد جالس في عجلة ورشيد راكب على جمل. عامر وعمير مشغولان بالزراعة، سالم وسليم مريضان منذ شهر. هاشم غني كحاتم. لرشيد شغل حتى العشاء. طالب مولع بالقصص حتى الخرافات".¹ وكذلك يكتب الشيخ الفراهي رحمه الله المنصوبات الستة وهي: 1- الظرف، 2- الحال، 3- التمييز، 4- المفعول به، 5- العلة (المفعول له)، 6- المصدر (المفعول المطلق).

يكتب الشيخ الفراهي رحمه الله هذه العناوين فقط، ثم يكتب الأمثلة حسب الترتيب ولم يكتب القواعد مثل المؤلفين الآخرين، ويترك على المدرس أنه يدرس الطلبة القواعد في الفصل في ضوء الأمثلة التي كتبها، وهكذا يستطيع الطلبة أن يفهموا القواعد بالأمثلة في الفصل. نريد أن نذكر نموذجاً لظروف الزمان:

"1-ظرف

(أ) ظروف الزمان:

زيد مشغول ليلاً و نهائاً. سالم مسيح بكرةً وعشيّاً. سليم قادم اليوم صباحاً أو مساءً. سعيد ذاهب غداً. عامر مسافر غداً غد. سلمان مرتحل بعد غد. الأستاذ فارغ الآن. الأطفال حاضرون الساعة.

¹ العلامة عبد الحميد الفراهي، أسباق النحو، الجزء الأول والثاني، مكتبة الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، 2001م، ص 20.

(ب) ظروف المكان:

حامد مع زيد. سليم عند خالد. بيت وحيد دون بيت سعيد. دكان عامر وراء المسجد. بيت رشيد إزاء بيت حميد. أمام بيت سليم شجرة طويلة. فوق الشجرة طائرة جميل، وتحت الشجرة بقرة سمينة. وسط المسجد حوض مربع. كتاب سعيد فوق الطاولة¹.

ومع هذا نرى في الكتاب أن المؤلف يكتب بعض القواعد خاصة قاعدة أسباب منع الصرف بقدر من التفصيل.

وأما الجزء الثاني للكتاب فهو يحتوي على علم الصرف. ويكتب المؤلف في البداية القواعد الأساسية بما فيها الاشتقاق مع تعريفه، ويذكر معه المادة الأصلية. ثم يكتب الكلمات والأوزان والحروف الزوائد. ثم يقسم الأفعال حسب عدد حروف المادة من الثلاثية والرباعية، ويقسم الأفعال في المجرد والمزيد فيه، ويذكر الثلاثي المجرد والثلاثي المزيد فيه، والرباعي المجرد فيه ويكتب تفاصيلها.

وما شك في أن الشيخ الفراهي رحمه الله يذكر القواعد الصرفية مثل المؤلفين الآخرين، ولكنه يتميز عن الآخرين في بعض الأمور مثلاً يكتب مؤلفو علم الصرف في اللغة الأردنية والإنكليزية في الهند تصريف الأفعال مع أربع عشرة صيغة للفعل الماضي والفعل المضارع ويكتب هكذا التصريف:

تصريف الفعل الماضي

كتب	كتبا	كتبوا
كتبت	كتبنا	كتبن
كتبت	كتبتما	كتبتم
كتبت	كتبتما	كتبن
كتبت	كتبنا	

¹ نفس المصدر، ص 22.

تصريف الفعل المضارع

يكتبون	يكتبان	يكتب
يكتبن	تكتبان	تكتب
تكتبون	تكتبان	تكتب
تكتبن	تكتبان	تكتبين
	نكتب	كتب

بينما الشيخ الفراهي رحمه الله يختار طريقة أخرى لكتابة تصريف الفعل الماضي والمضارع، ويكتب هكذا تصريف الفعل الماضي:

فعلت	فعلت	فعلت	فعلت	فعلت	"المفرد: فعل
فعلنا	فعلتما	(للمذكر والمؤنث)	فعلتا	فعلتا	المثنى: فعلا
فعلنا	فعلتم	فعلتن	فعلن	فعلوا	الجمع: فعلوا

تصريف الفعل المضارع

أفعل	تفعلين	(للمذكر والمؤنث)	تفعلي	يفعل	المفرد: يفعل
نفعل	تفعلان	(للمذكر والمؤنث)	تفعلا	يفعلان	المثنى: يفعلان
نفعل ¹	تفعلون	تفعلون	تفعلون	يفعلون	الجمع: يفعلون

هذا هو الفرق بين تصريف الشيخ الفراهي رحمه الله والمؤلفين الآخرين، وقد اختار الشيخ الفراهي رحمه الله هذه الطريقة لكي يحفظ الطلاب التصريف في الكلمات القليلة ويعرفوا الصيغ المشتركة في التصريف.

¹ نفس المصدر، ص 68.

يكتب الشيخ الفراهي رحمه الله أولاً صيغ المفرد ثم المثنى وفي الأخير الجمع بينما يكتب المؤلفون الآخرون صيغ الغائب أولاً ثم الحاضر وبعد ذلك المتكلم، وكما يترك الشيخ الفراهي رحمه الله الصيغة المشتركة التي تُستخدم في المثنى في جميع التصارييف.

وكذا يختار الشيخ رحمه الله طريقته في تصريف فعل الأمر الحاضر أيضاً.

وهذه حقيقة أن المؤلف رحمه الله يريد أن يقدم القواعد النحوية والصرفية في أسلوب سهل أمام الدارسين لكي يفهموا القواعد ويتعلموا اللغة العربية.

وكتب الشيخ الفراهي رحمه الله كتاباً آخر في علم النحو اسمه "تحفة الإعراب" وكتب المؤلف هذا الكتاب في الشعر الأردّي على طريقة "الألفية" لابن مالك، وجمع الشيخ رحمه الله القواعد الأساسية لعلم النحو، يشتمل هذا الكتاب على 128 بيتاً كما قرأت في بعض البحوث التي كُتبت حول حياة الشيخ الفراهي رحمه الله وكتبه، وما وجدت هذا الكتاب، بل رأيت بعض نماذجه الشعرية فقط، ولذلك اكتفي بالإشارة إليه.

وبعد دراسة الكتابين "أمثال آصف الحكيم" و"أسباق النحو" نصل إلى نتيجة أن الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله قد ساهم مساهمة فعالة في ترويح اللغة العربية في الهند، وعرض أسلوباً سهلاً وأنيقاً لتعليم اللغة العربية في الهند، ونال كتاباه مكانة مرموقة بين الدارسين في الهند.

المصادر والمراجع

- 1- الدكتور أرنك زيب أعظمي، الإمام عبد الحميد الفراهي وكتابه "جمهرة البلاغة"، www.alukah.net.
- 2- الدكتور عرفات ظفر، العلامة حميد الدين الفراهي أديباً ومفسراً، مجلة البعث الإسلامي، المجلد الثالث والخمسون، العدد العاشر، يوليو 2008 م.
- 3- الدكتور محمد فريد راوي بن عبد الله، الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، دار الشاكر للطباعة والنشر والتوزيع، سلانجو، ماليزيا، د.ت.
- 4- الدكتور محمد يوسف الشريجي، الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد العشرون، العدد الثاني، عام 2004 م.
- 5- شوكت أحمد صوفي، الإمام عبد الحميد الفراهي حياته ومؤثره، مكتبة إحسان، مدينة لكاناؤ، ط1، 2015 م.
- 6- العلامة عبد الحميد الفراهي، أسباق النحو، الجزء الأول والثاني، مكتبة الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، 2001 م.
- 7- المعلم عبد الحميد الفراهي، أمثال آصف الحكيم، مكتبة الدائرة الحميدية، سرائ مير، أعظم كره، 1985 م.

الإمام عبد الحميد الفراهي نحوياً

-د. أبو ذرمتين¹

كان الإمام عبد الحميد الفراهي (ت 1963 م) أعظم عالم أنجبته الهند في القرن التاسع عشر والقرن العشرين على الإطلاق، وهو من أكبر علماء الإسلام وممن قل نظيره في العلماء المتأخرين، وكان عالماً بارعاً في التفسير وعلومه ومعروفاً بعلو كعبه في الفلسفة القديمة والحديثة، وباطلاعه الواسع على الصحف السماوية، وكان رائداً في البلاغة والنحو، وناقداً جريئاً مستقل الفكر، وأديباً واسع الاطلاع، وكاتباً متفنناً وشاعراً قديرًا ومفسراً عظيماً ومحققاً جليلاً، وكانت خدماته النيرة في مجالات هذه العلوم والفنون مسلمة لدى الأوساط العلمية والدينية، ولكن العلم الذي غلب عليه وهو علم القرآن الكريم ودراسته، فقد غلب عليه هذا الذوق بكل من العلوم والفنون، وجعله المحور الرئيسي لجميع أعماله العلمية والأدبية والدينية، وأنه شرع في تدبره وتفكره أيام طلبه في كلية علي كره ووقف نحو أربعين ربيعاً من عمره لتدبر القرآن الكريم وتحقيق مفرداته وأساليبه ومعانيه والغوص في أسرارهِ ومعارفه، واكتشف منهجاً جديداً ممتازاً في التفسير وعلومه.

فقد صنف لهذا الغرض النبيل كتباً قيمة تدل على مثابرة الفراهي ومداومته على التصنيف والتأليف مع عمق فكره ودقة بصره على القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى وقدرته الرائعة على الأدب العربي من النثر والشعر والبلاغة والنقد، حتى بلغ مجموعها 51 مطبوعة ومخطوطة ومن بينهم كتاب "أسباق النحو" و"تحفة الإعراب" وهما يحتلان مكاناً مرموقاً بين الكتب التي ألفت في اللغة الأردنية، لا شك في

¹ مدرس ضيف، قسم اللغة العربية وأدائها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

أن كتاب "أسباق النحو" أسهل وأنفع كتاب للمبتدئين بين الكتب التي ألفت في علم النحو والصرف، ويبدو منه أن للأستاذ الفراهي مكانة رفيعة في علم النحو والصرف، وحينما نطالع أعماله بهذا الصدد فليس لنا إلا الاعتراف بعلو كعبه في هذا الفن بين العلماء الهنود وغيرهم من علماء العالم العربي.

قد قضى معظم حياته في تدريس اللغة العربية وآدابها وتعليم قواعد النحو والصرفية، فواجه المشاكل العديدة في تدريس علوم اللغة العربية خاصة في تدريس قواعد النحو والصرف، وأحس بحاجة شديدة إلى كتاب جديد على منهج جديد في الفن المذكور لكي يسهل به قواعد النحو والصرف ويفهم الطلاب المبتدئون أصولهما ومبادئهما بكل سهولة ووضاحة ويحفظوهما بدون أي صعوبة، ويقدرُوا على أن يقرأوا اللغة العربية ويكتبوها صحيحاً في وقت قليل، فلذلك أراد أن يؤلف كتاباً مفصلاً باللغة العربية في علم النحو وسماه "الدر النضيد في النحو الجديد" وبدأ تأليفه ولكن لم يكتمله ولا يزال هذا مخطوطاً بين كتبه الأخرى.

لا يمكن لنا أن نعلم لأي أسباب لم يكتمله حتى يشعر بذلك أن أموره العلمية الأخرى لم تمنح الفرصة أن يكتمل "الدر النضيد في النحو الجديد" على ما يريد، فأراد أن يلخصه فألف أسباق النحو باللغة الأردية بمنهج جديد، ونقى من المشاكل والتعقيدات العامة التي يواجهها الطلاب في التدريس، لفهم قواعد النحو والصرف وتتطلب جهداً كبيراً ومدة طويلة من الطلاب لفهمهما وحفظهما كما اعترف الفراهي بهذا الصدد يؤيد هذه النظرية بأن "أسباق النحو" مأخوذ من النحو الجديد¹ وأغلب الظن هنا يراد بالنحو الجديد "الدر النضيد في النحو الجديد". قد صدر أسباق النحو في جزئين في بداية الأمر، كما يظهر من تعليق الأستاذ الشاه معين

¹ أسباق النحو (الأول والثاني) للعلامة حميد الدين الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، 2001م (مقدمة)

الدين أحمد الندوي (1903-1974م)¹ عليه في مجلته الغراء "معارف" يوليو 1937م، ولكن لا نعلم في أي سنة صدر هذان الجزءان في جزء واحد.

هذا الكتاب نال شهرة كبيرة بين الأوساط العلمية لمنهجه الجديد وأسلوبه النقي حتى قُدر في المقررات الدراسية في المدارس العربية المختلفة في الهند، واستفاد الطلاب منه كل استفادة فنستطيع أن نقول أن الأستاذ الفراهي قد حصل بالكتاب المذكور على أكثر من أهدافه من كتاب "الدر النضيد".

كتب الأستاذ الفراهي في مقدمته أنه قد قسم هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء، لكنه اكتفى على ذكر الاسم والفعل ولم يذكر الحروف بأن جاء ذكره بين مباحث الاسم والفعل.

بين الأستاذ الفراهي طريقة تأليفه في مقدمة الكتاب بأنه قد يراعى في هذا الكتاب أن يتعلم الطالب بقدر حاجته من النحو بسهولة حتى يقدر على قراءة الكتب العربية والكتابة باللغة العربية، وكما أظهر أنه أراد بالنحو في هذا الكتاب بمعناه الواسع يشتمله الصرف أيضاً.

كان الأستاذ الفراهي قسم الكتاب في ثلاثة أجزاء، فذكر أن الجزء الأول يحتوي على مباحث النحو وفيه ثمانية عشر درساً والجزء الثاني يشتمل على مباحث الصرف لكن لم يذكر عدد دروسه، وفي الجزء الثالث يذكر الحروف لكن حينما ندرس هذا الكتاب فنجد أنه لم يؤلف الجزء الثالث منفرداً بأن الحروف قد ذكرت بين مباحث النحو والصرف.

¹ ولد في رودولي في باره بنكي (يوبي، الهند) وتوفي في أعظم كره، كان عالماً ومؤرخاً ومديراً لدار المصنّفين بأعظم كره، ورئيس التحرير لمجلتها "معارف"، ومن مؤلفاته المشهورة في اللغة الأردية "تاريخ إسلام" (جزآن)، "مهاجرين"، "تابعين"، "أدبي نقوش" وغيرها. راجع لترجمته ومصادرهما: بيسوي صدي (نصف أول) ك أردو مصنفين، للدكتورة سنجيده خاتون، ص 446

ركز الأستاذ الفراهي في هذا الكتاب على أمرين مهمين، وهما أساس الإعراب على اختلاف الأحوال ليس على العوامل وذكر الأمثلة بدل التعريفات بأن هي فطرة الإنسان هو يتعلم من الأمثلة بطريق أسهل، وهما الأمران ميزتان لهذا الكتاب.

بعد تقديمه للكتاب ذكر الأمور الابتدائية للغة العربية مثلاً حروف الهجاء، الحركات وطريقة كتابة اللغة العربية وبعد ذلك يبدأ الكتاب.

إن الجزء الأول من الكتاب يبحث عن علم النحو ويحتوي على ثمانية عشر درساً.

الدرس الأول: علم النحو:

ذكر فيه تعريف علم النحو والكلمة والكلام وأقسام الكلمة، الاسم والفعل والحرف.

الدرس الثاني: أحوال الاسم المختلفة:

ذكر فيه أحوال الاسم المختلفة من الرفع والنصب والجر بكل وضاحة وسهولة.

الدرس الثالث:

يشتمل هذا الدرس على الإعراب، المعرب والمبني مع تعريفاتهم.

الدرس الرابع:

يبحث فيه عن أحوال الإعراب المختلفة بالحركة، مثلاً الرفع والنصب والجر والتنوين وبالمعنى مثلاً أن، وُنَ، يُنَ، وذكر فيه أقسام الاسم مع إعرابه وأشكاله الثلاثة حركة ومعنى.

الدرس الخامس:

ذكر فيه الإعراب من الثقيل والخفيف ومواقع التخفيف الثلاثة.

الدرس السادس:

ذكر فيه المعربات الأصلية وهي عشرة: اثنان من المرفوع: المسند إليه (المبتدأ) والمسند (الخبر) واثنان من المجرور بواسطة حرف الجر والمضاف إليه، وستة من المنصوب، الظرف والحال والتمييز والمفعول (المفعول به) والعلة (المفعول له) والمصدر (المفعول المطلق) مع أقسامهم وأمثلتهم

الدرس السابع: المعربات المشككة:

ذكر فيه خمسة أقسام للمعربات المشككة مثلاً الكلمات المنصوبة بالحروف المشبهة بالفعل، ولا لنفي الجنس، والمستثنى والمنادى العام بذكر أمثلتها.

الدرس الثامن:

إعراب المثنى وجمع المذكر السالم

الدرس التاسع: غير المنصرف:

ذكر فيه تعريف كلمة غير منصرفة وأقسامها الخمسة مع الأمثلة، كما ذكر فيه تغيير كلمة غير منصرفة إلى كلمة منصرفة وأشكالها الستة مع الأمثلة.

الدرس العاشر: مبدل الإعراب:

يراد به تبديل حالة الإعراب بحرف الياء والواو حينما ارتبطت بأي كلمة فذكر سبعة أقسام فيهن تتغير حالة الإعراب بارتباط حرف الياء والواو مثلاً كتاب: كتابي.

الدرس الحادي عشر: الاسم المبني:

قسم فيه الأسماء المبنية إلى اثنين: لم يظهر إعرابها، ولكن يتأثر بالأحوال وهي الضمائر، ولم يتأثر بالأحوال المختلفة وهي الإشارات والموصولات وغيرهما.

الدرس الثاني عشر:

ذكر فيه القسم الأول إلى الضمائر من الاسم المبني وأحوالها المختلفة من الرفع والنصب والجر مع الأمثلة.

الدرس الثالث عشر:

ذكر في القسم الثاني من الاسم المبني وأقسامه السبعة مع الأمثلة من الإشارات والموصولات والاستفهامات والمخففات والظروف والمركبات والشروط وأقسامهن مثلاً قسم الإشارات إلى القريب والبعيد والموصولات إلى الموصولات الخاصة والموصولات العامة.

وذكر في هذا الدرس تعريفاً لبعض القسم للوضاحة ولم يذكر القسم السابع (أي الشروط) بأنه يختص بالفعل فيذكر في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

الدرس الرابع عشر:

ذكر الأستاذ الفراهي في الدرس الأعداد الباقية بأنه ذكر الأعداد بين العشرة والعشرين في الدرس الثالث عشر.

الدرس الخامس عشر:

ذكر فيه أحوال الاسم غير الإعراب، وسمّاها كيفية الاسم وقسمها إلى اللازم والمتعدي مع تعريفهما وذكر الأستاذ ثلاثة أحوال للاسم اللازم والاسم المتعدي، مع تعريفها بالترتيب كما يلي:

التصغير والترخيم والنسبة، الوسعة، والعدد، والجنس، وذكر أمثالها في الدروس الآتية.

الدرس السادس عشر:

ذكر الأستاذ الفراهي فيه الأحوال (يسمّيها الكيفيات) اللازمة الثلاث وصرح القواعد كلها وتفهيماً أسهل بالأمثلة، فذكر الأمثلة لكل حالة لازمة، فبين أولاً أصل الكلمة فبعد ذلك يذكر التصغير والترخيم والنسبة.

الدرس السابع عشر:

ذكر فيه الأستاذ الفراهي الأحوال المعتدية الثلاث، فأولاً ذكر الوسعة مع ذكر تعريف المعرفة وأقسامه الخمسة من العلم والضمير والإشارة والمعرف باللام والمضاف إليه مع ذلك أمثلة المطابقة بين المعرفة والنكرة ومواقع المعرفة والنكرة، ثم ذكر العدد ويراد به الواحد والمثنى والجمع، وذكر فيه بعض القواعد وقال: قد مر ذكر جمع المذكر السالم، فلذلك يكتفي بذكر الأوزان المعروفة للجمع المكسر. ذكر في هذا الدرس عشرة الأوزان المعروفة للجمع المكسر مع الأمثلة، وبعد ذلك بحث عن الجنس وذكر فيه قسمين للمؤنث أي المؤنث الحقيقي والمؤنث اللفظي وقسم المؤنث اللفظي إلى المؤنث القياسي مع ذكر علاماتها والمؤنث السماعي وذكر الأمثلة لكل فيها:

الدرس الثامن عشر:

المادة والوزن، ذكر فيه أولاً تعريف المادة والوزن مع الأمثلة وبعد ذلك قسم المادة إلى اثنين، المادة الاسمية من التي ينشق الاسم فحسب، وهو يقال الجامد والمادة الفعلية من التي ينشق الفعل وصوره المختلفة.

وأما الجزء الثاني لهذا الكتاب فبحث الأستاذ الفراهي فيه عن الصرف بالتفصيل، ولكن اكتفى بذكر العناوين ولم يصرح أرقام الدروس، فذكر أولاً الاشتقاق مع تعريفه وذكر معه المادة الأصلية وبعد ذلك ذكر ألفاظ والأوزان والحروف الزوائد، ثم قسم الأستاذ الفراهي الفعل حسب عدد حروف المادة من الثلاثية والرباعية وقسمها في المجرد والمزيد مع وضاحتها، وأتى بالثلاثي المجرد والثلاثي المزيد فيه والرباعي المجرد فيه، وبعد ذلك يقول هذه الأقسام الأربعة تنقسم في الأقسام العديدة تسميها الأبواب.

يقول تحت هذا العنوان "المشتقات الفعلية" تخرج من المادة خمسة مشتقات من الماضي والمضارع والأمر وذو الفعل (لعل يراد به اسم الفاعل) واسم الفعل ويراد

به المصدر وبعد ذلك صرح بالمشتقات المذكورة التي توجد في جميع الثلاثيات والرباعيات ولكن تخرج خمسة مشتقات من الثلاثي المجرد، وهي المبالغة والصفة والمفضل (يراد به اسم التفضيل) والظرف واسم الآلة وفي البحث المذكور ذكر الأوزان ولكن لم يذكر الأمثلة.

بعد ذلك قسم الفعل بحسب المعنى في اللازم والمتعدي والمعروف والمجهول مع تعريفها بالإيجاز، وفي هذا المبحث صرح بقسم من ذو الفعل أيضاً في المعروف والمجهول بذكر الأصول التي فيها جعل الفعل المعروف إلى المجهول.

ثم ذكر الستة من أبواب الثلاثي المجرد مع ذكر خاصية باب كرم بأنه لازم دائماً. وبعد ذلك ذكر صرف الكلمة بالتفصيل من الماضي والمضارع المعروف وأقسامه (أي المضارع) الأخرى من الأخف والخفيف والأثقل والثقل بالوضاحة مع تغييرات التي توجد في آخر المضارع وتسميه بحسب التغييرات.

بعد ذلك ذكر فعل الأمر وأصوله وقواعده مع الصرف الأصلي والأثقل والثقل بالتفصيل.

وذكر في هذين المبحثين وزن يفتح، يضرب، وينصر بالتمرينات، ثم ذكر استعمال الأفعال من الماضي والمضارع والقواعد المتعلقة بهما بالتفصيل، ويراد به حينما أدخل بعض الكلمات مثلاً "ما"، "إن"، "قد"، "لم"، "لا"، "س"، "سوف" وغير ذلك على الماضي والمضارع فلم تتغير صورتها الظاهرية، بل يوجد تغيير في معناهما.

بعد ذكر صرف ذو الفعل (اسم الفاعل) بحسب المعروف والمجهول، ذكر اسم الفعل أي المصدر وأوزانه المعروفة، وبعد ذلك بين الأوزان العامة للمبالغة والصفة والمفضل (أي اسم التفضيل) والظرف (الزمان والمكان) والآلة.

نحن ننظر في هذا المبحث شيئاً جديداً بأن الأستاذ الفراهي كتب "أسباق النحو" باللغة الأردية ولكن حينما ذكر أوزان المفضل والظرف والآلة فلم يكتب شيئاً

باللغة العربية إلا عنوانهم، وبعد ذلك كتب كل شيء باللغة العربية مثلاً يقول "بعد ذكر عنوان المفضل وزنه أفعل وجمعه أفعلون وأفاعل والمؤنث فُعلَى وجمعه فُعلَيَات وفُعل"، وكذا نجد في المباحث المذكورة بأنه اكتفى على ذكر الأوزان على العموم ولم يذكر الأمثلة إلا قليلاً.

بعد ذلك ذكر أبواب الثلاثي المزيد فيه والرباعي المجرد والمزيد فيه مع الأمثلة، وبعده ذكر المشتقات الباقية من المضارع والأمر وذو الفعل واسم الفعل، وبعد ذلك ذكر جدول الصرف المختصر للثلاثي المزيد فيه والرباعي المجرد والمزيد فيه من المعروف والمجهول.

وبعد ذكر الأوزان الأصلية للمشتقات الفعلية ذكر الأوزان المبدلات بالتفصيل أي حينما جاءت الحركة أو السكون على أي حرف من الكلمة فيصعب نطقها فيتغير وزنه ويقال له الوزن المبدل.

بعد توضيح الوزن المبدل، قسم أصل الأوزان المبدلات إلى خمسة، 1- المثال 2- الأجوف، 3- الناقص، 4- المهموز، 5- المضاعف مع تعريفهم بالإيجاز، وصرح أن الأقسام الثلاثة الابتدائية تسمى بالمعتل.

بعد ذلك ذكر أصول التخفيف وأسسها على خمس قواعد وأوضحها بالأمثلة، ثم كتب الصرف من الأوزان المبدلات مع ذكر مشتقاتها الاسمية وطالب من التلاميذ أن يحفظوها حفظاً جيداً بعد كل الفهم.

وبعد ذلك ذكر صرف الأقسام الخمسة من المبدلات مع جميع صيغها ومع إبراز مواضع التعليل والتبديل فيها بالتفصيل وأوضحها بالأمثلة.

في هذه الدروس توجد التمرينات لكي يفهم التلاميذ قواعد التعليل والتخفيف بالسهولة ويسهل لهم أن يصرف بأي مادة من الأقسام الخمسة من الأوزان المبدلات.

بعد ذلك ذكر المبدلات المركبة للثلاثي المجرد أي حينما يجمع حرفا علة في أي كلمة وعلى سبيل المثال "وقى" وهو مثال وناقص معًا، وقسم المبدلات المركبة للثلاثي المجرد إلى ثلاثة أقسام:

1. المثال الناقص (يقال له اللفيف المفروق) أي يوجد تغيير باعتبار المثال والناقص كليهما.

2. الأجوف الناقص (يقال له اللفيف المقرون) يعتبر فيه الناقص حينما هو ليس مضاعفها.

3. الأجوف الناقص المضاعف: يعتبر المضاعف في كلمة الماضي والناقص وفي كلمة المضارع، بذكر لكل ثلاثة أقسام الأمثلة.

ثم ذكر المبدلات المختصة للثلاثي المجرد وأوضحه بأن يوجد بعض التغيرات في الكلمات الخاصة وذكر خمس كلمات على سبيل المثال.

وبعد ذلك ذكر أوزان المبدلات للثلاثي المزيد فيه ذكر صرف أقسامها الأربعة من المثال والأجوف والناقص والمهموز فحسب.

ثم ذكر المبدلات المختصة للثلاثي المزيد فيه مع الأمثلة، وذكر خاصية الأبواب بالتفصيل وهي صفة ممتازة لهذا الكتاب، بأن أكثر الكتب النحوية الرائجة تخلو منها، وبهذا الباب يستطيع الطالب أن يتعين أبواب الأفعال مع تحديد معانيها إلى حد كبير.

في هذا الباب ذكر أولاً خاصية الأبواب الثلاثية المجردة، فذكر الأبواب الستة الأصلية ثم ذكر خاصية الأبواب الثلاثية المزيد فيها، فذكر اثني عشر باباً وخاصيتها بالتفصيل مع الأمثلة، ومن قبله ذكر خاصية الأبواب فيبين الخاصية الأصلية لكل باب.

وبعد ذلك خاصية الأبواب الرباعية المجردة والمزيد فيها، فذكر أربعة أبواب وخاصيتهم مع ذكر الخاصية الأصلية لكل منها وأوضح كلها بالأمثلة.

حينما نطالع "أسباق النحو" ننتج إلى أن الفراهي ألف كتابًا مفيدًا سهلًا للطلاب المتبدئين، وبهذا الكتاب يستطيع الطالب أن يقرأ ويكتب بالعربية الصحيحة إلى حد كبير، ويقدر على أن يفهم الكتب العربية إلى حد ما، وهذا هو هدف الأستاذ الفراهي لتأليف هذا الكتاب، فبإمكاننا أن نقول بلا ريب أن الأستاذ الفراهي قد فاز فوزًا كبيرًا ونال كل أهدافه بهذا التأليف في مجال تعليم النحو والصرف.

ولكن مع ذلك كله يوجد بعض الفراغ، يجب أن يسد كما أشار إليها مجيب الله الندوي¹ "ويحتاج هذا الكتاب إلى أن يزين بمزيد من الحواشي والملاحظات، كما يحتاج إلى مزيد من الوضاحة في التعبير والتفهم"²، ولعل الأستاذ اختر أحسن الإصلاحي (1901-1958م)³ أحس بهذه الحاجة فكتب كثيرًا من الحواشي التي تضم في طباعة "أسباق النحو" التي صدرت في يناير 2001م.

وبالجملة أن هذا الكتاب أقرب منهجًا وأيسر سبيلًا للمتأدين والمتقنين الذين يريدون أن يعرفوا النحو العربي فضلًا عن طلاب المعاهد والكليات.

تحفة الإعراب:

إن الأستاذ الفراهي قد أحس بشدة المشاكل النحوية التي يواجهها الطلاب المبتدئون في أثناء تدريسه فأراد أن يرتب النحو على طراز جديد وسهل أيسر، فبدأ يؤلف

¹ هو أستاذي ومشرفي ومؤسس مدرسة جامعة الرشاد، بأعظم كره، كان عالمًا بارعًا وفقيرًا، سياسيًا ورئيس التحرير لمجلة "الرشاد" بأعظم كره، الهند.

² راجع للتفصيل: مجلة معارف بأعظم كره، المجلد 95، العدد 4، يونيو 1965م، ص 478

³ ولد في قرية أملوجكيا من قرى أعظم كره وتعلم في مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، وهو من تلامذة الفراهي الذين حملوا لواء فكر أستاذه، وله مقالات معدودات في تفسير بعض الآيات القرآنية، التي نشرت في مجلة "الإصلاح"، وأنه وقف حياته لخدمة مدرسة الإصلاح، حسب المنهج الذي رسمه له أستاذه المرحوم، راجع لسيرته: شيدك قرآن للدكتور محمد عنايت الله سبحاني، إداره إحياء دين، بلرباغنج، أعظم كره، الطبعة الثانية، 2000م

كتابًا مفصلاً باللغة العربية، لكن لم تمنحه المشاغل العلمية الأخرى الفرصة لإكماله حسب نهجه، فلخصه باللغة الأردية وسماه "أسباق النحو" ولكن لم يكتف على هذا بل أراد أن يسهل علم النحو مزيداً، فنظم قواعد النحو في اللغة الأردية على طراز الألفية لابن مالك وسماه "تحفة الإعراب" لكي يحفظه الطلاب المبتدئون، فسهل لهم كل السهل، وأحاط فيها بالمسائل النحوية الأساسية.

إن "تحفة الإعراب" تشتمل على 128 بيتاً، وقسم الأستاذ الفراهي تلك الأبيات المذكورة في تسعة عشر درساً مع التقديم كما يلي:

تحفة الإعراب (تقديم) تعريف الإعراب، المراتب الثلاثة للاسم، صورة الإعراب المختلفة، المواقع المختلفة للإعراب، خمسة أقسام لأسماء غير منصرفة، المعربات العشرة الأصلية (بحث فيه عن المرفوعات)، المنصوبات الستة، المجرورات، التوابع الخمسة، المعربات الخمسة المأولة، واسم الحروف المشبهة بالفعل، خبر الأفعال الناقصة، حالة المنادى، والتعجب منه والمستغاث والمندوب، توابع المنادى، المستثنى، اسم لاء لنفي الجنس، توابع المسند المبني بعد لاء النصب والحذف، في تقديم الكتاب ذكر الأستاذ الفراهي سبب تأليف "تحفة الإعراب" فيقول:

بعد تسمیح خالق اکبر اور تسلیم فخر جنّ و بشر
پیش کش ہے یہ تحفۃ الاعراب تا کریں اس کو مبتدی ازبر
قدماء کا تھا راستہ دشوار بیٹھ جاتا تھا راہرو تھک کر
راہ تاریک اور منزل دور اور پھر ہر قدم پہ اک ٹھوکر
اب ہے اعراب کی نئی تعریف اور ترتیب فن بطرز دگر
فعل اعراب سے ہوئے آزاد اور عوامل ہیں سارے شہر بدر

فن میں اب کوئی پیچ و خم نہ رہا راہ مشکل رہی نہ طول سفر¹
 ذكر الأستاذ الفراهي المسائل النحوية بأبيات سهلة في "تحفة الإعراب" فيسهل
 للطلاب أن يفهموها وعلى سبيل المثال يذكر تعريف الإعراب في الدرس الثاني:

گرچہ ابوابِ نحو اور بھی ہیں ایک اعراب ہے مقدم تر
 ہے یہ تعبیر آخر اسماء اسم کا رتبہ جس سے آئے نظر
 کثرت مرتبہ ہے خاصہ اسم فعل و حرف اس سے ہیں بری یکسر²
 ويذكر المراتب الثلاثة للاسم هكذا:

رفع ہے رتبہ مدار سخن جس پہ ہے گفتگو میں اصل نظر
 نصب ہے رتبہ ان زوائد کا جو کہ بے واسطہ ملیں آکر
 جر ہے ان زائدات کا رتبہ جو کہ ہوں حرف جر کے دست نگر
 ہیں یہی تین اسم کے رتبے رفع پھر نصب پھر ہے رتبہ جر
 نام اعراب بھی یہی ہیں تین تا علامت ہو اصل شئی کی خبر³
 انظر كيف يذكر الصور المختلفة للإعراب:

گرچہ ہیں تین قسم پر اعراب ہیں وہ چودو باختلاف صور
 * پھر اُن اور اِن اُن اور اُن دیکھ لو گن کر

¹ راجع: تحفة الإعراب للشيخ حميد الدين الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ

میر، أعظم کرہ، 1411ھ، ص 7

² راجع: المصدر السابق، ص 5

³ راجع: المصدر السابق، ص 5

سات ہیں سب ثقیل پر یہ خفیف
 آل سے ہوتے ہیں تین پہلے خفیف
 یا علم متصف بابن مضاف
 ہوں گے، آخر کی نون گرا دو اگر
 اور اضافت سے سب کے سب یکسر
 بعلم جیسے عامر بن عمر¹
 یذکر المنصوبات الستة كما يلي:

چھ ہیں منصوب حال اور مفعول
 ظرف وتمیز وعلت ومصدر
 جیسے المرء سائر عَجَلًا
 یا کہ الشَّيْخُ قَاطِعُ شَجَرًا
 یا کہ زَيْدٌ مُسَبِّحٌ سَحَرًا
 یا کہ عِشْرُونَ خَادِمًا عِنْدِي
 یا کہ الْغُلْفُ مُطَرِّقٌ خَجَلًا
 یا کہ ذَا الْمَرْءِ ذَاهِبٌ سِرًّا
 ہے شتاہاں یہ مرد راہ سپر
 یعنی بوڑھا یہ کاٹتا ہے شجر
 زید تسبیح خواں ہے وقت سحر
 یعنی ہیں بیس میرے یاں نوکر
 شرم سے سر گلندہ ہے یہ پسر
 جانے والا وہ مرد ہے چھپ کر²
 ویذکر المجرورات هكذا:

دو ہیں مجرور اک مضاف الیہ
 فی علی، من الی عن حتی
 جیسے بیت الرشید فی جبل
 یا کہ منی الی الحیب سلام
 دوسرا حرف جر لگے جس پر
 و، ب، ت، منذ، ک ہیں حرف جر
 یا علیہ من السماء مطر
 یا کہ مالی عن الرقیب مفر

¹ راجع: المصدر السابق، ص 6

² راجع: المصدر السابق، ص 8-9

العدد الخاص مجلة الهند

يا كه حتى العشاء لي والله شغل بالأمور منذ سحر
يا كه بالله ثم تالله ما بدا المصر كالسعيد بشر¹
وبالجملة أن الأستاذ الفراهي قد أحاط بالمسائل النحوية الأساسية في هذا الكتاب
الصغير الحجم، وعرضها أمام الطلاب المبتدئين في أسلوب سهل ممتاز، ولا شك
أنه كتاب جيد، بمواضيع منسقة ولغة سهلة، وبعبارة رشيقة أنيقة، وهو يختار
اللغة الأردنية بألفاظ حلوة جذابة، ويجتنب الكلمات العويصة الوحشية الصعبة
المعنى. ويختتم هذا الكتاب على الدعاء التالي:

يا اى يه تحفه هو مقبول هه دعائى فراهى مضطر²

¹ راجع: المصدر السابق، ص 9

² راجع: المصدر السابق ص 15

إسهامات عبد الحميد الفراهي في إعراب القرآن

- أبو الأعلى السيد بن محمد عناية الله¹

أهمية علم إعراب القرآن: هل إعراب القرآن علم مستقل أو هو جزء من علم التفسير أو جزء من علم النحو؟ إنه سؤال اختلفت فيه الآراء، إلا أن العلماء اتفقوا على أهمية هذا العلم.

ولقد أعرب علماء التفسير عن أهمية إعراب القرآن ومكانته في تفسير القرآن وشرح الدين منذ قديم، وأولوا اهتمامًا كبيرًا. يقول مكي بن أبي طالب (المتوفى 437هـ):

"وَرَأَيْتُ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَجِبُ عَلَى الطَّالِبِ لِعُلُومِ الْقُرْآنِ الرَّاعِبُ فِي تَجْوِيدِ أَلْفَاظِهِ وَفَهْمِ مَعَانِيهِ وَمَعْرِفَةِ قِرَاءَاتِهِ وَلِغَاتِهِ وَأَفْضَلُ مَا الْقَارِئُ إِلَيْهِ مُخْتَارُ مَعْرِفَةِ إِعْرَابِهِ وَالْوُقُوفُ عَلَى تَصْرِفِ حَرَكَاتِهِ وَسَوَاكِنِهِ يَكُونُ بِذَلِكَ سَالِمًا مِنَ اللَّحَنِ فِيهِ مُسْتَعِينًا عَلَى أَحْكَامِ اللَّفْظِ بِهِ مُطْلَعًا عَلَى الْمَعَانِي الَّتِي قَدْ تَخْتَلَفَ بِاخْتِلَافِ الْحَرَكَاتِ مَتَفَهِّمًا لِمَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ إِذْ بِمَعْرِفَةِ حَقَائِقِ الْإِعْرَابِ تَعْرِفُ أَكْثَرَ الْمَعَانِي وَيَنْجِلِي الْإِشْكَالَ فَتُظْهِرُ الْفَوَائِدَ وَيُفْهَمُ الْخَطَابُ وَتَصِحَّ مَعْرِفَةُ حَقِيقَةِ الْمُرَادِ".²

ويقول ابن عطية الأندلسي (المتوفى 542هـ):

"إعراب القرآن أصل في الشريعة، لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع".³

قد جذب إعراب القرآن اهتمام العلماء في العصور كلها، فهناك كثير من التفاسير التي اعتنت عناية بالغة بالإعراب في القرآن، فقلما نجد تفسيرًا لم يذكر وجوه

¹ باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيودلهي

² مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب 1/63

³ تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. 40/1

الإعراب الكثيرة أو الوجه المختار، وهناك كتب خصصت بإعراب القرآن، وقد استقصى الدكتور مي فاضل الجبوري كتب إعراب القرآن حتى نهاية القرن السادس الهجري فاستطاع أن يذكر خمسة وعشرين كتابًا في رسالته العلمية.¹

على رغم الجهود المستمرة عبر القرون، وعلى رغم كثرة وجوه الإعراب الكثيرة والتوجيهات النحوية العديدة، فإن الحاجة إلى اكتشاف أقرب الوجوه في إعراب القرآن كانت وما زالت موجودة، ويدل على ذلك النقاش المستمر في كثير من المواضع في القرآن حول الوجه الصحيح المختار.

والجدير بالذكر أن علماء الهند - قديمًا وحديثًا - لهم إسهامات جليلة في مجال النحو القرآني وإعراب القرآن كما نجد عند علماء العرب. وإن الآراء الجديدة التي تفرد بها علماء الهند في مجال إعراب القرآن تنال التقدير والتقييم كما تستحق عندما تعرض على أهل التخصص في المجال نفسه.

عناية الإمام الفراهي بإعراب القرآن: إن عبد الحميد الفراهي رحمه الله (1863-1930 م) كان رجلًا عبقريًا ومفسرًا ملهمًا، وكان مؤسس مدرسة فكرية في دراسة القرآن وعلومه، وكان يمتاز عن علماء الهند بالتعمق الفكري والنظرة الثاقبة والاجتهادات القيمة في مجال القرآن وعلومه. وكانت له آراء قيمة حول النحو القرآني وإعراب القرآن. ويكفي هنا ذكر ما قاله العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله عن تبحره في القرآن وعلومه، يقول رحمه الله وهو يعرف بكتابته "إمعان في أقسام القرآن":

"وكان (الفراهي) رحمه الله آية من آيات الله في حدة الذهن وكثرة الفضل وسعة العلم ودمائة الخلق وسداد الرأي والزهد في الدنيا والرغبة في طلب مرضاة الله.....

¹ إعراب القرآن الكريم، دراسة في منهجية التأليف حتى نهاية القرن السادس الهجري، للدكتور مي فاضل الجبوري.

انقطع إلى تدبر القرآن ودرسه، والنظر فيه من كل جهة، وجمع علومه من كل مكان، فقضى فيه أكثر عمره، ومات وهو مكب على أخذ ما فات من العلماء، ولف ما نشره ولم ما شتته، وتحقيق ما لم يحققه. فكان لسانه ينبع علمًا بالقرآن وصدره يتدفق بحثًا عن مشكلاته. وقلمه يجري كشفًا عن معضلاته".¹

نماذج من آراء الفراهي حول إعراب القرآن: وقفت على مواضع كثيرة تفرد فيها عبد الحميد الفراهي بوجوه إعرابية لم أجدها عند أحد، وهي وجهة في نفس الوقت. وسأذكر بعض النماذج:

النموذج الأول: قال الله تبارك وتعالى في القرآن المجيد:

{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} (٧٩-٨٠)
{وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيكَ وَالنَّيِّسَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} (سورة آل عمران: 79-80)

فالإعراب لـ "ولا يأمركم" جاء بإشكالات وتساؤلات، وقد بين الشيخ السمين الحلبي هذه الإشكالات والتساؤلات بالتفصيل في كتابه "الدر المصون في علم الكتاب المكنون": "قوله تعالى: {وَلَا يَأْمُرُكُمْ}: قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بنصب «يأمركم» والباقيون بالرفع، وأبو عمرو على أصله من جواز تسكين الراء والاختلاس، وهي قراءة واضحة سهلة التخريج والمعنى، وذلك أنها على القطع والاستئناف، أخبر تعالى بأن ذلك الأمر لا يقع. والفاعل فيه احتمالان، أحدهما: هو ضمير الله تعالى، والثاني هو ضمير «بَشَر» الموصوف بما تقدم، والمعنى على عَوْدِهِ على «بَشَر» أنه لا يقع

¹ العلامة السيد سليمان الندوي، المعلم عبد الحميد الفراهي، مجلة الهند، يناير-ديسمبر

مَنْ بَشَر مَوْصُوفٍ بِمَا وُصِفَ بِهِ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ رَبًّا فَيُعْبَدَ، وَلَا يَأْمُرُ أَيْضًا أَنْ تُعْبَدَ
الملائكة والأنبياء من دون الله، فانتفى أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه وإلى عبادة
غيره. والمعنى على عَوْدِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِذَلِكَ فَانْتَفَى أَمْرُ اللَّهِ
وَأَمْرُ أَنْبِيَائِهِ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ تَعَالَى".¹

وَيَمْضِي قَائِلًا:

"وَأَمَّا قِرَاءَةُ النَّصْبِ فِيهَا [أَوْجَهُ] أَحَدُهَا: قَوْلُ أَبِي عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى:
وَلَا لَهُ أَنْ يَأْمُرَكُمْ، فَقَدَرُوا «أَنْ» تُضْمَرُ بَعْدَ «لَا» وَتَكُونُ «لَا» مُؤَكِّدَةً لِمَعْنَى النِّفْيِ
السَّابِقِ كَمَا تَقُولُ: «مَا كَانَ مِنْ زَيْدٍ إِيَّانِي وَلَا قِيَامٍ» وَأَنْتَ تَرِيدُ انْتِفَاءً كُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمَا عَنْ زَيْدٍ، فَلَا لِلتَّوَكِيدِ لِمَعْنَى النِّفْيِ السَّابِقِ، وَبَقِيَ مَعْنَى الْكَلَامِ: مَا كَانَ مِنْ زَيْدٍ
إِيَّانِي وَلَا مِنْهُ قِيَامٌ.

الثاني: أَنْ يَكُونَ نَصْبُهُ لِنَسْقِهِ عَلَى «يُؤْتِيهِ» قَالَ سَيَبَوِيهِ: «وَالْمَعْنَى: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ
أَنْ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ». قَالَ الْوَاحِدِيُّ: «وَيُقَوِّي هَذَا الْوَجْهَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ
الْيَهُودَ قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتُرِيدُ يَا مُحَمَّدُ أَنْ نَتَّخِذَكَ رَبًّا فَتَزَلَّتْ».

الثالث: أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى «يَقُولُ» فِي قِرَاءَةِ الْعَامَّةِ قَالَهُ الطَّبْرِيُّ. قَالَ ابْنُ
عَطِيَّةٍ: «وَهَذَا خَطَأٌ لَا يَلْتَمِمْ بِهِ الْمَعْنَى» وَلَمْ يَبَيِّنْ أَبُو مُحَمَّدٍ وَجْهَ الْخَطَأِ وَلَا عَدَمَ
التَّنَامِ الْمَعْنَى. قَالَ الشَّيْخُ: «وَجْهَةُ الْخَطَأِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَعْطُوفًا عَلَى "يَقُولُ" وَجَعَلَ
"لَا" لِلنِّفْيِ عَلَى سَبِيلِ التَّأْسِيسِ لَا عَلَى سَبِيلِ التَّأْكِيدِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقْدَرَ النَّاصِبُ
وَهُوَ أَنْ "إِلَّا" قَبْلَ "لَا" النَّافِيَةِ، وَإِذَا قَدَّرَهَا قَبْلَهَا انْسَبَكَ مِنْهَا وَمِنْ الْفِعْلِ الْمَنْفِيِّ
بِ"لَا" مَصْدَرُ مَنْفِيٍّ، فَيَصِيرُ الْمَعْنَى: مَا كَانَ لِبَشَرٍ مَوْصُوفٍ بِمَا وُصِفَ بِهِ انْتِفَاءً أَمْرَهُ
بِاتِّخَاذِ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ انْتِفَاءً الْأَمْرُ بِذَلِكَ كَانَ لَهُ ثُبُوتٌ

¹ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد
الدائم المعروف بالسمين الحلبي، ص 279/3

الأمر بذلك، وهو خطأ بَيِّن. أما إذا جعل "لا" لتأكيد النفي لا لتأسيسه فلا يلزم خطأ ولا عدم التثام المعنى، وذلك أنه يصير النفي منسحباً على المصدرين المقدرين ثبوتهما فينتفي قوله {كُونُوا عِبَادًا لِّي} وينتفي أيضاً أمره باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، ويوضح هذا المعنى وضع "غير" موضع "لا" فإذا قلت: "ما لزيد فقه ولا نحو" كانت "لا" لتأكيد النفي وانتفى عنه الوصفان، ولو جعلت "لا" لتأسيس النفي كانت بمعنى غير، فيصير المعنى انتفاء الفقه عن زيد وثبوت النحو له، إذ لو قلت: "ما لزيد فقه وغير نحو" كان في ذلك إثبات النحو له، كأنك قلت: "ماله غير نحو"، ألا ترى أنك إذا قلت: "جئتُ بلا زادٍ" كان المعنى جئتُ بغير زادٍ، وإذا قلت: "ما جئتُ بغير زادٍ" معناه أنك جئتُ بزادٍ، لأنَّ "لا" هنا لتأسيس النفي، فإطلاق ابن عطية الخطأ وعدم التثام المعنى إنما يكون على أحد التقديرين، وهو أن تكون "لا" لتأسيس النفي لا لتأكيد، وأن يكون من عطف المنفي بـ "لا" على المثبت الداخل عليه النفي نحو: "ما أريد أن تجهل وأن لا تتعلم" تريد: ما أريد أن لا تتعلم» انتهى.

وتابع الزمخشري الطبري في عطف «يأمركم» على «يقول» وجَوَّز في «لا» الداخلة عليه وجهين، أحدهما: أن تكون لتأسيس النفي، والثاني: أنها مزيدة لتأكيد، فقال: «وقرئ "ولا يأمركم" بالنصب عطفاً على "ثم يقول" وفيه وجهان، أحدهما: أن تجعل "لا" مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ} والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبئه الله وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الأنداد، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له ويأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً كقولك: ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني ولا يستخفَّ بي. والثاني: أن تجعل "لا" غير مزيدة، والمعنى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة، واليهود والنصارى عن عبادة عزيز والمسيح، فلما قالوا له: أنتخذك رباً قيل لهم: ما كان لبشر أن يستنبئه الله ثم يأمر الناس بعبادته وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء». قلت: وهذا الذي أورده الزمخشري كلامٌ صحيح ومعنى واضح على كلا

تقديري كون «لا» لتأسيس النفي أو تأكيده، فكيف يجعل الشيخ كلام الطبري فاسدًا على أحد التقديرين وهو كونها لتأسيس النفي؟ فقد ظهر والحمد لله صحة كلام الطبري بكلام أبي القاسم الزمخشري وظهر أن رد ابن عطية عليه مردود. وقد رجّح الناس قراءة الرفع على النصب قال سيبويه: "ولا يأمركم" منقطعة مما قبلهما؛ لأن المعنى "ولا يأمركم الله"، قال الواحدي: "ومما يدل على الانقطاع من الأول قراءة عبد الله: "ولن يأمركم".

قال الفراء: "فهذا دليل على انقطاعها من النسق وأنها مستأنفة، فلما وقعت [لا] موقع [لن] رَفَعْتُ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [سورة البقرة: 119] وفي قراءة عبد الله: "ولن تُسأل" وقال الزمخشري: "والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر، ويغضدها قراءة عبد الله: «ولن يأمركم». انتهى".¹ ويضيف قائلاً:

"وقد تقدّم أنّ الضمير في «يأمركم» يجوز أن يعود على "الله" وأن يعود على البشر الموصوف بما تقدم، والمراد به النبي صلى الله عليه وسلم أو أعمّ من ذلك، سواء قرئ برفع "ولا يأمركم" أو بنصبه إذا جعلناه معطوفاً على "يؤتیه"، وأما إذا جعلناه معطوفاً على "يقول" فإنّ الضمير يعود لبشر ليس إلا، ويؤيد ما قلته ما قال بعضهم: "وجه القراءة بالنصب أن يكون معطوفاً على الفعل المنصوب قبله، فيكون الضمير المرفوع لبشر لا غير" يعني بما قبله "ثم يقول". ولما ذكر سيبويه قراءة الرفع جعل الضمير عائداً على الله تعالى، ولم يذكر غير ذلك، فيُحتمل أن يكون هو الأظهر عنده، ويُحتمل أنه لا يجوز غيره، والأولى أولى.

قال بعضهم: "في الضمير المنصوب في "يأمركم" على كلتا القراءتين خروجٌ من الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات" قلت: كأنه توهم أنه لما [توهم] تقدّم ذكر

¹ نفس المصدر، ص 281/3

الناس في قوله: {ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ} كان ينبغي أن يكون النظم "ولا يأمرهم" جرياً على ما تقدم، وليس كذلك، بل هذا ابتداء خطاب لا التفات فيه".¹

قد ذكرنا هذه المقتبسات الطويلة من "الدر المصون" لبيان الإشكالات والتساؤلات التي توجد في إعراب هذه الآية، وقد أطلال المفسرون في البحث عن إعراب هذه الآية. ولكننا لم نجدهم يصلون إلى أمر فاصل.

نكتة مهمة ذكرها الإمام عبد الحميد الفراهي: وهنا نجد الفراهي يتكلم في إعراب الآية ويحل المشكلة بكل بساطة في رسالته حول النحو العربي والتي لم توفق بالإكمال كرسائله الأخرى. قال الإمام الفراهي:

"التقدير في المعطوف كثير في القرآن وكفى به مستنداً، فقال تعالى: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾". (سورة آل عمران: 79-80)

لا نعلم أحداً من المفسرين من قرأ (لا يأمركم) بالنصب وجعل الضمير لله، ولكن لا نشك أن الضمير لله، والعطف على المنفي المذكور (ما كان)، والتقدير: ((وما كان لله أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة الخ)) كما قال تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧٣﴾ [سورة البقرة: 143]. فمفهوم الآية المستند بها أنه بعيد عن نبي الله أن يأمر الناس بأن يتخذوه رباً، وبعيد عن الله أن يأمركم بأن تتخذوا النبي رباً، ولكنه أمركم جميعاً بأن تكونوا لله عبداً".²

¹ نفس المصدر، ص 282/3

² رسالة للفراهي، بعنوان النحو الجديد، غير مطبوعة

النموذج الثاني: قال تعالى:

"لَكِنَّ الرّٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾". (سورة النساء: 162)

يقول الشيخ السمين الحلبي في كتابه "الدر المصون في علم الكتاب المكنون":

"فأما قراءة الياء فقد اضطربت فيها أقوال النحاة، وفيها ستة أقوال"¹.

يقول ابن الجوزي رحمه الله في تفسيره "زاد المسير في علم التفسير" تفسيراً لهذه الآية: "وفي نصب "المقيمين" أربعة أقوال: أحدها: أنه خطأً من الكاتب، وهذا قول عائشة، وروي عن عثمان بن عفان أنه قال: إن في المصحف لحناً ستقيمه العرب بالسنتها. وقد قرأ ابن مسعود وأبي، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والجحدري: "والمقيمون الصلاة" بالواو. وقال الزجاج: قول من قال إنه خطأ، بعيد جداً، لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة، والقدوة، فكيف يتركون في كتاب الله شيئاً يُصلحُه غيرهم؟! فلا ينبغي أن ينسب هذا إليهم. وقال الأنباري: حديث عثمان لا يصح، لأنه غير متصل، ومحال أن يؤخر عثمان شيئاً فاسداً، ليُصلحه من بعده. والثاني: أنه نسق على "ما" والمعنى يؤمنون بما أنزل إليك، وبالمقيمين الصلاة، فقيل: هم الملائكة، وقيل: الأنبياء. والثالث: أنه نسق على الهاء والميم من قوله "منهم" فالمعنى: لكن الراسخون في العلم منهم، ومن المقيمين الصلاة يؤمنون بما أنزل إليك. قال الزجاج: وهذا رديء عند النحويين، لا ينسق بالظاهر المجرور على المضمر المجرور إلا في الشعر. والرابع: أنه منصوب على المدح، فالمعنى: أذكر المقيمين الصلاة، وهم المؤتون الزكاة"².

¹ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، 153/4

² زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، 498-497/1

وجه وجه ذكره الإمام عبد الحميد الفراهي: ولقد وقفت على وجه وجهه ذكره الإمام عبد الحميد الفراهي في إعراب (المقيمين الصلوة) لم أجده عند غيره. فهو يرى أن (والمقيمين) منصوب لكونه مفعولاً مقدماً لفعل "سنؤتيهم"، كما في قولهم "زيداً ضربته".

يقول الإمام الفراهي:

"فنصب المقيمين على جواز محلين الرفع والنصب في المفعول المقدم الراجع إليه الضمير كقوله تعالى (وَأَمَّا تَثْمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) فلك أن تحسب ثمود مبتدأ أو مفعولاً مقدماً (الذي يعدونه من باب الإضمار بشرط التفسير) وفي الآية المستند بها خمسة ألفاظ والمقيمين وسطها، والعجب من جهلاء الرواة أنهم قالوا بأن في القرآن لحنًا".¹

النموذج الثالث: إن أقسام القرآن من أهم المواضع القرآنية التي كتب عليها العلماء قديماً وحديثاً، من السيوطي إلى الفراهي. ومن مباحث أقسام القرآن التي تتعلق بإعراب القرآن هو "لا النافية" التي ذكرت قبل القسم في سور مختلفة. وقد بحث المفسرون عن إعرابها وجاؤا بتأويلات مختلفة. وقد ذكر الإمام الرازي بالتفصيل ما قاله العلماء في تفسيرها وذكر الأخطاء التي توجد في تلك الأقوال. يقول الإمام الرازي رحمه الله:

"المفسرون ذكروا في لفظة (لا) في قوله: لا أقسم ثلاثة أوجه: الأول: أنها صلة زائدة والمعنى أقسم بيوم القيامة ونظيره "لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ" [سورة الحديد: 29] وقوله: "قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ" [سورة الأعراف: 12] "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ" [سورة آل عمران: 159] وهذا القول عندي ضعيف من وجوه:

¹رسالة غير مطبوعة للفراهي، بعنوان النحو الجديد.

أولها: أن تجويز هذا يفضي إلى الطعن في القرآن، لأن على هذا التقدير يجوز جعل النفي إثباتاً والإثبات نفياً وتجويزه يفضي إلى أن لا يبقى الاعتماد على إثباته ولا على نفيه وثانيها: أن هذا الحرف إنما يزداد في وسط الكلام لا في أوله، فإن قيل: فالكلام عليه من وجهين: الأول: لا نسلم أنها إنما تزداد في وسط الكلام، ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته وهي قوله:

لا وأبيك ابننة العامر ي لا يدعي القوم أني أفر

الثاني: هب أن هذا الحرف لا يزداد في أول الكلام إلا أن القرآن كله كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض، والدليل عليه أنه قد يذكر الشيء في سورة ثم يجيء جوابه في سورة أخرى كقوله تعالى: "وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ" [سورة الحجر: 6] ثم جاء جوابه في سورة أخرى وهو قوله: "مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ" [سورة القلم: 2] وإذا كان كذلك، كان أول هذه السورة جاريًا مجرى وسط الكلام والجواب عن الأول: أن قوله لا وأبيك قسم عن النفي، وقوله لا أقسم نفي للقسم، فتشبيه أحدهما بالآخر غير جائز، وإنما قلنا: إن قوله لا أقسم نفي للقسم، لأنه على وزان قولنا لا أقتل لا أضرب، لا أنصر، ومعلوم أن ذلك يفيد النفي.

والدليل عليه أنه لو حلف لا يقسم كان البر بترك القسم، والحنث بفعل القسم، فظهر أن البيت المذكور، ليس من هذا الباب وعن الثاني: أن القرآن كالسورة الواحدة في عدم التناقض، فإما في أن يقرن بكل آية ما قرن بالآية الأخرى فذلك غير جائز، لأنه يلزم جواز أن يقرن بكل إثبات حرف النفي في سائر الآيات، وذلك يقتضي انقلاب كل إثبات نفياً وانقلاب كل نفي إثباتاً، وإنه لا يجوز وثالثها: أن المراد من قولنا: لا صلة أنه لغو باطل، يجب طرحه وإسقاطه حتى ينتظم الكلام، ومعلوم أن للمفسرين في هذه الآية، ما نقل عن الحسن أنه قرأ، لأقسم على أن اللام للابتداء،

وأقسم خبر مبتدأ محذوف، معناه لأننا أقسم ويعضده أنه في مصحف عثمان بغير ألف واتفقوا في قوله، ولا أقسم بالنفس اللوامة على لا أقسم، قال الحسن معنى الآية أني أقسم بيوم القيامة لشرفها، ولا أقسم بالنفس اللوامة لخساستها، وطعن أبو عبيدة في هذه القراءة وقال لو كان المراد هذا لقال: لأقسمن لأن العرب لا تقول: لأفعل كذا، وإنما يقولون: لأفعلن كذا، إلا أن الواحدى حكى جواز ذلك عن سيبويه والفراء، واعلم أن هذا الوجه أيضاً ضعيف، لأن هذه القراءة شاذة، فهب أن هذا الشاذ استمر، فما الوجه في القراءة المشهورة المتواترة؟ ولا يمكن دفعها وإلا لكان ذلك قدحاً فيما ثبت بالتواتر، وأيضاً فلا بد من إضمار قسم آخر لتكون هذه اللام جواباً عنه، فيصير التقدير: والله لأقسم بيوم القيامة، فيكون ذلك قسمًا على قسم، وإنه ركبك ولأنه يفضي إلى التسلسل القول الثالث: أن لفظة لا وردت للنفي، ثم هاهنا احتمالان الأول: أنها وردت نفياً لكلام ذكر قبل القسم، كأنهم أنكروا البعث فقيل: لا ليس الأمر على ما ذكرتم، ثم قيل أقسم بيوم القيامة، وهذا أيضاً فيه إشكال، لأن إعادة حرف النفي مرة أخرى في قوله: ولا أقسم بالنفس اللوامة مع أن المراد ما ذكره قدح في فصاحة الكلام.

الاحتمال الثاني: أن لا هاهنا لنفي القسم كأنه قال: لا أقسم عليكم بذلك اليوم وتلك النفس ولكني أسألك غير مقسم أتقسم أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك، وهذا القول اختيار أبي مسلم وهو الأصح، ويمكن تقدير هذا القول على وجوه آخر أحدها: كأنه تعالى يقول: لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب فإن هذا المطلوب أعظم وأجل من أن يقسم عليه بهذه الأشياء ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه وثانها: كأنه تعالى يقول: لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب، فإن إثباته أظهر وأجلى وأقوى وأحرى، من أن يحاول إثباته بمثل هذا القسم، ثم قال بعده: "أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۚ"

[سورة القيامة: 3] أي كيف خطر بباله هذا الخاطر الفاسد مع ظهور فسادهِ وثالثها: أن يكون الغرض منه الاستفهام على سبيل الإنكار والتقدير ألا أقسم بيوم القيامة. ألا أقسم بالنفس اللوامة على أن الحشر والنشر حق".¹

نكتة مهمة للفراهي: ونرى الفراهي رحمه الله يحل الإشكالات والتساؤلات التي رأيناها في تفسير "لا النافية" التي ذكرت قبل القسم في سور مختلفة، ويأتي برأي سديد ينشرح به الصدر ويطمئن إليه القلب، يقول رحمه الله:

"في قوله تعالى: "لا أقسم" لا منفصلة، أي باطل ما يحسب الإنسان. والقول بزيادة "لا" سخيّف جداً، وبأنها متصلة سقيم لضعف المعنى ولتصريح القرآن بخلافه حيث جاء: "فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٥٦﴾" [سورة الواقعة: 75-76]. انظر تفسير هذه الآية.

وانفصال "لا" قبل القسم كانفصال "كلا" قبله، كما قال تعالى: "كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾" [سورة المدثر: 32]، وتكرارها كتكرارها، كما قال: "كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾" [سورة التكاثر: 3-4]. وهذا الأسلوب شائع في كلامهم إذا أرادوا شدة الإنكار لظن سابق، لأن في تقديم "لا" دلالة على أن الكلام جواب ورد لما قيل من قبل، وعلى أن الإنكار به لا يحتمل مكثاً. فإن القسم عادته الابتداء، وإنما قدمت عليه كلمة الإنكار لشدة الاعتناء به، والقسم على الأكثر تأكيداً للإثبات، فإذا كان الإنكار، ينبغي أن يصدر الكلام بالنفي. ولذلك قالوا: لا والله. وإن قيل: والله لا، كان ضعيفاً. فعلى هذا جاء قوله تعالى: "فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ" [سورة النساء: 65]. ومنه قول النابغة الذبياني:

¹ مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، ص 719/30-721

العدد الخاص مجلة الهند

فلا لعمر الذي مسحت كعبته وما هريق على الأنصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطير تمسحها ركبنا مكة بين الغيل والسعد
ما قلت من سئ مما أتيت به إذا فلا رفعت سوطي إلى يدي
وأيضاً قوله:

فلا عمر الذي أثنى عليه وما رفع الحجيج إلى إلال
لما أغفلت شكرك فانتصحتني وكيف ومن عطائك جل مالي
وقول امرئ القيس:

لا وأبيك ابنة العامر ي لا يدعي القوم أني أفر
وفي هذه الشواهد من القرآن وكلام العرب كان القسم على الإنكار المحض، فجئ
بذكر ما يتعلق به الإنكار.

وأما إذا كان القسم على إثبات وإنكار معاً كما وقع ههنا أتبع كلاماً يناسب هذا
الموقع.

فربما يذكر في الجواب الإثبات والإنكار معاً، كما قال تعالى: "فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ
﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ (هذا ذكر الإثبات) وَمَا هُوَ يَقُولُ
شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَآهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ (هذا ذكر الإنكار)
تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾" [سورة الحاقة: 38-43] أعاد الإثبات كما ثنى الإنكار.

وربما يحذف كلاهما ويؤتى بما يدل على المقسم عليه أو يعتمد على ظهوره من
موقع الكلام، كما ترى في قوله تعالى: "صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا
فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾" [سورة ص: 1-2]، فكذلك ههنا أيضاً لم يصح كل تصريح

بالمقسم عليه، لما دل عليه ما يتلوه، ولما يفهم من نفس المقسم به، ولما يفهم من الردع والتوبيخ".¹

النموذج الرابع: قال الله تعالى في القرآن المجيد: "ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾"
(والتين: 5)

فقد ذكر الشيخ السمين الحلبي وجهين في إعراب "أسفل سافلين"، فقال:
"يجوزُ فيه وجهان، أحدهما: أنه حالٌّ من المفعول. والثاني: أنه صفةٌ لمكانٍ محذوفٍ، أي: مكانًا أسفلَ سافلين وقرأ عبد الله «السَّافِلِينَ» معرَّفًا".²
كلمة موفقة للفراحي: وقد وفق الفراحي في تفسير هذه الآية، حين يقول رحمه الله:
"ومما ذكر تبين أن هذه الآيات الثلاث جامعة لتمام قصة الإنسان ودينونته من أول خلقه إلى نهاية مبلغه، وناظرة إلى حالة آدم وهبوطه مع ذريته. وعلى هذا يفهم من: "أَسْفَلَ سَافِلِينَ" [الآية: 5] حالتهم حين رجعوا إلى هذه الدار الدنيا. وحينئذ حرف "إلا" للاستدراك. أي: ولكن المؤمنين يترقون بعد الهبوط، فيفوزون بأجر دائم. وأما من فهم من "أسفل سافلين" حالة الكفار فقط جعل الاستثناء متصلًا. أي بعد خلق الإنسان في أحسن تقويم رددناهم أسفل سافلين، غير الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فهؤلاء لم يردوا من الحالة الأولى.

ولا يخفى أن هذا التأويل الأخير ضيق وبعيد، لكونه غير مطابق بعموم خلق الإنسان، ولا ناظر إلى قصة آدم وهبوطه مع ذريته. فإن الرد حينئذ يكون مخصوصًا بالكفار.

¹ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، عبد الحميد الفراحي، ص 218-219

² الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، 52/11

وأما التأويل الأول فهو أوسع وأتم. ويؤيده ما ذكرنا من نظيره. فإن قوله تعالى: "إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" [سورة الأحزاب: 72] غير مختص بالكفار. ثم فرق بين الكافرين والمؤمنين.

واعلم أن كلا هذين التأويلين محتمل على فرض التأليف الإضافي في "أسفل سافلين". ولكن إن جعلت "سافلين" حالاً وهو أحسن كان "أسفل" عامّاً، مشيراً إلى قصة آدم وهبوطه مع ذريته سواء جعلته ظرفاً أو حالاً. وعلى هذا الاستثناء منه.

وأما "سافلين" ففيه وجهان: الأول أن تجعله أيضاً عامّاً. فإن الله تعالى لم يردّهم إلى أسفل إلا بأن اختار الإنسان سفلاً لنفسه. وعلى هذا تكون حرف "إلا" للاستدراك. أي لكن المؤمنين بعد أن كانوا سافلين حين اهبطوا نهضوا وتابوا. فلهم أجر دائم. وهذا تأويل حسن راجح كما هو ظاهر.

والوجه الثاني أن تخرج المؤمنين من "سافلين" وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً، أي المؤمنون مع الهبوط لم يكونوا سافلين. ولكنهم عرجوا من السفلى إلى العلو. وأما الكافرون فبقوا فيما ردوا إليه، بل ازدادوا سفلاً¹.

الواقع أن الدارس لآراء الفراهي رحمه الله في إعراب القرآن يجد أن الفراهي يقوي رأيه بأدلة من داخل القرآن وأخرى من خارجه. وتفسيره لآي القرآن يرشد القارئ إلى المعنى الأصوب وإلى الرأي السديد بإذن الله.

خلاصة البحث: إن الإمام الفراهي رحمه الله كان من المفسرين المرموقين للقرآن الكريم وكانت له خدمات ذات جوانب مختلفة في مجال الدراسات القرآنية. وبما أنه كان ماهراً في النحو العربي وكانت له اجتهادات قيمة في علم النحو، فقدّم آراءه في إعراب القرآن مع الأدلة والبراهين المختلفة.

وفي هذا البحث قمنا باستعراض أربعة نماذج من آراءه في إعراب القرآن، مع أن له آراء كثيرة في القضايا النحوية والإعرابية في القرآن الكريم.

¹ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، عبد الحميد الفراهي، سورة التين.

العدد الخاص مجلة الهند

والجدير بالذكر أن الفراهي لم يقدر له اكتمال معظم مشروعاته العلمية، فقد وفق لتفسير سور من القرآن وكتابة بعض من رسائله. ولكن معظم كتبه ورسائله لم تكتمل حتى وافته المنية. فالباحث عن آرائه في إعراب القرآن يحتاج إلى دراسة شاملة للأعمال الكاملة له.

المصادر والمراجع

1. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ
2. أبو محمد، مكي بن أبي طالب حَمَّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: 437هـ): مشكل إعراب القرآن، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1405هـ
3. الجبوري، الدكتور مي فاضل: إعراب القرآن الكريم، دراسة في منهجية التأليف حتى نهاية القرن السادس الهجري. وزارة الثقافة، بغداد.
4. الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: زاد المسير في علم التفسير، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ
5. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري: مفاتيح الغيب المعروف بـ"التفسير الكبير"، دار إحياء التراث العربي، بيروت. الطبعة الثالثة، 1420هـ
6. السمين الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، دار القلم، دمشق، تاريخ الطباعة غير مذكور.
7. الفراهي، عبد الحميد: النحو الجديد، الدائرة الحميدية (مخطوط)
8. الفراهي، عبد الحميد: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الحميدية، أعظم كره، الطبعة الأولى، 2008م
9. الندوي، العلامة السيد سليمان، المعلم عبد الحميد الفراهي، مجلة الهند، بنغال الغربية يناير-ديسمبر 2017م

دراسة الكتب السماوية والعلامة حميد الدين الفراهي

- د. محمد أفضل الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. أورك زيب الأعظمي²

القرآن كتاب الله وكلامه، يناجي به العبد ربه، ووسيط بين الله وخلقه يتقرب به المؤمن الخالص إلى الله، فالتعلق به دليل على علاقته بالله، فإذا كان القرآن أحب الكتب إليه كان الله أحب إليه من كل موجود، والإنسان لا يتمتع بأفضاله وبركاته ولا يستنير بنوره إلا قدر رغبته فيه وانقطاعه إليه، الإنسان يمكن أن يكون مقرأً بسعته في العلوم والفنون بلسان مفسر أو عالم ولكنه لا يستطيع أن يذوق حلاوته وما فيه من فوائد إلا بدراسته الذاتية وتفكيره العميق في أسرارها ولا يبلغ مرامه إلا أن ينظر فيه بعيداً عن كل عصبية فكرية، فإن تدبره ولديه فكرة خاصة فلا يفسره إلا حسب غرضه ولا يأخذ منه إلا ما يؤيد مذهبه وبذلك يخل بنظمه ويعيب جماله ويفتك ببلاغته ويذهب بتأثيره كما يشعر بالملل عند قراءته فلا ينال منه شيئاً ولا يستفيد من هذا البحر الفائق الشاطئ المشحون بالآلآي والجواهر إلا حصى، وقد ضرب له النبي الكريم صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال: "إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعلقة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت".³

يجب على من يتصدى لفهم القرآن والاستفادة منه أن يتضلع من اللغة العربية ويدرس الأحاديث الواردة وتاريخ الأمم الماضية ثم يتفكر فيه في ضوء نظمه البديع ونظائره وأساليب بلاغته ويستعين في تفصيل ما أجمل وإجمال ما فصل بالأحاديث

¹ متخرج في مدرسة الإصلاح وطبيب حكومي

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

³ مسلم بن الحجاج: الصحيح المسلم، كتاب فضائل القرآن، مطبعة كلكتا، 267/1

الصحيحة وبما ثبت من تاريخ الأمم السابقة وبالصحف السماوية الأخرى، والآن يدور بحثنا حول الصحف السماوية الأخرى ونكتفي بذكر أهميتها ودورها في فهم القرآن حيث إن القرآن نفسه يحيل إلى ما ورد فيها من قصص وأمثال دونما مرة واحدة، قال جل من قائل: "أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى" (سورة النجم: 36-37)، وقال: "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ" (سورة الأنبياء: 105) وجاء في سورة الأعلى: "إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى" (سورة الأعلى: 18-19) "صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى" (سورة الأعلى: 19-18)

تشير هذه الآيات الكريمة إلى أهمية دراسة الصحف السماوية الأخرى، وكذلك أحاديث الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام نستفيد منها اختيار المسلك الوسط بالنسبة لهذه الكتب،

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم".¹ يتضح من ذلك جلياً أن أخبار الكتب المقدسة التي لا يصدقها القرآن والحديث ولا يكذبانها نتوقف عنها، ولا بأس بالتي يصدقها القرآن والحديث وأما التي يكذبانها فلنتركها كل الترك.

ويبدو من هذا التفصيل أنه لا ينبغي لنا أن نأخذ من الصحف السماوية بصفة العميان لأن المبطلين قد أدخلوا فيها كثيراً مما عندهم وبدّلوا صور الكلم وترتيب الجمل حسب أهوائهم إلا أنها قد حفظت لنا كثيراً من الحقائق والمعارف وبعض المعالم والشواهد التي لا تدل على الحقيقة فحسب بل تكشف الستار عن وجوه المحرفين الضالين، فيمكن أن نطلع بالتفكر في الصحف ودراستها على رموز وحقائق تصدق ما يحتوي عليه القرآن وتوضح ما أجمل منه وتفسر ما يحتاج إلى ذلك، والحق أن التوراة والإنجيل نزلا باللغة العبرانية والعبرانية والعربية مصدرهما

¹ البخاري: صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، مطبعة ديوبند، 1094/2

واحد، هناك تشابه كبير بين الكلمات الواردة والأساليب المتبعة فيهما، ومن المعترف أن اللغات المتشابهة تتعاون بعضها مع بعض في فهم معانيها، والمجمع عليه بين علماء الإسلام أن الأصول الكتب المنزلة كلها ومحتوياتها الأساسية وأمورها الكلية تجمعها وحدة كلية، فالأخذ منها بما يعين في فهم القرآن مع بحث وحذر، لا يخلو من الفائدة بل يكشف عن كثير من أسرار القرآن ويحل عقد كثير من غوامضه.

وقد رجع كثير من العلماء والمفسرين إلى الصحف السماوية في فهم كثير من كلمات القرآن ومحتوياته وسعوا من خلالها للتوصل إلى مدلولات من القرآن الكريم: والعلامة حميد الدين الفراهي ممن يجدر بالذكر من بين هؤلاء المفسرين فإنه انقطع إلى القرآن ووجه كل عنايته إلى هذا المصدر الأول الأصيل وصرف مجهوداته في البحث والتحقيق نحو ما يتعلق به ويدور حوله وخلف ورائه مآثر قيمة في علوم القرآن الكريم.

الأصول المتبعة عند العلامة الفراهي للنظر في الكتب المنزلة السابقة:

1. أما الكتب السابقة فجعلها في العبرانية وهي صنو لغة العرب فهي أشبه بها ظاهراً كما أن بين الكتب السابقة والقرآن الكريم مشابهة قوية في المعنى والمضمون.¹
2. لا يعتمد على ما وافق هواهم وخالف ما ورد في القرآن ولو وقع فيه صريحاً لأنهم بدلوا وحرفوا كثيراً.
3. من بدل وحرف فربما يخلط الحق بالباطل بإدخال تغييرات وتحريفات حسب هواه وما بقي فيها من ملامح الحق على رغم ذلك يؤخذ به باقتضاء النص وإشاراته ويتمسك بالأمور التي فاتها التحريف.
4. الأمر الحق يجمع حوله حقائق وشهادات ويبقى الكذب مخدولاً فيستدل عليه بتطبيق الآيات والروايات وأجزاء الواقعة الواحدة وما يتصل بها.

¹ الإمام عبد الحميد الفراهي: أساليب القرآن، الدائرة الحميدية، 1389هـ، ص 3

5. يرجع إلى ما علم واشتهر من تاريخ الأمم وأحوالها.¹
6. وقد يسأل سائل: لما كانت الكتب المقدسة غير مصونة فكيف نفسر كتابًا محفوظًا بالقي لم تحفظ؟ يقول الإمام الفراهي ردًا على هذا السؤال: "إن الأمر كما ظننت لكننا أولًا نفهم القرآن من نفسه ولغته لغة العرب، ثم إذا رأينا في الكتب المقدسة ما يقاربه معنى تأملنا في أسلوبها لتتضح بلاغة القرآن وتزداد الثقة بما رأينا، ويتبين لنا معنى بعض كلام الوحي القديم المشتبه المحال في الظاهر فيكون دليلًا لأولي الفهم من أهل الكتاب على صحة القرآن دليلًا لتأعلى صحة كتبهم وذلك يفتح لنا باب الوفاق والانسجام مما يقربنا إلى الهداية".²
- ولو تدبر أحدنا وتفكر في الكتب المقدسة في ضوء هذه الأصول يتضح له أن القرآن أعلى وأرفع من أن يجعل اليهود وكتبهم المحرفة مركزًا له ومحورًا يدور حوله بل هو مصلح للكتب السابقة وما يتخيله اليهود وكاشف عن تحريفاتهم وأباطيلهم.
- وقد ألف العلامة الفراهي كتابين عن الكتب السماوية أحدهما: "الإكليل في شرح الإنجيل" وشرح فيه كلمات وعبارات حرفها النصارى على الخصوص ولكن من الأسف لم يمهله الأجل لإتمامه وإكماله ومع ذلك فإنه نادر لا يوجد له نظير.
- وثانيهما "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" فقد بحث فيه الإمام الفراهي عن حقيقة الذبيح وأهميته في الإسلام ثم أثبت بالأدلة الثابتة من القرآن والتوراة أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق -عليهما السلام- على خلاف ما ادعاه أهل الكتاب.
- ومقابلة العلامة الفراهي لسورة الفاتحة على دعاء النصارى وتأثير الريح في إهلاك الأقوام البائدة وتحقيق المواقع التاريخية من القرآن المجيد في ضوء الصحف السماوية، كل ذلك يميزه عن عامة المفسرين ونكتفي هنا بالكلام عن هذه الأمور الثلاثة:

¹ الإمام عبد الحميد الفراهي: الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، الدائرة الحميدية، 1414هـ، ص 38

² الإمام عبد الحميد الفراهي: فاتحة نظام القرآن، مطبعة إصلاح، 1357هـ، ص 15

1. قد جاء في الحديث النبوي الشريف أنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل مثل سورة الفاتحة: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أبي بن كعب وهو يصلي فلما فرغ من صلاته لحقه فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على يده وهو يريد أن يخرج من باب المسجد، فقال: إني لأرجو أن لا تخرج من المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن الكريم مثلها، قال أبي: فجعلت أبطن في المشي رجاء ذلك، ثم قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم! السورة التي وعدتني، فقال: كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة، قال: فقرأت عليه الحمد لله رب العالمين، حتى أتيت آخرها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هي هذه السورة وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت".¹

وفي حديث قدسي رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: "الحمد لله رب العالمين"، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: "الرحمن الرحيم"، قال الله: أثني علي عبدي، فإذا قال: "مالك يوم الدين"، قال: مجدني عبدي، وقال مرة: فوض علي عبدي، فإذا قال: "إياك نعبد وإياك نستعين"، قال هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل، فإذا قال: "اهدنا الصراط المستقيم - صراط الذين أنعمت عليهم - غير المغضوب عليهم ولا الضالين"، قال: هذا لعبدي ولعبي ما سأل".²

يقول الإمام الفراهي بعد ذكر فضيلة سورة الفاتحة في ضوء هذا الحديث القدسي: "إننا نجد ما يقاربها في صلاة علّمها عيسى عليه السلام للحواريين، وإن كانت النصراني قد نسوا بعض عباراتها ومدلولها..... فلنذكره لتتضح مطابقتها وبراعة القرآن، في الإنجيل المنسوب إلى لوقس: "قد وقع إنه (عيسى)

¹ الإمام مالك: المؤطا، مطبعة أشرفي بديوبند، ص 28

² الإمام مسلم: صحيح مسلم، كتاب الصلاة، 1/ 170

كان يصلي في مكان فلما فرغ سأله بعض حواريه: مولانا علّمنا الصلاة كما كان يحيى يعلمها أتباعه، فقال لهم: إذا صلوا قولوا، أبانا الذي في السماء سبحان اسمك ليأتين ملكك ليقعن رضاك في الأرض كما في السماء أعطنا كل يوم وظيفة خبزنا واعف عنا فإننا أبضاً نعفو عن كل من عليه حقنا ولا تهدنا إلى الفتنة بل أنقذنا من الشر".¹

وقد قارن الإمام الفراهي بين الدعاء المذكور أعلاه وسورة الفاتحة فلنلخصه فيما يلي:

الدعاء الذي علمه عيسى عليه السلام:	دعاء سورة الفاتحة
سبحان اسمك	الحمد لله
أبانا الذي في السماء	رب العالمين
ليأتين مبكك	مالك يوم الدين
أعطنا كل يوم وظيفة خبزنا واعف عنا	اهدنا الصراط المستقيم صراط
فإننا أيضاً نعفو عن كل من عليه حقنا	الذين أنعمت عليهم غير
ولا تهدنا إلى الفتنة بل أنقذنا من الشر	المغضوب عليهم ولا الضالين ²

¹ الفاتحة: 59

² المصدر السابق، ص 59، هناك زيادة مني في ضوء أصول الإمام الفراهي، فنقول للقارئ الكريم: أن ينسب إلي ما يشعر فيه من الأخطاء ويعزو إليه ما يرى فيه من المحاسن. (الكاتب).

2. يبدو من دراسة الآيات التي ذكرت فيها الأقوام البائدة أن الريح لها دور رائع في إهلاكها فقد كثر إليها الإشارة في القرآن والتوراة، مثلاً: قد عبر عن الرياح في موضع بجنود الله، يقول الله عز وجل: "وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا" (سورة الفتح: 4)، وفي موضع آخر قال: "فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ" (سورة الأحقاف: 24)، وأيضاً: "وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ" (سورة الذاريات: 41).

وقد ذكر في التوراة هلاك قوم موسى عليه السلام بهذا الأسلوب، فجاء: "ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء".¹

وقد ذكر في سفر الخروج أنشودة الحمد لموسى عليه السلام: "نفخت بريحك فغطاهم البحر".²

وكيف تتم الريح أمره؟ قال العلامة الفراهي استناداً إلى آية الزبور الآتية: "سبحي الرب من الأرض يا أيها التنانين وكل اللجج، النار والبرد والثلج والضباب، الريح العاصفة الصانعة كلمته".³

ولدورها الرائع بين أنواع العذاب السماوي يعدها الإمام الفراهي سبباً أصيلاً في إهلاك أبرهام وبنو حنوخ فيقول: "وبالجملة فلا بد أن الله تعالى رماهم بالحصباء والغبار من السماء والهواء كما رمى قوم لوط فأصابت أجسامهم من كل جهة".⁴

¹ الخروج، الباب: 14، الآية: 21

² الخروج، الباب: 15، الآية: 10

³ المزمير، 148، الأيتان: 7-8

⁴ الإمام عبد الحميد الفراهي: تفسير سورة الفيل، الدائرة الحميدية، 1354هـ، ص 26-27

3. لم يرد في القرآن الكريم تصريح بالجهة التي قصدها موسى عليه السلام عندما طالب موسى بإرسال قوم بني إسرائيل: "أن أرسل معنا بني إسرائيل" لما نجاه الله تعالى من عذاب فرعون وملته؟ إلا أن عبارة التوراة تلقي بعض الضوء على ذلك، فقد جاء فيها. فقال موسى: "أنت تعطي أيضًا في أيدينا ذبائح ومحرقات لنصنعها للرب إلهنا.... ونحن لا نعرف بما ذا نعبد الرب حتى نأتي إلى هناك".¹

وقد جاء في الخروج: "فدعا موسى وهارون ليلاً، وقال: قوموا، اخرجوا من بين شعبي، أنتم وبنو إسرائيل جميعاً، واذهبوا، واعبدوا الرب كما تكلمتم، خذوا غنمكم أيضًا، وبقركم كما تكلمتم، واذهبوا، وباركوني أيضًا".²

والذي أمر الله به موسى في الذبح هو: "قدس لي كل بكر كل فاتح رحم من بني إسرائيل من الناس والبهائم، إنه لي"،³ وفي ضوء نصوص التوراة التي تتضمن الذبح والعبادة وكل البكر من البهائم يرى الإمام الفراهي أن موسى عليه السلام كان يقصد بقومه مكة المكرمة وهذا لأنه موضع تاريخي أراد فيه إبراهيم عليه السلام أن يذبح لله ابنه إسماعيل عليه السلام.

ويستفاد من هذه التصريحات:

- ألف- إن القرآن يصحح أخطاء الصحف المقدسة، ويهدي أهل الكتاب إلى الحق.
ب- وإن تنازعنا في شيء فلنرده إليه لأنه كتاب مصون من التحريف والتبديل.
ج- ونكشف به ما وقع فيها من التعارض والتناقض يعول عليه في تصحيح الأخطاء التي تمسك به المناصرون للإسرائيليات.

¹ الخروج، الباب: 10، الأيتان: 25-26

² الخروج، الباب: 12، الأيتان: 30-31

³ الخروج، الباب: 13، الآية: 2، لم يذكرها الفراهي ولكننا ذكرناها في ضوء أصوله وتجد في الأصل قوله: إنه كان يريد بني إسرائيل مكة المكرمة (الكاتب).

العدد الخاص مجلة الهند

د- ويتضح لأهل الكتاب أن القرآن لا يلتقط من كتبهم وإنما يكشف الستار عن أخطائهم وأوهامهم.

هـ- ويسهل به تفسير مهمات القرآن التي تشير إلى بعض ما ذكر في التوراة.

و- ويزداد الإيمان بصحة الرجوع إلى الكتب السماوية لإدراك بعض الجزئيات.

ز- يتحقق وعد القرآن بأنه يكشف عما التبس على أهل الكتاب من الأمور، فتطمئن بذلك قلوبنا.

ح- وعند مواقع الاستدلال بما عندهم تزداد ثقتنا بما عندنا.

ط- ويزداد الإيمان قوة بأنها نزلت من الله ودخلها التحريف فيما بعد.

الإمام الفراهي الفقيه البارع كما يتجلى في كتابه "الرائع في أصول الشرائع"

- د. محي الدين غازي¹

عرف الإمام عبد الحميد الفراهي في الأوساط العلمية بصفته مفسراً بل من أئمة التفسير. إلا أن كتابه الذي بين أيدينا والذي أسماه "الرائع في أصول الشرائع"² يكشف عن جانب آخر لشخصيته العبقريّة، شخصية الفقيه البارع الذي يجمع بين روح التأصيل وروح التجديد، ويكشف عن منهج وسط أصيل في الفقه وأصول الفقه، ويبين ما خفي من حكم جليلة في أحكام الشرع. وسوف أتناول هنا بعض الملامح من فقهه وبعض النماذج من كتابه. علماً بأن الكتاب عبارة عن مشروع عظيم بدأ فيه الفراهي ولم يكتب له الإتمام، مثل غيره من المشاريع الضخمة العديدة التي قد تبناها الفراهي وشرع فيها بهمة عالية ورؤية إبداعية ولم تسنح له الفرصة لإتمامها.

إن الذي فتح للفراهي أبواباً جديدة وآفاقاً واسعة في الفقه هو توصله إلى غاية واضحة لديه للأحكام الشرعية، ولا نجانب الصواب إذا قلنا إن مفتاح شخصيته الفقهية هو اكتشافه بأن التزكية هي غاية الأحكام الشرعية.

¹ عميد كلية القرآن بالجامعة الإسلامية في شانتايرم، كيرلا، الهند

² كتاب الرائع في أصول الشرائع نشر من الدائرة الحميدية في الهند ضمن المجموعة الثانية من رسائل في علوم القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، وقد قام بإعداد المجموعة الدكتور عبيد الله الفراهي وراجعها الشيخ أمانة الله الإصلاحي. الطبعة الأولى 1432هـ

غاية الأحكام هي التزكية:

من ميزات فقه الفراهي قناعاته التامة بأن الأحكام الشرعية تهدف إلى غاية واحدة كبيرة وهي التزكية. يقول: الغاية من الشرائع الظاهرة ليست إلا تزكية النفس، وهي المراد بالحكمة. (الرائع في أصول الشرائع، ص 27)

إن الأحكام الشرعية الظاهرة في رأيه تؤدي دورين هامين في تحقيق هدف التزكية، أولهما معرفة حال النفس، وحال النفس خفي جداً لا يعرف إلا بحال الأعمال الظاهرة، فحال الصلاة والزكاة والصوم يدل على حال باطن النفس، وليس هناك طريق آخر موثوق لمعرفة حال النفس، فمن أراد أن يكشف عن حال نفسه فليتأمل في أعماله الظاهرة وليحكم بناء عليها. وأما الدور الثاني الهام فهو أن الأعمال الظاهرة هي التي تقوم بالتزكية في باطن النفس، فليس هناك طريق لتزكية النفس إلا الأعمال الظاهرة. فالذي يستغني عن الأعمال الظاهرة يفقد جميع وسائل التزكية.

يقول الفراهي: الشرائع فيها الابتلاء، ثم فيها الترويض أيضاً. فمن جهة الابتلاء تنبه المرء على حاله، ومن جهة الترويض تصلحه. فتصير الصورة ذريعة إلى تحصيل المعنى، وهذا يتم إذا كان التوجه إلى المعنى وكان عارفاً به. ومن هاهنا حاجتنا إلى معرفة الغاية لكل مشروع. (الرائع في أصول الشرائع، المصدر نفسه، ص 28)

وبذلك يقطع الفراهي قول كل من يفرق بين الشريعة والطريقة. فالشريعة هي الطريقة ذاتها.

ويضيف الفراهي على ذلك فيرى أن كل عمل له دوره الخاص المنوط به في تزكية النفوس، ولا بد من معرفة ذلك الدور وجعله نصب العين عند القيام بذلك العمل، وهذا هو مفهوم النية عند الفراهي، فمن عرف حقيقة عمله صححت نيته، ومن لم ينتبه لحقيقة عمله تنقص نيته فينقص عمله بقدر النقص في نيته. يقول

الفراهي: فمن أخطأ في النية فكأنه لم يعمل، مثلاً من حج ولم يعلم ما معنى النسك فيه نقص عمله حسب جهله. وإذ جعل الله طرقاً منه ظاهراً بيئاً لم يبطل عمله بأسره، ولكن ينقص. (المصدر نفسه، ص 98)

إن قناعة الفراهي بأن التزكية هي غاية الأحكام الشرعية تجعله ينظر إلى جميع الأحكام الشرعية، بأنها ليست أحكاماً تحقق مقصد التكليف والتعبد فحسب، بل إنها جميعها آليات فاعلة تؤدي دوراً هاماً في تحقيق تزكية الإنسان وتربيته. وبذلك الفقه عند الفراهي لا يتناول موضوع صورة الأعمال الظاهرة فحسب، بل الفقه هو عين نظام التزكية.

إن الفقه الموروث المعهود لا يتناول مقاصد التزكية، وإنما تعتبر مظنة تلك المقاصد هي علم السلوك فتحول طالب التزكية إليه. والمتخصص في الفقه لا يلزم أن يكون متخصصاً في التزكية، لأنهما أصبحا في اعتبار القوم مجالين مختلفين. أما عند الفراهي فعلم الفقه هو عين علم التزكية والخبر بالفقه هو الخبر بالتزكية.

ومقصد التزكية يتجلى لدى الفراهي في كل ما يتناوله من مجالات الفقه. سواء كان النظر في حقيقة الأحكام، أو في تعليل ظواهر الأحكام أو في إثبات الأحكام بأدلتها الشرعية.

الشرعية كجسم حي:

رؤية الفراهي إلى مقصد الشريعة فتحت له باباً آخر من أبواب الفقه والحكمة وهو أن الشريعة كائن واحد لا يحتمل التجزئة، فيقول: وبالجمله هذه الشرائع يشد بعضها بعضاً، وهي كبنيان واحد، بل كجسم حي، فترك بعضها يضر بسائرها. وفيها الأعضاء الرئيسة حتى إن قطع بعضها يميم الجسم كالرأس والقلب. (المصدر نفسه، ص 6)

وإذا كان الأمر كذلك، وجبت معرفة درجات الأحكام معرفة دقيقة وعدم خلط تلك الدرجات، وفي ذلك يقول الفراهي: "نقدم الأول فالأول لكي نستعين ببعضها على بعض". ثم ينتقد الفراهي الموقف المشهور من التسامح في روايات فضائل الأعمال، فيقول: ما كتبوا في فضائل الأعمال ولم يشددوا في تحري الصدق في روايتها خلط بين درجاتها. فلا نقنع بمحض ذكر الفضائل بل نعلم ما هو الأقدم. والتقسيم إلى الفرض والسنة غير كاف، بل في الفروض درجات. واستنباط درجاتها عسير ولكنه ممكن. (المصدر نفسه، ص 99)

إن موقف الفراهي من الروايات الضعيفة في فضائل الأعمال بأنها تسبب الخلط بين درجات الأحكام موقف في غاية الواجهة. ويصدر هذا الانتقاد من الفراهي لأنه يرى أن الشريعة كجسد حي وأن لأعضائها درجات وأن الغاية من جميع ذلك هو تزكية النفس. فأى شيء يخلط بين درجات الأحكام يسبب ضرراً جسيماً في تحقيق الغاية من تلك الأحكام.

تربية العقول مقصد شرعي:

الناظر المتأمل في أحكام الشريعة يرى أن الشارع الحكيم اكتفى في الذكر بالكليات وترك كثيرًا من الجزئيات للاستنباط، والفراهي الذي يؤمن بأن الشرع كله يهدف إلى مقصد التزكية، يرى في هذه الظاهرة حكمة عظيمة وهي تربية العقول.

يقول الفراهي: لم يجعل الله أحكام الشريعة تحتوي كل جزئية لكيلا يطفأ نور العقل والتدبر، فيفسد القلب وتعمى البصيرة. فترى أن الله تعالى ترك من بين الأحكام فسحة لتجول فيها عقولنا ونعمل فيها آراءنا... فالحكمة الظاهرة أن الشريعة والوحي المنزل من أسباب التنمية والتفتيق كسائر أسباب الفطرة. فإنه بها تبرز مستكنات القوى المستودعة. فلا بد فيها من استعمال القوى الحاصلة واستمداد الذرائع المهيأة لنا من الخالق تعالى إلى حد غير متناه. فالشريعة

كالصراط وليست كالمنزل، وكماله في استقامته. فالسالك مع أنه لا يترك الصراط لا يقف عليه كالأعشى المتحير. وسماها الله نورًا وحياة، فكيف تناسب الجمود والتقليد. ولما أن الكليات العامة الصحيحة تثمر حقائق ومصالح غير متناهية، فصارت الشريعة تسمو بأمته وترقى بها يومًا فيومًا. (المصدر نفسه، ص 33)

هذا اكتشاف عظيم يليق بالفراهي الفقيه العبقرى، وهو أن أحكام الشريعة في صورتها الموجودة تربي العقول وتسمو بالأمة وترقى بها. إن الشرع الذي يبين كل صغيرة وكبيرة وكل حكم في كل حالة مستجدة ولا يترك مجالاً لاستخدام المواهب العقلية يشكل عقلية الإماء والتلقين، ولا يساعد في تربية العقول. فترك كثير من الأحكام الجزئية بعد ذكر الكليات ميزة عظيمة من ميزات الشريعة الإلهية، الشريعة التي أنزلت لتسمو بأمته وترقى بها. وأحكام الشرع ليست لتوجيه العقول وإرشادها، بل لتربية العقول وتنميتها أيضًا.

وإذا كان الأمر كذلك، فلا يمكن للفراهي أن يرضى بإغلاق باب الاجتهاد، بل إنه يرى ضرورة المجتهدين في كل عصر، فيقول: معرفة أدلة الأحكام وحكم العقائد واجبة على الأمة كفاية. ولا بد لها من مجتهد في كل عصر. فإن وجوه المسائل غير محدودة، والجهل لا يؤمن شره. (المصدر نفسه، ص 96)

تقسيم رائع للأحكام:

يرى الفراهي أن هناك أحكامًا في الشريعة الغرض الأصلي منها هو علم الناس بها. فهي وإن لم تسنح فرصة ليظهر تطبيقها عمليًا ولكنها تحقق مقصد الشرع. يقسم الفراهي الأحكام إلى أقسام، فقال: من الأحكام ما ليس مقصودًا بالذات بل لإصلاح مفسدة ناشئة من حكم جامع للنفع والضرر.

ثم قال: الأحكام التي لم تقصد لذاتها أيضًا قسمان: قسم قصد العمل به، كتعدد الأرواح للقسط باليتامى، وكحرمة الزيادة على الأربع، وكالقتال في سبيل الله وغير

ذلك. وقسم جل مقصده أن يعلم الناس بتشريعه، فيكون محض العلم به سبباً للتعقوى.. كما شرع رد اليمين باليمين فقال تعالى: { ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَةِ عَلَى وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُهُمْ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا } [سورة المائدة: 108]

ومن هذا الباب تشريع القصاص وتشريع كل تعزيز فإن جل نفعه تخويف الناس.

ثم قال: ومنه تشريع الطلاق والخلع فإن الزوجين إذا علما بأن لكل منهما مفعلاً ومتنفساً إلى التفرق بقيا على حريتهما وطيب أنفسهما وتعاشرا بالمدارة والمجاملة خوفاً من إضاعة خيرات الزواج، وتطرق المعرة إلى المرء من الخلع وإلى المرأة من الطلاق. فأصل المصلحة ليس في إيقاع الطلاق والخلع بل في علم الرخصة بهما (المصدر نفسه، ص 82)

ويقول: ومن هذا الباب رخصة الضرب والهجر في المضاجع لكيلا يفضي النشوز إلى حد التفرق. فإن المقصود ليس أن ينفذوا ذلك بل محض أن تعلم المرأة أن الواجب عليها الطاعة، فإن أسخطت زوجها تعدت حدود الله واستحقت الوعيد الشديد. (المصدر نفسه، ص 83)

وهذا التقسيم الرائع منبثق بلا شك من رؤية الفراهي أن المقصد الأصلي من أحكام الشريعة هو التزكية، فهناك أحكام كثيرة الوقوف عليها فحسب، وليس تطبيقها بالفعل، يقوم بالدور الكبير في تزكية النفس، فالعلم بحكم الطلاق يزكي النفوس، والعلم بحكم الهجر والضرب عند الخوف من النشوز يزكي النفوس، والعلم بالعقوبات المختلفة تزكي النفوس أيضاً.

الحكمة في أوقات الصلاة:

إن كان التزكية هي المقصد الأصلي فالفراهي يرى ذلك المقصد جلياً في كل حكم شرعي وحتى في أوقات الصلاة، فيكشف عن الحكمة في أوقات الصلاة بأنها براءة من عبادة الأفلين، والأسوة للمؤمنين في ذلك إمامهم إبراهيم عليه السلام والذي أعلن بكل جرأة أنني لا أحب الأفلين.

يقول الفراهي: إن الصلاة وقّتت خلاف أوقات عبدة الشمس والنجوم سنة لإبراهيم عليه السلام، حين قال إني لا أحب الأفلين. فجاء القرآن بما ينبّه على هذه الحكمة، كما قال تعالى: ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم. فإن صح هذا، فقولته تعالى: لدلوك الشمس، يعني كلما دلتك الشمس. فأول دلوكها من كبد السماء وهو وقت الظهر كما فهم أبو برزة. ثم من الجبال والتلول وهو أول وقت العصر. ثم من سطح الأرض وهو وقت المغرب كما قال عبد الله بن مسعود. ثم يكون دلوكها أسفل من هذا حتى لا يبقى لها أثر في الأفاق، وهو بدو الغسق وهذا أول وقت العشاء. فأمر بالصلاة على كل دلكة من الشمس. (المصدر نفسه، ص 46)

ويقول أيضاً: إنا نرى في أوقات الصلاة حكماً جمة. فمنها أنها تجنبت أوقات عبادة المشركين لدلالاتها على عبادة الشمس والكواكب. فصلاة الفجر ذهاب نور الكواكب والقمر. وصلاة الظهر زوال الشمس وانحطاطها. وصلاة العصر سقوطها. وصلاة المغرب أفولها. وصلاة العشاء غيبة آثار الشمس كلية. (المصدر نفسه، ص 49)

الحكمة في القبلة:

وفي أمر القبلة أيضاً يتميز الفراهي بنظرفته المبدعة، فيقول: ليست القبلة وجهة الله تعالى. فقد قال تعالى: {فَأَيُّنَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [سورة البقرة: 115] إنما هي الحضور في مسجد أسّس على التقوى والتوحيد وصلاته. فإذا كنا على بعد منه توجهنا إليه وكنا كالمصلين فيه. وهذا التوجه يكفي لتثبيت القلب ومنعه من التشتت. ولا حاجة إلى تصوير الرب تعالى. فإن فيه سوء التعظيم. كل شيء عبد ومخلوقه فكيف يمثل به، إنما المصنوع آية دالة على حكمته وقدرته. (المصدر نفسه، ص 52)

العقوبة عند الإصرار على الجريمة:

وفي أمر الجريمة يرى الفراهي أن الجريمة إذا تكررت واعتادها المرتكب فإنها تستوجب عقوبة أشد، ويذكر في الأمثلة على ذلك أمر الرجم. فهو يرى أن الجلد

هو العقوبة الأصلية لجريمة الزنا وأما الرجم فهو لمن أصرَّ على جريمته ولم يرتدع بالجلد. يقول: الرجم إذا ألح عليه زاد خطرًا وحينئذ يدخل في باب الفساد في الأرض والبغي، فيلزمه تعزير الفساد والبغي. كالزاني إذا عاد بعد جلده رجم إذا كان ثيبًا، ونفي عامًا إذا كان بكرًا لقوله تعالى: {عَوْنٌ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ} [المائدة: 33] وكما قال تعالى: {لِّئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا} ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقَتِّلُوا وَتُنْفِثُوا قَتْلًا ﴿٦١﴾ [سورة الأحزاب: 60، 61] وكما فعل ببني قريظة على نقض العهد مرة بعد مرة. (المصدر نفسه، ص 28)

لقد صرح الفراهي بموقفه هذا تجاه الرجم في مواضع عديدة من كتاباته. وقد انضم إلى صوته عدد من الأصوات فيما بعد.

إلا أن الفراهي يشير هنا إلى قضية أخرى مهمة أيضًا وهي عقوبة بني قريظة، فهو لا يطمئن إلى القول بأن ذلك كان بسبب نقض العهد مرة واحدة فقط، كما هو المشهور. بل يبرز ذلك بنقض العهد مرة بعد مرة، وهذا يحتاج إلى دراسة تاريخية موسعة. ولا ننسى أن ديدن اليهود هو نقض العهد مرة بعد مرة.

حكمة الجهاد:

تحدث الفراهي عن حكمة الجهاد وغايته، وسلك في ذلك طريقًا مختلفًا عن الطريق المألوف المعروف. فلم يذكر أن الجهاد قد شرع لإعلاء كلمة الإسلام وإزالة شوكة الكفر، ولم يقل إنه للدفاع عن الإسلام والمسلمين فقط. بل ذكر له حكمًا وغايات تجعل الجهاد رسالة إنسانية عظيمة تتوافق مع مبادئ الشريعة العامة. يقول الفراهي: الصوم من الجهاد، والجهاد لخدمة الخلق لوجه الله (المصدر نفسه، ص 101)

ويوضح أكثر فيقول: لزوم الجهاد لإقامة القسط، وإزالة الجور والإكراه في الدين، أي الفتنة. (المصدر نفسه، ص 66)

ويضيف: ولما كان البغي هادماً للقسط ومخالفاً للدين الذي هو طاعة الله وهو القسط لزمهم نصرة الدين وإزالة البغي، وذلك هو الجهاد في سبيل الله كما صرح به القرآن حيث قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ} [سورة الحديد: 25] في اتخاذهم آلات لجل صناعاتهم {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ} [سورة الحديد: 25] ويشبهه ما جاء في نصرة المظلوم ورد الظالم إلى القسط وهو قوله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفُتِنَا أَلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [سورة الحجرات: 9].

لا إيمان بالشكوك، ولا دين بالبغي، ولا يزال الجهاد ما دامت الفتنة والبغي. ولا سبيل إليه حيث لم يكن إكراه ولا بغي على الناس {عُدَّوْنَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} [سورة البقرة: 193] والتجربة كشفت لنا عن أحوال الجهل والكفر فعلمنا وأيده القرآن أن الجهاد لا يزول {وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرْدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَظْلَمُوا} [سورة البقرة: 217] وقد رأينا ذلك. وإذا كان الأمر كذلك ثبت أمران: الأول أن الجهاد لا يزول ما دام الكفر باقياً. والثاني أن الجهاد ليس إلا لإزالة الفتنة والبغي. ثم إننا نعلم أنه آخر التدابير، وله شرائط. فإن الفتنة والقتل ربما يدفعان بالصلح أكثر مما يدفعان بالقتال. (المصدر نفسه، ص 67-68)

لقد ذكر الفراهي للجهاد مقصدين أساسيين، المقصد الأول: إزالة الفتنة والبغي، والفتنة عنده الإكراه على الدين. والمقصد الثاني: الدفاع عن النفس، وذلك لأن أهل الكفر لن يتوقفوا عن قتال أهل الإسلام إلى يوم القيامة، فالقتال ماضٍ إلى يوم القيامة، ليس لأن المسلمين مكلفون بذلك، بل لأن المسلمين مجبرون لمواجهة

القتال من قبل أهل الكفر. والمتسبب في القتال في الحالين هم أهل الكفر والفتنة والبغي وليس السبب الحقيقي يعود إلى الإسلام والمسلمين. وعلى المقصدين تدل آيات كثيرة في القرآن الكريم.

موقف الفراهي من حجية الإجماع:

لقد سلك الفراهي مسلك الاعتدال في حجية الإجماع، فهو يرى أن الإجماع حجة، ولكنه حجة لا تمنع من اجتهاد جديد، وبذلك يفتح الطريق للاستفادة من التراث القديم ولكن لا يرى التراث القديم عقبة في الاجتهاد في العصر الحديث. إن الغلو في حجية الإجماع يشكل عقبة كبيرة في طريق الاجتهاد، والاعتدال في هذا الباب يفتح طريق الاجتهاد.

يقول الفراهي: لا شك أن لإجماع الأمة لا سيما السلف الصالح شأنًا عظيمًا. ولكن في الإجماع المطلق التباسًا، ولذلك أنكره بعض فرق الإسلام كالمعتزلة والإمامية. فإن كل أمر ملتبس عام مظنة للاختلاف. ولم يتركه الأصوليون مطلقًا محضًا، ولكن بقي التباسه فمن تفصيل أمره ينجلي حكمه ويظهر تأويل ما ورد في الكتاب والسنة في تأكيد اتباع الإجماع. فنريد تفصيله ونرجو أن يكشف الله عن الحق الصريح فيما هو حد الإجماع وسعته.

ثم قال: أما المسائل فإذا أجمع المجتهدون على جزئية وجب على الأمة الموجودة العمل بها. فإن نبغ مجتهد بعد عصر ذلك الإجماع وظهر عليه خطأهم وبين دليله رفع وجوب الاتباع عن الأمة.

وإذا أجمع المجتهدون من عصور متوالية على مسألة ضاق باب الاختلاف، ولا يعبأ بمن يخالفهم إلا إذا أتى ببراهين دامغة وحق واضح، فإن الحاكم ليس إلا القرآن والسنة. ومع ذلك تأملنا زمانًا طويلًا في رأيه حتى يشرح الله صدورنا. وأهل التقوى إلى تقليد السلف الصالح أميل منه إلى رأي جديد. وليتق الله هذا المجتهد من

الجراءة على اختلاف السلف. فإذا فعل واستبد بذلك لزم الآخرين أن يسمعه
كما هدانا الله تعالى بكلامه العزيز: {فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ
أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝} [سورة الزمر: 17،
18] وهكذا ثبت من السلف فإنهم في جمع القرآن بين الدفتين وفي تشكيكه
بالحركات وفي بناء الكعبة كانوا إلى تقليد السلف الصالح أميل منهم إلى الأمر
الجديد ولكنهم استمعوا القول فاتبعوا ما كان أحسن. فما كانوا سريعاً إلى الجديد
ولا جامداً على التقليد. وكان أمرهم قواماً. (المصدر نفسه، ص 70)

الرأي الشائع في مسألة الإجماع هو أنه إذا ثبت الإجماع فلا يجوز لأحد أن يختار
رأياً يخالف ذلك الإجماع. والفراحي يرى أنه يجوز أن يظهر رأي يخالف الإجماع
ويجب قبوله إذا كان أقوى من الرأي المجمع عليه من حيث الحجة والبرهان. وما
أروع ما توصل إليه الفراحي من هدي السلف من عدم السرعة إلى الجديد وعدم
الجمود على التقليد.

(لا سرعة إلى الجديد ولا جمود على التقليد) إنها فكرة قوية تستحق أن تكتب
بماء الذهب وتكون شعاراً للعلماء المحققين.

الحكمة من التعدد في الزواج:

تحدث الفراحي عن العلاقة المثالية بين الزوجين ولا سيما في حال التعدد، فقال:
إن في النكاح مصالح لا تخفى ولا تحصى، ومع ذلك فيه جمع الطبائع المختلفة
والمشيئات المتباعدة لا سيما عند كثرة الزوجات. وقد رخص لها لمصالح معلومة
من التعفف، والقسط باليتامى، وكفالة النساء جميعهن فلا بد من تشريع ما
يصلح مفاسدها. (المصدر نفسه، ص 82)

لقد ذكر الفراحي ثلاث حكم لمشروعية التعدد، والحقيقة أن هذه الحكم الثلاثة قوية
جداً تجعل التعدد واجباً اجتماعياً، فإن الضرورات التي ذكرها الفراحي ليس لقضاءها

طريق إلا طريق التعدد. ولذا ينبغي للناس أن يتجاوزوا إيراد الشبهات وتوجيه التهم على أصل التعدد ويفكروا في ما يصلح مفاستها كما يدعو إلى ذلك الفراهي.

تعليل الفراهي لبيع الفضل فيما نهى فيه الفضل يدا بيد:

تحدث الفراهي عن هذا البيع فكشف عن حقائق عظيمة، ربما لا نجد ذكرها في كتب الفقه الموروث.

قال: إنما بقيت حرمة للاجتناب عن صورة ما حرم. فيجوز هذا البيع إذا بدلت صورته، كما جاء في الخبر ببيع الجيد بالدرهم ثم اشتراء الرديء بها مع الفضل. فإن الذي حرم حقيقة لا يجوز بتبديل صورته. لأن الشريعة لا تحرم صورة لنفسها، إنما تحرمها لكونها صورة ما حرم لعله فيه. وابن عباس وأصحابه من كبار المكين فهموا شطراً من هذه الحكمة ولم يلتفتوا إلى شطرها الآخر. فاستحلوا بيع الصاعين بصاع يدًا بيد لقوله عليه السلام: إنما الربا في النسيئة. ففهموا أنه عليه السلام دلهم على علة الحرمة وحقيقة الربا، وأصابوا في ذلك. ولكن ذهب عليهم أنه عليه السلام إنما بيّن لهم حقيقة الربا حسبما يقع. فإن المشتري لا يحتمل الخسارة إلا لصفر يده من الثمن، فيشتري بالنسيئة ويعطي فضلاً على الثمن الرائج. (المصدر نفسه، ص 22-23)

وهنا يكشف الفراهي عن حقائق فقهية في غاية الأهمية، منها أن الشريعة لا تحرم صورة لنفسها، إنما تحرمها لكونها صورة ما حرم لعله فيه. ومنها أن الذي حرم حقيقة لا يجوز بتبديل صورته. ومنها أن ما بقيت حرمة للاجتناب عن صورة ما حرم يجوز إذا بدلت صورته.

القياس المنسجم مع الغاية الكبرى:

لا يقبل الفراهي القياس إلا إذا كان منسجماً متوافقاً مع المقصد الأصلي للشريعة، ومن الأمثلة على ذلك موقفه من العلة في حرمة بيع الخمر.

يرى الفراهي أن العلة في حرمة بيع الخمر هو كونه حرامًا، والحكمة هي سد المحذور، وهو بعد ذكر الأدلة ينتقد على من جعل العلة كونه نجسًا، فقال: وبعض العلماء جعل بيع كل نجس حرامًا، قياسًا على الخمر مع الفارق. فإن أصل الحكمة سد المحذور والاجتناب عن الوقوع في الحرام. ولست من نفاة القياس، ولكنه صعب المرتقى فربما تزل فيه قدم المجتهد.. (المصدر نفسه، ص 23-24)

وهذا الموقف من الفراهي منبثق من رؤيته العامة إلى أحكام الشرع بأن الغرض منها التزكية. وهذا الغرض لا يتحقق تمامًا عندما نقول حرم بيع الخمر لكونه نجسًا. فالذي حرم تناوله ينبغي أن يحرم التعامل به بيعًا وشراء لسد المحذور من جميع أبوابه.

موقف الفراهي من الحيل:

بما أن الفراهي أدرك أن المقصود من أحكام الشرع هو التزكية فأصبح بطبيعة الحال موقفه من الحيل واضحًا جدًا.

إنه يرى أن الحيلة إن كانت وسيلة لطاعة الله فهي تعد من الطاعة وإن كانت وسيلة لمعصية الله فهي تعد معصية.

يقول الفراهي: الحيلة حيلتان متفاوتتان: حيلة للإطاعة وحيلة للمعصية - وشتان ما بينهما - فالمحتال لإبطال حكم الله عاصٍ، والمحتال لإثبات حكم الله مطيع. (المصدر نفسه، ص 32)

يوضح الفراهي أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما أمر ببيع الرديء من التمر مقابل ثمن ما ثم اشتراء الجيد من التمر بذلك الثمن، فإنه لم يكن ذلك حيلة للتوصل إلى الربا بل كان الغرض منه الإبعاد من صورة من صور الربا والتقريب إلى البيع الحلال.

يقول: ذكروا حيلًا كثيرة للاجتناب عن الربا، وأكثرها فيها خداع للنفس وتكذيب. (المصدر نفسه، ص 91) قال ذلك حينما كان التحايل من أجل الربا على مستوى

محدود جدًا، ولم يكن صناعة كما هو الحال الآن حيث أصبح صناعة الحيل المالية صناعة كبيرة مدعومة بالمؤسسات.

يقول الفراهي: فما أعظم جرأة المتفقيين في الحيل، أليس الله بأعلم بما في صدورهم. (المصدر نفسه، ص 93)

موضع الصلاة في الدين:

عندما يتحدث الفراهي عن أصول الشرائع يؤكد كثيرًا على أن الصلاة هي أصل الأحكام وهي أول الشرائع، وهي رأس الإسلام.

يقول: لا بد في كتاب أصول الشرائع أن نبين ما هو الأصل من الأحكام ولم؟ لكي يحافظ عليه ويعرف منزلته. وأرى أن الصلاة هي الأصل، لوجوه كثيرة كما بيناه. ومنها كونها ذكرًا وعبادة وتقرّبًا وصعودًا. وهذه كلها من الأوليات نقلاً وعقلًا... والصلاة عمل الفكر، فإذا تم نشأ منه حب الله... ومن وجوه كون الصلاة أصلًا أن الصلاة هي التي توسطت بين الإيمان والعمل، فهي من وجه عمل ومن وجه فكر واعتقاد. والنية والإخلاص شرط في جميع الأعمال، فإنها هي روح الأعمال، ولكنها في الصلاة أكثر حتى كان الذكر هو الصلاة. ومن وجوه كون الصلاة أصلًا كونها جامعة لركني الدين: حب الله وحب الخلق. فإن أولها الله أكبر، وآخرها السلام على عباده. (المصدر نفسه، ص 101)

ويقول: هممت أن أقول إن الصلاة هي الدين، ولكن لتفهم قولي أقول إن الصلاة أول الشرائع ومظهر التوحيد والشهادة به. (المصدر نفسه، ص 36)

ويقول: كدت أقول الصلاة هي الدين، وإذا لم أبعد، ولكن ليفهموني أقول: إن الصلاة أول الشرائع بعد التوحيد أي الإيمان. فرأس الأعمال الصلاة، وهي متصلة وجامعة للإيمان. (المصدر نفسه، ص 48)

ويقول: وأظن الصلاة والزكاة رأس الإسلام وقلبه، وسائر الشرائع تبع لهما (المصدر نفسه، ص 6)

ولقد وقفت على كلام بديع للفراهي وهو يتحدث عن الصلاة وهو كلام رائع بديع حسب زمانه، فإنه يتردد كثيراً في الأدبيات المعاصرة، ولكن لا نكاد نسمعه في الأدبيات القديمة، إلا أنني لست متأكداً أن الفراهي هو أول من أشار إليه، يقول الفراهي: الصلاة صورة للنظم السياسي، وطرف من الإسلام وهو الطاعة الكاملة والانقياد. فجعل إماماً نتبعه في كل مسجد، ثم نتخذ إماماً للجامع، ثم للعيد، ثم للحج، فانتظم بالإمام الواحد جامع إسلامي ديني، وبعضهم فوق بعض. (المصدر نفسه، ص 21)

الفرق بين الفراهي والدهلوي:

الفراهي نفسه يبين الفرق بين منهجه في كتابه "الرائع في أصول الشرائع" وبين منهج الدهلوي في كتابه "حجة الله البالغة". إنه يرى أن الدهلوي قد اجتمع لديه أهداف عديدة من بيان مصالح الأحكام، وإرغام المنكرين للشرع، وتأويل الأحاديث وما ورد من المستبعدات، فجاء عمله مختلطاً. وأما هو فليس هدفه إلا بيان حقائق الأحكام. يقول الفراهي: مصنف "حجة الله البالغة" سعى في بيان مصالح الأحكام وحقائقها مختلطة، إرغاماً للمنكرين. وغرضه كثيراً تأويل الأحاديث والمستبعدات. وإني أريد بعونه تعالى أن تبين الحقيقة في العلم والعمل لتصحيحهما. (المصدر نفسه، ص 98)

الخروج على سلطان العادة واجب:

إن الفراهي يدعو إلى الالتزام بالموضوعية في كل مسألة بغض النظر عن مدى حساسية تلك المسألة، ويدعو إلى الخروج التام من التعصب كله حتى التعصب الخفي. فمثلاً يقول في النزاع في مسألة أحقية الخلافة بين أهل السنة والشيعة: "فليس للمحقق إلا أن ينظر في الكتاب وفي السنة نظر الناقد المحقق من غير تعصب لأحد من الطرفين، ووجب عليه أن يقوم بينهما منقطعاً منهما سوياً

مستقيماً راسياً قدميه، جاعلاً الحق نصب عينيه مبتهلاً إلى الله حفيّاً لهداه ورضاه. فإن بان له الحق مال إليه غير خائف لومة لائم، ولكن هذا موقف صعب".

ثم يبين صعوبة الموقف: إن أقل القليل من العلماء من يخيل إليه أنه ينصف ولما يخرج من التعصب الخفي والجمود على ما تعود به، فأى رجاء للنظر الصحيح.

يعيد الفراهي سبب التعصب الخفي إلى العادة، فيقول: للعادة سلطان شديد على الرأي، ولذلك الحكماء من أي مذهب كانوا لا يخرجون منها إلا نادراً. وهذا أمر مشاهد معلوم. فالخروج من العادة أول خطوة، ولا يمكنك هذا إلا أن تنبذ ما علمت من الأمور المختلفة ... فليكن الحق نصب عينك والطهارة غاية أمرك، والرحمة مخ نفسك، والعمل بما علمت أول خطوتك، واجعل جميع الناس سواء في حسن ظنك أو خلافه. وبالجملّة تجرد من العادة واستقم على الفطرة. (المصدر نفسه، ص 73-74)

وهذه ليست دعوة الفراهي التي دعا إليها، بل هي ميزة الفراهي العظيمة التي تميز بها. إنه استطاع فعلاً التحرر من التعصب الخفي ومن سلطان العادة فأصبح نموذجاً في الإنصاف والموضوعية، وبرع في مجالات العلم الكثيرة، وقدم آراء كثيرة في غاية الروعة والندرة، وانتقد على آراء السابقين بكل جرأة وقوة، وبذلك ظهر تراثه العلمي أمام الأجيال شامخاً رائعاً.

العلامة الفراهي ونظرية الإسلام في الحكم والخلافة

- أ.د. عبيد الله فهد الفلاح¹

ترجمة من الأردوية: عمر رضا²

إذا أمعنا النظر في القرآن الكريم وجدنا أن الأمر لله تعالى كله، وأن الطاعة حق ينفرده وحده. وكما أن حكم الله عالمي فهو سياسي وقانوني، وبالإضافة إلى ذلك هو أخلاقي واعتقادي.³ ونظرية الحكومة هذه من مبادئ الإسلام الأساسية، وقد اتفق عليه العلماء والفقهاء كلهم منذ بداية الإسلام حتى الآن بأن الله هو الحاكم الوحيد كونياً وسياسياً، ولا يشاركه فيه أي إنسان أو مؤسسة أو مجتمع، كما يقول الله تعالى: "خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ" (١٧).⁴ وقال أيضاً: "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ" (٢٢).⁵ وقال أيضاً: "قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (٨٨).⁶ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ" (٨٩).⁷ وقال أيضاً: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (٢٣).⁸

¹ بروفيسور، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

² باحث، قسم اللغة العربية وأدائها، الجامعة المالية الإسلامية، نيو دلهي

³ انظر مثلاً الآيات القرآنية، سورة المائدة: 44، الأعراف: 3، 54، بنو إسرائيل: 111، آل عمران: 26، الناس: 1-3، يوسف: 40.

وكتب العلامة المودودي في تفسير الآية الأخيرة أنه لا توجد أي إشارة أو كلمة تدل على الحاكمية العالمية، للمزيد انظر "اسلامي رياست"، طبعة لاهور، 1987م، ص 365.

⁴ سورة هود: 107

⁵ سورة الأنبياء: 23

⁶ سورة المؤمنون: 88-89

⁷ سورة الحشر: 23

تعرف الحاكمية العليا في علم السياسة عندما تطلق على شخص أو مؤسسة، بأن له السلطة الكاملة المطلقة على المجتمع كله، ويطيعه الناس طوعاً وكرهاً، وأن له السلطة العليا وله الحكم في كل الأمور ويتفرد بالحكم وحده. ومن الظاهر من وجهة نظر القرآن الكريم أنّ الله تعالى هو الوحيد الذي له الحكم في الأرض والسماء.

ولو تدبرنا القرآن الكريم وجدنا أنّ الإنسان خليفة الله في الأرض.¹ وهو الخليفة الذي يقوم بتنفيذ حكم الله السياسي والقانوني في الأرض، وأنّ حكمه محدود، وليس حكمه السلطة العليا وليس له الاختيار في أمره. وأنّ عليه أن يقوم بتنفيذ حكم الله تعالى وأوامره.² وإنّ خلافة الله لا تكون لفرد أو أسرة أو طائفة بل هي لكل من يسلم تسليمًا لحكم الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وهنا نجد الفرق بين نظام الخلافة الإسلامي ونظام الغرب السياسي، لأنّ السياسة الغربية مطلقة وأنّ الخلافة الإسلامية مبنية على كتاب الله وحكمه.

وعرفت السيادة في مصطلح جديد بأنها فرد أو مجموعة أفراد ولها اليد العليا في القوة والمرتبة والسلطة على الآخرين كلهم.³ ومن المعروف أنّ كلمة السيادة

¹ سورة النور: 55، وسورة البقرة: 30

² فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (النساء: 65)، وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (سورة الأحزاب: 36) ويقول المودودي في شرح معنى الخليفة إن الخليفة هو من يستخدم الاختيارات المفوضة إليه كنائب، وهو لا يكون رئيسًا بل هو نائبه، ولا تكون اختياراته ذاتية بل هي مفوضة، ولا يحق له أن يعمل في أمر بحرية بل عليه أن يعمل كما أمره الرئيس. وإن يظن نفسه رئيسًا وبدأ يستخدم الاختيارات المفوضة كيف يشاء، أو يجعل رئيسًا آخر غير رئيسه الأصلي ويخضع ويدعن له فهذا هو نفاق. (اتفهم القرآن، 62/1)

³ Above or superior to all others, the greatest and supreme in power, rank or authority ' Webster: New World & Dictionary of the American Language, College Edition, World Publishing Co, New York, 1960, p. 1395.

(Sovereignty) مشتقة من الكلمة الفرنسية Soverain ومعناها العظيم والسيد، وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية (Superanus)، وكلمة Super مشتقة من هذه الكلمة.¹ وتطورت هذه الكلمة في الغرب تطوراً شاملاً وتعطى للدولة سلطة مطلقة وشاملة، وما زالت الدولة تصبح قوية وثابتة يوماً بعد يوم. وفي البداية ظهرت نظرية الأمة والوطنية (Nation, Nationality, National)، ثم سيطرت عليها فكرة السيادة المطلقة الشاملة. وكان جان بودان (Jean Bodin) (1530-1596 م) المفكر الفرنسي في القرن السادس عشر هو أول من جاء بهذه النظرية، ولذلك يمكن القول بأنه مؤسس نظرية السيادة في الغرب.²

وقد شاهد جان بودان في أوروبا الصراع الديني والصراعات والحروب الداخلية واستغلال عامة الناس بسبب الدين، كما شاهد ظهور الملوك الأقوياء، وطلوع السياسيين ردًا على الاستبدادية المطلقة، واضطر إلى تأييد النظام الملكي القوي لإقامة السلام والأمن والقانون وإنهاء النزاع الديني في فرنسا، فاختار استبدادية لإنهاء استبدادية أخرى. وأعطى الحكام السياسيين الحقوق القانونية والأخلاقية والفلسفية وقام بتعريف السيادة في شكل لا توجد فيه أي مقاومة أو ثورة أو خلاف ضد الحكومة في أي صورة ممكنة. ورأى بودان أنّ الحاكم هو الذي لا يخضع لأي مؤسسة أخرى، ويقدر على سن القوانين كلها دون أن يهتم بالحصول على الموافقة من الرعية.³ وقد رأى بودان أنه لا بد في الحكومة من سلطة أو قوة

¹ Johannes Mattern, concept of state' Sovereignty' and International Law Johns Hopkins Press Baltimore, 1928, p. 1

² وهذا من بواعث العجب أنه لم يذكر اسم المفكر السياسي الشهير ميكيايلي (1469-1527 م) في هذا الصدد، بالرغم من أن كتابه 'الأمير' (The Prince) قد أثر في السياسة الغربية إلى حد بعيد. وقد لُقِّبَ العلامة إقبال بـ 'واحد من مرسلّي الشيطان' بسبب سياسته الفاسدة. (جامع المقالات المقدمة في الندوة الدولية حول سيرة وأعمال الإمام الفراهي)

³ Bernard Crick, 'Sovereignty' International Encyclopedia of the Social Sciences, Macmillan Co., New York, Vol. 15, P. 79.

تكون مركز جميع السلطات والقوات، ويكمن في هذه القوة حل لجميع مشكلات الحكومة، ولا تخضع هذه القوة لأي سلطة أخرى. ويقول بودان بأن الحكومة هي سلطة عليا يخضع لها جميع المواطنين وأن تكون مطلقة وأن لا تكون نسبية. ومن مهامها سن القوانين بإرادتها، ولا يكون أحد حاكمًا مطلقًا إذا كان يخضع لأي سلطة أخرى لأن السيادة مطلقة وغير قابلة للتقسيم.¹

وكان المفكر الإنجليزي توماس هوبز (1588-1679م) معجبًا بالخلافات الداخلية بين الكنيسة والدولة. وسافر إلى المدن الكبرى من فرنسا وإيطاليا، وشاهد المشكلات السياسية في هذه المدن والتي أدت إلى تغيير جذري في آرائه وأفكاره. في الحقيقة أن الحرب الأهلية في إنجلترا وفرنسا لعبت دورًا بارزًا في بناء أفكاره وتطورها.² ولما هزم كروم ويل تشالز الأول في عام 1642م، هرب هوبز إلى باريس ولجأ إليها، وهناك قام بتأليف كتابيه الشهيرين (De Cive) و (Leviathan).³ وقدم في "ليفثان" نظرية العقد الاجتماعي (Social Contract Theory). وفي آراء هوبز كانت الدولة بفطرتها في حالة حروب أهلية، ففي العهد الفطري كان محاربة الناس بعضهم بعضًا، وحالة شر وعناد والفوضى وهمجية حالة طبيعية. ولأجل ذلك اجتمع الناس للخروج من هذه الحالة الشنيعة للبقاء والدفاع عن النفس، فتنازل الناس عن جميع حقوقهم الطبيعية، وخضعوا لفرد أو طائفة ليصبح هذا الشخص ملكًا عليهم، ويحفظهم ويؤمنهم.⁴ ولا ينعقد العقد الاجتماعي لهوبز بين الدولة والرعية بل اجتمع الناس بأنفسهم وخضعوا للحاكم وفضلوا العيش تحت

¹ Johannes Mattern, p.2

² George G.E. Catlin, 'Hobbes, Thomas', Encyclopedia of the Social Sciences, Vol. 7, P. 394.

³ Johannes Mattern, P. 13-14, also see: Ilyas Ahmad, Sovereignty: Islamic and Modern, The Allies Book Corp. Karachi, 1965, P. 69. Su Ching Chen recent Theories of Sovereignty, Lingnan University Book Store, Cauton, 1928, P. 13-15.

⁴ Su Ching Chen, P. 14.

حاكم مطلق. ولم يكن الحاكم طرفاً في هذا العقد بل كان الناس يخضعون للحاكم مطيعين وراغبين في منافعهم. ورفع هوبز راية الاقطاعية والاستبدادية والحكومة المطلقة كما فعل جان بودان. واعتبر هوبز بأنه لا بد من سلطة مطلقة كاملة لإنهاء الحروب الأهلية وتحقيق الأمن والسلام في المجتمع.¹

وقد قدّم جون لوك (1632م - 1704م) نظرية العقد الاجتماعي أيضاً ولكنها مختلفة قليلاً من هوبز. ووفقاً للوك كانت الدولة الفطرية هي دولة طيبة وسلام، والناس يعيشون حياتهم بسعادة ويتمتعون بالحقوق الطبيعية وهي الحرية والأمن والسلام والمساواة والاتحاد، وتم العقد بين الأفراد والسلطة الحاكمة لتضمين حقوق الطبيعة والحفاظ على أنفسهم. وتنازل الأفراد شيئاً من حقوقهم للحاكم في المجتمع، وهكذا تم العقد بين الطرفين.² وأعطى لوك سيادة مطلقة للشعب وأصبحت الدولة وكيلاً للشعب والمجتمع لتقوم بحل مشكلات الشعب.³

وقد قدّم جان جاك روسو (1712-1778م) نظريته عن العقد الاجتماعي. ووفقاً لهذه النظرية قد تنازل كل فرد عن حقوقه للمجتمع أو الإرادة العامة، كما أعطى هذا العقد الإرادة العامة أو المجتمع سيادة مطلقة على الناس.⁴ وفي رأيه أن الإرادة العامة هي سلطة مطلقة، ووسايتها تفوق على الجميع في الحكومة، وأنّ نظام الحكم في هذا العقد هو ديموقراطي، والإرادة العامة هي السلطة الوحيدة في إنشاء الحكومة، كما أنّ من خيارها ترميم القانون وتنسيخه.

¹ Bernard Crick, P. 79, Su Ching Chen, P. 15, and Ilyas Ahmad, P. 69.

² Johannes Mattern, P. 15-17, and Ilyas Ahmad, P. 135- 137.

³ المصدر السابق، ص - 17، وقال جون لوك: "إن من مسؤولية الدولة أن تقوم بالحفاظ على أمور النظام السياسي".

⁴ Robert Derathe, 'Rousseau, Jean Jaques', International Encyclopedia of the Social Sciences, 1968, Vol. 13, P.567.

وأما روسو فأولى اهتمامًا بعروج وزوال فرنسا وقدم نظرية تحديد السلطة الحكومية، وهذه النظرية تحمل الجوانب القانونية بدلًا من التحديدات الأخلاقية والاعتقادية. وميّز بين الحكومة والسيادة وجعل الحكومة الوكيل التنفيذي (Executive Agent) للحاكم الأعلى.¹ وكان روسو يعتبر أنه لا بد أن يجعل حدًا على الحكومة لأنه من الممكن أن يساء استخدام سلطتها أثناء تنفيذ القانون وإدارة الدولة، وهو لا يمنح الحكومة السلطة التشريعية بل يخصها لعامة الناس كي لا تصبح الحكومة مهيمنة على الدولة. ولو أنه تحدث كثيرًا عن هذه القضايا وألقى الضوء على أهميتها ولكنه لم يتمكن من حلها.² ويعتبر أن عدم وجود العلاقات المناسبة بين الحكومة والدولة هي قضية مهمة في العالم السياسي حتى الآن.³

والسيادة عند جون أوستن (1790-1859 م) اسم فرد أو مجموعة أفراد ويضطر المجتمع فيها ليخضع لهم وهي لا تخضع لأحد أبدًا.⁴ وأما القانون في رأيه فهو مجموعة أحكام تصدر عن صاحب السيادة.⁵ ويوجد صاحب السيادة هذا في كل مجتمع يوجد فيه القانون، ولذلك يمكن أن يكون صاحب السيادة واحدًا أو أكثر من واحد. مثلًا في إنجلترا تتكون الحكومة من ملك أو ملكة وأعضاء مجلس اللوردات ومجلس العموم كلها.⁶

¹ Johannes Mattern, P. 18-19, Robert Derathe, P. 568.

² قدر روسو آراء الناس، وتحدث عن وضع حد لاختيارات الملوك. ولذلك يعد من مؤسسي الثورة الفرنسية (1789 م)، ولو أنه لم يدعي بحل هذه القضايا بل حول انتباه الآخرين إلى هذه القضية المهمة. (جامع المقالات المقدمة في الندوة الدولية حول سيرة وأعمال الإمام الفراهي)

³ Robert Derathe, P. 568.

⁴ H.L.A. Hart, 'Austin John' International Encyclopedia of the Social Sciences, New York, 1968, Vol I, P. 471

⁵ H.L.A. Hart, P. 471. Johannes Mattern, P. 47.

⁶ H.L.A. Hart, P. 471.

ولا يميّز أوستن بين الحكومة والسيادة أثناء تعريفه للسيادة، بل يظهر من كتبه ومقالاته أنّ الحكومة هي اسم آخر للسيادة. إذ أنه لا يقبل المجتمع كسيادة اجتماعية. وفي رأيه أن طبقة من المجتمع تكون حاکمة وصاحبة السيادة، وأما الطبقة الأخرى فتكون من الرعايا وتستمر تلعب دور المواطنين المواطنين.¹ وانتقدت نظريته هذه إذ قويت بها الإقطاعية والدكتاتورية والحكومة المطلقة. وبالإضافة إلى ذلك أنّ هذه النظرية لم تكن مقبولة في المجتمع الذي تكون فيها السلطة التنفيذية والإدارة الحكومية تابعة للدستور السياسي.²

ورفض ليون ديغي (1859-1928 م) تعريف أوستن السابق رفضاً تاماً، وادّعى أنّ عرض الحاكمية كصفة أساسية للدولة، خيالٌ لا حقيقة له، ويجب رفضه. وقدم نظرية التضامن الاجتماعي (Social Solidarity) بدلاً من العقد الاجتماعي.³ وقدم نظرية الخدمة الشعبية، وهو يعتبر أنّ قوة الحكومة مجرد جهاز لتحقيق التضامن الاجتماعي وإدارته وتحقيق أهدافه.

ويقول ديغي بإمكان بقاء الحكومة طالما تمثل رضا الشعب ورغباتهم. وأما الذين يديرون الحكومة فهم كالأشخاص الآخرين في الدولة فحسب، وليس لهم فضل عليهم في القوة أو الدرجة. ويساوي كلا الجانبين في جميع الأمور، ولكنه يتفق بأن المسؤولين الحكوميين يسيطرون على "قوة القيد" (The Force of Constraint).⁴ وقد حاول أنّ يضع بعض قواعد الأخلاق السياسية، ولذلك يميّز بين القانون الإيجابي والقانون الوضعي. فأما القانون الإيجابي فهو القانون الذي تم تشريعه وتنفيذه وتطبيقه من قبل السلطة الشعبية. وأما القانون الوضعي فهو القانون

¹ Johannes Mattern, P. 49-51

² Bernard Crick, P.80-81, H.L.A. Hart, P. 271-271 Johannes Mattern, P. 47-51

³ Johannes Mattern, P. 110-117.

⁴ Charles Eisenmann, 'Duguit, Leon', International Encyclopedia of the Social Sciences, 1968, Vol. 4, P.306.

الذي تم الاتفاق عليه من قبل الشعب.¹ ويرى أن الشعب يطيع القانون الإيجابي ليتفق مع القانون الوضعي. وإن لم يؤيد القانون الوضعي أي مشروع للقانون الإيجابي فيصبح هذا المشروع غير قانوني.² وهكذا أبطل دييجي نظرية القانون الطبيعي، ورفض القوانين التي تصلح لجميع الناس في كل عصر. ووجد القانون الإيجابي مختلفاً عن القانون الطبيعي، لأن القانون الإيجابي يؤيده المنهج العلمي والعقلي، بينما تؤيده القانون الطبيعي المعتقدات الدينية ويخالفه المنهج العلمي.³ وقد تحدّى أيضاً هارولد ج. لاسكي (1893-1980م) نظرية العقد الاجتماعي، وقال: لا يوجد شيء تعبر به السيادة، لأنّ هذه النظرية تصبح محددة جداً. وتؤثر الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لكل بلد على فعالياته. وفي رأيه يصعب تعيين صاحب السيادة، وأشار إلى الولايات المتحدة الأمريكية وقال: إن تعيين السيادة فيها عمل صعب.⁴

وكان لاسكي عضواً فعالاً في الحركة العمالية (Labour Movement)، وكان يريد أن ينقذ المؤسسات العمالية من الدولة السائدة، وينجيها من سلطة السيادة. وقد ناقش في كتبه (Authority In The Modern State) و (The Foundation of Sovereignty) ضد الحاكم والسيادة العليا، ودافع عن قواعد السياسة التعددية. وفيما بعد دعا إلى نظرية اللامركزية (Decentralization) (في كتابه A Grammar of Politics) وانتقد السلطات الحكومية بشدة. ورفع صوتاً لحقوق الجماعات المنظمة، وأكد أن يرجع الناس إليها في الشؤون العامة.⁵

¹ Charles Eisenmann, P. 306.

² Charles Eisenmann, P. 306-307.

³ Charles Eisenmann, P. 306-307.

⁴ Ilyas Ahmad, P. 365-367.

⁵ Herbert A. Deane, 'Laski, Harold J., 'International Encyclopedia of the Social Sciences, 1968, Vol. 9, P. 31-32. See also the following works by Laski. A Grammar of politics, ed. 5, Allen and Unwin London, 1967: Authority in the Modern State, Archon Books, Hamden. C. t., 1968: The Foundation of Sovereignty and other Essays, Harcourt Brace and Co., New York, 1921.

اتضح من هذه الدراسة الوجيزة أنّ النظريات السابقة عن الحكومة نشأت حسب مقتضيات العصور المختلفة في الدول الغربية. لقد وضع المفكرون والفلاسفة السياسيون حسب قدراتهم وفهمهم هذه النظريات وحسب مقتضيات المجتمع في ذلك الزمن لمواجهة الأوضاع في ذلك الوقت.

ودعم توماس هوبز وجين بودين بأنّ تكون السيادة لفرد أو مجموعة أفراد وأما نظام الحكم فيها فهو دكتاتوري، حيث أنّ الصراع الديني والحروب الداخلية والتوتر السياسي والصراع بين الكنيسة والدولة قد انتشر في فرنسا وإنجلترا فاحتاجت هذه الأوضاع إلى قوة شديدة لإنهاءها، وتم تأليف كتاب "ليفثان" نظراً لهذه المقتضيات، ولم يشترك صاحب السيادة في العقد الاجتماعي مع عامة الناس بل منح السلطة المطلقة عليهم.

وفي جانب آخر أعلن لوك وروسو بأنّ السيادة والسلطة المطلقة تنتمي إلى عامة الناس لأنّ الثورة الفرنسية قد بدأت وكان الناس يرفعون أصواتهم ضد الحكومة. وكانت سلطة عامة الناس هي من أهم مقتضيات العصر وقد أوفت نظريات لوك وروسو بهذه المسؤولية. وألغى لاسكي جميع نظريات العقد الاجتماعي والحاكمية واعتبرها خيالاً لا حقيقة له حيث تأسست التجمعات المنظمة المختلفة في الدول كلها، وازداد أثر جماعات الضغط وجماعات المصالح في بداية القرن العشرين، وقد أيد لاسكي مصالح هذه الجماعات وبررها، وقام بتغيير النظريات لمشاركتها في الأمور السياسية والإدارية. وقد صدّقت عواقب الحزب الشيوعي في بولندا وحملة البريستروكا في روسيا نظريات لاسكي وأفكاره.

وكما استمرت رحلة ارتقاء نظرية الحاكمية وتطورها في الغرب، لا يصعب أن نستنتج بأنّ هناك خلافات كثيرة بينهم في هذه القضية المهمة. واختار كل مفكر نظرية الحاكمية محتفظاً بالقضايا المختصة بدولته والتي ستكون مناسبة لشعبه. غير أنّ نظرية السلطة شائعة لدى هؤلاء المفكرين كلهم. وكل نظريات الحكم تحتوي على السيادة والسلطة. والشيء المهم الآخر هو أنّ نظرية الحاكمية كانت

قد وضعت لتحدي سلطة الكنيسة المتنامية. وفي البداية جعل الملوك أصحاب السيادة بدلاً من الكنيسة، ثم انتقلت هذه السيادة لعامة الناس، ولذلك عندما يستخدم المفكرون والكتّاب الغربيون كلمة "الحكم" فهم يميّزون بين الكنيسة والدولة، حتى أنهم يحاولون أن يفضلوا سيادة الدولة على سيادة الكنيسة.

وتوجد دراسة السيادة العليا في تاريخ النظريات السياسية للمسلمين ولو أنها نوقشت بمصطلحات مختلفة وفي سياق مختلف. وركز المفكرون المسلمون على هذه القضية قبل الغرب بزمان طويل، ووضعوا نظريات الحكم وقاموا بتطبيقها على الملوك والخلفاء المعاصرين، وعلى سبيل المثال أن نظريات الحكم لابن أبي الربيع (733-842م)، وأبي النصر الفارابي (870-950م)، وعبد الرحمن ابن خلدون (1332-1406م) مثيرة للاهتمام وجديرة بالدراسة.

وفي رأي ابن أبي الربيع أنّ الإنسان هو حيوان عاقل، ومتميز في قدراته ولكنه لا يستطيع أن يحقق جميع احتياجاته بنفسه، فهو محتاج إلى الماهرين الآخرين من البشر، مثلاً إذا كان حاداً فهو يحتاج إلى النجار. هذا يعني أنّ أحداً لا يستطيع العيش وحيداً، ويحتاج إلى غيره من الناس في المجتمع ليحسن حياته ويجعلها سعيدة وممتعة. وهذا الاحتياج أدى إلى بناء مدينة فقيرة فدولة.

ويقول ابن أبي الربيع إن الشر يدخل من وجوه مختلفة، فالأول يدخل من النفس الإنسانية إذ تميل إلى المحظورات، ويمكن أن يتغلب على ذلك بالعقل. والثاني عن طريق أهل البلد، ويمكن الحد منه بالشرائع والقوانين. والثالث من أهل بلد آخر، ويمكن تجنبه ببناء الأسوار وحفر الخنادق، وباستعمال الجنود والحراس. ويعتبر ابن أبي الربيع أن الإنسان مضطر إلى قانون "الأمر والنهي" ليعيش حياة منظمة. وإن كثر عدد الرؤساء فستؤدي الخلافات الموجودة بينهم إلى السوء والفساد، فيعتقد بحكم حاكم واحد في كل الأحوال سواء كان عدد المدن واحداً أو أكثر حتى يطيعه الشعب كله.¹

¹ ابن أبي الربيع، سلوك الممالك في تدبير الممالك، مطبعة كردستان، الجمالية، مصر، 1329هـ، ص 79.

وهو يقول إنّ الرئيس يحتاج إلى من يعاونه في تنفيذ أحكامه، ولكن هؤلاء المعونون يعملون تحت إشرافه كما تتحرك أعضاء الجسد المختلفة حسب إرادة الإنسان وأوامره. ولا توجد قوة أو سلطة في الدولة أعلى وأقوى منه لتمنعه من تنفيذ القانون والأوامر.¹

ويتضح من هذا أنّ ابن أبي الربيع قد أكد على وحدة الحكم إلى الحد بأنه قد منح الحكومة صفة العضوية، وهذا يعني أنه يعترف بسيادة قوة الحاكم الأعلى وسلطته المطلقة، وفي كلمات ابن أبي الربيع أنّ الحاكم الأعلى هو من يتمتع بالسلطة المطلقة غير المحدودة في الدولة، ولا يمكن لأي شخص أن يضع القيود عليه ولا يمكن تقسيم هذه سلطاته وتفريقها.²

وتدل نظريات ابن أبي الربيع هذه إلى أنه اعترف بالسيادة القانونية، وقدّم جان بودان وتوماس هوبز هذه النظرية بعد زمن طويل في القرن السادس عشر والسابع عشر، وأصبحت من أوائل مؤسّسها.

وإذا نظرنا إلى نظريات الفارابي عن الحكم وجدنا أنّ الهدف التجمع البشري في المدينة الفاضلة هو الحصول على السعادة للمدنيين، ويكون رئيس هذه المدينة الفاضلة أعلمهم وأرشدهم وأفضلهم خلقاً.³

وشرع الفارابي في بحثه بالسبب الأول وهو "الإله" وهو السبب لوجود "العقل الفعال". وهذا العقل الفعال يميّزه عن الحيوان ويبلغه أقصى مراتب الكمال.

¹ المصدر السابق، ص 80. أيد جميع المفكرين السياسيين من عصر أفلاطون حتى العصر الحديث النظرية العضوية للدولة. وفي هذه النظرية يعتبر الفرد جزءاً لا يتجزأ للمنظمات السياسية والاجتماعية، ولعل ابن أبي الربيع هو أول من تحدث عن هذا الموضوع بالتفصيل.

² المصدر السابق، ص 8. وبين المؤلف اتحاد الحاكمية قائلاً: "إن الله خلق الإنسان، ومنحه الخلق والإخلاص، والذكاء الطبيعي، والحاسة العقلية ليقوم بإصلاح العالم، ويؤدي فريضة القيادة الدينية، ويدافع الناس عن الظلم والعدوان كي يعيشوا سالمين آمنين، وويقوم بتنظيم الحدود وتشكيلها تحت رئيس واحد ورئاسة واحدة".

³ أبو النصر الفارابي، السياسة المدنية، دائرة المعارف، حيدر آباد، ص 42

ويسمى الفارابي العقل الإنساني بـ"العقل المستفاد" والذي لا يعمل إلا بمساعدة العقل الفعال. ووفقاً للفارابي فإن الإنسان يملك أربع قدرات فطرية وهي: القوة المتخيلة، والقوة الناطقة، والقوة الحساسة، والقوة النزوعية. ويعتبر الفارابي القوة الناطقة والقوة النزوعية قدرتين تختصان بالإنسان وحده. وأما القوة الناطقة فهي التي يحوز بها الإنسان العلوم، وبها يميز بين الخير والشر، وبين البر والفاجر، وبين النافع والضار. والقوة النزوعية هي التي بها النزوع الإنساني بأن يشترك شيئاً أو يكرهه، وبها تكون المحبة والبغضاء والخوف والأمن والرضا وسائر عوارض النفس. وليس الإنسان عند الفارابي مدني الطبع خلافاً لأرسطو، بل يميل إلى الفساد بسبب قوته النزوعية، ولكن قوته الناطقة تسهل له الطرق للتغلب على طبيعته هذه، فيتجنب الفساد والشجار للنفع المتبادل.¹

ويرى الفارابي أنّ الدولة هي نتيجة تعاقد اجتماعي بين الناس، وتم إنشاء هذا العقد بسبب فطرة الإنسان الحربية. وبعدما سئم الناس الحروب والنزاعات اليومية بينهم سلموا جزءاً من حقوقهم إلى قوة مركزية راضين. وهكذا أسس الفارابي نظرية العقد الاجتماعي التي يرجع فضلها للأوروبيون إلى تامس هوبز الذي ولد بعد سبعة قرون. ولكن الواقع أن هذه النظرية قد عرضها الفارابي قبل زمن طويل من هوبز ولاك وروسو بشكل أفضل.²

¹ المصدر السابق، ص 43

² ومن الأمور التي تلفت النظر أن نظريات تامس هوبز والفارابي للعقد الاجتماعي توجد فيها اختلافات، فعلى سبيل المثال:

(ألف) أسس الفارابي هذا العقد الاجتماعي على فطرة الإنسان الحربية والنزاعية. حينما ينظر هوبز أن الإنسان قام بهذا العقد بسبب عدم اعتماد البعض على بعض والارتياح.
(ب) والفارابي لا ينظر إلى ترك جميع الحقوق والخيارات بل يحتضن نظرية ترك جزء من الحقوق، وبالإضافة إلى ذلك هو لا يؤيد حكومة شخصية بل يركز على استحكام حكومة مركزية لم تكن حكومة مطلقة بل محفوفة بعراقيل مختلفة. حينما ترد نظرية هوبز إلى حكومة مطلقة. وبهذا الفرق قد ظهر بين هذين المفكرين بسبب العقائد والنزعات الشخصية.

واعتبر الفارابي رئيس المدينة الفاضلة الرئيس الأول،¹ فعليه أن يكون أعلم الناس وأقواهم في الأفعال البدنية، كما ينبغي له أن يكون ماهراً في القدرة على الاستنباط مع القدرة على الإرشاد والتعليم، كما يعلم الرئيس الأول الناس ويرشدهم إلى الأشياء التي لا يعلمونها. وله قدرة على جميع أمور الرئاسة. ولا يحتاج لأحد في شيء ولا يرأسه أحد في أي أمر، وهو المتصرف في زمام الأمور ولا يلحقه شيء من النقص والعيوب البشرية².

(ج) وقد اعتبر الفارابي هذا العقد الاجتماعي ضرورياً لحصول السعادة وقيام العدل، حيث أن التهديدات الموهومة التي من أجل خشيتها عاهد الناس على هذا العقد، هي ليست تهديدات خارجية بل هي تهديدات داخلية، حينما يرى هوبز أن أساس هذا العقد هو مبني على العدوان الخارجي.

(د) وفي رأي هوبز أن مشاركة في العقد الاجتماعي قد يكون طوعاً أو جبراً ولكن في كلتي حالتين لا يمكن إلغاء العقد وإبطاله، حينما يبني عقد الفارابي على الرضا والرغبة بالرغم من أنه فضل مدينة التغلب على المدينة الفاضلة.

¹ السياسة المدنية، ص-45

² وذكر الفارابي أن الرئيس يحب أن يجتمع فيه اثنتا عشرة صفة التالية:

- أن يكون تام الأعضاء، ولا يلحقه نقص.
- أن يكون ذكياً وعاقلاً
- أن يكون جيد الفهم والتصور
- أن يكون حسن العبارة
- أن يكون جيد الفطنة ذكياً
- أن يكون محباً للتعليم والاستفادة للناس
- أن يكون معرضاً عن اللغو
- أن يكون قادراً على نفسه الأمانة في المأكول والمشروب والمنكوح
- أن يكون محباً للصدق، ومبغضاً للكذب
- أن يكون رجب الصدر ومحباً للعدل ومبغضاً للظلم والجور
- أن يكون قوي العزيمة غير خائف في العدل
- أن تكون الدراهم والدنانير والأموال هنية عنده

ويقول الفارابي إنَّ لم يمكن الحصول على الرئيس الأول ولم يوجد شخص متصف بهذه الخصائص فتعطى الرئاسة للرئيس الثاني، وهو إنسان استفاد من صفة الرئيس الأول وسار مساره. وإنَّ صعب الحصول على الرئيس الثاني وخلت الرئاسة من إنسان متصف بهذه الخصائص فيمكن أن توزع الرئاسة بين شخصين أو أكثر وحتى إلى خمسة أشخاص ويجب أن تجتمع هذه الخصائص كلها في هؤلاء الأشخاص ويجب أن يكون فيهم حكيم وفيلسوف يعرف باحتياجات الناس كما يكون عارفاً بفلاح الرئاسة.¹ ويقول الفارابي إنَّ لم يمكن الحصول على حكيم مثل ما بيَّنه فليعلم الناس أنَّ الرئاسة ستنهدم في عدة أيام.

أوصلتنا دراسة الفارابي للحكم إلى أنَّ الرئيس والحاكم الأعلى عنده يحمل جميع صفات الكمال، ويصدق عليه مصطلح الحكم السياسي والقانوني، وهو متصف بالعلم والخلق، إذ يجب عليه أن يكون أحسن الناس خلقاً وأعلمهم. وقال لاسكي متحدثاً عن نظرية توماس هوبز إنَّ هوبز هو أمير مفكري الأحادية (Prince of Monistic Thinkers)، أليس الفارابي يستحق هذا اللقب حيث أنه قدَّم هذه النظرية بشكل شامل قبل زمن طويل من هوبز. في حين أن نظريته تشتمل على صفات الصدق والحق بالإضافة إلى القوة، وكذلك تشتمل على العلم والسياسة أيضاً، وأما نظرية هوبز فهي خالية من هذه الصفات.

ويرى ابن خلدون أنَّ الإنسان مدني بطبعه، وأما المجتمع البشري فقد أسَّس على مبادئ الأمن والسلام على عكس قول هوبز، والدفاع هو المحرك الثاني في المجتمع البشري. وتستطيع الحيوانات أن تدافع عن نفسها فطرياً بسبب هيئتها، أما الإنسان فيحتاج في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه، ولو نجح في إنتاج الأسلحة المدافعة باستخدام يده وفكره فهو عاجز عن الدفاع وحده، فلا

¹ أما أسلوب الفارابي هذا فهو متأثر باقتراح أفلاطون المتبادل الذي قدمه في عدم وجود الملك الفيلسفي، وإنَّ قارئ أحد بين نظريتهما سيجد نتائج ممتعة.

بد له من التعاون عليه بأبناء جنسه. ووفقًا لابن خلدون فإنّ التجمع البشري ضروري للنوع الإنساني وإلا لما اكتمل وجودهم، ولا يمكن ما أراد الله من إعمار الأرض وإحيائها إلا بهذا الاجتماع.¹

ويرى ابن خلدون أنه عندما يتم تشكل التجمع الإنساني فإن الطباع الحيوانية والعدوان والشدة تدفع الإنسان إلى سفك الدماء والظلم والاستغلال والحرب فيما بينهم، فلا بد من ملك أو رئيس عادل لصدد هذا العدوان. وهكذا تم تشكيل دولة. وادّعى ابن خلدون أنّ الحاكم تكون له الغلبة والسلطان واليد القاهرة على غيره من الناس، فهذا هو الملك والحاكم. والناس يطيعونه ولهم خاصة طبيعية لا بد لهم منها وهي إطاعة الحاكم. وفي رأيه أنّ هذه الخاصة موجودة أيضًا في الجراد والنحل حيث أنها أيضًا تطيع رئيسها.²

ويرى ابن خلدون أنّ رغبة الحصول على السلطة تكون موجودة في كل قبيلة ولو كانت تعيش حياة عادية وبسيطة، وعلى هذا الأساس يتم تشكيل المجتمع ويتم قيام الدولة أو الرئاسة. وهذا الطموح يدافع عن القبيلة ويحثها على الحرب والفتح. وسعى ابن خلدون هذه الخاصة القبائلية بالعصبية.³ وبعد دراسة تاريخ العرب والبربر بالتفصيل وصل ابن خلدون إلى نتيجة أنّ القوة الأصلية للمجتمع السياسي هي العصبية. وقد أودع الله في الإنسان محبة الأعداء وأقربائه، وبها يحصل على التعاون المتبادل. وهو يعتبر بأنّ العصبية توجد أكثر في أهل البادية مما في غيرهم. ويدافع عن العدوان الداخلي زعماء القبيلة ومشايخها، وأما العدوان الخارجي فيدافع عنه شباب القبيلة المتحمسون. ولا بد لهؤلاء الشباب من العصبية للانتصار في هذه الحرب. مهما كانت هذه العصبية قوية، تكون

¹ عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة، المكتبة التجارية، القاهرة، ص 41-42

² المصدر السابق، ص 43-44

³ المصدر السابق، ص 154

حدود المملكة محصونة ولا تزال السيادة مستحكمة أكثر فأكثر. ولذلك يرى ابن خلدون أنّ الملك لا بد أن توجد فيه العصبية بكمالها.¹

وأما المراد من العصبية الكاملة فهي عصبية ملوكية تحتوي على الغلبة والسلطان.² ويرى ابن خلدون أنّ في هذا العالم نظامين: النظام الأول يهدف إلى تحسين حياة الدنيا بجانب الآخرة وسعى ابن خلدون هذا النظام بالسياسية الدينية. والنظام الثاني تراعى فيه القواعد الدنيوية وتفرض فيه القوانين المسلمة، فسعى هذا النظام بالسياسة العقلية أو الملوكية. وأما الرئيس في هذا النظام فيدفع الظلم والعدوان عن الناس ويحميهم، ولكن سلطته مطلقة، ويشتهر في إخلاص رعيته حذرًا وتدييرًا لدولته، ويظلم المخلصين كذلك للحد من التمرد الخيالي.³

وفي رأي ابن خلدون أنّ الحكومة ملتزمة بالملوكية، حيث أنّ بين الحاكم ورعيته علاقة خاصة. ويجب على الحاكم أن يقيم العدل والقسط، ويحافظ على مصالح الرعية، وإقلاع الظلم والعدوان، ولكن على الرعية أن تطيعه بلا شرط، وإن كان أساس الدولة على الظلم والعدوان ففساد الرعية حتمي، وتنمو جرائم الملوكية في الدولة. واعتبر ابن خلدون أنّ الحاكم هو من له رعية، أما الرعية فهي من لها حاكم فتكون علاقتهما علاقة الملوكية.⁴

ولا يوجد عنصر الاتحاد والارتكاز والعصبية فحسب في نظرية الحكم عند ابن خلدون، بل إنّ صاحب السيادة حسب نظريته له سلطة مطلقة، والغلبة والسلطان والقهر على الناس. ولا يمكن تقسيم هذه الحاكمية في البداية، ولو قسمت لضعفت واضمحلت. وقدّم جان أوستن نظرية ابن خلدون هذه في القرن

¹ المصدر السابق، ص 166

² المصدر السابق، ص 153، 167، 139

³ المصدر السابق، ص 302-302

⁴ المصدر السابق، ص 166

التاسع عشر، وأيدها "بأنَّ صاحب السيادة هو حاكم في المجتمع وليس المجتمع يملك الحكم بنفسه وليست سلطته مطلقة" كما ادَّعى بها بعض المفكرين.¹

وما كان العلامة حميد الدين الفراهي² (1862-1930م) مفكرًا سياسيًا ولم يشارك في أي سياسة عملية أبدًا.³ وكان له جهود في مجالات تفسير القرآن ودراساته. وقضى حياته في دراسة القرآن، وقد اتفق علماء الدول الإسلامية على فهمه للقرآن وخشيته لله، وبصيرته، وأنَّ أفكاره القرآنية أفكار محققة وكلما كتب حول نظرية الحكم الإسلامي فقد كتب في الحقيقة ليمهد الطريق لفهم القرآن. كما كتب الفراهي في مقدمة كتابه "في ملكوت الله": "هذا كتاب من مقدمة نظام

¹ أهمل كتاب نظام الملك طوسي "سياست نامه" وكتاب سيد علي الهمداني "ذخيرة الملوك" حين ذكر نظريات المفكرين المسلمين السياسية، وكذلك لم تذكر نظريات الهنادكة السياسية أيضًا. (جامع المقالات المقدمة في الندوة الدولية حول سيرة وأعمال الإمام الفراهي)

² ولد حميد الدين الفراهي في قرية "فريهة" من قرى مديرية "أعظم كره" من ولاية أترا براديش، وبعد أن أكمل دراسته الابتدائية تلمذ على العلامة سبلي النعاماني وأبي الحسنات عبد الحي اللكنوي، والعلامة فيض الحسن سهارنفوري وتلقى منهم الدروس الإسلامية. والتحق بجامعة علي كره وتعلم دروس الفلسفة الحديثة من توماس آرنالد، كما تعلم اللغة العبرانية من جوزف هارويز، ثم ترك علي كره ببعض الوجوه وسافر إلى إله آباد والتحق وحصل على شهادة البكالوريوس من جامعة إله آباد. وله علاقات وثيقة بالجامعة العثمانية، ودار المصنفين، أعظم كره، ومدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره في مختلف الأزمنة. وقرض الشعر أيضًا في اللغة العربية والفارسية. وبعد أربعين أو اثنين وأربعين عامًا في تدبر القرآن الكريم وضع قواعد جديدة لفهم القرآن، وكتب تفسيرًا شاملاً وطُبعت بعض أجزاءه كتفسير نظام القرآن. وعلى أساس هذه القواعد ألَّف أمين أحسن الإصلاحي تفسيرًا كاملاً للقرآن الكريم في 9 مجلدات، وطبع هذا التفسير في الهند وباكستان وأثنى عليه العلماء.

³ يقول أمين أحسن الإصلاحي عن العلامة الفراهي إنه لم يشارك في السياسة العملية، ولكن كان له موقف خاص لإصلاح الأمة. وكان يريد إصلاح العلماء المسلمين أولاً، ويريد أن يجعل إصلاحهم وسيلة لإصلاح الأمة الإسلامية. ولأجل ذلك اختار اللغة العربية للتعبير ليؤثر جزءًا كبيرًا من الدول الإسلامية.

القرآن، باحث عن مسألة ملكوت الله الجامعة لمعارف مهمة من علوم القرآن التي لا يطلع عليها الطالب إلا إذا قام على هذه النقطة الجامعة التي تنفجر منها أنهار علوم، كأنها نبعت من عين حموم".¹

التصور الصحيح للحكم والملكوت: في رأي الفراهي ليس ملكوت الله ونظرية السيادة نظرية سياسية فحسب كما زعم بعض علماء الإسلام، بل إنها معرفة الله تعالى بصفاته الكاملة، وأن معرفة عقائد النبوة والآخرة تبنى على المعرفة الصحيحة لهذه النظرية كما يقول الفراهي: "وملكه بالعدل والرحمة - والمعاد مبني على ملكه وعدله، والنبوة من ملكه ورحمته وعدله. وتأخير المعاد لحكمته وحلمه. ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم كمال النبوة - وتمام الرحمة والعدل في الدنيا كاملة بإتمامها في الآخرة. فهي صورة ملكوته كما أن أحوال وقائع الدنيا صورة ملكوته المبني على أصول الحكمة والعدل والرحمة والتربية".²

ويرى الفراهي أن الفهم الصحيح لحكم الله وملكه ومعرفة أسرارها هو أمور مهمة فذكر بعضاً منها وهي كالآتي: تاريخ الدنيا، وتاريخ الدين، وأصل الشرائع وحكمها وثبوتها، وفهم الإنجيل وبشارة محمد صلى الله عليه وسلم فيه، والسياسة الإلهية، والسياسة الفاضلة، وتطبيق شريعة الله، وفهم ما يعامل به الله تعالى عباده في الأمور المختلفة، ومعرفة ما جعل الله من التعلق بين الأحوال الدنيوية والأحوال الدينية مما يجلب السعادة والشقاوة، وقال لا يمكن حصول معرفة حكم الله الصحيحة إلا بمعرفة هذه الأمور المذكورة آنفاً.³

ويمكن لنا أن نفهم هذه الأمور كلها بعلم حكم الله الصحيح.

¹ عبد الحميد الفراهي، في ملكوت الله، الدائرة الحميدية، أعظم كره، 1391 هـ، ص 3.

² المصدر السابق، ص 4.

³ المصدر السابق، ص 4-5.

واستدل الفراهي في إثبات ملكوت الله عقلاً ونقلاً ويقول:

1. من أعظم المعارف وأهمها التي لا يستقيم التوحيد ولا الدين الحق ولا يطمئن القلب ولا العقل إلا بها.
2. واستدل من آيات كتاب الله بأن الله تعالى حاكم في الأرض والسماء، وليس شيء خارجاً عن ملكه. واستشهد بآيات القرآن الحكيم لإثبات ملكوت الله. ¹ فقال الله تعالى: "لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" ² وقال: "تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" ³ وقال تعالى: "سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" ⁴ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخَيِّئُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⁵ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ⁶ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ⁷ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ⁸ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⁹ وقال: "وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ" ¹⁰ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ¹¹
3. وإذا طالعنا تاريخ الأمم السابقة، وعروجهم وزوالهم، وجدنا أن الله مالك في الأرض والسماء. وإن القانون بأن الشر يجلب الذلة وأن الخير يمنح البركات والشرف يدل على إثبات ملكوت الله. ¹²

¹ المصدر السابق، ص 6-7.

² سورة البروج: 9

³ سورة الملك: 1

⁴ سورة الحديد: 1-6.

⁵ سورة الزخرف: 84-85

⁶ في ملكوت الله، ص 17-18

4. وإنَّ علم ملكوت الله يوفقنا بأن نعمل بالخير والصالحات، ونعلم قواعد السياسة كما يقتضيه الأمر الإلهي ويقول الفراهي إنَّ تأسيس قواعد السياسة على أصول الحكمة الإلهية هو نصب الهدف لعلم ملكوت الله. وبعد معرفة تفاصيل ملكوت الله يجب استئناف تأسيس علم السياسة وإلا يضر حصول علم التاريخ بدلاً من نفعه. وما نزال نفتخر بالماضي ونقع في الغفلة تجاه المستقبل، ونرغب في جوانب التاريخ التي تبعث الغيظ والحنق ضد الأقوام التي تسكن في الجوار، كما نرى أنَّ هنادكة الهند يحرضون على الغيظ والكراهة ضد المسلمين استدلالاً بالوقائع التي حدثت في الماضي.¹ ويتضح من هذه الأصول التي وضعها الفراهي مكانة ملكوت الله السياسية والتشريعية.

تقسيم الحكومة: وقد قسم الفراهي الحكم إلى قسمين: السلطنة الحرة والسلطنة المعبدة حيث يقول:

"أما الحرة فلا بد فيها من بناء الأمور على الشورى، ثم كون الإمارة غير موروثية من الأب إلى الابن ثم عدم الحشم والجند الخاص لحفظ السلطان ثم عدم اختيارهم في العطاء والمنع إلا على خدمة ملية جمهورية، ثم عدم غناه وتموله، ليكون كأحدهم ولا يهاب إلا من جهة منصبه، ثم حماية شديدة منه ومن الناس أن لا يذلوا، ولذلك كان عمر رضي الله عنه لا يحب للمسلمين عقاباً مهيئاً، ثم إكرام الغيرة والأنفة وأهلها وتربيتها فيهم.

أما المعبدة فلا بد لبقائها: من محبة الناس للملك وأولاده، حتى ينتهي إلى العبودية كدأب فرعون وأكبر المغل. ولذلك الاختيار المطلق في العطاء والمنع، والسخاء المسرف، والعقاب المهيّن، ثم الجهد في قطع حبال الرعية من بينهم إلى أن يكون الملك هو واسطة العقد. ولبقاء كل عزة وفخر إلا ما يعطيه الملك. ولذلك كله ان

¹ المصدر السابق، ص 20-21

يقوي شوكتة بالجند الخاص. فإذا تم أمر السلطنة المعبدة كان الناس كالأعضاء والجوارح للنفس، تصرفها كيف شاءت...¹

وقد قسم ابن خلدون الحكومة إلى ثلاثة أنواع:²

النوع الأول: حكم ذو سياسة طبيعية

النوع الثاني: حكم ذو سياسة عقلية

النوع الثالث: حكم ذو سياسة دينية

وأما السياسة الدينية فهي سياسة محموددة ومقبولة لدى المؤلف، ولكن ابن خلدون لم يستقر على فكر سياسي بسبب تذبذبه بين أفكاره السياسية. وفي جانب سعى ابن خلدون السياسة العقلية بسياسة دنيوية، وقال إنها سياسة مذمومة إذ تصرف عن الدين الحق، وفي جانب آخر إنه أجاز السياسة العقلية الرائجة في الملوك المسلمين وأعدّ الملك بالقهر والاستطالة شيئاً لا مفر منها في هذا العصر.³ ويؤمن أفلاطون بأنواع الحكومة المختلفة في مختلف الأحوال في مدينته الفاضلة. حيث أنه لم يعتمد على نوع واحد من الحكومة بل حرص على أنواع من الملكية والديمقراطية، والأرستقراطية، واعتبر الحكومة الملكية الأفضل بينهن. وأما أرسطو فهو يقدم لنا صوراً مختلفة في النظام السياسي وهي الملكية، والأرستقراطية والدستورية، وينتقد النظام الجمهوري نقداً شديداً. وأما الفارابي فيقدم تصور الرئيس الأول والرئيس الثاني ثم الحكومة المبنية على خمسة أركان، ولكن نظرية الفراهي في النظام السياسي هي الأوضح وتقسيم الحكومة عنده أسهل فهماً.

¹ المصدر السابق، ص 32

² مقدمة ابن خلدون، ص 190-191.

³ قال نفس الشيء ابن خلدون نظراً إلى أوضاع المسامين السياسية، ويفضل ابن تيمية أيضاً الشورى والانتخاب، ولكنه لا يرى الاستيلاء غير جائز بالقوة والجبر، انظر منهاج السنة، ج 2- بداية الكتاب

ويشجع تقسيم الفراهي أو تصنيفه في النظام السياسي النظام الجمهوري، وكل الحكومات التي تقيد الحرية، وتعادي شرف الناس وكرامتهم هي حكومات تستعبد الشعب. ويعارض الفراهي الملوكية، الأرستقراطية، والسلطة العسكرية وكل نظام لا يقوم بحل قضايا الحكومة على قواعد النظام الجمهوري والشورى.

وتتضح نظرية الفراهي تجاه ملكوت الله من خلال تصنيفه، وإنَّ الله له ملك السموات والأرض، وهو القادر والقدير والحي والقيوم، ولكن الحكومة التي أسست في الأرض لتنفيذ أحكامه فهي غير مورثة، ولا يكون فيها التباهي بالحشم والجاه والخدم والعسكر، وتحترم كرامة الناس وشرفهم. وإنَّ تصور الحكومة عند الفراهي يختلف عن تصور جان بودان وتامس هوبز وآستن ولاسكي. وهذا التصور هو مستنتج من مبادئ القرآن للحكومة ومأمون من إفراط وتفریط هؤلاء المفكرين السياسيين.

أساس الحكومة: أما الحكومة التي تحدث عنها القرآن الحكيم فهي مبنية على الحرية الكاملة، والعهد والبيعة، ولا تهتم بالجبر والإكراه والظلم والعدوان. واستدل الفراهي بأن القرآن حينما ذكر الأنبياء، ذكر العهد والميثاق أيضًا، حيث أن الله عاهد آدم وإبراهيم وموسى عليهم السلام كلهم وكانت مسؤولية النبوة أسندت إليهم بالاتفاقية المتبادلة. ويقول الفراهي إن تعيين الملوك أيضًا كان بطلب من الناس، قال الله تعالى في القرآن الكريم: "قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أُنَبِّئْ لَنَا مَلِكًا نُنْقِذَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ".¹ واستدل الفراهي أيضًا بأن الله تعالى أخذ الميثاق من الناس حينما خلقهم، وذكرهم بآية من القرآن "ألمست بربكم، قالوا بلى"، وأما الميثاق الآخر فهو الميثاق الذي أخذه كل نبي من أمته. ولذلك فإن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مليئة بأحداث المواثيق والعهود.

¹ سورة البقرة: 246.

والدليل الثالث للفراهي هو أنه لا يمكن لكل إنسان أن يحضر للبيعة، فلذلك تعتبر إطاعة أولي الأمر وأهل الحل والعقد نوعاً من البيعة، ولما بدأ اليهود يقومون بالأعمال غير الشرعية، سمّاها القرآن بنقض العهد، كما قال الله تعالى: "أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ"¹.

والدليل الرابع للفراهي هو أن البيعة والعهد الذي ذكره القرآن هو ليس بالعهد والبيعة الفردية بل هي بيعة اجتماعية وقومية وملية وعاهد القوم جميعهم بإطاعة حاكم الدولة وأولى الأمر منهم.²

تصور إقامة الخلافة: لا يقبل الفراهي نظرية العقد الاجتماعي التي قدّمها المفكرون الغربيون، بل قدّم نظرية إقامة الخلافة (Khalifah Contract Theory)، خلاصة هذه النظرية هي كما قال الفراهي: "الخلافة تأليف الناس بهيأة وحدانية، حتى يكون لهم قلب واحد، وتجتمع قواهم على إرادتهم، وتتجه إرادتهم إلى مصالح عمومية، فلا يبقى فيهم تصادم وتناقض وبذلك تزداد مصالحهم، وتشد قواهم. وتبقى حريتهم. وتعلو كلمتهم، وتسمو أخلاقهم، وتوسع بركتهم، ليكون وجودهم رحمة للخلق وبركة على الأرض، كانت هي أعظم خيراً وأتم نعمة لهم. فلا بد أن يجتهدوا لها كل الاجتهاد وتكون هي نصب عيونهم، وقبلة همّهم، وجب عليهم أن يعطوا لها أكرام وأنفس ما لديهم وهو الحرية والأنفة. ولولا ما ذكرنا من خيرات الخلافة، لم ترض نفس كريمة بأن تشتري الخلافة بثمن الحرية، ففعلوا وذلك بأن عاهدوا على السمع والطاعة لأفضلهم وأرحمهم".³

وفي رأي الفراهي أن طبيعة الإنسان ليست الصراع والحرب كما ادّعى هوبز، وليست داعية الأمن والسلام والحفاظ على الحقوق والحريات الفطرية كما كتب

¹ سورة البقرة: 100

² في ملكوت الله، من إفادات الفراهي، ص 30-31.

³ في ملكوت الله، ص 30-31.

جان لوك، بل إنَّ الإنسان حر ويدعو إلى المحبة والأخوة، وعاهد الخلافة لتطور هذه القدرات، حيث أن الناس لما عاهدوا على السمع والطاعة وتخلوا عن حريتهم، لم يكن هذا ضياعاً لحريتهم بل حفاظاً عليها، كما قال الفراهي: "ومثلهم كمن يبني قصرًا مشيدًا لخزائنه، فينفق من ماله ليحفظ الباقي الأكثر".¹

ووفقًا للفراهي إذا اختارت الأمة إمامًا عادلاً لها، حفظت نفسها عن ظلم الملوك الجابرة وعدوانهم، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالميثاق الذي أخذه الله عليهم.²

معنى الخلافة الواسع: يقرر القرآن بأن الله تعالى هو الحاكم الحقيقي لهذا الكون، وكل من يسعى لتنفيذ أحكام الله على وجه الأرض هو نائب الحاكم الحقيقي. فإنهم يحكمون هذه الأرض ولكن حكمهم مندوب ومفوض. وعبر القرآن عن هذه القدرات المندوبة بالأمانة³ والخلافة، كما قال الله تعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا"⁴، وقال أيضا: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ"⁵. ووفقًا للقرآن ليس الإنسان هو

¹ المصدر السابق، ص 32

² المصدر السابق، ص 32

³ قال بعض المفسرين إن الأمانة في سورة الأحزاب هي بمعنى الإطاعة بالاختيار، راجع الكشف للمزخشري وللمزيد من التفصيل انظر "تدبر القرآن" لأمين أحسن الإصلاحي. ويرى الشيخ شبير أحمد العثماني بأن المعنى بالأمانة هو الإيمان، وقدم بحثًا علميًا على هذا الموضوع.

⁴ سورة الأحزاب: 72، والمراد من الأمانة في هذه الآية هو حرية الاختيار، والمسؤولية، والمساءلة (السيد أبو الأعلى المودودي، "إسلامي رياست" ص 203)

⁵ سورة النور: 55

السلطان المالك بنفسه بل هو خليفة المالك الأصلي ويستخدم الخيارات التي فوضها الله له.

وأعلن القرآن بأن جميع المسلمين ستحققون الخلافة، والخلافة التي منحها الله للمسلمين هي خلافة عامة، ولا تخص فردًا أو أسرة أو طبقة. ولكل مسلم حق متساو في الخلافة.¹ وأما التقسيم الطبقي أو الأفضلية بالنسب أو المجتمع فلا أساس لها في القرآن. وكل إنسان متساو في الدرجة ولا فضل لأحد على الآخر إلا بمواهبه الشخصية وسيرته الذاتية.

وقد كتب الفقهاء والمفكرون القدماء كثيرًا عن الخلافة، وتحدثوا بالتفصيل عن تعريف الخلافة ونطاق عملها، ومسؤوليتها. وقال الإمام البغدادي (429هـ) بأن الخليفة هو إمام المسلمين الذي "ينفذ أحكامهم ويقيم حدودهم ويغزي جيوشهم ويزوج الأيامى ويقسم الفئ بينهم".² وقد صرح الإمام الماوردي (450هـ) في تعيين الخلافة، وبين مسؤوليات الخليفة وواجباته بالتفصيل، فيقول: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا".³ وبين إمام الحرمين الجويني (478هـ) واجبات الخليفة بشكل واضح ويقول: "الإمامة رئاسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا. مهمتها حفظ الحوزة، ورعاية الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف، وكف الخيف والخياف، والانتصاف للمظلومين، واستيفاء الحقوق من المتنعين، وإيفاؤها على المستحقين".⁴

¹ أنظر الإمام المودودي، إسلامي رياست، ص 140

² عبد القاهر البغدادي، أصول الدين، اسطنبول، 1928م، ص 271.

³ أبو الحسن علي الماوردي، الأحكام السلطانية

⁴ أبو المعالي، إمام الحرمين الجويني، غياث الأمم في التياث الظلم، ترتيب: مصطفى حلي، الاسكندرية، 1979م، ص 15.

وخلال هذا التعريف فرق الإمام الجويني بين الخلافة والإمارة باستخدام مصطلحات "الرياسة التامة" و"الزعامة العامة". ووفقاً للجويني فإنّ الإمارة هي التي تستعمل لحكم على ولاية أو إمارة، ولكن الخلافة هي الإمامة العظمى والكبرى في المجتمع الإسلامي. وقال أبو الحسن الأشعري إن الإمامة والخلافة شيء واحد لأن تنفيذ الشريعة مبني على أحكام لا يتولاها إلا إمام أو حاكم.¹ ويقول ابن تيمية (767هـ): "الوالي راع على الناس".² وقال التفتازاني إن الخليفة رئيس عام لعامة الخلق بمصالح الدين والدنيا كخليفة النبي صلى الله عليه وسلم.³ وقال عضد الدين الإيجي (756هـ): "الإمامة خلافة الرسول في إقامة الدين، بحيث يجب اتباعه على كافة الأمة".⁴

ويقول ابن خلدون إن الخليفة هو "أنه نيابة عن صاحب الشريعة، في حفظ الدين وسياسة الدنيا به". وتختلف نظرية ابن خلدون عن الإمام الماوردي بأنه ركّز على الجانب الديني.

وألقى الشاه ولي الله الدهلوي الضوء على مهمة الخليفة، وقال: "الإمامة بكونها صفة لخلافة النبوة، وهي في الحقيقة تعبير عن الحكومة العامة وهدفها تجديد العلوم الدينية، وإقامة الشعائر الإسلامية، وتنظيم الجيوش، وإقامة الجهاد بعد دفع الرواتب إلى الجيوش، وتقسيم الفيء فيما بينهم وإقامة العدل والقسط، وتنفيذ الحدود الإلهية، واستئصال الظلم والعدوان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".⁵

¹ عبد القاهر البغدادي، أصول الدين، ص 272.

² ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ترتيب: علي المغربي، الكويت، 1986م، ص 23

³ التفتازاني، شرح المقاصد، لاهور، 1981م، 2/272.

⁴ عضد الدين الإيجي، المواقف، بيروت، 1979م، ص 395.

⁵ الشاه ولي الله، إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء، 28/1.

واعتبر العلامة الفراهي أنّ الرقي والتمدن ملزم بقيام الخلافة، وقال: "لما أراد الله تعالى إكمال النفوس رحمة عليها، خلق لتربيتها أسبابًا. وجعل التمدن سلّمًا إلى إكمالها وهو الخلافة، فاستخلف أمة بعد أمة. وجعل لهم الاختيار فابتلاهم... وجعل الخلافة جماع الحرية لبنائها على الاختيار، وإنما جعلوا واحدًا منهم على أنفسهم حاكمًا لكونه من أنفسهم وأعلمهم بمصالحهم وأرحمهم. والمال الذي يأخذه هو فيه أمينهم، فيرده عليهم وهو منهم... ولكنه مطاع لما أنهم أعطوه الحكم، فلا يعصى ولا يتهم فيما يفعل... كما أن الحاكم عليهم من هو خيرهم، أعلمهم بالتدبير، أتقاهم لله، وأقواهم في العزم، فكَذلك الذين يعينونه بالمشورة ويساعدونه بإنفاذ الأمور هؤلاء هم أهل الحل والعقد وموضع السر والرأي... والجمهور مأمور بإطاعة أولي الأمر، فإنهم أعلم بمصالحهم منهم، فطاعتهم لأولي الأمر ليست إلا بالاختيار والحرية، ولا يكون أحد منهم أولي الأمر إلا بما ظهر من صالح أعماله فأذعن له الناس طوعًا وعظّموه حبًا واعتمدوا على رأيه مصلحةً، فجعلوه وكيلاً في أكبر الأمور وهو انتخاب الأمير".¹

وفي رأي الفراهي أن الخلافة هي أفضل أنواع الحكومة التي تبقى فيها نعمة الإنسان العظمى وهي الحرية، ويستمر نظام العدل والقسط فيها، ولكن إذا أضاع الناس حريتهم ولم يرضوا بدفع ثمن الحق والعدل، تنتهي الخلافة وتنوبها الملكية، وأول ما يفعل نظام الملكية هو تسليم الحق في انتخابهم للأمير.²

ويرى الفراهي أنه إذا انتهت الخلافة وجاءت الملكية فلا بأس بها، حيث أنها تمنع الفساد في الأرض، وفي رأيه هذا نظر، وقال: "إذا سلبت الصفات الأساسية من أمة فمن رحمة الله أن يتيح لهم ملكًا يزعمهم عن الفساد في الأرض وإن كان جبارًا، ولذلك يرضى بها أهل العقل منهم، فيطيعون الحكومة الجبرية، فلا سبيل لهم إلا

¹ في ملكوت الله، ص 22-25.

² المصدر السابق، ص 25.

الإطاعة به".¹ ونظرية الفراهي هذه توافق الحقائق للعملية المنحرفة من التاريخ الإسلامي وليس غير، فإن الفراهي يرى أنّ الملوكية بدأت تبرز، وبدأ كثير من العلماء والفقهاء من الأمة الإسلامية يخضعون لأوامرها ولكن هذا التعليل للتاريخ الإسلامي لا يبنى على الحقيقة فإن التاريخ الإسلامي لم يخل من المجاهدين الذين قد تحدوا الحكومات لإعلاء كلمة الله مثل الإمام الحسين رضي الله عنه، ومن جاء بعده حتى إلى السيد أحمد الشهيد رحمه الله، فإنهم جاهدوا في سبيل الله وضحو بأنفسهم بين يدي الله.² وتشتمل نظرية الفراهي هذه على التفاهم المتبادل والتعايش السلمي ولا تنسجم مع رسالة الإسلامية الثائرة.³

ومن الممكن أن نفسر نظرية الفراهي القائمة على التفاهم بأنها تقدم صورة لأوضاع المجتمع الأثل إلى الزوال، وإلا فإن نظريته المثالية هي قيام الخلافة وتنفيذها في المجتمع.

وأما نظريته الثورية فتستحق الدراسة إذ أن القضية الأساسية في المجتمع هي قيام الحرية والعدل والقسط وعلامتها هي حرية انتخاب الأمير. وإن لم تكن هذه

¹ المصدر السابق، ص 26.

² لا يوجد أي دليل يدعم ما أراد به كاتب المقالة بهذه الأمثلة (جامع المقالات المقدمة في الندوة الدولية حول سيرة وأعمال الإمام الفراهي).

³ نظرية الفراهي هي وفقًا للقرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وهي نظرية عملية حسب الحقائق التاريخية. ومنع النبي صلى الله عليه وسلم الأمة الإسلامية أن تخالف الحاكم ليحافظهم عن الانتشار والتفرقة إلا أن يصبح الحاكم كافرًا أو مرتدًا، حيث روى ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: من رأى من أميره شيئًا فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرًا فيموت إلا مات ميتة جاهلية. (صحيح البخاري، 29/2). وانظر أيضًا صحيح البخاري، ج 2، كتاب الفتن وغير ذلك)، وعلى أساس هذه الأحاديث قال العلماء إنه لا يجوز للإنسان أن يخرج على حاكم عصره، وقال ابن تيمية رحمه الله: "كان المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فهم ظلم كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم لأن الفساد في القتال والفتنة أعز من الفساد الحاصل بظلمهم بدون القتال" (منهاج السنة، 87/2).

القدرات الأساسية فلم يكن تقوى الملك وبره الذاتي محمودًا ومقبولًا. ويقول الفراهي إن المقصود هو التغيير في النظام. وأما التغيير من يد إلى أخرى فلا يؤثر في المجتمع بشكل إيجابي، كما يقول الفراهي: "والملك الذي يبعث في أمة غير صالحة ربما يكون صالحًا تقيًا، ومع ذلك يستبد برأيه، لأن الأمة أضاعت حرّيته".¹ وأما الأمثلة التي قدّمها الفراهي في هذه القاعدة فهي تعلق ذهن الطالب، إذ أنه قدّم مثال سليمان عليه السلام وذي القرنين، وقال إنهما ملكان صالحان وتقيان ولكن سلطتهما مطلقة واستبدادية، كما جاء ذكر استبدادهما في القرآن الكريم.² ونظرية الفراهي هذه فيها نظر، لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا نموذجًا أعلى لخلافة الله وأسوة حسنة للتعاليم الإسلامية، وأما أهمية الشورى وحرية الرأي واشتراك الناس في النظام السياسي الإسلامي فهي ليست مخفية على أي طالب للعلوم القرآنية.³ ويمكن أن يعترض أحد بالفرض بأن سليمان عليه السلام كان حاكمًا مطلقًا ومستبدًا في حكومته ولم ينتقد القرآن نظامه السياسي، فلماذا لا يجوز لأحد من الأمراء المستبدين وحكام العسكر والدكتاتور أن يحذو حذوه ويجعله أسوة له

¹ المصدر السابق، ص 26-27.

² المصدر السابق، ص 27.

³ لا يصدق أحد بأن حكومة سيدنا سليمان عليه السلام كانت مبنية على الشورى، وحرية الرأي، واشتراك الناس. وأما ما قاله الفراهي حول حكمه وسيادته المطلقة، فيصده ابن تيمية قائلاً: "فأما طاعة مثل طاعة سليمان عليه السلام فهذا لم يكن لغير سليمان عليه السلام. ومحمد صلى الله عليه وسلم أعطى أفضل مما أعطى سليمان عليه السلام فأنه أرسل إلى الجن وأمروا أن يؤمنوا ويطيعوه فهم يدعوه إلى عبادة الله وطاعته، لا يأمرهم بخدمته وقضاء حوائجه كما كان سليمان عليه السلام يأمرهم: ولا يقهرهم باليد كما كان سليمان عليه السلام يقهرهم، بل يفعل فيهم كما يفعل في الإنس فيجاهدهم الجن المؤمنون ويقيمون الحدود على منافقهم فيتصرف فيهم تصرف العبد الرسول لا تصرف النبي الملك كما كان سليمان عليه السلام يتصرف فيهم (كتاب النبوات، ص 116) (جامع المقالات المقدمة في الندوة الدولية حول سيرة وأعمال الإمام الفراهي)

ويقدم دليلاً على جواز حكمه الاستبدادي وسلطته المطلقة، ويمكن أيضاً أن يقال إن المجتمع الذي نعيش فيه لا يليق بأن يقيم حكومة تتبع حرية الفكر والنظام السياسي العادل، بل إن الحاكم المطلق والمستبد هو الملائم لهم فحسب. وإن حمل هذا التوجيه وزناً واتفق به أهل العلم، فمن يسعى لإحياء نظام الخلافة؟¹

أوصاف الخليفة: وقد بين الإمام الماوردي والعديد من الفقهاء بأنه يجب على الخليفة أن يكون متصفاً بالرأي والحكمة المؤدبين إلى الاجتهاد بجانب اتصافه بشروط الخلافة الأساسية. وقد حاول ابن المقفع (139هـ) إقناع خليفة عصره أن يقوم بعملية الاجتهاد في القضايا المختلفة، ويحظر على الفقهاء بيان آرائهم الشخصية. لأنه خاف أن فقهاء الأمة الإسلامية سيفتتون ضد الخطوات التي تنفذها الحكومة، مما يؤدي إلى نفاذ رعب الحكومة وجلالتها من قلوب الشعب، ولكن حسب ما قال ليمبدن إن قول ابن المقفع هذا لم يحصل على قبول حسن في التاريخ الإسلامي.²

ذكر ابن خلدون أربعة شروط للخلافة:

الأول: العلم، فيكون عالماً بأحكام الله

الثاني: العدالة، فيجتنب المحرمات والمنكرات

الثالث: الكفاءة فيكون جريئاً على إقامة الحدود، واقتحام الحروب، وبصيراً بها كفيلاً يحمل الناس عليها عارفاً بالعصبية وأحوال الدهاء قوياً على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين.

¹ وكيف يلزم به أن العلماء ليتخلوا عن إصلاح المجتمع بل هذه المسؤولية باقية كما كانت. إن صلح المجتمع فيستطيع أن يأتي بثورة صالحة بنفسه بطريقة اختيار سواء الصراط. (جامع المقالات المقدمة في الندوة الدولية حول سيرة وأعمال الإمام الفراهي)

² Lambton, A.K.S., 'KHALIFAH in Political Theory' Encyclopedia of Islam.

الرابع: سلامة الحواس والأعضاء من النقص والعطلة.¹

وقد أضاف إليها العديد من الفقهاء والكتّاب النسب القرشي، ولكن لم يوافقهم ابن خلدون.²

وفي رأي الفراهي ليس من الضروري أن يكون الخليفة أكثر الناس علمًا في تفاصيل الأمور وجزئياتها، ولكن عليه أن يكون أبصرهم بالحق وأصلح، وأكثرهم علمًا في مصالح العصر الحديث، ويعمل حسب مقتضيات الوقت المناسب.

وأما الخليفة فلا بد له من أن يكون أتقاهم، فيقول الله تعالى: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"³، ومن يتق الله فهو أعلم الناس بالحقائق، كما استشهد الفراهي بآية من القرآن الكريم، كما قال الله تعالى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ"⁴.

ويرى الفراهي أنه يجب على الخليفة أن يكون أقوى الناس عزماً في التوكل على الله، ولا يتذبذب في أمره في تنفيذ الحق وحمايته. كما قال الفراهي إن عليه أن يكون متواضعًا وخاشعًا لله، وأبعدهم عن طلب الملك والرياسة، ولكن إذا قدمت إليه مسؤولية الخلافة فيفرغ جهوده لإقامة العدل والقسط، كما يستشير الناس في أموره ويظنهم حسنًا، وكذلك يستفيد بآراء ذوي العقول، وإذا اتضح له الحق فلا يصرفه عنه أحد.

وأشار الفراهي إلى أن الرغبة في طلب الرياسة تنشأ حينما يظن الفرد نفسه وقوله ورأيه خيرًا من سائر الأمة، ويرى نفسه أكرمهم وأفضلهم، وكل هذه الأشياء تنشأ في نفسه بسبب قلة التقوى في نفسه. ولذلك يرى الفراهي أنه لا بد للخليفة أن يكون أتقاهم.⁵

¹ مقدمة ابن خلدون، ص 193.

² المصدر السابق، ص 195-196.

³ سورة الحجرات: 13

⁴ سورة الفاطر: 28.

⁵ في ملكوت الله، ص 29-30.

العدد الخاص مجلة الهند

ونستنتج من أفكار الفراهي أنّ روح المعاني القرآنية تتغلب على أفكاره السياسية، وأنه استفاد من المؤلفين الغربيين، والمفكرين السياسيين، والعلماء المسلمين، كما توجد دلائله في مؤلفاته أحياناً. وبما أنّ الفراهي يميل إلى نظرية الإبداع فلا يتبع النظرية التقليدية بل يميل إلى الاجتهاد، ولأجل ذلك أضاف شيئاً إلى النظريات الرائجة للحكومة، وأضاء عديداً من المصاييح الجديدة ليستفيد منها المفكرون السياسيون في هذا المجال في الأيام القادمة.

جمهرة البلاغة

- أ. د. أحمد حسن فرحات¹

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرسول الأمين، سيد الأولين والآخرين، الذي أنزل الله عليه القرآن معجزة خالدة، وحجة باقية إلى يوم الدين . وبعد:

فهذا كتاب «جمهرة البلاغة»- الذي طال انتظاره – يخرج إلى عالم النور بطبعة محققة مدققة، تليق بمكانته، ومكانة مؤلفه:

ولقد كان هذا الكتاب من أوائل ما كتَبَ المؤلف، وكما يذكر ذلك الدكتور - محمد أجمل أيوب الإصلاحي - في تحقيقه لكتاب «مفردات القرآن» للمؤلف حيث يقول: «جمهرة البلاغة: اسم الكتاب تاريخي يشير إلى سنة 1322هـ، ولعله بداية التأليف. وقد نشرته الدائرة الحميدية بعد وفاة المؤلف سنة 1360هـ» وقد كانت تلك الطبعة طبعة حجرية، لم تخدم الخدمة الكافية، مما جعل قراءتها صعبة عسيرة - ولعل هذا ما يُفسِّر عدم إقدام المحققين على إعادة تحقيقها ونشرها –.

وأذكر أن العلامة- أبا الحسن الندوي- كان قد أهدى الأستاذ محمد المبارك - عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق - نسخة من هذا الكتاب، واقترح عليه أن يعيد تحقيقه ونشره.

ويبدو أن الأستاذ المبارك لم يتح له وقته القيام بذلك، إضافة إلى صعوبة قراءة الكتاب. -وسياتي مزيد بيان لقيمة «جمهرة البلاغة» في المكان المناسب من هذه الدراسة- وترجع صلتني بكتب الفراهي، إلى أوائل الفترة التي كنت معارًا فيها للتدريس بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ما بين عامي 1967- 1972م حيث تعرفت على الطالب

¹ أستاذ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر

«محمد أمانة الله» القادم من الهند، وأمدني ببعض كتب الفراهي، والتي استفدت منها في بعض ما نشرته في مجلة الجامعة الإسلامية، وبخاصة في موضوع «المناسبات، والنظام».

وحينما كنت مدرساً بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض ما بين عامي 1975-1982م- زارني الطالب بالدراسات العليا «الدكتور محمد عناية الله»، وتبين أنه أخ لمحمد أمانة الله الذي سبق التعرف عليه في المدينة المنورة. ورغب إليّ أن أشرف عليه في رسالتي الماجستير والدكتوراه، فأجبتة إلى طلبه، وكان موضوع رسالته الأولى: «إمعان النظر في نظام الآيات والسور».

وقد أراد بهذه الرسالة أن يجلي للناس فكرة نظام الآيات ورباطها، ويلفت الأنظار إلى أهميتها وأبعادها، وأن يضع المعالم الهادية للوصول إليها.

أما موضوع رسالته الثانية فكان بعنوان: «نظام القرآن في سور الفاتحة والبقرة وآل عمران» وهذا البحث كان تطبيقاً عملياً لفكرة النظام، التي شرحها في الرسالة الأولى. وهو في الرسالتين متأثر بفكرة النظام التي ذهب إليها الفراهي.

وقد حصلت عن طريقه ما كان ينقصني من كتب الفراهي.

وأثناء عملي في جامعة الكويت ما بين عامي 1982-2000م- أسندت إلي رئاسة تحرير مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، فرأيت من المناسب أن أعرف الباحثين والدارسين بالعلامة الفراهي، الذي كان مجهولاً إلى حد كبير، في الأوساط العلمية، العربية والإسلامية. فكتبت إحدى افتتاحيات المجلة تعريفاً به، وبمكانته العلمية، والمناصب التي شغلها، كما بينت مدى عشقه للعربية، وإعجابه بالعرب.

وكان اعتمادي في التعريف به على الترجمة الملحقه بكتاب «إمعان في أقسام القرآن» بقلم السيد سليمان الندوي - باعتبارها الترجمة الوحيدة المتاحة

بالعربية في ذلك الوقت -.

أما اليوم وبعد أن نشر الدكتور - محمد أجمل أيوب الإصلاحي - كتاب: «مفردات القرآن» للفراهي - محققاً تحقيقاً متميزاً، باذلاً فيه أقصى الجهد، وغاية الطاقة - وقدم بين يدي الكتاب تعريفاً ضافياً بالعلامة الفراهي من أوثق المصادر المتاحة له - دون غيره - فلا يسعنا إلا أن نحيل القارئ الراغب في التوسع إلى تلك الترجمة. وسنكتفي هنا بالترجمة المختصرة التي جاءت في بحث: «مفردات القرآن» لعبد الحميد/الفراهي والتي قدمها - الدكتور محمد أجمل أيوب - لندوة: «عناية المملكة بالقرآن الكريم وعلومه». والتي نظمها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف بالمدينة المنورة -

(1) اسمه ونسبه ونشأته العلمية:

هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي، حميد الدين، أبو أحمد الأنصاري، الفراهي.

نسبة (الفراهي) إلى قريته التي ولد فيها، واسمها (فريها) فعربها، ويرى بعض الباحثين أن أسرته هاجرت من المدينة المنورة إلى أفغانستان، وأقاموا زمناً في (فراه)، فلما نزحوا إلى الهند ونزلوا في هذه القرية سمّوها باسم موطنهم، وتحرفت على ألسنة الناس إلى فريها.¹

ولد الفراهي صباح يوم الأربعاء في السادس من جمادى الآخرة سنة 1280هـ في القرية المذكورة من قرى مديرية (أعظم جره) في ولاية (أترابرايش) الحالية. وكانت أسرته من الأسر الأنصارية الكريمة، ويعدّ أهلها من أعيان المنطقة ووجهائها.

¹ مقال (ترجمان القرآن مولانا حميد الدين فراهي)، للدكتور شرف الدين الإصلاحي. مجلة معارف، عدد رجب 1411هـ، ص 88.

وكانت معروفة بنسبها وعلمها ومكانتها الاجتماعية. فنشأ الفراهي وترعرع في رخاء ونعمة. بدأ تحصيله العلمي في منزله - كدأب أبناء البيوتات الشريفة في عهده - بقراءة القرآن الكريم على مؤدبه الأول الشيخ أحمد علي،¹ وحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين أو نحو ذلك.²

ثم تعلم اللغة الفارسية في منزله أيضاً في مدة تسعة أشهر،³ أخذها عن مؤدبه الشيخ محمد مهدي، وكان من علماء الفارسية وشعرائها.⁴ وسرعان ما حصلت له بذكائه وتوقد ذهنه ملكة قوية في اللغة الفارسية، وامتلك ناصية البيان، فبدأ يقرض الشعر، ولم تمض مدة قليلة حتى أخذ يجاري فحول شعراء الفارسية. فقال قصيدة صعبة الرديف - وهو ابن ست عشرة سنة - عارض بها قصيدة خاقاني الشرواني الملقب بحسان العجم (ت 595 هـ)،⁵ فلما عرضها ابن عمته العلامة شبلي النعماني (ت 1332 هـ)⁶ على أستاذه الشيخ فاروق العباسي - من كبار أدباء الفارسية - وسأله عن قائلها، قال: لا أدري، ولكن الظاهر أنها لبعض الشعراء المتقدمين.⁷

بدأ الفراهي تعلم اللغة العربية، وهو ابن أربع عشرة سنة، فانتقل من قريته إلى مدينة (أعظم جره) وقرأ فيها أكثر كتب الدرس النظامي على العلامة شبلي الذي كان أكبر منه

¹ المرجع السابق، ص 89.

² الترجمة الذاتية للفراهي ضمن مقال (الإمام حميد الدين الفراهي) للأستاذ شير محمد في مجلة الضياء 2 / 7 ص 260.

³ المرجع السابق ص 260.

⁴ نزهة الخواطر 8: 248 وقد اطلعت على نسخة خطية من ديوانه الفارسي عند الشيخ بدر الدين الإصلاحي.

⁵ انظر ترجمته في لباب الألباب: 405.

⁶ انظر في سيرته كتاب (حياة شبلي) للسيد سليمان الندوي والأعلام للزركلي 3: 355.

⁷ حياة حميد: 28.

بست سنين. ثم توجه معه إلى مدينة (لكنّاؤ) وحضر هناك مدة يسيرة في دروس العلامة الفقيه الشهير عبد العلي الأنصاري اللكنوي (ت1304هـ)،¹ كما أخذ عن الشيخ فضل الله بن نعمة الله الأنصاري (ت1312هـ) أحد الفضلاء البارعين في المعقولات.²

ثم حداه حادي الشوق إلى التلمذ على أديب العربية، وشاعرها المفلح العلامة فيض الحسن السهارةفوري (ت1304هـ)³ الذي كان مدرساً في الكلية الشرقية بمدينة (لاهور)، فسافر إلى (لاهور) وقرأ عليه -بصفة شخصية- كتب الأدب العربي. وقد أحب الشيخ تلميذه لفرط ذكائه وحسن أدبه، فأهدى إليه نسخة كتبها وصحّحها بخط يده من كتابه (رياض الفيض) وهو شرح للمعلقات السبع في ثلاث لغات: العربية والفارسية والأردية.⁴ وكان من حب الفراهي لشيخه أنه نشر ديوانه العربي سنة 1334هـ على نفقته، وهو أول مطبوعات دار المصنفين بمدينة (أعظم جره).

وبعد ما تخرج في العلوم المتداولة من المنقول والمعقول وعلوم العربية، أقبل سنة 1300هـ -وهو ابن عشرين سنة- على اللغة الإنجليزية والعلوم الحديثة، فالتحق بثانوية (كرنل غنج) بمدينة (الله آباد) ثم بكلية (علي جره) التي تطورت فيما بعد إلى (جامعة علي جره). وكانت العربية والفارسية مواد لازمة لطلاب الكلية، ولكن الفراهي أعفى منهما،⁵ بل كلف من قبل المسؤولين ترجمة كتابين إلى اللغة الفارسية لإدخالهما

¹ انظر ترجمته في نزهة الخواطر 8:250.

² نزهة الخواطر 8: ص 248، وانظر ترجمته في 8: 387.

³ انظر ترجمته في نزهة الخواطر 8: 389.

⁴ هذه النسخة النادرة محفوظة في مكتبة مدرسة الإصلاح، والكتاب مطبوع.

⁵ في الأصل: وعنهما.

في المقررات الدراسية في الكلية التي كان هو أحد طلابها.¹

وقد عني الفراهي في دراسته في الكلية بالفلسفة الحديثة ونال فيها درجة الامتياز مع اهتمامه بالإنجليزية والعلوم العصرية الأخرى. وقد أخذ الفلسفة من المستشرق الإنجليزي الشهير (توماس أرنولد) الذي كان من أساتذة الكلية، وعمل فيها مدرسًا عشر سنوات.² ومن مؤلفاته كتاب (الدعوة إلى الإسلام) الذي نال قبولًا عظيمًا عند الباحثين المسلمين، ولكن الفراهي كان ينتقد هذا الكتاب انتقادًا شديدًا، ويرى أن الغرض من تأليفه تجريد المسلمين من روح الجهاد.³

وفي أثناء طلبه في كلية علي كره، طلب إليه ترجمة تفسير سيد أحمد (مؤسس الكلية) إلى اللغة العربية، فرفضها قائلاً: «لن أشارك في نشر هذا الإثم».⁴ ثم درس سنتين علم القوانين الجارية (الحقوق)، ولكنه كان يكره الاشتغال به، فنبذه ولم يكمل تحصيله.⁵

(2) مناصبه وأعماله التعليمية والإدارية:

تولّى الفراهي بعد إكمال دراسته مناصب عدة تعليمية وإدارية. فعين سنة 1314 هـ مدرسًا للعربية والفارسية بمدرسة الإسلام في مدينة (كراتشي)، ودرس فيها أكثر من تسع سنوات.

¹ أحدهما جزء من طبقات ابن سعد، ونشر ترجمته الفارسية سنة 1891 م، والآخر

رسالة بدء الإسلام من تأليف العلامة شبلي النعماني باللغة العربية.

² انظر ترجمته في كتاب: المستشرقون 2 / 84.

³ حياة حميد: 34.

⁴ المرجع السابق: 36، وقد ذكره من وقائع أيام تدريس في عليجهر، بينما يرى الدكتور

شرف الدين أنه وقع أيام طلبه في الكلية. انظر مقاله السابق الذكر ص 92.

⁵ مجلة الضياء 2 / 7 ص 260.

ثم عيّن عام 1324هـ أستاذًا مساعدًا للعربية في كلية عليجره، وكان أستاذ العربية فيها حينذاك المستشرق اليهودي الألماني (جوزف هوروفيتس) ناشر الجزأين الأولين من طبقات ابن سعد، وصاحب كتاب (المغازي الأولى ومؤلفوها)،¹ ولعل تعيينهما كان في وقت واحد. وقد أخذ عنه الفراهي اللغة العبرانية، كما استكمل المستشرق عليه العربية. وفي أثناء إقامته في عليجره ألف الفراهي كتابه (إمعان في أقسام القرآن)، ونشر تفسير سورتَي القيامة واللّهَب.

وبعد سنتين عيّن عام 1326هـ أستاذًا للعربية بجامعة (الله آباد) وقضى هناك نحو ست سنوات، أصدر خلالها تفسير سورة التحريم. واختير عضوًا في اللجنة العربية للعلوم الشرقية. ولما اقترح سنة 1331هـ تأسيس جامعة عالمية في المدينة المنورة، كان هو والعلامة شبلي النعماني من بين العلماء الذين اقترحت أسماؤهم للتدريس فيها.²

ثم اختارته حكومة (حيدر آباد) عميدًا لدار العلوم وكانت كلية شرقية، فغادر إليها سنة 1332هـ منتدبًا من قبل حكومة محافظته، وكان - بالإضافة إلى مسؤوليته الإدارية - يدرّس الصفوف العليا في الكلية.

وكان الفراهي أحد المؤسّسين للجامعة العثمانية بحيدر آباد، وهو الذي اقترح أن يكون تدريس العلوم الشرعية باللغة العربية، والعلوم العصرية باللغة الأردية، فوافقوا على الجزء الثاني، ولكن لم يوافقوا على الجزء الأول من اقتراحه.³ وفي أثناء إقامته بحيدر آباد ألف كتابه (الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح)، ومقدمات من تفسيره (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان). وكانت له حلقة أسبوعية لتفسير القرآن الكريم يحضرها العلماء والباحثون وطلبة علم القرآن، ويعرضون

¹ انظر ترجمته في كتاب: المستشرقون 2 / 433.

² مجلة معارف، عدد رجب 1411هـ، ص 96.

³ حياة حميد: ص 17.

عليه أسئلتهم فيجيب عنها.

مكث الفراهي بحيدر آباد إلى سنة 1337هـ، ثم استقال من منصبه مع رغبة المسؤولين في بقاءه بحيدر آباد، وعاد إلى وطنه. وقد أشار إلى ذلك في ترجمته الذاتية الموجزة التي كتبها للدكتور تقي الدين الهلالي، حينما زاره في قريته في 17 رمضان سنة 1342هـ قائلاً: «ولما كانت هذه المشاغل تمنعني عن التجرد لمطالعة القرآن المجيد، ولا يعجبني غيره من الكتب التي مللت النظر في أباطيلها، غير متون الحديث، وما يعين على فهم القرآن، تركت الخدمة، ورجعت إلى وطني، وأنا بين خمسين وستين من عمري. فبدأ أسقاً على عمر ضيعته في أشغال ضررها أكبر من نفعها! ونسأل الله الخاتمة على الإيمان»¹.

بعد عودته من حيدر آباد تولى الفراهي إدارة مدرسة إصلاح المسلمين التي أنشأتها جمعية إصلاح المسلمين في بلدة (سراي مير)، وقد قامت هذه الجمعية في منطقة (أعظم جره) لإصلاح عقائد المسلمين وإزالة البدع المنتشرة، وفض المنازعات والخصومات بين المسلمين، ثم أسست الجمعية مدرسة إصلاح المسلمين - التي سميت فيما بعد بمدرسة الإصلاح اختصاراً - لتخريج علماء ودعاة يحملون رسالتها، فيستمر عمل الدعوة والإصلاح. وقد أسند الإشراف على المدرسة إلى الفراهي، وهو في حيدر آباد، فلما رجع إلى وطنه باشر إدارة المدرسة، ووضع فكرتها التعليمية، ورسم لها منهاجاً دراسياً فريداً يختلف عن منهاج المدارس الدينية الأخرى في نظامها، ومقرراتها الدراسية، وطريقة التدريس فيها. وفي السنوات الخمس الأخيرة من عمره قد وقف جزءاً كبيراً من وقته وجهده على خدمة هذه المدرسة، فكان يقيم ثلاثة أيام من كل أسبوع في المدرسة، ويلقي دروساً لتفسير القرآن الكريم على أساتذتها وطلابها الكبار.²

¹ مجلة الضياء 7/2 ص 260.

² حياة حميد: ص 38.

ولما توفي العلامة شبلي النعماني سنة 1332هـ، واجتمع تلامذته لتنفيذ فكرة أستاذهم لإنشاء مؤسسة دار المصنفين، اختاروا العلامة الفراهي، رئيساً لها والعلامة سليمان الندوي مديراً.

(3) صفاته وأخلاقه:

كان الفراهي معروفاً بفرط الذكاء، وثقوب النظر، وسرعة الإدراك. وكان ورعه وزهده في الدنيا، وقصده في العيش، وعزوفه عن السمعة، وحسن تعبد، مع جود وغنى نفس وتواضع، موضع إجماع من معاصريه.

كان يقول شيخه شبلي النعماني: «من جلس إلى عبد الحميد انصرف قلبه عن الدنيا»¹. ويقول السيد سليمان الندوي: «كان آية من آيات الله في حدة الذهن، وكثرة الفضل، وسعة العلم، ودماثة الخلق، وسداد الرأي، والزهد في الدنيا، والرغبة في مرضاة الله»². ويقول الأستاذ عبد الماجد الدرابادي: «لم تر عيني مثله في الصبر والشكر والقناعة والتوكل وغنى النفس». وقال في موضع آخر: «كانت شخصية الفراهي قوية جذابة، قلما رأينا مؤمناً قانتاً مثله، قيل في وصف أولياء الله: إن الجلوس معهم يذكر الإنسان بالله سبحانه، وكان يصدق هذا الوصف على الفراهي صدقاً تاماً. أما الصلاة فكان قلبه معلق بأوقاتها. أقام في حيدر آباد سنوات عميداً لدار العلوم، يتقاضى مرتباً عالياً، وكانت صلته بطبيعة الحال بعلية القوم، لكن لم يتغير شيء مما كان عليه من القناعة والاقتصاد في المطعم والملبس والديانة والصدق والإخلاص. أما مجالسه فلا مجال فيها للغيبة ولغو القول والهزل. وبالجمل فلم يكن له نظير لا في العلم والفضل ولا في الديانة والتقوى»³.

وكان يصرف جزءاً من راتبه في شراء الكتب وتجليدها، والجزء الأكبر منه ينفقه

¹ حياة حميد: 55.

² انظر ترجمة الفراهي في أول من كتاب إمعان في أسام القرآن للفراهي، ص 15

³ مقال الدرابادي في صحيفته (صدق) عدد 1945/6/19 م.

على الفقراء واليتامى والأرامل.¹

وقد أقبلت الدنيا على الفراهي، فتهيأت له فرص لو اغتنمها وسعى إلى ما يسعى إليه أهل الدنيا لنال أجلّ الرتب وأعلى المناصب، وحاز كل ما تطمع فيه النفوس من الأموال والألقاب وحسن الصيت، ولكنه كان زاهداً في كل ذلك، مقبلاً على الله، قائلاً للدنيا ما قاله علي بن أبي طالب عليه السلام: «يا دنيا غري غيري».² وكان من تيقظه وحذره في ذلك أنه قال في أثناء تلك الفرص التي يتمنى الناس حصولها في حياتهم مقطوعة رباعية في الفارسية يخاطب نفسه محذراً لها، ترجمتها: «الجاهل مشغول بالبحث عن لذيق المأكّل، والعاقل مصروف همه إلى نيل الصيت والسمعة. أما أنت أيها الفراهي فاجتنب الاثنين، فيوشك أن ترى كليهما قد نشبت حلوقهما في الحبال».³ وكان من ورعه وعدله أنه حكم في قضية - جعله الخصم حكماً فيها - على والده، وكان من أبرّ الناس به، وخرج بذلك جزء كبير من ضياعه إلى ملك الخصم.⁴

(4) ثقافته وعلومه:

كان الفراهي عالماً متفنناً، ذا ثقافة واسعة متنوعة، فقد برع في العلوم النقلية والعقلية، ومهر في اللغات العربية والفارسية والإنجليزية، وتعلّم اللغة العبرانية. وتميّز من بين معاصريه في الهند بأنه درس مع ذلك علوم الغرب وآدابه في اللغة الإنجليزية دراسة الناقد البصير، ثم لم يزد ذلك إلا قوة في الدين واستقامة عليه علماً وعملاً.

لكن العلم الذي غلب عليه هو علم القرآن الذي بلغ فيه إلى منزلة تتقاصر دونها

¹ حياة حميد: 350.

² الرقة والبكاء: 198.

³ نواي فهلوي: 40.

⁴ حياة حميد: ص 53.

الهمم. ونكتفي هنا بلمحة موجزة عن ثقافته الواسعة التي امتازت في كل جوانبها بالكيف أكثر من الكم.

قد اعترف أقرانه وشيوخه بعلو منزلة الفراهي في معرفة اللغتين الفارسية والعربية، فيقول الأستاذ عبد الماجد الدرابادي: «قد بدّ العلامة الفراهي في الآداب الفارسية والعربية أقرانه بل شيخه شبلي النعماني أيضاً»¹ وقد ذكرنا فيما سبق معارضته وهو ابن ستة عشر عاماً- للشاعر الفارسي الشهير (خاقاني) بقصيدة صعبة الرديف بهرت أحد كبار علماء الفارسية، وخيل إليه أنها لبعض الشعراء المتقدمين.

وقد طبع ديوان شعره الفارسي عام 1903م، فأرسل العلامة شبلي النعماني نسخة منه إلى الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني، وكتب إليه: «طبع شيء من شعر حميد الدين، نرسل إليكم نسخة منه، ولعلكم تنظرون في القصيدتين اللتين في آخر الكتاب لتتذوقوا اللسان الفارسي الأصيل».² وقد طبع الديوان مرة أخرى في طبعة أوفى بعنوان (نواي فهلوي) سنة 1967م.

للفراهي ديوان آخر ترجم فيه صحيفة أمثال سليمان إلى الفارسية القحة التي لا يشوبها شيء من ألفاظ العربية وقد طبع في حياته في حيدر آباد بعنوان (خردنامه). ومما يدل على تمكنه من الآداب الفارسية رسائل العلامة شبلي النعماني إليه في أثناء تأليفه كتاب (شعر العجم)، يقول في بعضها: «الأبيات التي سترسلها إليّ من (شاهنامه) الفردوسي، ينبغي أن تفسر الغريب من ألفاظها في مواقعها، فإن أكثر

¹ مقالة (مولانا حميد الدين الفراهي) في صحيفة الداعي، عدد 3 ديسمبر 1976م.

² مكاتيب شبلي 124/1.

ألفاظها غير مألوفة الآن».¹

وكتب في رسالة أخرى: «أرسل إلي أمثلة من التخيل في الشعر الفارسي حسب آراء النقاد الغربيين».²

أما الإنجليزية فقد أتقن دراستها، وألّف فيها وحاضر، وقد اطلع بواسطتها على كتابات المستشرقين عن القرآن وتاريخ العرب، وعلى الأدب الإنجليزي شعراً ونثراً وبلاغة، وعلى كتب الفلسفة الحديثة وما ترجم إليها من كتب الفلسفة والأدب اليونانية. ومن مؤلفاته بالإنجليزية رسالة في عقيدة الشفاعة والكفارة، ردّها على بعض علماء النصارى.³

وقد أقرت ندوة العلماء في اجتماعها السنوي الذي عقد في دلهي عام 1328هـ قرار إعداد ترجمة إنجليزية لمعاني القرآن الكريم، نظراً لأن التراجم الأخرى الموجودة في ذلك الحين تمت على أيدي النصارى. فشكّلت لجنة مؤلفة من العلامة الفراهي، والنواب عماد الملك البلجرامي، والشيخ محمد صالح، على أن يقوم عماد الملك بالترجمة ويراجعها الفراهي، والشيخ محمد صالح.⁴

وقد درس الفراهي اللغة العبرانية، كما سبق، والذي دعاه إلى ذلك انتشار جمعيات التنصير في عهده في الهند، والرد عليهم من كتبهم يقتضي الاطلاع المباشر على كتب اليهود والنصارى، فاستفاد الفراهي بمعرفته للغة العبرانية، ووقوفه على الدراسات المتعلقة بصحف أهل الكتاب في اللغة الإنجليزية، في كشف كثير

¹ المرجع السابق 28/2، وكتاب شعر العجم في تاريخ الشعر الفارسي في خمسة مجلدات.

² المرجع السابق 18/2.

³ ذكرها السيد سليمان الندوي في ترجمة الفراهي الملحقه بكتابه (إمعان في أقسام القرآن). انظر طبعة دار القلم من كتاب الإمعان: 19.

⁴ حياة شبلي: 582.

من تحريفاتهم بنصوص كتبهم، كما نرى في كتابه (الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح)، فقد جاء بثلاثة عشر دليلاً من التوراة نفسها للرد على زعمهم بأن الذبيح إسحاق عليه السلام، وناقش علماء أهل الكتاب، وفسّر ما أشكل عليهم من كتبهم. ومن مؤلفاته التي لم يكملها (الطريف في التحريف) الذي كان يريد أن يجمع فيه جملة من تحريفاتهم.

ومن ثم لما جاءت فكرة الرد على شبهات المستشرقين وأقوالهم على القرآن الكريم وكتب بعض المسؤولين في حكومة (بهوبال) إلى العلامة شبلي النعماني ردّ عليه بأنه لا يوجد في الهند كلها من يستطيع أن يقوم بهذا العمل مثل حميد الدين الفراهي.¹ وكتب في رسالة أخرى: «يندر في المسلمين من يجيد الكتابة في اللغة الإنجليزية (مع تبحره في القرآن)، ولذلك فإن حميد الدين هو الذي يستطيع أن يقوم بهذا العمل خير قيام».²

أما العلوم العقلية فدرسها الفراهي أيام طلبه إذ كانت جزءاً لازماً من نظام الدرس في عصره، ثم اهتم بالفلسفة الحديثة حينما دخل كلية عليجهره، ونال فيها درجة الامتياز، وقد واصل اطلاعه على ما كتبه فلاسفة الغرب. يقول الأستاذ عبد الماجد، وكان من المختصين في الفلسفة الحديثة: «إن الفراهي قد درس الفلسفة دراسة واسعة وعميقة جداً، وكان يقرأ أحدث كتب الفلسفة والمنطق، ولم يكن يكتفي بالاطلاع عليها، بل يقرأها قراءة بحثٍ ونقدٍ ومقارنة».³ ومن هنا كان أعرف بخطرها وضررها وضلالها. وقد نبّه على ذلك في كتبه،⁴ ثم لما قرّر المنهج الدراسي

¹ مكاتيب شبلي، 1: 25.

² المرجع السابق 1: 254.

³ مقالاته في صحيفة الداعي، عدد 3 ديسمبر 1976 م.

⁴ منها كتاب المفردات قال فيه: «ومضرة كتب الفلسفة أضلّ وأوغل» (ص5).

لمدرسة الإصلاح، حذف منه كتب المنطقي والفلسفة، ولم يترك إلا مبادئهما ليعرف الطالب المصطلحات المستعملة في الفنّين، فيتمكن من الاستفادة من كتب علماء الإسلام في أصول الفقه والكلام. وكان من أعظم كتبه التي لم يكملها كتاب حُجَج القرآن، والأبواب الثلاثة الأولى منه في نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام. والعلماء والباحثون الذين حضروا مجالسه ومحاضراته في نقد هذه العلوم وبيان زيفها، كانوا يشبهونه بشيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك وفي تبحره في علوم القرآن.

أما العربية فكان فيها إمامًا لا يشق له غبار، وكان له في كل علم من علومها من لغة، ونحو، وبلاغة، وعروض، تحقيقات واجتهادات واستدراكات على الأئمة. ونكتفي هنا بالإشارة إلى كتابه (جمهرة البلاغة)، الذي نقض فيه الأساس الذي يقوم عليه فن البلاغة عند أرسطاطاليس، وهو نظرية المحاكاة، ويرى الفراهي أن فن البلاغة العربية تأثر بهذه النظرية، فجار عن قصد السبيل. وانتقد في ذلك الإمام عبد القاهر الجرجاني مع اعترافه بجلالته، ودعا إلى تأسيس فن البلاغة على أسس منبثقة من القرآن الكريم، وكلام العرب الأقحاح.

ولما أرسل الفراهي فصولًا من جمهرة البلاغة إلى العلامة شبلي النعماني أعجب به إعجابًا جعله يلخص مباحثه المهمة وبخاصة نقده لنظرية المحاكاة في مجلة الندوة التي كان يصدرها باللغة الأردية، مع أن النعماني نفسه يعدّ من أشهر النقاد والكتّاب، ومن الأركان الخمسة للأدب الأردّي. وقد نشر الكتاب بعد وفاة المؤلف، ونفذ قبل أن يصل إلى البلاد العربية ليأخذ مكانه من البحث والنقاش، فهو كتاب فريد في تاريخ البلاغة العربية.

وللفراهي ديوان شعر لطيف في العربية، طبع سنة 1387هـ، وقد ذكره الدكتور تقي الدين الهلالي: فقال في مذكراته: «وللشيخ المذكور ديوان شعر، سمعته منه، بليغ مؤثر في استنهاض همم المسلمين، وبث الحياة في قلوبهم، وذكر عداء الإفرنج

لهم، وذكر حرب طرابلس، والحرب الكبرى، والرجل فصيح في التكلم لغاية...¹ أما أسلوبه في الكتابة فيشبه أسلوب الأقدمين في الجزالة والرصانة والإيجاز والإشراق.

أما العلوم الشرعية، فتشهد بطول باعه فيها الفصول التي سوّدها من كتبه: الرائع في أصول الشرائع، وإحكام الأصول بأحكام الرسول، وفقه القرآن، وكان ينوي تدوين فن أصول الفقه على نحو جديد بعد تخليصه مما اختلط به من مباحث الفنون الأخرى. وله تعليقات على كتب الحديث والفقه والأصول وغير ذلك، ولكن العلم الذي استحوذ على عقله وقلبه، فأقبل عليه إقبالاً منقطع النظير هو علم القرآن. وكل ما درسه من علوم المنقول والمعقول وآداب الأمم وفلسفتها سخره لخدمة القرآن الكريم والمنافحة عنه. وقد شرّع في تدبر القرآن الكريم أيام طلبه في كلية عليجهر، كما ذكر في فاتحة نظام القرآن، وكان كتاب الله أحبّ الكتب إليه، والنظر فيه ألذّ من كل ما في الدنيا.²

وكان يعكف كل يوم بعد قيام الليل على تدبر القرآن الكريم، ويستمر على ذلك بعد صلاة الفجر إلى الساعة التاسعة صباحاً، وظل ذلك دأبه أكثر من ثلاثين سنة. ولما استقال من عمادة دار العلوم بحيدر آباد صار يقضي معظم وقته في تدبر القرآن، والتأليف فيه.

فحاز السبق في علم القرآن، وفتح الله عليه من علومه ما شاء، وبلغ في ذلك شأواً لم يبلغه إلا قليل من أهل العلم، فلقبه معاصروه بترجمان القرآن. وقد ألّف في تفسير القرآن وعلومه بضعة عشر كتاباً، أجّلها تفسيره (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) الذي صدر منه أحد عشر جزءاً في حياته، وجزءان بعد وفاته.

¹ مجلة الضياء، عدد رجب 1352هـ.

² فاتحة نظام القرآن: 2.

ولعله لم يشرع في التفسير من أوله إلا في آخر حياته، فوافاه الأجل وهو في تفسير الآيات (47-62) من سورة البقرة.

وله منهج فريد في التفسير، أفاض القول في بيان أصوله في مقدمة التفسير (فاتحة نظام القرآن)، وكتابه دلائل النظام، وأبانت عنه أجزاء التفسير المذكورة. وقد تكلم على كثير من الموضوعات القرآنية في المقدمة، أما المسائل التي كانت بحاجة إلى بسط القول فيها، فأفرد لها كتباً مستقلة. منها كتابه في تعيين الذبيح (الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح) الذي سبق ذكره، و (إمعان في أقسام القرآن) الذي تناول فيه قضية القسم على وجه العموم، وذكر أصله وأنواعه وأدواته وبلاغته، وانتهى إلى أن الأقسام الواردة في القرآن الكريم إنما هي للاستدلال والاستشهاد.

وقد خطط الفراهي لتأليف اثني عشر كتاباً في علوم القرآن غير ما سبق، وكتب جملة من فصول بعضها. من أهمها كتاب حكمة القرآن، وكتاب حجج القرآن، وكتاب دلائل النظام، وكتاب مفردات القرآن.

(5) مصنفاته:

قبل أن نسرد أسماء مؤلفات الفراهي، يحسن أن نشير إلى منهجه في التأليف، فإنه يختلف عن منهج عامة المؤلفين الذين إذا عزموا على تأليف كتاب جمعوا مادته ثم رتبوها في صورة كتاب. أما الفراهي فإن الموضوعات التي رأى ضرورة الكتابة فيها وحل مشكلاتها كانت ماثلة بين عينيه، يديم النظر والبحث فيها، فإذا حَقَّق مسألة، أو حلَّ معضلة، أو توصَّل إلى رأي مقنع قيد ذلك، وكتب عليه: «من كتاب...» حتى إذا اكتملت جوانب البحث أقبل على تأليفها وتنسيقها. ولذلك كان يؤلف كتباً عديدة في وقت واحد، ومن ثم بقي أكثر مؤلفاته ناقصاً، وآخر منها لم يتخط حدود ذهنه، ولا جرى به قلمه، مع أنه يحيل عليه في مؤلفاته، لأن كل بحث له مكان معين عنده. ونكتفي فيما يلي بإيراد أسماء مؤلفاته العربية المطبوعة:

العدد الخاص مجلة الهند

- 1- أساليب القرآن، الدائرة الحميدية، الهند، سنة 1389هـ.
- 2- إمعان في أقسام القرآن، الطبعة الثالثة، دار القلم بدمشق، سنة 1415هـ.
- 3- التكميل في أصول التأويل، الدائرة الحميدية، الهند، سنة 1388هـ.
- 4- جمهرة البلاغة، الدائرة الحميدية، الهند، سنة 1360هـ.
- 5- دلائل النظام، الدائرة الحميدية، الهند، 1388هـ.
- 6- ديوانه العربي، الدائرة الحميدية، الهند، 1387هـ.
- 7- الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، الطبعة الثالثة، دار القلم بدمشق، سنة 1420هـ.
- 8- فاتحة نظام القرآن، الدائرة الحميدية، الهند، 1357هـ.
- 9- في ملكوت الله، الدائرة الحميدية، سنة 1391هـ.
- 10- القائد إلى عيون العقائد، الدائرة الحميدية، سنة 1395هـ.
- 11- مفردات القرآن، الدائرة الحميدية، سنة 1358هـ.
- 12- نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، وهو تفسيره الكبير الذي صدرت منه الأجزاء الآتية:
 - أ- تفسير سورة الفاتحة والبسمله. نشر مع فاتحة نظام القرآن سنة 1357هـ.
 - ب- تفسير سورة الذاريات، مطبعة معارف بأعظم جره، دون تاريخ.
 - ج- تفسير سورة التحريم، مطبعة فيض عام، عليجره، سنة 1326هـ.
 - د- تفسير سورة القيامة، الطبعة الثانية، الدائرة الحميدية، سنة 1403هـ.
 - هـ- تفسير سورة المرسلات، مطبعة معارف، دون تاريخ.

- و- تفسير سورة عبس، مطبعة معارف، دون تاريخ.
- ز- تفسير سورة الشمس، مطبعة فيض عام، سنة 1326هـ.
- ح- تفسير سورة التين، مطبعة معارف، دون تاريخ.
- ط- تفسير سورة العصر، مطبعة فيض عام، سنة 1326هـ.
- ي- تفسير سورة الفيل، مطبعة معارف، سنة 1354هـ.
- ك- تفسير سورة الكوثر، مطبعة معارف، دون تاريخ.
- ل- تفسير سورة الكافرون، مطبعة فيض عام، سنة 1326هـ.
- م- تفسير سورة الذهب، مطبعة معارف، دون تاريخ.

(6) وفاته وثناء العلماء عليه:

توفي - وهو يتلو القرآن الكريم- في 19 جمادى الآخرة عام 1349هـ على إثر عملية جراحية أجراها طبيبه الخاص في مدينة (مثورا)، ودفن بها.

وقد رثاه عدد من أصحابه وأصدقائه بقصائد عربية وفارسية وأردية. وقد نقلنا فيما سبق أقوال بعض معاصريه عن علمه وخلقه، ونضيف هنا مقتطفات من ثلاث كلمات: أولها للعلامة السيد سليمان الندوي، وهي أقوى ما كتبه في وفيات الأعلام. وقد كتبها في مجلة (معارف) الصادرة من دار المصنفين بأعظم جره بعنوان (الصلاة على ترجمان القرآن) بدأها بقوله: «(الصلاة على ترجمان القرآن) نودي بذلك قبل نحو ستة قرون من مصر والشام إلى حدود الصين، للصلاة على الإمام ابن تيمية، وحق أن ينادى بذلك مرة أخرى من ربوع الهند إلى بلاد مصر والشام على الأقل، فإن ابن تيمية هذا العصر قد توفي في التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة 1349هـ (الموافق 11 نوفمبر سنة 1930م). ذلك الإمام الجليل الذي كانت شخصيته

الجامعة بين علوم الشرق والغرب نادرة العصر، شخص واحد اجتمع فيه عالم من العلم والمعرفة، ماهر في العلوم الدينية، ناقد للعلوم العقلية، وحيد عصره في علوم العربية، نسيج وحده في علم القرآن، عارف بحكمته ودقائقه، كنيف ملئ علمًا، ولكن لم ينقل من علمه - مع الأسف - إلى الدفاتر والأوراق إلا قليل...¹

والكلمة الثانية للعلامة أبي الكلام آزاد فقال فيها: «كان حميد الدين الفراهي من العلماء الريانيين الذين لا تكون بضاعتهم العلم فحسب، بل يجمعون بين العلم والعمل فهو نادر في علماء العرب فضلاً عن علماء الهند. ويندر وجود أمثال هؤلاء الحائزين للشرفين.. سمعت منه خطبة تفسيره للقرآن اغرورقت منها عينايا لفصاحتها وحقيتها، كما لا يخفى على أهل النظر، وإني كلما قابلته تأثرت بعمله أكثر من علمه، فإنه كان رجلاً تقيًا بكل معنى الكلمة...»²

وقد نقلنا من قبل بعض ما كتبه الدكتور تقي الدين الهلالي في مذكراته، حينما زار الفراهي، قبل وفاته بسبع سنين، ومما جاء فيها أيضًا:

«... والرجل فصيح في التكلم لغاية، وهو عارف بمسألة الخلافة محقق لها، لا يلتبس عليه شيء من أمرها خلافاً لأهل الهند، مجتهد في العقائد والعمليات، لا ينتهي لمذهب؛ لكنه يتعبد على مذهب الحنفية؛ لأنه نشأ عليه، ويعتقد أن الأمر في مثل ذلك سهل. ماهر في الإنجليزية والعربية والفارسية والأردية. وبالجمله فهو أعلم من لقيناه قبل هذا الحين، وهو 17 رمضان 1342هـ»³

¹ مجلة معارف المجلد 26 العدد السادس ص 322.

² انظر: مجلة الإصلاح المجلد الأول العدد الثامن ص 56-61.

³ مجلة الضياء المجلد الثاني العدد السابع ص 260.

العلامة عبد الحميد الفراهي إمام العربية والتفسير:

تحت هذا العنوان أرى من المناسب أن أذكر مقتطفات مما جاء في افتتاحية مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية الكويتية حيث قلت فيها:

يعتبر العلامة عبد الحميد الفراهي الهندي أحد مخضرمي القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، حيث ولد سنة 1280هـ في قرية فريها - من قرى مديرية أعظم كره بالهند - وكان ابن خال علامة الشرق ومؤرخ الإسلام الشيخ شبلي النعماني - تغمده الله برحمته - .

وتوفي سنة 1349 هـ الموافق 1930 م

ومن المؤسف أن يكون مثل هذا العلم العظيم مجهولاً - إلى حدٍ كبير في الأوساط العلمية والثقافية في العالمين العربي والإسلامي - على الرغم من كتبه ومؤلفاته التي تدل على عبقرية فذة، وعقلية مبدعة، والتي لا بد أن يكون لها أثر بارز في حاضر ومستقبل العلوم العربية والإسلامية.

العربية والعرب في نظر الفراهي:

أعجب الفراهي بالعرب ولغتهم، حيث رافقهم في شعرهم الجاهلي، وعاش حياتهم، وتنقل في بواديهم وحواضرهم، وعرف أخلاقهم ومثلهم، وقال فيهم ما لا يحسن أن يقولوا مثله في حق أنفسهم. يقول الفراهي في العرب وفي صفة كلامهم:

«وكانت العرب على غاية قصوى في تأثرهم بالكلام، وهذا القوة قلوبهم، وشدة تأثير أقوالهم، فكان كلامهم يحمل روحاً منهم، وكان السامع يتأثر له من وجهين: من قوة المتكلم . ومن اعتيادهم التأثر . وقد قيل: القول إذا خرج من القلب وقع في القلب. وسداجتهم وصدقهم، نفت عنهم الخواطر وتشتت البال. وصرف القول عن نهجه الصادق. فكان قولهم وسمعهم من القوة والإصابة كضربة سيف

مرهف. ولولا أن كلامهم جَماعُ همتهم، ما ارتجلوا قصائد طويلة دامغة، وكانوا أصدق الناس وأنطقهم».

ويقول أيضًا في أخلاق العرب التي رشحتهم لحمل رسالة الإسلام:

«زعموا أن الله تعالى أعطى العرب كتابه، وأرسل إليهم الرسول لما بلغ كفرهم وسوء أعمالهم منتهاه، هذا حق. ولكن لا بد فيه من زيادة:

إن الله تعالى بعث فيهم رسولًا منهم، واصطفاهم لصدقهم، وأمانتهم، ومكارم أخلاقهم، وكانوا أرغب في خلال الخير.

- وهذا بحث طويل، ودلائله في تاريخهم، والحديث»-.

ويقول أيضًا:

«خلتان فضلت بهما العرب على سائر الناس: الصدق. والجود.

فالصدق بناء العبادات. والجود بناء المعاملات.

ويعبر عن الأصلين بالصلاة والزكاة. ألا ترى كيف كانوا يمدحون بهاتين الصفتين؟

قال صخر أخو الخنساء يرثي أخا له:

وطيَّبَ نفسي أني لم أقل له كَذَبْتَ، ولم أبخل عليه بمألياً

وبلغ من حبِّ الفراهي للعرب ما جعله يعتبر سيئاتهم إنما نبعت من الحسنات.

وفي ذلك يقول:

«وإنما كان القرآن مُعْجَزًا للعرب لما أنهم تأثروا له، فإن العرب - على علائها - كانت

على سداجة الفطرة، وحبِّ المعالي - من الجود، وصلة الرحم، والغيرة، والشكر -

لأسيما شرفاؤهم وخيارهم - حتى إن سيئاتهم نبعت من الخيرات:

- فمعاقرتهم الخمر، ومقامرتهم الميسر، جاءت من الجود.

- وحروبهم من أداء حق المقتول، والغضب للقسط.

- وظلمهم من إباء النفس عن الدنية.

ولذلك رحموا الضعفاء، والأرامل، ولم يقتلوا في الحرب الإمام، ولا الأطفال، ولم يرهقوا المهزمين.

وانما بقوا على الفقر وسوء العيش، لإبائهم عن الطاعة لملك يجمع أمرهم، إلا من لا يتكبر عليهم، ويعدل بينهم، ويكون كأحدهم - كما كان الشيخان وذوو أمرهم في الجاهلية - فأملكهم وأقهرهم أعدلهم - كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه - فلم يرد إلا أنه يقهرهم بكمال عدله ...

ويرى الفراهي أنّ سبب تأثر العرب بالقرآن، يرجع أولاً وقبل كل شيء لدعوته إلى مكارم الأخلاق التي كانوا يجدون صداها في نفوسهم، والتي كانوا يشعرون بها بفطرتهم. وفي ذلك يقول:

«والقرآن دعاهم أولاً إلى هذه المكارم التي قد عرفوها، فتأثر له ذوو النهى منهم، لصدقه في الدعوة إلى المعالي، حتى إذا دانت له جماجمهم، بين لهم أنّ هذا الكلام لا يكون إلا صدقاً، وهو كونه قدسياً، وهدى ونوراً، فلا يقدر عليه كاذب، بل يكون إيحاءً من جانب القدس، ولذلك لم يعج التحدي به في أول الدعوة حتى علموا أثره».

وكونه أهدى، هو أثره الذي أحيا أمة تشنت أركانها، وتهدم بنيانها، وبعدت عن المدنية لشدة إبائها وحميتها، وصعوبة قيادها، كأن القرآن أخرج أمة متمدنة من الأسود الضواري، قال تعالى:

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ

والعرب قد جربوا ذلك، وعرفوه في أنفسهم - وأثمتهم وذوو العقول والتدبير، وأولو الأمر والنهى منهم، أعلمهم بعجزهم عن تحويل العرب إلى التمدن - وقد أعجزوا الأمراء إلا الشيخين، وعادوا بعد مدة قصيرة إلى بغيهم، وتطاول بعضهم على بعض، وهم إلى الآن على حالهم قانعين بفقرهم وبؤسهم، مفتخرين بحريتهم القديمة، إلا الذين شربوا من التمدن الحديث الذي هو هلاك بني آدم...²

ويرى الفراهي في فضيلة الصبر التي كان يتحلى بها العرب مرشحاً قوياً لهم لحمل رسالة الإسلام، ذلك أنّ بناء الإسلام إنما قام على الصبر، وفي ذلك يقول الفراهي: «لعل اختيار أمة العرب، هو الصبر المحض، وهو جماع الفضائل، وهو أحسن وراثته إبراهيم عليه السلام». وأرض العرب أصلح لتربية هذه الفضيلة، حتى ترى حيواناتها وأشجارها أصبر من بني نوعها في سائر الأرض.

ولما كان بناء الإسلام على الصبر، كان الإسلام أصلح لفطرة العرب، ولما كانت أرض العرب صالحة لطبائع أهلها، فإذا خرجوا منها أسرع الفساد إلى طبائعهم.

فكان الترف هلاكهم، ولذلك قال النبي - ما معناه -: «إنه يخاف عليهم كثرة المال».³

¹ سورة الأنفال: آية 63.

² القائد إلى عيون العقائد: 181 - 183 مع شيء من التصرف.

³ دلائل النظام: 37. والحديث الذي في معناه أخرجه البخاري في صحيحه برقم 4015. ومسلم في صحيحه برقم 2963: «أن رسول الله بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتهما، وكان رسول الله هو صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع النبي، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله حين رآهم، ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء»، قالوا: أجل يا رسول الله، قال:

ويقول أيضًا في صفة كلام العرب وتفضيله على كل كلام آخر:

«اعلم أنّ كلام العرب كله نمط أعلى من كلام الأمم التي اعتادت عليه، لأن العرب مولعون برزانة القول، وتهذيبه عن السخف، فهم يجردون كلامهم من كل رابطة، ولو ذكروا الروابط لكان عارًا على السامع، الذي يفهم الروابط بذكائه، فلذلك كثر في كلامهم الحذف. ألا ترى قولهم: «أنا ذاهب» كلمتان. - وفي أكثر اللغات: ثلاث كلمات».

فخف عليهم بهذا الإيجاز، إعمال المنطق، كأن كلامهم قد وضع حسب اقتضاء الفكر والفهم. فترى كلامهم مربوطًا برابطة عقلية.

وعليك أن تميز بين الروابط من كل قسم، فإنهم لا يصرحون بها ...

ثم إن الحذف في كلامهم، يجعل كلامهم شبيهًا بالوثبات - والقرآن كمطر السحاب من وجوه مختلفة - وهذه الوثبة، من بعض وجوه المطر.

قال امرؤ القيس في صفة السحاب ومطره:

لها وثبات كوثب الأطباء فواد خطاء وواد مطر

فالكلام الذي لا حذف فيه، لا محل فيه للعقل والنظر، وهو كديب النمل، والعرب لا تستجيده، ولا تتأثر به، لذلكهم وسرعة فهمهم، وتنفرهم عن الفضول - وإن كان ضروريًا عند غيرهم -...¹

ويتحدث الفراهي عن ميزة الحذف هذه في كلام العرب في مكان آخر فيقول:

«فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم».

¹ دلائل النظام: 65 - 68 بقليل من التصرف.

العدد الخاص مجلة الهند

ومن أساليبهم: الحذف - وهو: إسقاط الفضول عن القول - والفضول: ما يفهم الكلام بدونه، ويتأثر منه السامع. فإن الغرض من الحديث ليس إلا الإفهام والتأثير. فكلما زاد على هذين أذهل وأبعد وأثقل.

ولما كان المستمعون على مراتب متفاوتة من الذكاء والتأثر. فقد اختلفت الألسنة في مقدار الحذف فيها:

أما العرب فلذكائهم، وتوقد أذهانهم، فقد كان أنجح الأقوال عندهم ما قلَّ وكفى، فإن الكلام إذا لم يهذب عما لا فائدة فيه، ولا يغني شيئاً. سقط عندهم، ومجته أسماعهم. وذلك لاعتقادهم أنَّ المسهب في الكلام:

- إما أنه أحمق.

- أو يحقق المستمع.

- وعلى هذا كان أمر الحذف في كلامهم، من بعض سجايأهم، وكأنهم طبعوا عليه، فلذلك تراهم يخالفون ألسنة الأمم بأمور:

- لم يشكّلوا كلامهم إلا لأجل العجم - وكذلك العبرانيون إخوانهم -.

- جرّدوا الكلام عن الروابط: كالإضافة، والخبر، والتمييز، والظرفية، وغيرها. وهذه درجة عالية من ارتقاء اللسان - والبحث المشبع عليه في باب على حدة -.

- وأخلصوا الكلام عما دلّت عليه القرينة من الفعل، والجواب للشرط، والقسم. - واستقصاء ذلك في النحو -.

- أسقطوا من القصة، والحجة، أجزاء وقضايا، لا يكاد يحذفها غيرهم. فلذلك صعب على العجم درك حديثهم - كما لا يدرك حسير القوم شأو حديثهم - والبحث عنه في باب الإيجاز، وفيه فوائد جمة -...

- أسقطوا- في كلامهم المركب- من هيآت الحروف: أكثرها .

فسبقوا كل أمة بخطهم البديع التركيب»¹.

ويشرح الفراهي بعض ما أوجزه هنا - في مكان آخر من كتابه «أساليب القرآن» - حيث يتحدث عن خصائص لسان العرب وخطهم فيقول:

خصائص لسان العرب وخطهم:

- منها كثرة الحذف، اعتمادًا على فهم السامع، فإنهم لذكائهم كانوا يعدون الإطناب عيًّا. حتى إن لسان العرب، قد بني على الإيجاز - خلاف سائر اللغات -

فأنواع الكلم مصوغة من المواد، وليست مركبة من السوابق واللواحق، مثلاً كلمة: «فاعل» - ليس مثل «كارنده» (الفارسي). وميكـر Maker (الإنكليزي).

وما في العربية من الحروف الزوائد في مثل:

- يفعل، ومفعـل، وفاعلة، وفاعلون، - فليس في شيء من السوابق واللواحق - .

إنما هو من أنحاء أوضاع الزوائد؛ فإنها توضع في أمكنة مختلفة.

وكذلك هُذِبَ كلامهم عن فضول الروابط - فلا تجد فيه رابط النسبة الخبرية، ولا الإضافية - . وكذلك عن روابط الخيال.

فترى في كلامهم- لتعودك بالعجمي- انقطاعًا ورتقًا، ولكن العربي يراه متصلًا- وهذا من أقوى الدلائل على حدة فكر المتكلم، والكاتب - وأرى ذلك في كلام حكماء الهند. - وأشكل على علماء أوربا فهمه، لتعودهم على الإطناب-.

¹ أساليب القرآن: 25 - 26 مع شيء من التصرف.

- قد علمنا أنّ اللسان حمولة الخيال، وكذلك الخط حمولة اللسان، وقد علمنا ما في الخيال من السرعة، ثم ما في اللسان، فمهما كان اللسان أبطأ، كان قيّدًا وثقلًا على الخيال.

وهكذا الخط إذا كان بطيئًا كان قيّدًا على الكلام النفسي، فيتبدّل الخيال. فلذلك كلما كان اللسان والخط أوجز، كان أحسن وأعون.

ولذلك في هذا الزمان احتاجوا إلى الخط السريع، لضبط الخطب. والعرب لسرعة فكرهم، لم يرضوا بالخط البطيء - الذي لم يترق منه قوم إلى الآن - والمتعود بالخط العربي، يحقر سائر الخطوط، ويحسبه خط الجهلاء والحمقاء - لا أثر عليه من الصنعة والعقل.

فالفكر الذي وضع لهم لسانًا مهذبًا عن الفضول، أعطاهم خطأ على غاية من الصنعة، وجودة التركيب.

وكما أنّ خطهم يساعد الكاتب فيلقى خياله بسرعة التخيل، والكلام النفسي، كذلك هذا الخط يساعد المتعلم، وذلك لأن الألفاظ فيه صورة واحدة، ترتسم بلحظة واحدة في الخيال، وتبقى كصور الأشخاص، وأنت تعلم أن البصر لشدة تمرنه، يقدر على حفظ الصور أكثر من سائر الحواس -

فإنك لا تزال ترى - حتى في النوم -، ولا تسمع، ولا تشم، ولا تطعم، ولا تمس، إلا بعض الأوقات -.

فإذا رأيت ألفاظًا مثل شمس، قمر، نجم، أسد، نخل، رجل، فكأنما رأيت صور أشخاص.

وأما سائر الخطوط - من خطوط النصراري والهنود - ففيها:

كل حرف صورة على حدتها، وفي كل كلمة تحتاج إلى حفظ الصور المختلفة

الطويلة العريضة، وزاد على ذلك رسم الحركات.

ثم في الخط الأوروبي: الحركات ربما تربو على الحروف. مثل فائط فإنه عندهم: ف - ي - ج - ص - ط، أعني Fight.

فالخط الذي وضعته العرب أسهل لتعلم الألسنة، ولذلك ترى الفرس، والترك، والأفغان، وأكثر الأمم المسلمة - مع حفظهم ألسنتهم - تركت خطوطها

ويتحدث في مكان آخر عن عدم تغير اللسان العربي، وثباته واستمراره فيقول:

«إننا نرى اللسان يتغير بالزمان، إذا لم يكن له وازع عن التغير، ولكنك ترى اللسان يسلم عن التغير إذا شاع التعليم، واتخذوا كتبًا خاصة، فكل صبي ينشأ ويتربى على لسان واحد - كما نرى الفارسية، والعربية، في الهند لم تتغير - فإن القرآن صار كالمركز لكل ما تعلموا في العربية - وكتاب السعدي والحافظ وأمثالهما، حفظوا اللسان في فارس والهند -.

والسبب القوي للتغير هو تبدل الحكم من قوم إلى قوم مختلفين في لغاتهم - بخلاف لسان فارس والهند - والآن نرى أثر لسان الإنكليز في الهند. وهذان أمران ظاهران.

فإذا توجهنا إلى حال لسان العرب قبل الإسلام: علمنا أنهم حفظوا لسانهم لأجل الرواية، وجمعهم في مواسمهم وأسواقهم، وتخالطهم لكثرة الترحال، فكانت أشعارهم أسفارهم، ومواسمهم مدارسهم. فلا نرى في قديم كلامهم وجديده تفاوتًا. فإذا جاء القرآن، ودوّنت لغتهم، استقر لسانهم، ولكن العامة نبذوا العلم، فتغير لسانهم.

ومع ذلك إذا رجعوا إلى التعليم: رجع لسانهم إلى أصله - كما ترى اليوم المصريين

والشاميين راجعين إلى العربي الصحيح»¹

هذه بعض أقوال الفراهي في العرب والعربية، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على عظمة الإسلام الذي جعل رجلاً مثل الفراهي يعيش في أقصى الهند بعيداً عن العرب والعروبة، يتقن لغتهم، ويتعمق في دراستها، ويخوض لأجل ذلك مفاوز الشعر الجاهلي، ويستنبط منه أخلاق العرب وأحوالهم، ويتحدث عن خصالهم ومحاسنهم حديث المحب العاشق ..

لقد فعل الفراهي كل ذلك بسبب عقيدته الإسلامية، ومن أجل فهم القرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب، وقد أدرك الفراهي أنه لا يمكنه تذوق القرآن، واستكشاف كنوزه إلا من خلال العربية، فانطلق يتعلمها بحماس منقطع النظير، وبتعمق قل أن يوجد مثله في أهل العربية.

بل لقد سجّل الفراهي على علماء العربية بعض الأخطاء والهفوات، وتكلم على بعض خصائص العربية التي لم يذكرها أحد غيره، وكانت له ملاحظات واستدراكات في علوم النحو والبلاغة وغيرها، كما كانت له نظرات صائبة في ما ينبغي أن تكون عليه علوم اللغة والشرعة ..

هكذا فعل القرآن بالفراهي، وهكذا يفعل بكل مسلم غيور، فأين موقف الفراهي هذا من مواقف كثير من العرب المعاصرين الذين ينتسبون إلى العروبة اسمًا، ولكن يولون وجوههم شطر الغرب، فيستقبلون قبلته، ويدورون في فلكه، بعد أن أداروا ظهورهم للعربية والقرآن، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ألم يقرؤوا قول الله تعالى في قرآنهم العربي: "لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكركم أفلا تعقلون"².

¹ أساليب القرآن: 4 - 5.

² سورة الأنبياء: 10

وقوله تعالى: "وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون" ¹!!؟

كتاب «جمهرة البلاغة»:

يقول الدكتور محمد أجمل أيوب عن الفراهي ومكانته في علوم العربية، وأهمية كتابه «جمهرة البلاغة»:

«أما العربية، فكان فيها إمامًا لا يشق له غبار، وكان له في كل علم من علومها من لغة، ونحو، وبلاغة، وعروض، تحقيقات واجتهادات واستدراكات على الأئمة.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى كتابه «جمهرة البلاغة»، الذي نقض فيه الأساس الذي يقوم عليه فن البلاغة عند أرسطاطاليس، وهو نظرية المحاكاة، ويرى الفراهي أنّ فن البلاغة العربية تأثر بهذه النظرية، فجار عن قصد السبيل، وانتقد في ذلك الإمام عبد القاهر الجرجاني مع اعترافه بجلالته، ودعا إلى تأسيس فن البلاغة على أسس منبثقة من القرآن الكريم، وكلام العرب الأقياح.

ولما أرسل الفراهي فصولًا من جمهرة البلاغة إلى العلامة شبلي النعماني أعجب به إعجابًا جعله يلخص مباحثه المهمة، وبخاصة نقده لنظرية المحاكاة في مجلة الندوة التي كان يصدرها باللغة الأردنية، مع أنّ النعماني نفسه يعدّ من أشهر النقاد والكتّاب، ومن الأركان الخمسة للأدب الأردني.

وقد نشر الكتاب بعد وفاة المؤلف، ونفذ قبل أن يصل إلى البلاد العربية ليأخذ مكانه من البحث والنقاش، فهو كتاب فريد في تاريخ البلاغة العربية».

حقًا إن «جمهرة البلاغة» كتاب فريد في تاريخ البلاغة العربية، وقد قال الدكتور أحمد مطلوب في ختام دراسته لهذا الكتاب:

¹ سورة الزخرف: 44

العدد الخاص مجلة الهند

«... هذه جولة في كتاب فريد من نوعه، ألفه مسلم في المشرق الإسلامي، ولم يصل إلى البلاد العربية، ليكون صورة من صور الدرس البلاغي في القرن العشرين للميلاد».

ثم يتحدث الدكتور مطلوب عن خصائص الكتاب وأهميته، فيقول:

وبعد: فما خصائص هذا الكتاب الفريد وأهميته:

تبدو في كتاب «جمهرة البلاغة» نزعة الفراهي واتجاهاته واضحة كل الوضوح، وتتمثل في:

- 1- الاعتزاز بالعرب؛ لأنهم من أذكى الأمم كما يرى.
- 2- الاهتمام باللغة العربية ذات الخصائص التي تميزها عن اللغات الأخرى، ولا سيما لغة اليونان التي استقى منها أرسطوطاليس مفهوم الشعر والمحاكاة.
- 3- تمسكه ببلاغة العرب، والعزوف عن بلاغة العجم.
- 4- العناية بالأسلوب العربي البليغ.
- 5- الاطلاع على أهم كتب البلاغة العربية، وعلى كتب أرسطوطاليس، والشعر العربي.

وأهم ما تجلّى في الكتاب:

- 1- تقسيم مباحث البلاغة إلى قسمين:

- القسم العمومي.

- والقسم الخاص.

وهو تقسيم جديد لم تألفه البلاغة العربية في تاريخها الطويل.

- 2- ربط البلاغة بالنقد، واتخاذها مقياساً في الأحكام النقدية.
 - 3- وضوح النزعة الأدبية في العرض والتحليل.
 - 4- إبداء الآراء الخاصة في القضايا المختلفة، ومن ذلك:
 - نقض نظرية المحاكاة لأرسطو.
 - ونقد عبد القاهر الجرجاني.
 - والتمييز بين بلاغة العرب وبلاغة العجم.
 - والفرق بين الشعر والخطابة.
 - وغير ذلك من الآراء المبثوثة في مباحث الكتاب.
 - 5- ومن هنا تأتي أهمية الكتاب، وتأمل ما ورد فيه من مباحث وآراء، يرفد الدرس البلاغي والنقدي، ويُضيف ما فيه النفع، وإنارة السبيل يوم تلبس البلاغة العربية ثوبها الجديد.
 - 6- إلحاق بعض المباحث العامة المتصلة بالنقد.
 - 7- وضوح أسلوب الكتاب في العرض والتحليل.
- ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره الدكتور مطلوب «دلالة الكتاب بالنسبة لمؤلفه» حيث يدل كتاب «الجمهرة» على عبقرية الفراهي الفذة، والتي تتراءى للقارئ من خلال ما جاء فيه من قدرة على الاستيعاب والتحليل، ومن مهارة فائقة في النقد والتعليل، ومن ملكة بيانية رائعة في التدقيق والتعبير. ويمكن أن نؤكد ذلك ببعض النماذج والأمثلة:

- يظهر الاستيعاب واضحاً جلياً، في اطلاعه على بلاغة العرب، من خلال تمرسه بقراءة الشعر العربي - جاهليه وإسلاميه - وتذوقه لنصوص الشعر والنثر،

التي استشهد بها في كتابه. كما يظهر في اطلاعه على بلاغة العجم المتمثلة في ما جاء عند اليونان قديماً، وعند الأوروبيين حديثاً، حيث وظّف ذلك كله في نقده لنظرية «المحاكاة» التي قال بها أرسطو، والتي يرى أنه تأثر بها المولّدون من علماء البلاغة العربية.

- تظهر قدرته الهائلة على الغوص في أعماق النفس الإنسانية، وسبره لأغوارها، وتحليله لمجرباتها، وفرزه لحركاتها، وتتبعه لتقلباتها، واكتشافه خباياها وأطواءها، وتوظيف ذلك كله لخدمة بحثه - كما نرى ذلك في أماكن عدة من هذا الكتاب - ويمكننا أن نمثل لذلك بالفقرة التالية، والتي اجتزأناها من حديثه عن الفرق بين الشاعر والخطيب:

«...وَعَدَمَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الشَّاعِرِ، وَالْخَطِيبِ، أَوْ قَعَ بَعْضَ النَّاسِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فِي الْاَلْتِبَاسِ.

فَإِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ الشَّعْرَ هُوَ كَلَامٌ ذُو مَجَازٍ وَتَشْبِيهِ، فَاشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ كَلَامُ الْحُكَمَاءِ بِالشَّعْرِ. مِثْلُ: وَعَظَ عِيسَى، فَإِنَّهُ مَلَأَ مِنَ الْأَمْثَالِ وَالتَّشْبِيهَاتِ. فَتُرِيدُ أَنْ نُفَصِّلَ قَوْلَنَا:

«إِنَّ الشَّاعِرَ أَغْنَى طَبْعًا، وَأَرْقَى فِطْرَةً».

فَعَبَيْنَا بِهِ، أَنَّ الشَّاعِرَ يَتَأَثَّرُ بِأَمْرِ، فَمِهْجُ فِيهِ الْوُزْنُ، وَالنَّغْمَةُ، وَالرَّقْصُ، فَمَا مِنْ شَاعِرٍ إِلَّا فِيهِ عِرْقٌ مِنْ هَذِهِ الْاَنِيعَاتِ.....

وَإِنَّمَا سَلَكْنَا الْغُرُوضَ، وَالنَّغْمَةَ، وَالرَّقْصَ، فِي سِلْكِ وَاحِدٍ، فَإِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ كَذَلِكَ. وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا خَفِيَ كُنْهُهُ عَلَى أَرِسْطُو، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَاعِرًا، فَلَمْ يَدْرِ مَا لَمْ يَدُقْ.

فَزَعَمَ كَمَا زَعَمَ فِي أَمْرِ الشَّعْرِ، أَنَّ النَّغْمَةَ، وَالرَّقْصَ، مُحَاكَاتٌ: لِأَنَّ فِيهِمَا إِظْهَارًا

لِوَارِدَاتِ النَّفْسِ، وَالْأَحْوَالِ، وَالْأَعْمَالِ.

وإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ رَأَى الْمُغْنَيْنِ، وَالرَّقَاصَةَ، يُظْهِرُونَ -بِالْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ- مِنْ جِهَةِ أَثَرِ الْأَوَّلِ وَإِشَارَاتِ الثَّانِي -أَحْوَالِ النَّفْسِ، وَأَفْعَالِ النَّاسِ، فَمَرَّ بِأَمْرِ لَوْ تَأَمَّلَ فِيهِ، أَوْ كَانَ لَهُ مِنْ الْوُجْدَانِ كَوُجْدَانِ الشَّاعِرِ، عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ لَمْ تُسْتَعْمَلْ لِلْمُحَاكَاةِ وَإِظْهَارِ مَا تُظْهِرُهُ، إِلَّا لِأَنَّهَا نَتَائِجُ مِنْ أَحْوَالِ النَّفْسِ.

مَثَلًا: النَّأُوهُ لَا يُظْهِرُ الْحُزْنَ، وَالتَّبَسُّمُ لَا يُظْهِرُ الْمَسَرَّةَ، إِلَّا لِأَنَّ النَّفْسَ تَفْهَمُ هَذِهِ الْإِشَارَاتِ، لِمَا أَنَّهَا تَبْعَتْ فِيهَا حَالَةً خَاصَّةً.

فَالْغِنَاءُ، وَالرَّقْصُ، وَالْوَزْنُ، أُمُورٌ تَنْشَأُ فِي نَفْسٍ مِنْ رَقَّتْ فِطْرَتُهُ. وَلِمَا أَنَّهَا نَتِيجَةُ لِحَالَةٍ نَفْسَانِيَّةٍ، تَبْعَتْ فِي مَنْ ظَهَرَتْ لَهُ، تِلْكَ الْحَالَةُ. وَنُبَيِّنُهُ بَعْضَ التَّبَيِّنِ:

إِنَّ الْفَرَحَ، وَالْحُزْنَ، وَالْخَوْفَ، وَالتَّعَجُّبَ، وَالشَّوْقَ، وَالنُّفْرَةَ، مَعَ أَحْوَالِهَا، وَأَصْنَافِهَا، تَبْعَتْ حَرَكَةً فِي الْقَلْبِ. وَشِدَّةُ الْحَرَكَةِ تَفِيضُ، وَتُخْرَجُ، فَتَنْقَلِبُ صَوْتًا، أَوْ غِنَاءً، أَوْ رَقْصًا، أَوْ تَمَلُّلاً.

وَإِذْ هِيَ آثَارُ لِحَرَكَاتِ الْقَلْبِ، عَلَى نَوْعٍ خَاصٍّ، يُشَابِهُهُ كُلُّ أَثَرٍ بَاعِثُهُ.

فَمَنْ أُدِّيَ إِلَيْهِ أَثَرٌ مِنْ هَذِهِ الْأَثَارِ، صَارَ مُشَابِهًا لِصَاحِبِ الْأَثَرِ، فِي حَرَكَةِ الْقَلْبِ. كَأَنَّ حَرَكَةَ قَلْبٍ، انْتَقَلَتْ إِلَى قَلْبٍ، بِوَسِيلَةِ الْحَوَاسِ.

فَالضَّجُّ مَثَلًا: لَيْسَ إِلَّا حَرَكَةً فِي قَلْبِ الضَّاحِكِ، قَدْ خَرَجَتْ، ثُمَّ انْتَقَلَتْ إِلَى السَّمَاعِ، ثُمَّ بَلَغَتْ قَلْبَهُ فَحَرَّكَتْهُ، ثُمَّ خَرَجَتْ مِنْهُ، فَتَشَابَهَتْ الْحَرَكَتَانِ فِي النَّفْسِ، كَمَا تَشَابَهَتَا فِي الْخَارِجِ. وَهَذَا أَصْلُ التَّفَاهُيمِ بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى قَدْرِ تَفَتُّقِ حَوَاسِيهَا.

فَكَمَا أَنَّ النُّطْقَ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ، فَكَذَلِكَ هَذِهِ الْإِشَارَاتُ أُمُورٌ فِطْرِيَّةٌ، وَدَلَالَتُهَا لِتَشَابِهِ النُّفُوسِ، وَمُوَافَقَةِ الْعِلَّةِ بِالْمَغْلُولِ، وَهَذَا هُوَ أَصْلُ النُّطْقِ...».

- لقد كان أسلوبه في النقد، على درجة عالية من عفة اللسان، والبعد عن

التجريح، وكثيرًا ما يحاول تعليل القصور، وبيان أسباب الخطأ، وربما يعتذر لمن ينتقده—كما فعل ذلك في نقده لأرسطو - .

- أما نقده لعبد القاهر الجرجاني - مع اعترافه بفضله - فقد كان غالبًا بصيغة: «والعجب من صاحب أسرار البلاغة»، أو «والعجب من صاحب دلائل الإعجاز».

وهو تعبير يشعر بالأسف، لما لم يكن متوقعًا من مثله أن يقع فيه، وذلك لمكانته وسبقه في هذا المجال . ويمكن أن نمثل لذلك بالمثل التالي - الذي جاء في سياق الحديث عن الترتيب:

ذَكَرَ صَاحِبُ أَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ أَنَّ قَوْلَ الْمُرْقَشِ:

النَّشْرُ مِسْكٌ وَالْوُجُوهُ دَنَّا نَيْرٌ وَأَطْرَافُ الْبَنَانِ عَنَّمْ
لَيْسَ فِيهِ تَرْتِيبٌ.

وَوُجَّهٌكَ إِلَى تَرْتِيبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ، لَتَعْلَمَ كَيْفَ غَفَلَ عَنْهُ مِثْلُ الْجُرْجَانِيِّ. فَتَعْلَمَ دِقَّةَ هَذَا الْمَسْلُوكِ، وَرِفْعَةَ مَحَلِّهِ -وَلَا تَسْتَبْعِدْ خَفَاءَ نِظَامِ الْقُرْآنِ، عَنْ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ -.

فَاعْلَمْ أَنَّ الشَّاعِرَ ذَكَرَ النَّشْرَ أَوَّلًا، لِأَنَّكَ تَجِدُهُ عَنْ ظَهْرِ الْغَيْبِ.

ثُمَّ ذَكَرَ حُسْنَ الْوُجُوهِ لِمَا تَجِدُهُ عِنْدَ الْمُشَاهِدَةِ.

ثُمَّ إِذَا افْتَرِثَتْ وَلَمَسَتْ الْأَكْفَ، وَجَدْتَ نُعُومَتَهَا.

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ هَمُّهُمْ مَقْصُورًا عَلَى التَّشْبِيهِ وَأَنْوَاعِهِ، لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِمْ وَجْهُ التَّرْتِيبِ.

وهكذا نقل الجرجاني كلاً ما من الجاحظ واستحسنه.

ولكن قال: ليس فيه ترتيب.

وإني لا أدري كيف يذهل عاقل عن الترتيب - لاسيما مثل الجاحظ - وأي شيء
يمنعه أن يراعي الترتيب في معانيه؟
ولم يمنعه سجع، ولا وزن شعري.

وأريد أن أشرح كلام الجاحظ، ليكون لك أنموذجاً ومثالاً - فتفكر وتدبر في نظام
كلام الله العليّ -.

قال الجاحظ: «جَنَّبَكَ اللهُ الشُّمَّةَ، وَعَصَمَكَ مِنَ الْحَيْرَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَعْرِفَةِ
نَسَبًا، وَبَيْنَ الصِّدْقِ سَبَبًا.

وَحَبَّبَ إِلَيْكَ التَّثَبُّتَ، وَزَيَّنَ فِي عَيْنِكَ الْإِنْصَافَ، وَأَذَاكَ خِلَاوَةَ التَّقْوَى، وَأَشْعَرَ
قَلْبَكَ عِزَّ الْحَقِّ، وَأَوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ الْيَقِينِ، وَطَرَدَ عَنْكَ ذُلَّ الْيَأْسِ، وَعَرَفَكَ مَا فِي
الْبَاطِلِ مِنَ الدِّلَّةِ، وَمَا فِي الْجَهْلِ مِنَ الْقِلَّةِ».

فإن مررت على سطح هذا الكلام، لم تر فيه نظماً. ولكن هذه الفقرات لها عوز،
وهناك يظهر حسن ترتيبها:

فَاعْلَمْ أَنَّ الشُّمَّةَ أَوَّلُ الْبَلِيَّةِ، فَتُعَادِرُ الْمَرْءَ مُتَحَيِّرًا، لَا يَدْرِي أَيُّ الْأَمْرَيْنِ يُرَجِّحُ.

فَإِنْ كَانَ لَهُ سَبَبٌ إِلَى الْمَعْرِفَةِ مَالٌ إِلَيْهَا، فَهُدِيَ إِلَى الصِّدْقِ.

وَحِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَى التَّثَبُّتِ عَلَيْهِ، ثُمَّ التَّثَبُّتُ يَعُودُ تَعَسُّفًا، إِذَا نَبَذَ الْإِنْصَافَ،
فَيَجْمَدُ عَلَى مَا عَرَفَ، وَلَا يَصْعَدُ إِلَى مَا هُوَ أَزْفَعُ مِنْهُ.

فَإِنْ زَيَّنَ فِي عَيْنِهِ الْإِنْصَافَ، تَأَقَّ إِلَيْهِ. وَهَهُنَا كَمُلَتْ لَهُ أَسْبَابُ الْعِلْمِ. فَهَذِهِ سِتُّ
مَنَازِلَ فِي الْعِلْمِ.

ثُمَّ لَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا عَلِمَ، وَإِلَّا فَسَدَ رَأْيُهُ، فَيُوشِكُ أَنْ يَرَى الْبَاطِلَ حَقًّا. وَهَذَا
عِلْمَتٌ شَدِيدَةٌ حَاجَتُنَا إِلَى تَهْدِيهِ أَخْلَاقِنَا، لِأَجْلِ إِصَابَةِ الرَّأْيِ.

فَمِنْ الْأَوَّلِ احْتِاجَ الْمَرْءِ إِلَى مَدَدِ التَّقْوَى - فَإِنَّهَا مَنْبُعُ فِعْلِ الْخَيْرِ -
وَالْمُنْتَفَى - فِي هَذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ - رُبَّمَا ابْتُلِيَ بِالْبُؤْسِ وَالضُّرِّ، فَإِذَا نَبَذَ الدُّنْيَا وَقَنَعَ
بِالتَّقْوَى فَتَنَّهُ النَّاسُ، وَاسْتَهَانَهُ الْجُمْهُورُ.
فَإِنْ صَبَرَ عَلَى الضُّرِّ، فَكَيْفَ يَصْبِرُ عَلَى الْمَهَانَةِ؟ إِلَّا أَنْ يَشْعُرَ بِذُلِّ الْبَاطِلِ، وَعِزِّ
الْحَقِّ. فَيُكْرِمُ نَفْسَهُ، وَيَهْوُنُ فِي عَيْنِهِ جَاهُ الْأَشْرَارِ، لِيَقِينَهُ الثَّابِتُ بِفَلَاحِ الْمُتَّقِينَ.
فَهَذَا الْعِزُّ الَّذِي أُشْرِبَ قَلْبُهُ، طُرِدَ عَنْهُ ذَلِكَ الْيَأْسُ - وَلَوْ هَجَمَتِ الشَّدَائِدُ، وَبَعْدَ عَنْهُ
الْوَعْدُ الْإِلَهِيُّ - فَحِينَئِذٍ يَرَى الْبَاطِلَ عَيْنَ الدِّلَّةِ، وَيَرَى الْجَهْلَ عَيْنَ الْفَقْرِ.
فَانْظُرْ كَيْفَ جَمَعَ أَسْبَابَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَجَعَلَ سِتَّةً لِلْعِلْمِ، وَسِتَّةً لِلْعَمَلِ.
وَكَيْفَ خَتَمَ الْكَلَامَ بِذِكْرِ أَنَّ مَلَكَ أَفْعَالِنَا، رَغْبَةُ النَّفْسِ إِلَى الْعِزِّ وَالْغِنَى.
وَلَكِنَّهُ عَلِمَ أَنَّ النُّفْرَةَ أَقْوَى مِنَ الرَّغْبَةِ سُلْطَانًا عَلَى أَفْعَالِنَا، فَذَكَرَ الدِّلَّةَ وَالْفَقْرَ.
فَمَا أَدَقَّ نَظْرَهُ حِينَ بَدَأَ الْقَوْلَ بِالشُّبْهَةِ، وَخَتَمَ بِالْمَعْرِفَةِ الْغَامِضَةِ، الَّتِي هِيَ مَصْدَرُ الْإِرَادَاتِ.
وَالجَّاحِظُ، وَمَتَّى جَبْرُهُ، عَلَى مِثَالِ مَنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ عليه السلام، وَهُوَ:
«مَنْ لَمْ يَجِدْ مِنْ نَقْصِ الْجَهْلِ فِي عَقْلِهِ، وَذُلِّ الْمَعْصِيَةِ فِي قَلْبِهِ، وَلَمْ يَسْتَبِنْ مُوَضِعَ
الْخُلَّةِ فِي لِسَانِهِ، عِنْدَ كَلَالِ حَدِّهِ، عَنْ حَدِّ خَصْمِهِ، فَلَيْسَ مِمَّنْ يَفْزَعُ عَنْ رَبِّبَةٍ، وَلَا
يَرْغُبُ عَنْ حَالٍ مَعْجَزَةٍ، وَلَا يَكْتَرِثُ لِفَصْلِ مَا بَيْنَ حُجَّةٍ وَشُبْهَةٍ».
فَذَكَرَ ثَلَاثَ خِصَالٍ سِتَّةً، هِيَ أُصُولُ الْهَلَاكِ - فَذَكَرَ الْجَهْلَ، وَالْمَعْصِيَةَ، وَضَعْفَ
الْقَوْلِ - إِشَارَةً إِلَى فَضَائِلِ الْعِلْمِ وَالْعِفَّةِ وَالنُّطْقِ - كَأَنَّهُ دَلَّ عَلَى أُصُولِ كَمَالِ الْإِنْسَانِيَةِ.
وَصَرَّحَ بِمَحَلِّهَا الثَّلَاثَ - فَذَكَرَ الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ وَاللِّسَانَ - وَسَمَّى: الْأَوَّلَ: نَقْصًا.
وَالثَّانِي: دِلَّةً. وَالثَّلَاثَ: خُلَّةً.
ثُمَّ جَعَلَ الْأَوَّلَيْنِ مِمَّا يُعْلَمُ بِالْبِدَاهَةِ وَالْوُجْدَانِ.

والثالث ممّا يُعْلَمُ بالنَّظَرِ والاستِبانَةِ.

ثُمَّ جَعَلَ هَذِهِ الثَّلَاثَ تَحْتَ قُوَّةِ الْعَقْلِ، فَإِنَّ الْوُجْدَانَ وَالِاسْتِبانَةَ مِنَ الْعَقْلِ. وَلِذَلِكَ ذَكَرَ الْجَهْلَ أَوَّلًا، فَإِنَّهُ مَنبَعُ الْبَاقِيَيْنِ

- كذلك تظهر عبقرية الفراهي في المصطلحات التي ابتكرها، حيث غابت كثير من المصطلحات التقليدية عن كتابه، ونظرة واحدة إلى العناوين المفصلة لموضوعات الكتاب، كفيّلة بتأكيد هذه الحقيقة.

- لا بد من الإشارة إلى أن الكتاب، لم يطبع في حياة المؤلف لعدم تمامه، ومن ثم نجد بعض العناوين التي ذكرت في الفهرس، لم تذكر في متن الكتاب، كما جاء في آخر الفهرس: «الصرفة في الإعجاز».

كذلك نجد بعض الفراغات التي لم تملأ، والتي كان المؤلف ينوي أن يعود إليها، كالتشبيهات المبالغ فيها، والتي أشار إليها تحت عنوان: «المذهب الباطل في التشبيه» حيث قال:

«اعلم أن المولدين زعموا أن الندرة والبعد في التشبيه من محاسنه، وقد أسهب الجرجاني ' في إثبات ذلك، وجمع التشبيهات الرديئة، وإنا نورد عليك منها، لكي تُعْمَلَ فيه ذوقك، وتبين سخافتها.

..... وهكذا ترك مكانها خطوطاً، على أمل الرجوع إليها. ويبدو أن المنية عاجلته عن إتمام ذلك، وعن إتمام كثير من المشروعات الكثيرة التي كان يعمل فيها في وقت واحد، الأمر الذي لم يتح له إلا إتمام القليل .

وقد عقب الدكتور أحمد مطلوب على نقد الفراهي للتشبيهات الواردة عند الجرجاني قائلاً:

«ولم يذكر الأمثلة التي وصفها بالسخف في المبحث الذي سمّاه «المذهب الباطل

في التشبيه».

وكلام الفراهي باطل، لأن التشبيهات التي ذكرها الجرجاني من الروائع، وكان تحليله لها أكثر روعة وبيانا. (ينظر: أسرار البلاغة ص 64 وما بعدها).

ولدى رجوعنا إلى «أسرار البلاغة» نرى أمثلة كثيرة ذكرها الجرجاني.

ولعل الأشبه بما قصده الفراهي مثل هذه الأمثلة:

66- ومثال (الأصل الثاني)، وهو أخذ الشبه من المحسوس للمحسوس، ثم الشبه عقلي قول النبي ﷺ: «إياكم وخضراء الدمن» - والحديث ضعيف جداً - انظر: ص: 68.

68- ومما لا يكون الشبه فيه إلا عقلياً قولنا في أصحاب رسول الله ﷺ: «ملح الأنعام» وهو مأخوذ من قوله ﷺ: «مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام، لا يصلح الطعام إلا بالملح» - ضعيف - انظر - ص: 70.

69- وعلى هذه الطريقة جرى تمثيل: «النحو» في قولهم: «النحو في الكلام، كالملاح في الطعام» - انظر - ص: 71.

وهكذا نرى ضعف هذه الأحاديث - البعيدة عن نور النبوة وبلاغتها -

ويحسن بالقارئ أن ينظر ما قاله الجرجاني في تحليلها، ويعمل فيها ذوقه - كما طلب ذلك الفراهي -

المعلم عبد الحميد الفراهي وتفسيره "سورة الفيل" والتعقيب عليه

(مقدمة المحقق لكتاب "رسالة في التعقيب على تفسير سورة الفيل" للعلامة
عبد الرحمن المعلي)

- د. محمد أجمل الإصلاحي¹

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين.

أما بعد، فهذه رسالة قيّمة للشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلي رحمه
الله، تعقب فيها ما ذهب إليه العلامة المعلم عبد الحميد الفراهي رحمه الله في
تفسير سورة الفيل.

وإذا كان المعلي رحمه الله من العلماء المشهورين، وقد عرفه أهل العلم
بتحقيقاته البارة ومؤلفاته النفيسة، وقد ترجم ترجمة مفصلة في مقدمة هذا
المشروع، فإن المعلم رحمه الله - على عبقريته وجلالة قدره - ظل مغمورًا في البلاد
العربية إلى عهد قريب، إذ لم يقف أهل العلم فيها على مؤلفاته التي صدرت في
الهند أيام الاحتلال الإنجليزي، وبعضها بعد الاستقلال، ثم نفدت قبل أن تصل
إلى أيدي القراء العرب، إلا نسخًا قليلة متفرقة سقطت في أيدي بعض العلماء
والباحثين، فأشادوا بها، وأفادوا منها، ومن ثم لما أخرجت كتاب "مفردات

¹ محقق هندي كبير مقيم بالرياض

القرآن" صدرته بترجمة مفصلة بعض التفصيل.¹ ومقتضى المقام أن أقتصر هنا على إيراد لمع من سيرته.

(1) ترجمة المعلم رحمه الله

هو عبد الحميد بن عبد الكريم، حميد الدين، أبو أحمد، الأنصاري، الفراهي، ولد صبيحة يوم الأربعاء سادس جمادي الآخرة سنة 1280هـ في قرية من أعمال "أعظم كره" أحد الأضلاع الشرقية من الإقليم الشمالي المسعى الآن "أتربراديش".²

اشتهر في الهند بلقبه "حميد الدين" ولعله سجل هذا الاسم عندما التحق بالتعليم الرسمي، فكان يوقع به في المكاتبات والأوراق الرسمية؛ ولكنه أثر أن يكتب اسمه في أول كتبه العربية "المعلم عبد الحميد الفراهي" أما "الفراهي" فنسبة معربة إلى قريته، وأما لقب "المعلم" فيظهر لي أنه لما كانت العلماء ورثة الأنبياء، ومن وراثته النبوة تعليم الكتاب والحكمة، وكان تدبر كتاب الله عز وجل ودراسة ما فيه من الأحكام والحكم ثم تعليمه للناس هو عمود حياة الفراهي العلمية، وذلك حظه من وراثته النبوة = اتخذ لنفسه لقب "المعلم".

¹ انظر: مفردات القرآن (طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1422هـ) ترجمة المؤلف (11-14) وبالعبارة قد ترجم له العلامة السيد سليمان الندوي في آخر كتاب "إمعان في أقسام القرآن" (طبعة السلفية بالقاهرة) وصاحب نزهة الخواطر (الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام) طبعة الهند (248-249) ويراجع للتفصيل: كتاب "ذكر فراهي" بالأردية للدكتور شرف الدين الإصلاحي، الذي صدر من الدائرة الحميدية في الهند في 840 صفحة، و"مختصر حميد" بالأردية طبعة الدائرة الحميدية.

² الجمهورية الهندية مقسمة إلى ولايات، وكل ولاية إلى "أضلاع" جمع ضلع، وهو من مصطلحات العهد الإسلامي في الهند، وما زال رائجاً حتى الآن، وضلع "أعظم كره" هو الذي ينتسب إليه الأعظميون في الهند، وكل ضلع يشتمل على مدن صغيرة وقرى، ومن المدن التابعة لضلع "أعظم كره": "مبارك فور" التي ينتسب إليها المباركفوريون.

ولد رحمه الله في بيت علم ودين وشرف، وقرأ القرآن الكريم في منزله على مؤدبه الأول الشيخ أحمد علي وحفظه، ثم انتقل من قريته إلى مدينة "أعظم كره"، ودرس فيها اللغة العربية والكتب المتداولة في الفنون المختلفة على ابن عمته العلامة المؤرخ الأديب شبلي النعماني (ت 1332هـ)، وكان من أشهر أعلام الهند في القرن الماضي. ثم رحل إلى مدينة (الكنؤ) عاصمة الإقليم الشمالي، وحضر دروس العلامة الفقيه المحدث الشيخ عبد الحي اللكنوي (ت 1304هـ)، وأخذ المعقولات عن الشيخ فضل الله بن نعمة الله الأنصاري (ت 1312هـ).

ثم سافر إلى مدينة "لاهور" عاصمة البنجاب، وتلمذ لأديب العربية وشاعرها وشارح الحماسة والمعلقات الشيخ فيض الحسن السهارنفوري (ت 1304هـ) وهو من شيوخ العلامة شبلي النعماني أيضا، فقرأ عليه كتب الأدب العربي، وبعض كتب المعقولات.

وبعدما تخرج في العلوم الشرعية والأدبية والمعقولات، وهو ابن عشرين سنة، اتجه إلى دراسة اللغة الإنجليزية والعلوم الحديثة، فالتحق بالمدرسة الثانوية، ثم كلية علي كره التي صارت فيما بعد جامعة، وهي الآن من أشهر جامعات الهند، وقد أعفي في الكلية من مادتي العربية والفارسية لطول بابه فيهما، بل كلف ترجمة كتابين من العربية إلى الفارسية ليقرر تدريسهما في كليته هو، وقد اعتنى بدراسة الفلسفة الحديثة، وحصل على درجة الامتياز فيها، وبعدما نال شهادة البكالوريوس، درس القانون (الحقوق) سنتين، ولكنه لم يكمل دراسته لكرهية الاشتغال بمهنة "الوكالة" وكلمة الوكالة هي المستعملة في الأندية حتى الآن للمحاماة، والمحامي يسمى وكيلًا.

وبدأ الفراهي حياته الوظيفية سنة 1314هـ بتعيينه مدرسًا في "مدرسة الإسلام" بمدينة "كراتشي" وكانت مدرسة حكومية مرموقة، وأقام فيها أكثر من تسع سنوات، ثم عُيِّن سنة 1324هـ أستاذًا مساعدًا للغة العربية في كلية علي كره،

وبعد سنتين، عيّن أستاذًا للعربية بجامعة "إله آباد" ودرّس فيها ست سنوات إلى أن استعارت وظيفته دولة حيدرآباد الدكن ليكون مديرًا لدار العلوم الشرقية فيها، فرحل إليها سنة 1332هـ، وأمضى خمس سنوات هناك، ثم استقال وعاد إلى وطنه سنة 1337هـ.

وقد زاره الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي رحمه الله سنة 1342هـ، وطلب إليه أن يكتب له ترجمته، فكان مما كتب "ولما كانت هذه المشاغل تمنعني عن التجرد لمطالعة القرآن المجيد، ولا يعجبني غيره من الكتب التي مللت النظر في أباطيلها، غير متون الحديث وما يعين على فهم القرآن، تركت الخدمة، ورجعت إلى وطني، وأنا بين الخمسين والستين من عمري، فيا أسفا على عمرٍ ضيّعته في أشغال ضررها أكبر من نفعها، ونسأل الله الخاتمة على الإيمان".¹

فانقطع إلى تدبر القرآن الكريم، وتأليف كتبه في علوم القرآن، بالإضافة إلى الإشراف على "مدرسة الإصلاح" التي قد أسّستها جمعية إصلاح المسلمين سنة 1327هـ، ورسم لها الفراهي بعد عودته من حيدرآباد منهجًا دراسيًا فريدًا لتعليم اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وكان رئيسًا لمؤسسة دار المصنفين في مدينة أعظم كره التي قد أسّسها مع العلامة السيد سليمان الندوي وغيره من تلامذة العلامة شبلي النعماني بعد وفاة شيخهم سنة 1332هـ، وهي أشهر مجمع علمي في شبه القارة الهندية، وقد أخرجت كتبًا نفيسة كثيرة باللغة الأردية في السيرة والتاريخ والتراجم والأدب.

وتوفي رحمه الله في تاسع عشر جمادي الآخرة سنة 1349هـ على إثر عملية جراحية. وكان رحمه الله في أخلاقه مثلاً للسلف الصالح، فقد أجمع الذين جالسوه وعاشروه من شيوخه ومعاصريه على ورعه، وزهده في الصيت والسمعة، وتجنبه

¹ مجلة الضياء، المجلد الثاني، العدد السابع، ص 260.

فضول القول وسفاسف الأمور، وكان غاية في اتباع السنة، والمحافظة على الصلوات، والغيرة على الدين، والحمية لشعائر الإسلام، وكان راتبه عاليًا، فيذهب جزء كبير منه في الإنفاق على الأقارب وذوي الحاجات، وقسم منه لشراء الكتب المطبوعة في مصر وأوروبا.

وقد انفرد المعلم رحمه الله من بين معاصريه من علماء الهند بأنه أول من تلقى الثقافة الغربية من موردها، فأتقن اللغة الإنجليزية، ودرس العلوم الحديثة فيها، ثم حاضر بها وألف، فله رسالة مطبوعة باللغة الإنجليزية في الرد على عقيدة النصرى في الشفاعة والكفارة. ومعرفته للغة الإنجليزية قد فتحت له بابًا واسعًا للاطلاع على كل ما صدر فيها مما يهّمه من كتب الأدب والشعر والبلاغة والفلسفة وتاريخ اليهود والنصارى وما كتبه المستشرقون عن القرآن الكريم والعلوم الإسلامية.

وقد تعلم اللغة العبرانية يوم كان أستاذًا في كلية علي كره، فنظر في صحف أهل الكتاب المتداولة وقرأها بالعبرانية، وقد أعانه ذلك على الكشف عن تحريفاتهم، وتفسير بعض الإشارات الواردة في القرآن الكريم في الرد على اليهود مما يخفى على غير المطلع على كتبهم.

وفي دراسة الفلسفة والمنطق لم يقتصر الفراهي على التراث العربي، بل كان يتابع ما يصدر في الغرب من أحدث المطبوعات في الفلسفة والمنطق، ويقرأها قراءة بحث ونقد ومقارنة، ومن ثم كان أعلم الناس بمضرة كتب الفلسفة وانحرافات الفلاسفة القدماء والمحدثين. اقرأ ما قاله في ذكر أحد الأسباب السبعة التي بعثته على تأليف كتابه "حجج القرآن":

"والثاني: ما تعلق بالذين معظم همهم المعقول من المنطق والفلسفة، فإنهم قد ابتلوا بعقليات سافلة زائغة عن طريق الفطرة والهدى، مفضية إلى الحيرة وصريح العمى، كما لا يخفى على من نظر في خزعات المتفلسفين العاشين عن نور الوحي والكتاب، ولذلك حذر السلف من الاشتغال به؛ ولكن أبى الناس إلا النظر فيه،

والولوع به، والإخلاق إليه، ثم بعد التجربة عرفوا مضارها، فمنهم من أبطل بعض أباطيلها، وأبقى بعضها محسناً به ظنه كأبي حامد رحمه الله؛ فإنه بين تهاافت ما في إلهيات اليونانيين، ولكنه هو الذي أدخل منطقهم في الإسلام، فكان كمن قتل الأفعى وربى أولادها، وكذلك اتخذ أخلاقياتهم، وبني عليها كتابه "ميزان العمل" فلم يخرج عن اتباع الفلاسفة مع غلوه في ردهم، وأما ابن مسكويه والطوسي وأمثالهما فهم مجاهرون بتقليد اليونانيين في الأخلاقيات، ومنهم من انتبه لأكثر من ذلك كابن تيمية رحمه الله، فردّ على المنطقيين ردّاً طويلاً، ودلّ على زيف نهج المتكلمين....¹

ولكن الكتاب الذي ملك عقله وقلبه هو كتاب الله الذي كان ألد كتاب وأحبه إليه، وقد بدأ تدبره أيام طلبه في كلية علي كره، وانكشف له حينئذ نظام بعض السور، وظل القرآن هو المحور لجهوده الفكرية والعلمية، وقد اجتهد في الحصول على جميع أنواع المعارف التي تعين على فهم القرآن، وسخر كل الوسائل التي تيسر الوصول إلى تلك الغاية.

وقد أقام على هذا التدبير المتصل لكتاب الله ودراسته العميقة إلى آخر حياته، وخطط لتأليف اثني عشر كتاباً في علوم القرآن غير تفسيره الذي سماه "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالقرآن" وبعض مقدمات التفسير التي أفردتها لتوسع مباحثها، ولكن المؤسف أن معظم مشروعاته العلمية لم تكتمل لأسباب منها: طريقته في التأليف،² وأعمال علمية معترضة، وأشغال إدارية، وأمراض مزمنة.

وأكبر ميزة لكتاباته أنها نتائج الفكر، فهي تحمل مناهج جديدة وأفكاراً مبتكرة، ونظرات دقيقة، وفيها غذاء للعقل والقلب معاً، ثم إنها كما قال العلامة أبو الكلام آزاد رحمه الله (ت 1377هـ): "تشتمل على مقاليد العلوم".³

¹ حجج القرآن، ص 20، والجدير بالذكر أن الفراهي قد نسخ بيده كتاب "الرد على المنطقيين" لشيخ الإسلام ونسخته هذه محفوظة في مكتبة "دار المصنفين" بأعظم كره.

² انظر: شرحها في ترجمته في صدر "مفردات القرآن"، ص 31

³ انظر: "ذكر فراهي" للدكتور شرف الدين الإصلاحي، ص 536

وقد اختار لمؤلفاته في علوم القرآن وغيره اللغة العربية؛ لأنه أَلَّفَها لعلماء العالم الإسلامي، وكان يرى أن لغة العالم الإسلامي هي العربية لا غير.

ومن مؤلفاته في التفسير وعلوم القرآن التي أكملها ونشرها في حياته:

الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، وإمعان في أقسام القرآن، وتفسير السور الآتية: الذاريات، والتحريم، والقيامة، والمرسلات، وعبس، والشمس، والتين، والعصر، والكوثر، والكافرون، والمسد.

وكان للمعلّم رحمه الله منهج خاص في التفسير يقوم على دعائمين: الكشف عن نظام السور والآيات، وتفسير القرآن بالقرآن، ولذلك سَمَّى تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالقرآن" ولكن الحقيقة أن الأصل الأصيل هو تفسير القرآن بالقرآن، لأن مرجعه في الكشف عن نظام السور ورباط الآيات أيضاً هو القرآن لا غير، وقد انكشف له نظام بعض السور أول ما انكشف من داخل القرآن لا من خارجه، وكان يرى أن مراعاة النظام تقلّل من الاحتمالات العديدة التي ينقلونها في تأويل الآيات، وتقرّب إلى التأويل الصحيح الموافق للسياق.

(2) تفسير سورة الفيل

قد ترك المعلّم رحمه الله بعد وفاته مسودات كثيرة، أخرج تلاميذه منها كتاب "مفردات القرآن" و"فاتحة نظام القرآن" (وهي مقدمة تفسيره) و"جمهرة البلاغة" وكلها كتب ناقصة، والمسودة التي كانت شبه كاملة هي مسودة تفسير سورة الفيل، فنشروها سنة 1354هـ، وكانت طبعة حجرية بالخط الفارسي اشتملت على 43 صفحة.

وكانت النية أن ينشر تفسير سورة الفيل كاملاً في ذيل هذا الكتاب؛ لأنه قد نفذ قبل زمن طويل، وليكون الأصل أيضاً بين يدي القاري لنقده.¹ ولكن تبين أن ذلك سيضاعف حجم الكتاب، فرأينا أن نكتفي هنا بإعطاء صورة من كتاب المعلّم رحمه الله.

¹ كتب هذا قبل سنتين، وقد صدرت أخيراً مجموعة تفسير الفراهي "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالقرآن" عن دار الغرب الإسلامي، وتفسير سورة الفيل ضمن المجموعة، ص 717-775.

يحتوي هذا التفسير على الفصول الآتية:

1. في تفسير كلمات السورة.
 2. في تعيين المخاطب بهذه السورة.
 3. عمود السورة وربطها بالتي قبلها والتي بعدها.
 4. بيان ما فضل الله به هذا البيت وأهله على سائر المعابد وذويه.
 5. أمور مهمة مما يتعلق بتقديس مسجد وحفظه.
 6. إجمال القصة حسب ما نص عليه القرآن.
 7. النظرة الأولى، وهي فيما زعموا من سبب مجئ أبرهة وفرار أهل مكة، وما جرى بينه وبين عبد المطلب.
 8. النظرة الثانية، وهي في رمي أصحاب الفيل بالحجارة، وكونها من الآيات العظام.
 9. النظرة الثالثة: وهي فيما كان من أمر الطير التي أرسلت على أصحاب الفيل.
 10. الاستدلال بكلام العرب على أن الرمي كان من السماء والريح.
 11. في أكل الطير أصحاب الفيل تصديق لبشارة عظيمة في نبينا صلى الله عليه وسلم.
 12. أسباب صارفة عن التأويل الراجح.
 13. بيان معنى الرمي بالحجارة، وتمهيد للنظر في أصل رمي الجمار بمنى.
 14. أصل سنة رمي الجمار.
 15. أثر هذا التأويل في القلوب عند عمل رمي الجمار.
- قد انفرد المعلّم - رحمه الله - مثل غيره من أفذاذ العلماء وكبار الأئمة بمسائل ومذاهب في علوم العربية والتفسير وغيره؛ ولكنه - كما قال الذهبي في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية - لم يكن ينفرد بالتشهي، ولا يطلق لسانه بما اتفق¹ بل يستدل

¹ انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، ص 540

على ما يذهب إليه بالمعقول والمنقول، ويخطئ كغيره ويصيب، وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومما انفرد به رحمه الله تفسيره لسورة الفيل، إذ ذهب إلى أن العرب لم يتخلوا عن بيت الله، بل نافحوا عنه، وقاتلوا جيش أبرهة بما استطاعوا وبما تيسر لهم، وهو أنهم رموهم بحجارة من سجيل، ولكن رميهم هذا لم يكن ليدفع ذلك الجيش الجرار، فأرسل الله سبحانه عليهم حاصبًا أهلكتهم، كما أهلك به الأمم الطاغية الأخرى، وكانت تلك آية عظيمة من آيات الله.

وقد شبه رمي العرب جيش أبرهة بالحجارة ورمى الله إياهم بالحاصب في الوقت نفسه بما وقع في غزوة بدر إذ أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم "حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشًا، ثم قال: شأته الوجوه، ثم نفجهم بها وقال لأصحابه: شدوا، فلم يبق كافر إلا شغل بعينه كما جاء في سورة الأنفال "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" فكان هناك رميان: رمي من النبي صلى الله عليه وسلم ورمي من الله تعالى لم يروه ولكن رأوا أثره ولذلك جاء النفي والإثبات معًا وكما نسب الله الرمي في بدر إلى نفسه في قوله: "ولكن الله رمى" فهكذا هاهنا نسب إلى نفسه أنه جعلهم كعصب مأكول، فلا شك أنها كانت من الآيات البينات، فإن منافحة قريش كانت أضعف من أن يفل هذا الجيش، فكيف يحطمهم حتى صاروا كعصف مأكول" (تفسير سورة الفيل: 20).

واستدل في ذلك أيضًا بكلام العرب الذين شهدوا الواقعة، وذكروا في شعرهم ما رأوه من "جنود الإله بين ساف وحاصب" وأيد ذلك أيضًا بقول ذي الرمة:

وأبرهة اصطادت صدور رماحنا جهازًا وعثنوان العجاجة أكدر
تنحى له عمرو فشكّ ضلوعه بنافذة نجلاء والخيّل تضبر
فقال: "فصرح بأنه طعنه رجل من قومه وبأنه كان في يوم ذي غبار كثير مرتفع إلى السماء، وذلك بأن الله أرسل عليهم ريحًا حاصبًا فحصبهم" (ص 17)

وقوله تعالى: "ترميمهم" عند المعلّم رحمه الله حكاية حال ماضية، والضمير المستتر في "ترمي" للخطاب راجع إلى الخطاب العام في "ألم تر" أي كنت ترميهم أيها المخاطب، ولكن رميك لم يكن ليغني شيئاً، فالله سبحانه هو الذي جعلهم كعصف مأكول، وأما الطير فأرسلت عنده لأكل الجثث، وأيد ذلك بما ورد في كلام الشعراء وما فهمه من بعض الروايات، ثم ذهب إلى أن رمي الجمرات في الحج تذكّار لرمي جيش أبرهة، وخصص لبيان ذلك الفصول الثلاثة الأخيرة.

والأمور التي بعثت الفراهي رحمه الله على هذا التفسير أهمها فيما يظهر لي من خلال كلامه أمران:

الأول: أن بيت الله كان أعز شيء عند العرب، ولا سيما عند قريش، وكل شرفهم وفخارهم منوط به، والأمم كانت من الذل والضعفة لا ترضى بإهانة معبدها، بل تضحي بنفسها ونفيسها في الدفاع عنها، فكيف يتخلى العرب عن بيت الله، ويفرطون في محاربة العدو القادم لهدمه، ويفرّون إلى شعف الجبال، وهم الذين يضرب المثل بإقدامهم وبسالتهم وأنفتهم وحمائتهم للجار، وقد نشبت الحروب المتطاولة لأدنى سبب من ذلك.

والثاني: الرواية التي وردت في لقاء عبد المطلب لأبرهة تعظّم أبرهة، وتصفه بالحلم، وتلصق كل مهانة وذل بعبد المطلب سيد قريش، فبدأ للمعلّم رحمه الله أن الرواية مما وضعه أعداء العرب.

ثم وجد بعض الشعراء الذين شهدوا الواقعة يذكرون السافي والحاصب، فتأكد عنده أن الله تعالى أرسل عليهم الرياح الذاريات، وأمطر عليهم الحجارة كما فعل بقوم لوط وغيرهم.

ورأى في كلام العرب أيضاً ذكر الطير التي كانت تصحب الجيوش لتأكل القتلى كما قال النابغة:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب وفهم من قول سعيد بن جبير: "إن الطير كانت خضراً لها مناقير تختلف عليهم" أنها كانت تأكلهم، فذهب إلى ما ذهب في تفسير السورة.

ولما صدر تفسير المعلّم رحمه الله هذا تعرض للرد والتعقيب، مع الاعتراف بجلالة قدره، وغزارة علمه، وتورعه وتقواه.¹ غير أن بعض شيوخنا لما تصدى لنقد هذا التفسير أنكر شجاعة العرب أصلاً، وزعم أنها من أكاذيب الشعراء والأخباريين، وكأنه - غفر الله له - قاس شعراء الجاهلية على الشعراء المتأخرين من العرب وشعراء الفارسية والأردية المولعين بالغلو والإغراق في المدح والافتخار.

(3) تعقيب المعلّي رحمه الله

صدر تفسير سورة الفيل للمعلّم رحمه الله سنة 1354هـ كما سبق، وكان المعلّي رحمه الله حينئذ في حيدرآباد، وقد ذهب إليها بعد سنة 1354هـ، وغادرها سنة 1371هـ، وقد عرفت في ترجمة المعلّم رحمه الله أنه عاش في حيدرآباد خمس سنوات (1332-1337هـ) وكان عميداً لدار العلوم، ومعدوداً من الشخصيات العلمية المرموقة، ولما غادر ترك وراءه أصدقاء وتلامذة، وثناء وافراً، ولسان صدق علياً في مجالس العلم ودوائر الحكم، لما أوتي من فضائل علمية وعملية قلما تجتمع في شخص واحد، ولما تحلّى به من الورع والزهد وغنى النفس مع علو منصبه وراتبه.

فكان من الطبيعي أن يسمع الشيخ المعلّي رحمه الله في حيدرآباد باسم المعلّم رحمه الله ونعوته وفضائله، وقد وقف على بعض مؤلفاته، واستفاد منها، وعرف عبقريته، كما ذكر في مطلع رسالته هذه.

¹ انظر: "ذكر فراهي" للدكتور شرف الدين الإصلاحي، ص 536

ومن ذلك أنه لمّا تكلم في كتاب العبادة له على حقيقة القسم قال: "وَأَلَّفَ الأستاذ حميد الدين الفراهي الهندي رسالة سمّاها "الإمعان في أقسام القرآن" أجاد فيها، وسألخص ههنا ما استفدته منها ومن غيرها وما ظهر لي" (ص 821) وأنظر أيضًا (ص 826).

وللمعلّم رحمه الله رسالة في بيان ارتباط الآيات في سورة البقرة، أحال فيه على كتاب "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح"، فقال في موضع: "وقد حقق هذا البحث المعلّم عبد الحميد الفراهي في كتاب "الرأي الصحيح"، فانظره" وفي موضع آخر، وهو يذكر ارتباط الآية (144)، وصفه بأنه "كتاب نفيس".

ولم يتفق له لقاء المعلّم رحمه الله، وأنى له ذلك، وهو مقيم في حيدرآباد في جنوبي الهند، والمعلّم مقيم في وطنه في شمالي الهند، وبينهما مسافة شاسعة جدًّا، ولو أراد المعلّم رحمه الله ذلك لما تحمّل راتبه القليل نفقات مثل هذه الرحلة الطويلة الشاقة.

فلما طبع تفسير سورة الفيل، ورأى أن الدلائل التي احتج بها المعلّم رحمه الله أضعف من أن تقوم بما ذهب إليه في تفسير السورة، فعزم على تعقبه ونقده بمنهجه العلمي الرصين، فقال في مقدمة رسالته:

"أما بعد، فإنني قد كنت وقفت على بعض مؤلفات العلامة المحقق المعلّم عبد الحميد الفراهي-تغمده الله برحمته- كالإمعان في أقسام القرآن، والرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، وتفسير سورة الشمس، وانتفعت بها وعرفت عبقرية مؤلفها، ثم وقفت أخيرًا على تفسيره لسورة الفيل، فألفيته قد جرى على سنته من الإقدام على الخلاف إذا لاح له دليل، وتلك سيرة يحمدها الإسلام، ويدعو إليها أولي الأفهام، غير أن الخلاف هنا ليس لقول مشهور، ولا لقول الجمهور، ولكنه لقول صرح به الجماهير، ولم ينقل خلافه عن كبير ولا صغير.... وقد بدا لي أن أتعقب المعلّم رحمه الله وأشرح ما يتبين لي من وفاق أو خلاف".

ترتيب الرسالة ومطالها:

أشار المعلمي رحمه الله في مقدمة الرسالة إلى المنهج الذي سلكه في ترتيبها أولاً، ثم ما بدا له من العدول عنه إلى منهج آخر، فقال: "وقد كنت جريت على ترتيب المعلّم رحمه الله مساوفاً له، ثم رأيت الأولى أن أسلك ترتيباً آخر، فأبني رسالتي هذه على قسمين: الأول فيما يتعلق بالقصة رواية ودراية، الثاني: في تفسير السورة".

أما القسم الأول فيشتمل على ثمانية فصول، وقد رَقَمَها رحمه الله بحروف الأبجد من الألف إلى الحاء دون أن يضع لها عناوين، وقد سبق أن رأينا أن تفسير المعلّم رحمه الله يحتوي على 15 فصلاً، فالمعلمي رحمه الله تجاوز في هذا القسم الفصول الخمسة الأولى منها، وبدأ بالكلام على ما ورد في الفصل السادس وما بعده إلى الفصل الخامس عشر، إلا ما ذهب إليه المعلّم رحمه الله في تفسير "ترميمهم" فإنه أخره، كما قال، إلى القسم الثاني.

والفصول الخمسة المذكورة من تفسير المعلّم رحمه الله منها فصلان نفيسان - وهما الرابع والخامس - في بيان من فضّل الله به بيت الله وأهله على سائر المعابد وذوئها، وأمور مهمة تتعلق بتقديس المسجد وحفظه، ولم يكن فيهما شيء ينقده المعلمي رحمه الله، فلم يتعرض لهما.

أما الفصول الثلاثة الأولى فهي في تفسير ألفاظ السورة وعمودها وارتباطها بما قبلها وما بعدها وتعيين الخطاب فيها، وقد خالف المعلمي رحمه الله بعض ما جاء فيها، ولكنه تكلم عليه عندما فسّر هو السورة في القسم الثاني.

- عقد المعلّم رحمه الله الفصل السادس بعنوان "إجمال القصة حسب ما نص عليه القرآن" وقال:

"إن قصة أصحاب الفيل لها إجمال وتفصيل، أما مجملها فهو الذي نص عليه القرآن، وأما تفصيلها فأخذوها من الروايات المختلفة المتفاوتة في

الصحة والضعف، والمفسرون يذكرون تفاصيل القصص من غير بحث عما ثبت وعما لم يثبت، وهذا ربما يعظم ضرره، وربما يصرف عن صحيح التأويل، فلا بدّ أولاً من الفرق بين المنصوص وبين المأخوذ من الروايات، ثم لا بدّ ثانياً من التمييز بين ما ثبت وبين ما لم يثبت" (ص 45)

ثم نظر المعلّم رحمه الله في الروايات ثلاث نظرات: الأولى فيما زعموا من سبب مجئ أبرهة ومما جرى بينه وبين أهل مكة، والثانية فيما كان من رمي أصحاب الفيل، والثالثة في أمر الطير، وافتتح النظرة الأولى بقوله:

"كل ما ذكروا من سبب مجئ أبرهة لغضبه على العرب، ومن فرار أهل مكة، ومما جرى بين أبرهة وعبد المطلب لم يثبت من جهة السند، فإن كل ذلك لا يجاوز ابن إسحاق، ومعلوم عند جهابذة أهل الحديث أنه يأخذ الروايات من اليهود وممن لا يوثق به، ثم يبطل هذه الأمور روايات آخر، ويبطل ما ثبت عندنا من عادات العرب، ومما يدل على كونها من أكاذيب الأعداء أنها ما تعمدت إلا غضاضة من العرب وحميتهم، وإهانة لرئيسهم عبد المطلب القرشي، وتنويهاً بحسن خلق أبرهة الحبشي ومسبة على من هيّجه على هدم الكعبة، وبسطاً لعذره إذا انتصر لكنيستته، فلم يترك الكذابون شيئاً من الذلة والمنقصة والعار والشنار إلا نسبوها إلى العرب وقريش ورئيسها، فلا نكتفي ههنا بإرسال القول فيها بل نذكر لك الوجوه التي تدل على كذب هذه الروايات" (ص 16)

ثم ذكر سبعة وجوه تدل عنده على كذب الرواية، والسادس منها أنهم زعموا أن أبرهة كان رجلاً حليماً، وإنما هيّجه أحد بني فقيم إذ دخل كنيسته ونجسها، وعلّق المعلّم رحمه الله على ذلك بأنه يبطل "هذه الرواية سائر أحوال أبرهة وتعصبه في دينه" (ص 18)

بدأ الشيخ المعلي رحمه الله رسالته بنقد هذا الوجه السادس، فذكر في الفصل (ألف) أن ابن إسحاق لم ينفرد بقصة تقدير الكنيسة، وأنه ليس فيها ما يعدّ غضاضة من العرب أو عذراً لأبرهة، غير أن القضية لم تثبت من جهة الرواية.

- وقد استدلل المعلم رحمه الله في الوجه الثاني، بما ورد في القصة أن أبرهة أكرم عبد المطلب غاية الإكرام، لكن لما كلمه عبد المطلب في إبله قال له أبرهة: أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه، فلا تكلمني فيه! وعلّق المعلم عليه قائلاً: "فهل يمكن أن يترك عبد المطلب التكلم في أمر البيت بعدما رأى وسمع من أبرهة ما يستيقن به أنه لو سأله الانصراف عن هدم البيت لفعل، ثم أنه لم يترفع عن المجيئ إليه والسؤال لإبله" (ص 17)

تكلم المعلي رحمه الله على هذا الوجه في الفصل الثاني (ب) وقال: "وليس في القصة ما يحصل به الاستيقان بل ولا الظن... " وذكر احتمالات أخرى تكون سبباً لما جرى بينهما، وأخيراً لم يستعبد أن في القصة مبالغة في تصوير احترام أبرهة لعبد المطلب.

والوجوه الأخرى التي تدل عند المعلم رحمه الله على كذب الرواية، ومنها ما استدلل على وقوع القتال بين العرب وأبرهة، قد تكلم عليها المعلي رحمه الله في الفصلين (ج. د) وردّها، وكشف عن وهم المعلم رحمه الله في بعضها، ثم ذكر هو عدة أدلة على أن أهل مكة لم يقاتلوا أبرهة ومنها:

"إن كل من له إلمام بأخبار العرب يعرف شدة حرصهم على رواية أخبار أيامهم وحفظها وتردادها في الأسمار وتقبيدها بالأشعار... وبين أيدينا أخبارهم في حرب البسوس وحرب داحس وغير ذلك نجدوها مروية بتفصيل بأسماء فرسانهم

وخيلهم وقاتلهم ومقتولهم، وكيف كان القتال، وكم استمر، إلى غير ذلك من الجزئيات فكيف يعقل مع هذا أن يكونوا قاتلوا أبرهة، وقتلوه في المعركة، ثم لا يوجد لذلك في أخبارهم وأشعارهم أثر؟" (ص 30-31).

- وقد ذهب المعلّم رحمه الله إلى أن الطير أرسله الله تعالى لتطهير ناحية مكة من جيف القتلى، وقال: إن النظر في الروايات يكشف عن فريقين متباينين في تصوير القصة، ثم ذكر مواضع الاختلاف، ورجع ما نسبته إل الفريق الأول، وأيده مستدلًا بكلام العرب على أن الرمي كان من السماء والريح.

استعرض المعلّمي رحمه الله الروايات المذكورة، وأثبت أن الرواة ليسوا فريقين مختلفين، وإنما وقع الاختلاف في بعض الأمور الجزئية، ورمي الطير قد أشار إليه الفريقان معًا؛ بل لم ينفه أحدٌ قبل المعلّم رحمه الله، ثم أورد من مخطوطة كتاب "المنمق" لابن حبيب.¹ شعرًا فيه تصريح برمي الطير كقول نفيل بن حبيب الذي شهد الواقعة:

حتى رأينا شعاع الشمس يستره طير كرجل جراد طار منتشر

يرميننا مقبلات ثم مدبرة بحاصب من سواء الأفق كالمطر

وكان المعلّم رحمه الله قد استدل بما جاء في رواية سعيد بن جبير أنها "طير خضر لها مناقير صفر تختلف عليهم" بأنها أكلت جثث الموتى، فردّ عليه المعلّمي رحمه الله بأن الجملة (تختلف عليهم) صفة للطير، وليست صفة للمناقير، والمقصود باختلافها مجيئها وذهابها.

¹ قد استخدمت دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد نسخة من كتاب "المنمق" بعد اللتيا والتي من أصله الفريد المحفوظ في مكتبة ناصر حسين الشيعي بمدينة "لكنؤ" وذلك سنة 1932 م، بعد وفاة المعلّم رحمه الله بسنتين، وقد رجّع الشيخ المعلّمي رحمه الله إلى هذه النسخة التي ظلت محفوظة في حزانة الدائرة إلى أن نشرته سنة 1383=1964 م.

- عقد المعلّم رحمه الله الفصل السابع (ز) لبيان ما يكون - فيما يظهر له - باعثاً للمعلّم رحمه الله على إنكار رمي الطير، وذكر ثلاثة أمور: الأول: أن يتهماً له دعوى أن قوله تعالى: "ترميمهم" للخطاب، فيستدل بذلك على أن أهل مكة قاتلوا، والثاني ما ذكره المعلّم رحمه الله بقوله: "من ينظر في مجاري الخوارق يجد أن الله تعالى لا يترك جانب التحجب في الإتيان بها، كما هي سنته في سائر ما يخلق؛ لأن حكمته جعلت لنا برزخاً بين عالم الغيب والشهادة، وسنّ لنا التشبث بالأسباب مع التوجه إلى ربها، ليبقى مجال للامتحان والتربية لأخلاقنا".

وعلق المعلّم رحمه الله على ذلك بقوله: "تحقيق هذا البحث يستدعي النظر في حكمة الخلق، وقد أشار إليها الكتاب والسنة، وتكلم فيها أهل العلم، وأوضح ذلك في بعض رسائلي، وألخص ذلك هنا".

وهذا بحث نفيس، ذكر فيه المعلّم رحمه الله أن الخوارق كلها لا يكون فيها حجاب، بل منها ما يكون مكشوفاً لحكمة تقتضي ذلك، ومن ذلك الآيات القاضية التي تقترحها الأمم المعاندة أن يعاجلها العذاب إن لم تؤمن، ومن ذلك الآيات التي يقع بها العذاب، فإنها ليست لإقامة حجة فيناسبها الحجاب، ودلّ على أن الرمي في واقعة الفيل لم يكن لإقامة حجة، وإنما كان آية عذاب، ومثل ذلك لا يستدعي الحجاب، بل كان هناك مانعان من الحجاب والتسبب والمباشرة.

والأمر الثالث الذي يرى المعلّم رحمه الله أنه قد يكون باعثاً على إنكار رمي الطير "أن بعض فلاسفة الإفرنج وكتّابهم وأذئابهم من الملحدين ينكرون الخوارق، ويسخرون منها، ويعدّون في القرآن برهاناً على اشتماله على الكذب، وعلماء المسلمين شديداً الغيرة على القرآن، والحرص على تبرئته عن المطاعن، فقد يحمل بعضهم ذلك على أن يتأول بعض النصوص القرآنية، ويحمله على معنى لا ينكره القوم".

ثم قال: "لست أقول: إن المعلم رحمه الله تعالى ممن يمكن أن يختار تأويلًا يعلم ضعفه، ولكن قد لا يبعد أن تكون شدة غيرته على القرآن، وحرصه على دفع الطعن عنه، مما قرب ذلك التأويل إلى فهمه".

وهنا أريد أن أضيف أن المعلم رحمه الله لم يكن من ذلك الصنف من العلماء الذين يتأثرون بكلام الإفرنج والملحدين؛ بل كان من العلماء الراسخين، ولم يزد تضرعه من الإنجليزية ودراسته للعلوم الحديثة إلا استقامة ورسوخًا، كما شهد بذلك أصدقاؤه ومعارفه، وهو الذي قال في خطبة تفسيره:

"فكأنني نذرت نذرا أن أتمسك بآيات الله ونظامها، فلا أجاوز عنها شبرا.... مجتنبًا غلوًا في الدين، فلم أكن متخذ الباطنية بطانة، ولا الظاهرية ظهرا، مفارقًا من لم يفرق بين سنة الله وسنن المخلوقات، فكذب بينات القرآن، وحرّف آياته زورًا ومكرا، قائلاً للمبتدعة كلمهم: حجرا، وللملحدين جميعهم: بهرا".¹

والمقصود بالبينات هنا: المعجزات، فلم يكن رحمه الله ممن يضيق صدره، وينتفخ سحره بها، وانظر إلى قوله في فصل بعنوان "مغالطة من أنكر بالمعجزات".

"وأخطأ من ظن أن الطبائع من سنة الله.... وهذا الخطأ منهم انجر إلى عثرة كبيرة، وهي أن خرق عادات الأشياء محال، فأنكروا بصريح القرآن، والكتب السماوية، وحرّفوا النصوص الواضحة إلى الأباطيل الفاضحة".²

وقال في موضع آخر: "ظنوا أن المراد من سنة الله طبائع الخلق كلها، فالنار مثلاً لا بد أن تحرق الإنسان.... وعلى هذا أنكروا المعجزات، وغرّهم أقوال من سعى هذه الطبائع سنة الله، وأول من استعمل كلمة (سنة الله) في هذا المعنى هم أصحاب رسائل إخوان الصفا....".³

¹ أنظر: "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" للفراحي، طبعة دار الغرب الإسلامي، ص 12

² القائد إلى عيون العقائد، ص 161

³ المصدر نفسه، ص 165

ومن هنا لما سئل المعلّم رحمه الله يوم كان طالبًا في كلية علي كره ترجمة تفسير السيد أحمد خان مؤسس الكلية (1332-1315هـ)، وقد أول فيه جميع الآيات التي ذكر فيها الخوارق= أبي قائلًا: "لن أشارك في نشر هذا الاثم"¹.

- وقد ذهب المعلّم رحمه الله إلى أن رمي الجمرات في الحج تذكّار لرمي أصحاب الفيل، سواء كان الرمي من العرب أو من الطير وقال: "ولم أجد في صحاح الأخبار ذكرًا في سبب سنة رمي الجمار، فلو ثبت فيه شيء من طريق الخبر لأخذنا به، وقترت به العينان، لكنه لم يثبت، وأمر الدين ليس بهيّن، وقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: "كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل سمع"، فعمدنا إلى طريق الاستنباط، فإن المستنبط من الصحيح الثابت أولى بالصواب من الصريح الذي لم يثبت" ثم ذكر أمارات ووجوهًا تبين أن مناسبة رمي الجمار لرمي أصحاب الفيل أظهر من مناسبته لرمي الشيطان.

تكلم المعلّم رحمه الله على هذه المسألة في الفصل الثامن (ح) وذكر بعض الروايات الجيدة التي وردت في رمي الجمار، ورجح أن تعرض الشيطان لإبراهيم كان ليصده عن معرفة المناسك والإتيان بها.

وذكر أن ما جاء في بعض روايات الابتلاء بالذبح أن الشيطان تعرض لإبراهيم فلم يجده من وجه يثبت، فإن صح فهي قصة أخرى غير هذه، ثم تناول الشيخ الأمارات والوجوه التي ذكرها المعلّم رحمه الله بنقد مفصل.

أما القسم الثاني من الرسالة فرتبه المعلّم رحمه الله على مقدمة وبايين، المقدمة في عمود السورة وربطها بالتي قبلها والتي بعدها، رجح أن عمودها-يعني موضوعها، وهو من مصطلحات المعلّم رحمه الله- تهديد العصاة الذين ألهاهم التكاثر عن الآخرة، بينما يرى المعلّم رحمه الله أن عمودها هو الامتنان على قريش.

¹ ذكر فراهي، ص 911

وجعل عنوان الباب الأول: "في تفسير السورة على ما أفهم وفاقاً لأهل العلم" وفسّر السورة آية آية، وتحت كل آية فصول رَقَمَها بالعدد لا بحروف الجمل كما فعله في القسم الأول، وفسّر الآية الأولى في ثمانية فصول أولها عن دلالة الاستفهام في الآية، فبيّن أصل معنى الاستفهام والمعاني الأخرى المجازية، وتكلم عليها كلاماً حسناً.

والفصل الثالث تحت هذه الآية في الخطابة فقال: "اتفق المفسرون - فيما أعلم - على أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، إلا أن الألوسي أشار إلى احتمال خلال ذلك... واختار المعلم رحمه الله تعالى أولاً عموم الخطاب، قال: (فاعلم أن الخطاب هنا متوجه إلى جميع من رأى هذه الواقعة أو أيقن بها من طريق تواتر الحكاية ممن رآها" وأطال في تقريره".

وعقب على ذلك بقوله: "أرى أن المعلم رحمه الله تعالى أجاد باختيار هذا الوجه، وإن لم ينقل عن تقدم.... وهو مع ذلك الأوفق بما يقتضيه المقام من تقرير الواقعة، وبيان ظهورها واشتهارها، والإبلاغ في الوعيد والتهديد والامتنان".

وهكذا فسّر المعلمي رحمه الله سورة الفيل كاملة، وبيّن في أثناء تفسيره ما خالف فيه المعلم رحمه الله.

- وخصص الباب الثاني من هذا القسم للبحث مع المعلم رحمه الله فيما ذهب إليه في تفسير قوله تعالى: "ترميمهم" وقال: "قد نتهت في مقدمة هذا القسم الثاني وأثناء الباب الأول منه على مواضع مما خالفت فيه المعلم، ووجهت ذلك بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى، وأخرجت الكلام في "ترميمهم" لطوله، وأرى أن أقدم فوائد وقواعد ينبنى عليها البحث معه، فهأكلها".

وهي ست عشرة فائدة وقاعدة تتعلق بمسائل الحال، والاستثنائات البياني، وجواز وضع الماضي موضع المضارع، ووقوع المجاز وإنكاره، وقد سقط منها

ثلاث فوائد كاملة وهي: 11، 12، 13، مع جزء من أول الفائدة 14، إذ وقع في النسخة خرم (ص: 17-30) ذهب بأربع عشرة صفحة.

وقد استغرقت هذه الفوائد الصفحات (143-182)، وبدأ البحث من (ص 183) ولكن قال في حاشية الصفحة (189): "انظر الفائدة الـ من الذيل" (كذا) ونحوه في (ص 198) قال: "انظر الفائدة العاشرة من الفوائد الآتية في الذيل" وكذلك الحاشية التي تليها، وقد زاد المؤلف هذه الحواشي فيما بعد، فالظاهر أنه بدا له عند مراجعة ما كتبه أن يؤخر الفوائد السابقة على آخر الرسالة، ولكن ذلك كان يقتضي التعديل في مقدمة القسم الثاني وتقديم الفصل التالي للفوائد عليها.

ومع أن جملة الكلام على المسألة قد تمت، ولكن يظهر أن المؤلف رحمه الله لم يكمل دراسته، إذ لم يختمها بكلمة تدل على الفراغ منها.

- أما أسلوب المعلّمي رحمه الله في مناقشته وتعقبه، فهو أسلوب علمي هادئ رصين، لا تهجم فيه، ولا تجريح، ولا اتهام، فهو يحترم المنقود ويحسن الظن به، ويلتمس له العذر، ويتحرى النصف.

(4) نسخة الرسالة

النسخة التي بين أيدينا هي مصورة من فُلِيم (ميكروفلم) محفوظ في مكتبة الحرم المكي الشريف برقم 3557 ف، وعنوانها: "رسالة في التعقيب على المعلّم عبد الحميد الفراهي" وقد رقت صفحاتها فبلغت 116 صفحة، وقد تجاوز الترقيم ورقتين بعد الصفحة الخامسة عشرة، لأنهما ليستا جزءاً من هذه الرسالة، وقد سقطت في التصوير الصفحتان 34 و35، فنسختهما من الأصل المخطوط.

ورقم الأصل 4645، وهو دفتر فيه ستون ورقة وقد جلد معه دفتر آخر، والترقيم المتسلسل بلغ 82 ورقة، وتشتمل النسخة على عدة رسائل أولها هذه الرسالة،

وهذه مبيضة وبخط المؤلف، وكتب في صفحة الغلاف بخط آخر: "رسالة في التفسير وتفسير قوله تعالى: "وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُم" الآية، وتبدأ رسالتنا في الورقة الثانية / أ، ورقمت بالمرسام برقم: 1، وقد استغرقت أوراق الدفتر الأول.

وهي مبيضة كما قلنا، ولكن ظل المؤلف رحمه الله يأخذها بالحذف والإضافة والتعديل والاستدراك والإلحاق، فقد ضرب على الصفحات 47، 48، 109، 116، كاملة، وعلى نصف الصفحة 46، وكذلك على نصف الصفحة 49، ونجد إلحاقات طويلة في الصفحتين 74-75، وانظر ص 27، 28، 29، 57، 58.

هذه النسخة تشتمل على القسم الأول ومن القسم الثاني على المقدمة والباب الأول فقط، فلا يوجد فيها الباب الثاني الذي تكلم المؤلف رحمه الله فيه على تفسير "ترميمهم" وكنا نظن أن هذا الباب إما أن المؤلف رحمه الله لم يتمكن من كتابته، أو أنه قد كتبه ولكنه ضاع، فإن الأستاذ عبد الله بن عبد الرحمن المعلي لم يذكر في معجمه إلا نسخة واحدة، وذكر رقم فليهما 3557 ف.¹ فلما صدر أخيراً الفهرس المختصر لمخطوطات المكتبة رأيت فيه ذكر نسخة أخرى برقم 4757 تفسير، وأنها مختلفة الأسطر في دفتري.² فراجعتها في المكتبة والدفتران من مشتريات حيدرآباد، والدفتر الأول منهما يشتمل على مسودة التعقيب (وهي في 46 صفحة من أولها) ومسائل أخرى، وفي الدفتر الثاني ظفرنا بمبيضة الباب الثاني من القسم الثاني وهي في 66 صفحة، فاكتملت الرسالة بحمد الله.

ولعل المفهرس السابق ظن أن ما في الدفتريين كليهما مسودة بيّضها المؤلف في النسخة السابقة، فاكتمل بتصويرها، ولم يدر أن التي أهملها تتضمن جزءاً مهماً من الرسالة، فطلبت إلى المسؤولين أن يتفضلوا بتصوير الباب الثاني من هذه النسخة، وجزى الله

¹ معجم مؤلفي مخطوطات مكتبة الحرم المكي الشريف، ص 4609

² الفهرس المختصر لمخطوطات مكتبة الحرم المكي الشريف، 1/543.

خير الجزاء الدكتور محمد بن عبد الله باجودة مدير مكتبة الحرم المكي الشريف،
والشيخ محمد بن سيد أحمد مطيع الرحمن مدير قسم المخطوطات فيها على
استجابتهما لطلبنا ثم إتاحة الفرصة لمراجعة الأصول أكثر من مرة.

هذه المبيضة أيضًا بخط المؤلف، وهي كالمبيضة الأولى في الحذف والإضافة
والاستدراك والتعديل، والتقديم والتأخير فأشبهت المسودة.

ومن منهج المؤلف في الإحالات أنه يذكر اسم الكتاب في الحاشية، فإذا كان في
مجلدين أو أكثر يتبعه رقم المجلد ورقم الصفحة بين القوسين، وإلا يذكر رقم
الصفحة بعد حرف الصاد دون قوسين، وقد ترك أحيانًا بعد اسم الكتاب بياضًا
بين قوسين، ليكمل الإحالة على المجلد والصفحة فيما بعد، وقد يذكر رقم المجلد
ويترك رقم الصفحة، وخاصة في الإحالة على سيرة بن ابن هشام بهامش الروض
الأنف لعلمه بوجود المبحث المذكور في المجلد الأول.

وفي تخريج الآيات التزم الشيخ الإحالة على اسم السورة ثم رقمها ورقم الآية كلمها
مثل "سورة الطلاق: 1/65".

وفي الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم التزم ذكر (آله) "صلى الله عليه
وآله وسلم" والجدير بالذكر أنه التزم هذه الصيغة في النقول التي يوردها من كلام
غيره، وكذلك التزمها في الأحاديث التي نقلها مع أنها لم ترد فيها هذه الصيغة.

(5) طريقة العمل في نشر هذه الرسالة

سرت في تصحيح هذه الرسالة والتعليق عليها على المنهج الآتي:

1- سُلمت إليّ للتصحيح نسخة منقولة من مصورة المبيضة، فقرأتها وقابلتها على
المصورة، وقد وجدت فيها ورقة ناقصة، فسافرت إلى مكة المكرمة، وزرت
مكتبة الحرم المكي الشريف في 1428/3/29هـ، ونسخت الورقة من الأصل

المحفوظ في المكتبة، ثم اكتشفت نسخة الباب الثاني من القسم الثاني، فصورتها من المكتبة، وكانت مواضع كثيرة لم تظهر في الصورة، فزرت المكتبة مرة أخرى في 17/11/1429هـ، وصححت تلك المواضع واستدركتها من الأصل.

2- أثبتت تعليقات المؤلف في أماكنها وختمت بكلمة (المؤلف) بين حاصرتين، وحاولت أن لا أعلق إلا عند الضرورة، وإذا زدت ضمن تعليق المؤلف مصدرًا أو طبعة غير التي أحال عليها هو وضعت الزيادة بين حاصرتين.

3- الطريقة المتبعة في تخريج الآيات في كتب المشروع أن يذكر اسم السورة ورقم الآية بعد الآية في داخل النص، وكان المؤلف رحمه الله قد خرجها في الحاشية وذكر بعد اسم السورة رقمها أيضًا كما سبق، ولكنه لما لم يلتزم هذه الطريقة في كتبه الأخرى بل كان أحيانًا يقتصر على رقم السورة ورقم الآية، أو اسم السورة ورقم الآية = تقرر أن يكون تخريجها في جميع كتبه على الطريقة المتبعة في المشروع.

4- في بعض الإحالات لم يذكر المؤلف رقم الصفحة أو رقم المجلد ورقم الصفحة كليًا، فتركها كما هي، لأن الطبعة التي اعتمدها ليست بين يدي، وزدت بين حاصرتين طبعة أخرى مع رقم المجلد والصفحة.

5- لم يضع المؤلف رحمه الله عنوانًا لهذه الرسالة، وقد سماه المفهرس في خانة عنوان المخطوط: "رسالة في التعقيب على المعلم عبد الحميد الفراهي" وبهذا العنوان ذكره الأستاذ عبد الله بن عبد الرحمن المعلمي في معجمه.¹ وكذا في الفهرس الجديد الذي صدر قريبًا لمخطوطات مكتبة الحرم المكي.² وقد اخترت هذا العنوان مع زيادة "تفسير سورة الفيل" للتوضيح.

¹ معجم مؤلفي مخطوطات مكتبة الحرم المكي الشريف، ص 4060

² الفهرس المختصر لمخطوطات مكتبة الحرم المكي الشريف، 543/1

وفي الأصل كتب في صفحة العنوان: "رسالة في التفسير" وفي الدفتر الأول من المسودة كتب في ورقة صغيرة: "رسالة في الرد على العلامة المحقق المعلم عبد الحميد الفراهي في تفسير سورة الفيل لعبد الرحمن بن يحيى المعلي" وفي هذا الدفتر نفسه كتب بعضهم فيما بعد: "بحث في تفسير سورة الفيل" وهذا الكاتب نفسه كتب في الدفتر الثاني: "بحث في تفسير سورة الفيل والرد على عبد الحميد" وكل أولئك اجتهد من المفهرسين أخذًا من مضمون الرسالة، وليس شيء منها بخط المعلي رحمه الله.

هذا، وقد وقفت على قُلِيم الرسالة برقم 4645 ف في مكتبة الحرم المكي الشريف سنة 1418هـ، وكانت حينئذ في مقرها الموقت في شارع المنصور، ثم علمت أن أحد الباحثين معني بنشرها، فانتظرت نشرته، ولما تقرر نشر مؤلفات المعلي رحمه الله ضمن هذا المشروع المبارك، وارتطبت به، وكُل إليّ إخراجها، وكان من فضل الله وتوفيقه أن أوقفنا على باب من الرسالة لم يكن معروفًا من قبل، وهو الباب الثاني من القسم الثاني، ويبلغ نحو الربع من صفحات الرسالة، وبإضافته اكتملت الرسالة في جملتها، والحمد لله، ولم يبق فيها غير خرم واحد مقداره أربع عشرة صفحة، كما سبقت الإشارة إليه.

وبعد، فقد فرغت من تحقيق الكتاب وتحرير هذه المقدمة في سلخ شعبان سنة 1430هـ، ثم شغلت بأعمال أخرى، وبأخرة عثر أخي الشيخ علي العمران على عشر صفحات (21-30) من الخرم المذكور ضمن مجموع برقم 4706، وقد وردت فيه الصفحات (27-30) قبل (21-26) لأن الذي رتب الأوراق لم يعرف طريقة المؤلف في كتابة الرقم (2) فظنه (3) فلما ظن أن (21) هو (31) وضع (ص 27-30) قبل (ص 21)

هذه الصفحات تضمنت فائدتين، الثالثة عشرة، وقد استغرقت النصف الأول من (ص 21) ثم بدأت الفائدة الرابعة عشرة.

ويلحظ الناظر في هذه الصفحات:

- 1- أن الفائدة الرابعة عشرة قد تمت في السطر السادس من (ص 24) وترك المؤلف سائر الصفحة فارغاً.
- 2- موضوع هذه الفائدة: الفرق بين الجملتين الحاليتين في قولك "جئتَ تسرع" و"جئتَ وأنت تسرع".
- 3- بدأت (ص 25) برقم (14) مرة أخرى، وكان من قبل رقم (11) فغيّره المؤلف، ثم كتب "تقرير المجاز في استعمال ما هو للحال فيما هو ماضٍ أو مستقبل" وهذا بحث طويل مستقل لا علاقة بالفائدة السابقة، ثم هو الوحيد الذي وضع المؤلف له عنواناً، وإن لم يكتبه بخط بارز في وسط الصفحة.
- 4- استمر هذا المبحث إلى آخر (ص 30) وتلاه في أول (ص 31) من الأصل، "فمن أمثلتهم المشهورة وهذه أمثلة المجاز المذكور.

وقد يقال: لعل المؤلف كتب أولاً رقم (14) ثم غيّرهُ إلى (11) والصفحات الأربع الضائعة تتضمن الفائدة الثانية عشرة فقط. أستبعد ذلك لأن إحالة المؤلف على الفائدة (11) تدل على أن موضوعها ليس استعمال ما هو للحال فيما هو ماضٍ أو مستقبل (انظر الفائدة الواردة في (ص 21-24) ومبحث "تقرير المجاز...." جميعاً (انظر ص 199، 206) ومن ثم رأينا إبقاءهما كما وردا في الأصل إلى أن يأذن الله بالعثور على الصفحات الأربع الباقية من الخرم (17-20).

أسأل الله سبحانه أن ينفع بهذه الرسالة، وأن يتغمد برحمته الناقد والمنقود، وأن يجزل لهما المثوبة على اجتهدهما في تدبر كتابه الحكيم وأن يكتبهما في أهل القرآن: أهل الجنة وخاصته.

وصلّى الله عليه وسلّم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نظرة على الاعتراضات على سورة الفيل للإمام عبد الحميد الفراهي

- الأستاذ نسيم ظهير الإصلاحي الغازي¹

ترجمة من الأردوية: د. محمد معتصم الأعظمي²

"قد اتفق العالم الإسلامي على تفوق الشيخ عبد الحميد الفراهي فضلاً ومعرفة لكتاب الله بأنه لا يوجد له نظير في تفكيره واجتهاده ومعرفته للقرآن الكريم. ويمكن تقدير فضله العلمي من تأليفاته القرآنية وأجزائه التفسيرية ومعرفة أنما كُتِبَ عن العلامة المرحوم خالٍ من شوب المبالغة".³

إن تفسير سورة الفيل من أجزاء التفاسير للشيخ عبد الحميد الفراهي، إنه رد بالدلائل على فكرة أن دمار جيش أبرهة قد وقع برمي الجمار من قبل الطيور الآتية من جانب البحر، وأن القريش وأهل مكة قد اختفوا في الجبال خوفاً من أبرهة وجيشه الجرار، ووفقاً لتحقيق الشيخ الفراهي أن القريش وأهل مكة والحجاج القادمين من الخارج لزيارة الكعبة، قاموا ضد هجوم جيش أبرهة حتى تسبب رميهم الشديد للحجارة والنصر من الله في انتشار جيش أبرهة جميعاً وتدميرهم الشامل. لم يقبل بعض العلماء هذا التحقيق للشيخ الفراهي مما هو نتيجة التدبر والتفكير الطويل ومبني على الدلائل والشواهد القطعية، ومن بين هؤلاء المنكرين الشيخ شبير أحمد أزهر الميراثي الذي قام ببعض الاعتراضات على رأي الشيخ الفراهي المذكور آنفاً ونقلها في مجلة "الرشاد" الصادرة عن جامعة الرشاد بأعظم كره في عددها لأكتوبر-نوفمبر 1985م، فسوف نحلل هذه الاعتراضات في السطور الآتية:

¹ أستاذ التفسير والحديث بمدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، الهند

² مدرس ضيف، جامعة بردوان، بنغال الغربية

³ "الجمعية" ترجمان جمعية العلماء (الهند) اليومية، 14 يونيو، 1946م

الاعتراض الأول: يكتب الشيخ شبير أحمد الميرثي:

"إن المراد بالطير سباعها لا أساس له كلياً، فقد كتب بعض شعراء العرب في قصائدهم أننا سنفتح هذه الحرب وحينما ننتقل إلى العدو مع فوارسنا فتحلق جماعة من النسر في الجو معنا، لأنها متيقنة بأننا نقتل الأعداء ونوفر لهم للأكل، فظن الشيخ الفراهي هذه المبالغة الشعرية حقيقة بأن تصحب جماعة النسر مع رؤية إقدام المرء، بينما وقعت آلاف من الحرب في العرب والعجم وهجمت الجيوش عليها، ولكن لم تصاحبها النسر بعد رؤية إقدام جيش صغير ولا كبير حتى الآن".

هذا الاعتراض مهم جداً بأن لا أساس لظن سباع الطير بكلمة "الطير" ولو يراد به أن كلمة "الطير" لا تستخدم في معنى "سباع الطير" فلا أساس له بنفسه، ولم لا يراد به "سباع الطير"؟ فإن "الطير" مصدر لـ "طار يطير" ومعناه "الطير بجناحين" ثم جعلت الكلمة تستخدم للطيور عامة صغيرة كانت أم كبيرة. ومع ذلك هذه الكلمة استخدمت صريحاً في معنى سباع الطير في القرآن الكريم وكلام العرب. فجاء في القرآن:

"وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ"¹.

ويقول الله في موضع آخر:

"وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ"².

فإن كلمة "الطير" استخدمت صريحاً في هاتين الآيتين في معنى سباع الطير وتوجد أمثلة كثيرة في كلام العرب، واستخدمت "أبائيل" كصفة الطير تراد بها فرسان أو طيور كبيرة كما يقول زهير بن أبي سلمى:

¹ سورة يوسف: 41

² سورة الحج: 31

وبالفوارس من ورقاء قد علموا
ويقول الأعشى:

طريق وجبار وراء أصوله عليه أبايل من الطير تنعب

ففي ضوء هذه الشواهد كيف يمكن القول بأن الطير ما عني به النسر أو سباع الطير الآخر أو لا يستخدم في هذا المعنى، وإن أراد الشيخ المحترم أن لا أساس لأن يعنى بـ"الطير" سباع الطير فلا رد عليه سوى أن الشيخ الفراهي قد أتى بعدد كبير من الدلائل العقلية والنقلية، بينما أعرض عنها الشيخ الميراثي إعراضاً والحال أن اعتراضه سيثبت هواء ما لم ترد تلك الدلائل، وسيطول البحث بذكر الدلائل التي قدّمها الشيخ الفراهي، ولكن يحسن بنا أن ننقل هنا فقرات من تلك الروايات المتعلقة بالطيور المذكورة في سورة الفيل والتي تطابق وتصدق رأي الشيخ الفراهي والتي يعتمد عليها الفراهي ويردها الشيخ الميراثي بدون دليل، وروي عن عكرمة رضي الله عنه عن هذه الطيور:

"كانت طيرًا خضرًا خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع".

كما يروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:

"لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأف الكلاب".¹

ويروى عن سعيد بن جبير أنه قال:

"طير خضر، لها مناقير صفراء تختلف عليهم".²

¹ هاتان الروايتان المذكورتان في تفسير ابن جرير، 298/3، والرواية الثانية رويت عن طرق

متعددة واستخدمت فيها لفظ "خراطيم" يعني به سباع الطير كما يقول امرؤ القيس:

كأنهم بالقوة طلوب كان خرطومها منشال

تفسير سورة الفيل للشيخ الفراهي، ص 96، طبعة 1937م

² ابن جرير، 398/30

فيقول الشيخ الميراثي: "إن ارتحال سباع الطير مع إقدام جيش مستقيمة بفوزه ليس إلا مبالغة شعرية" فيمكن أن "إيمان الطير بفوز الجيش اليقيني مبالغة شعرية ولكن مصاحبة النسر وسباع الطير وغيرهما إثر رؤية إقدام الجيش ليس بأمر مستعبد لأننا نرى اليوم حينما نبدأ بحرث الحقول بالثور والمحراث أو الجرار فتتبعهما الطيور الصغيرة متيقنة بأنه تخرج حشرات الأرض بعد الحرث فتأكلها وكذلك حينما يحتشد الناس في قريتنا لصيد السمك من بركة فتأخذ النسر والغراب والحدأة وغيرها من الطيور تحلق حول البركة على ازدحام الناس وغوغاءهم، فحينما يقع هكذا مع الطيور عند رؤية تمهيد صيد السمك فما العجب أو الأمر المستعبد بتحلق سباع الطير مع رؤية إقدام الجيش أو صحبتها معه قبل 1400 أو 1500 سنة حينما لم يكن العالم مثقفًا أو متطورًا كيومنا هذا وكانت جثة القتلى تترك للنتن في ميدان الحرب؟¹

الاعتراض الثاني: ويكتب الشيخ الميراثي في اعتراضه الثاني:

"يمكن رمي الحجارة من فوق الجبل حال تأوي تلك الجماعة إلى جنب الجبل ففي تلك الحالة الحجارة التي ترمى أو تسقط من الجبل فتخسر الجماعة بها، ولكن جيش أبرهة قد دمر في وادي محسر والذين قد رأوا وادي محسر يعلمون أن الجبال ليست بقريبة منه يمينًا ولا شمالًا حيث يهلك رمي الحجارة الناس المقيمين في وادي محسر فوقهم من الجبل أو يصابون بالجروح ولورأى الشيخ الفراهي وادي محسر لما اختار هذا التأويل أبدًا".

¹ كما يقول الشاعر الحماسي:

كم تركنا هناك من بطل تسقى عليها الرياح في لمعه
فلا يمكن للشيخ الميراثي القول بأن هذا مبالغة شعرية لأن هذا الشاعر من قبيلة حمير ووقعت هذه الواقعة في حرب قد تغلبت فيه حمير على بني عبد مناف وقتلوا كثيرًا من الناس، فقال الشاعر عن تلك الواقعة في أشعاره والشيخ المفتي إعزاز علي يكتب في شرح الحماسة: وفيه يقول شاعر من حمير وأنصف فيما قال ولذا عدت هذه الأبيات من المنصفات

إننا نعتزف بأن جيش أبرهة قد هلك في وادي محسر وهو واد طويل عريض وتقع الجبال على بعد منه في شماله فلذلك كان رمي الحجارة أو إسقاطها على الجيش المقيم من فوق الجبل في الوادي صعباً جداً. ولكن يثور هنا سؤال: هل لم يمتلك العرب أسلحة تستخدم لرمي الحجارة إلى مكان بعيد؟ وكما نعتقد أن الشيخ الميرثي لم يتوجه إلى هذا الجانب وإلا فلم يكتب أبداً أمراً لا دليل عليه فإن المنجنيق والقذاف والقذافة وغيرها كانت أسلحة للعرب تختص برمي الحجارة في الحرب من مكان بعيد حتى يشتت الجيش المقابل وينتشر في دقائق معدودات، فالكتب¹ التي ذكرت فيها أيام العرب بالتفصيل خلال العصر الجاهلي ذكرت فيها أيضاً تلك الأسلحة عدة مرات كما جاء في لسان العرب:

"قيل لأعرابي كيف كانت حروبكم؟ فقال كانت بيننا حرب عون، تفقاً فيها العيون فتارة نجنق وأخرى نرشق".²

وقد أمر النبي ﷺ بنصب المنجنيق أيضاً خلال غزوة الأحزاب ولم يمثلوا بالأمر فقط بل استخدموه فيها.³

كان جيش أبرهة كبيراً ومتسلحاً تماماً فلذلك وجب أن يهجم عليهم مثل حرب العصابات. وكانت العرب متعودين عليها عامة وهذا وجب أيضاً أن يكون الجيش المقابل على بعدٍ عند رمي الحجارة من المنجنيق أو القذاف فوقوع جيش أبرهة وسط وادي محسر في حق العرب عن جهة القتال فلذلك حاصروهم من كل جانب وأسقطوا عليهم الحجارة من المناجيق.

¹ مثلاً "شرح النقائص" لأبي عبيدة و"مجمع الأمثال" للميداني وغيرهما

² لسان العرب 37/10، المادة ج ن ق

³ للشيخ الفراهي اليد الطولى على تاريخ العرب والجغرافيا وخاصة كان يعلم الأمانة التي تتعلق بالقرآن من أية ناحية، قد حج الشيخ وزار بيت الله أيضاً فلذلك يمكن أن يشاهد تلك المواضع بعينه، والاعتراض لعدم رؤيته وادي محسر اعتراض عجيب.

الاعتراض الثالث: ويرد الشيخ الميرثي قائلاً:

"إن كثيراً من الحوادث المذكورة في تاريخ العالم حيث وجّه الفريق الثاني ضرراً إلى جيش مرّ بجانب الجبل فأسقطوا عليهم من الحجارة الثقيلة، وطبعاً إن الحجارة الثقيلة لا يمكن رميها باليد بل تحط وإذا هلك جيش أبرهة كما ذكره الفراهي لاستخدمت كلمة "الحط" لا "الرمي" التي ذكرت بالفعل".

وقد سبق الرد عليه في الاعتراض السابق بأن المنجنيق والقذاف وغيرهما من أنواع الأسلحة التي كانت العرب يستخدمونها لرمي الحجارة الشديدة ولا تحط الحجارة الكبيرة من الجبل باستخدامها بل ترمى من وراء أو الأمام على الأعداء ويمكن أن الشيخ لا يعرف استخدام المنجنيق والقذاف وغيرهما من أسلحة الحرب فنذكر هنا بعض أقوال أئمة اللغة:

"منجنيق: آلة حربية ترمى بها القذائف".¹

"القذاف: الذي يرمى بها الشيء فيبعد".²

وقد نقل صاحب لسان العرب هذا الشعر:

لَمَّا أَتَانِي الثَّقَفِي الْفَتَانُ فنصبوا قذافة بل ثنتان³

ويقول مزاد:

قذيفة شيطان رجيم رمى بها فصارت ضوأة في لهازم ضرزم⁴

هذه هي الأسلحة التي كان يستخدمها العرب لرمي الحجارة ولم يكونوا يرمونها بأيديهم فقط كما يرى الشيخ الميرثي، بل كان الضرب بالسيوف ورمي الحجارة من

¹ الإفصاح، ص 199 طبعة القاهرة 1929م

² المصدر نفسه ولسان العرب، 277/9، مادة ق ذ ف

³ المصدر نفسه

⁴ لسان العرب، 277/9

أعمالهم اليومية وكانوا ماهرين أو ممتازين فيها وكيف يمكن أن نعتزف بأنهم قاوموا جيشاً كبيراً بدون السلاح؟ فإنهم- وإن كانوا في حالة الإحرام بدون السهام والسيوف- قد استخدموا الأسلحة التي يمكن لهم الحصول عليها آنذاك، وقد استخدمت لتلك الأسلحة- كما قد أثبتناه آنفاً- كلمة "الرمي" فكلمة "ترمي" تطابق الواقع ومقتضى الحال ولا يرد الاعتراض عليها من أي ناحية، وأما قول "الحط" فقد اخترعه الشيخ الميرثي ذاته فلم يكتب الشيخ الفراهي شيئاً عن "الحط" فيعترض عليه.

الاعتراض الرابع: وأما الاعتراض الرابع للشيخ الميرثي فهو كما يلي:

"إن الله ﷻ قد صرح بأن الحجارة المرمية كانت من نوع "السجيل" فليوضح الشيخ الفراهي أنه لو رمى أهل مكة الحجارة على جيش أبرهة فمن أين أتوا بالحجارة من السجيل بينما لا توجد هذه الحجارة في مكة المكرمة وضواحيها حتى في أرض الحجاز كلها".

فلا أساس لهذا الاعتراض من الشيخ الميرثي بأن "لا توجد حجارة السجيل في مكة المكرمة وضواحيها حتى في أرض الحجاز كلها" لأنه لا يقدم دليلاً لهذا الاعتراض الذي لا أساس له، فمن يقبل، على الرغم من هذا الاعتراض التافه، أنه لا توجد حجارة "السجيل" في مكة المكرمة وضواحيها حتى في أرض الحجاز كلها، فإن السجيل شيء عادي ويمكن وجوده في كل مكان، ولقد قال من رأى هذا الوادي وعاش في مكة المكرمة والحجاز: إن السجيل يوجد فيها خاصة في منطقة وادي محسر التي هي مليئة بالسجيل.

وقد ذكرت كلمة "سجيل" في مكانين آخرين في القرآن الكريم:

"وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾".¹

¹ سورة هود: 82

"وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ ﴿٧٤﴾".¹

في هذه الآيات ذكرت العرب البائدة الذين قد أهلكتهم الرياح الصرصرة أو العاصفة التي حملت معها حجارة من سجيل وجرت عليهم لأيام عديدة، وهؤلاء الناس كانوا عربًا استوطنوا في أرض الحجاز فالريح التي أهلكتهم لم تحمل معها الحجارة من مكان سحيق بل حيثما كانت تمر فتأخذ منها الحجارة والجمار معها، فلو لم توجد الجمار أو الحجارة من سجيل في تلك المنطقة - كما يدعي الشيخ الميرثي - فيثور السؤال: من أين جاءت هذه الرياح الصرصرة بحجارة من سجيل؟ ولو تدبر الشيخ قليلاً في هذه الآيات فلن يثير هذا الاعتراض الغريب، وإن فرضنا بأن قول الشيخ صحيح بأن لا توجد الحجارة من سجيل في أرض الحجاز كلها فكيف يمكن الاعتراف بأن أريدت من حجارة السجيل تلك الحجارة التي تحرق فيصنع منها الكلس؟² بينما روي عن ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ؓ:

"قال ابن عباس، سجيل معناه سَنَك وكل، يعني بعضه جمر وبعضه طين".³

فهل يصير الشيخ الميرثي على معناه بعد ذلك؟

الاعتراض الخامس: والآن اقرأ اعتراضاً من الشيخ أكثر متعة مما سبق:

"لا يمكن لثلاثة أو أربعة آلاف من الرجال أن يؤذوا ستين ألف عسكري متسلح بدرع الحديد شيئاً برميهم بحجارة من سجيل، وأما القول بإهلاكهم تمامًا وجعلهم كعصفٍ مأكول فهذا مما لا يقبله العقل".

فإن هذا الاعتراض مضحك جداً لأنه لو ترمى حجارة من سجيل من قبل العرب أو من قبل الطيور فيقع هذا الاعتراض في كلتا الحالتين، إن يقدر الله للحفاظ على

¹ سورة الحجر: 74

² وأراد الشيخ الميرثي أيضاً بـ"سجيل" نفس الحجارة

³ تفسير الرازي، 101/32

بيته وإبقاء عظمته أن يسوي قوة حجارة قوة حجارة قدرها قدر زنة الحمص والعدس يرميها الطيور فتعمل هذه الحجارة مثل الرصاصات والقنابل فلم لا يمكن له أن يجعل في الحجارة التي يرميها بضعة آلاف من عباده الضعفاء الذين ضحوا بأنفسهم للحفاظ على بيته حال رئيسهم يقوم على باب داره داعيًا ومتضرعًا:

اللهم إن المرء يمنع رحله فامنع رجالك
لا يغلبن صليهم ومحالهم أبدًا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فامر ما بدا لك
يارب لا أرجو لهم سواك يارب فامنع عنهم حماك¹
أن يجعلها أقوى من الرصاص ويهلك بها العدو؟ وزد عليها نصرًا من الله يأتي من الغيب.
ونقتبس هنا من تفسير سورة الفيل للشيخ الفراهي لتتضح القضية مزيدًا:

"الأول ما وقع في غزوة بدر. فإن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصاء فاستقبل بها قريشًا، ثم قال: "شاهت الوجوه" ثم نفحم بها وقال لأصحابه: "شدوا". فما يبق كافر إلا شغل بعينه، كما جاء في سور الأنفال: "وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى" فجعل الله تعالى رمي النبي سببًا ظاهرًا لما رامهم، حتى شغل كل واحد منهم بعينه. فكان هناك رميان: رمي من النبي رأوه، ورمي من الله تعالى لم يروه، ولكن رأوا أثره. ولذلك جاء النفي والإثبات معًا.

وكذلك في هذه السورة. كانت قريش ترميهم بحجارة ينفخونهم بها عن الكعبة، فجعلها الله حجابًا لما أرسل أصحاب الفيل من الحجارة من السماء. وكما نسب الله تعالى الرمي في بدر إلى نفسه في قوله: "وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى"، فهكذا هاهنا نسب إلى نفسه أنه فجعلهم كعصفٍ مأْكُولٍ "فلا شك أنها كانت من الآيات البينات فإن

¹ المصدر نفسه، 96/32

منافحة قريش كانت أضعف من أن يُقْلَ هذا الجيش، فكيف يحطّمهم حتى صاروا كعصف مأكول".¹

الاعتراض السادس: وللشيخ الميراثي اعتراض سادس كما يلي:

"إن الذوق الصحيح للغة العربية لن يجوز له أن يخاطب بـ"ترميمهم" الأشخاص الرامين للحجارة، وإذا كان كذلك فوجب أن يستخدم "ترموهم" وإن الله لم يكن عاجزاً عن إتيان "ترموهم" مقابل "ترميمهم".

هل كان الشيخ الفراهي صاحب ذوق عربي؟ لا حاجة إلى الحديث عنه ولكن لا ندع أنفسنا أن نقول إن الشيخ الميراثي نفسه لم يبد أن له ذوقاً صحيحاً للعربية فلنقرأ ما يلي من آيات القرآن الكريم:

"أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٦٧﴾".²

"وهذا أسلوب خاص يطلق الواحد فيه على الجميع على سبيل الانفراد، وله أمثلة في كلام العرب والقرآن وفي التوراة حيث خاطب الله بني إسرائيل بضمير الخطاب الواحد، كما بيّناه في "كتاب الأساليب"³ وأما هاهنا فنذكر بعض أمثلة من القرآن، ليطمئن به الناظر البصير. قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ⁴ فبدأ بالواحد وأعقبه الجمع فإن المراد الواحد كان هو الجمع. وأيضاً: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُودَ"

¹ تفسير سورة الفيل، ص 59-60

² سورة البقرة: 106-107

³ هذا تأليف الشيخ الفراهي حيث ذكر أساليب القرآن وميزاتها مفصلاً وطبع هذا الكتاب باسم "أساليب القرآن" ويمكن الحصول عليه من الدائرة الحميدية بسرائير.

⁴ سورة لقمان: 31

يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ^١ "ربما يبدأ بالجمع ثم يعقب الواحد، فإن المراد هو الجمع كما قال تعالى: "هَلْ أَنْتِبُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ^٢ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيرٍ^٣ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَذِبُونَ^٤ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ^٥ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ^٦" فبدأ بالجمع [هَلْ أَنْتِبُّكُمْ] ثم أعقبه الواحد [أَلَمْ تَرَ].

فبدأ الكلام بالجمع "أنبتكم" ثم جاء الواحد "ألم تر".

وإن نفرض أن "الرمي" استخدم للطير فهل استخدم "الرمي" "للطير" في أي مكان من اللغة العربية والقرآن الكريم؟ ووفقاً لدراستنا المتواضعة لم نجد ولو مثلاً واحداً لذلك في كلام العرب علماً بأن معنى "الرمي" هو أن يرمى شيء بعيداً بشدة كما ورد في لسان العرب:

"قال المبرد معنا ما رميت بقوتك إذ رميت ولكن بقوة الله رميت".²

والبيدي أن "الرمي" لا يمكن من مناقير الطيور الصغيرة، ومن الممتع أن الروايات التي تدل على أن الجمار كانت تساوي الحمص في مناقير الطيور ومخالها تستخدم لذلك كلمة "ألقت" و"أرسلت" دون "رمت" وأشككت هذه الكلمة على كثير من المفسرين القدماء فلذلك فسّروه بتفسير غريب قائلين: إن الطيور كانت تلقي حجارة تساوي الحمص عاطفة عنقها ومنقارها ومخالها³ فالذوق السليم للعربية يأبى أن تستخدم كلمة "رمي" للطيور ويعنى بها فاعل "ترمي".

الاعتراض السابع: ولنقرأ الاعتراض السابع للشيخ الميراثي:

"ويعطي الشيخ الفراهي ميدالية الدفاع المثالي ضد جيش أبرهة للحجاج بالإضافة إلى أهل مكة، الحجاج الذين جاءوا إلى مكة للحج، بينما لا يمكن قبول وجود أي

¹ سورة إبراهيم: 19

² لسان العرب 335/4

³ راجع إلى "تدبر قرآن" للشيخ أمين أحسن الإصلاحي، 15/8

حاج في مكة من خارجها، فإن الحجاج كانوا يرجعون إلى وطنهم بعد الثالث عشر أو الرابع عشر من شهر ذي الحجة وقد وصل جيش أبرهة إلى وادي محسر في شهر محرم الحرام".

ويمكن الاعتراف بقوة اعتراض الشيخ إذا ثبت قطعاً أن واقعة الفيل حدثت في شهر محرم الحرام، بينما توجد الأقوال المختلفة عنها فيروى أن هذه الواقعة حدثت قبل ولادة الرسول ﷺ بأربعين يوماً وقيل أنها وقعت قبل خمسين يوماً وبالإضافة إلى ذلك يروى أنها وقعت تارة قبل خمس عشرة سنة، وتارة أخرى قبل عشر سنوات وتارة ثالثة قبل ثلاثين سنة حتى تجد أقوالاً جاء فيها أنها وقعت قبل ولادة الرسول ﷺ بأربعين سنة أو سبعين سنة.¹ فيرجح الشيخ الفراهي أحد هذه الأقوال ويكتب واثقاً ومعتمداً عليه "أن علماء السير يروون أن جيش أبرهة جاء في موسم الحج".² ولو لم يذكر مرجعاً له، ولكن لا يرجى أبداً منه أن يكتب قولاً لا أساس له، فيمكن أن المرجع كان موجوداً في ذهن الشيخ ولكنه لم يضبطه بسبب اعتماده على حفظه ويمكن أيضاً أنه قد أخذ هذه النتيجة من الأقوال والدلائل المختلفة أن هذه الواقعة حدثت في موسم الحج كما تشير أقوال العرب بنفسها فسوف تُذكر تفاصيلها متقدماً.

ولم نعثر على مرجع لقول الفراهي هذا بعدما كررنا مراجعة كتب السير والتاريخ ولكن الذين ذهبوا إلى أنها وقعت في شهر محرم الحرام قد نقلوها من روايات محمد بن إسحاق، ولا تكفي روايات رجل واحد لإثبات وقوع مثل هذه الواقعة الكبرى، علماً بأن إسحاق قد ضعفه العديد من علماء الرجال، فيقول العلامة الحافظ بن حجر العسقلاني رحمه الله عن محمد بن إسحاق في المجلد التاسع لـ "تهذيب التهذيب":

¹ راجع إلى روح المعاني 223/30، تفسير خازن 245/7، حاشية خازن على معالم التنزيل للبخاري

طبعة مصر، 1323هـ والدر المنثور، 395/6 وغيرها

² تفسير سورة الفيل، ص 52، 1937م

1. قال مالك، دجال من الدجاجة.¹
 2. وقال البخاري، أيضًا محمد بن إسحاق ينبغي أن يكون له ألف حديث ينفرد بها.²
 3. وقال يعقوب بن شعبة سمعت ابن نمير يقول..... وإنما أتى أنه يحدث عن المجهولين أحاديث باطلة.³
 4. وقال أحمد بن حنبل كان محمد بن إسحاق يدلّس.⁴
 5. وقال عباس الدوري عن ابن معين محمد بن إسحاق ثقة وليس بحجة.⁵
 6. وقال ابن المديني ثقة لم يضعه عندي إلا روايته عن أهل الكتاب.⁶
- وهذا هو السبب في أن العلماء والمفسرين وعلماء السير والتاريخ الحذرين يلزمون السكوت في هذه القضية وأما الذين ذكروه لم يصرحوا بالشهر، مثلاً يكتب الإمام فخر الدين الرازي وغيره:
- "لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول إلا نيف وأربعون سنة".⁸
- وعلى الرغم من ذلك يؤيد قول الفراهي هذا أن عكرمة بن هاشم بن عبد مناف قال في شعره بصراحة أن رجال أبرهة قد ذهب بعدد من الهدي:

¹ تهذيب التهذيب، ص 41

² المصدر نفسه، ص 42

³ المصدر نفسه

⁴ المصدر نفسه، ص 43

⁵ المصدر نفسه، ص 44

⁶ المصدر نفسه، ص 45

⁷ فقد ذكرنا هذه الأقوال فقط لكي يثبت هذا في الذهن أن جميع الروايات عن رمي الطير حجارة في واقعة الفيل رواها محمد بن إسحاق ولا يعرف راوٍ من قبله، ولو توجد أقوال عنه بكونه غير ثقة ومع ذلك توجد أقوال أيضًا عنه بكونه ثقة ولكن الإمام البخاري والأئمة الآخرين يعتبرونه غير ثقة.

⁸ تفسير الفخر الرازي، 97/32

العدد الخاص مجلة الهند

لاهُمَّ أَخْزِ الْأَسْوَدَ بِنَ مَقْصُودٍ الْأَخْذَ الْهَجْمَةَ فِيهَا التَّقْلِيدَ
بَيْنَ حِرَاءٍ وَثَبِيرٍ فَالْبَيْدِ يَحْبِسُهَا وَهِيَ أُولَاتُ التَّطْرِيدِ
فَضَمَّهَا إِلَى طَمَاطُمِ سَوْدٍ أَخْضَرَهُ يَا رَبِّ وَأَنْتَ مَحْمُودٌ¹

ونجد هذا الوضوح في بيان ابن جرير الطبري والمؤرخين الآخرين:

"ولما نزل أبرهة المغمس... وهمت قريش وكنانة ومن كان معهم بالحرم من سائر الناس بقتاله".²

ويجب التدبر في ألفاظ الرواية خاصة "ومن كان معهم من سائر الناس" وتدل القرينة على إطلاقها على ازدحام كبير ولا غير لا على عشرة أو عشرين رجلاً. وإن حدثت هذه الواقعة في شهر الحرام حينما انتهى موسم الحج وأغلقت الأسواق في مكة وضواحيها مثل عكاظ وذي المجنة وغيرهما فيثور السؤال هنا: من هم الذين قد جاؤوا إلى الحرم؟ وإنهم ليسوا إلا حجاج غير الآخرين، وإلا ما يعني "من سائر الناس"؟

وهناك نكتة أخرى تقتضي التدبر منا، فقد جاء في سورة الفيل "ألم يجعل كيدهم في تضليل"، فهنا أيضًا يثور السؤال عن نوع الكيد الخفي؟ فالرد عليه موجود في قول الفراهي التالي:

"أن القرآن صرح بكيد أصحاب الفيل، وما زعموا من مجيء أبرهة ليس فيه كيد إنما هو مجاهرة بالقدره وإرغام لجميع العرب، وأما على ما يستنبط من الروايات³ الموثوق بها فيثبت منه كيده من وجوه:

¹ تفسير سورة الفيل، ص 52

² تفسير ابن جرير، 301/30

³ يتضح من هذه العبارة أن الشيخ الفراهي ما اعتمد على الوقائع المذكورة في كتب التاريخ العامة بل إنه اعتمد على الروايات الأخرى، أخذ منها أن وقعت واقعة الفيل في موسم الحج، ولو يُعلم مأخذها بعد التحقيق فإن شاء الله نكتب عنه.

1. أنه جاء في الأشهر الحرم إذ ظنَّ أن العرب تمسك فيها عن القتال وحمل السلاح.
2. أنه أراد دخول مكة حين تخلَّوا من أهلها، وهم مع سائر العرب في حجِّهم.
3. أنه أراد الهجوم عليهم خاصة في أيام التشريق والعرب حينئذ إما واقفون بمنى أو مسرعون إلى أوطانهم بعد طول الشعث والكلال والسَّامة. وعلى هذا فانظر كيف ضلَّ الربُّ تعالى كيده:

1. إذ حبس جيشه ببطن محسر.

2. وإذ جعل للعرب سلاحًا من حجارة المحصب.

3. وإذ أرسل عليهم حاصبًا من السماء.

اتضح من هذه التفاصيل أن وقوع هذه الواقعة في موسم الحج أقرب قرينة وقياسًا لأنه لا يكون تأويلًا أفضل من هذا فلم يرجع نظر الشيخ الميرثي إلى نكتة "كيد" البلاغية فلم يناقش المراد من هذا اللفظ فلا نجد أي أثر لهذا الكيد الخفي في كتاباته، وقد ترجم الشيخ "الكيد" بـ"الخطأ" ولكن مع ذلك يبقى سؤالنا حتى الآن لأن الخطأ تنقسم إلى نوعين: خفية وظاهرة، وإذا ذكر الكيد أريد به الخطأ الخفية لا الظاهرة.

الاعتراض الثامن: يكتب الشيخ الميرثي في اعتراضه الثامن:

"بلغني أن الشيخ الفراهي قد درس كلام الشعراء والخطباء الجاهليين بإمعان وإن دراستها تفيد للمعرفة التامة للغة العربية، ولكن الصورة الأخلاقية للعرب الجاهليين التي ارتسمت في ذهن الشيخ الفراهي ليست بصحيحة فظن الشيخ أن العرب العاديين كانوا ممتازين عن مواطن البلدان الأخرى في الشجاعة والسخاء واحترام الذات وعزة النفس، فهذا باطل تمامًا، فلو وجد رجل أو رجلان في قبيلة يحظى بهذه الصفات السامية ولكن لم يكن العرب كلهم متحليين بها، فإنهم كانوا شجعانًا لقتل بعضهم البعض ولكنهم كانوا مرعوبين من الأجانب مثل الإيرانيين

والروميين والحبشيين والمصريين كما كان الهنود مرعوبين من الإنجليز خلال حكومتهم، وإنهم كانوا أحرص الناس وأبخلهم وما كانوا يرحمون أيتامهم دع المساكين منهم وكان شعراؤهم كاذبين جداً أيضاً.... فهذا القول بأن أصحاب مكة قد اجترؤوا على رمي الحجارة على جيش أبرهة باطل".

إننا نتأسف فنقول بأن اعتراض الميراثي هذا أيضاً نتيجة عدم معرفته بعادات العرب وأخلاقهم تماماً أو أنه يتجاهل عن الحقائق والوقائع المختلفة للعرب الجاهليين لكي يؤيد نظرياته الخاصة.

إن التاريخ المحفوظ عن العرب الجاهليين يفصل بالإجماع: "إن القريش وبني إسماعيل كانوا يعرفون بالفخر والحماسة والفروسية والمبارزة وتقدير القيمة والجدود والسخاء والاستضافة حتى اعترف أعداؤهم بصفاتهم هذه فلم يدع العرب أن تهتك عزتهم وينال من استقلالهم" فإنكار هذا الشرف المقبول بدون شهادة وتشبيههم بـ"ابن آوى" واتهامهم بالحرص والبخل الشديد جرأة كبيرة. ونقسم اعتراض الميراثي هذا في ثلاثة أجزاء:

1. القول بأن العرب العاديين كانوا ممتازين عن مواطني البلدان الأخرى في الشجاعة والسخاء واحترام الذات وعزة النفس، وكانوا مرعوبين من الأجانب مثل الإيرانيين والروميين والحبشيين والمصريين كما كان الهنود مرعوبين من الإنجليز خلال حكومتهم.

2. وإنهم كانوا أحرص الناس وأبخلهم وما كانوا يرحمون أيتامهم.

3. وكان شعراؤهم كاذبين جداً (الشيخ الميراثي)

فإننا سنقدّم الشواهد والدلائل من العلماء والمحققين والمؤرخين المشهورين مقابل كافة الدعاوي فأولاً نقتبس من كتاب "تمدن العرب" للعالم والمستشرق الشهير غوستاف لوبون والذي سيكفي راداً على الاعتراض الأول والثاني وإلقاء الضوء على وجوه العرب.

1. ولا يرجع ما علمناه من مؤلفات اليونان واللاتين من الأنباء الصحيحة عن تاريخ بعض جزير العرب إلى ما قبل الإسكندر، ويمكن تلخيصه فيما يأتي: عزم الإسكندر على فتح جزيرة العرب التي كان الأغارقة يعرفون غنى سكانها قبل الميلاد بأربعة قرون، وكانت الغزوة التي قام بها نيارك حول جزير العرب نذير تصميم الإسكندر على غزوها، ونجت جزيرة العرب من غزو الإسكندر بسبب موته،..... وشايح الأنباط بطليموس على أنتيغون الذي فتح أحد قواده الماهرين بلاد الحجر (بطرا) بغتة بعد أن أصبح سيد سورية وفنيقية، وأباد الأنباط بعدئذ جيش أنتيغون المؤلف من 4600 جندي فساق إليهم جيشاً بقيادة ابنه ديميتريوس، وخاطب عرب بلاد الحجر (بطرا) - كما روى ديودورس الصقلي - الأمير ديميتريوس عند بلوغه ديارهم بما يأتي: "لماذا تحاربنا أيها الملك ديميتريوس ونحن من سكان الصحارى التي لا تُسَدّ فيها خَلّة، ترانا نقطن في هذه البقاع القاحلة فراراً من العبودية.....ولكنك إذا رغبت في حصرنا حُرمت كل هناة، ورأيت عجزك عن إكراهنا."

هنالك رأى ديميتريوس أن يقبل هدية الأنباط، وأن يرضى بالمآب خاتماً بالسلم حرباً أبصرها مملوءة بالمصاعب.

ثم أثارت غاراتهم وقطعهم للسوابل غضب قياصرة الرومان الذين كان سلطانهم يمتدّ إلى الفرات، فجرّدوا على عرب بلاد الحجر (بطرا) حملات كثيرة لم تنتج غير حملهم على دفع الجزية أو وقف العداء إلى حين، وكانت طريقة أولئك الأعراب في الغزو مثل ما يفعلون اليوم

وإذ كانت خيالات الأغارقة والرومان تتأجج طمعاً في ثروة جزيرة العرب ساق أغسطس إلى اليمن جيشاً لم يلاق غير الحبوط التام، وفي عهد طيباريوس وحده استطاع الرومان أن يفتحوا بلاد العرب جزيرة سيناء التي كان سكانها من الأعراب تقريباً.

ظهر مما تقدم أن جزيرة العرب نجت من غزو الأجنبي خلا ما أصاب حدودها الشمالية وأن عظماء الفاتحين من مصريين وأغارقة ورومان وفرس وغيرهم ممن انتهبوا العالم لم ينالوا شيئاً من جزيرة العرب التي أوصدت دونهم أبوابها. إذن، من الصواب قولنا: إن القسم الأكبر من جزيرة العرب هو القسم الوحيد الذي لم تطأه أرجل الفاتحين من بلاد العالم المتمدن على ما يحتمل.¹

2. وقال ديفرجه: "قد يكون أظهر ما في الأعراب هو أنهم جماع الأضداد، فالنهب والكرم، والسلب والجود والقسوة والنبيل.... وغير ذلك من الصفات التي تدعو إلى المقت والإعجاب في وقت واحد مما نراه في الأعراب.... ومساوئ مثل هذه لا تُغتفر لولم يكن عند الأعراب من الفضائل ما يُشفع لهم به، ومن هذه الفضائل أن الأعرابي المحارب، المتعطش للنهب والانتقام، والذي يفعل عند مس كرامته ما لم تسمع به أذن من ضروب القسوة، مضيف كريم أنيس في مضربه، ومنها أن الهضيمن الذي يضع نفسه تحت حماية الأعرابي، ولو كان من أعدائه، أو الذي يصبح في جواره، يُعدّ من أفراد أسرته، فلا يستطيع أحد بعدئذ أي يعتدي على حياته المقدسة التي يدافع عنها ذلك الأعربي أكثر من أن يدافع عن نفسه، وإن ظهر أن هذا الغريب من أعدائه الذين تمتّى زوالهم مرة مرة.

3. وليس بمستبعد أن يأخذ الأعرابي المضيف جمل جاره طوعاً أو كرهاً ويصنع منه طعاماً ليمعن في إكرام ضيوفه، والكرم أفضل فضائل الأعراب، ويعدّه الأعراب أخص ما اتصفت به أمتهم".²

والآن حللوا الاتهامين للشيخ في ضوء القولين المذكورين أعلاه. وافصلوا بأنفسكم أقول الشيخ المبرّثي صحيح أم الاعتراف بالواقع من المؤرخين الذين يريدون أن يصوروا العرب والمسلمين والإسلام بحيث يتنفر الناس منهم وجعلوا يعتبرونهم

¹ حضارة العرب لغوستاف لوبون (ترجمة: عادل زعيتر)، ص، 95-97، 2012م

² المصدر نفسه، ص 75

حقيرين وقد قُدِّمَ هذان المقتبسان من الأجانب كشهادة فقط بينما ذكر في جميع كتب تاريخ العرب بحمية العرب وعزتهم وحلمهم وعلو همتهم وشجاعتهم وبطولتهم وفروسياتهم وضريرهم وحيهم للاستقلال وسخاءهم أيضًا واستضافتهم وحماية الجار وإعانة الفقراء والمساكين.

والآن نقدّم فقرة من كتاب "الشعر الجاهلي" للدكتور يحيى الجبوري أستاذ بجامعة قطر:

"وهذا الشعر الخصب الزاهي الجزل المتين، نزل من النفس العربية منزلًا رفيعًا فهو عند العرب سجل العواطف والمآثر والمفاخر، والشعر يصور حقيقة أهله ونفسية قائلية بكل ما لهم من بطولات وأمجاد، وبأس وشدة، وعصبية وغضب،، كرم ووفاء، يصور خصال الخير كما يبين دواعي الشر، ويسجل أيامهم ووقائعهم وأصولهم وأنسابهم، فهو على ذلك ديوانهم، ويقول أبو هلال العسكري: "وكذلك لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها وقائعها إلا من جملة أشعارها والشعر ديوان العرب وخزانة حكمها ومستنبت أدائها ومستودع علومها." ¹ فهم لذلك إذا اعتزوا بمكرمة أو نصر أو حادث سجلوا ذلك في قصيدة، فهي أبقى على الدهر من كل عمل، وأخلد من كل أثر، وهذه سنة العرب في تخليد مآثرهم، وفي حيوان الجاحظ: "فكل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك هو ديوانها." ² وكذلك ابن سلام: "وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون وقال عمر بن الخطاب: "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ³..." ⁴

¹ كتاب الصناعتين، ص 138

² كتاب الحيوان، 1/71-72

³ طبقات الشعراء، ص 22

⁴ الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه للدكتور يحيى الجبوري، ص 129-130، الطبعة الخامسة 1986م

هذه هي أقوال وآراء العلماء والأدباء عن الأشعار الجاهلية وأما قول عمر بن الخطاب عنها فهو أحكم فارق هل دعوى الشيخ الميراثي صحيحة أم ما قاله الشيخ الفراهي؟¹

الاعتراض التاسع: يكتب الشيخ الميراثي في اعتراضه التاسع الأخير:

"لو حدث هذا العمل الرائع على أيدي أهل مكة لذكر الشعراء القرشيون بافتخار وكرامة ولذكروا في قصائدهم عن شجاعتهم ذكرًا لا يسمع سواه. بينما لم يذكر هذا الأمر شاعر قرشي أو غير قرشي من ذلك العصر ولكنهم لم يشيروا إلى هذا".

لا شك أن الشعراء القرشيين لم يذكروا كثيرًا عن دفاعهم جند أبرهة ولكن ظهور الطيور جماعة على نفس الوقت ورميها بالحجارة على جماعة² خاصة وجعلهم كعصف مأكول ليس عملاً عادياً، فما ذكره الشعراء العرب أيضاً، لو يهلك جند أبرهة برمي الحجارة من قبل الطيور، فكما يعتبر الشعراء العرب هذا الحدث آية الله وقدرته فقط ويذكرونه كنصر من الله، ليذكر أيضاً هذا الحدث الغريب وغير المتوقع بل الأمر ليس كذلك، والأشعار التي ذكرها الشيخ الميراثي أو التي وردت في الكتب الأخرى فأتى فيها الشعراء بذكر الطيور والأحجار معاً ولكن ما جاء في أي مكان أن هذه الأحجار قد رمتها الطيور بل يعتبرون رمي الأحجار هذا نتيجة "حاصب" و"ساف" فيقول أبو القيس:

¹ ولا نعتي بذكر هذه الأقوال أبداً أن العرب ما كان فيهم عيب، فإنهم كانوا متصفين بالمحاسن إضافة إلى المعايير التي ذهب بها الإسلام عنهم، ثم أعطاهم سيادة الدنيا وقيادتها بسبب بركتهم وبصفتهم الذاتية وحصلوا على أمانة عظيمة تعني دعوة الإسلام بسبب سلامة فطرتهم وذكاءهم وجدارتهم الذاتية مقابل جميع الأقوام المثقفة العالمية، فإنهم كانوا مستحقين لها، ولو دُرست محاسن العرب ومثاليهم كطالب مع التدبر والتفكير فتتضح الحقيقة كاملاً بأن معظم معاييرهم بسبب تربيتهم غير الصحيحة، وهذا ليس عجباً، إذا لم تجد الأرض الخصبة البستاني البارح الذي يراعي حق الرعاية فينبت فيها النباتات مع الزهرة.

² وردت في تفسير ابن كثير: "فجاءت حتى صفت على رؤسهم، 551/1، ووردت مثل هذه الألفاظ في روح المعاني

فأرسل من ربهـم حاصب يلفهـم مثل لف القزم
ويقول أبو قيس بن أسلت الـثـري:

فلما أجازوا بطن نعمان ردهم جنود الإله بين ساف وحاصب¹

والسبب في عدم ذكر رمي الحجارة من الطيور ليس إلا أن هذه الواقعة لم تحدث.
وليس الأمر أن العرب لم يذكروا قتالهم، بل إن صيت قتالهم مع أبرهة طار في كل
مكان، وكتب بعض الشعراء أبياتاً مفتخرين به، وربما لا يدرك الشيخ الميرثي هذا
الواقع لذلك دعواه ليست بصحيحة. يقول ذو الرمة الشاعر القديم الإسلامي:

وأبرهة اصطادت صدور رماحنا جهاراً وعثنون العجاجة أكر
تنحى له عمرو فشكّ ضلوعه بنافذة نجلاء والخيل تضبر

اقرأ هذين الشعرين اللذين يصرحان أن رجلاً من قومه قد طعن أبرهة أيضاً وفي
اليوم الذي حدثت فيه هذه الواقعة كان الجوّ ذا غبار كثيف مرتفع إلى السماء،
ولكن لم تُذكر هذه الواقعة كثيراً لأن وقع رمي الحجارة الإلهية شديداً من الريح
العاصفة وراء رميهم حتى يضطروا إلى الفرار وهم الذين لم يقدرُوا على الفرار
فصاروا كعصفٍ مأكول، وكان هذا معجزة كبرى من الله المقتدر، فلم يقدر القريش
على تشتيت جند أبرهة الجرار فحسب بل هزموا هزيمة نكراء. فلذلك يعدّ شعراء
العرب هذه الواقعة نصراً من الله وقدرته وآيته ويشهد هذا على فهم العرب الأعلى
وأخلاقهم السامية صدق بيانهم ولكن الشيخ لم يقبله بدون شهادة.

وإذا لم تكن مخافة تطويل البحث فنقوم بذكر الأسباب من تفسير الإمام الفراهي
التي كانت في تفسير "ترميمهم بحجارة من سجيل" فاعتمد في التأويل والتفسير على

¹ وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم، وأراد المفسرون منه ريحاً شديدة تحمل الحصى
والحجارة وأما اللفظ "ساف" فلن يراد به الطيور لأن "سافي" يقال لريح حملت من التراب
والغبار والعشب والأوراق الجافة من الشجر.

العدد الخاص مجلة الهند

الروايات كما يقول الشيخ الفراهي: "لم يثبت من جهة السند، فإن كل ذلك لا يجاوز ابن إسحاق، ومعلوم عند جهابذة أهل الحديث أنه يأخذ الروايات من اليهود وممن لا يوثق به." والله أعلم بالصواب.

العلامة الفراهي والشعر الشرقي

- د. سيد عبد الباري¹

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري²

كان العلامة حميد الدين الفراهي من أهم الشخصيات من القرن الهجري الماضي والذين بلغوا أعلى المراتب في تفهيم القرآن الكريم وتفسيره. ولا يمكن نسيان ما قاموا به من دور بارز في شرح وتوضيح كلام الله بالنظر إلى قضايا العصر الحاضر وفكره. ولكن بجانب ذلك فقد ترك العلامة الفراهي علامات في مختلف الفنون والعلوم يستنير بها الباحثون في الوصول إلى أهدافهم في البحث والتحقيق. ويمكن أن نرى مهارته في علوم اللغة العربية وآدابها في كتاباته المختلفة. ولا أتحدث في هذه المقالة عن خزائن الفكر التي منحها الفراهي للعلماء والصوفية والداعين إلى كلمة الحق، والمفسرين والفقهاء، وأصحاب التعليم والتعلم، إنما أريد مناقشة أفكاره عن الشعر الشرقي ضمن علم البلاغة والبيان الذي يبدأ من الشعر والنقد اليوناني القديم، وما يتنه من آراء ونقاط للتفكير والتدبر فيها.

كتب العلامة شبلي النعماني في تعريفه لكتاب "جمهرة البلاغة" في العشر الأول من هذا القرن الميلادي: "إن هذا الكتاب مفيد وضروري في هذا العصر كضرورة الماء الزلال للعطشان المهلوك" وقد بينت في هذه المقالة أهمية بعض من جرعات هذا الماء الزلال.

يتأسف العلامة الفراهي عند بيانه لنظم القرآن وبلاغته وإعجازه على أن علماء البلاغة الفرس والعرب قاموا بوضع فن ناقص باسم الفصاحة والبلاغة. وقام

¹ رئيس قسم اللغة الأردوية سابقاً، جامعة أوده، فيض اباد، أوتارا براديش (الهند)

² مشارك في التحرير وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

الجميع بإثبات فصاحة وبلاغة القرآن على حسب هذا الفن الناقص. وقد وضع الفراهي قواعد جديدة للبلاغة والفصاحة وانتقد بشدة القدماء وكذلك الضوء الذي سار القدماء على أثره أي أرسطو. كان الفراهي يتأسف على عدم وجود مقياس يعتد به لفهم الكلام في الماضي، وضل أغلب الناس بأفكار علماء اليونان. وكان يتمنى من صميم قلبه أن يتم ترتيب وتدوين شعر العرب وأن تكون هناك محاولات جادة لتقدير الشعر والكلام على أصول سليمة بدل الشعر اليوناني الذي أقبل عليه البشر في الشرق والغرب. استنبط أرسطو أصول الشعر والبلاغة من كلام شعراء اليونان، ووجدت نماذجه التي يقاس عليها عند هومر وسوفاكليس. وكان الفراهي يعتقد أن أساس الشعر لدى هذين الشعاعين قام على القصص والحكايات الخيالية. كان أغلبها من صنع الخيال لا يمت إلى الحقيقة بصلة، بل كانت مبنية على الروايات المنسوبة إلى الأصنام. فبين العلامة أن أرسطو اعتقد بأن جوهر الكلام هو صورة حقيقية لحادثة ما، ولا يهم إن كانت الحادثة حقيقية في نفسها أو خيالية. وهذا يعني أنه إن كانت الحادثة حقيقية أو خيالية لكنها ذكرت بحيث شاهدها العين في صورتها، حصل المراد من حسن الكلام. ثم حاول أرسطو أن يربط بين الذوق الإنشائي للشاعر وفطرة الإنسان، بمعنى أن التقليد فطرة في البشر منذ الصغر، ولذلك يتفوق على الحيوانات الأخرى لأنه أكثرهم تقليدًا، وبهذه الفطرة يحصل على تعليمه الأولي. وهكذا يحصل لجميع بني آدم.¹

أنكر الفراهي نظرية المحاكاة لأرسطو، وبين أن الادعاء بأن الإنسان يملك أكبر قدر من فطرة المحاكاة ادعاء خاطئ لا أساس له من الصحة. ويعتقد الفراهي أن "الطفل الذي يحاكي والده وأمه وشقيقه في الأقوال والأفعال ليس بأنه توجد فيه صفة المحاكاة بل لأنه توجد فيه صفة إنسانية على وجه أتم منذ ولادته، وهذه

¹ بوطيقا (كتاب الشعر لأرسطو) ترجمة: عزيز أحمد، ص 39

الخصائل تظهر بالنماذج والأمثلة. فكما أنَّ الطفل يبدأ يحصل غذائه من الرضاعة بعد ولادته مباشرة بدون أن يرى أحدًا يفعل كذلك لأن الله سبحانه وتعالى أودع في نفسه خصلة فظهرت تلك الخصلة على وقت معين، فكذلك خصائل الإنسان جميعًا هي تظهر حينًا بعد حين. وتحصل هذه الخصائل على الحركة والقوة من النماذج والأمثلة ولا دخل للمحاكاة في ظهور هذه الخصائل".¹

وأشار الفراهي إلى أخطاء أخرى لعلماء اليونان وخاصة أرسطو في فهم حقيقة الشعر ومكانته، كانت وظيفة الشعر في عهد أرسطو في يونان هي إثارة المشاعر في المجالس الفكاهية، وكان أغلب الشعراء ينظمون شعرًا فكاهيًا، لذلك كان تصنيع الكلام والكذب ينسب إلى الشعراء، ولذلك يلقيهم أفلاطون بالكاذبين، والمثيرين للمشاعر، وأصحاب التقليد من الدرجة الثانية. ويدعو إلى إخراجهم من دولته حتى لا يفسدوا على الناس أخلاقهم. ولو أن أرسطو يستخدم قلمه للدفاع عن الشعر ويرد على ما اعترض عليه أستاذه أفلاطون، إلا أنه يخطئ في بيان مكانة الشعراء الأصلية، ويجعل الهدف الأساسي للشعر هو الاستمتاع به متأثرًا بأجواء مجتمعه. ويجيز ترك بيان الحقيقة والنقص أو الإضافة إلى الحدث من أجل الحصول على المتعة. وينكر الفراهي على سوفاكليس ردّه على معترضيه، حيث اعترضوا عليه بأن تصويره لعادات وأخلاق الناس غير مطابق للواقع، فرد عليهم بأنه صوّره كما يجب أن يكونوا وليس كما هم في الحقيقة. وقد اتخذ أرسطو من وجهة النظر هذه أساسًا لمعنى الشعر والأدب عنده، وبذلك فتح باب تشويه الحقيقة والأساطير الكاذبة في الشعر. وجدت هذه الأساطير أساسًا نظريًا لها، واتخذ الناس نظرية أرسطو هذه لتكون أساسًا ومقياسًا لتقييم الشعر في الشرق والغرب لفترة طويلة من العصور التاريخية. يشير إلى ذلك الفراهي بقوله: "أحسن الشعر أكذبه أي مهما يكن الشعر مشتملاً على الكذب يكن أحسن وأجود مع أنه

¹ تلخيص "جمهرة البلاغة"، مقالات شبلي، الجزء الثاني

وجدت مواد جيدة في الثروة الأدبية في العهد الإسلامي لنقاد الأدب العربي لفهم وتفهم الشعر بخلفية أفضل. وكان الشعر في العهد الجاهلي قريبًا جدًا من الصدق والحقيقة. وكان يؤدي دورًا جادًا ومهمًا في المجتمع بدل الترفيه والمتعة.

وقد اعتبر الفراهي نظريات أرسطو في البلاغة ضالة للأجيال القادمة، ولأن أرسطو اعتبر الفنون الجميلة والأدب نتيجة للتقليد والمحاكاة، فقد أصبح الأدب في شعره ما يتم تصويره، وقرّر أن يكون من مهام البلاغة الأولى أن تذكر المضمون كما كان، أي أن الهدف الأساسي للمحاكاة عند أرسطو هو بيان الخيال والمطالب بحسنها وصحتها. ولا يهيمه إن كانت هذه الأفكار رائعة أو فاسدة ومكروهة. وكان من أضرار هذه النظرية على الأدب أن الاهتمام الشكلي أصبح من الأمور المهمة، وقد تأثر بذلك كثير من أصحاب الفكر في الشرق والغرب. ويكتب الناقد العربي الشهير قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر: "إن قبح المضمون وفساده لا يؤثر في جودة الشعر" أي مهما يكن المضمون، فإن ذكره بالحسن والجودة من مسؤوليات الفنان. ومن الطريف أن العرب في العصر الجاهلي لم يهتموا بالشكل قدر اهتمامهم بالمعنى، وكان ينظر إلى أي مدى حافظ الشاعر على ضوابط وتقاليد قبيلته. ولكن بعد تقبل أثر أرسطو فقد اعتبر علماء الإسلام كذلك التشبيه والتمثيل روح البلاغة الأصلية. إن التشبيه نوع من التصوير. ويذكر عبد القاهر الجرجاني في "أسرار البلاغة" أن أهم مسائل البلاغة متفرعة من التشبيه. ثم عندما تقدم الأمر خطوة أخرى واعتبرت الاستعارة جمال الشعر غادرته الواقعية، لأن كل ذلك مبني على الكذب والمبالغة على حسب قول الفراهي. واعتقد علماء الإسلام أن الكذب يرجع على الصدق في الشعر. وهكذا اعتبر الكذب والمبالغة جوهر البلاغة والشعر. وتأثر بهذه العاصفة الهوجاء الشعر العربي والفارسي والأردي لفترات طويلة. ويعتبر صوت الفراهي أول نداء احتجاجي رفع ضد هذه العاصفة. فكان أول من حاول أن ينجي العالم عن الطريق الذي

وضعه عليه أرسطو في ميدان النقد ويرشدهم إلى الطريق السوي. وكان من اعتقاده أن الشعر يجب أن يلتزم بالأخلاق الفاضلة في كل الأحوال. إن القوة الابتكارية للفنون اللطيفة وخاصة الشعر ليست فطرة التقليد والمحاكاة، والهدف من الأدب ليست المتعة والترفيه، كما أن المعنى أكثر أهمية من اللفظ.

إن حقيقة النطق والبلاغة عند الفراهي هي أن الإنسان يمتاز عن المخلوقات الأخرى بصفة النطق. والنطق ليس صوتاً أو لهجة أو لحنًا، إنما النطق يطلق القوة التي تعبر عما يجول في الخاطر. إن الإنسان يفكر ويتدبر بالعقل، وعندما يريد العقل أن يظهر هذه الأفكار فإنه يستعين بالنطق. فالنطق آلة العقل. ويعتبر الفراهي أن المحاكاة تكون نتيجة النطق. فإن لم يكن هناك النطق، لم تكن المحاكاة. ومن كمال النطق أن يعبر عن الأفكار بالصحة والجودة، وأن تكون الأفكار نفسها رائعة وصحيحة. وهكذا تفوق المعنى على اللفظ وكذلك طريقة البيان على المضمون عند الفراهي. وفي رأيه قد يحجب اللفظ المضمون أحيانًا، أما في موضع آخر فقد يشق المضمون هذا الحجاب ويخلب اللب. وقد دعا إلى ضرورة توسعة الأفق والنظرة الثاقبة المدركة للحقيقة بدل الإعجاب الظاهري. وإن حسن الكلام لا يتقيد باللفظ في أي حال من الأحوال. إن فكرة الفراهي بأن الأصل في الكلام هو المضمون وليس اللفظ قد منحت الأساس الذي وقف عليه علم البلاغة. معنى كلمة "بليغ" في اللغة هو الوصول، وما يصل إلى القلب هو المعنى وليس اللفظ كما يتضح من الشعر التالي:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً
وكما يقول الشاعر الأردوي أكبر:

اثر هو سننے والے پر بلاغت اسکو کہتے ہیں

ترجمة: إن البلاغة هي أن يتأثر السامع بما يسمع

وطبعًا لا يكون التأثير إلا إذا كان المضمون مؤثرًا. ومن الغريب أن علماء البديع والبيان نسوا أو تناسوا في اتباعهم لأرسطو أن المضمون الفاسد ولو لفق بألفاظ فصيحة فإنه لا يأخذ مكانه في القلب. وقد بنى الفراهي أسس البلاغة من جديد واعتبرها اليد المساعدة للعقل، وعنصر الإنسانية، و مترجم الحقيقة، وتاج الفخر. ووجهنا بنفسه إلى مكونات وأصل الشعر وأساسه، إن الشاعر يكون صاحب مشاعر، والمشاعر مليئة بالأحاسيس. وهكذا منح الفراهي أهمية أكبر لشخصية الشاعر وقلبه ونظيره من اللفظ والبيان. إن الخبرة تأتي من عمق النظر في الحياة، وكون إحساس الإنسان ذا وقار يعتمد على قلبه. وإذا تدبرنا كيف يتولد النور في النظر والقلب، وكيف تصبح الشخصية شاملة لجميع الصفات، لأصبح واضحًا علاقة الشعر بالأخلاق الفاضلة. إن الشخصية تحمل المكانة المركزية في تشكيل أي فن من الفنون، فكذلك تعتمد جودة الشعر أو رداءته على التكوين الذهني للشاعر. والآن ننظر إلى الآثار التي تركتها الأخطاء التي صدرت من أرسطو في مجال الشعر على النقد الأدبي في الشرق والغرب، وقد أشار إليها الفراهي وبين أنها كانت السبب في عدم تطور الشعر على الأسس الصحيحة، وحتى النقاد الذين كانوا يشتغلون بالشعر لم يسلموا من الخطأ والسهو.

إن نقادنا أبدوا كثيرًا من الآراء الفلسفية بشأن نظرية أرسطو القائلة بالمحاكاة. وكانوا مطمئنين بأن أرسطو قد ربط بين شيء فطري أي عملية التقليد بعمل ذهني وعاطفي وعقلي أي الإبداع والابتكار. وكانوا مسرورين من أن صلة الفنون الجميلة قد انقطعت عن الأخلاق. كما يكتب أسكات جيمس: "قد خلط أفلاطون بين الفنون الجميلة والأخلاق، وفصل بينهما أرسطو ووضع الأسس للفنون الجميلة".¹

¹ Making of Literature by Scott James, P. 591

كان من خطأ أفلاطون أنه قرّر أن الدنيا أي العالم السفلي تقليد للعالم المثالي، والفنون الجميلة هي تقليد التقليد، أي أشياء من الدرجة الثالثة. وقد استنتج من الشعر في عصره أن كل تقليد شعري مضر لمن يسمعه أو يقرؤه، ومعرفة حقيقته هو العلاج الناجع للرد على ذلك.¹

وكما يذكر حامد الله أفسر: "أعطيت أهمية كبرى للمواد واعتبر الأخلاق صفة لازمة لها ولم يهتم بأسلوب البيان والترويه فكان الأدب محصوراً لديه في مدى صدق انعكاس الأشياء المادية والخارجية التي هي موضوعها عليه.²

كان أرسطو يفكر بأن يقف الشعر على أساسه بنفسه، وقرّر أن الشعر فن بذاته والذي يكتسبه صاحبه بالتدريب والممارسة. ويعين الأسلوب وطريقة البيان شخصية الشاعر الفنية. وبين أرسطو كذلك أن التاريخ يوضح حقائق خاصة، أما الشعر فيرتبط بالحقائق العامة. وكما يقول عزيز أحمد: "قد تأثر الشرق بهذه الجملة الوحيدة أكثر من أي قاعدة نقدية، فكل الشعر الشرقي سواء كان فارسياً أو تركياً أو أردياً فضل التعبير العام بسبب أخذهم فكرة أرسطو، ولم يعر اهتماماً للأحاسيس والمشاعر الشخصية، أو الأحداث الخاصة. فإذا تميز شعراء المشرق فيما بينهم فذلك يعود إلى اختلاف أساليب البيان واللغة أو الخواص الشعرية الأخرى، أما المضامين فمرتبطة وقائمة على التقاليد العامة التي كانت موضوع الشعر الشرقي منذ قرون.³

ومن الطريف أن المهرة من العالم الإسلامي كانوا متأثرين بعلماء البيان من اليونان من جهة، ومن جهة أخرى فقد تأثر العرب والعجم كذلك بالأفكار الفلسفية

¹ قديم أدبي تنقيد لوهاب أشرفي، ص 62

² نقد الأدب، طبعة نولكشور، 1921م، ص 46

³ بوطيقا، ترجمة: عزيز أحمد، ص 19

لليونان. وكما يقول حالي: "انتشرت أفكار بطليموس وأرسطو في كل مكان، وبدأ الإلحاد الديني يأخذ مكانه من قلوب الناس، حتى بدأت الاعتراضات على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة".¹

كما سبق الذكر فإن العرب في الجاهلية لم يكونوا يولون اللفظ اهتمامًا كبيرًا، وكانوا ينظرون إلى المعاني أثناء النقد، وكانوا يراعون كذلك تطابق ما قاله الشاعر بعقيدة القبيلة والتقاليد السائدة في المجتمع. وكانوا يرجحون الشاعر الذي يتصف بالإثارة ويعبر عن عواطفه ومشاعره بصدق.²

ولكن وبأثر من بوطيكا انحرف النقد العربي عن هذا الموقف. فقد أجاز أرسطو تصوير وبيان الأمور القياسية المستحيلة الحدوث، وتقدم شعراؤنا في مجال المبالغة هذا حتى أنهم جعلوا الأمور غير القياسية المستحيلة الحدوث محورهم. وركز قدامة بن جعفر على بعض الأمور غير القياسية المستحيلة في بعض أصناف الشعر. ووافق ابن المعتز وابن حجة الحموسي اليونان فيما دعوا إليه. وعلى حسب قول الدكتور عبد الله فإن الكذب في الشعر يعني أنه يخالف الواقع الحقيقي. ويذهب مذهب قدامة النقاد اليونان في هذا الأمر.³

وقد أوصل قدامة الشعر إلى درجة أنه إذا ذكرت معان فاسدة وسيئة في الشعر فإن ذلك لا يؤثر على جودة الشعر.⁴

وجعل عبد القاهر الجرجاني كذلك الشعر وسيلة للاستمتاع والترفيه، فنسمع صدى آراء أرسطو وراء هذه الفكرة، والذي ادعى بكون الشعر محاكاة وهدفه

¹ مقالات حالي، أنجمن ترقى أردو، 1982م، 37/1

² أردو تنقيد كا ارتقاء (تطور النقد الأردوي) للدكتور عبادت البريلوي، ص 69

³ إشارات تنقيد، ص 227

⁴ مقالات شبلي، 21/2

الحصول على المتعة. وتأثر الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" بأرسطو وجعل كلمة الحكاية مرادفة للتمثيل والتقليد.¹

بالإضافة إلى ذلك فقد بنى كل من ابن قتيبة، والباقلاني، وابن رشيق، وابن المعتز، وابن خلدون أفكارهم على أساس من الآراء اليونانية غير الصائبة. وقد اعتقدوا الشعر بأنه تصوير فجعلوا روح الشعر في التشبيه والتمثيل. وأكبر خسارة لحقت بالشعر أنه لم يعد يحمل رسالة، إنما انشغل أدباء الشرق والغرب منا في خلق أدب لأجل الأدب وتاهوا في هذا الوادي السحيق. كان اليونان يؤمنون بقضية الأدب من أجل الأدب، وحسب قول حامد حسن القادري فإن نقاد العرب القدماء يقولون بالأدب من أجل الأدب اتباعاً لهم. إنهم يمنحون أهمية كبيرة للأسلوب وطريقة البيان في الشعر والأدب، وأوجدوا نقاطاً دقيقة في علم البيان والمعاني، والغريب أنهم لم يستهدوا بالقرآن الكريم الذي دعا إلى الصدق وذكر الحقائق بدل الكذب والمبالغة، وركز على أن يكون الشعر والفنون الجميلة الأخرى وسيلة للهداية والخير.

والطريف أنّ علماءنا لم يكتفوا باتباع أرسطو وأفلاطون في الشعر والأدب فقط، بل تجاوزوا إلى تقليدهم في الفكر الأساسي للحياة والكون. وحسب قول شبلي فإن علماءنا المتواضعين ينادون بكون التوازن والاعتدال أساساً من أساسيات الحياة متأثرين في ذلك بأرسطو وأفلاطون. فإنهما قد جعلتا الاعتدال والتوازن اللطيف بين الخير والشر في الحياة حسنة، فالناس ليسوا بالأخيار ولا بالأشرار، إنما يستخدمون وسائلهم بطريقة صحيحة فتولد الحسنة، أو بطريقة خاطئة فتولد السيئة.²

ونرى النقد الفارسي يتبع النقد العربي، فإذا نظرنا إلى كتب النقد الفارسي مثل "حدائق السحر في دقائق الشعر" لرشيد البلخي، و"المعجم في معايير أشعار

¹ إشارات تنقيد، ص 234

² مقالات شبلي، 45/7

العجم" لشمسي قيسي الرازي، و"لب الألباب" للعوفي، و"إعجاز خسروي" لخسرو، لرأينا تأثرًا بآراء النقاد العرب. ونجد تفاصيل متناثرة لقضايا اللفظ والمعنى، والصنعة والبديع، والفصاحة والبلاغة، والنظام النقدي لعلم العروض وغير ذلك. ونلاحظ وجود العروض ومقاييس لقياس المحاسن الظاهرة والأسلوب والهيئة، والتركيز على اللفظ والصنعة أكثر من الجودة في المعنى. وكأن سحر محاكاة أرسطو قد وصل إليهم أيضًا. بمعنى من استطاع تصوير المنظر بطريقة جيدة يعتبر الفنان الأفضل، لأن الصورة التي تكون طبق الأصل تسر بالنظر.

عندما بدأ الأدب الأردني والنقد كان الأدب العربي والفارسي قد ذاع صيتهما، وتطور النقد الأردني في ظلّهما. وتقرر أن الجمال والزينة الظاهرية هي أكبر ميزة للشعر، ولم يتم مناقشة الفكر والخيال واللب والموضوع إلا نادرًا. ومدحت طريقة البيان أكثر من المعنى والمضمون. ولم يناقش نقادنا فكر الفنان أبدًا. ولم يكن من اهتماماتهم إن كان المعنى جادًا أو العكس. وقرروا أن من أهم مقتضيات الشعر أن يكون خاليًا من التكلف ومرصعًا بالتشبيه والاستعارات، وتكون لغته بسيطة، وحبكته محكمة، ويؤدي معاني كثيرة في كلمات قليلة. وكان قدماؤنا قد أخذوا بأسلوب البيان لدرجة أنهم كانوا يتسرعون في مناقشة التقيد بمبادئ الفصاحة والبلاغة، وصحة الأمثال، وتصويب الوزن والقافية. وكان أكبر دليل لديهم على ذلك هو أن أساتذة اليونان أمروا هكذا. والطريف أنه لم يتم تقديم غير ما كتبه النقاد اليونانيون عن هدف الشعر والأدب وذلك بعد تحريفه قليلًا. يقول محمد حسين آزاد: "إن فلاسفة يونان يقولون بأن الشعر أحاديث خيالية، ولا صلة لها بالحقيقة والواقع، فالأفكار التي تولد لدى الشاعر بعد رؤية الموجودات والأحداث الطبيعية، يقوم بذكرها في الموضوع المناسب، وليس من الضروري أن يعبر هذا الخيال عن الصدق والحقيقة".¹

¹ آب حیات، 1963م، ص 85

مع أنه لم يتم ترك الواقع والحقيقة إلى هذه الدرجة في اليونان، وربما تأثر آزاد بنظرية أرسطو في المحاكاة، ولذلك تخلص عن تيار الأدب الإصلاحي والمفيد في عهد السير سيد أحمد خان، وركز مرارًا على طريقة الأسلوب والبيان، ولا يدخل إلى عالم الفكر والخيال الخاص بالشاعر. وكذلك إمداد إمام الذي لا يستطيع أن يجنب نفسه من كلمة المحاكاة، ويقدم هذه الكلمة التي تم مضغها مرارًا بطريقة تجعلنا نتأسف على الفكر المغلوب لقدمائنا. يقول: "إن الشعر هو المحاكاة الصحيحة لرضا الخالق والتي تظهر بكلمات أو معان، والمراد برضا الخالق هو فطرة الله، والمراد بفطرة الله القوانين الطبيعية التي نفذت حسب رغبة الإله، وعلى أساسها تطور العالم الداخلي والخارجي، ومن الضروري لمن يكون شاعرًا أن يقوم بمحاكاة رضا الإله بصورة كاملة عن طريق ألفاظ ذات معنى".¹

وكان من كرم أرسطو أنه أوصل الشاعر من مرتبة الإدراك إلى مرتبة المحاكاة. ومن الضروري أن نذكر هنا ما قاله عن المحاكاة. يقول: "إن الشعر الملحي والتراجيدي وكذلك الكوميدي وفن تأليف الديرامبيات وغالبية ما يؤلف للصفر في الناي واللعب على القيثارة، كل ذلك بوجه عام، أشكال من المحاكاة".²

ويذكر أطفاف حسين حالي نظرية أرسطو عن طريق ميكالي، ويشعر بالفخر وهو يقرر بأن الشعر محاكاة، وميكالي أيضًا يؤمن بنفس الفكرة، إلا أن حالي يضيف إلى ذلك الخيال، ويعتبره القوة التي تعطي صورة جديدة لذخيرة المعلومات والتجربة والمشاهدة الموجودة في الذهن من قبل، وذلك بعد ترتيبها مرة أخرى.

فيكون الشاعر، عند حالي، مقبولًا بناءً على سحر بيانه، ولكنه يربط الشعر بالأخلاق، فيعتقد أن هذا هو السبب في اعتبار عملية السماع القائمة على الشعر وسيلة للتقرب إلى الله وتزكية النفس والباطن عند سلسلة معروفة لدى علماء الصوفية.

¹ كاشف الحقائق لإمداد إمام أثر، ترتيب: وهاب أشرفي، ص 51-52

² بوطيكا، ص 42-43

المهم أن حالي كذلك يقف في صف النقاد اليونانيين بعد ربط الشعر بالعاطفة وجعله وسيلة للحصول على الفرح والسرور، ويستسلم بنظرية أرسطو التي تدعي بأن الشعر يخمد الشر في النفس الإنسانية ويعاون على التقرب إلى الإله.

ويعتبر شبلي الناقد الوحيد الذي أيد حميد الدين الفراهي في أفكاره وجميع نقده الذي وجهه إلى أرسطو في مجال الشعر، ولكنه أيضاً لم يتمكن من تخليص نفسه من سحر أرسطو. وكما يقول الدكتور شميم أطهر الصديقي فإن شبلي ينتقد أرسطو ولكنه يستسلم لأفكاره عندما يأخذ نفس النظريات الفنية قصداً أو من غير قصد عن ابن رشيقي، والفارابي، والطوسي، والجرجاني وغيرهم. فهو يعترض على أرسطو ولكنه يظهر من خلال كتاباته أنه إذا وقع خطأ في اختيار المضمون الجيد فذلك لا يؤثر على جودة الشعر. ويؤيد شبلي المبالغة مع أنه يعارض الكذب، أي يجب أن تكون المبالغة داخل الحدود القياسية. وكذلك أرسطو يؤيد المبالغة ويقول بها داخل دائرة قانونية للزوم والاحتمال. ولا يؤيد شبلي كون الشعر محاكاة بحتة. فيقول في شعر العجم: "إن الشعر في رأي أرسطو نوع من التصوير، والفرق هو أن المصور لا يصور إلا الأشياء المادية، أما الشاعر فيمكنه أن يصور الأفكار والمشاعر والأحاسيس".¹

وكذلك أسكات جيمس الذي يعتبر محاكاة أرسطو البناء الخيالي الجديد للحياة.² يعتبر شبلي الخيال حامياً للمحاكاة، والنطق سبباً لقرض الشعر، ولكنه لا يهتم كثيراً بالنطق والفؤاد، وفي النهاية يستسلم بكون المحاكاة أقوى عاطفة للإنسان حيث تغلب عليه وتجري الأشعار الموزونة على لسانه. بالإضافة إلى ذلك فهو يؤيد مفهوم الشعر التقليدي بأنه الكلام الذي يثير العاطفة ويحركها. وهذا هو

¹ شعر العجم، 1973م، 11/1

² Making of Literature, P.53

اعتراض أفلاطون على الشعر، فكيف يمكنه أن يصل إلى الحقائق الأساسية وهو يتطور على بناء من المشاعر المثارة. وشبلي يوافق أرسطو في فكره الأساسي بأن هدف الشعر هو الحصول على المتعة والسرور. فيكتب عن الشاعر: "إنه لا يدعي بأنه يعلمنا قضية ما، إنما يريد أن يفرحنا".¹

ومن الغريب أن يقتنع شبلي بهذا المستوى السطحي للفكر المتعلق بالشعر، لأنه ارتبط بالحركة الإصلاحية للسير سيد أحمد خان لفترة طويلة، ومدح الماضي العريق الذي امتاز به الشرق، وكان يعتبر الدين والأخلاق من العناصر الأساسية لبناء شخصية الفرد. مع أنه يقدم أشعار الشاعر الجاهلي الشهير زهير بن أبي سلمى عند عرضه لكتاب "جمهرة البلاغة" للفراحي وذلك لتأييد كلامه. فقد انتقد زهير بشدة الكذب والمبالغة وعبدة السجع والقافية الذين لا يؤيدون الحق والمعروف، وهكذا قرّر بأن الشعر ليس وسيلة لإدخال السرور على النفوس، إنما هو سبيل نصرة الحق والمعروف:

وذي نعمة تمتتها وشكرتها وخصم يكاد يغلب الحق باطله
دفعت بمعروف من القول صائب إذا ما أضل الناطقين مفاصله
وذي خطل في القول يحسب أنه مصيب فما يلزم به فهو قائله
عبأت له حلمًا وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله
ففي رأي حالي اعتمد الشعر سواء كان شرقيًا أو غربيًا على اللفظ منذ ألف سنة الماضية، ولم يظهر أسلافنا أي نوع من الاجتهاد والفكر الداعي إلى التغيير. والصوت الوحيد الذي رفع لإخراج الشعر من نظرية المحاكاة وسحره في الشرق والغرب هو صوت حميد الدين الفراحي الذي يحاول أن يأخذ بيد الشاعر إلى منزلة الرسالة والسفارة للعقل، ويجعل التفكير والتدبر والبحث عن الحق من

¹ شعر العجم، 10/4

لوازم الشعر بدل المحاكاة، ويعد جلاء القلب والنظر، وسمو الفكر والخيال، والإخلاص من الصفات الأساسية لدى الشاعر بدل الترصيع والتنميق والاهتمام بالشكل. ويريد أن يجعل من الشعر وسيلة للإبقاء على العاطفة الصادقة في هذا العالم المليء بالأنانية. ولا يمكن نقد الحياة في الشعر إلا إذا أدرك الشاعر الأهداف الصحيحة لفن البلاغة بجانب علمه بأسلوب البيان. ولهذا حاول الفراهي أن يمهد الطريق الواضح للبلاغة. وأولى اهتماماً أكبر للفكر الصالح من اللفظ في الكلام. فلا يمكن أن يكون الكلام بليغاً يمس أوتار القلوب إلا إذا كان الفكر صالحاً. فإذا كان هدف الكلام سفارة العقل فمن الضروري أن لا يترك الأديب طريق الحق والصدق. يكتب عروج القادري: "كان العرب لا يسمون من عبّر عن نفسه الخبيثة في كلامه بليغاً، ولا الذي يكون كلامه مهمّاً، كان الفرد من هذا القبيل يطلق عليه عاجزاً عن الكلام".¹

ويوضح الفراهي في "جمهرة البلاغة" بالتفصيل أن العرب في الجاهلية كانوا يمدحون الشعر بناء على جودة المعنى، وكان الذم نصيب الأشعار ذات المعنى البذيء أو الفاسد مهما بلغت من الحبكة الفنية. ولذلك لقّب امرؤ القيس بالضلّيل لأنّ كلامه حمل بعضاً من الفحش والبذاءة. ففي رأي الفراهي يكون التشبيه لتوضيح المعنى وشرحه، وليس فقط لإيجاد الجمال في الكلام. ويشكو الفراهي إفراط وتفريط القدماء في هذا الأمر. ويتأسف على أن الكتب التي ألّفت لتفهيم بلاغة القرآن قدّمت حقيقة التشبيه والتمثيل بصورة سيئة، مما أدّى إلى فساد أذواق الخاصة والعامة.

على كل فإن أفكار الفراهي عن مكانة الشعر وحقيقته وعن رموز البلاغة تعتبر تجديدية وفيما سبق من السطور ذكرنا أنّ الفراهي انتقد لأول مرة وبشدة

¹ مجلة "دانش" الشهرية (الافتتاحية)، سبتمبر 1956م

الأخطاء التي ارتكبت من قبل مهرة الشعر من اليونان وتعيين مكانة الشعر في الغرب عامة وفي الشرق بشكل خاص. والضرورة قصوى لمزيد من الشرح والتوضيح لما قاله الفراهي، والتدبر في الموقف الذي اتخذته القرآن من الفنون اللطيفة وتعيينه لحدود البلاغة. وذلك حتى يمكن تعيين ملامع الشعر الإسلامي منفصلاً عن الشعر اليوناني والغربي والشعر الشرقي القديم إلى حد ما. وأنا على يقين بأن النقد في الأيام القادمة سيوضحون حقيقة الشعر الإسلامي بعد القراءة المتأنية والدقيقة في كتب الفراهي القيمة.

العلامة حميد الدين الفراهي وشعره العربي

- فخر عالم بدر الدين الأعظمي¹

ترجمة من الأردوية: مرزا نفيس بيگ²

ولد العلامة حميد الدين الفراهي عام 1280 هـ الموافق 1865 م في أسرة دينية لمحافظة "أعظم كره" التي أنجبت مؤرخ الإسلام العلامة شبلي النعماني. بدأ الفراهي دراسته بقراءة القرآن الكريم، فحفظه عن ظهر القلب، وتعلم -كدأب زمانه- اللغة الفارسية، ثم اشتغل بطلب العربية وعلومها على يد ابن خاله العلامة شبلي النعماني. يقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في دراسته العليا:

"أراد العلامة الفراهي -رحمه الله- بعدما تلقى علوم العربية من شبلي النعماني أن يستفيد من حلقات دروس العلماء البارزين في ذلك العصر، فجلس في حلقة الشيخ أبي الحسنات عبد الحي الفرنجي محلي التي كانت ذائعة الصيت حينئذ، للحصول على الفقه، ولكنه لم يتمكن من مجالسته لمدة طويلة، لأنه كان مطبوعاً على البحث والاكتشاف منذ نعومة أظفاره وزادته في هذه الصفة مصاحبة العلامة شبلي النعماني، حتى غادر لکناؤ إلى لاهور والتحق فيها بالأديب الذي يشار إليه بالبنان ألا وهو الشيخ فيض الحسن السهاري بوري.

كان الشيخ السهاري بوري بروفيسوراً في كلية أورينتال بلاهور، وفاقده النظر في مجال الأدب العربي في البلاد كلها، وكان العلامة شبلي تلميذاً له في الأدب، فاستفاد العلامة الفراهي من مصاحبته استفادة كاملة، وحلّاه الشيخ بالعلوم الأدبية بغاية العطف والحنان".³

¹ متخرج من مدرسة الإصلاح بسرائ مير، أعظم كره

² طالب في ماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي، الهند

³ مختصر حيات حميد لمرتبته عبد الرحمن ناصر الإصلاحي، ص 30

يقول العلامة السيد سليمان الندوي:

"أنهى العلامة دراسته العربية، وهو ابن عشرين سنة، عام 1390هـ الموافق 1884م وبرع فيها، حتى أحرز قصب السبق على أساتذته، كما يدل عليه ديوانه العربي".¹

ويقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي عن شعره:

"كان مطبوعاً على الشعر وذوقه، فأتقن اللغة الفارسية في مدة قصيرة، حتى بدأ يقرض القصيدة على منوال الأساتذة.... قدم العلامة شبلي قصيدة له بالفارسية إلى أستاذه الشيخ فاروق الشرياكوتي وسأله عن صاحبها بدون ذكر اسمه، فأجاب بعد إمعان النظر فيها - وكان الشرياكوتي عالماً شهيراً وناقداً ممتازاً في عصره -: إنني لا أستطيع أن أنبئك عن قائلها ولكن أسلوبها يدل أنها من كلام الأساتذة القدماء".²

ومع أن مجاله الحبيب الأصلي كان هو تدبر القرآن والنظر فيه، كما هو معروف بمفسر عظيم ومحقق بارع في العالم الإسلامي، إلا أنه كان ينظم الشعر أحياناً، وذلك بسبب ذوقه الفطري له ومقدرته الكاملة عليه، ولكنه كان من المقلين في هذا المجال، مما أدى إلى اختصار ديوانه. وبصرف النظر عن كميته، يكفي أن يجعله من الشعراء المتقدمين.

والحقيقة هي أنه قد جمع الكثير في القليل فيتمتع كلامه الوجيه ببحر من المعاني والحكم وبنموذج عالٍ من الفصاحة والبلاغة، كما يجمع بين كلمات سهلة تحضن معاني عميقة، وأسلوب فصيح، وبيان رشيق، فهو بلا مزية عمل رائع في مجال الأدب العربي، وتذكر - على سبيل المثال - قصيدته التي قالها تهنئة للعلامة شبلي النعماني على تكريمه بشرف "شمس العلماء"، نقدم هنا بيتين منها:

¹ المصدر نفسه، ص 5

² المصدر نفسه، ص 28

إن كان تلك الشمس شمس سمائها فلصرت شمس العلم والعلماء

إذ أنت شمس العلوم سماؤكم فالشمس شمسي والسماء سمائي¹

وترى في كلامه بسبب شغفه البالغ وعلاقته العميقة بالقرآن الكريم ومضات أسلوبه ومعانيه حتى لا يقرأه أحد إلا وهو مضطر إلى أن يلفظ أنه يدور حول القرآن فحسب. فقوموا بمطالعة كلامه الذي صوّر فيه الإيمان في ضوء الآية الكريمة: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْلِ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا رُجَاةٍ ۚ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (سورة النور)²

فمثل الإيمان يلمع في قلب سليم للتعقير

مثل سراج في زجاج كمثل الكوكب السدي لماع

في وسط مشكاة ويوقد من زيتونة في خير أقطاع

من البلاد لا بشرقية ولا بغربية أصقاع

كاد يضيء زيتها قبل أن تمسه النار لاشماع

نور على نور ومن يهده الله يهتد بأسراع³

¹ ديوان المعلم عبد الحميد (جمعه: بدر الدين الإصلاحي، مطبعة الكوثر، سرائي مير، أعظم

كره)، ص33

² سورة النور: 35

³ ديوان المعلم عبد الحميد، المصدر نفسه، ص13

ومن الأسف أنه لم يصل إلينا سوى كلامه الوجيز، فضاع أكثره بسبب إهمال أبناء الزمان وعدم اهتمامهم به. يقول الشيخ بدر الدين الإصلاحي جامع ديوانه في مقدمته:

"قد جمعت في هذا المجموع ما وجدناه في مخطوطاته ولكن أخبرنا بعض الثقات أن له قصائد لم تصل إلينا أيدينا، فيخطر ببالنا إن كان له شيء ما عداها فهو إما أن يكون قد تلاعبت به أيدي الأيام وأفنته وإما أن يكون موجودًا عند أخلائه أو تلامذته فإن كان عندهم شيء منها فالرجاء منهم أن يتفضلوا به علينا".¹

إن العلامة لم يجعل نفسه كالشعراء الآخرين الذين يمثلون هذه الآية: "وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٣٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾"، بل دائمًا نظر إلى قوله تعالى: "إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴿٣٧﴾ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٣٨﴾".

فلذلك لا تشوب مجموعته مسحة من الخرافة والأمور التافهة، فلم يتناول في شعره موضوعًا خد الحبيب وشعره وشفتيه وقصة الزهر والبلبل مثل كلام الشعراء الآخرين، بل يتصف شعره بتراجم صدق الحياة الراسخ وحقائق الكون الثابتة، بدلًا عن ذكر الكأس والخمر. وإنه بشعره أطلع الإنسان على غاية وجوده، ودعا كل من ألهته هذه الدنيا المتألئة بما فيها، إلى معرفة الله الخالق بالآيات المنثورة في الكون من الشمس والقمر والنجوم وما إلى ذلك، كما أخبره بأن فيها أسبابًا لا تحصى لهدايته بشرط أن يبعث عقله على التفكير والتأمل وأن يعتصم بحبل الحق حتى لا يكاد يتخلص في أي مجال من مجالات الحياة:

سر مع العقل أينما سارا در مع الحق حيثما دارا

¹ مقدمة ديوان المعلم عبد الحميد، المصدر نفسه

العدد الخاص مجلة الهند

لا تهولنك ليلة عكرت إن بعد الظلام أنوارا
إن في الليل والنهار وفي الشمس والنيرات تذكرا
راكعات مسبحات يدعو ننا للوجود أسجارا¹

شعره ليس للفرح والسرور، وإنما هو رسالة هادية للإنسان، فدعا به بني آدم إلى الخروج من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الهداية والإيمان، وفهم به الناس سر خلود الآخرة وتفاهة الدنيا، وأعلم الغافل بأنه سينفذ ما عنده من الأموال والأولاد والنعم والرخاء وهو ملاقي ربه يوم لا تنفع هذه الأشياء، فسيبقى فارداً، ولا يجد غنى عن التحسر على ما فات.

فها هي قصيدة له بعنوان "غفلة الإنسان"، تحتوي على أربعة عشر بيتاً تعبر عن مشاعره وترشد الإنسانية:

أما للناس أحلام	أهم في السكر نوام
وهم وراد حوض المو	ت أصرام فأصرام
فأبباء وأبنباء	وأخوال وأعمام
وإخوان وخـلان	وإخوان وأحلام
فخائتهم قرابات	وأنساب وأرحام
وريب الدهر يبرهم	وتوهي العظم أسقام
فحبـل الموت ممدود	وحبل العيش إرمام
وهم باللهو واللذا	ت مشغولون ما داموا

¹ ديوان المعلم عبد الحميد، المصدر نفسه، ص 35

العدد الخاص مجلة الهند

بجمع الوفـر منهـم و ن والآثم هـام
لهم بالبغـي تهمـام وبالفحشـاء إبـرام
وهم لا بد محشـورو ن يومًا وهـو أيـام
من النعماء مسـؤولو ن والسـائل عـلام
سـؤالاً فيه إـلام و إلزام وإفحـام
وتفجـيع وتقرـيع وتخضـيع وإرغـام¹

وبجانب البحر الصغير تمتاز هذه القصيدة بسهولة العبارة وفصاحة الأسلوب غير أنها سهل ممتنع، لا تصنع فيها ولا تكلف، مع أنها خالية عن الحشو والزوائد، بعيدة عن التعقيد اللفظي والمعنوي، سالمة من الألفاظ الضخمة والتراكيب الهائلة، وبذلك يتميز شعره عن غيره.

مجموعته الشعرية تنبئ عن شخصيته، فتوجد فيها غير المعاني الدينية والخلقية، أبيات تعكس صورة شخص يملك في صدره قلبًا نابضًا حزينًا يتململ، مفعمًا بعاطفة الود الخالص لقومه، وقلبًا يضطرب لما رأى دم المسلمين مهراقًا بغير حق، فتشغله آلام الآخرين عن آلامه.

ولأجل ذلك يحتوي معظم كلامه على قصص دامية تلمع فيها السيوف وتسيل الدماء. وإنه حينما رأى بني آدم حاملي رسالة الأمن والسلام يتنازعون فيما بينهم كالبهائم، تلملم مما يرتكبون من الأعمال الشنيعة، مما أدى إلى أن صيغت عواطفه المتموجة في صدره في قالب الشعر.

إلى جانب الألم والكرب، تتحلى هذه الأبيات بالسلاسة والفصاحة والدقة والروعة، تترك أثرًا عميقًا في أذهان القارئ، صوّر فيها اعتداءات إيطاليا الملتهبة

¹ المصدر نفسه، ص 10

العدد الخاص مجلة الهند

وموقفها السفاك وعملها الفادح بأسلوب حقيقي حتى لا يقرأها أحد إلا وهو يحس بألم وكآبة واحتراق في قلبه، يبدو أنها ليست مجرد مجموعة الكلمات بل هي صورة حية لتلك الحوادث الدامية. وإليكم شطرًا من أبياتها:

يا عين بكى بالهوامع لا ترق أن لك المدامع
قتلى طرابلس الذ بن تطحطحت بهم القوارع
نبكي على إخواننا أهل المكارم والدسائع
دهمهم الروم الفوا تك بالمراكب والمدافع
جاءوا على حرد بجم عهم فضاق بنا المفازع
دخلوا المدينة يقتلو ن بها المشائخ والرعارع
قتلوا المراضع في المضى جع والضوارع في الشوارع¹

ذكر اعتداءات قوات إيطاليا وعدوانها على مسلمي طرابلس بأسلوب مؤلم جدًا، يدل على تعاطفه وحزنه وصداقته مع الإنسانية وحبه الخالص لقومه، فيقول في إحدى قصائده:

نبكي على إخواننا | بين القتيل ومن حبس
نبكي لربيات الخدو ر شرقت بالماء السلس²

وكان قد تضاعف طغيان الباطل وظلمه تضاعفًا كثيرًا في جانب، وفي جانب آخر كان قد بلغ تكاسل الأمة وتساهلها أوجه، وقد كانت نموذجًا لقوله تعالى: "أَشِدَّاءُ

¹ المصدر نفسه، ص 17

² المصدر نفسه، ص 15

عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ"، وكانت مزقت جمع قيصر تارة، وخربت تاج كسرى تارة أخرى. فأيقظ العلامة الأمة بكلامه من السبات العميق الجامد، ونفخ فيها روحًا جديدة للحياة، ونباها أنه قد حان وقت خروجها من بيوتها حاملة أسياها لمعاونة إخوانها المظلومين، وأنها كانت سيوف الله، وأن الكفر كان مرتعشًا أمامكم والباطل منقادًا لكم.

إنه دعا العالم الإسلامي كله إلى شد منزره لنصر أبناء طرابلس المغشومين، والقصيدة كلها مليئة بالألم الحاد والأثر البالغ مع كونها سلسلة سهلة، ومراعاة الأسلوب القرآني والكلمات القرآنية زادت تأثيرًا، ومن ميزات أنها مزودة بالتعبيرات القرآنية بشكل فصيح ورشيق، وذلك كله يظهر شغفه البالغ وتأثره العميق بأسلوبه:

قوموا لنصر الحق من نوركم	واستنصروا من كل مرد وشيب
مستنصرين الله ينصركم	بنصره الموعد غير الكذوب
كنتم سيوف الله من وقعها	في الكفر والأوثان تبقى ندوب
فالآن يا إخوان ما بالكم	قد مسكم من الجهاد لغوب
ما بالكم لا تنصرون وقد	حلّ على الإسلام يوم عصب
يبلوكم الله بياس العدى	فإن أمر الله يبلو القلوب
إن تصبروا لله لا يخزكم	فإن لله علينا رقيب
يا قومنا إن تصبروا يأتكم	نصر من الله وفتح قريب ¹

¹ المصدر نفسه، ص 25

العدد الخاص مجلة الهند

كتب هذا الرثاء لبني آدم، فبكى وأبكى، وهذا كله مما خلدت ذكرياته في قلوب
الناس على مر الزمان وطوله حتى لا تكاد عواصف الزمن الهوجاء تطمسها للأبد.
إنه ليس معنا اليوم، ولكن أغانيه المعسولة تملل الأكباد وتثلج الصدور.

لعمرك ما وارى التراب فعاله ولكنّه وارى ثياباً وأعظما

الشعر الفارسي للإمام عبد الحميد الفراهي

- الميرزا إحسان أحمد¹

ترجمة من الأردوية: د. أورك زيب الأعظمي²

نرى كثيرًا من الرجال الأفاضل راغبين عن السمعة وذيوخ الصيت ويكأنهم أغنياء لا يحتاجون إلى هذا، ومن هؤلاء الأفضال الأغنياء شيخنا الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى. كان الإمام ينتمي إلى أحد أرياف مديرية أعظم كره وكان من ذوي قربى العلامة شبلي النعماني وتلامذته المبرزين.

كان الإمام الفراهي قد طار صيته فيما بين علماء عصره كعالم كبير للقرآن وعلومه، ومما لا شك في أن الإمام قد درس القرآن الكريم دراسة إمعان يصعب أن نعث على بديل له في عصرنا هذا، وزد على ذلك سمو أخلاقه ومحاسنها التي تنبئ عن أخلاق مسلمي القرون الأولى العالية.

ولكن لا يعرف إلا القليل منا أن الإمام كان شاعرًا مفضلًا للغة الفارسية فنود فيما يلي أن نسلط الأضواء على جانبه الأدبي هذا. وللفراهي ديوان وجيز³ قام بطبعه أخوه الحاج رشيد الدين الفراهي من مطبعة شمسية بحيدرآباد في سنة 1904م. يبدو من دراسة هذا الديوان أن الإمام كان قديرًا بكتابة الغزلية والقصيدة والمثنوي وغيرها من أصناف الشعر الفارسي.

¹ كان من أبرز محامي مديرية أعظم كره وكاتبًا وشاعرًا قديرًا للأردوية.

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

³ وقد نشرت مجموعة شعره الفارسي بعنوان "نوائ هيلوي" من الدائرة الحميدية تحتوي على قصائد وغزليات لم تنشر في هذا الديوان كما أنها تحتوي على ما نشر في هذا

وبما أنه كان مفطورًا على البساطة فلا نجد في شعره ما يدل على الحماس والطرب والمجون والفتنة، ولكنه فيما يتعلق بالفارسية الخالصة وصحة اللغة فلا نشعر بقراءته أنه كلام لرجل هندي لم يتربّ في إيران بل يبدو من دراسته أن روح شاعر فارسي قد انحلت فيه.

وعلى الرغم من كونه شاعرًا كبيرًا للفارسية وأستاذًا له فقد كان العلامة شبلي النعماني يشيد بقدرته على الفارسية وهذا دليل حيّ على كماله في هذا المجال.

وبإمكاننا أن نشعر بذكائه الحادّ وروعته المثالية أنه في 1884-85م كتب غزليات على منوال غزليات الخواجه حافظ ونظيري وغيرهما وهو كان في عنفوان شبابه وعسى أن يتعجب القراء من هذه الجراءة ومن أن مولودًا في مكان بعيد ووضع في أعظم كره ينطق كما ينطق أهل شیراز وأصفهان. ولكن سيزول هذا العجب حينما يقرؤون كلامه الفارسي بشيء من العدل والإنصاف، ولكن هل منا رجل عادل ورشيد؟!

لست على فساد ذوق الفارسية إلى حدّ أجعل الإمام عديلاً لحافظ في قرض الغزلية ولنظامي وفردوسي في قول المثنوي ولأنثوري وعرفي في كتابة القصائد، ولكن لا أتجافى عن البيان بأن اللغة التي أعرب فيها الإمام عن أخيلته لو قرأها أهل إيران لاغتبطوا بها.

وللخواجه حافظ غزلية تستهل بما يلي:

ساقی بیار باده که ماه صیام رفت درده قدح که موسم ناموس ونام رفت
ومنها ما يلي:

وقتِ عزیز رفت بیا تا قضا کنیم عمري که بی حضور صراحی وجام رفت
در ناب توبه چند توان سوخت همجو عود می ده که عمر در سر سودای خام رفت

مستم كن آنچنان كه ندانم ز بيخودي در عرصهء خيال كه آمد كدام رفت
 زاهد غرور داشت سلامت نبرد راه رند از ره نياز به دار السلام رفت
 ديگر مكن نصيحتِ حافظ كه ره نيافت گم گشتهء كه بادهء عشقش بكام رفت

واليكم ما قرضه الإمام من الغزلية على منوال هذه الغزلية:

از من بكوي زرق فروشان پيام رفت كنند سرم هوای مي لعل فام رفت
 اين نيمه عمر خود به مي پخته مي دهم كان نيمهء دگر به هوسهای خام رفت
 با جوي انگبين نه تواني مرا فريفت اکنون كه بادهء مي تلخم بكام رفت
 غيرت رهش نهي دهد اندر حريم دوست كوته نظر كه در طلب ننگ و نام رفت
 ديگر سري فرو به دو گيتي نياورد آن رهروي كه بر سر كويش دو گام رفت
 من از كمند حلقهء واعظ رميده ام دل خستگيش بين كه شكارش زدام رفت
 يك زنده دل نه رفت سلامت ز عيب جوي كاین ماجرا بخضر عليه السلام رفت
 بس آفتِ خمار كشيدني حميد من هان سر بر آر بادهء صافي ز جام رفت

ومن قدرة الإمام الفراهي على الفارسية أنه يقلّ، قدر المستطاع، استخدام الكلمات العربية من حيث أنه لا يخلّ بفصاحة كلامه وحلاوته وسلاسته علماً بأن الكلمات العربية قد امتزجت بالكلمات الفارسية امتزاجاً لا يقدر كل جاء وآت على أن يقرض شعراً فصيحاً بدونها وذلك يحتاج إلى قدرة فائقة على اللغة. ولقد أثبت الإمام قدرته هذه بغزلية قرضها على منوال غزلية الخواجه حافظ وهي تستهل بما يلي:

بلبل ز شاخ سرو بگلبانگ بهلوي مي خواند دوش درس مقامات معنوي

العدد الخاص مجلة الهند

ولقد كتب الإمام الغزلية كلها بلغة فارسية بسيطة كما يلي:

در بامداد خواجه همان به که نغنوي	تابش نوي زمخ نواهای پهلوي
بر خيز وباز بين که گلستان برنگ وبوست	تا چشم رانوا دهی ومغز رانوي
نرگس ازان بنازکم آمد که از فريب	خاک افگند سپهر بدیهم خسروي
مهمان چند هفته بود رنگ وبوی باغ	تا در جهان نه شيفهء رنگ وبو شوي
ترسم که جان دهی تو درين دشت پر فريب	دنبال اهرمن چو گرافي وميدوي
اي تيره دل کسیکه گل ولاله بهر او	باشد چراغ راه منش پير کجروي
گيرد سبک سري کم شوریده رهروان	آگاه نیست آنکه زائين رهروي
گفتار حافظ ارچه روان تازه مي کند	هم گفتهء حميد دهد هوش رانوي

اقرأ الغزلية كلها هل تجد كلمة فارسية جاءت عفواً ولكن بحيث لم يخل هذا بإحكام التركيب، وتركيب الفقرات، ولطافة البيان، وروعته.

وهناك غزليات أخرى لم يستخدم فيها الإمام أي كلمة فارسية ولكن بحيث لم يخل بلطافة الشعر فاقرأ مثلاً الغزلية التالية:

بکشور تو هراں رهروي که ره دانست	نه روز گرم نه شپهای دل سیه دانست
برهمني که به خاک تو دیده روشن کرد	چراغ دیر رخ نامهء سیه دانست
کسیکه یافته کیخسرويء درويشي	شکيب را کمرو هوش را که دانست
چو مرغ زمزمه وناله را بهم آميخت	کسیکه فرخي زاري پگه دانست
زهي کرشمه که هنگامه های رستاخيز	فسون یکدم وآشوب يك نگه دانست

وما خلقه تركيب "أفسون يكدم وأشوب يك نكه" من طرافة الخيال ولطافته لا يخفى على من له إلمام بالشعر الفارسي الفصيح.

وما ختم به يجدر بأن نسمع إليه فهو يقول:

مرا بسادگي شبنم است رشك بسي كه سوي گل شد وبالين خوابگه دانست

وفي نفس البحر نجد غزلية للخواجه حافظ تستهل بما يلي:

بکوي ميکده هر سالکي که ره دانست در دگر زدن انديشهء تبه دانست

وللخواجه غزلية أخرى كتب الفراهي غزليته على منوالها لنستمتع ببعض أبياتها:

بيا بطرف چمن کز غبار غم صاف است مرو بمدرسه کش فتنه هاز اطراف است

هذا قول حق كله. والواقع أن القلب والروح لا يجدان سكينة إلا في جو صافي من حديقة الحب وذلك لأن مباحثات العقل والحكمة تجعل الغاية أكثر هلكة وضللاً. ويقول فيها:

غلام صدق جوانان بي سرو پايم ز پير شهر که از پاي تا بسر لاف است

چنين که نقد رياراهمي دهم برباد بسوي من فقها لب گزان که اسراف است

تدبر كلمة "إسراف" كيف خلقت جانباً لطيفاً من الطعن، وإلى مدى وضع التأثير والروعة في أسلوب البيان. فوجود الفكرة في الذهن شيء سهل بكثير ولكن اختيار الكلمات الصحيحة والملائمة والمؤثرة لها ليس إلا عمل شعراء قديرين كممثل الإمام الفراهي، ولا تعطى هذه الموهبة إلا القليل من الشعراء، ويرجع شطر منها إلى الذوق السليم الموهوب، وستجدون أمثلة كثيرة حيث ضاعت فكرة عالية بمجرد فقد الكلمات المناسبة لها.

هذا ما كانت عظمة الفقهاء التي تناولها الفراهي والآن لنسمع ضوضاء الناصحين أصحاب الحديث المرّ فيقول الفراهي:

غريو وعريدهء واعظان تلخ نوا زمسقي است كه در لقمهائ اوقاف است
فهل ينكر أحد هذه الحقيقة المرة؟!

فقد رأيتم مدى نجاح الإمام الفراهي في صلاح الفكرة والفارسية الخالصة وهل
ينكره من وُفِّقَ العدل والإنصاف؟

وما كتبه الإمام الفراهي من الغزلية في تتبع نظيري النيشابوري نجد فيها نفس
اللطافة اللغوية فلنقرأ بعض أبياتها:

چو از دلم بدلش صدرو نهان بازست چه غم ازینکه بد اندیش رازبان باز است
تو غم فرستی ومن خردهای جان وخوشم که در میانهء مارا ارمغان باز است
سپیده می دمدم چشم اختران بستند مرا همان برهت چشم خونفشان باز است
هزار غم کده وخون جگر زیان کردم دهان دیده به خمیازه همچنان باز است
واحسرتا! لا أجد بين يديّ تلك الغزلية للنيشابوري إلا بيتاً لها تذكرته عفو
الخاطر وهو رائع جيّد فيقول:

دعا کنيد بوقت شهادتم أورا که این دمی است که درهای آسمان باز است
فهل ينكر أحد روعة نظيري في الشعر؟ ولكنه لو كان حيّاً لما قعد إلا وسحرته
لطافة لغة شاعرنا هذا.

فإن أقم بالمقارنة بينه وبين الخواجه حافظ لما رضيت روح الفراهي المحبة
للإنصاف والعارفة للحق ولكن قوله "هم گفتهء حمید دهد هوش را نوي" ليس
من نوع المبالغة.

فإن لم يقتنع الماهرون البارعون للفارسية بما قدّمناه آنفاً من نماذج ذوق الإمام
الفراهي العالي اللطيف للفارسية فنقدّم فيما يلي لشفاء غليلهم الأدبي المختار من
مختلف غزليات الإمام:

خواهم آندم که نهند آئینه پیش نفسم	دیده بر روی تو واکردن و حیران بودن
زاهتمام کار عمرم صرف بیکاری شده است	زانکه هر امروز در اندیشه فردا گذشت
زکار بسته خود غنچه تنگدل چه نشست	نگفته اند که هر بسته را کشادی هست
چراغ راه چه اندیشه گر فرو میرد	خدا فروغ دل رهروان نگه دارد
زدید و پرده فگن دوست در برابر تست	تو هرزه جسم فرو بسته خانه خانه مجوی
بهل که ناله مردان بوستان شنوم	پی نوازش من بربط و چغانه مجوی
ور ملامت کندم خلق نالم ای دل	کس بجائی نرسد تا نه کشد آزاری
برپئی کعبه پرستان نهادم قدمی	که بپایم نه خلید از اثر زان خاری

تأمل تراکیب هذه الأبيات فهل لا تجدها لغة شاعر إيراني مفلق قح فمن السهل أن يجمع أحد بعض الأبيات الفارسية ولكن التي نسميها "الفارسية" والتي تتعلق بالذوق السليم فحسب لا يقدر عليها سوى شاعر قح.

ونجد عادة قلة الغزليات ذوات الفكرة المسلسلة ولكن الفراهي قد اختار تسلسل الفكرة في معظم غزلياته مما قد زادها روعة ومتعة فخاطب صديقه، مثلاً، في غزلية ونبهه على مختلف حالات الحياة فقال:

نگار من نفسے لطف گلستان دریاب	بر آنچه سبزه و گل می دبد نشان دریاب
ترانه سنجی مرغان بوستان بشنو	جگر خراش فغان های دوستان دریاب
بدست ناز سر نرگس جوان برکش	خمار بادیه گساران سرگران دریاب
شمار نشتر خار اربمی توان برگیر	فزون خلیش جان ناتوان دریاب
نخست گرمئی هنگامه پاران ببین	سپس فسرده گی موسم خزان دریاب
حمید گرمز خود آستین فشان برخیز	بنوز دور نرفت ست کاروان دریاب

والیکم غزلیة أخرى ذکر فیها أمانیه الزکیة فقال:

به نور خویش خدایا فروز جان مرا	چراغ طور بکن شمع استخوان مرا
ز مهر و مه چه نهی داغ آسمان مرا	که آفتاب رخت بس بود جهان مرا
چو آشکار مرا خاکِ ناتوان کردی	فروغ و نیروی خود سارده نهان مرا
بخونِ لعل و گهر دامنم چه آلائی	تو ارجمند بکن چشمِ خونفشان مرا
همان برشته مهر تو باد پیوندم	چو روزگار فرو ریزد استخوان مرا
مرا دلی ست که هر گوشه صنم کده ایست	تو فر کعبه بده خانه بتان مرا

ففي هذه الغزلية نرى كذلك مشاهد فارسيته القحة وقدرته على اللغة التي يفقدها شاعر هندي للفارسية.

لقد كتب الفراهي العديد من الغزليات في بحور صغيرة جدًا وجاءت فيها السلاسة عفوًا فالیکم بعض الأمثلة:

سر بپاست نهم از راه نیاز	توره سرکشِي و ناز مگیر
در کنار تو بخوایم جان داد	پس کنار از منِ جانباز مگیر
راست گویم که تو جانان منی	تو مرا مرد سخن ساز مگیر
من بجائی تو نگیرم دگري	هم تو با من دگر انباز مگیر
درد من هست فزون از گفتن	تو ز گفتار من انداز مگیر

وأيضًا قال:

در کنارم سرجانانِ منست	چمنِ تازه بدامانِ منست
زلفِ او بویم و رویش بوسم	گوئیا سنبل وریحانِ منست

ساغر بادہ ز پیشم برگیر لب من بر لب جانان منست
 نہ ہمیں بندۂ فرمائش من یار من نیز بفرمان منست
 من واو گشته چو یک مغز دو پوست من ازان وی واو زان منست
 گل چو خار است بچشمم اکنون در نگاہم گل خندان منست
 بہر گلگشت گلستان چہ روم از تو خود خانۂ گلستان منست
 بی تو در خانہ بخوابم بودن خانہ بی روی تو زندان منست

وعلاوة على سلاسة اللغة ولطافتها نجد فيها مسحة للأفكار المسلسلة.

وكذا قرص الإمام منظومات ذكر فيها الأفكار المسلسلة فنقدم فيما يلي أبياتاً من إحدى منظوماته دعا فيها الإمام الإنسان إلى النظر في مختلف مشاهد الكون فيقول:

بکشائی بامدادان مژگان را بگذار خوابگاه و شبستان را
 بیرون خرام و چرخ وزمین بنگر بگذار سربالین نادان را
 باری پیرس از دل دانش خواه کز پرسش ست مایه سخندان را
 زیبا که کرده میبۂ خاکی را ایوان که بر فراشته کیوان را
 آویخته که خوشۂ پردین را افراشته که طارم گردان را
 دست که بست ایس همه پیکرها پیدا که کرد ایس همه نهان را
 بویا که کرد یاسمن و گل را گویا که کرد میل خوشخوان را
 نیفه که داد روبه رنگین را نافۂ که داد آہوی میدان را
 آمود دانه دانه شبنم را بنگاشت رنگ رنگ گلستان را

هذه منظومة طويلة ترى في كل أبياتها نفس الروعة اللغوية. ولمخافة التطويل نصرف النظر عن بقية أبياتها.

وفي ديوانه منظومة أخرى من نوعها ذكر فيها الإمام لطائف وحقائق بأسلوبه البسيط. لنقرأ بعض أبياتها:

خواب بر راه وچاه نتوان کرد	در جهان خوابگاه نتوان کرد
انچه با یک سپاه نتوان کرد	مرد بی دستگه کند کاری
باهزاران سپاه نتوان کرد	اینچه با یک سخن توان کردن
آنچه در پیش گاه نتوان کرد	پس دیوار هم نشاید کرد
از پی واه واه نتوان کرد	کار از بهر کار باید کرد
بنده بادشاه نتوان کرد	مرد آزاده را که شاه خودادست
پشت خود را دوتاه نتوان کرد	جز بدرگاه ایزد یکتا

وهل إرشادات أخلاقية أخرى أعلى من تلك؟ وهل سبب آخر لزوال إخواننا المسلمين الخلقي والروحي سوى أنهم قدرعوا بقوة وسلطة غير الله وهم قد نسوا أن رعب غير الله حرام عليهم.

وبإمكانك أن تقدّر من هذه المنظومات بأن نظرة الإمام الفراهي المدققة لم تكن تحبّ لطافة اللغة فحسب بل كانت تعرف الحقائق جيّدًا.

ولو أن مخافة التطويل تؤذيني ولكني لا أتقدّم إلى الأمام قبل أن أقدم شطرًا من منظومته الأخرى التي تبين لنا زهرة الحياة الدنيا والتي تجعل التمييز بين الصالح والفاجر، السمين والغث:

بنگر اندر جهان به ژرف نگاه تابدانی سپید راز سیاه

در نکویان نهفته بد باشند در بدان بم نکو بود گه گاه
تأمل ثم استمتع بالتعبير الحق لزهرة أهل الدنيا.

وعلاوة على الغزليات والمنظومات المسلسلة قدّم الفراهي نماذج المثنوي بعناوين
مختلفة أمثال "جان ودل"، "آواز سروش"، "بازگشت"، "زشتي وزيبائي"، و"نسيقي
وهستي" نقدّر بها دقته ولطافة أفكاره، وأما أمر اللغة فتحدّث به ولا حرج. إنها
لغة لا يقدر على تقديمها أديب هندي. اقرأ شطراً مختاراً من أبياتها:

اي بسي رند پارسا جامه	وي بسا تيره روي دل چون ماه
اي بسي رند پارسا جامه	وي بسا پارسائ رند كلاه
اي بسا ره شناس گوشه نشين	وي بسا ره نمائ خود گمراه
اي بسا شهريار دوست تهی	وي بسا بينواي وشاينشاه
اي بسا دوست روي دشمن دل	وي بسا زشت گوي نيكو خواه
اي بسا پُر گداز پيچدان	وي بسا لب خموش كار آگاه
اي دل اين افسرده بودن چند چند	بمچو مستان بائي و پوي كن بلند
تو همه ساله بدی پريزگار	يك دو روزي سر بشيدائي برآر
آزمودی شيوه فرزانيگي	آزمون كن هم ره ديوانيگي
دل همي گوید بگوשמ نرم نرم	كه مدران پرده آرم و شرم
تو كجاؤ راه مستي از كجا	دست ميسائي بدم ازدها
رويكار خونشتين بنگر نخست	كه كمان سخت ست و بازوي توست
شاخ بس بالاؤ تو بس كوتهي	نرخ گوهر پرمي دوستست تهی

وقال:

هر كجا گنج رنج آنجا بود	هر كجا گنج رنج آنجا بود
ایكه خوابي گنج ز اژدر بامترس	ایكه خوابي گنج ز اژدر بامترس
كاژ در بفتاد سرگر دو زیون	از سروش آزمو پنهانی فسون
هاي و هوي بر مكش چون سرخوشان	دست چون بروي بگنج بي نشان
گفتگوي آگهان سرگوشي است	ز آنكه راه آگهي خاموشي است
در خموشي مغز جان پروردن است	گفتن از نیروي جان كم كردن است

وله كذلك:

زندگي چون مرغ و مرغش بال و پر	نیستی تخم است و بستی شاخ و بر
از پس پر گریه زاهد خنده	تخم پر مرگی بر آرو زنده
تانخوشد مغز كي جوشد سخن	تانگرید ابر كي خند و چمن
روز روشن از شب تاري دمید	روشنی از تیرگی آمد پدید
بست برگاي و بان مرگ باز	ریرو جان را درین راه دراز

هذه الأبيات المختارة تكفي دالة على أن الإمام الفراهي لم يكن شاعرًا بحثًا فحسب بل كان من الحكماء الكبار.

لا نجد في هذا الديوان سوى قصيدة كتبها الإمام في مدح عبد الحميد خان خليفة الدولة العثمانية السابق على منوال قصيدة خاقاني الشرواني، وكتبها حينما كان يافعًا. رديفها "أئينه" والذي صعب للغاية ولم نكن نرجو من أحد بعد الشاعر المطلق خاقاني أن يجتري على القريض على هذا المنوال الصعب، ولكن ينبغي لنا أن نشيد بجرأة الإمام. لنقرأ بعض أبيات الاستهلال التي تورينا كيف أحسن الإمام استخدامَه ولم يعثر الكلامَ نقصٌ شعريٌّ:

بي جلوۀ رخ تو بود مضطر آئینه خار افگند به پیرهن از جوهر آئینه
گیسوئی بمچو شب تو بیار ای وهم بصبح فرمائی تا بیاورد از خاور آئینه
گستاخ دیده است بروزی تو لا جرم چشم سپید یافت بدین کیفر آئینه
آئینه وا گذارد بیا دردیده ام چشم بود ز آئینه بهتر هر آئینه
هم روی تست آئینه هم عکس خود توئی در خور و حسن تو نبود دیگر آئینه
در بزم انس خویش چرا جای داده تا می شود برابر تو اکثر آئینه
کی با ضمیر شاه شود همسر آفتاب کی روی همچو ماه تر همسر آئینه

ثم يستخلص إلى مدح السلطان لنقرأ بعض أبيات المدح:

سلطان دین خلیفۀ عبد الحمید خان کش مثل در جہاں نبود جز در آئینہ
چشم جہان ز خاک در شاہ نور وضو بگرفت آنچنان کہ ز خاکستر آئینہ
ہر چند پیکر سخن من بسادگی آئینہ است و سادہ بود بہتر آئینہ
از گوہر مدیح تو زیور گرفتہ است چون گیرد از جمال بتان زیور آئینہ

من أبرز میزات کلام الفراهی، کما دلّ علیہا، البساطة، ولا شک أنما یحویہ الحسن البسیط من الجذب اللطیف والساحر لا خلاق فیہ للتزین المصنوعي.

کانت للفراهی أخت ربّته تربیة خاصة فلما توفیت حزن الفراهی حزناً شديداً وهذا ما تقتضیہ الفطرة البشريّة فأعرب الفراهی عن حزنه فی صورة قصيدة للرثاء لو صرفنا النظر عنها أثناء هذا التحليل الوجیز لظلمنا القراء أصحاب الذوق الأدبي السليم. اقرأ أبيات الاشتغال واستمتع بحکمتها:

کشیده اند برین بوستان ز خون رقمی
کہ هیچ گل نبری بی گزند خار غمی

ز نیک دید چه خرد شم کنون که رور نخبست
برفت بر سر هر یک ز نیک و بد قلمي
به پیش و کم گله از دور آسمان چه کنم
که در کفش نبود ذره ز بیش و کمی
چو هست و بود جهان ست رارشته در کف دوست
هنوز عیب بود گر بنالم از سستی
ز بس کشاده ام ابرو به نوش و نیش جهان
ز زخم او مژه من برون نداد نمی
مگر کنون که تپ غم چنان گرفت مرا
که دمبدم زند از سینه آتشم علمی
بود که خرده نگیزند گریبم
باشک نیم بشی یا بآه صبحدمی
به بی چه درد مرانیشتر بجان زده است
که مرگ خواهرم آتش نجان و مان زده است
وأما محبة الأخت وخدمتها للأخ فقد بينهما في المقطوعة الثانية كما يلي:

چه شکر گویش ای دل که حق خدمت او	ز شیر مام فزون ست وسایه پدرم
هرآنچه بود ز خوشخوئی و نکو کاری	بدست تربیت خود سرشت باگرم
گهی که تپ زده بودم بهی بغمخواری	گداخت بر سربالین چو شمع ما سحرم
هزار اشک فشاندمی گه ز سوز درون	هزار درد بچیدی گهی زدوش و برم
کنون ز نیک و بد من چنان خموش شدی	که پرسشی نکنی تاجه می رود ب سرم

ثم يعرب عن حزنه بأسلوب ملؤه الكآبة فيقول:

فغان که گشت نیوشنده سخن خاموش دگر چگونه تسلي کنم من این لب وگوش
دو یدمی بسویش چون بخانه آمد می چو کودکی که رو بر دکان قند فروش
کنون که جایی گهش را ازو تهی بینم همی چو مار گزیده برون روم از هوش
قضا که تکیه گهم دوش او بخردی کرد نوشته بود که تابوت او نهم بردوش
ازین سپس نکنم پند مردمان نشکيب کنون که پند کسم خودنی رود درگوش
تأمل روعة التعبير عن شدة الحزن التي يقدمها هذا البيت، وهذا من ميزات
الشاعر أنه قد بين العاطفة كيفما ثارت في قلبه بكلمات ملائمة بدون تكلف ولا
تصنع فلم يزدها شيئاً ولا نقصها قليلاً.

ولقد أنهى هذا الرثاء بالحكمة كما بدأه بالحكمة فيقول في المقطوعة الأخيرة
بعدها أعرب عن حزنه الداخل:

مگر به کیش وبائین باحزین نه بود که زهر غم چو رسد در کشیم و دم نزنیم
بسوز سینه بسازیم و خون خویش خوریم که همچو شمع شبستان و نافه ختینم
همی تو پیشترک رفته که ما همه نیز رسیم در پس هم گر نویم دگر که بینم
کنون ز مرگ رسد چاره درد مندان را نشسته ایم بدل در فشرده دندان را
وفي النهاية قدّم الإمام الفراهي هدية شكره وتضرعه إلى جلاله الرب سبحانه
بعنوان "سپاس یزدان" نوّد أن نقدّم إلى القراء نموذجاً منها وسننهي هذا التحليل
الوجيز على هذا. يقول الفراهي:

اي فرزنده بلند شـپـر به اي فروزنده ستاره ومهر
آفريننده جهان از بيچ باچنين کارگاه بيچا پيچ
چهن ترزاں کشاده بازار که خرد گرداد کشد پرکار

در محیط که کلک صنع تو بست چرخ چون نقطه نه نیست نه بست
هرچه جز تست آفریده تست نیک وبد هر دو پروریده تست
هم تو پیداؤ هم توئی پنهان هم تو آغاز وهم توئی پایان
ای ز گنجائی خرد بیرون پاک ز آلودگی چون وچگون
گرچه پاکان نخوانده یک رازت تا مگس هم رسیده آوازت
گرچه یک کس ندیده منزل تو از همه دل رپی است تا دل تو
نام تو مرهم است بر دل ریش یاد تو شمع کلبه درویش
قدّمنا الجزء الكبير من كلامه الفارسي إلى القراء أصحاب الذوق الأدبي فليتأملوا
وليعدلوا هل وجدوا نقصاً بالنسبة لفارسيته ولطافة اللغة وسلاستها أو صدر
تعبير فارسي من قلمه لا يعرفه أهل اللغة الإيرانيون.

فلا شك أن كلام الفراهي هذا لا يساوي كلام حافظ في موسيقاه وطربه، وعرفي في
روعة بيانه، ونظامي في علو تخيله، ولكن ننكر أن "الفارسية" التي قدّم نموذجها
الفراهي يقلّ نظيرها لدى شعراء فارس المفلّحين، دُع أن تجدها لدى شعراء
الفارسية الهنود.

ولعل القراء يقعدهم العجب من جرأتي هذه ولكن ينبغي لهم أن لا يتعجبوا بل
يقرأوا ما قاله الشاعر الشيرازي:

فيض روح القدس ارباز مدد فرمايد ديگران نیز کنند آنچه مسيحا مي کرد

أَ إِنْسًا نَرى أَم خَلْقًا جَدِيدًا¹

- عمار جاويد القسوري²

المقدمة

إن من أكبر نعم الله علينا هذه الشمس التي تطلع كل يوم في السماء الشرقية في وقتها المقرر، فتضيئ الأرض بأكملها، مشرقها ومغربها، شمالها وجنوبها، فتستمد منها الأشجار نماءها، والأزهار ألوانها وجمالها، والأوراق صورتها، والنبات غذاءها، والنسيم لطافتها، والأجسام ذات أصوات قوتها ونماءها، كذلك يَمُنُّ الله على عباده؛ فيرسل لهم في أرضهم حيناً بعد حين شمساً تزداد شمس السماء نوراً وضياءً، وتكون أكثر منها عظمة، وأعمّ منها فائدة؛ لأن هذه الشمس التي تؤثر الطلوع على الأرض من طلوعها في سماءها، لا تنير الظلمة التي تنيرها شمس السماء، إنها تحارب ظلام العقول فتبددها وتنير ظلمتها، وتسيطر على سواد القلوب فتجليها جلاءً يبيضها من سوادها، فتستمد منها النفوس البشرية طريقها؛ لتمشي عليها في هذه الحياة الدنيا، وتصل إلى مرامها ومقصدتها من غير أن تضل الطريق في وسطها.

فما أعظم هذه الشمس الأرضية التي تنير للبشرية خطاها، وتمسك بيديها لكيلا تعبت بها مصائب هذا الطريق وعقباته.

¹ هذه المقالة مستفادة من كتاب العلامة محمد عناية الله أسد سيجاني، الذي كتبه باللغة الأردنية عن حياة معلمه الأستاذ أختار أحسن الإصلاحي، حَزَرَ فيه مشاهداته للأستاذ، فقد تتلمذ على الأستاذ أختار، ورآه من قريب، وكتب ما لا يمكن أن يكتبه غير تلميذ رشيد، طُبِعَ هذا الكتاب طباعة جديدة من دار الهداية للنشر والتوزيع دلهي، الهند.

² طالب كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

كذلك كان الشيخ المرحوم أختَر أحسن الإصلاحي، كان شمسًا أثر الله أن تطلع في هذه الخضراء، وتبدد ظلام العقول، وتنور سواد القلوب، وتضيئ للأمة طريقها، وتوضِّح لها خطاها، وتَصقل لها علومها وفنونها.

إن من سنة الله في الكون أن لكل طلوع غروبًا ولكل شيء في هذه الدنيا أفولًا، فكما أن شمس السماء تطلع كل يوم من السماء الشرقية، وتأنمر بما أمرها الله من الأوامر، وتؤدي عملها كما هو مطلوب، من غير تعب ولا نصب، فإذا أدَّت ما كان عليها من واجبات، وجاء أجلها، غرُبَت في ساعة قدَّر الله لها، لا تستأخر عنها ساعة ولا تستعجل برهه.

فكذلك تجري سنة الله في شمس الأرض تطلع حين يشاء ربنا، وتأنمر بما أمرها الله، وتؤدي عملها، فتُخرج الناس من الظلمات إلى النور، فإذا أدَّت ما كان عليها من العمل، وحن أجلها، غرُبَت في ساعة قدَّر الله لها، وفي أجل لا تستأخر عنه ساعة ولا تستعجل برهه. فكان كذلك، حين جرت سنة الله في الأستاذ أختَر أحسن الإصلاحي، مضى لسبيله حين جاء أجله المسّى له، وقد أدَّى واجبه الذي أرسل لأجله وأرضى ربه بجده ونشاطه.

وُلد الأستاذ أختَر أحسن الإصلاحي في زمان مَحَت الأمة الإسلامية فيه معنى "التربية والتعليم" من معاجمها، وغيّرت معانيها، وحرّفت في مدلولاتها، وجاءت لمعناه ما لا علاقة له بلفظ "التربية والتعليم"، وأجمعت على ذلك أو كادت أن تجتمع عليه، وبدأت تطبق ذلك المعنى الجديد على اللفظ القديم في مدارسها وجامعاتها مهما حلّ محلها، في مشارق الأرض كانت أم في مغاربها، فبدأ أناس يسمّون أنفسهم الأساتذة وما هم بذلك، ويسمّون أنفسهم الأب الروحاني وما هم بذلك، ويسمّون أنفسهم المعلمين وما هم بذلك، فكم من أستاذ ومعلّم ومربٍّ، بل كم من الجامعات والمدارس تراها في عصرنا هذا، والله لو مُجِيت من الأرض،

وأزيلت ما نقص ذلك من أمر الأمة شيئاً وما انتقص بذلك من منابع علوم الأمة الإسلامية وتربية أجيالها شيء.

وُلد الأستاذ اختر أحسن الإصلاحي - وغيره قليل من أمثاله - وكانت الأمة الإسلامية على هذا الحال، كان هؤلاء قليل العدد كثير الغدّة، رأوا حال الأمة وجمودها، وتلك الأزمة الفكرية والعلمية والتربوية، التي تعاني منها الأمة الإسلامية في عصرنا. فعزموا على تغييرها وتبديلها، وقالوا بأعلى صوت إن الأمة الإسلامية بحاجة ماسة إلى أن تعود إلى ماضيها، وأن تتعلم منه مناهج التربية والتعليم، وأن تتعلم من ماضيها تبديد القيود التي قيدت بها من قيود الجمود الفكري والأزمة العلمية والتربوية، وأن تتعلم من ماضيها كيف يتعمق الباحث في النصوص الشرعية حرّاً طليقاً؛ وكيف يربي الأستاذ طلابه تربية تنفع الأمة الإسلامية، وتسدّ أماكن الضعف منها.

ومن أهم ما قال هؤلاء للأمة الإسلامية، إن الذي يجتهد ويكدّ ويفكر ويتدبر كتاب الله وسنة نبيه، خير من الذي يُمضي حياته من غير أن يكدّ نفسه، ويُجَلّي عقله بالتفكير في آيات القرآن، ويقطع أوقاته من غير أن يستنير سبيله بما جاء به محمد ﷺ.

فكان اسم الأستاذ اختر أحسن الإصلاحي من أبرز تلك العلماء الذين عاشوا للأمة قبل أن يعيشوا لأنفسهم، وفكّروا في الأمة وحالها قبل أن يفكّروا في أنفسهم وحالهم، وعزموا أن يفعلوا شيئاً في حياتهم للأمة قبل أن يفعلوا شيئاً لأنفسهم؛ عاشوا للأمة وبذلوا كلّ وسعهم في تقويم معوجّها، وأمضوا حياتهم بأكملها مفكرين مجتهدين؛ لتكون أمتنا الإسلامية هي الأعلى، ولتكون أمتنا الإسلامية هي القائمة في أقدم الصفوف وأولها.

كذلك كان أسد الرجال وبطل الأبطال، الأستاذ اختر أحسن الإصلاحي رحمه الله

رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنّه بنیان قوم تهدما
مات الأستاذ فبکی الجميع. بکی علیه أهله؛ لأنهم فقدوا ظلّ الأب ووُدَّ الأخ ولذّة
العشرة معه، وبکی علیه أصدقاؤه لأنهم فقدوا المثل الأعلى لأحسن صديق، وبکی
عليه جيرانه؛ لأنهم فقدوا جازًا ما ترك حقًا من حقوق الجار إلا آذاه بل زاد على
ذلك، فهم قد فقدوا أنس رجل، وبکی علیه الكلُّ؛ ليُظهروا بذلك ألمهم وحزنهم على
رجل يحسن البكاء له اليوم إذ كان للجد والعمل بالأمس.

وبكت عليه الأمة الإسلامية لشيء غير تلك الأشياء ولسبب ولسبب غير تلك
الأسباب، بكت عليه الأمة؛ لأنها فقدت معلّمًا يعلم أبناءها كيف يعيش العالم حرًّا
طليقًا من جميع قيود المصالح الذاتية والمنافع المحدودة، إنها فقدت عالمًا يعلم
رجالها كيف يكون التحقيق بقلم التحقيق لا بقلم التقليد المحض، ولا بقلم الرياء
والسُّمعة، إنها فقدت عالمًا يعلم أبناءها قيمة العلم وأهميته، وأهمية صاحبه
وواجباته تجاه الأمة الإسلامية الحائرة، الواقفة وسط طعنات فكرية ضالة،
وضربات علمية متنوعة، فكان فقدانها بمثابة من قيل فيه:

فقد كان للأعداء نار محرق ولقومه حرّمًا من الأحرام

مولد الأستاذ ونشأته

ولد الأستاذ اختر أحسن الإصلاحي في مدينة "أعظم كره"، في حي يعرف باسم
"أملو جكيا"، في عام 1320هـ، من أب اسمه جنيد عالم وأم اسمها لطيفة خانم.
كان والده حافظًا للقرآن، وكان ذلك الزمن زمان الاستعمار البريطاني على الهند،
وكان رجلًا شديد الطبع سريع الغضب.

لم يبلغ الأستاذ أشدّه حتى لبّت أمّه داعي الأجل، فسافرت إلى عالم الأرواح،

وتركت خلفها ابناً صغيراً، وكان من العجب العجائب أنّ والده بعد وفاة أم أولاده بدلاً من أن تلين جوانبه، ويهدأ مزاجه، ويزيد رحمةً وشفقةً، ازداد ما فُطر عليه من الطبع الشديد والغضب السريع.

وفي يوم من الأيام حضر أحوال الأستاذ بيت أبيه، وأخذوا الأستاذ وأتوا به إلى بيتهم، تحت تربيتهم ورعايتهم، وقيل بأن والد الأستاذ أخرج أبناءه من بيته بنفسه بعد وفاة والدتهم.

فتربى الأستاذ وترعرع عند جدّه من أمه، وكانوا أهل علم وفضل، يحبّون العلماء، وقد نهلوا من مناهل العلم، كانوا رحماء فيما بينهم، يتمسكون بزمام السنّة، ويُعادون البدع والخرافات الموجودة في المجتمع الذي كان يُحيط بهم.

فتربى الأستاذ بينهم خير تربية، وتعلّم منهم مكارم الأخلاق وقيمها، وشَغَفَ بالعلوم الشرعية، وعطشَ لنيهل من مناهل العلم ومنابعه.

خروجه إلى منهل العلم والتعلم

فلما بلغ الأستاذ من العمر مبلغاً، كان من الممكن أن يذهب إلى مدارس العلم، لينهل من تلك المناهل التي خُلِقَ لأجلها، وأُرسل على هذه الخضراء لخدمتها، وتربية أجيال الأمة من خلالها، أُدخل في مدرسة كانت في مدينته، تُعرف باسم "مدرسة الإصلاح".

فبدأ سفره العلمي من هذه المدرسة، وبقي فيها حتى تخرّج فيها، ثم عُيّن مدرساً فيها، وبعد فترة من الزمن أصبح وكيل المدرسة، يتمسك بزمامها العلمي بأكمله.

لم يكن الأستاذ قادراً على فن الخطابة قدرة الماهرين والبارعين فيه، إلا أنه كان يملك ملكة الكتابة إلى حدّ لا يعجز عن بيان ما يجول في خاطره ويموج، كان ماهراً بارعاً في فن الترجمة، حيث كان عالماً باللغة العربية، ماهراً في رموزها وأساليبها، أستاذاً في بلاغتها وآدابها، فقد نهل من مناهل التراث العربي نثراً وشعراً وعلّ، فكان

يُكثر من الاطلاع والقراءة للتراث العربي واستخدامه في فهم أساليب القرآن، وبيان لآليها وذُررها، فكان يُحلّ من مشكلات القرآن ما لا يستطيع عليه أغلب علماء عصره، حيث كان أكبر العلماء وأشهر مهرة هذا الفن يأتون إليه، ويطلبون منه العلم، ويستفسرون منه فيما أشكل عليهم من فهم بعض الآيات، ورفع بعض العقبات اللفظية والبلاغية، ويذهبون من عنده وصدورهم الضيقة قد اتسعت، وعقباتهم العلمية قد زالت وانجلت.

ورع الأستاذ وتقواه

لم يكن الأستاذ أختَر أحسن الإصلاحي من أولئك العلماء الذين يأخذون العلم ويطلبونه لينقلوه إلى غيرهم من غير أن يتأثروا به، لم يكن من أولئك العلماء الذين يتعلمون العلوم الشرعية ليجعلوه مكسبًا لهم يكتسبون به في أيامهم القادمة، ولم يكن من أولئك العلماء الذين يعرضون للمدارس والجامعات علمهم كما تعرض الشركات المنتجة سلعها للبيع، يعطون ما عندهم ويأخذون عليها أجورهم.

لقد كان الأستاذ عاملاً بكل ما عليم، لقد كان علمه يظهر في حياته العملية، يظهر في تعامله مع الناس، في تعامله مع من كانوا تحت يديه في المدرسة وخارجها، كان يظهر علمه في كلّ جزء من أجزاء حياته، وفي كل أمر من أموره وشؤونه، العامة منها والخاصة.

فكان العلم الشرعي، علم كتاب الله وسنة رسوله أعلى ما كان يملكه، وأحبّ ما كان لديه من المتاع، وأعظم وأجلّ ما كان يراه في حياته، كأنه كان حلية زين بها حياته، وجمل بها ليله ونهاره، وكأن العلم الذي أوقف حياته لأجله، ووهب كلّ ثانية ودقيقة من عمره لحصوله، كان له نورًا وضياءً استنارت به حياته بأكملها، فلم تخل منها زاوية إلا استنارت من علمه.

فجعل علمه في منزلة أقام بها صراط هذه الحياة، وشقّ به طريقًا إلى حياة العمل،

الطريق الذي يغير نمط حياة الإنسان، الطريق الذي يغير نظرة الإنسان للحياة، الطريق الذي يرتوي به الإنسان من الورع والتقى، الطريق الذي بشر الله من سلوكه بالجنة، الطريق الذي لا يتضعضع فيه الإنسان ولا يعثر، حتى يلقي ربه طاهرًا نقيًا، الطريق الذي كان مسلك الأسلاف من المؤمنين الأبرار.

فكان يعلم أنه لا نجاح ولا فلاح لمن اكتسب علوم كتاب الله وسنة رسوله، وإن كان أمهر وأبدع خلق الله في تلك العلوم، إن لم تنزل هذه العلوم في حياته العملية، وتُنزله منزلة الورع والتقى، حتى تمثل تلك العلوم ومعارفه في كل عمل يقوم به، وفي كل أمر ناب به، وفي كل شأن بدأ فيه.

فكان الأستاذ عملاً بكل ما علم من علوم كتاب الله وسنة رسوله، فإن كان الأمر كذلك فقد وجب أن تتغير الحياة بأكملها، ويتراءى الإنسان في شكل وفي هيئة غير من لم يهمل من هذه العلوم ولم يعلم.

ولا أتكلّم عن هذه الحياة المبنية على الورع والتقى للأستاذ حين احدودب ظهره، واشتعل رأسه شيبًا، وبلغ من الكبر عتياً، بل كانت حياته كذلك وهو في ريع شبابه وعُنفوانه، وفي حين بلغ فيه أشده وكمال شبابه.

فقد كان الأستاذ يحب الألعاب البدنية، وكان بارعاً في كرة القدم وكرة الطائرة، وكان يلعب في فريق مدرسة الإصلاح، وفي يوم من الأيام، ذهب فريق المدرسة لكرة الطائرة إلى مدينة "عظمت كره" ليشارك في إحدى المباريات هنالك، فذهب الأستاذ مع فريق مدرسته، وكان هذا الفريق معروفاً مشهوراً في كرة الطائرة-وهذه اللعبة من أكثر ما يحبها أهل هذه المناطق ويولعون بها، حتى يبلغون حد الجنون فيها- فلما بلغ الفريق إلى تلك المدينة، واشتهر مجيئه وشركته في هذه المباريات، أرادت نساء والي المدينة أن يشاهدن مباراة هذا الفريق، فلما علم الأستاذ بذلك، الشاب الذي هو في عنفوان شبابه، هل تعلمون ماذا كان ردّه؟؟؟

هل تعلمون ماذا قال؟؟؟

قال بأنه لا يلعب ولن يشارك في المباراة إلا إذا كان هناك اهتمام معقول للحجاب لأولات النساء اللاتي أردن أن يشاهدن المباراة، ولا تخرج أحد منهن من حدود بيتها، بل لهنّ أن يشاهدن من بيوتهن من وراء حجاب، فذلك أظهر لقلوبنا وقلوبهن.

نعم، هذا هو ما قاله لاعب كرة الطائرة، اشتهر فريقه في الآفاق، واشتاق الجمع لرؤية مبارياته ذكوراً وإناً، نعم هذا هو ما اشترط به ذلك اللاعب، فقبلت شروطه، فنزل في الملعب فكان كما يُرام منه ومن فريقه، وكانت النساء في بيوتهنّ ترين المباراة من خلف الحجاب.

هل تعلمون لماذا كان كذلك؟؟؟

وأى شيء فرّق بين هذا اللاعب وبين غيره من اللاعبين، الذين يرحّبون بكلّ ما ليته لم يُرحّب به في الملاعب، ويُقبل منهم كلّ ما ليته لم يُقبل منهم في تلك المواقف؟؟؟ إنه علمه الذي نهل من مناهله، هو الذي فرّق بينه وبين غيره من اللاعبين الذين نراهم هذه الأيام، إنه علمه الذي تعلّمه ليعمل به، ويُنزله في حياته في أعلى المنزل، إنه علمه الذي تعلّمه ليُنوّر به كل زاوية وكلّ ناحية من حياته، أكان ذلك في قاعة المدرسة وجامعها، أم كان ذلك في طرق الأحياء والمدن، أم في الملاعب وأماكن النشاطات العامّة.

إنه علمه الذي يفرّق بينه وبين غيره من الناس، علمه الذي أنزله في منزلة الورع والتقى بطريق تلازمه في كلّ أموره وشؤونه.

إن المتعلّمين للعلوم الشرعية من الكتاب والسنة كثيرون، وإن المتعلّمين لفنون القرآن والحديث، والماهرين برموزه وفنونه كثيرون، حتى يصعب حصرهم، وإن المنشغلين بتلك العلوم كثيرون، ولكن الذين يتعلمونها ليتأثروا بها، ويغيروا حياتهم

بأكملها وفق منهجها وأصولها، ويراعونها في كل أمر ناب بهم، أولئك هم القليلون، القليلون النادرون، إنهم أندر من الكبريت الأحمر، وأندر من اللآلي المنفردة، والدّرر النادرة، وكان الأستاذ اختر أحسن الإصلاحي من أولئك القليلين النادرين.

عشقه بالصلاة

{من الممكن أن أقف على سطح الكعبة وأقول "إنه من لم تصلح صلاته لا يمكن أن يكون إنسانًا حسنًا"}

نعم، هذا هو كان ميزان الأستاذ اختر أحسن الإصلاحي، إذا أراد أن يقيّم إنسانًا في حياته، وفي جميع أموره وشؤونه، هذا هو ما قاله الأستاذ عن الصلاة، وعن تقييم الإنسان في صلاحه ومعرفته، فقد كانت الصلاة هي ميزان الإنسان عنده، فأى رجل إذا أراد أن يرى نفسه، ويرى صلاحه في حياته، فعليه أن يرى إلى صلاته، ويقيّم نفسه من خلال الصلاة، فإذا حسنت صلاته كان رجلًا صالحًا حسنًا، وإلا فهو ليس بإنسان صالح في نظر الأستاذ.

هذه كانت أهمية الصلاة في نظره، وهذا هو كان أصله في معرفة الرجال.

كان الأستاذ أحد أركان مجلس الشورى للجماعة الإسلامية في الهند، وقد وُيِّ إمارة الجماعة في منطقته، ولا يُمكن لأحد أن ينضم إلى الجماعة رسميًا إلا بعد تعبئة الاستمارة لعضوية الجماعة، وكان يلزم عليها توقيع أمير المنطقة وتصديقه، الذي يدلّ على أهلية الرجل لينضم إلى الجماعة رسميًا كعضو من أعضاءها.

فكان هناك أحد تلامذة الأستاذ قد تخرج في مدرسته، وعُيّن أستاذًا فيها، كان رجلًا ذا أهلية فائقة في تخصصه، وكان مع ذلك أديبًا شاعرًا، يحبّه أستاذه لقوة عقله، ومعرفته في تلك العلوم التي كان متخصصًا فيها، وكان يشارك في نشاطات الجماعة ويبدع فيها، حتى جاء وقت عضويّته لينضم إلى الجماعة رسميًا، فيُصبح

عضوًا من أعضاءه، فجاءت استمارته إلى الأستاذ الذي كان أميرًا على تلك المنطقة ليُصدّق على أهليته لعضوية الجماعة، فأبى الأستاذ، ولم يوقع عليها.

تخيّر الجمع، وتخيّر الأساتذة وأمرء المناطق، هل هذا الرجل لم يصلح لعضوية الجماعة؟؟؟ فمن ذا الذي يصلح سواه، وما الذي يمنع الأستاذ من تصديقه على استمارته؟؟؟

فأتوا إلى الأستاذ يسألونه عن الأمر، وأتى معهم ذلك الأستاذ، فقال له الأستاذ بكلّ رفق، بأسلوب يملأه شفقة الأستاذ على أحبّ تلاميذه، وبأسلوب محبّ لحبيبه، حيث قال:

"لا نختلف في أهليتك، ولا رأيان في صلاحيتك، ولا نُشكّ في حماسك وحبّك في أمور الجماعة وشؤونها، ولكن أصلح صلاتك، فإن لم تفعل ذلك، لن أصدّق على استمارتك، أصلح صلاتك".

نعم هذا هو ما قاله الأستاذ، لأنه لا يمكن أن يصدّق على استمارة أحد لم يره رجلاً صالحًا حسنًا، والصلاة كانت ميزان الصلاح والحسن عنده قبل كلّ شيء سواها، فالصلاة كانت أهم ما يمكن أن يُصلح الإنسان في نظره، ولا يمكن لشيء سواها أن يفعل ذلك في الإنسان.

هذا كان حبّه وعشقه بالصلاة، رحمه الله رحمة واسعة.

كان الأستاذ يقول، إننا - أهل الجماعة الإسلامية - نريد أن نُقيم الدين، وكيف يمكن أن نُقيم الدين قبل أن نُقيم الصلاة.

كم منا يقرأ قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -:

"إن أهم أمور دينكم الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيّع".

كم منا يقرأ ما قاله عمر عن الصلاة، ولكن وا أسفاه!!! كم منا يفهم هذا القول الذي يجب أن يكتب بماء الذهب على أوراق الحرير، كم منا يطبق هذا القول في أمور صلاته، كم منا يرى هذا القول ميزان صلاحه، وحفظه لأمر حياته وشؤونها. القليلون والنادرون!!!

لأننا أمة نقرأ الأقوال، ونفهم الأصول، نتعلمه وننقله إلى من يأتي بعدنا، ولكن أين الذين يجعلونه ميزاناً يُقيمون به أنفسهم؟؟؟ أين الذين يطبقونه على واقعهم؟؟؟ أين الذين يُصلحون حياتهم بنوره؟؟؟ القليلون والنادرون.

وكان الأستاذ أختار أحسن الإصلاحي من أولئك القلة، من أولئك القلة الذين يرون الصلاة مبدء الصلاح، وأول خطوة على سبيل النجاح في دنياهم وآخرهم.

اجتنابه من تاركي الصلاة

كان الأستاذ رجلاً خلوقاً، تعلم مكارم الأخلاق من منبع الأخلاقيات، استنار الخلق والطبع بنور من وحي القرآن، فكانت أخلاقه وطبعه وفق نهج القرآن، وطبق تعاليم حبل الله الذي أمر الناس باعتصامه.

فكان يحب الناس من غير تفريق، يحب الجهلاء كما يحب العلماء، يُكرم العامة كما يُكرم الخاصة، يبتسم على كل من قابله وشافهه، وكانت أبواب بيته مفتوحة لكل قاصد ومريد، يُضيف الناس جميعاً ويكرمهم خير تكرم، وإن كان قابله أول مرة، أو لقي الأستاذ من غير حاجة، لا يذهب الآتي إلى بيته إلا وقد مدح خير يديه وفضل طبعه وحسن أخلاقه.

ولكن مع كل هذه الأخلاق، وهذا الفيض والكرم، لم يكن يحب أن يتناول الطعام مع من لا يصلي أو يقصر في حق الصلوات، فإذا أتى أت وكان صالحاً حسب أصوله للصلاح، جلس معه على مائدة الطعام، وإن لم يكن كذلك استضافه خير ضيافة، وأكرمه كل الإكرام إلا أنه لا يجلس معه على مائدة الطعام، ولا يشاركه فيها، بل

ينتظر حتى يفرغ من حاجته ويُودعه، فإذا فعل كذلك، جلس وحده على السُّفرة.
من أين نجد أمثاله في هذا الزمان؟؟؟ وأين نجد مثل هذا الرجل في عصرنا الذي
نحن فيه الآن؟؟؟ فهم أندر من اللآلي النادرة المفقودة.

أي جنّة جنّة بدون صلاة

{إن أصل جمال الجنّة ورونقها هي الصلاة، وأيُّ جنّةٍ جنّةٌ إذا لم تكن فيها الصلاة}.
هذه هي النظرة التي كان ينظر بها الأستاذ إلى الجنّة وجمالها ورونقها، فكان يقول
على مرأى من الناس، الجنّة التي ليست فيها الصلاة ليست بجنّة، فأصل جمال
الجنّة ورونقها هي الصلاة.

ما هذا الحبُّ والشّوق بالصلاة!!! وما هذه اللذة التي كان يجدها الأستاذ في
الصلاة!!! وما هذه الطمأنينة التي كان يجدها الأستاذ وهو يقوم أمام ربّه يناجيه في
الصلاة!!!

نعم هذه هي لذّة الصلاة لمن وجدها، وهذا هو الحبّ والشوق بالصلاة لمن ذاق
حلاوتها، وهذه هي الطمأنينة التي تضمّر في الصلاة لمن صلاها كما أمر الناس
بأدائها، إنها الصلاة التي يناجي فيها الإنسان ربّه، ويقوم فيها بين يديه، ويُباشره
بالكلام والمحادثّة من غير أن يحيل حائل بين العبد ومالكه، وبين المخلوق
وخالقه، فلماذا لا يجد فيه ما يقول بعده إن الجنّة التي لم تكن فيها الصلاة لا
تستحق أن تكون جنّة، ولا يمكن أن تكون جنّة.

هذه هي الكيفية التي علينا أن نجدها في الصلاة، وهذه هي اللذة التي علينا أن
نستلذّ بها في الصلاة، وهذا هو الحبّ والشوق الذي يجب أن يكون بالصلاة.

ولكن أين أولئك الناس؟؟؟ أين أولئك المسلمون، أين أولئك المحبون للصلاة
والمُغرمون بها؟؟؟ إنهم والله من أندر النواذر في هذا الزمان، وكان الأستاذ-رحمه الله

رحمة واسعة - من أولئك القليلين النادرين، لقد كانت لنا عِظات في حياتك يا أستاذ.

من أين لك هذا، يا عاشق الصلوات!!!

كان الأستاذ أختار أحسن الإصلاحي يُعاني من الأمراض المتتالية المختلفة قبل أوانها، وفي مرة من المرات ازدادت نوبة المرض عليه، وقد أنحفته الأمراض من قبل، فزاده مرضه الجديد ضعفاً على ضعفه، وأوهنه وهناً على وهنه، حتى وصل به الحال إلى أنه لم يكن مستطيعاً لطول القيام، وطول الركوع والسجود، الذي كان قد اعتاد عليه في صلواته، فشَقَّ عليه ذلك، وعَزَّ عليه ما أوصله إليه الحال، - الذي لم يكن من عنده، ولم يكن مستطيعاً على دفعه والبُعد عنه - وكيف لا يكون كذلك مع ما كان عليه من عشق الصلوات، والتلذُّذ بها، والرؤية إلى نعيم الجنة وورونقها من خلالها.

فلما وصل به الحال إلى ذلك، ظهرت عليه آثار الحزن، ودبَّ في قلبه القلق على ما كان يعانيه من عدم الاستطاعة على ما كان يرى فيه حياة قلبه وقلابه، وصلاح دينه ودنياه، وسعادة لا يرى بعدها سعادة، ولا يراها في شيء عداها.

فنادى الأساتذة الكبار من مدرسته، وعرض عليهم ما كان يعاني منه، فقال لهم: لقد ترون ما قد بلغني، وتنظرون إلى ما أنا فيه، فإذا ذهبت إلى المسجد اضطررت إلى أداء الصلاة جالساً؛ لعدم قدرتي على القيام الطويل مع الإمام، فيفوتني أجر القيام في الصلاة، وإذا أديتها في غرفتي أتيت بفرض القيام قائماً حسبما وجدت إليه سبيلاً، ولكن فاتني أجر الجماعة وفضلها، فما ترون في أمري؟؟ هل أقوم بأدائها مع القيام المستطاع في غرفتي؟؟ أم التحق بالجماعة في المسجد وأصلحها جالساً؟؟ فنظروا في الأمر، ورأوا حالته التي كان فيها، ودرسوا المسألة، ثم قالوا: يا أستاذ، نرى أن تؤديها في غرفتك؛ فالقيام فرض من فرائض الصلاة، ونحن أُمَرنا بإتيانه ما وجدنا إليه سبيلاً، أما الجماعة فيها، فحكمها سنّة على أشهر الأقوال، وأنت

معفو عنها في حالتك التي نراك فيها.

فسمع الأستاذ ما أتوا به، ودام يُفكر في أمره، كأنه لم يقتنع بما أتوا به صفًا، ولم يرض على أن يفوته شيء مما يتعلق بالصلاة، فدام طويلًا يفكر في أمره ويقلبه من كل وجه، حتى وصل بوحى قلبه ونور صدره وحبّه للصلاة وغرامه بها إلى حلٍ اقتنع به، ورضي به لنفسه.

هل تعلمون ما هو الحل؟؟؟ ما هو الحل الذي وصل إليه هذا المغرم بالصلاة والعاشق بكلّ معاني العشق بالصلاة؟؟؟ لقد وصل إلى أنّه يصلي في الغرفة أولاً، حيث يقوم بأداء الصلاة مع قيامها قدر ما يشاء الله، ثمّ يذهب إلى المسجد ويؤديها جماعة مع الإمام جالسًا، فلا يفوته أجر القيام ولا أجر الجماعة وفضلها.

ما هذا الحل للجمع بين أجريين!!! ما هذه النتيجة التي وصل إليها هذا المريض في حاله الذي كان فيه!!! في حال إذا كنّا فيه، أعفينا عنّا الصلاة بأكملها، وقلّبنا كُتُب الفقه بأكملها، وجمعنا الأدلة من أولها إلى آخرها؛ لنجد لنا فيها رخصة نعتمد عليها، فنخرج من هذا الفرض بأكمله، وإن لم تحتمل تلك الأدلة وتلك الكتب على شيء من ذلك.

أين أولئك الرجال في هذا الزمان؟؟؟ أين أولئك المحبون للصلوات؟؟؟ أين أولئك الذين يفكرون بهذه الطريقة؟؟؟ أين أولئك الذين يذهبون إلى هذه المذاهب؟؟؟ أين أولئك الذين نرى فيهم ما رأيناه في الأستاذ؟؟؟ كلا ورب الكعبة!!! إن الزمان قد مسحهم من هذه الصفحة الخضراء، وإن دوران الوقت قد ذهب بهم إلى أعلى السّماء، فيها نحن نلتمس أهون الأعذار، ونعتمد على أضعف الرُّخص والجواز، فرُحماك يا ربّنا بنا.

القدوة المثلى

لم يكن الأستاذ أختر أحسن الإصلاحي معلمًا في كلّ معانيه فحسب، ومربّيًا

لتلامذته من خير مربيّ رآته البشرية على هذه الخضراء فحسب، ولم يكن ورعاً تقياً على وفق ما تعلمه من كتاب الله ونور شارحه فحسب، ولم يكن ذا خُلُقٍ وطبعٍ كما يُرام من علماء الأمة الإسلامية فحسب، ولم يكن خير جيران وخير أبٍ وخير زوج وخير أمير فحسب.

بل كان مع كلّ ما كان خير قدوة للأمة الإسلامية، القدوة المثلى للبشرية بأكملها، لعلمائها وجهلاءها، لعامتها وخاصتها، لأساتذة المدرسة وطلّابها، لأفراد الأمة وغيرهم من أفراد البشرية، كان القدوة الذي أخذ أساليب القيادة من وحي القرآن، القدوة الذي يعلم أن القيادة تحتاج إلى عقل عميق، وقلب لين لطيف، ولسان مؤثر جميل، وأسلوب يملك به القلوب، ويجلب به النفوس.

كان الأستاذ يعلم مواضع الشّدة واللين، ومواضع الغلظة والرحمة، كان يعلم أن الرفق واللين يفعل ما لا تفعله الغلظة والشّدة، كان يعلم كيف يُسيطر على القلوب ويؤثّر في النفوس، فكان خير مربيّ وخير معلّم وخير ناصح وخير قدوة.

قرء الأستاذ آية من كتاب ربّه تقول "وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن"، فأنزل هذه الآية في نفسه، وعمل عليها كلّ العمل، وأخذها أصل قيادته، ومبدأ من مبادئ تربيته، وأسلوباً من أساليب مخاطبته للناس، فضمن بذلك النجاح، وصار بذلك القدوة المثلى.

ويتجلّى هذا الأمر من شخصية الأستاذ بقصة نذكرها للقارئ، لعلنا نستفيد منها، ونستنير بها في حياتنا، فيسهّل لنا الوصول إلى المرام، ويُمكن لنا الوصول إلى النتائج والغايات.

كان الأستاذ حينئذ وكليلاً لمدرسة الإصلاح، وفي يوم من الأيام عُيّن فيها أستاذاً جديداً لتدريس اللغة الإنجليزية، وكان هذا الأستاذ يُحَلِّقُ لحيته، فلمّا عُيّن مدرّساً في هذه المدرسة التي كانت تمثل دور مدرسة إسلامية بكلّ معانيها، قابل هذا

الأستاذ الجديد عددٌ من أساتذة المدرسة القدماء، فنصحوه بألا يفعل ذلك وهو في هذه المدرسة الإسلامية، ففعله ذلك خلافٌ للسنة وخلافٌ لشأن المدرسة، فامتنع من أن يسمع إلى ما قالوه، فألحوا عليه واستنكروا خلق لحيته، فازداد امتناعاً وأبى كلَّ الإباء، فأتى الأساتذة الأستاذ اختر أحسن الإصلاحى وأخبروه بالأمر الذي جرى بينهم وبين ذلك الأستاذ، وبالغوا في الاستنكار على أمره، فقال لهم الأستاذ:

مهلاً مهلاً!!! إنكم أخذتم بالشدة في مكان اللين، إنكم أخطأتم في أسلوبكم، وأخطأتم في مبالغتكم في الاستنكار على أمره، عليكم باللطف، وأسلوب لين جميل، عليكم بالذي هو أحسن.

فذهب الأساتذة من عنده، وسمع الأستاذ الجديد بما جرى، فأتى في يومه إلى الأستاذ اختر أحسن الإصلاحى وقال له:

أيها الشيخ!!! لقد سرّني جداً ما بلغني منك في أمري، وإنني أعيدُك اليوم على ألا أحلق لحيتي ما بقيت حيّاً، وستكون على وجهي لحية حسبما تقتضيه سنة خير البرية محمد بن عبد الله ﷺ.

انظروا إلى هذا الأسلوب، انظروا إلى هذه الحكمة، انظروا إلى هذه التربية، إنه والله كان خير مربٍّ وخير معلّم وخير داعٍ وخير قدوة في عصره، رحمه الله رحمة واسعة.

فعل عينَ فعلٍ أميري المؤمنين

في يوم من الأيام حضر عند الأستاذ طالب من طلاب المدرسة، وأراد رخصة لبعض الأيام في وسط أيام الدراسة لأمر ما، فسمع الأستاذ إلى عذره، وأبى أن يسمح له بتلك. فلما رأى الطالب أن الأستاذ لن يوافق عذره، ولن يسمح له بالذهاب، رفع عليه صوته، وأغظّ معه في الكلام، وقال له ما ليس من شأن الطلاب أمام الأستاذ، بل ليس

من شأن الأولاد فيما بينهم أن يتحدثوا بذلك، فلما انتهى مما كان يأتي به أمامه، لم يكتف بذلك، بل خرج من عنده، وأخذ أغراضه وذهب حيث أراد أن يذهب.

فلما قضى حوائجه، ورجع إلى المدرسة لم يقل له الأستاذ كلمة واحدة، فاستغرب الأساتذة كل الاستغراب، وبلغت الحيرة منهم مبلغها، إن الطالب الذي فعل ما فعل لا يستحق أن يمكث في المدرسة ثانية واحدة، يجب أن يُفصل ويُطرد من المدرسة في أول وهلة، ما بالأستاذ أختار لم يفعل معه شيئاً، ولم يقم بأي إجراءات ضده.

حتى ذهب أستاذ من أساتذة المدرسة إليه، واستفسره عن الأمر، فقال الأستاذ: أما رأيت ما فعل أمامي قبل أن يذهب، أما رأيت بما أتى به وهو يخاطب وكيل المدرسة، وأستاذًا من أساتذته، فوالله لم أقم بأي إجراءات ضده إلا وقد خالط نفسي فيه، ولا أريد أن أقوم بأي عمل، أو أتى بأي أمر أنتقم به عن نفسي، أو يخالط فيه انتقامي لنفسي.

إنه والله عيّن ما فعله علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في حين اشتد فيه دوران رحى الحرب، فارتفت السيوف وعلت، وجرت الدماء وسالت، وقُطعت الأعناق وتساقطت، وفي هذه الحالة لحق علي رضي الله عنه مشرّكاً، وتمكّن منه، فلما أهوى بسيفه ليُنزل عليه القضاء الأخير، ويقوم بتطهير الأرض من رجسه، إذا هو فتح فاه الذي ليته لم يفتح، فكأنه باب من النار يُفتح، وبصق في وجهه -أكرمه الله-، فلما فعل ذلك، ولم يكن بين سيف علي -أسد الله- وبين رقبة ذلك المشرك إلا ثواني معدودة، تركه علي، ونزل عن صدره، فقيل له يا إمام لم تركته بعد أن تمكّنت منه، وخاصة بعد فعله ما فعل؟؟؟

فقال علي -رضي الله عنه- رأيتم لما لحقته كنت أسعى من أجل أن أنتقم لله، وأن أجاهد في سبيل الله، فلما بصق في وجهي خشيت أن يخالط انتقامي لنفسي انتقامي لربي فتركته.

وما فعله الأستاذ أختَر أحسن الإصلاحي كان عين ما فعله عمر-رضي الله عنه- حين أحضر بين يديه سكران، فأمر عمر أن يُحدّ، فشتمه ذلك السكران، فتراجع عمر عن ضربه، فقليل له: لم تركته يا عمر حيت شتمك؟؟؟

قال: إنه لما شتمني غضبت، فلو ضربته لكان ذلك لغضبي لا لربي.

نعم إن ما فعله الأستاذ أختَر كان عين ما فعله عمر وعلي-رضي الله عنهما- لأنه كان قد نهل من نفس المنهل الذي تعلّم منه، وسقى نفسه من نفس ما سقى به، واستنار في حياته بعين ما استنار به أمير المؤمنين عمر وعلي، فكيف أمكن له أن يُخالفهما في شأن من شؤونهما، وفي أمر من الأمور التي تنوب به. فرُحماك يا من أنرت لنا نورًا نستضيء به، وجدّدت لنا سبيلًا اندثر بعد زمن طويل، وأقمت لنا خير مثال في هذا الزمان الذي نحن فيه. رُحماك يا أستاذ الأمة، رُحماك يا خير أستاذ البشرية في عصره.

شغفه بالقرآن

القرآن كان دستور حياة الأستاذ، الدستور الذي كان يطبّقه كما ينبغي، الدستور الذي كان يراعي بما فيه ليله ونهاره، الدستور الذي أنزله في نفسه منزلة صار يجري مع جريان دمه، الدستور الذي كان بمنزلة الروح منه، الدستور الذي كان يحبّه أكثر من حبّه لنفسه، الدستور الذي كان يرى فيه سعادة الدنيا والآخرة، الدستور الذي لم يكن يرى النجاح إلا به، الدستور الذي كان المرجع الوحيد في كلّ أموره وشؤونه، الدستور الذي كان أصل حياة الأستاذ بكلّ معانيه، الدستور الذي كان الأستاذ تطبيّقًا عمليًا له، فمن أراد أن ينظر إلى ذلك الدستور فعليه أن ينظر الأستاذ، فمن أراد أن يعلم ما في هذا الدستور فعليه أن يُصاحب الأستاذ.

كان الأستاذ أختَر أحسن الإصلاحي محبًّا حقيقياً للقرآن، كان يشغف بالقرآن بطريقة قلّ وندر في هذا الزمان، كان يعشق بالقرآن حقّ العشق، وكان يؤدي كلّ

ما يقتضيه هذا العشق وهذا الحب والغرام.

الإمام حميد الدين الفراهي، العالم الجليل لعلوم القرآن وفنونه، العالم الذي أحى القرآن وفنونه في عصره، الذي ألّف كُتُبًا هي أنفُس من مكْتَبات كُتِبَتْ في عصره في علوم القرآن، الآراء التي عجز عن فهمها الأجلاء من مهرة هذا الفن، الرموز والخفايا التي انجلت بجهود الأستاذ الفراهي لم يكن يقدر عليها أحد إلا من أسدل عليه الرحمن بفضلَه الخاص، وتوفيقه الذي يختار له من يشاء من عباده، ويصطفي له من أراد من الإنسان.

نزل الإمام الفراهي في مدرسة الإصلاح، وجعله مركزًا لجهوده وأعماله العلمية والتحقيقية في ميدان القرآن، فاصطفى من أساتذة المدرسة من رآهم أهلاً لمساعدته في هذه المهمة الجليلة، وكان من الذين اصطفاهم الأستاذ اختر أحسن الإصلاحي، لما رأى فيه من الأهلية لهذا العمل، ولما رأى فيه من الصلاحية ليقوم بهذا المهمة.

فجعل الفراهي الأستاذ اختر معاونًا له في هدفه الوحيد الذي استهدفه في حياته، وهو التحقيق والتدبر والتفكير في وحي الله القرآن، والكشف عن رموزه وخفاياه، والبحث عن لآليه ودرره التي لا تنتهي إلى يوم البعث والنشور.

فكان الأستاذ اختر يلزمه آناء الليل وأطراف النهار، لم يكن يتركه لا في أيام المدرسة ولا في أيام الإجازة.

فكان يبقى مع أستاذه الفراهي في شهر رمضان، متفرغًا من أعمال المدرسة، حيث تكون الإجازة في المدرسة، ويمتنع من أن يذهب إلى بيته، ويروح عن نفسه من أعماله التي كانت تُشغله أيام المدرسة، كان يجلس مع الأستاذ الفراهي ويتعلم منه علوم القرآن وفنونه، يخدمه خدمة الخادم المطيع لسيّده، لعلّه يجد عنده ما لا يمكن أن يجد عند غيره من علماء عصره.

ولما دنا القضاء الأخير من الأستاذ الفراهي، نادى الأستاذ أختر في مكتبه، وجعله وارثاً لكلّ مسوداته التي كتبها ولم تُطبع بعدُ، وجعله خليفة له من بعده على تلك الخزائن العلمية التي علم أنه سوف يتركها خلفه عن قريب، بعد الموعد الذي اقترب أجله، الموعد الذي كان يفارق هذا العالم بعده إلى أبد الأبد.

وبعد وفاة الأستاذ الفراهي، أثبت الأستاذ أختر أنّ الفراهي لم يخطئ في تعيينه لخليفته ووارثه للخزائن العلمية التي تركها خلفه، فبدأ يعمل على ما تركه من التحقيق والترجمة والإخراج في شكله النهائي إلا أن قضى الله عليه بقضائه الأخير، واقترب منه النداء الأخير، فلبّى ذلك المنادي على ندائه، ولحق بأستاذه الفراهي في عالم الأرواح، ليُخبره أنه لم يقصّر في عمله، وأتى بما كان فوق مقدوره إلا أن قضاء الله وقدره نزل عليه قبل أن ينتهي من مهمّته.

رحمك الله يا أستاذ لقد أوقفت حياتك بأكملها للعيش بين دِقَّتَي القرآن.

ما هذا الاحترام والإجلال لعلوم القرآن

كان الأستاذ أختر أحسن الإصلاحي أستاذ التفسير وعلوم القرآن في الأصل، ولكنه مع ذلك كان يأخذ بعض الحصص لغيرها من المواد، مثل اللغة العربية والنحو والصرف، هل تعلمون لماذا؟؟؟

كان غيره من الأساتذة يقولون له أن يخصص كلّ الساعات التي عليه لتدريس التفسير وعلوم القرآن، ولكنه كان يأبى عليهم ذلك، ويُصرّ في أخذ بعض الحصص لغيرها من المواد، حتى الطلاب لم يكونوا يحبّون أن يدرسهم التفسير غير الأستاذ أختر، ومع ذلك كان يصبر على أمره، ولا يجد لنفسه غير ذلك سبيلاً، هل تعلمون لماذا؟؟؟

إنه كان سبباً غريباً، سبباً لا يمكن أن يأتي في بال أساتذة هذا العصر، ولا يمكن أن يفكر أحد في زماننا هذا بتلك الطريقة، إنه كان العجب العجيب، من تلك

النوادر التي يصعب علينا اليوم أن نستيقن على أخبارها، غير أن نأتي بما كانوا يأتون بها، فلنغص في حياته، لنعلم عن سبب ما كان يفعله، لعلنا نجد طريقاً لحب القرآن والشغف به واحترامه في قلوبنا.

يوماً من الأيام حضر عندهم الكبار من أساتذة المدرسة، وقالوا له أيها الأستاذ!!! نريد منك أن تخصّص كل ما عليك من الحصص لتدريس التفسير وعلوم القرآن، فلا يريد أحدٌ من الأساتذة أن يدرّس تلك المواد مع وجودك بيننا، وكيف يمكن لهم أن يرضوا بذلك وهم يعرفون قدرك ومكانتك في تلك المواد، حتى الطلاب لا يحبّون أن يدرّسهم تلك المواد أحدٌ سواك، فلماذا هذا الإصرار؟؟؟ ولماذا هذا الجزم؟؟؟ ولماذا هذا الامتناع؟؟؟

فلما علم منهم ذلك، توقّف برهة، أطرق فيها رأسه، ثم رفعه وقال بكلّ هدوء:

"إذا فعلتُ ذلك، فماذا أكل؟؟؟"

ما العلاقة بين ما يأكله وبين أن يخصص كلّ ما كان عليه من الحصص لتدريس التفسير وعلوم القرآن؟؟؟

ما العلاقة بين السؤال الذي سُئِلَ وبين الجواب الذي أجابه؟؟؟

ماذا يعني بقوله "إذا فعلتُ ذلك، فماذا أكل؟؟؟"

نعم، كانت هناك علاقة قويّة بين ما سُئِلَ وبين ما أجاب، وكان جوابه فعلاً على عين ما سُئِلَ، ولكنهم لم يفهموه، كيف كانوا يفهمونه، إنه جوابٌ لا يفهمه إلا مثله من العظماء الذين لا يولدون إلا نادراً، الذين لا تجد عندهم إلا في زمان بعد زمان.

لقد قصد بجوابه أنه ما كان يأخذ من الراتب ما يأخذه من الكميّة القليلة التي لا تكاد تكفي لأحوج حاجاته، وألزم ضروريّاته إلا على تلك الحصص التي كان يدرّسها غير التفسير وعلوم القرآن، فلم يكن يأخذ شيئاً على ما كان يدرّس من حصص

التفسير وعلوم القرآن، فإذا ترك تلك الحصص القليلة التي كان يأخذ القليل من الراتب عليها، ماذا سيأكل حينئذ؟؟؟ وعلى ما يبقى حيًّا؟؟؟

فلما سئل عن سبب عدم أخذ شيء من الراتب على ما كان يدرّس من حصص التفسير وعلوم القرآن، قال: أستحي أن أخذ الراتب على تدريس تفسير كتاب الله وعلوم القرآن، وليس ذلك من احترام القرآن، وكيف أخذ الراتب على ذلك؟؟؟

نعم هذا هو السبب الذي لم يكن الأستاذ يأخذ الراتب على ما كان يدرّس من المواد المتعلقة بالقرآن، هل يفكر أحد في هذا الزمان بهذه الطريقة؟؟؟ هل رأى أحد من أساتذة هذا العصر ما رآه الأستاذ أختر؟؟؟ كلا والله إنه لا يفعل ذلك، ولا يفكر بتلك الطريقة إلا من اصطفاه الله، ووفقه من عنده بفضل الخالص الذي يختار له من يشاء من عباده.

وفي يوم من الأيام حينما علم من كان له شأن في المدرسة عما كان يعاني الأستاذ من قلة ما يكفيه لعيشه، وقلة ما يسدُّ به ألزم ضرورياته، وأحوج حاجاته، أتوه وأصروا على أن يزيدوا في راتبه الشهري، فامتنع كل الامتناع، وأبى كل الإباء، وقال إنني لا أدرس تلك المواد التي أستحقّ عليها الراتب إلا بعض الحصص، ولا أستحقّ على ذلك أكثر مما أخذه.

من أين نأتي يا أيها الأستاذ بتلك الكلمات التي تحسّن بك؟؟؟ ومن أين نأتي بذلك المدح والثناء الذي يليق بك؟؟؟ فلا نقول بعد ما علمنا من شأنك يا أيها الأستاذ إلا: وكانت في حياتك لي عِظَات وأنت اليوم أوعظ منك حيًّا

يؤثر العمل على الاسم

يوجد في هذه الدنيا نوعان من الأزهار، منها ما تفوق بجمالها وألوانها وأشكالها، تسحر عيون الناظرين إليها من بعيد، وتُهمّره من خلقتها، ولكنك لن تجد فيها

الروائح الزكية وإن اقتربت منها واتصلت بها.

ومنها ما لا تملك الصورة الجميلة الجذابة، ولا تملك تلك الخلقة التي تجلب قلوب الناظرين إليها من بعيد، فلا تملك ألوانًا مثل ألوان غيرها من الأزهار الجميلة، ولا تملك أشكالًا تُذهب بك إلى عالم الجمال، ولكنها تملك في أوراقها اللطيفة الصغيرة من الروائح التي تفوح إلى أبعد الأماكن فتشمّها وأنت لا تعرف مكانها، وتسعد بها وتتحير من طيبها وأنت لا تعلم من أين لك هذه الرائحة التي أخذت مأخذها من قلبك ونفسك، فذهبت بك إلى عالم الجمال النفسي، لأن من شأن تلك الأزهار أنها تؤثر نشر الروائح الزكية وفوحان عطرها على صيت نفسها وإظهار ذاتها، فتستفيد من رائحتها، وتنتفع من عبيرها، ولا تعلم مكانها التي تنشر منه ذلك.

كذلك كان الأستاذ اختر أحسن الإصلاحي، من النوع الثاني من أنواع الأزهار، يستفيد منه الناس من غير أن يشعروا بفضلته وعظمته، لم يكن يحبّ الصيت والشهرة خلافاً لأغالب العلماء وكل من اكتسبوا شيئاً أمكن لهم بذلك أن يشتهروا على صفحة العالم، فيستمتعون أي استمتاع بمدحهم الناس لهم وثنائهم.

كان الأستاذ يحبّ ألا يعرفه الناس، ولا يظهر لهم ما له من الفضل والعظمة، لا يحب ثناء الناس له ولا يحب أن يسمع القصائد الطوال تمدحه، كان منبع العلم والرحمة يستفيد منه كل قاصد، كان فيضان الكرم والجود، يفيض منه ذلك فيستفيد منه كل من قرب أو بعد، وكل من هبّ ودبّ وكل من كان له العظمة ومن كان دون ذلك.

لم يكن يحب أن يعمّ اسمه بين الناس، بل كان يؤثر أن يعمّ فضله وإحسانه وقضاء حوائج الناس معنوية أو مادية ما قدر عليه على أن يشتهر اسمه في أبعد البيداء والفضلة.

كذلك كان الأستاذ اختر أحسن الإصلاحي رحمه الله رحمة واسعة، ووفقنا أن

نستدير حياتنا بقدوته، فكان المثل الأعلى في النواحي كلّها، وكان القدوة الأعلى في كلّ ميدان حياته العملية.

الخطاب الأخير والقضاء الأخير

كان الأستاذ أختَر أحسن الإصلاحي يعاني من كثرة الأمراض في أواخر السنين من حياته، فكَلَّ ما مرض نادى أصحابه وأقرباءه وتمنى منهم أن يدعوا لهم بالشفاء والصحة والعافية، ولكن في السنة 1378هـ، في شهر ربيع الأول، مرض الأستاذ مرّة أخرى، ولكن كان هناك أمر غريب، أمر لم يسبق به الأستاذ من قبل، حيث جمع الناس من أصدقاءه وأقرباءه وطلبة مدرسته، وقال لهم ادعوا لي بالمغفرة، فاستغرب الناس، وأحسّوا في قلوبهم بقلق واضطراب لم يعرفوا له سببًا ولا مأتاه. لماذا يقول الأستاذ غير ما كان يقوله من قبل؟؟؟ دعاء المغفرة؟؟؟ فقد كان يطلب منّا دعاء الصحة والعافية والشفاء من قبل، فلماذا دعاء المغفرة في هذه المرة؟ كانت إجازة بين الفصلين على وشك الابتداء، إذ قام الأستاذ بعد صلاة الجمعة، وخطب الطلبة خصوصًا وغيرهم من الحاضرين، فقال:

أيها الطلبة!!! إن كان لواحد منكم عليّ شيئًا فليستوفه منّي اليوم، وإن تضرر بي أحد فأرجو أن يسامحني اليوم، أو يقتصر منّي إذا أراد، ثم أوصى الطلاب والحاضرين بوصايا قيّمة، وصايا تُكتب بماء الذهب على أوراق الحرير، وصايا أنارت حياتهم من بعده لمن أخذ بها، وصايا كانت لهم بمثابة المشعل في حياتهم وتضمن جلاءها ومسيرها في الصراط المستقيم.

وبها قد ختم خطابه الأخير الذي واجه فيه طلاب مدرسته، الطلاب الذين أوقف الأستاذ حياته لتربيتهم تربية إسلامية بمعانها، الطلاب الذين كان الأستاذ بمثابة الأب الروحاني لهم، الطلاب الذين كانوا يحبّونه أكثر من حبهم لغيره، خاطبهم في

هذه المرّة الخطاب الأخير، فكانت العيون دامعة، والقلوب باكية، والعقول متحيرة، وكيف لا يكون كذلك؟ فقد أدركوا شيئاً مما كان يُدرّكه أستاذهم، بأن القضاء الأخير قد اقترب منه، ونداء الله الأخير قد حانت ساعته.

وبعد صلاة المغرب جمع الأستاذ صغير أحسن الإصلاحي الطلاب، ونصحهم أنهم إذا ذهبوا إلى بيوتهم في إجازة بين الفصلين، فيكثرُوا من دعاء الصّحة والشفاء لأستاذهم والأب الروحاني لهم الأستاذ أختر أحسن الإصلاحي.

فلما وصل الخبر إلى الأستاذ أختر، لم يُعجبه فعل الأستاذ صغير، وقال له إنني ألتمس منكم أن تدعوا لي بدعاء المغفرة في هذه المرّة، فلماذا تصرّون هذا الإصرار على دعاء الشفاء والصّحة؟

وبدء مرضه يزيد يوماً بعد يوم، حتى نزل داعي الأجل بعد طلوع الفجر يوم 24 من شهر ربيع الأول، سنة 1378هـ، ما يوافق تاريخ 9 من شهر أكتوبر السنة 1958م، فالتحق الأستاذ بالرفيق الأعلى ليُجازيه على أعماله خير الجزاء.

وصليّ عليه بعد صلاة الظهر، ودُفن في ناحية تجاه المغرب من ميدان مدرسته - مدرسة الإصلاح -.

رجع الطلاب إلى المدرسة بعد الإجازة، فرأوا أستاذهم الحبيب والأب الروحاني لهم، وهو قد نام النومة الأخيرة في هذا القبر، الأستاذ الذي خاطبهم بخطابه الأخير قبل أيام.

فكان الطلاب يذهبون كلّ يوم بعد صلاة الفجر إلى قبره، يدعون له بالمغفرة والرحمة، ويهدون إليه الهدايا من مدامعهم التي كانت تبّلل خدودهم، وتُحزن قلوبهم، وكيف لا يكون كذلك؟؟؟ فقد فقدوا بفقدانه شيئاً عظيماً.

رحمك الله يا أستاذ أختر، وأغمذك في رحمته وفضله، وأسدل عليك من نعمه وآلاءه، وأدخلك أعلى الجنان، وجازاك خيراً على ما قدّمته للأمة الإسلامية.

الشيخ عبد السلام الفراهي

(أحد تلاميذ الإمام الفراهي)

-د. أورك زيب الأعظمي¹

كان الإمام عبد الحميد الفراهي معلّمًا ناجحًا بجانب كونه كاتبًا رائعًا فكما ألف كتبًا ورسائل عديدة مثل "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" و"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" و"جمهرة البلاغة" و"مفردات القرآن" و"الفائد إلى عيون العقائد" و"إمعان في أقسام القرآن" و"في ملكوت الله" فكذلك ربّى العديد من العلماء والكتاب لكي يواصلوا فكرته وينشروها في مختلف أنحاء البلاد وخارجها.

وممن خصّهم بالتربية الشيخ اختر أحسن الإصلاحي والشيخ أمين أحسن الإصلاحي ولكن الذين استفادوا منه ونهلوا من منهله العذب عددهم كثير ومن أبرزهم العلامة أبو الأعلى المودودي والشيخ مناظر أحسن الغيلاني والبروفيسور يوسف هارفيز والعلامة سيد سليمان الندوي والشيخ عبد الماجد الدرابادي والشيخ نجم الدين الإصلاحي والشيخ عبد السلام الفراهي. وفي هذه العجالة نعرّف بالقراء الشيخ الأخير ألا وهو الشيخ عبد السلام الفراهي:

ولادته:

ولد الأستاذ عبد السلام الفراهي في 1325 من الهجرة المصادف بـ1907 للميلاد بقرية "پهريها" (Phariha) إحدى قرى محافظة أعظم كره وهي -كما نعلم- كانت مولد أستاذه الإمام الفراهي ووطنه رحمه الله تعالى. توفي والده وهو كان ابن اثني عشر شهرًا:

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

غدرت يا موت كم أفنيت من عدد بمن أصبت ومن أسكت من لجب
فبعد وفاته كفله ورباه عمّاه المكرّمان الأستاذ حفيظ الله أحمد الفراهي أحد
رجال القانون والأستاذ عبد الرؤوف الفراهي رحمهما الله تعالى.

تعليمه الابتدائي:

فلما بلغ السابع من عمره جيء به إلى الحافظ -سميّة- عبد السلام رحمه الله الذي
كان يدرّس في المسجد الجامع لتلك القرية وكان ينتمي إلى نظام آباد فتركه وتوطنها
وكان المرحوم جوادًا كريمًا ووليًا صالحًا وأمينًا مؤتمنًا فقد قال فيه صاحب الترجمة:
"كان المرحوم جامعا لعدة أوصاف فدرّس في مسجدنا الجامع نحو ثلاث وستين
سنة ولم يطلب أجرا فعال نفسه وعشيرته بالخيطة وكان يصلي بالناس الصلوات
الخمسة والجمعة والتراويح فقد انقطع إلى درس القرآن والإمامة وتولية المسجد
فكان مثيلا في تقواه فلم أر رجلا يعادله في بهريها".

في المدرسة الحكومية:

فقضى بها الشيخ عبد السلام عامين وقرأ عليه القرآن الكريم ترتيبا وتجويدا ثم
التحق في 1916م بالمدرسة الحكومية بهريها فأنفق هنا عامين ونال شهادة الصف
الثاني وكان عصره أحسن العصور وأجملها؛ كان الأساتذة متحلين بالتقوى
 وإقامة الصلوة وكان العهد عهد الإنكليز فالحكومة كانت إنكليزية وكانوا يسعون
لإبقاء الحضارة الإسلامية في المجتمع الهندي علما بأن الإنكليزيين كانوا راغبين عن
تغيير حضارة غيرهم وتبديلها منهم لا يلحون عليه فكان الناس أحرارا في دينهم
وكانت الحضارة كلها رائجة في الهند فمن هؤلاء الشخصيات الجليلة كانت
شخصية نصير الدين النظام آبادي فكان النظام آبادي خص نفسه بالمرحوم
وأحبّه حبّا جمّا فجعله مواظبا على الصلوة وملتزما بها.

دراسته الفارسية:

فبعد فراغه من هذه المدرسة التحق بمدرسة مختصة بالفارسية بها وكان الأستاذ محمد أيوب الأعظمي يدرس بها فتلمذ عليه وتعلّم عليه الفارسية وكانت هذه الفترة تمتد لاثني عشر شهراً فقط.

لقاء الإمام الفراهي:

بعد تعلّم اللغة الفارسية قال له عمّه يوماً: تعال معي أيها العزيز فنزور الإمام الفراهي لأنه عالم يتحلّى بالعمل كذلك، وفي تلك الفترة كان الإمام الفراهي قد غادر الجامعة العثمانية لحيدر آباد دكن وأقام بوطنه بهريها فزاراه فلما رأى الطفل الإمام الفراهي طرح على عمّه بعض الأسئلة عنه وأخيراً دار بينهما هذا الحديث:

الإمام الفراهي:	يا حفيظ: إلى أيّ جانب توجّهه؟
الأستاذ حفيظ:	(كان الأستاذ - كما مضى - أحد علماء القانون) إني أريد أن أوجّهه إلى الإنكليزية ليعول بيته وعشيرته.
الإمام الفراهي:	(يحمّر وجهه) كنت أحمق طول عمرك فتريد أن يكون هذا مثلك.
الأستاذ حفيظ:	(في ندامة شاملة) فإني أوكله إليك فدونك وما بدا لك.
الإمام الفراهي:	(بعد تأمل قليل) فاتركه عندي، إني أعلمه.

ففي اليوم الآخر حضره الشيخ عبد السلام وجعل يتعلّم عليه خمس دقائق في كل يوم لأن الإمام كان منقطعاً إلى دراسته لكونه مفسّراً كبيراً ومحدثاً وناقداً عظيمًا فخصص له خمس دقائق في كل يوم والحال أن العام الجاري لم يبلغ منتهاه إذ

علّمه الفراهي رحمه الله كتاب "أسباق النحو" والكتابين للفراسية وكتابًا للإنكليزية وهذه ميزة الشيخ عبد السلام-كما أشار إليه الشيخ نجم الدين الإصلاحي- أنه تعلّم الكتابين من المصنف ذاته.

تعلّم اللغة العربية:

فلما انتهى العام أرسله الإمام الفراهي إلى مدرسة الإصلاح ليلتحق بها ويتم علوم العربية فالتحق بها الشيخ عبد السلام في عام 1921 م ونال شهادة الفضيلة في يوليو 1927 م فيقول الشيخ في لطف الإمام الفراهي له:

"كان ذلك لطفًا عظيمًا من أَلطاف الإمام الفراهي لأنّ عشيرتي كلها كانت راغبة في اللغة الإنكليزية وإني رغبت- على رغم أنوفهم- في الأردوية والفراسية والعربية فأحمدّه تعالى على أنه أرسلني إلى شيخ المفسّرين العلامة حميد الدين الفراهي رحمه الله تعالى".

الشهادات الأخرى:

ما مضى من حياة الشيخ عبد السلام تنقسم إلى قسمين قسم يدلّ على حياته في قريته وقسم آخر يدلّ على زيارته والتحاقه بمدرسة الإصلاح لكن درسه لم تنقطع سلسلته ففي 1927 م سافر الشيخ إلى الله آباد لينال الشهادات للدخول في المدارس الحكومية وكان العهد عهدًا إنكليزيًا وإنكليز كانوا محبي تأسيس المدارس والكليات فأُسست في كل مكان مدارس حكومية منظمة بنظام الشعب ومنها كانت مدرسة "مصباح العلوم" المتميزة عن المدارس كلها.

ففي 1928 م التحق بها الشيخ الفراهي وأدّى امتحان "العالم" فنجح بجيد جدًا ثم أدّى امتحان "الفاضل" في 1929 للميلاد ونال شهادة الفضيلة.

ثم أدّى امتحان الفراسية وفاز-أيضًا- بدرجة ممتازة وعلى إثره نال شهادتي "المنشي" و"الكامل".

اللغة الإنكليزية:

وبعد تضرعه من الأردوية والفارسية والعربية هم أن يتعلم اللغة الإنكليزية ونعلم أن الإمام الفراهي قد علّمه قليلاً من اللغة الإنكليزية.

فجعل الشيخ الفراهي يتعلم اللغة الإنكليزية ولما تعلم قدرًا ملموسًا منها التحق بالمدرسة الثانوية وفاز.

فهذا النجاح زاده رغبة في تعلّم اللغة الإنكليزية فسافر الشيخ إلى أديب بارع وناقد رائع الأستاذ ضياء الدين بالله آباد وكان الأستاذ من عشيرة متميزة بين قبائل جونفور فعلمه الدكتور الإنكليزية وجعله ماهرًا فيها.

وخلال ذلك لقي الشيخ عبد السلام الطبيب الحاذق فخر الدين رحمه الله وكان ذا يد طولى في الطب اليوناني فتلمذ عليه وأصبح طبيبًا حاذقًا.

وفي عام 1932 م التحق بالصف الثاني بالله آباد ونجح أيضًا.

وفي 1935 م سافر إلى أغره (Agra) والتحق بها فنال شهادة "بكالوريوس" وفي أثناء ذلك نشأت فيه الرغبة في التاريخ فانقطع إلى دراسته ولم تمض فترة طويلة حتى برع فيه ومن العجب أنه تعيّن عضوًا في المكتبة العمومية فاستفاد منها وقرأ هناك تاريخ البلاد كلها ولم تفت مدة طويلة حتى برع في تاريخ أوروبا وآسيا والقارة السوداء والغرب ومصر والعراق والشام وتركيا.

وخلال ذلك أذى امتحانًا لـ "أردو إيدوانس" (اللغة الأردية المتقدمة) لأن الحكومة الإنكليزية جعلتها لازمة لمن يرجو الوظيفة في الحكومة فنجح فيه بدرجة ممتازة.

في ميدان العمل:

كما مضى أن عمّه عال بيته بعد موت والده فترعرع في رعايته وتلقى العلم حتى بلغ أشده ففي ثلاثين وتسعمائة وألف للميلاد انتهت مدته التعليمية وسار الشيخ في

ميدان العمل والخدمة تحت إشراف الأستاذ ضياء الحسن الكاكوروي وجعل يعلم العربية والفارسية ابنه حسن بن الكاكوروي في بيته براتب شهري مبلغه خمس روبيات وشيئاً فشيئاً بدا عنه براعة شخصيته حتى اعترفوا بفضله العلمي فتعين معلماً للأدب في مصباح العلوم فازدادت مكافأته حتى ثلاثين روبية فكان في مهامه تدريس كتب التاريخ والأدب وخصوصاً الموطأ للإمام محمد والكتابان في الحديث فقضى أربعة عشر عاماً من عمره وكان حميداً في المدرسة وبين أساتذتها.

خلوة أمه الحنون:

إن موت والده وسفره إلى مصباح العلوم جعل أمه الحنون في عزلة وخلوة والشيخ وكان الشيخ ساعياً - طول عمره - لرضاها ورخائها.

فلما كررت الرسالة المشتملة على إيلاها من العشيرة ولم يخلوا سبيلاً إلى عيشتها استقال الشيخ الفراهي عن مصباح العلوم ورجع إلى بيته فهو يقول في إحدى رسائله إليها:

"بسم الله الرحمن الرحيم

أمي الحنون:

دام ظلها

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمل أن تكوني بالصحة والعافية وبعد!

فإني بصحة جيدة وبلغتني رسالتك الكريمتان واحدة تلو الأخرى وإني لم أرسل إليك ولو رسالة واحدة لأنني كنت مشغولاً وهذا الشغل الشاغل جعلني غير مكترث بك فأرجو من سماحتك أن تعفي عن ذنبي هذا فإني عزمت على إخلاص حياتي لك فقد صبرت لي وتأذيت، وأما أنا فلا أطمع في جاه ولا مال ولا عزة فأيام

حياتي ليست إلا لرضوانك. ويا للأسف ضيعت طول حياتي مكرثاً بك وإني قد كنت عزمت في أوائلها على أن ألزم بيتي ولا أتوجه إلى أيّ مكان ولكن الله يقدر الليل والنهار وهو يعلم ما في الغد فإنه عالم الغيب.

فإني جعلت أهوائي نسيّاً منسياً وكأني مصدق "فما للعيش أوطار" فأسقى لهذا العلم وحسرة على هذه الدراسة فإذا علمت مصائبك الآتية تركت الدراسة وأهديت إليك طول حياتي فأصبرن على ذلك لأن ما قدر كائن وسأتيك إن شاء الله العزيز.

والسلام

عبد السلام الفراهي

ففي 1941 م استقال الشيخ عبد السلام عن مصباح العلوم ورجع إلى بيته وجعل يخدم أمه الحنون.

كلية شبلي:

بينما لم يستقل الشيخ عن مصباح العلوم إذ مسّت كلية شبلي حاجةً إلى معلّم للعربية والفارسية والأردوية فنشر الإعلان عنها وقدّموا طلباتهم فاختر الشيخ معلّمًا بها.

ففي 1941 م جعل الشيخ الفراهي يخدم الكلية براتب شهري مقداره أربعون روبية وكان هذا في زمنه من أعلى الرواتب ولم تمض أيام طويلة إذ تعيّن الشيخ الفراهي أستاذًا بها وبلغ الراتب سبعمائة روبية تدريجيًا وتقلّص وقت تدريسه حتى ثلاث ساعات فوقف الشيخ بقية أوقاته لاستراحته وصلوته وتلاوة القرآن وتزكية نفسه.

حفظ القرآن الكريم:

كان الأستاذ شغوفًا بتلاوة القرآن منذ طفولته فلما عيّن أستاذًا بكلية شبلي وأعطى فترة طويلة في كل يوم اغتنمها وانقطع إلى حفظ القرآن الكريم ولم ينته العام

العدد الخاص ————— مجلة الهند

الجاري حتى حفظ سورة البقرة فتشجع بذلك على حفظ القرآن كله فواصل عمله هذا حتى حفظ القرآن كله وحاول جهده لرسوخه في الذهن حتى كان يتلو عليهم القرآن في رمضان المبارك مرتين مرة في مسجد "كثره" (Katra) وأخرى في مسجد "غروثوله" (Guru Tolah) بأعظم كره وبرواية أخرى كان يقرأ عليهم القرآن ثلاث مرات مرتين في المسجدين المذكورين أعلاه ومرة ثالثة في مسجد "بُؤبُؤ" بهريها. وكان الشيخ عبد السلام يذهب إلى أعظم كره- كما كانت العادة في قديم الزمان- ويأتي منها ماشياً راجلاً فهو كان يتلو كتاب الله العزيز خلال هذه الشقة البعيدة. خلوته إلى نفسه:

فمنذ عام 1970م تتابعه المرض وتركه مقيماً بين الأرماس فانقطعت سلسلة التراويح وفي 1972 للميلاد خلا إلى نفسه من كلية شبلي. فبعد خلوته منها انقطع الشيخ إلى الصلوة والتلاوة والنوافل وقراءة الكتب وتعليم أطفال وبنات القرية والتأليف والترجمة.

وفاته:

كان دوامه موزعاً في خانات فهو كان يتنزه في الفضاء بعد العصر لكنه ما كان متنزهً في معناه العام بل كان يزور القبور فتتنزهه كان عبارة عن زيارة القبور وكان يرغب بعد المغرب في النوافل. وصدق القائل:

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا

ولم ينقطع عمله حتى ظهر العام 1981م وطول العمر يشيبه ويضعفه ويصدقه "كفى بالشيب داءً"، وصدق الشاعر:

دبّ في السقام سفلاً وعلوا وأراني أموت عضواً فعضوا

ففي 13/ أبريل 1981م قضى الشيخ صلوٰة الظهر وتمدّد على السرير للاستراحة والسبحة في يده حتى جاءت المنية وغادرت الروح الجسد. إنا لله وإنا إليه راجعون:
غدرت يا موت كم أفنيت من عدد بمن أصبت ومن أسكت من لجب

أخلاقه:

كان الشيخ عبد السلام الفراهي يتحلّى بالتقوى والصلاح، وكانت أخلاقه حسنة، وكان يتعامل مع الناس جيداً مقيماً للصلوات ومنفقاً على الفقراء والبائسين، ولم يشب جانبه البغض والعداوة وشيء من التكبر. وبالجملّة كان مثيلاً في دهره. وصدق القائل:

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنّه بنیان قوم تهدّما

من آثاره العلمية:

بما أن الشيخ عبد السلام كان قد استفاد من الإمام عبد الحميد الفراهي ثم نهل من مناهل العلوم الجديدة فكانت ثقافته جامعة بين القديم والجديد من العلوم. وعلى هذا فقد كان يعين الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في ترجمة النصوص العربية كما كان يعينه في مراجعة التفاسير العربية إذا مسّت الحاجة إليه. لم يخلف الشيخ عبد السلام أثراً علمياً سوى سيرة ذاتية كتبها باللغة الأردوية وهي مصدر أولوي لسيرته ولقائه مع الفراهي وتاريخ وطنه وتاريخ مدينة أعظم كره وسير بعض رجال التاريخ الذين لقيهم واستفاد منهم أو تعامل معهم فلو طبعت هذه الخزينة العلمية لكانت إضافة علمية قيمة. وعلاوة على ذلك بدأ الشيخ عبد السلام ترجمة تفسير الطبري إلى اللغة الأردوية ولكنه لم يكتب له إتمامها فبقيت الترجمة غير تامة وخسر قراء اللغة الأردوية نعمة علمية عسى أن يبعث الله أحداً فيقوم بهذا العبء العلمي الثقيل.

"ذكر فراهي" دراسة وتعريف

- أ.د. أبوسفيان الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: أبوسعد الإصلاحي²

لم تحظ شخصية الإمام الفراهي إلى زمن بعيد بعناية الناس إلا في إطار خاص، ثم أصبحت شخصيته موضوع البحث والنقاش فيما بعد في شبه القارة الهندية بل في جامعات البلاد العربية وأوروبا وحتى في مؤسساتهم التحقيقية أيضًا. وقد ألقت كتب عديدة حول خدماته القرآنية والأدبية. وكتاب الدكتور شرف الدين الإصلاحي (2011م) المسّى بـ "ذكر فراهي" حلقة من حلقات هذه الجهود العلمية.

إن كتاب "ذكر فراهي" في الواقع يتضمن ترجمة حياة الإمام الفراهي المفصلة وقد سبقته مؤلفات عديدة ومقالات مختلفة كتبت حول ترجمة حياته وخدماته العلمية، ولكن يفوق هذا الكتاب المشتمل على 840 صفحة جميع سوابقه من حيث إفاديته ومعنويته. قد حصل الدكتور شرف الدين الإصلاحي على هذا المشروع من مؤسسة "تحقيقات إسلامي" الواقعة بإسلام آباد (باكستان). ولكن ضاع هذا المشروع بسبب السياسة الداخلية وتقلب الأيام، وواجه الدكتور شرف الدين لذلك صعوبات متنوعة ومعارضة قوية وعانى كثيرًا من العوئق والعراقيل حتى أُحيل إلى التقاعد من وظيفته. ولكن الدكتور تجشم كل هذه الموانع وتحملها بصبر واستقلال، وقضى أكثر من عشرين سنة في إتمام هذا المشروع العلمي.

¹ بروفييسور، قسم اللغة وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

² باحث، قسم اللغة وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

ولكن مما يؤسف له أن الناشر لم يعتن بنشر كلمة التقدير والإشادة بهذا المشروع العلمي الكبير، كما أن المصنف لم يضع عليه الديباجة. والجدير بالذكر أن الدكتور الإصلاحي كتبها على الطبعة الباكستانية التي نشرت بعد الطبعة الهندية وأعرب فيها عن ألمه وحزنه الشديدين.

إن "ذكر فراهي" ترجمة الإمام عبد الحميد الفراهي ولكن في الواقع أنه يتضمن في طياته تاريخ أعظم كره وجامعة علي كره الإسلامية وجامعة إله آباد ومدرسة السند في كراتشي ودار العلوم بحيدرآباد والجامعة العثمانية ودار المصنفين ومدرسة الإصلاح بسرثمير. وأما الجهد الجهد الذي بذله الدكتور الإصلاحي في إعداد هذا الكتاب، فيتجلى فيه نموذج عال للبحث والنقد. ويتبادر من مطالعة الكتاب كل ما تحمله في إعداده من الجهد والمشقة وشدة الرحال إلى المدائن المختلفة، ويبرز كل ذلك في صورته الحقيقية، عندما اهتم المؤلف بتأليف رحلاته وأسفاره لجمع هذه المعلومات بقلمه السيل¹. فقد تشرف الدكتور الإصلاحي بلقاء كثير من رجال الهند وباكستان وسافر إلى مدن عديدة لهاتين الدولتين وذلك لكي يستفيد من الشخصيات البارزة التي كانت تعرف كثيرًا من سيرة الفراهي وجوانبه العلمية، كما أنه تصفح وثائق الجامعات والكليات والمؤسسات والمحاكم وقضى ليالي وأيامًا في المكتبات العديدة. وهذه الجهود الجبارة المضنية أعد هذا الكتاب الذي نعرفه اليوم بـ "ذكر فراهي". وقد جعل الدكتور هذا الكتاب خير

¹ الطبعة التي بين يدي لهذا الكتاب هي التي نشرتها الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح بسرثمير (أعظم كره) وليس فيها ديباجة الكاتب ولا أي تفصيل للمصائب والعونق التي عانى منها الكاتب خلال تكميل هذا الكتاب. وقد حذف منه عديد من الوقائع بدعوى أنها تكرار محض ولا إفادية لها. وقد حزن الدكتور شرف الدين الإصلاحي حزنًا شديدًا واغتم برؤية هذا الأسلوب للحذف، فلذلك نشرت طبعته من لاهور كما رتها. ويوجد فيها ديباجة الكاتب والعراقيل التي واجهها خلال التكميل وهو يستحق التحية والتقدير لما أنه تحمل كل هذه المشاكل وغلبها حتى نجح في تكميله في هذه الصورة.

متاعه وكان في أواخر أيامه مكبًا على تأليف كتاب حول الفكر الفراهي وتدوينه.¹ وأظن أن الدكتور شرف الدين الإصلاحي كان أكبر ترجمان للفكر الفراهي بعد الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي وقد تبوأ مكانة ريادية في المنتسبين إلى هذا الفكر. ولكن للأسف الشديد أن الأستاذ قد عاجلته المنية قبل أن يرتب "فكر فراهي"، وأنا كنت قد رأيت ما كان قد جمعه الدكتور الإصلاحي من المصادر والمراجع لتأليف كتاب "فكر فراهي". وأنا شخصيًا رأيت هذه المواد التي تزرخ في ثلاث حجرات بباكستان، ولكن بعد وفاة الفقيه الدكتور شرف الدين الإصلاحي، انتشرت وزهبت إلى أياد مختلفة. وأظن من الضروري أن أصرح هنا أنّ هذه المراجع لها أهمية كبيرة لترتيب تاريخ مدرسة الإصلاح.

ولو أنه لم يدون "ذكر فراهي" لانمتهت معظم هذه الآثار القيمة. فإنه يستحق التحية والتقدير من المنتسبين إلى الفكر الفراهي بما أنه أنقذها من الضياع. ولقد تحمل المصائب والآلام وقام بترتيبه بعد جهود مضيئة للحصول على هذه المعلومات المتبعثرة. وفي الواقع كان شغف الدكتور الإصلاحي بالفكر الفراهي هو الذي استنهض هممه وحفز عزائمه. وهذا نموذج جميل للفكر الفراهي إلى جانب ترجمة حياته. عرف فيه كتب الفراهي بالإيجاز الذي يصور أمامنا الفكر الفراهي بوضوح وجلاء. وفي هذا الكتاب تجشم الدكتور البحث والتفحص والتنقيب عن مولد الفراهي وتاريخ ولادته وطفولته وتعليمه وأساتذته ومكوته في كراتشي للتدريس في كلية السند وتحليل مؤلفاته وأخلاقه وعاداته. ويشتمل هذا الكتاب على وثائق علمية مستندة وموثق بها. ومن الممكن أن يقوم أحد بنشر أي كتاب يوضح الفكر الفراهي أكثر منه ولكن من المستحيل أن يؤلف أحد كتابًا أشمل وأعم من هذا الكتاب.

¹ كتبت هذه المقالة عندما كان الدكتور شرف الدين الإصلاحي حيًا يرزق، وانظر للتفصيل عن الدكتور شرف الدين الإصلاحي: نير تابان (النجوم اللامعة)، لأبي سفيان الإصلاحي، قرآنك ريسرچ سنتر، كبير كالوني، علي كره، الطبعة الأولى، أغسطس 2011م، ص 153-167.

والسبب في ذلك أن المصادر التي أخذ منها الدكتور هذه المعلومات قد محاها الزمان كما أن الشخصيات التي استفاد منهم، قد ارتحلوا إلى جوار ربها. ويجدر بنا أن نشيد بهذا العمل العظيم للدكتور الإصلاحي ونسجل إعجابنا به.

وثار في ذهني بعض الانطباعات والأحاسيس خلال دراستي لهذا الكتاب وأظن أنه من الضروري أن أضبطها هنا، وذلك لكي تراح في طبعته الثانية. ولكن لا تنقص أهمية هذا الكتاب باستدراكي عليه، بما أن هذا العمل جدير بالثناء والتقدير وهو مصدر أساسي للمعرفة بالفكر الفراهي ولا يمكن وضعها في المصادر الثانوية. الأول: من خلال دراستي وجدت أن البروفات لم تعتن بتصحيحها كما يستحق ذلك مثل هذا العمل العظيم.

الثاني: يبدو من خلال دراستي أن هذا العمل يخص المتخرجين من مدرسة الإصلاح فقط، لأن فيه مواضع كثيرة تحتاج إلى التوضيح والصرحة لمن لم يتخرج من مدرسة الإصلاح بل المتخرجون الجدد من مدسة الإصلاح أيضاً يحتاجون إلى شرحها، وكذلك فيه أشياء كثيرة لا بد من التعليقات عليها. ويلاحظ هذا في صفحة 24، "إنه أسس مدرسة" ومما لا شك فيه أن مؤسس هذه المدرسة هو الشيخ شفيع رحمه الله- ونجد الإشارة إليه في آخر الكتاب- ولكن لا بد من التصريح باسمه هناك، لأنه ليس من الضروري أن يقرأ كل واحد هذا الكتاب من البداية إلى النهاية. وهذا عصر التخصص لا يقرأ فيه المرء إلا ما يحتاج إليه كما أنه من الضروري أن يوضح لفظ "أهير" في صفحة 32. وضح المرتب هذا اللفظ في آخر الكتاب ولكن لا بد من توضيحها في البداية. كما جاء في صفحة 329 لفظ "شرر" وينبغي له أن يوضح بأنه يقصد بشرر الروائي الأردني الشهير، وهو عبد الحليم شرر الذي احتل مكاناً مرموقاً في مجال الرواية الأردنية وقدّم كثيراً من المعلومات حول التقاليد اللكناوية.

وكذلك جاء ذكر الحاج حسن علي في صفحة 397، من هو الحاج حسن علي؟ وإلى أي قرية من مديرية أعظم كره ينتهي؟ وكيف كانت علاقته بمدرسة الإصلاح

بسرائمير؟ هذه أسئلة تثور في أذهان القراء. كما أنه ذكر حفيد الإمام الفراهي الحكيم حميد الله (ص400) والأستاذ شبلي الندوي (ص401) والشيخ محمود حسن الديوبندي، والشيخ أشرف علي والشيخ عبد الغني والشيخ حفيظ الله والشيخ كامل والشيخ محمد عمر البندولي والشيخ واجد علي والشيخ محمد مرزا سليم (ص409) وغيرهم، فلا بد من التعليقات التي تعرف بهم. ومن الممكن أن نجد بعض المعلومات عنهم الآن ولكن فيما بعد يستحيل العثور على شيء. وكذلك لا يعرف القارئ من الحاج صدر علي (ص416) والشيخ مرتضى حسن البجنوري (ص420) والشيخ محمد سعيد (421) والحافظ حامد حسن (ص432) ونور محمد خان (690) ومحمد سميع (ص691) ومحمد يحيى حنفي (ص702) وبانجو بابا¹ (ص743) وجليل مختار وغيرهم. وأظن أن القارئ يريد أن يعرف بهذه الشخصيات وليس من الصعب أن يوفر المواد عنهم، بما أنهم معروفون.

ويقول الدكتور شرف الدين الإصلاحى عن الشيخ عبد الأحد، "إنه كان ينتمي إلى قرية "منجير بتي" من مديرية أعظم كره، وأظن أنه خريج دار العلوم بديوبند (ص357) ولا يسع هذا المحل استعمال فعل "أظن" في أمره وذلك بما أنه يمكن له أن يعلم عن أمره من خلال الاستفسار من خريجي مدرسة الإصلاح وأهل بيته.

وجاء ذكر نبي هادي في صفحة 627 وأفاد أنه كان أستاذًا مشاركًا، ومن الممكن أن يكون الأستاذ المشارك عند لقائه، ولكن الآن هو البروفيسور المتقاعد.² كما ذكر معظم الأشخاص الذين روى عنهم أخبار الفراهي، إنهم كانوا على قيد الحياة ولكنهم وافتهم المنية الآن. جاء في ذكر أبي الحسن علي،³ وفي هذه الأيام هو مدير

¹ أنظر للتفصيل، نير تابان (النجوم اللامعة)، المصدر نفسه، ص227-236

² أنظر للتفصيل، المصدر نفسه، ص118-132

³ أنظر للتفصيل، المصدر نفسه، ص132-141

مدرسة الإصلاح ولكنه توفي سنة 1987م". كما أنه ذكر أمين أحسن الإصلاحي¹ ونجم الدين الإصلاحي² وبدر الدين الإصلاحي³ وأصغر أحسن الإصلاحي وأبو الليث الإصلاحي الندوي⁴ ويونس الإصلاحي وأبو سفيان الإصلاحي ومختار جليل وعبد الرحمن برواز الإصلاحي⁵ وعبد الباري وحكيم حسان وغيرهم، كل منهم قد رحلوا إلى جوار ربهم. ولكن يتبادر من خلال الدراسة أنهم لا يزالون على قيد الحياة. وهذا على المصنف ثم على الناشر أن يشير إلى هذا في التعليقات.

ومن خلال دراستي لهذا الكتاب اطلعنا على أماكن عديدة، نرى فيها التكرار وإعادة نفس الشيء. ونقدم هنا بعض النماذج التي تشير إلى هذا التكرار. جاء ذكر مرشد من مديرية كراتشي (ص 627) وقد سبق ذكره من قبل، وهو يكفي. كما نرى التكرار في صفحة 628 بصدد ذكر مبيضات الفراهي وجاء ذكر منتخب جمهرة أشعار العرب في صفحة 671 ونقله الإمام الفراهي للقراءة عندما كان طالباً وتوجد هذه المخطوطة في مكتبة شبلي بندوق العلماء. ونرى ذكر هذه المخطوطة في ثلاثة مواضع من الكتاب. ولم تساعد الظروف أن يرى الدكتور شرف الدين الإصلاحي هذه المخطوطة، على الرغم من أنه قد سافر إلى الهند مرات عديدة فلذلك ينبغي له أن يرى هذه المخطوطة بأم عينيه. وجاء ذكر الفيل الذي يملكه الفراهي وذكر هذا الفيل يوجد في مكان آخر أيضاً. وقد اشترى الفراهي العربية في حيدرآباد للذهاب إلى دار العلوم وجاء ذكر هذه العربية في ثلاث أمكنة بدون فائدة. كما أن أحمد حسن فرحات وأبا الكلام آزاد والرشيد رضا

¹ أنظر للتفصيل، لاله وغل (الزهور المبتسمة)، لأبي سفيان الإصلاحي، قسم اللغة العربية

وآدابها، يوبي، الهند، الطبعة الأولى 2009م، ص 11-30

² أنظر للتفصيل، نير تابان (النجوم اللامعة)، المصدر نفسه، ص 32-42

³ أنظر للتفصيل، المصدر نفسه، ص 72-94

⁴ أنظر للتفصيل، المصدر نفسه، ص 43-61

⁵ أنظر للتفصيل، المصدر نفسه، ص 109-117

المصري كلهم قد اعترفوا بخدمات الفراهي القرآنية في رسائلهم ومجلاتهم العربية "الجامعة" ومجلة "المنار" خلال دراسة كتبه. ونجد الإعادة والتكرار أيضًا في ذكر هذه الاعترافات في ثلاثة مواضع. ربما تمل هذه الإعادة والتكرار وتثقل على النفوس، كما نرى التكرار والإعادة غير ما ذكرناه وهذا هو نقص للكتاب الجيد.

وقد اختار الدكتور شرف الدين الإصلاحي ثلاث طرق في ذكر المصادر والمراجع. الأول نرى المصادر والمراجع في الحواشي والتعليقات والثاني نرى المصادر بين الكتاب والثالث نرى أنه لا يذكر في المصادر رقم الصفحات وغيرها. ولو نقوم باستعراض هذه الطرق الثلاث في الكتاب كله، لعله لم يتمكن من الحصول على تفصيل المصادر كله، ونقدم هنا نموذجًا من صفحة 41 جاء فيه غوريان ص2، وفي صفحة 48 جاء فيه السيد سليمان الندوي، ياد رفتهكان وجاء في ص120 بدون ذكر صفحة هكذا، ماهنامة معارف، ياد رفتهكان. واختار هذا المنهج في ذكر مصادر الكتاب ومراجعته، وهو نقص كبير لمثل هذا الكتاب العلمي والتحقيقي. ونلتمس من الناشر أن يسدّ هذا النقص ويزيله عنه. وذلك بما أن الباحثين لا يقبلون هذا المنهج، لما أن المصادر لا تتم إلا بذكر المطبع والطبعة والسنة.

والأسلوب الذي اختاره الدكتور شرف الدين الإصلاحي لاستعراض مكوث الإمام الفراهي في علي كره، هو غير مناسب. ويبدو من تحليله أن مدينة علي كره لم تؤد أي دور مهم في بناء شخصيته (ص230-232). ولكن مما لا يختلف فيه اثنان أن العلامة شبلي والإمام الفراهي لم يعثرا على العالم الجديد للبحث والتحقيق إلا بعد أن استقرا في علي كره. والمؤسسة التي أسسها السير سيد أحمد خان لها دور بارز في توسيع أفق أذهانهما وبناء شخصيتهما. ومدينة علي كره هي التي تسببت في تمكنه من تولي المناصب الجليلة في كراتشي وإله آباد وحيدرآباد.

وقد أكثر الدكتور شرف الدين الإصلاحي ذكر الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي في هذا الكتاب وهو يجدر به، لأنه لا يتم بدون الإشارة إليه ذكر شيء عن الإمام

الفراهي. ولكن الأسلوب الذي اختاره الدكتور شرف الدين الإصلاحي في ذكر الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ينافي الأمانة والإنصاف. إنه حاول النيل من منزلته العالية وحط شأنه الرفيع، وفيما يلي أقدم فقرة تثبت ما ادعيت:

"إن الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي كان مشغولاً بالكتابة والخطابة منذ أيام تحصيله، وذاع صيته أيضاً في هذا المجال. وله علاقات واسعة وتناسب طبيعته للصيت والسمعة. يتصف بمؤهلات علمية استخدمها في مختلف المجال، واستمرت هذه السلسلة من أيام طفولته إلى آخر عمره بل إلى آخر أنفاسه، وسوف يأتي تفصيله في ذكر حياته. وبالعكس كان الأستاذ اختر أحسن الإصلاحي يختلف عنه تماماً، هو محب للعزلة وحياة الزاوية ولا يريد الصيت والسمعة بل تنفر منه طبيعياً". (ص 491)

وأظن أن رأيه هذا في شخصية الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي لا يقوم على الحق، وذلك بما أنه لم يرد الصيت والسمعة بل سقط هذا في قدميه بالمواهب اللدنية التي أعطاه الله تعالى منها حظاً وافراً في صورة الخطابة والكتابة. وبما أنه كان يملك قوة الخطابة وأسلوب الكتابة فلذلك استقبله وأكرم وفادته جمعية العلماء والجماعة الإسلامية. إنه لم ينحرف في سلك أي جماعة بنفسه بل اختارته هذه الجماعات، وأشيد بما كان له من خدمات في تبیین الفكر الفراهي وتحرير مجلة "الإصلاح" (من سنة 1936 إلى 1939 م) من قبل أصحاب العلم والفن. طالما يريد الراديو الباكستاني وقناة التلفزيون أن يشرفهم بإلقاء الدروس على قناتهم ولكنه رفض كلياً وحتى التمس منه الرئيس الباكستاني السابق محمد ضياء الحق بعد حضوره في خدمته أن يلقي دروس القرآن في قناة تلفزيون فأجابه بلا تأمل، "سينشر منها برامج الرقص والغناء بعد إلقاء دروسي عليها، ولا أتجرأ على هذا، كما أنه أذى خدمات بارزة في مختلف المجالات القرآنية والإسلامية ولا يقدر العلماء على أن ينسوا مؤلفات الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، أروعها "مبادئ تدبر قرآن"

و"الدعوة إلى الدين ومنهجها" و"تدبر حديث" وله خدمات جليلة في مجال التفسير، ألف "تدبر قرآن" في تسعة مجلدات مرجحاً العزلة، بعد أن انعزل من الجماعة الإسلامية. وهل يصح لنا أن نغض النظر عن خدماته ونضمه فيمن يريد الصيت والسمعة بالقيام بمثل هذه الأعمال الجادة ويمكن لنا أن نضيف عليها ولكن لا يسع المجال لمزيد من الحديث.

كما إنه ألقى الضوء على الشيخ أمين أحسن الإصلاحي وعلاقته بالجماعة الإسلامية في صدد الشيخ ذكر اختر أحسن الإصلاحي، وليس لذكره أي حاجة هناك. يقول الدكتور شرف الدين الإصلاحي، "أما الأستاذ اختر أحسن الإصلاحي فإنه اختار منهج الوسطية والاعتدال طول حياته وأما الشيخ أمين أحسن الإصلاحي فإنه افترق سبيله من الجماعة الإسلامية ولم يكتف بالاختلاف فقط بل اختار أسلوب المخالفة والتنفر في البداية، ولكن اختر أحسن الإصلاحي داوم علاقته بالمدرسة والدائرة الحميدية والجماعة الإسلامية إلى آخر أنفاسه ولم يترك أي واحد منها". (ص500)

كما ترى في السطور أعلاه أنه لا يحتاج إلى ذكر الشيخ أمين أحسن وبدونه اتضحت علاقة اختر أحسن بالجماعة الإسلامية وإخلاصه لها. وأما الدكتور شرف الدين الإصلاحي فهو بالغ النظر وصاحب الفكر القوي، فلا أدري لماذا فعل هكذا. وأظن أن أحداً لو يقوم بدراسة المذكرات الذاتية¹ لافتراقه من الجماعة الإسلامية فلا يتجرأ على مثل هذا القول في شأن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، إنه اختار أسلوب المخالفة بل المنافرة. الحركات والجماعات تقدم بالشورى إلى الأمام ولو أن مؤسس أي حركة يظن نفسه العقل كله ويتصوره فوق كله، فلا بد من الانتشار والافتراق.

¹ أنظر للتفصيل: مقالات إصلاحي، أمين أحسن الإصلاحي، فاران فاؤنديشن لاهور، أغسطس 1991م، صفر 1312هـ، 51/1، ص5-250

وجاء فيه رأي الأستاذ عبد الماجد الدرايا آبادي عن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في هذا السياق، "إن الشيخ عبد الماجد الدرايا آبادي كان يقول: لو أن أحدًا يحاول تبين الفكر الفراهي وتعبيره بدون أمين أحسن الإصلاحي فثقل قراءته على النفس وتوحشها، ولا يحمل حق تعبير أفكاره وترجمته وتبينه أي واحد دون أمين أحسن الإصلاحي. وهو الذي كان يؤدي حقه. ويظهر الدكتور شرف الدين الإصلاحي رأيه عن هذا، "إن الأستاذ الدرايا آبادي كان من أصدقاء الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ومادحيه وعلى الناقد أن يؤدي واجبه" (ص 519) ولا يصح قول الدكتور شرف الدين الإصلاحي هذا عن الشيخ الدرايا آبادي بما أن له خبرة صحيحة ومعرفة تامة بالفكر الفراهي وتعبيره وكان عالمًا كبيرًا للعلوم القرآنية والإسلامية، وهو صحيح في قوله هذا عن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي وهل يمكن لنا اليوم أن نقدم أي واحد سوى الشيخ أمين أحسن الإصلاحي كترجمان للفكر الفراهي. ولا يمكن الإنكار بما كان له من مآثر قيمة في ترويج الفكر الفراهي ونشره فيما بين الناس.

وتتبعثر في "ذكر فراهي" مقتبسات عربية طويلة أو مختصرة هنا وهناك ولا يمكن الاستفادة منها إلا لمن كان له معرفة باللغة العربية، وهناك عدد غير قصير من المنتمين إلى الفكر الفراهي ممن لا يعرف اللغة العربية، فيواجه مشاكل كثيرة خلال دراسة هذا الكتاب. وبعض مقتبساته تحمل أهمية كبيرة ولكن من الأسف لا يتسع نطاق استفادته للجميع لعدم معرفتهم باللغة العربية ونقدم هنا بعض النماذج من أمثال عبارة الإمام الفراهي حول نظم القرآن (591) ورأي الإمام الفراهي عن كتابه "في ملكوت الله" (600) وإبداء الإمام الفراهي رأيه عن كتابه "دلائل إلى النحو الجديد" وتقريظ العلامة رشيد رضا المصري حول كتابه "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" (ص 783) وإبداء رأي شكري فيصل عن "دلائل النظام" وإبداء الآراء لأحمد حسن فرحات حول تصانيف الفراهي وغيرهم - وكل هذا في اللغة العربية - ولو يقوم أحد بترجمة كل هذا لاتسع إطار استفادتها، وأظن

أن هذا عمل مهم لا بد من إتمامه، كما أرى من المناسب أن أوضح هنا أن طريقة نقل المقتبسات الطويلة تنافي البحوث الجديدة. والآن يكتفى بذكر خلاصة المقتبسات أو بترجمته فقط، أما نقل المقتبسات الطويلة فهذا أسلوب القدماء ولا أهمية لها في البحوث الجديدة.

وطرق بخاطري خلال دراستي هذا الكتاب شعور بأنه تضمن في تلاميذ الفراهي من كان له علم وفضل ويعد في الصف الأول من مجال العلوم والفنون، أما من كانوا دونهم فلا يعتني بهم وهذا لا يجوز. فإن الأستاذ نجم الدين الإصلاحي وعبد السلام الندوي يستحق الجدارة للشمول في تلاميذ الفراهي وأما نجم الدين الإصلاحي فذاع صيته وعلا كوكبه في مجال العلم وخاصة في إطار ديوبند، يتمتع بنظرة الإجلال والتكريم عند جميع الناس. وأحسن الناشر القول في ديباجته حول الأستاذ نجم الدين الإصلاحي وأجاد ذكره:

"والحقيقة أن الكتاب والمؤلفين لم يزالوا يصنفون حول حياته وفكره منذ وفاته إلى هذا اليوم، استهله سيد سليمان الندوي، فألقى الضوء إثر وفاته على حياته وخدماته في اللغة العربية والأردية كلتيهما، وهكذا أصبح أول مترجم لحياته، ثم كتب الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في مجموعة تفاسير الفراهي والأستاذ نجم الدين الإصلاحي في المجلة الشهرية "تذكره ديوبند" بالأقسام المتتالية حول حياته وخدماته وألقى الضوء على آرائه وأفكاره وهؤلاء ممن كانوا شاهدوه من قرب وتعلموا عليه واستفادوا منه". (ص17)

وقال محمد سجاد ابن الإمام عبد الحميد الفراهي عن عبد السلام الندوي:

"كان عبد السلام الندوي تلميذ عبد الحميد الفراهي وكان يحضره" (712) وجاء في موضع آخر، "حضر في خدمته سنة واحدة تلميذه المولوي عبد السلام الذي كان يسكن في نفس القرية التي كانت للفراهي، فتحسنت حياته (ص717).

وليس من الضروري أن يكتب صفحات عديدة على حياة كل تلميذ ولكن من المناسب أن يذكر بعض تلامذته حسب منزلهم بعد تقييم مراتهم ومن الممكن أن يكون فيهم من التلامذة من يكفي ذكر أسمائهم فقط. وجاء في صدد ذكر نجم الدين الإصلاحي طبقته التي ينتهي إليها، ولا حاجة هنا إلى ذكرها، وأنا شخصيًا أشعر بالقلق الشديد بعد قراءة هذا، وإليك هذه السطور لكي تقرأها وتعرف على عدم مناسبتها:

"جاء ذكر نجم الدين الإصلاحي خلال المحادثة مع جليل مختار، فأخبرني أنه لا ينتهي إلى طبقتنا، وهم ينتمون إلى أعمال كهيتا سرائ ونظام آباد، هم صباغون ويعملون عمل الصباغة ويصبغون الأثواب... إنه كان رجلًا ذا ثقافة واسعة فتفكر الناس في توطنه هنا وأعطاهم أراضي فتوطن هناك وبنى بيته واستقر فيه".

لا أهمية لطبقة الناس في دين الإسلام من حيث أن يكرم بها ويوقر أو يحتقر بها، وأشار إلى هذا القرآن الكريم أن تقسيم الناس إلى الشعوب والقبائل ليس إلا للتعارف فقط، ولو رأينا من هذه الجهة لوجدنا أنه كان أفضل وأكرم من الخريجين في مدرسة الإصلاح الذين ينتمون إلى طبقة الشيوخ والأفاضل".

ويقول في صدد ذكر الحكيم مختار الإصلاحي أنه ألف كتبًا عديدة حول الطب وهي في انتظار الطباعة (ص 88) وهذه المعلومات عن الدكتور قديمة جدًا، وطبقًا للمعلومات الأخيرة نشرت عدة مؤلفات للحكيم مختار الإصلاحي حول الطب¹. ونقل الدكتور شرف الدين الإصلاحي عن مختار عبد الجليل² قولًا آخر، ينافي الطبيعة الإسلامية، يقول: "أسس في سرائمير مدرسة أخرى باسم مدرسة بيت العلوم إزاء مدرسة الإصلاح في ذلك الزمن فسميناها مدرسة بيت الفضول"

¹ أنظر للتفصيل: حكيم محمد مختار الإصلاحي، حكيم شميم ارشاد الأعظمي، تهذيب الأخلاق (عدد خاص بأعلام علي كره، الجزء الثاني)، مارس 2103، 3/32، ص 225-236

² أنظر للتفصيل عن حياته: مجلة الطبيات، أنجمن طالبات جامعة الطبيات، طوى، أعظم كره، 2/2، 2015م، ص 9

(ص815) وترى ما في هذا الأسلوب من ابتذال ودناءة، لا يقال مثل هذا حين السخرية فضلاً عن أن يقيد بها بالكتابة.

كما يقول في صدد عبد الرحمن برواز الإصلاحي، أنه صنف كتباً عديدة وكتبه عن المفتي صدر الدين أزرد، ومخدوم علي المهائمي، والشاه وجيه الدين الغجراتي وغيرها تحت الطباعة. والآن تم نشر كل منها.

قد تشرف الدكتور شرف الدين الإصلاحي بلقاء عبد الرحمن برواز الإصلاحي في سنة 1979م وقد طبع هذان الكتابان في سنة 1975-76 ولكن على الرغم من هذا يقول عن هذين الكتابين إنهما تحت الطباعة.

وأشار إلى خصائص تفسير سورة البقرة وحكمة القرآن والرسالة في إصلاح الناس بشأن ذكر مسوداته. وقد تم نشر تفسير سورة البقرة في سنة 2000م كما طبعت ترجمة حكمة القرآن والرسالة في إصلاح الناس. قام خالد مسعود بترجمة حكمة القرآن ولكن بعد مقارنة هذه الترجمة بالأصل يبدو أنه لم ينجح في نقل فكر المصنف في ترجمته الأردية كلياً. كتب كاتب هذه السطور مقالة حول ترجمة حكمة القرآن تم نشرها في مجلة العلوم الإسلامية¹ وقام الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي بتعريف ترجمة الرسالة في إصلاح الناس في مجلة الإصلاح في يونيو 1936، والآن تم نشرها في صورة كتيب مستقل وتفاصيل هذه الكتب كما يلي:

1- تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، سورة البقرة، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح سرائير، أعظم كره، الطبعة الأولى 2000م، ص296

2- حكمت قرآن، (ترجمة: خالد مسعود)، فاران فاؤندينشن، لاهور، 1995م، ص142

¹ حكمت قرآن - إيك مطالعه، الدكتور أبو سفيان الإصلاحي، مجلة العلوم الإسلامية، مسلم يونيورتي علي كره، 1996م، 2/1-21، ص67-78

3- الرسالة في إصلاح الناس، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، ص43

ولا بد من أن تكون هذه الكتب في صورة المسودات عندما حصل الدكتور شرف الدين الإصلاحي على المعلومات عنها، ولكن يجب على الكاتب أن لا يوفر القراء حين الطباعة شيئاً ما يغير الحقيقة، وهذه المسؤولية تعود إلى الناشر أيضاً.

واستعمل كلمة بدر الإصلاحي دون بدر الدين الإصلاحي في موضعين في صفحة 664، وإن يتعلق هذا الخطأ بالكتابة فهو خطأ فاحش، وإن فعل هكذا شعورياً فهذه جريمة تجرح بها شخصية عظيمة للفكر الفراهي.

ونرى في مبيضات الفراهي ست صفحات حول فلسفة البلاغة وهي في الواقع نقد على فلسفة البلاغة. وقد ذكر شرف الدين الإصلاحي هكذا: "قد صرح الفراهي في بداية الكلام أن حبراً من الشام قد ألف كتاباً باسم فلسفة البلاغة، فجعله غير واضح، فلذلك أحس بالحاجة إلى الكتابة حول هذا الموضوع.

وأظن من المناسب أن أذكر بعض الأشياء هنا، أولاً أن هذا ليس حبراً بل اسم مصنفه جبر ضومط. وثانياً ليس من المناسب أن يقول: ألفه أحد من علماء الشام، لأن جبر بن ميخائيل ضومط (1859-1930) يعد من أعلام الأدباء في اللغة العربية وآدابها، وقد أدى خدمات بارزة في مجال النقد والتأليف والتدريس. ولد في قرية برج صافيتا الواقعة في مضافة شمال طرابلس (الشام) وتوفي في بيروت، وكان معلماً عربياً في المدرسة الأميركية. وتولى رئاسة التحرير لجريدة "المحرسة" في سنة 1884م، ولما هاجم الزعيم الإنكليزي كاردن باشا (1833-1885م) على السودان، أرسله إليها كترجمان. ولم يزل يدرس اللغة العربية وآدابها في الكلية الأميركية ببيروت من سنة 1889م إلى 1922م بعد أن رجع منها. وكان له براعة تامة في الإنكليزية أيضاً مع العربية، كما يستنبط الأشياء التي يقصد من اللغة العبرانية

والسريانية. وألف كتبًا عديدة في أسلوب جديد منها: الخواطر الحسان في المعاني والبيان، الخواطر العراب في النحو والإعراب، الخواطر في اللغة، فك التقليد في علم الصرف على أسلوب جديد، فلسفة البلاغة، اللغة العربية¹. وفي ضوء هذه الخدمات والتصانيف لجبر ضومط لا يناسب أن يقدمه كشخصية غير معروفة. ومن الممكن أن يقول قائل على هذه الانتقادات الواردة في السطور أعلاه، أنه أخذ هذه المعلومات قبل خمس عشرة سنة، وهو صحيح في قوله. ولكن ليس من المناسب أن تبقى هذه المعلومات في الكتاب عند نشره كما هي قبل خمس عشرة سنة. وهذا على المصنف والناشر كليهما أن يهتما عند النشر بأن لا يوجد فيه أي شيء مخالف للحقيقة.

وفي الختام نود أن نلفت انتباهكم إلى جانب مهم وهو أن العقبات والعراقيل التي واجهها الدكتور شرف الدين الإصلاحي لإنهاء هذا المشروع والعمل العظيم، لا يمكن لنا أن نتصورها الآن. ولكن مما لا شك فيه أن هذا العمل يقتضي الجهود الجادة والمسامي الدائبة، نحن نعتز بعظمتها وقدرها بسعة الصدر. ونظرًا إلى عظمة هذا العمل ورفعته لا بد للقراء من أن يطالبوا أن يكون فيه ببلوغرافية للكتب في أسلوب جديد. ولكن الببلوغرافية للكتب التي توجد فيه لم يراع فيها أي ترتيب ولا ترتيب ألفبائي، وتتضمن الكتب الأردية بعض الكتب العربية أيضًا. كما أوردت المجلات العربية والأردية كليهما معًا. وينبغي له أن يذكر فهرسة المجلات العربية والأردية كليهما على حدة، كما يكون للرسائل والجرائد أيضًا فهرست على حدة. وفي الجملة الببلوغرافية التي شملت هذا الكتاب هي غير مرتبة وناقصة. ورافقني هذا الإحساس بشدة بعد رؤية المستوى الأعلى للبحث والتحقيق لهذا

¹ معجم المطبوعات العربية والمصرية ليوسف الياس سركيس، مطبعة سركيس، 1938م، 683-674/1. وانظر أيضًا: الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة التاسعة، نوفمبر

1990م، 109-108/2

الكتاب أن يورد فهرست الأعلام والأماكن في آخر الكتاب، كي يستفاد بها بسهولة وتزداد بها أهمية الكتاب أيضاً. كما ذيل في آخره فهرست المبيضات والمسودات القلمية أيضاً. ليت فحيزاً لو أزيلت هذه النقائص والزلات في الطبعة القادمة، ولعل من المناسب أن يكون في بداية الكتاب ديباجة المصنف، كي نفهم دقائق الكتاب ومسائله المهمة الكثيرة بسهولة. وذلك بما أن الكتاب يتضمن مباحث عديدة، لا يفهما القارئ إلا بعد أن يطلع على سبب تأليفه. ويقرأها القارئ بكل شوق ورغبة كي يعرف تلك المراحل والشدائد التي عانى منها المصنف خلال تأليف هذا الكتاب.

إن الدكتور شرف الدين الإصلاحي قد ألم باستعمال المصادر والمراجع الكثيرة في إعداد هذا الكتاب وتدوينه ما أصبحت الآن بمثابة المستحيل أن يعثر عليها أحد. وهذا البحث والتنقيب والرحلات إلى البلاد المختلفة للحصول على هذه المعلومات الأكاديمية، لا يتحمل مشاقها إلا الدكتور شرف الدين الإصلاحي. وخطر ببالي بعد إلقاء النظر على المصادر والمراجع الواردة في هذا الكتاب، لو أن أحداً يقوم بجمع منتخب المقالات حول حياة عبد الحميد الفراهي وخدماته ثم يهتم بنشرها، سيكون تراثاً علمياً كبيراً للعلماء والباحثين. وطبقاً لعلمي المحدود أود أن أشير إلى بعض مثل هذه المقالات للجمع والتدوين وهي مقال سيد سليمان الندوي "الصلوة على ترجمان القرآن"¹ ومقال أمين أحسن الإصلاحي "ترجمة عبد الحميد الموجزة" ومقال إقبال سهيل "الإمام عبد الحميد الفراهي في علي كراه"²، ومقال افتخار الأعظمي "الجيل الجديد" المطبوع في رسالة، ومقال السيد شكيل أحمد "الإمام عبد الحميد الفراهي خلال قيامه في حيدرآباد دكن"، ومقال نجم الدين الإصلاحي "الإمام عبد الحميد الفراهي"³، ومقال الدكتور ظفر الإسلام "الإمام عبد الحميد

¹ أنظر للتفصيل، معارف، 6/26، نوفمبر 1930م، ص 322-324

² أنظر للتفصيل، تهذيب الأخلاق، 11/6، نوفمبر 1987م، ص 9-13

³ أنظر للتفصيل، مجلة "تذكرة ديوبند" الشهرية، 8/1، 12، 11، 13

العدد الخاص مجلة الهند

الفراه- نظرة عابرة إلى حياته وخدماته"¹ ومقال الدكتور الأستاذ أبي سفيان الإصلاحي "الإمام عبد الحميد الفراهي في علي جراه"²، فلو أن أحدًا يقوم بجمع هذه المقالات ثم يهتم بنشرها فيكون خدمة عظيمة لترويج الفكر الفراهي.

¹ أنظر للتفصيل: كتابيات فراهي، الدكتور ظفر الإسلام الإصلاحي، ادارہ علوم القرآن، سرسید نگر، علی کرہ، 1991م

² أنظر للتفصيل: مولانا فراهي اور علي کرہ، الدكتور أبوسفيان الإصلاحي، مجله فکر ونظر، مسلم يونيورستي علي کرہ، 1995، 1/32، ص51-65

تعليقات الشيخ عبد الحميد الفراهي

على بعض رسائل العلامة ابن تيمية رحمه الله تعالى

- الشيخ ضياء الدين الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: محمد شفاء الرحمن²

كان شيخ الإسلام ابن تيمية وترجمان القرآن الشيخ حميد الدين الفراهي من جهابذة العصر ومجتهد الزمان، وكلاهما قاما بتطهير العلوم والفنون وتجديدها، أحدهما رد عن العلوم الإسلامية حملة شرسة للمنطق اليوناني وفلسفته، والآخر حاول تجنبه عن الشوائب العجمية.

وكل منهما كان يمتاز باعتصامه بحبل الله والتمسك بسنة رسوله ﷺ والافتداء بالسلف الصالحين، وكنا على كامل اليقين بأنه "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها".

وكنا يعتقدان جزماً بأن: "كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر ﷺ". وكلاهما كانا قد فوّضا الأمر لكتاب الله والسنة النبوية، وكنا أسوة حية لـ"بهما يبصران ويسمعان":

چون غلام آفتابم هم از آفتاب گویم

نه شیم نه شب پرستم که حدیث خواب گویم

كلتا الشخصيتين كانتا متميزتين عن معاصريهما، وكانت تختلف طريقة تفكيرهما عن زمنهما، وكان كل منهما يمتاز عن غيرهما في تحقيقاتهما وبحوثهما كما أن

¹ كاتب هندي كبير للدراسات الإسلامية وخاتم أسلوب العلامة شبلي الأديبي

² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيودلهي

أفكارهما وتخيلاهما قد تعسر على العلماء العامة وأصحاب الفتيا فهمها مما تسبب لامتحانها وافتتاحها به.

كان من المحال أن يتمكن أحد من الوصول إلى عظمتها ورفعتهما، ولذا لم يتمتع كل واحد منهما بالشهرة بل كانا في معزل عن الناس، ولم يعلم معاصروهما بكمالهما ولا علم اللاحقون بفضلهما وعلمهما، بل الله هو الذي يعلم بما أودعه في صدورهما من الخزان التي غابت بغياهما:

تو نظیری ز فلک آمدہ بودی چو مسیح

باز پس رفتی وکس قدر تو نشاخت دریغ

ولد الشيخ الفراهي بعد الحافظ ابن تيمية بقرون، كان شيخ الإسلام ابن تيمية مبعوضاً ومطعوناً في الهند في البداية، وأول من ذب عنه وأزال ما كان في أذهان الناس من سوء الظن به هو الشاه ولي الله الدهلوي رحمه الله وأول من قام بتعريفه بين أهل اللغة الأردية هو حجة الإسلام العلامة شبلي النعماني رحمه الله. كان الشيخ الفراهي رحمه الله من المعجبين بشيخ الإسلام ابن تيمية ثم جاء الشيخ أبو الكلام آزاد رحمه الله ورفع لابن تيمية من قدر وقام بتشهيره حتى صار له جماعة يحبونه ومنهم الشيخ غلام رسول مهر. وفي النصف الأخير من القرن العشرين كتب عنه الشيخ أبو الحسن علي الندوي والشيخ يوسف الكوكني باللغة الأردية، وأبو زهرة المصري باللغة العربية، ومنذ أن تمت طباعة مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية ورسائله في مصر صارت له جولة في المعجبين به من الهنود وفرحوا به وتلقوه بالقبول دون تردد.

كان الشيخ الفراهي رحمه الله يكتب تعليقه على كل كتاب يقرأه، وتكون هي مختلفة النوع، ففي البعض كان يؤيد رأي المصنف ويصوّبه، وفي البعض يختلف عنه اختلافاً شديداً، وفي البعض يوضح المهم من أفكاره ومجملها، وفي البعض ينوّه بأهم أفكاره ويوجه إليه أهل العلم وأصحاب النظر.

العدد الخاص ————— مجلة الهند

طبعت للعلامة ابن تيمية مجموعتان لرسائله من المطبعة الحسينية بمصر سنة 1323هـ، وفي المجموعة الأولى كانت ست رسائل وهي كما يلي:

- (1) رسالة العبودية.
- (2) الواسطة بين الخلق والحق.
- (3) رفع الملام عن الأئمة الأعلام.
- (4) تنوع العبادات.
- (5) رسالة في الرد على النصيرية.
- (6) رسالة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور.

والمجموعة الثانية كانت مشتملة على الرسائل التالية:

- (1) معارج الوصول.
- (2) رسالة المظالم المشتركة.
- (3) رسالة الحسبة في الإسلام.

والرسائل التي علّق عليها الشيخ الفراهي بعد مطالعته لها هي كما مضى أعلاه. كان الشيخ الفراهي يقدره كل تقدير ويعرف له عظمته، ومع ذلك عامله معاملة "كل أحد يؤخذ من قوله ويترك".

سنقدم لكم في السطور الآتية تعليقات الشيخ الفراهي بالترتيب مع بيان آراء العلامة ابن تيمية رحمه الله ليتيسر فهمها.

الإسلام والإيمان والإحسان: قد ذكر شيخ الإسلام في بداية رسالته (رسالة العبودية) حديث جبريل الذي فيه أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، فبيّن الرسول صلى الله عليه وسلم حقائق هذه الأمور الثلاثة على هذا الترتيب.¹

¹ شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، رسالة العبودية، تحقيق: علي حسن عبد الحمید، دار الأضالة - الإسماعيلية، ط3، 1419هـ/1999م، ص 23-24.

علّق عليها الشيخ الفراهي رحمه الله: "الإسلام والإيمان والإحسان".

وهدفه من هذا التعليق تلفيت الناس إلى أهمية هذه الأمور الثلاثة أو إلى أن هذا هو الترتيب في الدين فلا بد من الاعتناء به.

تفسير "حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين": قد بيّن الحافظ ابن تيمية رحمه الله في موضع بأن المحبة والطاعة هما في الأصل حق لله سبحانه تعالى، ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته تبع لهما، ولكن العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ونحو ذلك، فلا تكون إلا لله وحده، ولا يمكن أن يشرك فيه نبي، ويذكر في تفسيره كلمة "الحسب" - هو الكافي - فالله وحده لا النبي، واستدل عليه بآيتين (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿٧٢﴾).¹ وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾).²

ومفهوم الآية الأخيرة عند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هو أن الله تعالى هو كافي رسوله والذين اتبعوه من المؤمنين، ومن ظن أن المعنى: حسبك الله والمؤمنون معه؛ فقد غلط غلطاً فاحشاً.³

علّق عليه الشيخ الفراهي: "معنى قوله تعالى: (حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ). كأنه يرى ما يراه العلامة ابن تيمية رحمه الله، وأن تفسيره لهذه الآية صحيح فوثقه بتعليقه عليه.

نقص في استدلال لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: يرى العلامة ابن تيمية رحمه الله أن الذين يجعلون شهود القضاء والقدر والحقائق الكونية مانعاً من

¹ سورة آل عمران: 173.

² سورة الأنفال: 64.

³ رسالة العبودية، ص 25-26.

اتباع الشريعة أي أن العلم بإرادة الله وإدراكه سبب لسقوط التكليف الشرعي هم على مراتب مختلفة في الضلال والغواية.¹ ويقول في طائفة من الفرق الضالة: "ومن هؤلاء طائفة هم أعلاهم عندهم قدرًا، وهو مستمسكون بما اختاروا بهوهم من الدين في أداء الفرائض المشهورة، واجتناب المحرمات المشهورة، لكن يضلون بترك ما أمروا به من الأسباب التي هي عبادة، ظانين أن العارف إذا شهد القدر أعرض عن ذلك، مثل من يجعل التوكل منهم أو الدعاء منهم ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة؛ بناء على أن من شهد القدر علم أن ما قدر سيكون، فلا حاجة إلى ذلك".²

ويرى العلامة ابن تيمية رحمه الله أن هذا ضلال مبين وغلط عظيم، لأن الله تعالى قدر الأشياء بأسبابها كما أن قدر السعادة والشقاوة بأسبابها واستدل على ردها وبيان خطئها بأحاديث.

يقول فيه الشيخ الفراهي رحمه الله: "كان ينبغي له أن يستدل بكتاب الله".
كأنه يقول: إن الاستدلال على مثل هذه الأمور المهمة بالأحاديث فقط دون القرآن الكريم غير ملائم.

السنة كسفينة نوح: بعد ذكر هؤلاء وأمثالهم من الفرق يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: "فهذه الأمور ونحوها، كثيرًا ما تعرض لأهل السلوك والتوجه، وإنما ينجو العبد منها بملازمة أمر الله الذي بعث به رسوله في كل وقت، كما قال الزَّهْرِي: كان من مضى من سلفنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة. وذلك أن السنة كما قال مالك رحمه الله: مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق".³

¹ نفس المرجع، ص 42.

² نفس المرجع، ص 50.

³ نفس المرجع، ص 51-52.

علّق عليه الفراهي: "السنة مثل سفينة نوح" يعني أنه يحسن ما قال ابن تيمية رحمه الله.

العطف العام: ذكر الحافظ ابن تيمية رحمه الله في باب العطف أن من أنواع العطف أن المعطوف عليه قد يكون في صورة العطف عامًا مطلقًا قد لا يفهم منه العموم، كما في قوله تعالى: (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ كَوْمًا رَّزَقْنَاهُمْ يَنْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ).¹

فلفظ "يؤمنون بالغيب" يشمل الغيب الذي يجب الإيمان به، ولكن فيه إجمال ولا يدل على أن "ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك" داخل في الغيب.²

ولكن الشيخ الفراهي رحمه الله لا يوافق ابن تيمية رحمه الله في هذا التوجيه، ويقول: "لا يصح هذا التأويل لما قد صرح القرآن في غير موضع من يؤمن به ولم يسمه الغيب".

الأقوال الحكيمة: قد تكلم الحافظ ابن تيمية رحمه الله في باب الصبر وأتى فيه بأقوال ذي حكمة فيقول في موضع: "وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحرته مما سواه فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه، نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره".³

حسن الشيخ الفراهي رحمه الله تلك الأقوال الحكيمة بتعليقه عليها قائلاً: "كلام حكيم".

الشرك والاستكبار وخطأ ابن تيمية رحمه الله: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبيناً حقيقة الإسلام "وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به

¹ سورة البقرة: 4-2.

² رسالة العبودية، ص 55-56.

³ نفس المرجع، ص 71.

رسله وأنزل به كتبه، هو أن يستسلم العبد لله لا لغيره، فالمستسلم له ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر".¹

يرى ابن تيمية رحمه الله أن الكبر ينافي حقيقة العبودية، والذي يستكبر عن عبادته وينكر فهو مشرك، وعابد لغير الله فكأن المستكبر عنده هو المشرك، ويستدل عليه بكبر فرعون أنه كان من أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله، وكان مشركاً،² ثم يقول بعد ذكر آيات تتعلق بكبره وعلوه في الأرض أن الله سبحانه قد وصف الكبر بالشرك في القرآن فقال تعالى: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُؤُا مَوْسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ).³

فملخص كلام ابن تيمية رحمه الله أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله، كان أعظم إشراكاً به.⁴

يرى الشيخ الفراهي رحمه الله أن هذا القول غير صحيح، وأن الحافظ ابن تيمية رحمه الله قد أخطأ في فهم الآية، واستدل به بها غير سليم، انظر إلى تعليقه التالي: "زعم أن الكبر من أسباب الشرك أخطأ في الاستدلال. عندي أن فرعون لم يوصف بالشرك ومعنى آلهتك أصنامك اللاتي أممن ليسجدوا له سجوداً لفرعون وهكذا كانت الجبابة تفعل كما فعل قياصر الروم. نعم إن الشرك يعني على إحساس العدل عقلاً ونقلاً فالمشرك يعبد هواه والمؤمن يعبد الحق".

يرى الشيخ الفراهي رحمه الله أن الاستدلال بهذه الآية على شرك فرعون ليس بصحيح بل ابن تيمية رحمه الله أخطأ في فهم الآية، ليس مرادها أن فرعون قد

¹ نفس المرجع، ص 84.

² نفس المرجع، ص 87.

³ سورة الأعراف: 127.

⁴ رسالة العبودية: 88.

اخترع له آلهة يعبدها بل المقصود من "آلهتك" هي الأصنام التي نصبها في حكومته وأمر الناس بالعبادة لها.

الشرك غالب على النصارى، والكبر غالب على اليهود، وأن الشرك من أكبر الكبائر: كتب الإمام ابن تيمية رحمه الله في موضوع الشرك والاستكبار مشيراً إلى حقيقة ضلالة اليهود والنصارى بأن النصارى يغلبهم الشرك وأن اليهود يغلبهم الكبر،¹ قال تعالى في النصارى: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢٠﴾).² وقال في اليهود: (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا كَذِبُكُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ).³

وقال في موضع آخر: (سَأَصْرِفُ عَنْ عَائِنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ).⁴ لما كان الكبر مستلزماً للشرك، والشرك ضد الإسلام - وهو الذنب الذي لا يغفره الله تعالى -⁵ قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾).⁶

يوافقه الفراهي في أن النصارى يغلبهم الشرك وأن اليهود يغلبهم الكبر، ولكنه يخالفه فيما قاله في الآية المذكورة لسورة النساء قائل: "أصاب فيما قال إن الشرك غالب على النصارى والكبر غالب على اليهود، وأخطأ مع سائر الناس فيما زعم أن الشرك أكبر الكبائر، وذلك لما أخطأوا معنى كلمة "دون".

¹ نفس المرجع، ص 88.

² سورة التوبة: 31.

³ سورة البقرة: 87.

⁴ سورة الأعراف: 146.

⁵ رسالة العبودية، ص 89.

⁶ سورة النساء: 116.

ولم نعثر على معنى كلمة "دون" عند الشيخ الفراهي ولكن يتضح أنه لا يرى كغيره أن الشرك من أكبر الكبائر.

مفهوم لفظ الأمة: بيّن الإمام ابن تيمية رحمه الله أن إبراهيم عليه السلام هو الإمام وأن أقوام العالم هم المقتدون واستدل عليه بقوله تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٢٠).¹

وبيّن أن معنى الأمة هو القدوة والأسوة،² ولكن الشيخ الفراهي لا يوافق في هذا المعنى ويقول: "أخطأ فيما قال إن الأمة هو القدوة وأنه رحمه الله اعتمد على ما روي عن بعض السلف، والصحيح عندي أن الأمة هو الطائع المسلم كما جاء في كلام العرب".

الفرق بين الخلّة والمحبة: إن الله سبحانه وتعالى اتخذ إبراهيم خليلاً له، وضح الإمام ابن تيمية رحمه الله مفهوم الخلّة والمحبة وبيّن الفرق بينهما فيقول: إبراهيم عليه السلام كان خليل الله ولم يكن له خليل سواه، لأن الخلّة لا تحتل الشركة بخلاف المحبة،³ قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحسن وأسماء: (اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما).⁴ وكذلك أتى بأحاديث أخرى للاستدلال على أن المحبة يكون فيها مشاركة.

يظهر من خلال هذا التفصيل أن الخلّة أعظم من المحبة فيكتب الشيخ الفراهي توثيقاً لكلامه: "الخلّة أعظم من الحب".

اللذة الإيمانية: يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا

¹ سورة النحل: 120.

² رسالة العبودية، ص 92.

³ نفس المرجع، ص 94-95.

⁴ رواه البخاري برقم (3735).

لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ، بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ، مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ)،¹ يقول الحافظ ابن تيمية رحمه الله في شرح هذا الحديث: "أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من كان فيه هذه الثلاث وجد حلاوة الإيمان لأن وجد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له فمن أحب شيئاً أو اشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتى. ومن قال: إن اللذة إدراك الملائم - كما يقوله من يقوله من المتفلسفة والأطباء - فقد غلط في ذلك غلطاً بيناً فإن الإدراك يتوسط بين المحبة واللذة فإن الإنسان مثلاً يشتهي الطعام فإذا أكله حصل له عقيب ذلك اللذة فاللذة تتبع النظر إلى الشيء فإذا نظر إليه التذبه واللذة التي تتبع النظر ليست نفس النظر وليست هي رؤية الشيء بل تحصل عقيب رؤيته"،² وقال تعالى: (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ).³

تبيّن من هذا أن اللذة ليست هي نفس النظر والرؤية، بل الأعين تتمتع بها بعد رؤيته. أيد الشيخ الفراهي قول ابن تيمية في هذا قائلاً: "اللذة ليست بإدراك ولكنها بعد الإدراك".

روح الكلام وصورته: يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في موضع تحدث فيه عن المحبة الإلهية: "وهو سبحانه يحب من يحبه لا يمكن أن يكون العبد محباً لله والله تعالى غير محب له بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له وإن كان جزاء الله لعبده أعظم،⁴ كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله تعالى أنه قال: (من تقرب

¹ رواه البخاري برقم (16) ومسلم برقم (43).

² رسالة العبودية، ص 97-98.

³ سورة الزخرف: 71.

⁴ رسالة العبودية، ص 105-106.

إِلَى شَبْرًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرُولًا¹.

ذكر الشيخ الفراهي أصلًا بهذا الحديث فقال: "وهذا الحديث مثال لما يراد منه روح الكلام لا صورته".

توجيه الأقوال الحكيمة: قد مرَّ ذكر البعض من كلام ابن تيمية الحكيم، ثم يعود إليه ببحث حكيم ممتع فيقول: "وإنما الدين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه، وهو تحقق محبة الله بكل درجة، وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه، وتكمل محبة الرب لعبده، وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا، وكلما كان في القلب حبٌّ لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك، وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حبٌّ لغير الله بحسب ذلك، وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، فالدنيا ملعونة، ملعون ما فيه إلا ما كان لله، ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله، وهو المشروع. فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون لله إلا ما اجتمع الوصفين: أن يكون لله. وأن يكون موافقًا لمحبة الله ورسوله"².

وصف الشيخ الفراهي كلام ابن تيمية المذكور بقوله "كلامًا حكيماً" وحسنه وصوبه. أفضل الذكر لا إله إلا الله: يرى ابن تيمية رحمه الله أن أفضل الذكر هو لا إله إلا الله³ لما روى الترمذي وابن أبي الدنيا وغيرهما مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: (أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله)،⁴ وفي المؤطأ وغيره عن طلحة بن

¹ رواه البخاري برقم (7536) ومسلم برقم (2675).

² رسالة العبودية، ص 107-108.

³ نفس المرجع، ص 124.

⁴ رواه الترمذي (3383).

عبيد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير).

يقول الإمام: من ظن بعد هذه الأحاديث الصريحة أن هذا ذكر العامة، وأن ذكر الخاصة هو الاسم المفرد، وذكر خاصة الخاصة هو الاسم المضممر فهم ضالون غالطون،¹ واحتجاج بعضهم على ذلك بقوله تعالى: (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)،² من أبين غلط هؤلاء؛ فإن الاسم (الله) مذكور في الأمر بجواب الاستفهام في الآية قبله،³ وقوله تعالى: (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى)،⁴

فقد ذم الإمام ابن تيمية هذا التصور البدعي للذكر وغير المشروع بالشدة وانتقده بقوة يطول نقلها ههنا، فإن الشيخ الفراهي لم يكتف في هذا المكان بتأنيده فقط بل صحح انتقاده الشديد لهذا التصور المبتدع، وانظر في تعليقه:

"أنكر إنكاراً شديداً على من يرى أن يذكر الله باسمه المفرد واحتج على ما قال بأن القرآن والسنة لم تأمرنا بهذا، وأنه يورث الضلال وأحوالاً فاسدة. وعندي أنه مصيب في اعتصامه بالسنة فإن البدعة تفتح أبواب الضلالة، وإنكاره لأجل غلو الخصم فإنهم قالوا: إنه أفضل وإنه ذكر الخواص ولأجل أن العقل يحكم بأن ذكر الاسم المجرد ليس في شيء من الذكر فتأمل تجد غور هذه الحكمة فهذا على غلوه في الإنكار".

مخالفة الأئمة المقبولين للسنة والحديث ليست عمداً: للإمام ابن تيمية رحمه الله رسالة باسم (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) بين فيها "أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يتعمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في

¹ رسالة العبودية، ص 125.

² سورة الأنعام: 91.

³ رسالة العبودية، ص 125.

⁴ سورة الأنعام: 91.

شيء من سنته، فإنهم متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول، قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلا بد من عذر في تركه.¹ ويبيّن له أسباباً متعددة ومنها السبب الخامس يقول فيه: "أن يكون الحديث قد بلغه وثبت عنده، لكن نسيه. وهذا يرد في الكتاب والسنة.² مثل الحديث المشهور عن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن الرجل يجنب في السفر، فلا يجد الماء؟ فقال: لا يصلي حتى يجد الماء، فقال له عمار بن ياسر رضي الله عنه: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَا تَذْكُرُ إِذْ كُنْتَ أَنَا وَأَنْتَ فِي الْإِبِلِ، فَأَجْتَبْنَا فَأَمَّا أَنَا فْتَمَرُغْتُ كَمَا تَمَرُغُ الدَّابَّةُ، وَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ، فَذَكَرْتَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: (إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَذَا) وَضَرَبَ بِيَدَيْهِ الْأَرْضَ فَمَسَحَ بِهَمَا وَجْهَهُ وَكَفَّيَهُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: اتَّقِ اللَّهَ يَا عَمَارُ فَقَالَ: إِنْ شِئْتُ لَمْ أُحَدِّثْ بِهِ. فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ تُؤَلِّيكَ مِنْ ذَلِكَ مَا تَوَلَّيْتُ.³

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله بعد نقل هذه الواقعة "فهذه سنة شهدها عمر رضي الله عنه ثم نسيها، حتى أفتى بخلافها وذكره عمار رضي الله عنه فلم يذكر، وهو لم يكذب عماراً بل أمره أن يحدث به.⁴

وقد استنبط الشيخ عبد الحميد الفراهي من هذه الحادثة ما يتطلب التفكير فيه يقول: "لم يلزم عمر رأيه غيره ولا ترك رأيه بل عمل على أصل راسخ في قبول الشهادة والعمل بالعلم وجواز الاختلاف في الفروع".

فالحقيقة التي ركّز عليها الشيخ الفراهي لم يصل إليها الإمام ويقول إنه لا تقبل شهادة شخص واحد ويعمل بما هو معلوم إذا لم يكن المزيد من الشواهد لأن الفروع والجزئيات يسوغ فيها الخلاف.

¹ رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ص: 8-9.

² نفس المرجع، ص 22-23.

³ رواه مسلم (368).

⁴ رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ص 23.

العقوبة تكون على التمرد والطغيان: قد بين الإمام ابن تيمية رحمه الله موانع لحوق الوعيد والعقوبات وهي: التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية للسيئات، وبلاء الدنيا ومصائبها، شفاعة شفيع مطاع، ورحمة أرحم الراحمين، فإذا عدمت هذه الأسباب كلها، ولن تعدم إلا في حق من عتا وتمرد وشرد على الله شرود البعير على أهله فهناك يلحق الوعيد به.¹

قد بين العلامة ابن تيمية رحمه الله ستة موانع للوعيد والعقوبات، وقد رقم الشيخ الفراهي تلك الموانع التي ذكرها الإمام ابن تيمية، ووثقه في ألفاظ بليغة فيقول: "إنما العقاب لمن عتى وتمرد".

هل الربا إنما هو في النسئنة: يقول الحافظ ابن تيمية رحمه الله أنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لعن الله أكل الربا وموكله وشاهديه وكتابه)². وصح عنه صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه قال: لمن باع صاعين بصاع يداً بيد (أوّه، عين الربا) يقول الإمام في شرح هذا الحديث أن نوعي الربا ربا الفضل (الذي يؤخذ فيه شيء زائد ويعطى) وriba النسئنة (أخذ الزائد في الدين) باطل، ولكن الذين وصلهم قوله صلى الله عليه وسلم "إنما الربا في النسئنة" أجازوا بيع الصاع بصاعين يداً بيد كعبد الله بن عباس وأصحابه وتلامذته أبو الشعثاء، وعطاء، وطاؤوس، وسعيد وعكرمة وغيرهم من أعيان مكة الذين هم صفوة الأمة علمًا وعملاً لا يحل لمسلم أن يعتقد أن أحداً منهم بعينه، أو من قلده - بحيث يجوز تقليده - تبلغهم لعنة أكل الربا، لأنهم فعلوا ذلك متأولين تأويلًا سائغاً في الجملة.³

ذكر الشيخ الفراهي هذا الكلام المهم في تعليقه فقال: "ابن عباس وأصحابه وتلامذته أبو الشعثاء، وعطاء، وطاؤوس، وسعيد وعكرمة وغيرهم من أعيان مكة

¹ نفس المرجع، ص 42.

² رواه ابن ماجه برقم (2277).

³ رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ص 53-54.

قالوا أن لا ربا إلا في النسيئة فاستحلوا بيع الصاعين بصاع يدًا بيد، هذا لقوله عليه السلام إنما الربا في النسيئة".

عمل الإمام لتأليف المؤتمين وفق مذهبهم: يقول الإمام ابن تيمية رحمه في رسالته "تنوع العبادات" ترك الإمام الأفاضل لتأليف قلوب المقتدين مستحب، ويقول: يرى الإمام أحمد أن الإمام إذا أمّ أناسًا لا يقرؤون قنوت الوتر، ويريدون أن لا يقرأه الإمام فتركه له لتأليفهم مستحب.¹

يقول الشيخ الفراهي رحمه الله في تعليقه التوضيحي: "استحب أحمد ترك الإمام رأيه لتأليف الجمهور فيما فيه خلاف للعلماء".

فبين بقوله "فيما فيه خلاف للعلماء" أنه قد فعل ذلك في الأمور المختلف فيها، أما المسائل المنصوص عليها والمتفق عليها فلا يعتبر فيها رغبات الناس، ونقل في مثل هذه المسائل أقوالاً متعددة للعلماء وتكلم في مصلحة نزاع العلماء بالاختصار ولكنه مفيد جدًا.

مسألة ترتيب القرآن الكريم: يقول العلامة ابن تيمية رحمه الله حين ذكره لاختلاف العلماء حول كون سورة الفاتحة، والبسملة جزءًا للقرآن: والقرآن في زمانه لم يكتب ولا كان ترتيب السور على هذا الوجه أمرًا واجبًا مأمورًا به من عند الله بل الأمر مفوض في ذلك إلى اختيار المسلمين. ولهذا كان لجماعة من الصحابة لكل منهم اصطلاح في ترتيب سورة.²

ولكن الشيخ الفراهي لا يوافق في هذا الرأي ويقول في تعليقه: "أرى خلاف ذلك أولى بالصواب".

¹رسالة تنوع العبادات، ص 88

²نفس المرجع، ص 92.

كأن الشيخ الفراهي يرى أن القرآن الكريم كان قد تم ترتيبه في العهد النبوي، وهو على أمر من الله وإرشاده. وقد تكلم في تفسير سورة القيامة، وفي مواضع أخرى ما يتعلق بهذا الأمر.

طلب الدعاء من الميت: يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في رسالته "زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور" وهو أن لا تطلب منه الفعل ولا تدعوه، ولكن تطلب أن يدعوك، كما تقول للحي: ادع لي، وكما كان الصحابة-رضوان الله عليهم- يطلبون من النبي ﷺ الدعاء، فهذا مشروع في الحياة كما تقدم، وأما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول: ادع لنا، ولا اسأل لنا ربك، ولم يفعل هذا أحد من الصحابة والتابعين، ولا أمر به أحد من الأئمة، ولا ورد فيه حديث.¹ يوافق الشيخ الفراهي الإمام ابن تيمية في هذا الرأي ويقول في تعليقه موثقاً إياه: "لم يثبت طلب الدعاء من الميت".

الدلائل القرآنية والمفهوم الصحيح لكلمة "الحكمة": المجموعة الثانية لرسائل ابن تيمية تبدأ من كتاب "معارج الوصول"، يهتم فيه الفلاسفة والمتكلمين بأن هؤلاء يعرضون عن أدلة القرآن، وإن كانوا يعترفون بأن الدلائل العقلية موجودة في القرآن، ولكن طريقتهم نتيجة لصرفهم الأنظار عن القرآن الكريم، أما الفلاسفة فطريقة استدلالهم هي المقدمات الخطابية والإقناعية، وبالعكس فإن القرآن قد جاء بالبينات والهدى والآيات والدلائل اليقينية، وقد قال الله تعالى لرسوله ﷺ: (أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ).²

ولكن الفلاسفة يفسرون ذلك بالطرق المنطقية والبرهان والخطابة والجدال، وهو ضلال من وجوه، فالحكمة هي معرفة الحق والعمل به.³

¹ زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور، ص 21.

² سورة النحل: 125.

³ مجموعة الرسائل الكبرى، 1/181-182 (معارج الوصول)

يوافقه الشيخ في هذا المفهوم للحكمة ويقول مؤيداً له: "أصاب ههنا في معنى الحكمة". فعلم من هذا أن المعاني الأخر التي بينها ابن تيمية رحمه الله ليست بصحيحة عنده وسيأتي تفصيلها.

قول جميل للإمام الرازي: ينقل الإمام ابن تيمية رحمه الله قول الإمام الرازي وهو يرد على المبتدعين والملحدن: "لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما وجدتها تشفي غليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن في الإثبات".¹

يقول الشيخ الفراهي محسناً قول الرازي الجميل: "كلام حسن من الرازي كأنه عذر وتوبة منه".

المعاني الأخرى للحكمة: يقول الإمام ابن تيمية في تفسير الآية (فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)،² إن الله تعالى أنزل الكتاب والحكمة على رسوله صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك في غير موضع، وقد علم أمته الكتاب والحكمة كما قال تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ).³ وفي موضع آخر (وَأَذْكُرَنَّ مَا يُثْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ).⁴

ويقول ابن تيمية رحمه الله: المراد بآيات الله هو القرآن إذ كان نفس القرآن يدل على أنه منزل من الله فهو علامة ودلالة على منزله، والحكمة: قال غير واحد من السلف هي السنة، ويرى الإمام مالك رحمه الله هي معرفة الدين والعمل به، وقيل غير ذلك وكل ذلك حق فهي تضمن التمييز بين المأمور والمحظور والحق والباطل،

¹ نفس المرجع، ص 185.

² سورة النساء: 59.

³ سورة البقرة: 129.

⁴ سورة الأحزاب: 34.

وهي لا تشتمل إلا على حق، وهذه السنة التي فرّق بها بين الحق والباطل، وبين الأعمال الحسنة والقبيحة، والخير والشر¹.

ولكن الشيخ الفراهي لا يوافق ابن تيمية في هذا القول، ويقول في تعليقه: "الحكمة قال غير واحد من السلف: هي السنة وقال أيضاً طائفة كمالك وغيره: هي معرفة الدين والعمل به وقيل غير ذلك وكل ذلك حق. قال الفراهي: ليس كل ذلك حق في تأويل الآية، والصواب عندي ما قال مالك رحمه الله".

إجماع الأمة: يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله مثبتاً إجماع الأمة: وأما إجماع الأمة فهو حق، لا تجتمع الأمة على الضلالة، كما وصفها بذلك في الكتاب والسنة، فقال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)²، كما وصف نبهم بذلك في قوله: (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ)³، وبذلك وصف المؤمنين في الآية القادمة (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)⁴.

بناء على هذا الوصف لو قالت الأمة بما هو ضلال لما بقي لهم الامتياز بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،⁵ وقال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)⁶.

والمراد في الآية هم أهل العدل والخير الذين جعلهم الله شهداء على الناس وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول،⁷ وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه

¹ مجموعة الرسائل الكبرى، 190/1 (معارج الوصول).

² سورة آل عمران: 110.

³ سورة الأعراف: 157.

⁴ سورة التوبة: 71.

⁵ مجموعة الرسائل الكبرى، 191/1 (معارج الوصول).

⁶ سورة البقرة: 143.

⁷ مجموعة الرسائل الكبرى، 192/1 (معارج الوصول).

وسلم: مروا بجنابة فأتنوا عليها خيراً فقال النبي ﷺ: "وجب" ثم مروا بأخرى فأتنوا عليها شراً فقال النبي ﷺ: "وجب" فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت قال: (هذا أثنيتم عليه خيراً فوجب له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجب له النار؛ أنتم شهداء الله في الأرض).¹

فإذا قيل إن المسلمين هم شهداء الله في الأرض فلم يشهدوا بباطل، فإذا شهدوا أن الله أمر بشيء فقد أمر به، وإذا شهدوا أن الله نهى عن شيء فقد نهى عنه، ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطأ فلم يكونوا شهداء الله في الأرض.²

والحق أن الله تعالى زكى المسلمين كما زكى الأنبياء فيما يبلغون عنه أنهم لا يقولون عليه إلا الحق، وكذلك الأمة لا تشهد على الله إلا بحق.³

علق عليه الشيخ الفراهي وذكر فيه بعض الحقائق والدقائق بصرف النظر عن تائيده لابن تيمية فيقول:

"معنى شهداء الله أن ما شهدت به كان حقاً عند الله كما قال المسيح لحواريه ما تشدون على الأرض تشد على السماء، وما تحلونه على الأرض تحل في السماء، وفي ذلك دليل على صحة الإجماع وفي القرآن أصله وقوله تعالى (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ)⁴ ويطابق حديث "بي يبصر وبى يسمع" يكون في آخر النبوة حين ترك النبي أمة حاملة لما جاء به".

أدلة الإجماع من القرآن: قد تكلم العلامة ابن تيمية رحمه الله في مسألة الإجماع ونقل الآية (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل

¹ رواه البخاري برقم (1367).

² مجموعة الرسائل الكبرى، ج: 1 (معارج الوصول).

³ نفس المرجع.

⁴ سورة النساء: 115.

المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا) وقال بعد أن نقل أقوال العلماء المتعلقة بالآية بأن الإمام الشافعي رحمه الله لما تجرد الكلام في أصول الفقه، احتج بهذه الآية على الإجماع.¹

صوّب الفراهي استدلال الإمام الشافعي وعلّق عليه قائلاً: "احتج الشافعي بهذه الآية وافق فهمه بفهمي على صحة الإجماع".

ثم تكلم ابن تيمية رحمه الله في الإجماع وقال: إن إجماع الأمة حق، فإنها لا تجتمع على ضلالة، ونقل الآية قائلاً: والآية المشهورة التي يحتج بها على الإجماع.²

انظر تعليق الفراهي المؤيد له: "الاستدلال على الإجماع بآية" ومن يشاقق الرسول ...".

الإجماع والنص: يقول ابن تيمية رحمه الله: "وعلى هذا فالمسائل المجمع عليها قد تكون طائفة من المهتدين لم يعرفوا فيها نصًا، فقالوا فيها باجتهاد الرأي الموافق للنص، لكن كان النص عند غيرهم. وابن جرير وطائفة يقولون: لا ينعقد الإجماع إلا عن نص نقلوه عن الرسول مع قولهم بصحة القياس. ويقول أيضًا: ونحن لا نشترط أن يكونوا كلهم علموا النص فنقلوه بالمعنى كما تنقل الأخبار، لكن استقرأنا موارد الإجماع فوجدنا كلها منصوصة، وكثير من العلماء لم يعلم النص. وقد وافق الجماعة".³

يقول الشيخ الفراهي بعد نقل الجزء الأخير من كلام ابن تيمية موضحًا:

"ابن جرير وطائفة يقولون لا ينعقد الإجماع إلا عن نص ونحن لا نشترط ذلك لكن استقرينا موارد الإجماع فوجدنا كلها منصوصة أي ربما يكون الإجماع بالقياس وموافقة الصالحين من السلف".

¹ مجموعة الرسائل الكبرى، 1/193 (معارج الوصول)

² نفس المرجع، ص 203.

³ نفس المرجع، ص 106.

تغليط دعوى الإجماع على ترك القياس والرأي: يقول الحافظ ابن تيمية رحمه الله: من ادعى إجماع الصحابة على ترك العمل بالرأي والقياس فقد غلط.¹

يرى الشيخ الفراهي بأن موقف ابن تيمية من هذه الدعوى صحيح فيقول: "من ادعى إجماع الصحابة على ترك القياس والرأي فقد غلط".

السنة لا تنسخ القرآن: قد تكلم العلامة ابن تيمية رحمه الله بكلام جميل خلال حديثه عن الإجماع: "إن السنة لا تنسخ الكتاب، فلا يكون في القرآن شيء منسوخ بالسنة".² يحسن الشيخ الفراهي هذا الرأي لابن تيمية قائلاً في تعليقه: "السنة لا تنسخ الكتاب".

وفي المجموعة الثانية بعد "معارج الوصول" رسالة أخرى وهي "المظالم المشتركة" ولكن لا يوجد للشيخ الفراهي أي تعليق عليه، وبعدها رسالة "الحسبة في الإسلام" يوجد عليها تعليقاته في بعض الأماكن.

رفع اليدين عند الشهادة: ذكر احتساب النبي صلى الله عليه وسلم لعماله في باب فرض العين وفرض الكفاية ومن الألفاظ التي وردت فيه:³

(ثم رفع يديه إلى السماء وقال اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت قالها مرتين أو ثلاثاً) يقول ترجمان القرآن الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله مبيناً حكمة رفع اليدين في تعليقه:

"رفع اليد للشهادة كما رفع إبراهيم عليه السلام يديه إلى السماء حين أقسم ونذر. إخراج الكفار من بلدان المسلمين: يقول الحافظ ابن تيمية رحمه الله: "كما أن المسلمين لما فتحوا البلاد كان الفلاحون كلهم كفاراً؛ لأن المسلمين كانوا مشغولين

¹ نفس المرجع، ص 209.

² نفس المرجع، ص 211.

³ الحسبة في الإسلام، ص 25.

بالجهاد، ولهذا لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم خير أعطاها لليهود يعملونها فلاحه؛ لعجز الصحابة عن فلاحها؛ لأن ذلك يحتاج إلى سكنائها وكان الذين فتحوها أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة وكانوا نحو ألف وأربعمائة وانضم إليهم أهل سفينة جعفر فهؤلاء هم الذين قسم النبي صلى الله عليه وسلم بينهم أرض خير فلو أقام طائفة من هؤلاء فيها لفلاحها تعطلت مصالح الدين التي لا يقوم بها غيرهم فلما كان في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفتحت البلاد وكثر المسلمون استغنوا عن اليهود فأجلوهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال: {نقركم فيها ما شئنا - وفي رواية - ما أقركم الله} وأمر بإجلائهم منها عند موته صلى الله عليه وسلم فقال: {أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب}. لهذا ذهب طائفة من العلماء كمحمد بن جرير الطبري - إلى أن الكفار لا يقرون في بلاد المسلمين بالجزية إلا إذا كان المسلمون محتاجين إليهم فإذا استغنوا عنهم أجلوهم كأهل خير¹.

وفي هذه المسألة نزاع كما قاله الحافظ ابن تيمية، ونقل الشيخ الفراهي كلام الحافظ ابن جرير في تعليقه، ولكنه لم يبد فيه رأيه ويقول: "ذهب محمد بن جرير الطبري إلى أن الكفار لا يقرون في بلاد المسلمين إلا للضرورة فإذا استغنوا عنهم أجلوهم".

تحريق عمر لكتب الأوائل: بين الإمام ابن تيمية رحمه الله التعزيرات والعقوبات ومثل لها أن عمر قد أحرق كتب الأوائل².

علق عليه الشيخ الفراهي بقوله: "تحريق عمر كتب الأوائل اعتمد المصنف على ما اشتهر ومقصوده ذكر الأمثلة".

كان الشيخ الفراهي يرى أن هذه القصة مشهورة لديه، ولكن لا أصل لها، وقد تكلم العلامة شبلي النعماني في هذا بعنوان (المكتبة الإسكندرية) بالتفصيل

¹ نفس المرجع، ص 30-31.

² الحسبة في الإسلام، ص 49-50.

والتحقيق ولكن الشيخ قد اعتذر عن الحافظ ابن تيمية قائلًا إنه ذكر ذلك كمثال، ولذا لم يتأكد من صحتها وذكر القول المشهور.

الوعيد على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أثبت العلامة ابن تيمية رحمه الله بالأحاديث والآيات أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية،¹ وهو عنده من أهم الفرائض، وشامل في واجبات الأمة وجهادها ومن الروايات التي نقلها "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب".

ولفت الشيخ الفراهي إلى هذه الأهمية قائلًا: "هذا الحديث مستنبط من القرآن".

كأن الشيخ يشير بقوله إلى الآية (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً).²

الحكم من نزول المفصلات والمهمات قبل الأحكام: يقول ابن تيمية رحمه الله:³ وفي صحيح البخاري عن يوسف بن ماهك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول ما نزل: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تنزوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا». ⁴ لما نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ^(٥)).⁵

يقول الشيخ الفراهي في تعليقه: "في صحيح البخاري رأي عائشة في حكمة نزول المفصلات قبل نزول الأحكام".

وفي هذا التعليق ثلاثة أمور:

¹ نفس المرجع، ص 25.

² سورة الأنفال: 25.

³ مجموع فتاوى ابن تيمية، 28/37.

⁴ رواه البخاري برقم (4876).

⁵ سورة القمر: 46.

الأول: تأييد لما رأت عائشة رضي الله عنها ورآها العلامة ابن تيمية.

الثاني: بين فيه الحكمة من نزول الحقائق والمهمات قبل الأحكام.

الثالث: هذا قول عائشة وليس بحديث

معنى الشح في ضوء الحديث: يقول العلامة ابن تيمية رحمه الله: أصل الظلم والبخل والحسد هو الشح،¹ وفي الحديث الصحيح أنه صَلَّى الله عليه وسلّم قال: (إياكم والشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا).²

قد نقل العلامة ابن تيمية رحمه الله الحديث ووضّح مفهوم الشح، وأشار إليه الشيخ الفراهي رحمه الله في تعليقه عليه: "كشف معنى الشح من الحديث".
البغي وقطيعة الرحم: نقل العلامة ابن تيمية رحمه الله بعد هذا الحديث: (ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم).³

وقد أرشد الشيخ الفراهي رحمه الله في التعليق إلى أصل النحو والعربية حيث يقول: "البغي وقطيعة الرحم، الواو بينهما للبيان فإن البغي من قطيعة الرحم".
ثبت من هذا أن الواو ليس للعطف ولا للفصل، وإنما هو للتوضيح والبيان.

الإمساك عن الظلم في الجهاد ولا يقاتل إلا المقاتلون: يقول الشيخ العلامة ابن تيمية رحمه الله: يجب على المجاهدين أن يجتنبوا عن الكبر وأن يتلزموا العدل في الجهاد وأن يبتعدوا عن الظلم والعدوان، لأن الله تعالى يقول: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ).⁴

¹ مجموع فتاوى ابن تيمية، 18/189.

² رواه أبو داود برقم (1198)

³ رواه الترمذي برقم (2511).

⁴ سورة المائدة: 8.

وقال في موضع آخر: (وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ¹.

يقول الشيخ الفراهي رحمه الله في التعليق: "لا يكون القتال إلا مع الذين يريدون القتال، وهذا هو المستنبط من الآية الأخيرة أنه: لا قتال إلا بالذين يقاتلوننا".

يقول العلامة ابن تيمية ذاكراً لأعداء المتخلفين عن الجهاد غير المقبولة أن هؤلاء المقدمين للأعداء يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم أن لا يُفْتَنُوا قال الله سبحانه عن المنافقين (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا) ².

يقول ابن تيمية مفسراً للآية: وقد ذكر في التفسير أنها نزلت في الجد بن قيس لما أمره النبي صلى الله عليه وسلم بالتجهز لغزو الروم - وأظنه قال: (هل لك في نساء بني الأصفر) - فقال يارسول الله: إني رجل لا أصبر على النساء، وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر، فاذن لي ولا تفتني.

وهذا الجد هو الذي تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة، واستتر بجمل أحمر، ³ وجاء فيه الحديث: (إن كل مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر)، ⁴ فأنزل الله تعالى فيه: (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا).

يرى الشيخ الفراهي رحمه الله أن هذا التفسير للآية لغو وباطل ولم يزد عليه شيئاً في تعليقه. واكتفى بقوله هذا: "تفسير باطل".

¹ سورة البقرة: 190.

² سورة التوبة: 49.

³ مجموع فتاوى ابن تيمية، 44/43/28.

⁴ رواه مسلم برقم (12).

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الحسبة في الإسلام للإمام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
3. رسالة العبودية للإمام ابن تيمية، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، دار الأصاله - الإسماعيلية، ط3، 1419هـ/1999م.
4. رفع الملام عن الأئمة الأعلام للإمام ابن تيمية، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1413هـ.
5. زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور للإمام ابن تيمية، دار الصحابة بطنطا، ط1، 1412هـ/1992م.
6. سنن ابن ماجه للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، من تطبيق جامع الكتب التسعة.
7. سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، من تطبيق جامع الكتب التسعة.
8. سنن الترمذي للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، من تطبيق جامع الكتب التسعة.
9. صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، من تطبيق جامع الكتب التسعة.
10. صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، من تطبيق جامع الكتب التسعة.
11. مجموع الرسائل الكبرى للإمام ابن تيمية (الجزء الأول-معارج الوصول)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
12. مجموع فتاوى ابن تيمية، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ/1998م.

نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان

- سيد رشيد رضا¹

أهدانا المعلم عبد الحميد الفراهي (من العلماء في الهند) بضع سائل في تفسير سور متفرقة من القرآن العزيز سمّاها بما ذكر في العنوان. وهي سورة التحريم والقيامة والشمس والعصر والكافرون والمسد أو "تبت" وقد ألقينا على بعض هذه الرسائل لمحة من النظر فإذا طريق جديد في أسلوب جديد من التفسير يشترك مع طريقنا في القصد إلى المعاني من حيث هي هداية إلهية، دون المباحث الفنية العربية، ولكنه لا يفسر كل آيات السورة وكلماتها ولا يتكلم على ما يفسره بالترتيب وإنما يتكلم عن المسائل الكلية والمقاصد التي تهدي إليها الآيات كلامًا عامًا مبسوطًا مفصلاً معدودًا بالأرقام. فمن فصول تفسير سورة التحريم: (1) نظام السورة وموقع آياتها (2) سنة الله في الاحتساب (3) عمود السورة هو الاحتساب والتشهير له (4) دين الفطرة هو الاعتدال بين الفسق والرهبانية (5) تفرق الفسق والرهبانية (6) نزول القرآن حسب أحسن المواقع (7) شأن نزول هذه السورة حسب الكليات (8) شأن نزول آيتين 1-2 حسب جزئيات الواقعة والفوائد الكلية منها وهي ست. إلخ وإن للمؤلف لفهًا ثاقبًا في القرآن وإن له فيه مذاهب في البيان وطرائق في الاستطراد منها القريب والبعيد وإنه لكثير الرجوع باللغة إلى مواردها والصدور عنها ريان من شواهدا فقد كتب في تفسير كلمة "صغت" من قوله تعالى "وإن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما" أكثر من صفحة على أنه قد صنف كتابًا في مفردات القرآن كما فعل الراغب الأصفهاني. وإن أدري أفسر القرآن كله على هذا النمط؟ هو يشتغل بذلك الآن ويريد طبع تفسير كل سورة عند إتمامها.

¹ مفسر القرآن ومدير تحرير مجلة "المنار"

العدد الخاص مجلة الهند

وقد رأيت فيما قرأت ذكر كتب أخرى له في القرآن والدين كالمفردات وتاريخ القرآن والأمثال الإلهية وأصول الشرائع فعسى أن يتفضل بإخبارنا عنها أهي تامة أم لا، أ طبع منها شيء أم لا؟

هذا وقد أرسل إلينا عدة نسخ من تفسير بعض السور لأجل بيعها عندنا وهي مطبوعة طبعاً حجرياً عن خط فارسي حسن فمن أحب أن يطلع عليها فليطلبها من إدارة المنار وثمان تفسير سورة التحريم فرشان وما عداه فثمانه قرش أو قرش ونصف.¹

¹ مجلة المنار، 12/2-136

دلائل النظام

تأليف: المعلّم عبد الحميد الفراهي

صدر عن الدائرة الحميدية: مكتبها ومطبعها 1388هـ

عدد صفحاته 128 "مدرسة الإصلاح"، أعظم كره، الهند

- د. شكري فيصل¹

العالم والمعلّم الجليل عبد الحميد الفراهي - رحمه الله - من أبرز وجوه الحركة العلمية والإصلاحية في شبه القارة الهندية، وعلم من أعلام المسلمين هناك. والذين لا يعرفونه معرفة دقيقة في شرقنا العربي الإسلامي يعرفون - على الأقل - كتابه المشهور (إمعان في أقسام القرآن) الذي ألقى فيه أضواء جديدة حقًا على ظاهرة القسم في القرآن الكريم.

ولقد كتب المعلّم - كما يجب تلامذته والناهلون من فضله أن يلقبوه - عديدًا من الكتب، وطبع عددًا من الأبحاث في موضوعات من موضوعات القرآن الكريم، ودراسة ظواهره، أو الوقوف عند بعض القضايا التي أثّرت من حوله فهناك كتابه (فاتحة نظام القرآن)، وكتابته الآخر (مفردات القرآن)، وتفسيره (سورة الفيل)، وتفسيره (سورة الذهب)، وكتابته (الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح).

ويبدو أن المعلّم الفراهي كان يدخر كثيرًا من الدراسات القرآنية: ينوي بعضها ويباشر بعضها الآخر، ويوشك أن ينتهي من بعض ثالث قبل أن يختاره الله لجواره، فلما انتقل بقيت هذه الثروة من الملاحظات والأبحاث، وبدايات الأبحاث، تتربص من ينظر فيها أو يخرج للناس ما يمكن إخراجها منها.

¹ العلامة الأديب شكري فيصل كان أمين عام مجمع اللغة العربية بدمشق، توفي في اليوم الثالث من شهر أغسطس 1985م

من هذه الدراسات التي كان المعلم الفراهي يعدها هذه الدراسة التي طبعها "الدائرة الحميدية" باسم (دلائل النظام).

والواضح أن دلائل النظام لم يكتمل صناعة وتأليفًا إنه كما يقول الأستاذ بدر الدين الإصلاحي -> مدير الدائرة الحميدية وأحد تلاميذ المعلم الكبير < في مقدمته التي كتبها له: "مجموعة من أفكار الإمام التي أعدها لهذا الكتاب لم يتيسر له أن يرتبها ما عدا الفصول العشرة الأولى في أوله، وهي تشغل الصفحات 9-32، وأما ما عدا ذلك فهو مما كان مبعوثًا في مخطوطاته، جمعته ورتبته حسب ما رأيته مناسبًا، فإن أصبت فيه فبتوفيق ربي، وإن أخطأت فمن نفسي، والأستاذ الإمام - رحمه الله - بريء منه " (من المقدمة ص 6).

وكذلك نواجه قصة من قصص التأليف التي يغادر أصحابها الدنيا قبل أن يستطيعوا إنجازها إنها قصة ذات وجهين: وجهها الأخلاقي، ووجهها العلمي.

أما وجهها الأخلاقي فذلك الذي يتبدى في صنيع الأستاذ بدر الدين الإصلاحي ... فالأستاذ بدر الدين الإصلاحي كان تلميذ المغفور له "أختر أحسن الإصلاحي" والأستاذ أختر كان تلميذًا رشيدًا - على حد الوصف للأستاذ بدر الدين - للإمام الفراهي وأمينًا لمخطوطاته. وقد أوصى الأستاذ أختر تلميذه بدر الدين في العام الذي توفي فيه قبل أن يعمل على طبع مخطوطات الفراهي، بعد أن مضى عليها ما يزيد عن ربع قرن دون أن يطبع منها إلا النزر اليسير.

من هذه الوصاة انطلق الأستاذ بدر الدين يعمل في جمع هذه الأفكار القرآنية وفي إلحاق بعضها ببعض فكان بذلك مثلًا للوفاء الذي تفرضه تقاليد الحياة العلمية الإسلامية على التلاميذ تجاه أساتذتهم، وعلى المريدين تجاه شيوخهم وكان جهده في ذلك هذا الجهد الذي يخاف ثقل المهمة، ولكن الوفاء يجعل وصية الشيخ دائمًا بين عيني تلميذه.

ويظهر أن الأستاذ بدر الدين عانى من ذلك بعض المعاناة القاسية، إذ يقول في المقدمة: "فخشيت هذا الأمر العظيم ورأيت مرارًا أن أطويه على غرة، ولكن لم تنزل وصيته رحمه الله تضطرنني إليه، فراجعت فضيلة الأستاذ الجليل "أمين أحسن الإصلاح" مستشيرًا في ذلك وهو ثاني اثنين يتأدبان بآداب الإمام الفراهي بمدرسة الإصلاح، وهو المرجع الوحيد بهذا العصر لأفكار الأستاذ الإمام وعلومه القرآنية، فشجعتني على الوفاء بما عهد إليّ شيخنا المغفور له، ووعدني بكل أمانة أحتاج إليها، فأرضيت بعد ذلك نفسي بهذا العمل العظيم، مستعينًا بالله من ظلمات النفس وغوايات الجهل".

هذا عن الوجه الأخلاقي لقصة هذا الكتاب ... أما الوجه العلمي فالذي يبدو أن الأستاذ بدر الدين رجع إلى مخطوطات الفراهي وأوراقه التي كان يكتبها، وبطاقاته التي كان يدها، فجمع منها ما يتصل بفكرة الكتاب: (نظام القرآن)، ورتبها حسب الذي رآه مناسبًا من ترتيبها.

ولعل الأستاذ الإصلاحى أحس أنه لا يقدم كتابًا على النحو الذي كان يعيش في ذهن صاحبه، وإنه إنما يقدم مشروع، كتاب بعضه من إعداد صاحبه، وبعضه مما قدر أنه أقرب ما يكون خدمة لفكرة الكتاب وتحقيقًا لهدفه ... ومن هنا كان جدّ أمين في إطلاق اسم (مجموع) على هذا الكتاب، وملاحظة أن هذه الفقرات أو الصفحات التي اقتبسها من مخطوطات الشيخ إنما هي الأفكار الأولى التي كانت تتولد في ذهنه، والتي كانت ستؤلف عنده مادة الكتاب إذ يعيد النظر فيها، وإنه لا بد لها - لهذا كله - من أن يكون فيها شيء من الإجمال والإيهام. وفي ذلك يقول الأستاذ بدر الدين في المقدمة: "وإذا لم يكن أكثر هذا المجموع إلا كالأشارات التي يختزنها المصنفون لمصنفاتهم من غير تفصيل، فلا غرو إن كان فيه شيء من الإجمال والإيهام، فلذلك ينبغي لمن درس هذا الكتاب أن لا يمر به كالريح العاصف أو البرق الخاطف، بل يقف على كل سطر منه ويتفكر فيه عسى أن يجده فصلًا مستقلًا".

ويظهر أن الأستاذ بدر الدين الإصلاحي هم أن يعيد النظر في هذه الأفكار التي جمعها ونسقها على هذا النحو، ولكنه أثر أن لا يمزج أفكارًا بأفكار وأسلوبًا بأسلوب، ولذلك ترك ما كان المعلم قد كتبه على حاله دون تغيير أو تعديل (المقدمة ص 6).

موضوع الكتاب "معرفة نظم القرآن في معاني الآيات والسور" (ص 12).

ومن المعروف أن العلماء قد انصرفوا إلى أشياء من ذلك قبل ... فصنفوا في تناسب الآي والسور "ص 74" وأقام الجرجاني "عبد القاهر 471.000 هـ" نظريته في إعجاز القرآن الكريم على أن هذا الإعجاز يتمثل في النظم وذلك عمله في كتابه (دلائل الإعجاز).

ولكن الشيخ الفراهي يريد أن يجاوز ذلك ليجعل من الحديث عن النظام في القرآن علمًا يسبق هو إليه : وأما الكلام في نظام القرآن فلم أطلع عليه، ص 74. ولقد اضطره ذلك إلى أن يفرق بين ما هو معروف من تصانيف حول تناسب الآي والسور (البقاعي في كتابه الذي لم يطبع: نظم الدرر في تناسب الآي والسور) وبين ما يريد أن يذهب إليه من التفريق بين الكلام في التناسب وبين الكلام في نظام القرآن.

وخلاصة ذلك عنده أن التناسب إنما هو جزء من النظام، وأن النظام يقتضي التناسب فهو أعم، ولكن التناسب "لا يكتفي في الكشف عن كون الكلام شيئًا واحدًا مستقلًا بنفسه. وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة فرما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئًا واحدًا، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها، فإن الآية في الغالب ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها ... " ص 74.

وإذن فالنظام الذي ينشده الأستاذ الفراهي ويتحدث عنه هو شيء يزيد على المناسبة وعلى ترتيب الأجزاء ... إنه يريد أن يرى "القرآن كلامًا واحدًا، ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر" ص 75.

وقد أوضح ذلك على نحو آخر في الفصول العشرة الأولى التي كان رتبها فقال: "بيان النظام الكلي بحيث يعلم أن القرآن كلمته، كما أنه مرتب الآيات فكذلك منظم السور، فإن قدمت وأخرت ذهب طرف من الحكمة كما لو بدل ترتيب الآيات ... ص 12".

وكذلك نرى أن الفراهي أراد أن يجاوز في موضوع النظام في القرآن كل ما كان قبله في هذا الاتجاه:

أ. أراد أن يجاوز أن يكون النظام بلاغة ... "فالنظام فن مستقل عن البلاغة، بل هو الذروة العليا منها ص 11" وعنده أننا نستدل بالقرآن على البلاغة، ولا نستدل بالبلاغة على القرآن: "لم نطلع على الحقيقة البلاغة ونهجهما لولا كشف القرآن القناع عن وجهها كما قد أوضحناه في كتاب جمهرة البلاغة ص 11".

ب. أراد أن يجاوز أن يكون النظام الذي يريده هو التناسب الذي سبق إليه العلماء، كما قدمنا.

ج. أراد أن يجاوز - فيما أقدر - نظرية الجرجاني في النظم، وإن كان لم يخض في ذلك ولم يشر إليه ... فلعله رأى أن غاية الجرجاني تفسير نظرية الإعجاز، بينما كانت غايته هو فهم القرآن فهمًا مستقيمًا يجتمع المسلمون جميعًا عليه ... تلك غاية فنية وهذه غاية لا تقتصر على الجانب الفني وحده ولا تفسر الإعجاز، وإنما يجمع بين ذلك وبين فهم القرآن على نحو جديد.

ماذا يعني النظم إذن بدقة؟ وما مدى ما كان من أثر الكتاب في ذلك ..

هذان هما السؤالان الرئيسيان اللذان يلحان على القارئ، وهو يقرأ كل صفحة أو كل فقرة من الكتاب.

وعندي -أقولها متهيبًا- أن الفكرة لم تأخذ كل أبعاده في ذهن الإمام المعلم أو لنقل في هذا الكتاب .. لقد قطع عليه الموت ما كان يريد أن يصل إليه، أو ما كان يريد أن يوضحه.

وعندي كذلك أن الكتاب في هذا كتاب إثارة .. إنه قادر على أن يلفت القارئ وأن يستوقفه .. بل هو قادر على أن يوحى إليه وأن يلهمه .. إنه يطرح عليه كثيرًا من الملاحظ والآراء، منها ما هو مثير ومنها ما هو منير، ومنها ما يبعث على تجديد النظر أو تحديده أو الدلالة على زاوية من زواياه ... ولكنها، هذه الملاحظات والآراء التي يطرحها، لا تكفي ولا تأتي منسقة على النحو الذي يجمل كلام المؤلف في النظام نظرية كاملة تقود القارئ إلى ما كان المؤلف يريد أن يقوده إليه.

وقد يكون من الظلم أن نقول هذا في كتاب لم ينته صاحبه من تأليفه، أو لعله لم ينته من التفكير فيه ... كان يراوده على شكل ملاحظات وأنظار وما أصعب أن يناقش كتاب، أو تناقش فكرة، كانت لا تزال تتوالد ... كانت لا تزال في طريقها بعدُ إلى الوضوح والتكامل واستيفاء الحجج والأمثلة.

الشيء المؤكد الذي يبقى في قلب القارئ وفي عقله إذ ينتهي من مطالعة الكتاب إنما هو إيمان الفراهي بما كان يدعو إليه .. فما من شك في اقتناعه به، وما من شك في دفاعه عنه، وما من شك كذلك في أنه نوع الطرق في إيضاحه، وفرع الأساليب في اللفت إليه والإقناع به.

ومما يجعل لهذه القناعة مكانتها أن الأستاذ الفراهي -رحمه الله- كان يذهب في ذلك إلى بعيد. وكان يرى أن معرفة هذا النظام ليست أمرًا علميًا فحسب، ولكنها قضية تتصل بحركة الإصلاح التي استبدت بكثير من علماء المشرق الهندي .. وإنها

ليست نظرية في نظم القرآن فحسب، ولكنها طريقة في قيادة العلماء لأنفسهم، وفي قيادتهم للمسلمين قيادة موحدة.

وقد عبر الفراهي عن ذلك في الفقرة التي شغلت الصفحة العاشرة وعنوانها: النظام لمن؟ وفي ذلك يقول: "إن معرفة النظام من الضروريات لعلماء هذه الأمة حتى يعلموا الناس حسب ما فهموا، فإنهم إن لم يفهموه واختلفوا فيه كيف يرشدون الناس؟...".

وهو على اعترافه بكل ما بذله المسلمون في فهم القرآن برى - في كثير من التجوز - أن هذا لا يكتمل ولا يتوحد إلا إذا عرف النظام "فإن فهم الكلام لا يكون بدون معرفة النظام، وإنه لهو السبيل الوحيد إلى فهمه".

يبقى بعد هذا كله أن تظل آراء الكتاب موضوع مداورة... وأزعم أن نشر المؤلفات الأخرى للفراهي أمر يساعد على هذه المداورة وبخاصة الكتاب الذي يشير إليه باسم (كتاب الأساليب) انظر ص 50. والآخر الذي يسميه على وجه الورقة الأولى: (تفسير نظام القرآن).

يبقى كذلك أن معرفة المؤلفات الأخرى التي نشرت للمؤلف أمر لا بد منه في محاولة إلقاء الأضواء على رأيه في (النظام) الذي يذهب إليه.

ولعل باحثاً أو دارساً - في نطاق الدراسات العليا أو بعيداً عنها - يفرغ لهذه المؤلفات، حتى تكون آراء الفراهي أكثر وضوحاً، وحتى نكون في المشرق العربي على صلة نيرة بها وإفادة منها.

تلکم خطوتان متكاملتان: طبع بقية آثار المؤلف، ودراسة ذلك دراسة تستطيع أن تجد الكل الذي كان يقصد إليه.

وذلك ما أرجو أن يتم، وذلك ما تقرضه قراءة الكتاب.

العدد الخاص مجلة الهند

ولا بد، قبل وبعد، من تحية طيبة للأستاذ الجامع بدر الدين الإصلاحي على ما كان من جهده ووفائه، وما كان من هذه الإفادات الكثيرة التي ذيل بها صفحات كثيرة من صفحات الكتاب، بغية التوضيح والإنارة.

والشكر للدائرة الحميدية التي طبعت الكتاب، والأمل بمتابعة طبع الكتب الأخرى.¹

¹ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، 915-908/4/49

"نظم القرآن" و"جمهرة البلاغة" للشيخ حميد الدين الفراهي

- العلامة شبلي النعماني¹

ترجمة من الأردوية: عبد الكريم²

ومن المعروف أن الشخصيات الفذة لا تهمل ويشهده الخبرة والتاريخ ولكن في كل قضية نجد الاستثناء. فشخصية الشيخ حميد الدين الفراهي الذي نحن نريد استعراض كتاب رائع له مثالٌ جيدٌ لهذا الاستثناء. وقد حصل الشيخ المكرم على التعليم الابتدائي حسب المنهاج الدراسي القديم المتداول "الدرس النظامي" ثم أكمل دراسة الأدب العربي من الأستاذ فيض الحسن، شارح ديوان الحماسة، وهو أيضًا من مشايخي. ثم بدأ يتعلم اللغة الإنجليزية وحصل على شهادة الليسانس من مدرسة العلوم. وحينما كان طالبًا في المدرسة قام بنقل كتابين في السيرة النبوية من العربية إلى الفارسية على أمر من السير سيد أحمد خان وقد نشر كلا الكتابين، وبعدما تخرج في هذه المدرسة عين أستاذًا للغة العربية في مدرسة الإسلام بكراتشي وهو لا يزال يحتل نفس المنصب. وقد طبع ديوانه الفارسي. ولما ذهب اللورد كرزن في حملته لسواحل العرب صاحبه الفراهي. والخطاب العربي الذي ألقاه اللورد كرزن أمام رؤساء العرب قد أعدّه هو. وقد يكفي حدث من هذه الأحداث لشهرة شخص ما ولكن الشيخ المحترم لا يزال حامل الذكر إلى الآن ولعله هذه أمنيته، وإن تحققت أمنيته هذه فلسنا نحاسب عليه.

ولكن كتابه الذي نريد استعراضه لا يمكننا أن نراعي فيه أمنيته تلك، لأن الكتاب - خاصة في هذه الفترة - يعتبر مفيدًا للجماعة الإسلامية إلى غاية يعتبر الماء مفيدًا

¹ علم من أعلام الهند وأحد شيوخ الإمام الفراهي

² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

للعاطش أو المشرف على الموت، ولهذا نريد أن نكتب استعراضاً مفصلاً لهذا الكتاب. ولكن للأسف أن المؤلف قد ألّف هذا الكتاب في اللغة العربية فليس بإمكان عامة القراء أن يستفيدوا به، ولقد أرشدناه مرارًا وتكرارًا أنه إذا أحب أن يكتب في عصرنا هذا فيجب أن يكتب في اللغة الوطنية ولكن حبه للتقليد لا يدعه أن يكتب في اللغة الأردية (والحقيقة أنه لا يستطيع الكتابة بالأردية). وبما أن الكتاب باللغة العربية فلا يمكننا أن نذكر مقتبساته هنا، ونكتفي هنا بذكر ما يريد إبلاغه.

نظم القرآن: يبدو جلياً أن معظم آيات القرآن غير منظمة فنرى أن آية تبين حكماً فقهيًا يتبعها آية ترشد إلى نكتة خلقية وبعدها تأتي آية حتى يخاطب الله الكافرين في آية على حدة ثم يجيء حديث آخر، وبالجمله أن أسلوب القرآن يختلف عن أسلوب الكتب الأخرى حيث يكون الكلام منسجمًا حسب الموضوع في مكان واحد.

وقد اختلفت آراء القدماء في هذه القضية، كما ألّف الشاه ولي الله أن القرآن الكريم، لنزوله على طراز خطب العرب التي تكون عادة غير مرتبة، لم يراع فيه الترتيب. وعلى هذا فيرى معظم العلماء أن القرآن لا يمكن أن يوجد في آياته نظام ما لأنه نزل بمناسبات مختلفة حسب الضرورة. ومثله مثل خطب رجل ألقاها بمناسبات شتى فلو جمعت هذه الخطب لما وجدت فيها مناسبة، ويبدو هذا الرأي صحيحًا لأننا نعلم أن القرآن نزل منجمًا ولكل سورة أو فقرة منه سبب نزول مختلف فكيف يمكن وجود النظم فيها. وقد ادّعى بعض العلماء أنه توجد المناسبة في سور القرآن حتى بين آياته، وكتب البقاعي تفسيرًا كاملاً في إثبات هذه الدعوى، سمّاه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" ولكن المعاني التي نقلها في كتب التفسير يظهر من دراستها أنه تكلف إثبات المناسبة في الآيات فيمكن أن نثبت هذا النوع من المناسبة في أشياء متضادة في الكون.

وألّف الشيخ حميد الدين الفراهي هذا الكتاب حول هذه القضية وهو يدعي الفكرة الأخيرة أي أن سور القرآن منظمة وأن لها موضوعًا مركزيًا تدور حوله جميع آياتها.

إنه يدعي أن سورة من القرآن كمقالة أو كتاب له موضوع مركزي، وأن آياتها تتعلق بها مباشرة أو غير مباشرة، وهو يستدل على دعواه هذه بأنه لو لم تكن أي مناسبة في آيات سورة من سور القرآن فلم كان النبي يأمر كتّاب الوحي أن يضعوا آية منزلة أو مجموعة من الآيات في سورة خاصة وإذا بلغت تلك السورة حدًا خاصًا حكم عن تمامها وإذا لم تكن أي مناسبة بين السورة والآيات التي وضعت فيها فلم كان النبي يفعل ذلك؟ وكذا ثبت من الروايات أن النبي ﷺ كان يأمر أن توضع آية في سورة، وآية أخرى في سورة أخرى وكلتاها كانتا تنزلان معًا وعلى هذا فقد ادّعى هذا الكاتب وجود النظم في كل سورة وأثبتته بدقة البحث والتحقيق.

فهذا هو موضوع الكتاب - بحث عن وجود النظم والترتيب في القرآن - ولكن ورد ضمن ذلك موضوع فصاحة القرآن وبلاغته، ولقد كان المؤلف مطلعًا على الكتب التي تم تأليفها في موضوع بلاغة القرآن ولكنه وجد أن هذه الكتب غير موفية لحق الموضوع، والسبب في ذلك أن فن الفصاحة والبلاغة ذاته قصير باعه، وأن العلماء حاولوا أن يثبتوا بلاغة القرآن في ضوء هذا الفن وأصوله.

ولهذا اتجه المؤلف المحترم إلى الفن ذاته ورّبه من جديد على مستوى واسع ووضع عدة أصول جديدة، وهكذا خرج كتاب مستقل سمّاه "جمهرة البلاغة". استهل الشيخ المكرم هذا الكتاب بما يلي:

فن البلاغة: ولما حاول علماء الإسلام إثبات أن القرآن معجز من ناحية البلاغة مست الحاجة إلى وضع أصول هذا الفن وقواعده. وكانت طريقتها السديدة أن توضع أصولها بتتبع كلام العرب وتستقصى جزئيات البلاغة فتستبطن أصولها ولكن عندما قاموا بهذا انهمك المسلمون في علوم العجم وفنونهم فكما أخذوا العلوم والفنون الأخرى من يونان وفارس رتبوا هذا العلم على أصولهم. وأما العجم فيعتبرون التشبيه والبديع أهم أركان البلاغة ولهذا اهتموا بهذه الأشياء، ووالحال أن العرب يعتبرون البديع مما لا يعينهم وأما التشبيه فلا يعتنون به.

ولقد أسّس علماء المسلمين فن الشعر والبلاغة على كتاب أرسطو (أرسطاطاليس)، فلو ولد هذا الفيلسوف اليوناني في بلاد العرب وأسّس هذا الفن بعد تتبع كلام العرب لنجح في هذا الهدف ولكنه ولد في يونان وتربى بها، ولم يمارس سوى كلام اليونان فما وضعه من أصول الشعر والبلاغة استنبطها من كلام الشعراء اليونانيين، وأروع نموذج شعري لدى اليونان هو شعر هومر وسوفوكليس، ولقد وضعنا أساس الشعر على الحكايات والقصص الخيالية.

ومن قواعد تدوين الفنون اللطيفة المطردة أن الذي يعم جماله يركزون عليه فيحللون أجزائه فيبرزون مكوناته ثم يقرّرونها كمحاسن وهكذا يضعون الكليات.

وبعدّ شعر هومر وسوفوكليس في يونان في غاية الجمال من حيث فصاحته وبلاغته فلما حلّله أرسطو وجده دائراً حول الحكايات والخرافات، وأن هذه الحكايات لم تكن أصلية بل معظمها كانت مزورة، فمن هنا جاءت الفكرة في ذهنه أن جمال الكلام يكمن في تصوير حدث بغض النظر عن صحته أو كذبه، وكذا رأى أرسطو أن شيئين كريمين، وقبيحان منظرًا فلو صور كما هو لتمتعت به النفس. فاستنتج من هذا أن حدثًا لو صوّر بحيث يدور أمام الأعين لحصل على جمال الكلام ولو كان هذا الحدث صحيحًا أو كاذبًا ويؤيد هذه الفكرة ما يلي:

توجد صفة المحاكاة في الإنسان أكثر من غيره من الحيوانات الأخرى، فيفعل الطفل ما يشهد غيره يفعل فتصوير حدث هو الذي يقتضيه فطرة الإنسان.

العلم شيء مرغوب فيه، وبيان حدث أيضًا نوع من العلم وعلى هذا فبيان الأحداث شيء يرغب فيه العامة.

وعلى هذا الأساس فقد أسّس أرسطو محاسن الكلام على هذين الأصلين ورفض ما خالفهما. وقد اعترض الناس على سوفوكليس بأنك ما صورتها من أخلاق الناس وعاداتهم هي ليست موافقة بالواقع فأجاب عليهم سوفوكليس: "بأنني وصفتهم كما ينبغي لا كما هم عليه".

ولو أنّ رد سوفوكليس هذا خاطئ ولكنه محمود لدى أرسطاطاليس لأنه يوافق وأصله.

ولم يكن من وظائف الشعر في يونان سوي تنشيط جلسات التسلية فكان الشاعر عادة ما ينظم قصصاً هزلية حتى لقبوه بالماكر والكذاب. وعلى هذا الأساس وضع أرسطو أصلاً أن الهدف الرئيسي للشعر هو الطرب وإن لم يحصل الشاعر هذا الهدف بالصدق فيجوز له الزيادة في الحدث والنقص.

وبما أن العلماء أسسوا هذا الفن على أصول أرسطو ولذا نرى أصوله مؤثرة في كل مسألة بلاغية فقد اعتبر أرسطو أن الكذب هو معراج الشعر فأخذ منه علماء المسلمين وقرروا "أحسن الشعر أكذبه" ويرى أرسطو أن فن البلاغة عبارة عن الرسم ولهذا قال العلماء أن أصل البلاغة هو التشبيه والتمثيل، لأن التشبيه في الحقيقة نوع من الرسم فقد كتب عبد القاهر الجرجاني في كتابه "أسرار البلاغة" أن جميع أصول البلاغة تتفرع من التشبيه.

وخطر ببال العلماء شيء آخر أن الكذب والافتراء أرجح من الصدق في البلاغة والشعر، لأنهم وجدوا أن الاستعارة ألد وألطف من التشبيه كما جاء في هذين المثالين: "زيد كالأسد" و"زيد أسد".

فالمثال الأول للتشبيه والثاني للاستعارة، والمثال الثاني أكثر أبلغ وتأثيراً. ولما ألقى النظر على كلتا الجملتين وجد أن الأول منه يشير إلى الوضع الحقيقي لأن الشخص القوي يشبه بالأسد في شجاعته وأما المثال الثاني فهو مبني على المبالغة والكذب. ومن هنا قال إن شدة التأثير في البلاغة والشعر، واللطافة إنما تأتي من الكذب والمبالغة. فقد حشت هذه الفكرة الأدب كله بالكذب والمبالغة.

وكلا الأصلين لأرسطو المذكوران أعلاه خاطئ تماماً، فنظريته أن المحاكاة توجد في الإنسان على أكمل درجة بالنسبة للحيوانات الأخرى خاطئة أصلاً، ولو فرضنا أن

هذه الصفة توجد في الإنسان والحيوان فيجب أن نفرق فيما بينهما بأن الإنسان لا يحاكي إلا من جنسه بخلاف من القرد الذي يحاكي الإنسان والحيوانات الأخرى كذلك. والطفل يرى الحيوانات تتكلم ولكنه لا يحاول محاكاته مطلقاً بخلاف العندليب الذي يحاكي جميع الحيوانات في الصوت. فالطفل الذي يحاكي والده وأمه وشقيقه في الأقوال والأفعال ليس بأنه توجد فيه صفة المحاكاة بل لأنه توجد فيه صفة إنسانية على وجه أتم منذ ولادته، وهذه الخصائل تظهر بالنماذج والأمثلة. فكما أنّ الطفل يبدأ يحصل غذائه من الرضاعة بعد ولادته مباشرة بدون أن يرى أحداً يفعل كذلك لأن الله سبحانه وتعالى أودع في نفسه خصلة فظهرت تلك الخصلة على وقت معين، فكذلك خصائل الإنسان جميعاً هي تظهر حيناً بعد حين. وتحصل هذه الخصائل على الحركة والقوة من النماذج والأمثلة ولا دخل للمحاكاة في ظهور هذه الخصائل.

وكذا نظرية أرسطو أن البلاغة مبنية على الكذب والمبالغة خاطئة وسيوضح خطأها فيما بعد.

وبعد تفنيد فكرة أرسطو فصل المؤلف الكلام في هذه المسألة ببيان ما هو النطق والبلاغة، وما هي الأصول والقواعد لهذين الفنين. وهنا نلخص بيانه:

"خلق الإنسان ناطقاً، والميزة الفاصلة بينه وبين الحيوانات الأخرى هي صفته للنطق، ولكن ليس المراد من النطق مجرد الصوت أو اللهجة أو الغناء لأن هذه الصفات توجد في الببغاء والعندليب أيضاً بل هي أكثر من الإنسان، وإنما يراد من النطق القدرة على التعبير عما يجول في خاطر أحد. فوظيفة العقل التفكير، والخيال الذي يتولد بالتفكير فيظهره العقل بالنطق ولذا النطق هي آلة للعقل.

وأول ما أخطأ فيه أرسطو هو أنه جعل أول ميزة الإنسان وفضيلته المحاكاة. والواقع أن هذه ليست في المحاكاة بل في النطق. والمحاكاة أيضاً نتيجة النطق. وإذا لم يوجد النطق في الإنسان ما وجدت المحاكاة فيه.

وينحصر فضل النطق على أمرين وهما أن تعبر عن الخيالات والمعاني بدقة وصحة شريطة أن تكون المطالب جيدة وصحيحة.

والشرط الثاني ليس واجباً لدى أرسطو ومتبعيه فوظيفة النطق عندهم هي أداء المعنى كما هو سواء كان المعنى جميلاً أم قبيحاً. فيذكر قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر": إذا ذكر معنى قبيح أو سيء في شعر فلا يؤثر هذا القبح في جمال الشعر لأن المقصود في جودة الشعر هو جودة أداء المعنى".

ولكن هذا الرأي ليس بصحيح تماماً، وبما أن هذه القضية مهمة للغاية فنشرحها بشيء من التفصيل؛ من المعروف أن النطق ليس صوتاً فحسب وإنما هو مجموعة من الصوت والمعنى، ولا يحصل كمال النطق ما لم تكن الجودة في الصوت والمعنى فالرجل الأعور لا يقال له حسناً مهما كانت إحدى عينيه جميلة.

ونفس الشيء ينطبق على جمال الكلام فلا يمكن حصر الكلام الجميل ذو التأثير في قواعد النحو والصرف، فيجب في مثل هذه الحالة أن نصير الكلمات حجاباً للمعاني، فترفع هذه المعاني حجاب الألفاظ وتبلغ إلى القلب، ومثال ذلك كأن ملكاً بالرغم من جاهه وسلطانه يقوم بإبلاغ أوامره بنفسه. ويتضح من هذا أن جمال الكمال لا ينحصر في الألفاظ، وأن المعاني هي التي تكون بليغة وليست الألفاظ. وقد ذكر في المعجم معنى البليغ من يبلغ المعاني والتي تبلغ القلب هي المعاني لا الكلمات.

وبعد هذه التوطئة افترضوا أنه لو كان كلامٌ قبيحاً في ذاته فلا ترسخ في القلب ولو استخدمت لها ألفاظ جميلة وبليغة بل ينفر منه وعسى أن يجد رجلاً أحقق متعة فيه. ولكن لا يحكم عن جمال الكلام وقبحه طبقاً لذوق الحمقاء وثقافتهم فالكلام لا يؤثر في القلب ما لم يكن جميل المعنى والمضمون. وإذا لم يكن جميلاً فلا نعتبره بليغاً ولهذا نجد أن شعراء العرب كانوا يمدحون الكلام من ناحية جمال المعنى فيقول زهير بن أبي سلمى:

وذي نعمة تمتها وشكرتها وخصم يكاد يغلب الحق باطله
دفعت بمعروف من القول صائب إذا ما أضل الناطقين مفاصله
وذي خطل من القول يحسب أنه مصيب فيما يلزم به فهو قائله
عبأت له حلما وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله

وحيثما استخدمت كلمة "البليغ" في القرآن أتت لهذا المعنى كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ وهكذا جاء موضع آخر: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾، فخلاصة القول أن المضمون يكون بليغاً قدر ما يكون جميلاً ومؤثراً،

ويمكن أن تتضح هذه المسألة اتضاحاً أكثر من مثال آخر، وهو أن شخصاً إذا بدأ يسب إنساناً آخر، وهو يستخدم في سبابه كلاماً رائعاً، وتعبيراً جديداً ويأتي فيه بالاستعارة والكناية ولهجته كانت فصيحة فهل تعتبر ذاك الشخص بليغاً؟.

فاتضح من هذا الحديث الأمور التالية:

- 1- أن جودة الكلام لا تنحصر في المحاكاة فقط.
- 2- وليس من أهداف الكلام إمتاع الحضور بل هدفه الرئيس رسالة العقل.
- 3- وما تحصله من اللذة بالكلام ليس بكونه نوعاً من المحاكاة وأن المحاكاة من فطرة البشر بل لأن النطق قوة وأن الإنسان يتمتع باستخدام كل قوة.
- 4- وأنه ليست من ميزات الإنسان محاكاة بل هي النطق وأن جمال الكلام مبني على الصدق.

فتبين من هذه المقدمات أن التي نسميها البلاغة هي عضد العقل، عنصر الإنسانية، ترجمان الصدق وتاج الفخر. وهي مهمة لغاية أن تصبح معجزة للأنبياء. وبفضل تأثيره أبطال القرآن الإعجاز الموسوي، فلم يتجاوز إعجاز عصا موسى من تحرير اليهود والأقباط ولكن إعجاز القرآن قد رفع الناس من الثرى إلى الثريا.

ولكن إذا كانت البلاغة تعني ما بينه أرسطو فهل يمكن لها أن تكون إعجاز رسول؟
العياذ بالله!!

بعد تناول ماهية البلاغة وحقيقتها نريد أن ندون أصولها، ولكنه بما أن مرجعها ومظهرها الكبير هو الشعر والخطابة فنبدأ بالحديث عنهما.

ولو أن الشعر والخطابة توأمان من ناحية البلاغة ولكنهما مختلفان اختلافاً كبيراً، ويمكن فهم حقيقة الشعر من اسمه بنفسه، وبما أن العرب كانوا يفهمون الشعر جيداً فسمّوه بما يدل على حقيقته، فالشاعر عندهم من يشعر، والشعور هو الإحساس (Feeling) فالشاعر هو الشخص الذي يكون قوي الإحساس. وإن الإنسان يمر في حياته بأوضاع مختلفة مثل البكاء والضحك والتثائب، وإذا تغلب على الإنسان أي حالة من تلك الحالات فتصدر منه الأفعال الخاصة بها. مثلاً في حالة البكاء تدرع الدموع من عينيه، ويخرج صوت خاص في حالة الضحك وفي حالة التثائب تمتد الأعضاء وهكذا الشعر اسم لشعور خاص، فإذا تأتي حالة من حالات الحزن والفرح أو الغضب والاستعجاب على طبيعة الشاعر فتتأثر طبيعته منها ويظهر هذا الأثر من خلال الكلمات والألفاظ ما نسمّيه شعراً. فإحساس الشاعر يكون أقوى من الآخرين ولكن لا يعني هذا أبداً أنه يفرح أو يحزن أكثر من الآخرين بل معناه أن جميع قواه تثور عند الإحساس الذي يثير قوته للتخيل والنطق والصوت واللهجة معاً فالشاعر مثله مثل نبات حديث العهد بالبروز إذا سيق تسربت المياه إلى جذوره جميعاً وبدأ يتفتح.

ولا يتخلف إحساس الخطيب (Lecturer) عن شعور الشاعر، ولكن الخطيب لا يغلبه هذا الإحساس بل يؤثر به في الآخرين، فهو يقدر على أن يتغلب على إحساسه ويستخدمه في تأثير الآخرين كلما يحتاج إليه، وأما الشاعر فلا يعنيه سوى الأوضاع الراهنة ولكن الحديث يطلع على ما سيحدث في المستقبل. وعلى

هذا فيكون الخطيب أعقل وأذكى وأكرم من الشاعر وعلى هذا كان العرب يسمّون الشعر سحرًا والخطبة حكمة.

يزعم عامة الناس أن حسن الشعر يكمن في استخدام التشبيهات والاستعارات فيعتبرون مواعظ عيسى عليه السلام نوعًا من الشعر لأنها مليئة بالتشبيهات ولكن هذا الرأي ليس بصحيح. لأن أصل الشاعر هو أن يكون سريع الانفعال وموسيقي الطبع ولما طرأ عليه أثر خاص تحركت فيه قوى الغناء والوزن والرقص التي توجد فيه فطريًا.

حينما يغمر داود أثر نعم الله جعل يرقص فما نجده من كلامه كله شعر يخرج من قلبه المتحمس عفواً، ولهذا سمّيت أشعاره مزامير بالرغم من كلام عيسى عليه السلام الذي لم يغلبه شعور الشاعر فلا يوجد في كلامه الشعر بل كله حكمة وفلسفة.

وقد ارتكب أرسطو خطأ فاحشاً في هذا البحث حيث يقول: إن الإنسان يرقص ويغني عند قرض الشعر لأن الرقص والغناء نوع من المحاكاة ومعنى ذلك أن العواطف التي تنشأ في قلب الإنسان يصورها المرء بالصوت والحركات، فما يغنيه الرقص يبينه بحركاته.

ولكن هذا الرأي ليس بصحيح. والحقيقة أن العواطف الإنسانية مثل الحزن والفرح والتعجب والشوق والكراهية تخلق في قلب الإنسان هزة شديدة تتحول إلى الصوت أو الغناء أو الرقص أو الطرب. مثلاً عندما يضحك الإنسان فتنشأ الحركة في قلبه وتصبح هذه الحركة الضحك لأن هذه الآثار تشبه بالحركات النفسية وتدل على ما يجول في نفس الإنسان من الخواطر كما تدل الألفاظ على المعاني.

فكما أن النطق صفة طبيعية وكذلك الحركات والإشارات صفة طبيعية تصدر عفواً ولا يفعلها الإنسان للمحاكاة. مع أنها تعطي معنى وهدف المحاكاة.

ولا بد هنا من إصلاح خطأ آخر عام وهو أن معظم الناس يعتبرون الشعر والنثر البليغ شيئاً واحداً، وإلى هذا ذهب أرسطو من القدماء وجان مل من المتأخرين. فبرى أرسطو أن للمحاكاة طرقاً مختلفة وأن الكلام ذاته الذي هو أحد أساليب المحاكاة توجد فيه ثلاثة ذرائع للمحاكاة وهي الوزن والألفاظ والموسيقى. فهذه الذرائع الثلاث تبين ما يخطر على قلب الإنسان مجتمعة تارة ومتفردة تارة أخرى. وهذه المحاكاة هي الشعر، وتكون هذه المحاكاة إما بالألفاظ كما جاء في أمالي سقراط أو بالألفاظ والموسيقى معاً وأما الوزن فليس ضرورياً للشعر ولكن العامة قد اعتبرته جزءاً لازماً من الشعر.

وقول أرسطو أن الوزن لا ينحصر فيه الشعر ولكن هذا لا يعني أن الوزن ليس من أجزاء الشعر فالوزن جزء من الشعر ولكن لا يكون الشعر بمجرد الوزن لأن الجزء لا يكفي للكل مع أن هذا من زلات أرسطو أنه يعتبر كلاً من أمالي سقراط وكلام هومر شعراً.

وأما رأي جان مل بأن الشعر هو اسم لإظهار العواطف فهو صحيح وكذا يصح أن الشاعر يخاطب نفسه لا الآخرين وبهذا الشرح فصل جان مل الخطيب من الشاعر وعلى هذا إنه لا يعتبر أمالي سقراط شعراً ولكنه أيضاً أخطأ إذ أنه لا يعتبر الوزن جزءاً للشعر.

فالآن نفكر مرة ثانية في البحث عن معنى الشعر، إذا طرأ على الإنسان عاطفة فهي تحاول أن تظهر بطريقة أو أخرى، وبما أن النطق هي أقوى من كافة قوى الإنسان وتمتاز به عن غيره. فتظهر هذه العاطفة عن طريق النطق كما أن عواطف الحيوانات تظهر من الأصوات المختلفة مثل همهمة الشعر، ورقص الطاووس وهديل الحمامة وعندلة العندليب وفي بعض الأحيان تظهر هذه العاطفة في صورة حركات موزونة مثلاً حركة الأفعى حين الاستماع إلى نغمة أو رقص الطاووس والحمامة. ومن منح الله قوة الموسيقى مع النطق فيخرج منهم

كلام منظوم في حالة اشتعال عواطفهم كما أنهم يغنون به. وإذا كانت هذه العاطفة أقوى فيرقصون فالشعر عبارة عن مجموعة من الوزن والموسيقى والرقص، ولكنه بما أن هذه القوى تظهر عند اشتعال العواطف فليس من الضروري لكل شعر أن توجد فيه هذه القوى ولكن لا يكون أي شعر خاليًا من النغمة والموسيقى فإن الوزن الذي هو جزء لازم من الشعر نوع من الموسيقى وعلى هذا فكان العرب دائمًا ينشدون الشعر. ولعلك فهمت الآن ما هي علاقة الشعر بالوزن والموسيقى والرقص، والواقع أنها تخرج من مصدر واحد إلا أن الوزن علاقته بالشعر أقوى من علاقة الموسيقى والرقص به ولهذا اعتبر الناس الشعر والوزن شيئًا واحدًا.

وبعد هذا الحديث بين الكاتب أصول البلاغة وفروعها وسننشرها في العدد القادم.¹

¹ ولكن العلامة شبلي لم يجد الفرصة لمواصلة هذا البحث كما يبدو من فهرس آثاره المطبوعة.
(المترجم)

"الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ" للإمام الفراهي: دراسة نقدية

- د. عبيد الرحمن طيب¹

الناسخ والمنسوخ من أهم مباحث القرآن والسنة وموضوعاتهما إذ يعرف به علم الشريعة وأسرارها وحكمها ويساعد في فهم الشريعة والوصول إلى رأي سديد حول أمر أو قضية من قضايا الشريعة. كما أن القارئ يدرك أن الله عز وجل يأتي بشيء ويبدله بشيء آخر لحكمة بالغة فيه لا لأنه لم يكن يعرفه أولاً أو انكشف له بعد حدوثه إذ هو العليم الخبير يعرف كل شيء من قبل ومن بعد ولكنه يفعل ما يشاء ويفعل كذلك ليري البشر حكمته ويكشف له غاياته تدريجياً وكيف يفهم الإنسان ويدرك كنهه. كما أنه لا يمكن العمل بالشريعة إلا إذا كان الإنسان على معرفة بكون حكم شرعي منسوخاً أو ثابتاً بأمر من الله سبحانه وتعالى أو بأمر من الرسول عليه الصلاة والسلام.

ونظراً لأهميته البالغة قال علي رضي الله عنه لمن لا يعلم هلكت وأهلك فقد روي عن علي رضي الله عنه أنه مرّ على قاض، فقال له: "هل تعلم الناسخ والمنسوخ؟"، قال: لا، فقال: "هلكت وأهلك".² وقال الإمام الزركشي عن علم النسخ: "والعلم به عظيم الشأن".³ وقال الإمام السيوطي: "قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسّر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ".⁴

¹ أستاذ مشارك، مركز الدراسات العربية والإفريقية التابع لكلية اللغات، جامعة جواهرلال نهرو، نيودلهي

² السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص 462

³ الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، 28/2

⁴ السيوطي، الإتقان (النوع السابع والأربعون)، ص 462.

وسلّط الشيخ الزرقاني الضوء على أهمية علم النسخ قائلًا: "الإمام بالناسخ والمنسوخ يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامي، ويطلع الإنسان على حكمة الله في تربيته في الخلق، وسياسته للبشر، وابتلائه للناس، مما يدل دلالة واضحة على أن نفس محمد النبي الأمي لا يمكن أن تكون المصدر لمثل هذا القرآن، ولا المنبع لمثل التشريع، إنما هو تنزيل من حكيم حميد".¹

هذا موضوع شيق قد تناوله العلماء قديمًا وحديثًا بالبحث والدراسة بإطناب أو إيجاز. فمنهم من أفرد كتابًا أو رسالة حول الموضوع ومنهم من كتب بابًا أو فصلًا. فمن المتقدمين ممن ألّف فيه: الإمام السيوطي (الإتقان في علوم القرآن)، والزركشي (البرهان في علوم القرآن)، وقتادة بن دعامة السدوسي (كتاب الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن)، وأبو داود السجستاني (الناسخ والمنسوخ)، وأبو جعفر النحاس (كتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم)، وابن العربي (الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم)، وابن الجوزي (نواسخ القرآن)، وابن الأنباري المكي والمقري (الناسخ والمنسوخ)، والكرمي (قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ من القرآن)، وابن حزم (الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم)، وغيرهم. ومن المتأخرين: الشاه ولي الله المحدث الدهلوي (الفوز الكبير في أصول التفسير)، ومحمد عبد العظيم الزرقاني (مناهل العرفان في علوم القرآن) وكذلك الإمام الفراهي الذي أفرد به رسالة تسمّى (الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ).

وجرى نقاش طويل حول أمور كثيرة منها: هل يوجد النسخ في القرآن الكريم، هل يجوز نسخ القرآن بالسنة، وكم آية تم نسخها، هل تم نسخ بعض السور وكذلك الآيات وأحكامها أو نسخت وبقيت أحكامها فحسب. وما إلى ذلك. وقبل الخوض في

¹ الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، 174/2

الموضوع والتعرف على آراء الإمام الفراهي بهذا الشأن يبدو من المناسب أن نتوقف قليلاً حول معنيه اللغوي والاصطلاحي. ففي لسان العرب: نَسَخَ الشيءَ يَنْسَخُهُ نَسْخًا وَانْتَسَخَهُ وَاسْتَنْسَخَهُ: اكْتَتَبَهُ عَنْ مَعَارِضَةٍ. / التهذيب: النَّسْخُ اكْتِتَابُكَ كِتَابًا عَنْ كِتَابٍ حَرْفًا بِحَرْفٍ، وَالْأَصْلُ نُسْخَةٌ، وَالْمَكْتُوبُ عَنْهُ نُسْخَةٌ لِأَنَّهُ قَامَ مَقَامَهُ، وَالكَاتِبُ نَاسِخٌ وَمُنْسَخٌ. وَالْإِسْتِنْسَاحُ: كَتَبُ كِتَابٍ مِنْ كِتَابٍ، وَفِي التَّنْزِيلِ: "إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"، أَي نَسْتَنْسِخُ مَا تَكْتُبُ الْحَفْظَةَ فَيُثْبِتُ عِنْدَ اللَّهِ. وَفِي التَّهْذِيبِ: أَي نَأْمُرُ بِنَسْخِهِ وَإِثْبَاتِهِ. / وَالنَّسْخُ: إِبْطَالُ الشَّيْءِ وَإِقَامَةُ آخَرٍ مَقَامَهُ، وَفِي التَّنْزِيلِ: "مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا"، وَالآيَةُ الثَّانِيَةُ نَاسِخَةٌ وَالْأُولَى مَنْسُوخَةٌ. / وابن الأعرابي: النَّسْخُ تَبْدِيلُ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وَهُوَ غَيْرُهُ، وَنَسْخُ الْآيَةِ بِالْآيَةِ: إِزَالَةُ مِثْلِ حُكْمِهَا. وَالنَّسْخُ: نَقْلُ الشَّيْءِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ.¹

وفي القاموس المحيط: نَسَخَهُ، كَمَنْعَهُ: أزاله، وَغَيَّرَهُ، وَأَبْطَلَهُ، وَأَقَامَ شَيْئًا مَقَامَهُ، وَ-الشيء: مَسَخَهُ، وَ-الكتاب: كَتَبَهُ عَنْ مُعَارِضَةٍ، ك-انْتَسَخَهُ وَاسْتَنْسَخَهُ، والمنقول منه: النُّسْخَةُ، بالضم، وَ- ما في الخَلِيَّةِ: حَوَّلَهُ إِلَى غَيْرِهَا.²

وفي تاج العروس: (نَسَخَهُ) به، (كَمَنْعَهُ)، يَنْسَخُهُ، وَانْتَسَخَهُ: (أزاله) به وَأَدَالَهُ. وَالشَّيْءُ يَنْسَخُ الشَّيْءَ نَسْخًا، أَي يُزِيلُهُ وَيَكُونُ مَكَانَهُ. وَنَسَخَ الْآيَةَ بِالْآيَةِ: إِزَالَةُ حُكْمِهَا. وَقَالَ اللَّيْثُ: النَّسْخُ: أَنْ تُزِيلَ أَمْرًا كَانَ مِنْ قَبْلِ يُعْمَلُ بِهِ ثُمَّ تَنْسَخَهُ بِحَادِثٍ غَيْرِهِ. وَقَالَ الْفَرَاءُ: النَّسْخُ أَنْ تَعْمَلَ بِالْآيَةِ ثُمَّ تُزِيلَ آيَةً أُخْرَى فَتَعْمَلَ بِهَا وَتَتْرَكَ الْأُولَى. وَفِي التَّنْزِيلِ: "مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا" وَالآيَةُ الثَّانِيَةُ نَاسِخَةٌ وَالْأُولَى مَنْسُوخَةٌ.³

¹ ابن منظور، لسان العرب، باب النون، ص 4407،

² الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ص 261،

³ الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، باب الخاء، 355/7

تدل هذه القواميس على أن كلمة النسخ تستخدم في ثلاثة معانٍ إزالة شيء ببدل والثاني إزالة شيء بدون بدل والثالث نقل عبارة أو كتاب من كتاب إلى آخر.

وأما في اصطلاح الشرع فمعناه تبديل أمر أو حكم بآخر أو مجرد إبطال أمر بدون بدل. وذكر الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني: "هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي"¹.

وقد ناقش العلماء هذا الموضوع بالتفصيل آية وآية وسنة سنة. كما أتوا بالأسس والمبادئ لفهم النسخ في القرآن ومنها إذا أمكن التوافق بين الآيتين أو الأمرين كهذين يجب العمل به وإذا لا يمكن يترك الأمر الأول ويؤخذ الثاني بعد التأكد من وقوعه أولاً. ولا يمكنني أن أتناول جميع العلماء ولكن نثبت رأي الشيخ شاه ولي الله الدهلوي. ثم نقوم بالإشارة إلى بعض الآراء حيثما تتطلب الحاجة إلى ذلك.

كتب الشاه ولي الله الدهلوي حول هذا الموضوع بإسهاب وناقش الآيات التي يظنها المفسرون والعلماء منسوخة. وبعد النظر في الآيات التي اعتبرها السيوطي منسوخة والتي يبلغ عددها 25/ أو 22/ آية قام بدراسة هذه الآيات وأثبت أن من بينها خمس آيات فحسب ممكن أن نعتبرها منسوخة أي حكمها. وهي: 1- "كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ (سورة البقرة: 180) قلت بل هي منسوخة بآية "يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ" (سورة النساء: 11-14) وحديث "لا وصية" مبين للنسخ. 2- "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ" (سورة البقرة: 240) الآية منسوخة بآية "أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا" (سورة البقرة: 234) والوصية منسوخة بالميراث. والسكنى ثابتة عند قوم، منسوخة عند آخرين بحديث "لا سكنى". قلت هي كما قال منسوخة عند جمهور المفسرين، ويمكن أن يقال: يستحب ويجوز للميت الوصية. ولا يجب على المرأة أن تسكن في وصيته، وعليه ابن العباس رضي الله عنه. وهذا التوجيه ظاهر من الآية. 3- "إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبْرُونَ"

¹ الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، 176/2

(سورة الأنفال: 65) منسوخة بالآية بعدها (هي الآية: 66). قلت هي كما قال: منسوخة. 4- "لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ" (سورة الأحزاب: 52) بقوله تعالى: "إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ" (سورة الأحزاب: 50) قلت: يحتمل أن يكون الناسخ مقدمًا في التلاوة. وهو الأظهر عندي. 5- "إِذَا نَبَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا..." (سورة المجادلة: 12) منسوخة بالآية بعدها (وهي الآية: 13). قلت هذا كما قال.

ويقول الشاه ولي الله الدهلوي في النهاية: "قال السيوطي موافقًا لابن العربي فهذه إحدى وعشرون آية منسوخة، على خلاف في بعضها. ولا يصح دعوى النسخ في غيرها. والأصح في آتي الاستيذان والقسم الإحكام وعدم النسخ. فصارت تسع عشرة آية. وعلى ما حررنا لا يتعين النسخ إلا في خمس آيات".¹

فمن هؤلاء العلماء الكبار من قال إن هناك نحو خمس مائة نسخ في القرآن ومنهم من قال 25/ آية منسوخة ومنهم من قال خمس آيات منسوخة كما قال الشاه ولي الله الدهلوي.

"الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ" للإمام الفراهي

يعدّ الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930 م) من العلماء الأجلة في شبه القارة الهندية وله باع طويل في العلوم العربية والإسلامية واشتغل بدراسة القرآن ومختلف علومه وخاض أعماق بحره وأتى بلألى لأمعة ونقاط نيرة وأفكار رشيدة وترك وراءه تراثًا قيمًا يمكن للباحثين أن يسترشدوا من آثاره ويأتوا بما ينفع الأمة الإسلامية والإنسانية جمعاء.

وله إسهامات قيمة في مختلف حقول العلم من اللغة والأدب من النثر والشعر والتاريخ وخاصة علوم القرآن ومنها نظام القرآن، والإمعان في أقسام القرآن،

¹ الدهلوي، أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ"الشاه ولي الله"، الفوز الكبير في أصول التفسير، تعريب: سعيد أحمد البالنفوري، دار الغوثاني، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، 2008م، ص 57-68.

ومفردات القرآن، وأساليب القرآن، والتكميل في أصول التأويل، ودلائل النظام، وفي ملكوت الله، والقائد إلى عيون العقائد، وجمهرة البلاغة، والرأي الصحيح في من هو الذبيح، وتفسير السور الصغيرة مثل الفيل، الإخلاص، الكوثر، اللهب، الشمس، عبس وغيرها من السور الأخرى.

وكذلك ترك بعض الرسائل أي الكتيبات ولكنها تفوق في مغزاها الكتب الضخمة فاهتم بعض أهل العلم بجمعها وترتيبها وطباعتها بشكل كتاب يسمى بـ"المجموعة الأولى" و"المجموعة الثانية" بعنوان "رسائل في علوم القرآن". قام بجمعها وترتيبها الدكتور عبيد الله الفراهي وبمراجعتها الشيخ أمانة الله الإصلاحي وبطباعتها الدائرة الحميدية التابعة لمدرسة الإصلاح ببلدة سرائ مير في مديرية أعظم جراه، ولاية أوتار براديش - الهند (الطبعة الأولى عام 2011م).

وتتضمن هذه المجموعة الثانية ثلاث رسائل: 1- "الرائع في أصول الشرائع"، 2- "إحكام الأصول بأحكام الرسول"، 3- "الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ". وهذه الأخيرة هي قيد الدراسة.

وقد عنون الإمام الفراهي هذه الرسالة "الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ". وبعد الدراسة والتأني في هذه الرسالة يبدو أنه لم يستطع إكمال هذه الرسالة بوجه كان يريده وكانت مسودة موجودة ضمن تراثه فاهتم حفيده الرشيد عبيد الله الفراهي بجمعها وترتيبها وتقديمها إلى القارئ. فجزاه الله عنا خير الجزاء. وهناك شواهد كثيرة في هذه الرسالة على أنها كانت مسودة حيث ترك بعض المباحث ناقصاً لا يمكن أن يفهمها القارئ وأوضح دليل على ذلك أنه وضع فهرس المحتويات وفي الباب الأول 13/ باباً ولكنه ترك الرقم السادس والسابع بدون كتابة عنوانيهما¹ وكذلك في أماكن أخرى أتى الجامع بحاشية "بياض في الأصل"²

¹ المجموعة الثانية، ص 143

² المصدر نفسه، ص 146

وذكرت ذلك حرصًا على أنه لو كان وفق لإكمال هذه الرسالة أو غيرها من الرسائل الأخرى التي تركها وراءه لأتى بعلم جم نافع اطلعنا عليه واستفدنا منه كثيرًا وكثيرًا. والآن ندرس محتويات هذه الرسالة.

أولاً ثبت الإمام الفراهي المحتويات باسم "فهرس مطالب الفصول:

الباب الأول في الكليات: 1- ما هو النسخ وتنقيح المسألة عن نزاع لفظي. 2- الحكمة في النسخ. 3- محل النسخ من الأمور. 4- الناسخ لا يكون إلا الشارع وهو الله تعالى ورسوله بإذنه. 5- غير القرآن لا ينسخ القرآن. 6-.....، 7-.....، 8- أهم النسخ ما جاء به القرآن لما قبله. 9- ذكر قسمين من ثلاثة أقسام النسخ. 10- الحكمة العامة في النسخ وهي تبقى. 11- القسم الثالث من النسخ الباقي. 12- جواب قول نفاة النسخ. 13- كشف معنى كلمة النسخ وبيان قول نفاة النسخ.

والباب الثاني في تفصيل آيات تتعلق بالنسخ: 1- النواسخ. 2- النواسخ مجازًا لما في الكتب السابقة. 3- النواسخ مجازًا لما في القرآن.

وتبدأ الرسالة من الصفحة رقم: 146 من المجموعة الثانية ويستهل بذكر أصول تتعلق بالنسخ وتنحصر في أربعة أصول: الأصل الأول: لا يصار إلى إبطال حكم إذا أمكن التوفيق. والثاني: يصار من الحسن إلى الأحسن عند التفاوت الثابت عقلاً ومثاله نسخ صوم يوم عاشوراء بصوم شهر رمضان. والثالث: الشريعة تتزايد تمامًا بالتدرج والتدرج من السهل إلى الصعب أرفق وأسهل. فإن كان خلاف ذلك فلمصلحة وحكمة خاصة، ولا بد من بيان ذلك في الكتاب كما جاء التخفيف في عدد المقاتلين وصلاة الليل.

والرابع: دلالة في نفس الكلام على تعيين الناسخ والمنسوخ.

وبعد إلقاء الضوء على الأصول المذكورة أعلاه أقام عنوانًا "نسخ الشرائع" وذكر أنه فيما نزل إلينا بالوحي أمران: علوم، وأعمال. ثم فيهما أقسام متفاوتة. أما العلوم فتلاثة أقسام: الحقائق الثابتة والوقائع الماضية والآتية، والوعد والوعيد.

وبعد ذكر هذه الأقسام يقول: ثم القرآن ينسخ ما دخل في الدين وهذا النسخ يعم الأعمال والعلوم وهو نسخ البدع والأهواء، فنذكر أولاً نسخ الشرائع الحقة ثم نذكر نسخ البدع والأهواء.

وقسم الإمام الفراهي الأعمال إلى المقصودة بالذات والمقصودة لغيره فأما الأعمال المقصودة بالذات فلا يقبل النسخ ويبين قوله: يقول الله عز وجل "مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ" (سورة ق: 29) فبقيت الأعمال وحدها فالمقصود بالذات منها مثل الحقائق الثابتة في العلوم لبنائها على الفطرة وطبائع الأمور والنسب بينهما كعامة الصلاة والزكاة والصبر والعفو وحماية الحق والإصلاح فذلك هو الدين الذي وصى به الله الإنسان من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال "شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ" (سورة الشورى: 13). وذلك هو الإسلام المبني على الإيمان واللازم له. هذا لا يقبل النسخ ولذلك وجب الفرق بينه وبين المقصود لغيره".¹

وأما المقصودة لغيره فهي الأعمال والعلوم التي من نوع البدع والأهواء ويقول الفراهي في هذا الصدد: ثم القرآن ينسخ ما دخل في الدين، وهذا النسخ يعم الأعمال والعلوم، وهو نسخ البدع والأهواء".²

وتحت عنوان "في بيان نسخ الشرائع الحقة" ذكر الإمام الفراهي ما نسخ القرآن أو الشريعة المحمدية من الشرائع السابقة. وهذه ميزة كبرى لأفكار الإمام الفراهي فإنه قام بإبراز ناحية من نواحي النسخ مما فاتته معظم المفسرين. فإن الشريعة المحمدية ناسخة لجميع الشرائع السابقة ويقول عز وجل: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ

¹ المصدر نفسه، ص 151

² المصدر نفسه، ص 151

وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾¹ فتبين لنا من هذا أن الشريعة الخاتمة الدائمة لم تراع أحوالاً خاصة بل عمدت إلى أصل الأمر، فأحلت الطيبات وحرم الخبائث على الإطلاق، ونسخت الشرائع الخاصة التي صارت إصراراً وأغلالاً، كاحتماء المرضى، وإلا لم تكن هذه كاملة ولا خاتمة ونسخت كل ما ابتدعوها.²

فالقرآن أو الشريعة الإسلامية أبطلت البدع والخرافات التي ابتدعها الأمم الأخرى من اليهود والنصارى فيقول الإمام الفراهي "والقرآن كثيراً ما نسخ من مفترياتهم في العقائد والأعمال. أما العقائد فمثل: 1- أن الله ثالث ثلاثة. 2- وأن اليهود أبناء الله وأحباؤه. 3- وأن الله تعالى استراح يوم السبت بعدما مسّه اللغوب من خلق السموات والأرض وما بينهما. 4- وأن الله تعالى عهد إليهم أن لا يؤمنوا بنبي حتى يأتيهم بقربان تأكله النار. 5- وأنه كان برص في يد موسى عليه السلام فقال: "أَسْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ" (سورة القصص: 32). 6- وأن الله تعالى غضب على موسى عليه السلام لأنه عليه السلام لم يحمده حين ضرب الحجر للماء فانجر... وغير ذلك مما افتروا من الأهواء والأمانى المضلة وكذلك ما تفوهوا به من السوء في أنبيائهم.

أما الأعمال فمثل ما فعلوه في الأسارى وأكلهم الربا، وما أحلت النصارى من الخنزير، والمنخنقة، بل نبذوا الشريعة بأسرها. فينسخ القرآن كل ذلك وصدق بالتوراة والإنجيل، وكذب بما خلطوه من إلقاء الشياطين وتحريفهم.³

¹ سورة الأعراف: 156

² المجموعة الثانية، المصدر السابق، ص 154

³ المصدر نفسه، ص 163-164

وأشار الإمام الفراهي إلى نقطة هامة أثناء الحديث عن نسخ الشرائع السابقة وهي أن الأحكام الشريعة الإسلامية جاءت حسب الفطرة السليمة للبشرية فلا تجد مراعاة قوم دون قوم ويقول: "ولكن الأحكام جاءت حسب فطرة الإنسان الصحيحة وليست فيها رعاية للعرب ولا قوم من أقوام الأرض. إن جميع أحكام هذه الشريعة حسب الفطرة العامة وأصول الحكمة المطلقة. وجملة القول إن أحكام شريعتنا التي ليست بمقصودة بالذات أيضًا لا تحتتمل النسخ لبناءها على الفطرة".¹

والنقطة الأخرى التي أشار إليها الإمام الفراهي هي أن الله سبحانه تعالى جعل محمدًا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ونسخ كل الشرائع التي جاء بها الأنبياء السابقون وبه وصلت الشريعة الإسلامية إلى كمالها. ويكتب: "إذا تتبعنا سمات الأحكام في التوراة ثم رأيت ما انتهى إليه الأمر في القرآن ما تبين لك أنه قد أكمل ما كان يقتضى واستدعى الإكمال. وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إن موضع لبنة كان بقي في قصر النبوة وأنا تلك اللبنة الممتة".² فعن عبد الرحمن بن صخر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين".³

نسخ بعض أحكام القرآن ببعضها: كما أن القرآن نسخ جلّ أحكام الشرائع السابقة، فكذلك نسخ بعض ما نزل على هذه الأمة في أول الأمر. ومن هذه الأمور الهامة قضية تحويل القبلة فكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في مكة المكرمة متوجهًا نحو المسجد الأقصى والمسجد الحرام في آن واحد أي كان يوفق بينهما وكان موقع مكة حيث أمكن ذلك ولكن بعد الهجرة إلى المدينة المنورة لم يعد من

¹ المصدر نفسه، ص 155

² المصدر نفسه، ص 156

³ رواه البخاري، رقم الحديث: 3294

الممكن التوفيق بين الاثنين فقد أنزل الله سبحانه وتعالى أنه جعل المسجد الحرام قبله لك. ويكتب مستدلاً بالآية الكريمة "وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا" أي ما جعلناه لبني إسرائيل وأبقيتك عليها في عصر قيامك بمكة لما كان يمكنك الجمع بين القبلتين "إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّعَ إِيمَنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ" (سورة البقرة: 143) فإن الذين آمنوا بما عندهم وهم أهل الإيمان حقاً اتبعوا هذا الرسول الموعود بتكميل الدين".¹

ذكر الإمام الفراهي نسخ صوم عاشوراء وفرض صوم رمضان بناءً على الأصل أن النسخ يصار من الحسن إلى الأحسن عند التفاوت الثابت عقلاً ولقوله تعالى "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا" (سورة البقرة: 106) مثلاً أمر الله تعالى بصوم عاشوراء أولاً مجملاً لقوله "كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ" (سورة البقرة: 183) ومعلوم أنه صوم عاشوراء. فإنه وحده كان فرضاً على اليهود. وقد بينت السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم وافق اليهود في صوم عاشوراء، وذلك في شهر ربيع الأول الذي يطابق الشهر التاسع في حساب اليهود. وقد دلت الآية على أنه في أيام معلومات. لما قال فيها "فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ" (سورة البقرة: 184). قد أجاز في هذا الأمر للمطيقين بالفدية. ثم بين في الآية نفسها أن الصوم خير، لقوله "وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ" فلما فرق الله بين اليهود والمؤمنين وأمر بالبراءة منهم، وحول القبلة حول زمان الصوم إلى رمضان وفي كل ذلك تحول من حسن إلى أحسن منه".²

ويوضح هذا الأمر قائلاً: 1- أي أمركم بالعدة من أيام آخر، لأنه يريد بكم اليسر. 2- وأبطل الفدية لأنه يريد أن تكملوا العدة. 3- وخص بالصوم المكتوب هذا

¹ المجموعة الثانية، المصدر السابق، ص 160

² المصدر نفسه، ص 146-147

الشهر لتعظموه على أنه هداكم بالقرآن فلا تذهلوا عن منزلته العظيمة فيكون علامة، وتذكراً لكم كما قال "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ" (سورة البقرة: 185) أي فرق الحق من الباطل وفرقكم من أمة باءت بسخط الله، بما حول قبلتكم وبدل شهر صومكم، فصار من العلامات الفارقة الظاهرة".¹

ويرى الإمام الفراهي في النسخ حكماً كثيرة ومنها الابتلاء أيضاً ويذكر مثلاً لذلك أن الله يقول: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (سورة البقرة: 102) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (سورة البقرة: 103) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (سورة الحج: 52-54) وهذه الآيات مما أشكل على جمهور المفسرين لما ربطوها بما وقع في الأمم السابقة وبدعاتها، فلم يصيبوا غرض الكلام وإنما المراد أن نشير إلى جهة الابتلاء في النسخ كما صرح به في هذه الآيات... وصرح بأن النسخ كان للهداية إلى الصراط المستقيم ولم يكن لمحض الابتلاء".²

تعليق على كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس: في نهاية هذه الرسالة قام الإمام الفراهي بالتعليق على كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس وأوضح رأيه إزاء بعض آرائه الهامة حول النسخ وهي تصل إلى 23/ أمراً. وعلى سبيل المثال نسخ القرآن القبلة، صوم رمضان، آية القصاص، قاتلوا المشركين كافة كما يقتلونكم كافة، ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن، آية الميراث والوصية، وآخر شيء

¹ المصدر نفسه، ص 148

² المصدر نفسه، ص 161

"وأتوا حقه يوم حصاده". فهذه قضايا هامة وتتطلب دراسة مقارنة بين آراء أبي جعفر النحاس والإمام الفراهي. ولايسع هذا المكان الخوض في أي مقارنة كهذه. وخلاصة القول إن هذه الرسالة في معرفة الناسخ والمنسوخ تحمل في طيها آراء قيمة لإمام ومفسر ولغوي كبير قضى عمره في دراسة القرآن وعلومه وتدبر سوره وآياته وكشف النقاب عن كثير من رموزه وحكمه ودلّ الباحثين على إجراء دراسات وبحوث عميقة في القرآن ومختلف علومه لمهتدوا ويمهدوا الناس إلى صراط الله المستقيم.

المصادر والمراجع

1. ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثالث، دار الطباعة غير مذكورة.
2. الإصلاحي، الدكتور شرف الدين: ذكر فراهي، (باللغة الأردية)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، بلدة سرائ مير، مديرية أعظم جراه، ولاية أوتار براديش، الهند، 2001م.
3. الدهلوي، أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله: الفوز الكبير في أصول التفسير، الطبعة الأولى، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، 2008م
4. الزبيدي، محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، المجلد السادس، الطبعة غير مذكورة، طبعة الكويت، 1972م
5. الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الطبعة الثالثة، عام الطباعة غير مذكور.
6. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة، 1984م
7. السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 2008م
8. الشافعي، محمد بن ادريس: الرسالة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، 1938م
9. الفراهي، الإمام عبد الحميد: رسائل في علوم القرآن (المجموعة الثانية)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، بلدة سرائ مير، مديرية أعظم جراه، ولاية أوتار براديش، الهند، الطبعة الأولى، 2011م
10. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثامنة، 1426هـ/2005م.

العدد الخاص مجلة الهند

11. القطّان، متّاع خليل: مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة السابعة، عام الطباعة غير مذكور.
12. مقالات الندوة حول العلامة حميد الدين الفراهي: حياته وأفكاره، (باللغة الأردية)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، بلدة سرائ مير، مديرية أعظم جراه، ولاية أوتار براديش، الهند، 1992م
13. النحاس، أبو جعفر: الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، المكتبة العالمية، مصر، 1938م

"الدائرة الحميدية" بمدرسة الإصلاح

مؤسسة علمية للعلوم العربية

- أبو أمانة الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: مشتاق عالم²

لا يخفى على أحد ما للهند من درجة كبرى في مجال نشر وترويج العلوم والفنون العربية والإسلامية على اختلاف صورها وفروعها، وبما أن العربية تميزت بكونها لغة أهل العلم والعلماء لفترة زمنية طويلة كانت الكتب العربية تطبع وتنتشر في الهند بغاية من الاهتمام. واشتهرت "دائرة المعارف العثمانية" في حيدرآباد بصفتها داراً للتحقيق والنشر، وكذلك "مطبعة نولكشور" في لكناؤ و "كتب خانة رشيدية" بدلهي بصفتها جهتين معنيتين بنشر الكتب وتوزيعها. ولكننا نتوخى بهذه الورقة التعريف بمؤسسة علمية قديمة ما كانت سمعتها تضاهي تلك المؤسسات إلا أن خدماتها عظيمة ولا يمكن الإغفال عنها بأي حال من الأحوال لأنها غيرت الرؤية تجاه الدراسات العربية والإسلامية ولا سيما فيما يتعلق بعلوم القرآن الكريم.

تم إنشاء هذه المؤسسة في عام 1936 م إثر وفاة العلامة حميد الدين الفراهي (رحمه الله)، صاحب تفسير "نظام القرآن"، وذلك من أجل ترويج الفكر الفراهي وتوصيله إلى أبعد مداه بطباعة ونشر كتبه ورسائله غير المطبوعة. اتخذت هذه المؤسسة من بلدة سرائ مير بمديرية أعظم جراه في ولاية أترابرايش (الهند) مقراً لها واختارت لنفسها أن تسمى بـ "الدائرة الحميدية" نسبة إلى العلامة حميد الدين الفراهي.

¹ أحد المتخرجين من مدرسة الإصلاح بسرائ مير، أعظم جراه

² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

كان العلامة حميد الدين الفراهي من تلك الشخصيات النابغة التي وهبها الله للهند إذ كان العلامة عالماً كبيراً للغتين العربية والفارسية، ومجيداً للغة الإنكليزية وعارفاً بالعبرانية، إلى جانب اطلاعه العميق على التوراة والإنجيل. إنه كان على معرفة عميقة بجميع العلوم الشرقية التي كانت متداولة في عصره، وكان قد تتلمذ على يد العلامة شبلي النعماني والعلامة فيض الحسن السهارنفوري، وأثناء إقامته في مدينة علي جراه تعلم اللغة العبرانية من المسشرق الألماني جوزيف هارويز وحضر دروس المستشرق الشهير تهامس أرنولد. ولكن ما كان لبريق تلك العلوم والفلسفة اليونانية أن يسحر عينيه أو أن تجذبه الفلسفة الغربية الحديثة فتجعله أسيراً لها. وجذبتة القوة المغناطيسية للكتاب الإلهي جذباً شديداً فانصهر به واجتهد في تدبره وتفكره. ولا نبالغ إذا قلنا إنه أنفق أربعين سنة من عمره الثمين وهو يتمنى أن يتم التفكير في القرآن عن طريق فهم لغته ومعرفة أسلوبه وهذا ما جعله يختار اللغة العربية وسيلة للتعبير عن أفكاره وللتنفيس عن همومه لأن اللغتين العربية والفارسية كانتا رائجتين في العالم الإسلامي آنذاك. لم تطبع للفراهي في حياته سوى أربعة كتب أبرزها أجزاء من تفسيره القيم "نظام القرآن" و"إمعان في أقسام القرآن" و"الرأي الصحيح في من هو الذبيح". توفي رحمه الله في شهر نوفمبر عام 1930 م وخلف من بعده أكثر من خمسين كتاباً ورسالة، بعضها جاهز للطبع والبعض الآخر ينتظر من ينهض فيدونه ويقوم بنشره.

مشروع النشر: إن تلامذة العلامة الفراهي والمهتمين بأفكاره قد ساورهم قلق شديد وكان يحمل كل واحد منهم همّاً مشتركاً وهو أن يتم ترويج ونشر الفكر الفراهي وأرادوا طباعة تلك المخطوطات عاجلاً غير آجل، وبالتالي فوقعت على عاتقهم مسؤوليتان:

أولاهما: تسهيل طباعة ونشر المخطوطات.

العدد الخاص مجلة الهند

وثانيتهما: ترجمتها إلى اللغة الأردية كي تصل الفكرة إلى أكبر عدد ممكن من الناس لتطمئن قلوبهم بالقرآن ويتمكنوا من معرفة الطرق والأساليب الصحيحة للتفكير فيه.

تجسّدت هذه الأفكار والهموم عن تأسيس "الدائرة الحميدية" عام 1936م وانتخب طبيب العلامة الشخصي الدكتور حفيظ الله أول رئيس له، وتولّى تلميذه الرشيد الشيخ أمين أحسن الإصلاحي منصب المدير العلمي للمؤسسة. أوضح الشيخ الإصلاحي أهداف الدائرة في أول عدد من مجلتها "الإصلاح" الشهرية كالآتي:

"الآن يتعين على الدائرة القيام ببعض الأعمال المهمة، ومنها:

1- طباعة ونشر المؤلفات العربية للعلامة حميد الدين الفراهي وترجماتها الأردية؛

2- إعداد وتربية جماعة من العلماء تتدبر القرآن على نهج العلامة الفراهي وتنشر إنتاجاتها العلمية في هذه المجلة؛

3- إصدار مجلة شهرية تنشر المقالات العلمية ذات المستوى العالي عن القرآن الكريم وتقدم الخدمات العلمية والدينية المفيدة للمسلمين.

4- إصدار جريدة أسبوعية تتميز بسعرها الرخيص ولغتها البسيطة وتهدف إلى إصلاح الأوضاع الدينية والخلقية والاجتماعية للقوم". (مجلة "الإصلاح" الشهرية، يناير، 1936م)

عُيّن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي مدير التحرير لهذه المجلة ووكلت إليه مهمة ترجمة كتب العلامة الفراهي إلى اللغة الأردية والذي أجاد وأحسن في أداء مهمته. ووكل عمل تصحيح وترتيب المخطوطات إلى التلميذ الآخر للعلامة الفراهي الشيخ اختر أحسن الإصلاحي. وأول كتاب طبع له بعد تأسيس الدائرة كان تفسير سورة الفيل. وفي جانب آخر، أخذت مجلة "الإصلاح" الشهرية في الصدور وانطلق بها نشر الترجمات الأردية لكتب العلامة العربية في الحلقات وكذلك نشرت المقالات

القيمة حول العلوم القرآنية. وعلاوة على ذلك، تواصل العمل على طباعة ونشر المخطوطات فطبعت الكتب التالية وأصبحت في متناول أيدي الناس:

(1) فاتحة نظام القرآن (مقدمة لتفسير "نظام القرآن")؛

(2) مفردات القرآن (تحقيق الكلمات الصعبة)؛

(3) جمهرة البلاغة (كان العلامة يريد إعادة تدوين علم البلاغة ويتضمن هذا الكتاب النقاط المهمة بهذا الخصوص. وبه انتقد العلامة نظرية المحاكاة لأرسطو)؛

وما زالت المجلة تصدر وتعرض خدماتها لفترة امتدت إلى أربع سنوات متتالية (من عام 1936م إلى عام 1939م) وكذلك كانت مؤسسة الدائرة الحميدية تسعى إلى طباعة ونشر المخطوطات إلى أن توقفت مسيرتها فجأة بسبب أوضاعها السيئة وانقسمت هذه المجموعة العلمية إلى وحدات منفصلة وهي لم تسلم من الفرق بين نتائج المجهودات الفردية والجماعية ولكن المؤسسة باتت قائمة رغم صروف الدهر المتمثلة بشكل كبير في هجرة الشيخ أمين أحسن الإصلاحي إلى دولة باكستان. كان رفيقه الشيخ أختار أحسن الإصلاحي ممتازاً عن أقرانه وزملائه بإلمامه باللغة العربية ومعرفته للعلوم القرآنية ويشبه أستاذه العلامة الفراهي في التحلي بالتقوى والورع والطهارة، لكن لم يكن التأليف من ميادين عمله إذ كان ينصب الاهتمام على إعداد الرجال بشكل أكبر. وعلى كل، حاول الشيخ أختار أحسن أن تكون المؤسسة قائمة وتواصل أعمالها الخاصة بنشر كتب العلامة وترجماته الأردية. فطبعت الكتب التالية أثناء توليه إدارة المؤسسة:

1- أربعة عشر جزءاً من تفسير "نظام القرآن"؛

2- الترجمة الأردية لكتاب "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" بعنوان "ذبيح كون؟"؛

3- أسباق النحو- الجزء الأول والجزء الثاني - (كتاب دراسي في النحو العربي باللغة الأردية)؛

4- تحفة الإعراب (رسالة منظومة في النحو العربي باللغة الأردية)؛

5- أمثال آصف الحكيم (قد ترجمها العلامة من الإنجليزية إلى العربية وهو ما زال طالباً).

طباعة ونشر المخطوطات: كان عدد الكتب المنشورة في إشرافه لم يتعد أصابع اليد الواحدة وهي المذكورة أعلاه ولم يوفق له طباعة ونشر المخطوطات الأصلية، إلا أن أعمال الترتيب والتدوين ما زالت مستمرة. كان عدد الكتب الجاهزة من حيث التدوين والترتيب في حياته يبلغ ثلاثة ولكنها لم تطبع بسبب المعوقات المالية. تولى الشيخ بدر الدين الإصلاحي، مدير مدرسة الإصلاح، مسؤولية الدائرة إثر وفاة شيخه الأستاذ أخته أحسن في عام 1958م وسبق أن عيّنه الشيخ الإصلاحي أميناً لـدخائر المخطوطات في حياته نظراً إلى ذكائه وفطنته وشغفه الشديد بهذا العمل. تظاهر الشيخ بدر الدين الإصلاحي بجرأة كبيرة وأتم طباعة ونشر بعض المخطوطات المهمة التي كانت جاهزة تماماً بصرف النظر عن إمكاناتها المادية وهل إذا كان بمستطاعه استعادة المبالغ التي أنفقها على هذا المشروع. وببد أن موقفه هذا يدل على انتمائه الوطيد إلى الفكر الفراهي، في نفس الوقت يظهر من هذا أنه شعر بإعادة أمانة الأمة إليها بشدة. وبالتالي قامت الدائرة الحميدية بنشر سبع مخطوطات تحت إشرافه، وهي كالآتي:

1- دلائل النظام (كتاب يتناول موضوع النظم والترتيب في القرآن بشكل مفصل)

2 - التكميل في أصول التأويل (كتاب فريد وممتاز في أصول التأويل والتفسير)

3- أساليب القرآن (كتاب غير كامل في أساليب القرآن الكريم)

4- في ملكوت الله (كتاب يتناول موضوع الخلافة والحاكمية في ضوء كتاب الله)

5- القائد إلى عيون العقائد (تم فيه مساءلة المذاهب الفقهية المختلفة عن

العقائد وتم تناول العقائد الأساسية في ضوء القرآن)

6- نولٲ ٲهلوى (ديوان الشعر الفارسي للعلامة الفراهي)

7- ديوان الشعر العربي للعلامة الفراهي

انتهت الدائرة الحميدية من طباعة ونشر هذه الكتب إلى عام 1979م ثم أصيبت بعده بجمود تام في نشاطاتها العلمية ولم تصدر عنها شيء جدير بالذكر لفترة طويلة، على الرغم من أن بعض المخطوطات المهمة كانت تنتظر عنايتها كي تخرج من إطارها الضيق فتطبع وتنشر في حلة قشبية تليق بها، وأخص بالذكر "حجج القرآن" و"حكمة القرآن" و"الرائع في أصول الشرائع" و"تفسير سورة البقرة" و"تعليقاته على القرآن"، وهي غير تلك الشذرات التي لا يزيد محتواها عن بضع صفحات وهي في نفسها درر العلم ولآلئ الحكمة. تحتوي تعليقات الفراهي على القرآن خمسمائة صفحة على الأقل بحجم متوسط وهي ستساعد على معرفة أساليبه وآرائه في فهم القرآن.

فعلى الرغم من أن الدائرة الحميدية قامت بأعمال مهمة ولكن مسيرتها كانت بطيئة وهي لم تستطع مواكبة العصر. لم يكتمل مشروع طباعة ونشر المخطوطات التي خلفها العلامة حتى بعد مضي ستين سنة على وفاته ناهيك عن انطلاقة حركة جديدة في البحث والتحقيق في ضوء ما كتبه العلامة أو تأليف الكتب والمقالات أو العمل على إصدار طبعات لاحقة للكتب المطبوعة فعلاً وذلك وفقاً لأهداف الدائرة. وكان من نتائج هذا التباطؤ أن التحقيقات التي كان قد عرضها العلامة قبل حوالي ستين أو سبعين سنة من الآن قد أخذ بعض المحققين المصريين يتقدمون بها الآن لكن تحقيقاتهم تخلو من الإحالة إلى العلامة لأنها لم تصل إليهم، وربما لبعد مقر الدائرة عن المدن التي تعتبر مراكز علمية وصناعية دوراً في ذلك. كما أن قلة العلاقات الثقافية بين الهند ومصر في العصر الماضي قد حالت دون وصول هذه التحقيقات إلى المحققين والدارسين المصريين.

إحياء الدائرة: حلت سنة 1990م من القرن الماضي على الدائرة الحميدية ببشائر خير إذ أخذت جمعية الطلاب القدامى التابعة لمدرسة الإصلاح ببلدة سرائ مير في مديرية أعظم جراه على عاتقها مسؤولية إحياء الدائرة من جديد لإنجاز أعمالها المتبقية ولتعريف الأوساط العلمية بمنهج العلامة الفراهي في البحث والتحقيق محاولة منها لنشر تعاليم القرآن لأن فلاح الإنسان يكمن في قراءة القرآن والتفكير في آياته على النهج الصحيح. ومن ثم تقرر في بداية عام 1990م عقد مؤتمر في شهر نوفمبر من نفس العام حول حياة وأفكار العلامة الفراهي ولكن لم تتم ترجمة هذا المشروع إلى الواقع بسبب الأوضاع السائدة في البلد آنذاك. ولكن الخطوة الجريئة التي تبناها جمعية الطلاب القدامى أثارت في نفوس العاملين في الدائرة شعورًا بالمسؤولية وبالتالي فشمروا عن سواعدهم بالرغم من المعوقات المادية وبادروا بنشر تفسير "نظام القرآن" للعلامة مجتمعة وإصدار طبعة جديدة لـ"التكميل في أصول التأويل"، كما أصدرت مجموعة مشتملة على "دلائل النظام" و"أساليب القرآن" و"التكميل في أصول التأويل" بعنوان "رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن". كان قد أنجز العلامة ترجمة أربعين سورة الأخيرة من القرآن والتي كانت مطبوعة فصدرت منها طبعة جديدة. لم يتوان أعضاء الدائرة الحميدية بعد انعقاد المؤتمر عن واجهم بل ظلت مجهوداتهم مستمرة في نشر وترويج تعاليم القرآن وبالتالي فلم ينقطع إصدار الكتب والمؤلفات منذ عام 1990م.

1- في عام 1993م، قام البروفيسور عبيد الله الفراهي بإصدار أربع كتيبات على أساس ما اختاره من كتابات العلامة الفراهي، وهي كالاتي: 1- رسالة في إصلاح الناس، 2- رسالة التوحيد، 3- رسالة الآخرة، 4- رسالة النبوة.

2- حكمت قرآن (الترجمة الأردية لكتاب "حكمة القرآن" للعلامة التي قام بها السيد خالد مسعود، أحد تلامذة الشيخ أمين أحسن الإصلاح).

العدد الخاص ————— مجلة الهند

3- الرأي الصحيح في من هو الذبيح (بالعربية) (كان هذا الكتاب قد نشر في حياة العلامة ولكنه أصبح فيما بعد من الكتب النادرة فتم الاعتناء بنشره من جديد في عام 1994م).

4- ذبيح كون بي (إصدار طبعة جديدة لترجمة أردية لكتاب العلامة المذكور أعلاه)

5- مكاتيب فراهي (مجموعة ما كتبه العلامة الفراهي من الرسائل)

6- نظم قرآن- ايك تعارف (فيه جمع البروفيسور عبيد الله الفراهي ما كتبه عدد من العلماء حول نظم القرآن)

7- علامه حميد الدين فراهي- حيات وأفكار (مجموعة مقالات قدّمت في المؤتمر عن حياة وأفكار العلامة حميد الدين الفراهي)

8- تفسير سورة البقرة (بالعربية) (تفسير 62 آية من سورة البقرة)

9- ذكر فراهي (كان قد وكل إلى الدكتور شرف الدين الإصلاحي في سبعينيات القرن الماضي مشروع بحثي حول حياة وأفكار العلامة الفراهي من قبل مؤسسة البحوث الإسلامية بإسلام اباد (باكستان)، فبذل الإصلاحي أقصى مجهوداته في إعداد هذا الكتاب ولكن لم ينته من إعداد المجلد الخاص بالفكر الفراهي بسبب بعض المعوّقات).

10- مفردات القرآن (بالعربية) (يحمل هذا الكتاب أهمية كبيرة من حيث الموضوع وقد جعله الدكتور محمد أجمل الإصلاحي موضوعًا لرسالته في الدكتوراه والذي نشر من قبل الدائرة الحميدية في شهر مارس عام 2004م).

طباعة ونشر كتب العلامة الفراهي في العالم العربي: قام الشيخ عبد الحسيب الإصلاحي أحد المتخرجين من مدرسة الإصلاح وأحد تلامذة الشيخ أختار أحسن الإصلاحي، بإصدار كتاب "إمعان في أقسام القرآن" للفراهي من دولة الكويت وكان يعتزم أن يعمل على إصدار الكتب الأخرى ولكن لم تسنح له الفرص.

وقد صدرت حديثًا ثلاثة كتب مهمة للعلامة في العالم العربي بفضل مساعي الدكتور محمد أجمل الإصلاحي، أحد أعضاء الدائرة الناشطين، وهي كالآتي: صدر "الرأي الصحيح في من هو الذبيح" و"إمعان في أقسام القرآن" من دار القلم بدمشق، واهتمت دار الغرب ببيروت (التي تعرف بنشر الكتب العلمية) بطباعة ونشر كتاب "مفردات القرآن" الذي جعله الدكتور محمد أجمل الإصلاحي موضوعًا لرسالته في الدكتوراه.

وسبق أن انطلق العمل على مخطوطات العلامة قبل بضع سنين تحت إشراف مدير الدائرة البروفيسور عبيد الله الفراهي ويدعمه في ذلك الدكتور أياز أحمد الإصلاحي (أستاذ مساعد في جامعة لконаؤ). وقد صدرت الحلقة الأولى من نشر المخطوطات في صورة "تفسير سورة البقرة" وقد انتهى من ترجمته الأردنية البروفيسور عبيد الله الفراهي وهو الآن يعمل على تجهيزه للنشر. وأما الكتابان "حكمة القرآن" و"حجج القرآن" فهما جاهزان للنشر. والعمل جارٍ على تعليقات العلامة على القرآن الكريم، ويرجى أن يكتمل ويُطبع عن قريب بإذن الله تعالى. وخدمات الشيخ أشفاق أحمد الإصلاحي جديرة بالتقدير في مجال طباعة المخطوطات ونشرها. ندعو الله أن يكتمل هذا المشروع ويتم نشرها في أقرب وقت ممكن.